السبيل إلى خير أمة أخرجت للناس

الدكتور
سلام بن سامي بن محمد صالح الجبوري

مكتبة الكتاب العربي

الطبعة الأولى
1447هـ - 2025م

السبيل إلى
خير أمة أخرجت للناس

الدكتور

سلام بن سامي بن محمد صالح الجبوري

الطبعة الأولى

1447 هـ - 2025 م

ArabBook.Com

مكتبة الكتاب العربي

السَّبِيلُ إِلَى
خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

الجبوري، سلام سامي
السبيل إلى: خيرُ أمة أُخرجت للناس / ط 1 - 2025م
نسخة إليكترونية
الطبعة الأولى
2025م
ردمك - ISBN



The Path to the Best Nation Raised for Mankind
Author: Dr. Salam Al-Jubouri
ISBN:978-1-964984-45-2
Book Format: E-book
Publisher: ArabBook.Com
Publication Date: Jun 2025

وسائل التواصل مع المكتبة:
البريد الالكتروني: info@arabbook.com
موقع المكتبة: https://www.arabbook.com



1447هـ - 2025م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

آل عمران ﴿١١٠﴾

الفهرس

السبيل إلى
خير أمة أخرجت للناس

الإصدار الأول

1447 هـ – 2025 م

بَرَاءَةٌ

الحمد لله، فقد جَهدتُ نفسي أنْ اعتمد في كتابي هذا على ما ثَبتَ في الكتابِ والسُّنَّة، وأقوالِ الصحابةِ الكِرام، مِمّا صَحَّحَهُ، أو حَسَّنَهُ، أو تَلَقّاهُ بالقبولِ، أهلُ العِلمِ مِن سَلَفِ هذهِ الأمَّة، من التابعين، وتابعيهم، ومَنْ جَاءَ مِنْ بَعدِهم وَتَبِعُهم وكانَ على مَنهج الأولِيّن في فَهمِهم لِكتابِ الله تَعالى وسنة نبيه ﷺ، وكان على عقيدتهم وتوحيدهم لله تعالى في أسمائه وصفاته، وإثباته له تعالى كما أخبرَ في كتابهِ العزيز، وأخبرَ بها رسولُهُ الأمين ﷺ مِن غيرِ تأويلٍ أو تعطيلٍ أو تكييفٍ أو تشبيهٍ، كما فَهِمَها الصحابةُ الكرام، ومَن تَبِعَهُم بإِحسانٍ في القرون الخيرية الثلاثة الأولى.

وبذلك فقد اعرضت عن الأحاديث الضعيفة والواهية، ناهيك عن الأحاديث الموضوعة (وإنْ كنت لا أُحبِّذ انْ اسمّيَ الكلامَ الموضوعَ والمختلقَ على رسول الله ﷺ حديثًا أصلًا)، وعن الاقوال غير المسندة والإسرائيليات.

وكذلك تَحَرَّيْتُ أنْ أبنِيَ استنباطي واستنتاجي في استخلاصِ ما أُثْبِتُهُ في هذا الكتابِ على الفَهم الصحيح لنصوصِ القرآنِ الكريم، كما بَيَّنهُ أَئِمَّةُ التَّفسير، على سبيلِ المِثالِ لا الحَصْر: كالطَّبَري والبَغَوي والقُرطبي وابن كثير والآلوسي والسَّعدي وغَيرِهم.

وحاشا للهِ أنْ أدَّعي بقولي هذا الكمالَ والتَمامَ، ولكنْ من أجلِ إنْ وَجدَ القارئُ نصًا نَقلْتهُ، أو فَهْمًا اسْتَندتُ إليه، ثُم تَبين لهُ –أعني القارئ– أنَّ ذلك النصُّ كانَ ضعيفًا، سواء كانَ حَديثًا ضَعيفًا، أو أثَرًا، أو فَهمًا ضعيفًا، أو مَرجوحًا لم يَثبت، واسْتشهدتُ به هنا، فهو مردودٌ، وأرجعُ عنه قطعًا، واتَبَرأ مِنه وأعتَذر مِنه.

ولهذا أعلنُ بِصَراحةٍ وَوضوحٍ: أنَّ مَا كَانَ مِنْ صَوابٍ في هذا الكِتابِ، فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ مِنْ خَطَأٍ، فَمِنّي وَمِنَ الشَّيْطانِ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ بَريء مِنْهُ. ولمْ يَكُن قَصدي مُخالفةً، ولا الخروجَ عمّا أَجْمعَ عليهِ العُلماءُ العدولُ مِن جُمهورِ الأمَّةِ مِن السَّلفِ وَالخَلفِ.

وهذا هو الذي أنا أَدينُ بِهِ وأعَتقِدُهُ، كما جَاء على عَقيدةِ وفَهمِ الصَّحابةِ الكِرام، والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، مِن الأئمة الأعلام، على سبيلِ المِثالِ لا الحَصْر: كأبي حَنيفةَ ومالكٍ وأحمدَ والشافعيّ، وأهلِ الحديثِ:

كسفيان الثوري، وأبي زُرْعة، وأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، والبخاري ومسلم، وأصحابِ السُّنَن، ومَن جاء مِن بَعدهم كشيخِ الإسلام ابن تيمية وابن القيِّم، وأئمةِ التَّفسير: كالطَّبَري، والبَغوي والقُرطبي وابن كثير، ومِن العَصر الحديث: كالشيخ الألباني، وعبدالعزيز بن باز، ومُحمد بن صالح العُثيمين، وصالح الفوزان، وغيرهم مِمن كانوا على المحجة البيضاء، وكانوا على الهدي المستقيم، رضي الله عنهم وَرحِمهم أجمعين.

وكما قالَ أميرُ المؤمنين عُمرُ بن الخَطَّابِ رضيَ الله عنهُ: (رَحِمَ اللهُ امرأً أهْدى إليَّ عُيُوبي)، وقالَ أيضًا: (إنَّ أحَبَّ النَّاس إليَّ مَنْ أهْدى إليَّ عُيُوبي).

من أجل ذلك، فأنا أُرحبُ بكلِ تَصحيحٍ وتَصويبٍ واسْتدراكٍ، مِن كلِّ مُسلم، وخُصوصًا مِن أهلِ العِلمِ وطَلَبتهِ، شَريطَة أنْ يكونَ ذلكَ التَّصحيح والاستدراكُ قائمٌ على الأدلةِ الصَّحيحةِ الثَّابِتة. ولهذا، أرجو أنْ لا يُظنَّ بي إنْ أخطأتُ، أني أقصدُ المخالفةَ والابتداعَ وتبَنّي ونَشر الأفكار السَّقيمةِ والمرجوحةِ في دينِ اللهِ تَعالى.

واللهُ مِن وَراءِ القَصْدِ.

سلام بن سامي بن محمد صالح الجبوري

غرة محرم الحرام 1447 هـ

26 حزيران - يونيو 2025

الكتاب في سطور

السبيل إلى خير أمة أخرجت للناس

هذا الكتاب:

• يستعرض للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها (مزايا أمتهم الإسلامية) التي ينتمون إليها، كونها **(الأمة الوسط)**، و**(خير أمة أخرجت للناس)**، و**(الأمة الحجة)** و**(الشاهدة على الأمم)**، و**(الأمة المحفوظة من الاستئصال والزوال)**، و**(الأمة التي يَرعَبُ منها أعدائها)**، و**(الأمة التي يُجَدّدُ لها أمر دينها كل قرن)**، وغيرها من المزايا الأخرى، وكما وصفها تعالى في كتابه الكريم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [1].

ووصفها رسوله ﷺ فقال: ﴿أَنْتُمْ مُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةٍ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ.﴾[2]

---

(1) البقرة: الآية: ﴿88﴾.

آثرنا اعتماد الأرقام العربية الأصلية (0 1 2 3 4 5 6 7 8 9)، وهي فعلاً الأرقام التي وضعها العلماء العرب، وما زال الغرب إلى اليوم يُسميها Arabic Numbers، أي الأرقام العربية! أما هذه الأرقام المستخدمة حاليًا (٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩) في معظم البلاد العربية، عدا بعض دول المغرب العربي، فهي الأرقام الهندية الشرقية. ومن المثير للتساؤل أن الغرب تبنّى الأرقام العربية في حساباته وكتاباته، بينما هجَرها كثير من العرب، رغم بساطتها وجمال تصميمها، فأرجو من العرب وخصوصاً الكتَّاب والأكاديميون، وكذلك في الاعلام والصحافة وغيرها، ان يعيدوا استعمالها ونشرها. انظر: Georges Ifrah, The Universal History of Numbers, 199.

(2) سيأتي الحديث بتمامه وتخريجه لاحقًا.

• يُذكِّر المسلمين بأنَّ أمَّتهم الإسلامية خيرَ أمم الأرضِ قاطبةً، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

• وأنَّ أتباعها المسلمون يحملون القرآن الكريم، أفضل الكتب السماوية، وأعجزها وأعظمها، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾﴾[2].

• وأنَّهم يحملون الشريعة الإسلامية، خير الشرائع والمناهج، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿50﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿18﴾﴾[4].

• وأنَّهم يحملون سُنَّةَ وهَدْيَ خير الأنبياء والمرسلين، رسول الله محمد ﷺ الذي وصفه تعالى بأعظم وصف فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿4﴾﴾[5].

• ويُذكِّر هذا الكتابُ المسلمينَ أيضًا بتبعة هذه المزايا والفضائل التي منحها تعالى إيَّاهم، وهي وجوبُ حملِ وتبليغِ الرِّسالةِ إلى أممِ الأرضِ جميعًا، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا

(1) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

(2) الإسراء، الآية: ﴿88﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿50﴾.

(4) الجاثية، الآية: ﴿18﴾.

(5) القلم، الآية: ﴿4﴾.

وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿13﴾[1].

• ويُذكِّر المسلمينَ بوجوبِ إقامةِ بناءِ أمَّتِهم الإسلاميةِ على الأركانِ التي أمَرَهُم تعالى بها، وأخبرَهُم عنها في القرآن الكريم.

• هذا الكتابُ: يُحلِّلُ واقعَ المسلمينَ، من أجل التعرُّف على أسباب انتكاسة المسلمين وتراجعهم عن قيادة العالم. ويرى أنَّ عدم إدراك المسلمين لطبيعة وحقيقة هويتهم الإسلامية، ودورهم وارتباطهم بالإسلام، أدى إلى نتائج وخيمة، كانت تلك أسبابًا في انتكاستهم. ومِن ثَمَّ يجمع تلك الأسباب ويحصرها في سببٍ رئيسيٍ واحدٍ، يعتبرهُ أصلَ الأسبابِ كلها، ومحورها ورَحاها التي يدور حولها، ألا وهو (ضَعفَ مفهومِ الأمةِ الإسلامية بالوصفِ القرآني عن واقعِ المسلمينِ في الأرض). وبالتالي يُسلط الكتاب الضوء على ذلك السبب، ويبين طريق معالجته، وذلك بإعادة بناءها على الأركان، كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

• هذا الكتابُ: يشرحُ المقصودَ بـ (**الأمة الإسلامية**) بالوصفِ القرآني، أيْ: تلك (**الأمةُ الوسطُ**)، و(**خيرُ أمة أُخرجتْ للناسِ**)، و(**الأمَّةُ الحُجَّةُ**) و (**الشَّاهِدةُ على الأُمَمِ**)، و(**الأمةُ التي تأمرُ بالمعروفِ وتَنهىٰ عنِ المُنكر**)، وغيرها من الأوصاف التي تحدث عنها تعالى في كتابه الكريم، وكما ذكرنا آنفًا.

أي بمعنى: الأمة الإسلامية التي تَحققَ فيها وصف الله تعالى لها، واستحقت المزايا التي منحها لها، وحققت – أي الأمة الإسلامية– ما أمرها تعالى بها من أركان لإقامة بناءها، قال تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِى ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿78﴾﴾[2].

(1) الشورى، الآية: ﴿13﴾.
(2) الحج، الآية: ﴿78﴾.

•هذا الكتابُ: يبينُ أنَّ (**أركان بناء وإقامة الأمة الإسلامية**) قد ذُكِرت في كتاب الله تعالى، فهي إمَّا وردت بصيغة أوامِرَ، قد أمَرَ اللهُ بها الأمة عمومًا. أو وردت بصيغةِ نواهٍ، قد نَهى تعالى عنها المسلمين. أو جاءت على صيغةِ أَخبارٍ، يترتب عليها جزاء، وهكذا غيرُها من الصّيَغ.

وعلى اختلاف تلك الصّيَغ، يُخاطب القرآن الكريم فيها، المسلمين جميعًا، عن أركان بناء أمتهم الإسلامية. فعلى سبيل المثال لذكر بعض تلك الأركان:

ركن (**الأمة الواحدة**)

ودليله، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ** ﴿92﴾﴾[1].

ركن (**الاعتصام بحبل الله**)، وركن (**عدم التفرق**)

ودليلهما، قوله تعالى: ﴿**وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ**﴾[2]، وهكذا مع بقية الأركان.

• هذا الكتابُ: يشير إلى أنَّ الحلَّ لمشكلة الانتكاسة التي تصيب المسلمين اليوم، يكمن في اعادة بناء الأمة الإسلامية على تلك الأركان.

• ولا يتحقق ذلك البناء، إلَّا عندما يَفهم المسلمون طبيعة دينهم، وعلاقتهم كمسلمين بهذا الدين، ويفهموا حقيقة ارتباطهم المصيري به.

• على أنَّ هذا الكتابَ، وفي مسعاهُ لإعادةِ بناءِ الأمة الإسلامية على تلك الأركان، لا يسلكُ مَسلكَ الخَوارجِ، ومَنْ وَافَقهم في تَكْفيرِ المسلمينَ، هكذا جُزافًا، وبدونِ ضَوابِط.

• فهذا الكتابُ: لا يدعو إلى الخروجِ على الحُكَّامِ وَوِلاةِ الأمْرِ، ناهيكَ عن إعلانِ الثوراتِ، والخروجِ المسَلَّحِ عَليهم.

---

(1) الأنبياء، الآية: ﴿92﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

• هذا الكتابُ: لا يتحدث عن مسألةِ إقامةِ الخلافة، كما تسعى بعضُ الأحزابِ والجماعاتِ الإسلامية، التي أخطأتِ الطريقَ، واتَّبَعتْ غيرَ سَبيلِ المؤمِنينَ.

• هذا الكتابُ: يبين أنَّ تحقيق (**أركان الأمة الإسلامية**) مسئوليةٌ مشتركةٌ، تبدأ من الفرد المسلم، والأسرة، والمجتمع، وأهلُ العلمِ من أهلِ الحلِّ والعقد، وتنتهي بولاةِ الأمر، حيث تقعُ عليهم المسئولية العظمى، لِمَا لهُم مِنْ سُلطان.

الباب الأول

توطئة

سبب انتكاسة الامة الإسلامية

الهوية الإسلامية

أركان بناء الأمة الإسلامية المنشودة

خطة الكتاب

الباب الأول

توطئة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبب انتكاسة الامة الإسلامية

إِنَّ الحَمدَ لِلَّهِ، نَستَعِينُهُ وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَنْ يَهدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُسلِمُونَ ﴿102﴾﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيكُم رَقِيبًا﴿6﴾﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَولًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصلِح لَكُم أَعمَالَكُم وَيَغفِر لَكُم ذُنُوبَكُم وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَد فَازَ فَوزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾[3].

أما بعد[4] فإِنَّ أصْدقَ الحديثِ كتابُ الله، وأحْسنَ الهَدْي هَديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأُمورِ مُحدثاتُها، وَكُلَّ مُحدثةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالةٍ، وَكُلَّ ضَلالةٍ في النَّارِ.

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿102﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿6﴾.

(3) الاحزاب، الآيتان: ﴿70 – 71﴾.

(4) وردت خطبة الحاجة من طرق عديدة، منها: عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿عَلَّمَنَا خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ، فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَقْرَأُ ثَلَاثَ آيَاتٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 71). ثُمَّ تَذْكُرُ حَاجَتَكَ﴾. أخرجه أحمد في مسنده برقم: (3720)، وغيره. وأخرجه مسلم أيضًا في صحيحه مختصرًا في (كتاب الجمعة)، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (867). وقال شعيب الأرناؤوط في تخريجه للحديث في المسند: [حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، أبو عبيدة –وهو ابن عبد الله بن مسعود– لم يسمع من أبيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. شعبة: هو ابن الحجاج،

أما بعد:

لو سألتَ اليومَ أيَّ مُسلمٍ، عن (**سبب انتكاسة الأمة الإسلامية**)، وتراجعها عن قيادة البشرية، وعن مظاهر تلك الانتكاسة، المتمثلة بضعف المسلمين، وتفككهم، وتخلفهم عن ركب الحضارة، ناهيك عن أسباب تسلط أعدائها على زمام الأمور في بلاد المسلمين، وتحكُّمهم بمُقدَّراتها وثرواتها وبقرارها، حتى لا تكاد تجد بلد إسلاميًّا، أو عربيًّا على وجه الخصوص، يملك قراره وإرادته، ويستطيع التصرف بثرواته بحرية واستقلالية!

لو سألت عن ذلك كله وبعبارة مختصرة:

ما السبب في انتكاسة الأمة الإسلامية وتراجعها عن قيادة البشرية؟

لكان الجواب يأتيك مِن مُعظمهم: إننا نحن المسلمين بعيدون عن ديننا.

أو كان الجواب، بعباراتٍ أخرى، قريبة من هذا المعنى، وكان يعنون في جميع أجوبتهم:

أنَّ المسلمينَ لم يلتزموا بدينهم، ولم يمارسوا تعاليمه، ولم يجعلوه حاضرًا في واقع حياتهم.

وكان مقصودهم بـ (المسلمين)، أي جميعهم، حُكَّامًا ومحكومين، ولاةَ أمْرٍ، ورعيةً، وعوامَّهم، لا يستثنون منهم أحدًا، فالكل عندهم مذنبون ومقصرون، والمسئولية بينهم مشتركة، وبالتالي، يتحمل الجميع المسئولية كاملة عن انتكاسة الأمة الإسلامية.

وقد تجد من بين هذه الأجوبة، مَنْ يُضيِّق أصحابها نطاق المقصود بـ (المسلمين) المسئولين عن انتكاسة الأمة، فيحصره بـ (الحكام وولاة الأمر). وبذلك، فهؤلاء يُلقون اللوم على الحكام وولاة الأمر على وجه الخصوص، ويحمِّلونهم المسئولية كاملةً عما يصيب الأمة الإسلامية من تراجع، وانتكاس، وويلات، وهيمنة الأعداء، ونهبهم لثرواتها.

أو تجد من يلقي اللوم على العلماء والمشايخ والوعاظ فيحملونهم المسئولية عما يُصيب الأمة الإسلامية بسبب تقصيرهم في الدعوة إلى الله وتعليم المسلمين دينهم. أو بسبب ركونهم — أي العلماء – إلى الحكام وتهادنهم، وتخاذلهم عن نصرة دين الله والدفاع عن المظلومين وعدم قول الحق لولاة الأمر المستبدين والطغاة وعدم نصحهم وبيان أخطائهم. أو بسبب الخلاف فيما بينهم — أي العلماء – في أمور الدين والمسائل العقدية والفقهية وغيرها مما ينعكس سلبًا على عوام المسلمين باتباعهم لتلك الأمور الخلافية ومن ثم تفرقهم

وأبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السبيعي.]، اهـ. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: الإمام أحمد بن حنبل (164 - 241هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2001م.

وتحزبهم إلى فرق وجماعات متناحرة ومتدابرة تذهب بريح الأمة الإسلامية وسلطانها ومكانتها بين أمم الأرض. وهكذا غيرها من الأسباب الأخرى.

وفي الحقيقة، فإنَّ موضوعنا في هذا الكتاب، ليس المقصود منه الدخول في نقاش وجدال من أجل تحديد من يتحمّل المسئولية عن انتكاسة الأمة، ولا لتحديد حجم تلك المسئولية.

فأيًّا كان الجواب، فنحن نعتقد أنَّ المسئولية مشتركة، ولا شك أنَّ الأمة جميعًا مسئولة، وأنَّ الأمة كلها مُقصِّرة! حكاما ومحكومين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿44﴾﴾[1].

ففي الآية، يُخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّ القرآن الكريم شرفٌ وعزةٌ، ومنهجُ حياة لسعادتهم في الدنيا والآخرة. وأنَّه ﷺ مسئولٌ عن العمل بهذا الكتاب، وتبليغه للناس. ويُخبر تعالى المسلمين جميعًا، أنَّهم هم أيضًا مسئولون عن هذا الكتاب، وعن العملِ به في حياتهم وشؤونهم.

فهي إشارة ودليل منه تعالى إلى أنَّ المسئولية مشتركةٌ بين الأمة، حكامًا ومحكومين.

فالحُكَّام بصفتهم ولاةُ أمرٍ: متمثلة بالنبي ﷺ، ومِنْ بعده من حُكَّام المسلمين. وبالرعية: متمثلة بالمسلمين عمومًا، فهم أتباعه ﷺ وقومه من قريش، ومن المسلمين إلى يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ﴾.

وقد جاء تعيين تلك المسئولية المشتركة، واضحًا لا لَبْس فيه، ومفصلًا في السنة النبوية، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.»، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.»[2].

---

(1) الزخرف، الآية: ﴿44﴾. ذكر السعدي في تفسيره للآية بقوله:

[﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفرًا منكم بهذه النعمة؟] اهـ. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، ت 1376هـ، ص 766، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420هـ- 2000م.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب: العبد راعٍ في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه، برقم 2278، وكتاب العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق، وقوله عبدي وأمتي، برقم 2416، وكتاب الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن، برقم 853). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم برقم 1829). صحيح البخاري، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا،

ونحن متفقون على أنَّ ابتعاد المسلمين عن دينِ الله، وضعف التزامهم بكتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ، لهو السبب فيما تعانيهِ الأمة الإسلامية اليوم من تراجع دورها في القيادة في الأرض، وفيما يصيبها من انتكاسة وويلات وكوارث[1].

وحينئذ يأتي دور السؤال الآتي:

ما هو الحل؟

فمن البديهي والطبيعي، أنَّ الجوابَ، وببساطة وإيجاز، سيكون:

العودة إلى دين الله!

وهذا الجواب تكاد تسمعه من جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن المؤكد سيأتي دور السؤال الآتي:

كيف تكون العودة إلى دين الله؟

وهذا السؤال، ستجد له عشرات الأجوبة والاقتراحات والحلول.

فمن الأمثلة على تلك الأجوبة:

تكون العودة إلى دين الله وذلك بـ :

- **إقامة التوحيد، ومحاربة جميع أنواع الشرك والبدع، وهدم القبور والأضرحة التي تُعبد من دون الله**
- **تربية المسلمين على الإسلام ومبادئه، وغرزه في قلوبهم وضمائرهم، ومن نعومة أظفارهم، وخصوصًا النشأ الجديد**
- **تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة حدودها**
- **محاربة العري والتبرج والاختلاط، وزرع الحياء في قلوب النساء والشباب**
- **منع الخمور، والمخدرات، والزنا، والفواحش، والقمار، وكل وسائل اللهو الحرام**
- **منع الربا، وإنشاء البنوك الإسلامية، وتطبيق الاقتصاد الإسلامي**

الناشر: دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، الطبعة: الخامسة، 1414هـ- 1993م، 8 مجلدات (الأخير فهارس). صحيح مسلم، المؤلف أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه، توزيع: دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى: 1412هـ- 1991م، عدد الأجزاء: 5 (الأخير فهارس).

(1) سنحاول في الصفحات القادمة، البحث والتدقيق في هذا السبب العام الذي أدى إلى انتكاسة الأمة الإسلامية، واستخلاص السبب الرئيسي منه، من أجل وضع اليد على الحل الدقيق، والجذري، والشامل لتلك الانتكاسة.

• تغيير الحكام الظلمة والمستبدين والذين لا يحكمون بالشريعة الإسلامية، وتغيير أنظمة الحكم في بلاد المسلمين

• إزالة الحدود التي اصطنعها أعداء المسلمين، وإعادة توحيد البلاد الإسلامية

• إحياء الجهاد في قلوب المسلمين، وقتال أعداء المسلمين، والدعوة إلى الله

وغيرها من الأجوبة والاقتراحات والحلول، والتي قد تتداخل مع بعضها البعض.

وإذا نظرت إلى تلك الحلول والأجوبة المقترحة ستلاحظ أَنَّ قسمًا منها قد يعالج جانبًا من جوانب الخلل والتقصير في ابتعاد المسلمين عن دينهم، والذي يُعد سببًا مهمًّا – لا شك فيه – من أسباب انتكاسة الأمة الإسلامية.

فعلى سبيل المثال، ربما تعالج تلك الحلول ضعف التزام المسلمين بدينهم، وضعف تطبيقهم له في واقع حياتهم.

وربما تعالج مشكلة الجهل عند المسلمين، وعدم إدراكهم لكثير من أمور دينهم وعقيدتهم، وهذا لا شك فيه، واحدًا من الأسباب المهمة في هذه الانتكاسة والواقع المأساوي الذي يعيشه المسلمون اليوم. وقس على ذلك غيرها من الحلول المقترحة لمعالجة انتكاسة الأمة الإسلامية.

ومن باب الإنصاف وعدم الانتقاص من جدوى وفعالية تلك الأجوبة، فإنَّ بعض تلك الحلول والمقترحات، قد تبني وتُنتج مسلمين صالحين، وقد تبني مجتمعًا إسلاميًّا تقيًّا نقيًّا، ولكنَّها – بالتأكيد – لا يمكنها بناءُ مجتمعٍ قويٍ، ناهيك عن بناءِ أمةٍ قويةٍ ومستقلة تملك إرادتها وقرارها، وبالتالي تستطيع مزاحمة الأمم الأخرى.

وفي الحقيقة، أنَّ القاسم المشترك بين كل الأجوبة والاقتراحات والحلول، هو عدم استطاعة تلك الأجوبة المقترحة معالجة كل جوانب الخلل والتقصير المذكورة آنفا.

والسبب في ذلك، أنَّ جميع تلك الأجوبة والحلول، إنما هي عامة ومتشعبة، ولا تؤدي إلى حل جذري لمشكلة انتكاسة الأمة الإسلامية، وفيما يصيبها من ويلات وكوارث وتبعية، وتراجع عن قيادة البشرية.

إذن! فما هو السبب الرئيسي والحقيقي في انتكاسة الأمة الإسلامية؟

ولمعرفة الجواب، لا بد أنْ نُحلل بدقة، وفي ضوء الكتاب والسنة، واقع المسلمين اليوم، لنستكشف مواطن الخلل، كي نعرف المشكلة الحقيقية.

ولكي نتجنب الإطالة والتفصيل، سنعمل جاهدين على اختصار ذلك التحليل، ومحاولة تبسيطه قدر المستطاع، من أجل عَرضِهِ سريعًا، للوقوفِ على المشكلة الحقيقية التي نسعى إلى إيجاد الحل لها.

الهوية الإسلامية

إِنَّ المتدبر لطبيعة الإسلام، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، والمتدبر لتاريخ المسلمين وماضيهم، وحاضرهم، وواقعهم اليوم، وكذلك، الباحث والمتأمل في طبيعة أعداء المسلمين، وطريقة عدوانهم، ومدى كرههم، وحقدهم على الإسلام والمسلمين، سوف يخلُصُ إلى حقيقة، لا ريب فيها ولا مراء. تلك الحقيقة، وهي أنَّ معظم ما يعانيه المسلمون اليوم، من ويلاتٍ، ونكباتٍ، وتراجعٍ، وهيمنة الأعداء، إنما هو بسبب **(هويتهم الإسلامية)!**

نعم: هويتهم الإسلامية! أي بسبب علاقتهم بالإسلام، وارتباطهم به.

ولكنْ، هل من المعقول أنْ تكون العلاقة مع الإسلام، هي السبب الرئيسي فيما يعانيه المسلمون اليوم؟ وكيف يكون ارتباطهم بالإسلام هو السبب؟

والجواب: نعم، ولكن ليس كما يعتقد المنهزمون، وذلك بسبب الإسلام، وعقيدته، والشريعة الإسلامية، التي يعتبرونها — أعني: المنهزمين – تشريعات بالية وقديمة، قد عفا عليها الزمن، ولم تعد صالحة وقادرة على مواكبة التطور والتقدم في العصر الحادي والعشرين.

وليس أيضًا، كما يعتقد أولئك المنهزمون، أنه بسبب تعدد الآراء والمذاهب في الإسلام، فقد انقسم المسلمون إلى فرق ومذاهب متعددة. مما أدى ذلك إلى تمزق المسلمين وتفككهم وتناحرهم، وبالتالي تخلفهم وتراجعهم، وحصول هذا الواقع المرير الذي يعيشون فيه.

وبالتالي، فهؤلاء المنهزمون يُلقونَ اللوم كله على الإسلام. ويدَّعون أنَّ الإسلام وهويتنا الإسلامية، هما السبب في تَخَلُّفِنا وتَفَكُّكِنا، وفي كلِّ ما يُصيبنا من نكسات ومصائب وويلات. وأنَّ الإسلام –كما يدَّعون – هو الذي خرّبَ علينا علاقتنا بالأمم الأخرى، وذلك بسبب أفكاره الأصولية، وأنتج الإرهاب في مجتمعاتنا، ثم صدَّره إلى العالم. مما أدى إلى استعداء دول العالم علينا، فغزوا بلادنا، وسرقوا ثرواتنا، وهيمنوا على مقدراتنا.

(الهويةُ الإسلاميةُ هي السبب، ولكن عكس ما يفهمهُ ويدَّعيهِ المنهزمون، ويخلُصوا إليه!)

ونعود ونكرر، إنما قصدنا بقولنا: (**الهوية الإسلامية**)، وعلاقة المسلمين بدينهم، وارتباطهم بالإسلام، هو السبب في الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون اليوم، ولكن على عكس ما يفهمه ويدعيه المنهزمون، ويخلصوا إليه!

فمقصودنا بأنَّ (الهوية الإسلامية)، أي (الإسلام)، هو السبب، أي بسبب عدم معرفة السواد الأعظم من المسلمين اليوم لطبيعة دينهم، وارتباطهم به. وبسبب عدم معرفتهم لقرآنهم، ونبيهم، وتاريخهم الإسلامي المجيد، وأثَّرُ ذلك كله على واقعهم. وقد أدى ذلك إلى نتائج وخيمة، كانت وبالًا على الأمة. وبالتالي صارت تلك النتائج، أسبابًا في تلك الانتكاسة التي أصابت المسلمين.

فمن تلك النتائج الوخيمة التي أصابت المسلمين، ضعف علاقتهم بدينهم، وضعف التزامهم به، وسوء تعاملهم معه. وقد أدى ذلك إلى تهميش الدين في نظام حكمهم وعلاقاتهم بالأمم الأخرى، وتهميش الشريعة الإسلامية وأحكامها في حياتهم وشؤونهم.

والأدهى من ذلك والأنكى والأمَرّ، صِرنا نسمع الدعوات إلى نبذ الدين والشريعة بالكلية، وإلى استبدالها بالأفكار، وبأنظمة الحكم والتشريعات والقوانين الوضعية.

وأصبحنا نرى دساتير الحكم في معظم البلدان الإسلامية تخلو من تحكيم الشريعة، وأنها المصدر الأساسي للقوانين، أو تجعلها — على استحياء – مصدرًا من مصادر التشريع. وبالتالي، فقد استبدلت أحكام الشريعة بالقانون الفرنسي والبريطاني وغيرها من أحكام الأحوال الشخصية الوضعية، وقوانين الجزاء والعقوبات وفض النزاعات بين المتخاصمين، وغيرها من القوانين.

وأصبحنا نرى دساتير الحكم في الكثير من الدول الإسلامية، ناهيك عن العربية منها، تخلو من كون الإسلام الدين الرسمي للدولة.

وأدى ذلك بالنتيجة، إلى ضعف العلاقات والروابط بين المسلمين في مختلف دول المسلمين.

وبالنتيجة، أدى ذلك إلى (**ضعف مفهوم الأمة الإسلامية**)، أو الغياب الكلي لمفهوم (الأمة الواحدة)، الذي أشار إليه القرآن الكريم، وإلى غياب بقية (**أركان خير أمة أخرجت للناس**) من حياة المسلمين وواقعهم.

وصار هذا الانسلاخ عن دينِ الله وعن هوية الأمة الإسلامية، يجري على قدمٍ وساقٍ، سعيًا ولهثًا نحو الإصلاح المزعوم، ومن أجل اللحاق بركَب الغرب، والدول المتقدمة، وبالحضارة والمدنية، التي أعمى بريقها

وبهرجها المهزومين والمخدوعين من أمتنا. وأصبحَ كأنْ لا مخرج للمسلمين، ولا منجى من واقعهم المرير، إلَّا الانسلاخ عن دينهم وهويتهم!

وليس للرد على كل تلك الدعوات وإبطالها، أبلغَ، ولا أصدقَ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[1].

فقد ذكر السعدي في تفسيره للآية بقوله: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يُقادر قدرها، ولا يُعرف وصفها، ويذكركم أيضا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه النعمة؟]، ا. هـ[2].

ففي الآية، يُخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّ القرآن الكريم شرفٌ وعِزٌّ، ومنهجُ حياة لسعادتهم في الدنيا والآخرة. وأنَّه ﷺ مسؤول عن العمل بكتابه تعالى هذا، وتبليغه للناس. ويُخبر تعالى المسلمين جميعًا، أنَّهم هم أيضًا مسئولونَ عن كتابهِ تعالى، وعن إقامته في حياتهم وشؤونهم.

لا يَصلحُ للمسلمينَ غيرَ الإسلامِ، ولا تقومُ لهم قائمةٌ بدونه

فالمسلمون قد اختارهم الله لحمل دينه وتبليغه، فإذا ضعف التزامهم بدينهم، أو تركوا دينهم واستبدلوه بغيره من المناهج والأفكار والقوانين الوضعية، لنْ تقوم له قائمة، ولنْ يفلحوا إذًا أبدًا. وهذا هو الذي فطِن له سلفُ الأمة وفهموه، ونبَّهَ عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: (كنُا أذَلَّ أُمَّةٍ، فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، ومَهْمَا ابْتَغَيْنا العِزَّةَ في غَيرِهِ أذَلَّنا اللهُ.).

وكما قال الإمام مالك أيضًا: (لَنْ يَصْلُحَ آخِرَ هذِهِ الأمَّةَ إِلَّا بِما صَلُحَ بِهِ أوَّلُهُا.).

---

(1) الزخرف، الآية: ﴿44﴾.

(2) تفسير السعدي، ص 766. وذكر ابن كثير في تفسيره الآية أيضًا بقوله: [ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَشَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَلَمْ يَحْكِ سِوَاهُ. وَأَوْرَدَ الْبَغَوِيُّ هَاهُنَا حَدِيثَ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا أَكَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ.﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ شَرَفٌ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أُنْزِلَ بِلُغَتِهِمْ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارُهُمْ وَصَفْوَتُهُمْ مِنَ الْخُلَّصِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَمَنْ شَابَهَهُمْ وَتَابَعَهُمْ.]، ا. هـ. تفسير القرآن العظيم، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774)، 210/7، المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - 1419هـ.

ولأنّه أيضًا، لو أفلح المسلمون في دنياهم وواقعهم، بتركهم لدينهم، وعدم تحكيمه في حياتهم، لكان ذلك فتنة لهم. وحينها سيُقال:

انظروا إلى حالنا الآن، ها نحن بدون الإسلام وشريعته، نتقدم ونتطور ونرتقي، وننظم حياتنا وشؤوننا بالقوانين والنظم الوضعية!

ولقالَ قائلٌ:

هل صدقتمونا حينما كنا نقول لكم: إنَّ الدينَ هو سببُ تأخُّرِنا، وضَعفِنا، وتخلُّفِنا عن الأمم الأخرى!

وأما الأمر الآخر والأهم، وهو السر الحقيقي في عدم فلاحِ المسلمينَ في دنياهم وواقعِهم فيما لو تركوا دينهم، واستبدلوه بمناهج أرضية، أو حتى بمجرد تهميشه في حياتهم، وضَعفِ التزامهم به، فالسِرُّ: أنَّ ذلك سيؤدي إلى ضياع الدين.

إذْ لو أفلحَ المسلمون في دنياهم وواقعهم بتركهم لدينهم، واستبداله بمناهج وضعية، لأدَّى ذلك إلى ضياع الدين، وانتشار الكفر والشرك في الأرض، لأنَّهُ لم يعد هناك من يحمِل دين الله ويُبلِّغُ رسالتهُ إلى البشرية.

وبالإضافة إلى عدم فلاحِ المسلمين هذا، لو استبدلوا دينهم بمناهج وضعية، فإنَّ أعداء المسلمين من الكفار، وبالأخص: اليهود والنصارى، قد وجدوا الفرصة سانحةً لهم للهيمنة على بلاد المسلمين، ومحاربة دينها وعقيدتها، والسيطرة على مقدرات وثروات المسلمين، واستعبادهم، ومصادرة قراراتهم، وسيادتهم.

من أجل ذلك، ينبغي على المسلمين أنْ يفهموا حقيقة علاقتهم بدينهم وارتباطهم به. إنها علاقة وجودٍ أو عدم! وأنها علاقة حياة أو موت! فبدون الإسلام، لا وجود، ولا مكانة، ولا حياة كريمة للمسلمين، بل الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

من أجل ذلك، فليعلم المسلم يقينًا، أنَّ تلك الهيمنة من أعداء الإسلام، وذلك العلو في الأرض واستعبادهم لكثير من الدول الإسلامية، ما كان ليكون لولا ضعف التزام المسلمين بدينهم وبأمتهم، وتراجعهم - والعرب على وجه الخصوص[1] - عن نُصرة دينهم وأمتهم، وبسببِ تفككهم، وتناحُرهم فيما بينهم.

إنها الحقيقةُ المرة التي يعيشها المسلمون في عصرنا الحاضر، وهي ضَعف التزامهم بالإسلام، الدين الخاتم، وعدم اعتصامهم به، وعدم وعيهم، ونسيانهم أنهم أمة واحدة، وأنها خير أمة أخرجت للناس، وأنَّ الله قد اصطفاهم لتبليغ رسالته، وإعلاء كلمته، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. إنَّ غيابَ ذلك الوعي

(1) سيأتي الكلامُ لاحقًا في نهاية الكتابِ، عن اصطفاء العرب، على وجه الخصوص، لحمل الإسلام.

وتلك المهمة والمسئولية من قلوب المسلمين وعقولهم وحياتهم، والتي من أجلها اصطفى أمتهم الإسلامية، كل ذلك أدى إلى ذلك الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون اليوم.

مصيبة المسلمين اليوم: ضعف مفهوم الأمة الإسلامية في قلوب المسلمين

إِنَّ كلَّ من يُمعن النظر في حال المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، ويتأمل واقعهم، سوف تتجلى له الصورة بوضوح، لا غبش فيها، تلك هي صورة ذلك الحال المزري والمأساوي الذي يعيشه المسلمون، وذلك من خلال ما يعانوه من تفرَّق، وتجزُّء، وهيمنة أعدائهم من الشرق والغرب على أمورهم، وتحكُّم أولئك الأعداء في خيرات المسلمين، وثرواتهم، وشؤونهم، وقراراتهم.

ناهيك عن ضعف التزام المسلمين أنفسهم، بكتابهم وبدينهم، وعدم جعله منهجًا في حياتهم يتحاكمون إليه في كل صغيرة وكبيرة، ويرجعون إليه في شؤونهم وخلافاتهم، على الرغم أنَّ الله تعالى قد فصَّل لهم كل ما يحتاجون في أمور حياتهم ودنياهم وآخرتهم. لقد بيَّن لهم تعالى كلَّ شيءٍ في ذلك الكتاب وفصله مما يحتاجونه في أمر دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿89﴾﴾[2].

فالإسلام الذي أتمَّه تعالى للبشرية جمعاء ورضيه لهم دينًا ومنهجًا لهم في حياتهم، وللأمة الإسلامية على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[3].

تَرى ذلك الإسلام اليوم في كثير من بلاد المسلمين، قد أُقْصِيَ من حياتهم وواقعهم، وانحسرَ تأثيره والعمل به في بعض جوانب الحياة، كالأحوال الشخصية والميراث، وتطبيق بعض الحدود في عدد قليل جدًّا من البلاد الإسلامية، وغير ذلك من الممارسات الشرعية المطبقة على استحياءٍ وخجل.

(1) الانعام، الآية: ﴿38﴾. ذكر القرطبي في تفسيره للآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَإِنَّهُ أَثْبَتَ فِيهِ مَا يَقَعُ مِنَ الْحَوَادِثِ. وَقِيلَ: أَيْ فِي الْقُرْآنِ أَيْ مَا تَرَكْنَا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ إِلَّا وَقَدْ دَلَلْنَا عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ، إِمَّا دَلَالَةً مُبَيَّنَةً مَشْرُوحَةً، وَإِمَّا مُجْمَلَةً يُتَلَقَّى بَيَانُهَا مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوْ مِنَ الْإِجْمَاعِ، أَوْ مِنَ الْقِيَاسِ الَّذِي ثَبَتَ بِنَصِ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: 89)، وَقَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: 44)، وَقَالَ: ﴿وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: 7). فَأَجْمَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَآيَةِ (النَّحْلِ) مَا لَمْ يَنُصَّ عَلَيْهِ مِمَّا لَمْ يَذْكُرْهُ، فَصَدَقَ خَبَرُ اللَّهِ بِأَنَّهُ مَا فَرَّطَ فِي الْكِتَابِ من شي إِلَّا ذَكَرَهُ، إِمَّا تَفْصِيلًا وَإِمَّا تَأْصِيلًا، وَقَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: 3).]، اهـ. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (671هـ)، 420/6، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ- 1964م، عدد الأجزاء: 20 جزءًا (في 10 مجلدات).

(2) النحل، الآية: ﴿89﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

وهكذا، فقد انحسرَ تأثير الإسلام ووجوده على تلك المجالات المحدودة والضيقة، وأُودِع المسجدَ على وجه الخصوص، وفي تربية النفس، وعلاقة المسلم بربه وكفى.

وكان من نتائج وتداعيات تحجيم دور الإسلام، وتقييد صلاحياته وتأثيره في حياة المسلمين، أنْ ضَعُف سلطانه وتأثيره في قلوب المسلمين، وفي حياتهم وشؤونهم. وبالتالي، ضَعُفت روابط الدين فيما بين المسلمين على مستوى البلد الواحد.

ثم امتد ذلك الضعف، فصار على مستوى البلدان الإسلامية. فلم تَعُد الروابط الإسلامية تربط البلدان الإسلامية، والمجتمعات الإسلامية فيما بينها، ونعني بتلك الروابط الإسلامية أمثال[1]:

• الأخوة الإسلامية

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

• الموالاة بين المسلمين

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

• النُّصرة فيما بين المسلمين

قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[5].

---

(1) ونقصد بذلك، الروابط الإسلامية، الحقيقية والفاعلة والمؤثرة، وليس مجرد كلامٍ وشعار وعواطفٍ، يتغنى بها المسلمون. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿2﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿3﴾﴾، الصف، الآيتان: ﴿2 ، 3﴾.

فأين الأخوة الإسلامية الحقيقة أمامَ النزعة العصبية والقبلية والقُطرية، في تلك الحدود الجغرافية المصطنعة بين بلاد المسلمين!؟ وأين الأخوة، والموالاة، ونصرة المسلمين المستضعفين، في فلسطين، وكشمير، ومسلمي الروهينغا في الصين وميانمار!؟ وأين التعاون على البر والتقوى في إغاثة الملهوف والجائع في البلدان الإسلامية الفقيرة، في الصومال وإرتريا، وبنغلادش، والباكستان، وغيرها من البلدان الإسلامية المنكوبة على الدوام!؟ وعلى هذا قِسْ، بقيةَ روابط المسلمين وواجباتهم فيما بينهم.

(2) الحجرات، الآية: ﴿10﴾.

(3) التوبة، الآية: ﴿71﴾.

(4) الانفال، الآية: ﴿7﴾.

(5) النساء، الآية: ﴿75﴾.

• الأمة الواحدة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1].

وغيرها من الروابط الإسلامية التي ضَعُفت إلى درجة كبيرة، وبعضها قد اضمحل واندثر، وبالتالي تم استبدالها بروابط العصبية الجاهلية، كرابطة الوطنية، والأرض والدم، وغيرها.

وكان من نتائج وتداعيات ذلك كله، أنْ أُصيبَ المسلمونَ بمقتلٍ، وظهرَ ما نراهُ أخطر، وأعظم مصيبةٍ حلَّت بالمسلمين، ألا وهي:

غياب مفهوم الأمة الإسلامية، وعدم وجوده في واقع المسلمين وحياتهم!

أو على أقل تقدير، لنقل:

ضَعفُ مفهوم الأمة الإسلامية في قلوب المسلمين، وعدم اهتمامهم واكتراثهم بها.

ما المقصود بمفهوم الأمة الإسلامية؟

وقبل تتمة الحديث عن السبب الحقيقي في انتكاسة الأمة الإسلامية، نودُّ أنْ نبين ما مقصودنا هنا بمفهوم الأمة الإسلامية، كي لا يختلط الأمر ويُساء الفهم، فنقول:

لسنا نقصد هنا بمفهوم الأمة الإسلامية، مجرد وجود أُناسٍ مسلمينٍ، مهما كان عددهم، صغيرًا أو كبيرًا، وأيًّا كانت مساحة الأرض والرقعة الجغرافية التي يتواجدون فيها.

ولسنا نقصد أيضًا بذلك المفهوم، مجرد وجود هؤلاء الناس، الذي يعتنقون الإسلام ومبادئه، ويؤمنون بالقرآن الكريم، وبمحمد ﷺ رسولًا من عند الله، وقد يُقيم بعضهم الإسلام في حياتهم وشؤونهم، أو لا يُقيمه، وكلٌّ حسب إيمانه وهمته والتزامه.

إنما نقصد بالأمة الإسلامية، استنادًا إلى المفهوم القرآني الذي وصف تعالى به المسلمين في كتابه الكريم، والفضل الذي تفضَّل به تعالى عليهم وذكره في كتابه المجيد. والذي قد تحقق فيهم ذلك الوصف، وذلك الفضل منه تعالى، وهو أنَّ تلك الأمة الإسلامية هي:

الأمة الواحدة

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2].

---

(1) الأنبياء، الآية: ﴿92﴾.

(2) الانبياء، الآية: ﴿92﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[1].

والأمة الوسط، والأمة الشاهدة، والحجة على الأمم الأخرى.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[3].

وخير أمة أخرجت للناس

قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[5].

فهذا هو مقصودنا بمفهوم الأمة الإسلامية، أي المفهوم والوصف القرآني لتلك الأمة، وهي:

(الأمة الواحدة، والأمة الوسط، وخير أمة أخرجت للناس، والشاهدة، وحجة الله تعالى على الأمم الأخرى)

وسيكون هذا مقصودنا، أينما ذكرنا الأمة الإسلامية في هذا الكتاب، فلينتبه القارئ الكريم إلى ذلك.

فينبغي للمسلمين جميعًا يدركوا، ويستوعبوا، ويستشعروا ذلك المفهوم، وذلك الوصف والتعريف القرآني لِأُمَّتهم. وذلك، لأنَّ هذا المفهوم، تَترتبُّ عليه تبِعاتٌ عِظامٌ، ومَهامٌ جِسامٌ، ينبغي للمسلمين أنْ يستعدوا لها، ويجنِّدوا كل طاقاتهم ومُقدَّراتهم للقيام به، وهي:

إقامة الأمة الإسلامية الجديرة بالوصف القرآني – كما ذكرنا - أي إقامة وتحقيق خير أمة أخرجت للناس.

(1) المؤمنون، الآية: ﴿52﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(3)الحج، الآية: ﴿78﴾.

(4) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

(5) آل عمران، الآية: ﴿104﴾.

ففي قيام الأمة الإسلامية بهذا الوصف القرآني، سعادتهم وعزهم، وفيها خَيْري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[1].

وليس ذلك الخير والسعادة مقصورًا على المسلمين فحسب، بل سيعم العالم أجمع، حتى لو بقيت كثيرٌ من أممِ الأرضِ كافرة، ولم تسلم! فالنبي ﷺ، رحمةٌ من الله تعالى للبشر جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿107﴾﴾[2].

إنَّ وجود الأمة الإسلامية وهي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الله، من شأنه أنْ يخفف من انتشار الكفر والشرك والمعاصي في الأرض. إضافة إلى ذلك، وجود أمة إسلامية تحققت فيها شروط (خير أمة أخرجت للناس)، من شأنه أنْ يُقَلِّلَ حتى من انتشار الظلم والعدوان في الأرض، وبين دول الكفار أنفسهم.

فعلى سبيل المثال، لو أرادت دولةٌ كافرة، الاعتداء على دولةٍ كافرة أخرى، ضعيفة أو صغيرة، طمعًا في أراضيها وثرواتها، فلن تجرأ بسهولة على فعل ذلك، بسبب وجود تلك الأمة الإسلامية التي تهابها وتخشاها الأمم الأخرى، وتخشى من انتقامها إذا ما استنجدت بها الدولة المعتدى عليها. أو قد تكون للأمة الإسلامية مصالحَ ومعاهدات دفاع مشترك مع تلك الدولة المعتدى عليها.

أليس في واقعنا المعاصر وجود أمثلة على ذلك؟ ومن ذلك، وجود الولايات المتحدة، وروسيا، والصين وغيرها من الدول العظمى، والتي تخشاها الدول الأخرى، وتخشى من انتقامها وعقوباتها، إذا ما تجرأت دولة على الاعتداء واحتلال دولة أخرى صغيرة. فالحال نفسه وربما أشد، عند وجود الأمة الإسلامية، خير أمة أخرجت للناس، ونحن على يقين من ذلك، وما ذلك على الله بعزيز.

ونعود الآن لتتمة الحديث عن أسباب انتكاسة المسلمين.

فكما ذكرنا أنه بسبب هويتهم الإسلامية وارتباطهم بالإسلام، ذلك الارتباط القَدَري والمصيري، وعدم وعي الكثير من الأمة بحقيقة تلك الرابطة المصيرية بين المسلمين، أدى ذلك كله إلى ضعف الروابط

(1) النور، الآية: ﴿55﴾.

(2) الانبياء، الآية: ﴿107﴾.

والعلاقات بين المسلمين في شتى بلاد المسلمين. وبالتالي، كانت النتيجة: غياب مفهوم الأمة الإسلامية، عن واقع المسلمين وحياتهم.

ونقصد بذلك الغياب، الغياب العملي والواقعي، وليس العلمي النظري. فمما لا شك فيه، لو سألت معظم المسلمين عن أمتهم الإسلامية، وعن مدى انتمائهم لها والعمل من أجلها، لكان جوابهم: أنَّهم يؤمنون بأُمتهم ويحبونها، ويعلمون أنَّها تضم جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وبغض النظر عن ألوانهم وأجناسهم وبلدانهم. وأنَّ حدود تلك الأمة تمتد على رقعة جغرافية شاسعة، تضم دولًا إسلامية كثيرة، تمتد من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، إلخ.

أمَّا إذا جئتَ إلى واقع المُسلمينَ اليوم،
فلا تكادُ تَرى مِن مفهومِ الأمَّةِ الإسلاميةِ إلَّا اسمهُ،
وَلا مِن جَسدِ الأمَّةِ وأثرِهِ إلَّا رَسْمَهُ!
فكل بلدٍ مسلمٍ بما لديهم مِنْ أرضٍ وحدودٍ فرِحون!
فهُمْ عنْ أمَّتهم المَوصُوفةِ مَعزولون!
وعَنْ إخوانِهم المُسلمينَ في باقِي الأرضِ تَائِهون!
فَلا يَجمَعُهُمْ عِند المَصائِبِ والشَّدائِدِ دِين!
ولا تُحرِّك فيهم نَخوةُ المُعتصِمِ صَرخةَ مِسْكين!
فَلا وزنَ وَلا شأنَ لَهُمُ بَينَ العَالمين!

فإذا فتشت عن روح الأمة الواحدة، والمصير الواحد، والجسد الواحد، فقلَّما تجد في شعبِ بلدٍ مسلمٍ، ومَنْ يتولَّى أمره، شيئًا من تلك الأوصاف حاضرًا في واقعهم وفي شؤونهم.

فقد غاب عن واقع المسلمين واضمحل – إلا ما رحِم ربي - مفهوم وعقيدة (الأمة الإسلامية الواحدة)، و (الأمة الوسط)، و (خير أمة أخرجت للناس). وبالتالي صار المسلمون حجة على أنفسهم، بدلًا من أن يكونوا الأمة الحجة والشاهدة على أمم الأرض يوم القيامة.

وبذلك، فقد صارت الأمةُ فريسةً سهلةً لأعدائها والمتربصين بها. وصار حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أشبه ما يكون بحالهم يوم توفي رسول الله ﷺ، وكما وصفت ذلك أم المؤمنين عائشة —رضي الله عنها، قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَظُمَتْ بِهِ مُصِيبَةُ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ عَائِشَةُ، فِيمَا

بَلَغَنِي، تَقُولُ: ﴿لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَاشْرَأَبَّتِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّة، وَنَجَمَ النِّفَاقُ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ كَالْغَنَمِ الْمَطِيرَةُ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، لِفَقْدِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، حَتَّى جَمَعَهُم اللَّهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ.﴾[1].

إذن:

غيابُ مفهوم الأمة الإسلامية وعدم وجوده في واقع المسلمين وحياتهم، هو السبب الحقيقي في انتكاسة الأمة الإسلامية وتراجعها عن قيادة نفسها وقيادة العالم.

ليس مجتمعًا جاهليًّا

ونحن إذ نقول ذلك ونعتقد أنه السبب في انتكاسة الأمة، لسنا هنا نُكَفِّر المسلمينَ – حاشا لله – ولا ندعي أنَّ المجتمع الإسلامي أصبح مجتمعًا جاهليًّا. ولسنا نقول أنَّ المسلمين قد كفروا وخرجوا من الدين! وبالتالي، فقد صار المجتمع كافرًا، وتنطبق عليه أحكام الكفر والردة، وذلك لمجرد أنَّ بعض المسلمين — أو حتى لو كان جُلُّهم – مقصرون في دينهم والتزامهم بما أمرهم تعالى ورسوله ﷺ بالقيام به.

فنحن لا نقول ذلك أبدًا، ولا نقول بالتكفير العريض وغير المنضبط لجماهير كثيرة من المسلمين، ولا نُلمِّح له، ولا نَدين به. إذ ليس ذلك من عقيدتنا، ولا من فهمنا لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، ولا مما فهمناه من سيرة الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسانٍ مِن سَلف الأمة وخَلَفِها.

(وجودُ بعضِ مظاهر الجاهلية في المجتمع الإسلامي لا يعني أنَّ المجتمع أصبحَ جاهليًّا)

من المسلَّم به في أصول الدين أنَّه مهما بلغَ المسلمونَ مِن تقصيرٍ وانحرافٍ وتهاونٍ ومعاصي – ما هو دون الكفر ونواقض الإسلام — فإنَّ عقد الإيمان والإسلام يبقى قائمًا لهم، ويبقى مجتمعهم على أصله وانتسابه إلى الإسلام.

وفي المقابل، ليس معنى ذلك أننا ننفي عن المسلمين اليومَ وعن مجتمعاتهم، وجود بعض مظاهر الجاهلية، كالزنا والخمور، والربا، والعصبية القبلية، وعدم التحاكم إلى الله ودينه في بعض أمورهم وشؤونهم. فهذه المظاهر الجاهلية، لا شك أنها موجودة اليوم في المجتمعات الإسلامية، وأنها تتفاوت في درجة شدتها وانتشارها من بلدٍ إسلامي إلى آخر.

(1) سيرة ابن هشام، 665/2، السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، 1375هـ – 1955م، عدد الأجزاء: 2.

فوجودُ بعض مظاهرِ الجاهلية في المجتمع الإسلامي أمْرٌ محتمل الحدوث، وذلك لأن البشر ليسوا معصومين، وأنهم يتفاوتون في قوة إيمانهم وإسلامهم والتزامهم. فلقد كان بعضُ تلك المظاهر الجاهلية موجودًا حتى في أعظم، وأتقى وأنقى عصور الأمة الإسلامية، كما في عهد النبوة، وكما في غيرها من العصور الإسلامية الأخرى، كالعصر الأموي والعباسي.

وكمثال لتلك المظاهر الجاهلية التي حدثت في عصر النبوة: كالتمييز العنصري بسبب اللون والجنس وغيره، وكما ورد في قصة أبي ذر الغفاري – رضي الله عنهما — مع الرجل الذي سابَّه. فعَنِ المعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: ﴿يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ.﴾[1].

ومظهر آخر، مثل تذكّر الأحقاد والثأر، كما جاء في قصة شاس بن قيس اليهودي ومحاولته إثارة الأحقاد بين المسلمين وتذكير الأوس والخزرج بيوم بعاث، وكانَ يومَ بعاثٍ يومًا اقتَتَلَتْ فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظَّفَرُ فيه للأوْسِ على الخزرَجِ، فقالَ رسول الله ﷺ: ﴿يا معشرَ المسلِمينَ: اللهَ اللهَ، أبِدَعْوَى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكُم؟ بعدَ إذْ هدَاكُم اللهُ إلى الإسلامِ، وأكرمَكُمْ بِهِ، وقطَعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليةِ، واستنقذَكُم به من الكفرِ، وألَّفَ به بينَكم، ترجِعونَ إلى ما كنتم عليه كفارًا؟﴾[2].

ومظهر آخر، كعدم الرضا بحكم الله ورسوله، وطلب تحكيم غيرهما، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[3]، وغيرها من مظاهر الجاهلية.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، برقم 30، وباب: قول النبي ﷺ: ﴿العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون﴾، برقم 2407). وأخرجه أيضًا مسلم في صحيحه في (بَابُ إِطْعَامِ الْمَمْلُوكِ مِمَّا يَأْكُلُ، وَإِلْبَاسُهُ مِمَّا يَلْبَسُ، برقم 1661 و1662).

(2) سيرة ابن هشام، 556/1. وسيأتي ذكر تمام الحديث في موضعه.

(3) النساء: ﴿60﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ التَّحَاكُمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصَمَا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ. وَذَاكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 305/2.

فتكفير المسلمين هكذا جزافًا، وبالجملة، وبالذنوب والمعاصي، إنَّما هي طريقة الخوارج ومن سلك مسلكَهم قديمًا وحديثًا من فرق الضلال والأهواء. إذ ليس ذلك من دين الله تعالى في شيء، ولا من سنة نبيه ﷺ، ولا من هدي الصحابة وسلف الأمة والتابعين لهم بإحسان، ولا من منهج أهل العلم من السلف والخلف، المشهود لهم بالعلم والصلاح.

ولكن قد ينطبق الكفر على آحادهم، إذا ما صدر منهم ما يناقض الإيمان والإسلام، وهذه مسألة مشهورة بين أهل العلم وهي: (تكفير المعيَّن)، ومبسوطة في كتبهم.

ونعود ثانية إلى تتمة الحديث عن السبب الرئيسي في انتكاسة الأمة الإسلامية، والذي ذكرناه آنفًا، وهو:

(غياب مفهوم الأمة الإسلامية وعدم وجوده في واقع المسلمين وحياتهم!)

فنقول:

في الحقيقة، فإنَّ ما نراه اليوم في العالم، وما هو موجودٌ على أرض الواقع، ليس أمة إسلامية[1]! إنما نرى تجمعات إسلامية، ومسلمين يعيشون هنا وهناك في بلاد المسلمين وغيرها.

ولا شك، فإنَّ هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا ورسولًا، ولكنهم يتفاوتون فيما بينهم، في قوة إيمانهم وإسلامهم، وكما وصفهم تعالى:

فمنهم **الظالمُ لنفسه**،

ومنهم **المقتصدُ**،

ومنهم **السابقُ بالخيراتِ بإذن الله**.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[2].

(1) أي بالمفهوم القرآني الذي ذكرناه آنفًا، أي لا وجودَ اليوم للأمة الإسلامية التي أطلق تعالى عليها وصف: (خير أمة أخرجت للناس)، وان كانت الامة لا تخلو من وجود اعداد غفيرة من اهل الايمان والتوحيد والصلاح والتقوى والعمل الصالح، لكن هذا الحال لا يمثل معظم جماهير الامة وسوادها الأعظم.

(2) فاطر، الآية: ﴿32﴾.

فالمسلمون اليوم قد يشكّلون مجتمعات إسلامية في بلدانهم، وبالتالي تلك المجتمعات تُشكِّل بلدانًا وأقطارًا إسلامية، ولكن للأسف! فهم لا يشكِّلون الأمة الإسلامية المنشودة، وذلك بالمفهوم والوصف القرآني، ونعني بذلك (**خير أمة أخرجت للناس**).

فهؤلاء المسلمون لم يبنوا، ولم يقيموا صَرحَ تلك الأمة على الأسس والأركان التي وضعها تعالى لهم، وبيّنها في كتابه الكريم، تلك الأمة التي هي بمثابة حِصنٌ حصينٌ لهم مِن كلّ معتدٍ وطامع.

دعونا أنْ لا نكونَ متشددين في اعتقادنا وحُكمنا بـ (غياب مفهوم الأمة الإسلامية) من واقع المسلمين المعاصر، كي لا يُصوِّرنا البعض أننا متشائمين كثيرًا، وأننا قُساة في حكمنا على واقع المسلمين. فإذا أردنا ألَّا نكون كذلك، وسلَّمنا بوجود الأمة الإسلامية اليوم، وسلَّمنا بأنَّ المسلمين، ورغم واقعهم المرير، يشكّلون أمة إسلامية، فإنَّ الذي لا جدال فيه ولا مِراء، أنَّ تلك الأمة الإسلامية التي نراها اليوم لا تُمثل بأي حالٍ الأمة المنشودة، والموصوفة في كتاب الله تعالى[1].

وعلى هذا الأساس، فلا نظن أنَّ أي مُنصفٍ ومحايدٍ يُماري أو يختلف في أنَّ الأمةَ الإسلامية اليوم، كدولٍ وشعوبٍ، لا تملك قرارها وإرادتها بشكل كامل. وبالتالي، لا تستطيع إلى حد كبير، أنْ تتحكم بنظام حكمها، ولا بقوانينها، وسيادتها، وأمنها، ومُقدّراتها، وثرواتها، بشكلٍ كاملٍ ومستقلٍ، دون تدخل وتأثيرٍ من قِبل الدول الكبرى.

ومن المؤكد أيضًا لدى القاصي والداني، أنَّ الأمة الإسلامية بواقعها الحالي اليوم، لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها أذى واطماع أعدائها، ناهيك عن قدرتها في استعادة أراضيها المغتصبة وحقوقها المنهوبة. وخيرُ دليلٍ ومثالٍ على ذلك الواقع المزري، فلسطين السليبة، حيث أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، والتي تئنَّ من قيدِ وظلمِ الصهاينة الغاصبين منذ قرابة ثلاثة أرباع القرن.

ونتيجة للحال المزري والضعيف والمخجل الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، صار المسلمون فريسةً لأعدائهم، وفقدوا قرارهم، وطمعَ فيهم عدوهم، ونهب ثرواتهم، واستحوذ على الكثير من أفكارهم وثقافاتهم.

وعن تنامي تبعية الأمة الإسلامية للغريب الكافر، وفقدانها لذاتها وإرادتها، فقد وصل الأمرُ بها إلى استحواذ عدوها عليها، وتحكّمه في شؤونها، وصار أشبهَ ما يكون بالوصي على الأمة الإسلامية. فصار عدوها يهيمن حتى على كيفية فهمِ المسلمين لدينهم ومنهجهم الإلهي والنبوي، وعلى كيفية تعاملهم مع ذلك المنهج.

(1) أي: الأمة الوسط، وخير أمة أخرجت للناس.

ونتيجة لتلك الهيمنة والتحكم، أصبح الكفار من أعداء الأمة يهاجمون الإسلام وثوابته، جهارًا نهارًا، من غير رادعٍ، ولا مدافعٍ عن الدين وحياضِه وحُرماته، إلا ما رحم ربي من قبل بعض المسلمين المخلصين، والغيورين على الدين.

وصار أولئك الأعداء يتدخلون ويعترضون على أحكام الإسلام وتشريعاته، وبكل وقاحةٍ واستهتارٍ واستخفافٍ. فتارةً يتدخلون بحُجة حقوق الإنسان. وتارةً أخرى بحجة حرية الأديان، والتعايش بين الأديان، وحرية المعتقد، وتحرير المرأة، والحرية الجنسية، والسماح للشواذ والمثليين، بممارسة ما يشتهون، بحجة الطبيعة الوراثية والفيزيائية للجسم البشري، مما يتعارض ذلك كله مع أصول الدين وثوابته، ومما يتعارض ويتناقض مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة. وهكذا، غيرها من الممارسات التي أصبح فيها العدو الكافرُ يتحكم بالأمة، وبدينها ومنهجها وإرادتها، فأصبح الإسلام والمسلمون المعتصمون به، غرباء في أوطانهم وفي أمتهم!

وقد زعموا أنَّ الغريبَ إذا نَأى　　　وشَطَّتْ بهِ أوْطانُه فهو مُؤلَمُ
وأيُّ اغترابٍ فوق غُربَتِنا التي　　　لها أضَحتِ الأعداءُ فينا تَحَكَّمُ[1]

الحل

فبعد كل الذي ذكرناه من شرح، وتحليل، وتشخيص لحال المسلمين، وتحديد أسباب انتكاسة أمتهم الإسلامية، فإنَّ الحل اليوم لمعالجة تلك الانتكاسة يتحقق بـ :

أنْ يُعيد المسلمون من جديدٍ إقامةَ وبناءَ الأمة الإسلامية!

هذا في حالة إذا ما حَكمنا بأنَّ الأمة الإسلامية غائبة، وليست موجودة أصلًا[2] ، وأنها تمزقت، وصادر الأعداء قرارها وإرادتها، فيكون المطلوب إعادة تشكيلها وبناءها من جديد؟

أمَّا إذ افترضنا أنَّ الأمة الإسلامية موجودة، ولكنها تعاني من أمراض وضعف، وهيمنة وتبعية، وغيرها من أعراض الانتكاسة، فينبغي:

أنْ يُصلحَ المسلمون ما فَسَدَ وتَعطَّلَ من بناءِ أُمتهم!

(1) الرحلة إلى بلاد الأشواق، شرح القصيدة الميمية، القصيدة الميمية لابن القيم، عرض وتحليل: مصطفى عراقي، 1987، مطبعة التقدم.

(2) أي بالمفهوم القرآني الذي ذكرناه آنفًا، أي لا وجودَ اليوم للأمة الإسلامية التي أطلق تعالى عليها وصف: (خير أمة أخرجت للناس).

وفي كلتا الحالتين، فالسبيل إلى إعادة بناء الأمة الإسلامية، أو إصلاحِ ما فَسَدَ منها، لا يكون في الكلام العام، كأنْ يُقال: على المسلمين العودة إلى دينهم! ولا يكون في الحلول الجزئية والترقيعية، والتي ذكرناها آنفًا في تلك المقدمة.

إنما يكون السبيل إلى ذلك قائمٌ على أركان ودعائم أساسية، وفي خطوات محسوبة ومدروسة، وذلك من أجل إعادة بناء الأمة الإسلامية المنشودة من جديد، أو إصلاحها، من أجل إعادة هيبتها، واستعادة دورها في قيادة نفسها وقيادة البشرية.

وينبغي أنْ يعلم القارئ الكريم، أنَّ حديثنا هنا عن إقامة وبناء الأمة الإسلامية، لا نقصد به إقامة الخلافة الإسلامية، ودولة الخلافة، كما تفعل بعض الأحزاب والجماعات الإسلامية، وتجعل من ذلك الهدفِ محورَ الدين وأصلِهِ وقُطبه! وبناءً على ذلك، فإنَّ تلك الأحزاب والجماعات تسلكَ كلَّ السُبلِ نحو تحقيق ذلك الهدف، مما قد يكونُ ليس من هَدْي رسول الله ﷺ ولا مِن هَدْي سلفِ الأمة من أهل السنة والجماعة ومن تبِعهم قديمًا وحديثًا.

أركان بناء الأمة الإسلامية المنشودة

أما عن كيف السبيل إلى معرفة تلك الأركان والخطوات من أجل إقامتها وتنفيذها لبناء الأمة الإسلامية المنشودة، **فنعتقد أنَّ الأمر ليس متروكًا للبشر ولا لِاجتهاداتهم وأهوائهم، ولا لما يستوردونه من أفكارٍ ومفاهيمَ من الأمم الأخرى. بل لا بد أنْ تكون تلك الأركان والخطوات موجودة في المنهج الذي أرسله تعالى للبشرية، وائتمن أتباعه عليه، نحن المسلمين، حَمَلة الدين، وورثةَ الأنبياء والمرسلين.**

أما الأدلة على ضرورة وجود أركان الأمة الإسلامية في القرآن الكريم، وضمن المنهج الذي أنزله تعالى، فهي قسمان: نقليٌّ وعقليٌّ، وكما سنوضحه فيما يلي:

الدليل النقلي

أما الدليل النقلي، على ضرورة وحتمية احتواء القرآن الكريم على أركان بناء الأمة الإسلامية، وضمن المنهج الذي أنزله تعالى، فنقول:

إنَّ القرآن الكريم قد ذكر في مواضعَ ونصوصٍ كثيرةٍ، قواعِدَ عامة بخصوص طبيعةِ الإسلام، وبالتالي طبيعةِ وأصولِ الأمة الإسلامية التي تدين به، وبما تُمثِّلهُ من دينٍ ومنهجٍ تحمله. وهذه القواعد والأصول إنَّما هي بمثابة ركائزَ تقوم عليها الأمة، ويقوم عليها بناءها. فمن هذه الأصول مثلًا:

البصيرة أساس الدين

إنَّ كلَّ أمرٍ من أمورِ ديننا قائمٌ على علمٍ، وأُسسٍ، وأركانٍ، وهدًى، وبصيرةٍ، وبناءُ الأمة الإسلامية لا بد أنْ يكون كذلك، ودليلهُ، قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿108﴾﴾[1].

البيّنة والتبيان والتفصيل لكل شيء في الدين

وهو قائم أيضًا على البيِّنة من الله، والوضوح، ومعرفة الوسيلة والهدف، ودليلهُ، قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾[2].

فهو قائمٌ على التوضيح والتفصيل لكل ما تحتاجه الأمة من أمر دينها ودنياها، ودليله، قولهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿89﴾﴾[3].

الاتباع أساس الدين

وهو قائمٌ على الاتباع، فقد أمر الله نبيه ﷺ باتباع ما شرَّعهُ تعالى له ولأمته، ونهاهم عن اتِّباع أهواء، وآراء، وطريقة الكفار، وغيرهم. فقد نهاهم تعالى عن أخذِ ما عندهم من مناهَج وأساليبَ وضعيةً لبناء الأمم والدول، مما يتعارضُ مع ما في كتاب الله من أركانٍ وأصولٍ في هذا المجال.

فمما لا شك فيه، فإنَّ بناء الأمة الإسلامية لا بد أنْ يقوم على شريعة الله التي أنزلها للمسلمين، ودليلهُ، قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿18﴾﴾(4)، وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ

(1) يوسف، الآية: ﴿108﴾.

(2) الحجرات، الآية: ﴿57﴾.

(3)النحل، الآية: ﴿89﴾.

(4) الجاثية، الآية: ﴿18﴾.

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴿18﴾﴾[1].

الاستقامة

ومنها أيضًا، الاستقامة على دين الله والصراط المستقيم الذي خَطَّهُ تعالى للأمة الإسلامية، ودليلهُ، قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[2]، وقولهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[3].

وغيرها من الأدلة والإشارات بخصوص قواعدِ وأصولِ الأمة الإسلامية المنشودة.

الدليل العقلي

أما الدليل العقلي فنقول:

لما كانت تلك الأمة المنشودة ستحمل رسالة الله إلى الناس، أي بمعنى أنها ستقوم بدور الرسول المبلِّغ عنه تعالى، كان لا بد للأمة مِنْ أَنْ ترتكز في بنائها على أركان لا عِوجَ فيها، كي تكون أمة قائمة على أسسٍ قويةٍ وراسخةٍ. من أجل ذلك، كان لا بد لتلك الأركان أن يضعها تعالى - صاحبُ الرسالة – بنفسه، وليس المسلمين، لأن تلك الأركان سوف تبني الأمة التي ستمثل الترجمة العملية، والواقع العملي لمبادئ وتعاليم الرسالة.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ تلك الأركان ستكون أصولًا ومرجعًا للمسلمين وعلى مرِّ العصور، يرجعون إليها في فرعيّاتٍ وتفاصيل بقية بناء الأمة الإسلامية. لقد ترك القرآن الكريم للمسلمين مساحةً من التفكير والتخطيط والإدارة لأمتهم، ولما يستجد من تغيُّرات وتطورات في حياتهم وشؤونهم، ليقوموا بأنفسهم بذلك الدور وتلك المهام وما يناسب المستجدات على مرِّ العصور.

فعندما جعل تعالى المسلمين (**الأمة الوسط**)، و (**خير أمة أخرجت للناس**)، و (**الأمة الشاهدة**)، لم يتركهم تعالى هكذا سدًى، بلا هدًى ورشد، لا يعرفون كيف يبنون ويقيمون تلك الأمة الإسلامية المنشودة.

---

(1) الشورى، الآية: ﴿15﴾.

(2) الأنعام، الآية: ﴿154﴾.

(3) هود، الآية: ﴿112﴾.

تلك الأمة التي ستتولى مهمة الرسول ﷺ في التبليغ والدعوة من بعده، وإلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها، حيث لا رسولَ، ولا نبيَّ بعده ﷺ.

فكما أنَّ للإيمان أركانًا، يقوم عليها بناء الإيمان وكل ما يتعلق به، وكذلك أركان الإسلام، وغيرها من أمور الدين، فكذلك الحال من أجل بناء الأمة الإسلامية.

إنَّ إقامة صرح الأمة الإسلامية لا يقِلُّ اهميةً عن باقِي أمور الدين، بل هو من الدين. فالمسلمون بدون أمةٍ قويةٍ، قائمةٍ على منهج الله، لكي تحميهم وتعينهم، وتحفظ لهم دينهم وهويتهم، لن يستطيع أولئك المسلمون من أنْ يعبدوا الله على الوجه الذي أمرهم تعالى. ولن يستطيعوا أنْ يقيموا حدوده تعالى، ولا أنْ يحفظوا أوامره بدونها، وإلّا كانت حياتهم ودينهم في عناء وخطر عظيم من قِبل الكفار والأعداء المتربصين بالأمة وبرسالتها.

ولهذا كان من الضروري أنْ يقوم بناء الأمة الإسلامية على أركان متينة وراسخة، وأنْ تكون تلك الأركان معلومة ومحددة، وموجودة في منهج الأمة وكتابها، الذي أنزله تعالى إليها، أي القرآن الكريم. فبدون تحقيق تلك الأركان، لن يكون هناك بناءٌ اسمه (الأمة الإسلامية).

وكذلك، فإنَّ وجود بعض تلك الأركان — في الأمة – وليس كلها، أو وجودها كلها، ولكن ليست على الوجه الذي أراده تعالى، وأَسس له في كتابه الكريم، سيكون بناء الأمة ناقصًا ومشوهًا، وستظهر على الأمة أعراض المرض لا محالة، وذلك بقدر ما هنالك من خللٍ، أو تقصيرٍ أو انحرافٍ في تحقيق تلك الأركان.

من أجل ذلك، نعتقد أَنَّ (**أركان بناء الأمة الإسلامية**) التي نتحدث عنها، مبسوطة ومفصلة في كتاب الله، وما علينا إلا أنْ نبحث عنها في ثنايا السور والآيات، كي نستخلصها، ونستنبط ما فيها من أحكام، ومِنْ ثَم نَشْرعُ في تحقيقها من أجل تشييد صرح الأمة الإسلامية.

أمثلة على تلك الأركان

أما عن الأمثلة على بعض تلك الأركان، وأدلتها من القرآن الكريم، فمنها:

الأمةُ الواحدة

فقد جاء ذلك الركن على سبيل الوصف والإخبار المؤكد بـ (إنَّ)، وذلك في قولهِ تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1].

(1) الانبياء، الآية: ﴿92﴾.

وقولهِ تعالى:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[1].

الاعتصامُ باللهِ وحبله

فقد جاء هذا الركن في صيغة الأمْر، وذلك في قولهِ تعالى:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[2].

وجاء أيضًا في صيغة ترتُّبِ الجزاءِ على فاعله، وهنا: (الهدى والاستقامة)، قال تعالى:

﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[3].

عَدَمُ التَّفرُّقِ

فقد جاء هذا الركن بصيغة النهي عن فعله، أي: التفرق، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[4].

وهكذا بقية أركان بناء الأمة الإسلامية، كما سيأتي تفصيله في الباب القادم، إن شاء الله.

وجوب اعتزازُ المسلمِ وافتخارهِ بدينهِ، وحُرمة الشعورِ بالانكسارِ والدون إمامَ الكفار من أصحابِ الأديانِ الأخرى

وأخيرًا وليس آخرًا، ونحن نعيد بناء الأمة الإسلامية على الأركان التي أمرنا بها ديننا، نودُّ أنْ نبين أمرًا مهمًّا وخطيرًا، يَمسُّ عقيدة المسلم وإيمانه، واعتصامَه بدينه، ويؤثر على همته وعزيمته، وهو:

وجوبُ اعتزازِ المسلم بدينه، وعدم الشعورِ بالانكسارِ والدونيةِ أمام الكفار من أصحاب الأديان الأخرى، والملحدين والوثنيين.

فعلى الرغم من واقع حال الكفار هذا، والمهيمن على العالم، يقابله واقع حال المسلمين المأساوي والمخجل الذي يعيشونه، فلا ينبغي للمسلم التخاذل، والشعور بالنقص والدونية أمام الكفار.

---

(1) المؤمنون، الآية: ﴿52﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

(3) آل عمران، الآية: ﴿101﴾.

(4) آل عمران، الآية: ﴿101﴾.

بل على العكس، ينبغي للمسلم الذي امن بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، أنْ يشعر بالفخر، والاعتزاز، والاستعلاء بدينه (الإسلام) أمام كل الأديان الأخرى الباطلة، والمعتقدات المنحرفة، وخصوصًا السماوية منها كاليهودية والنصرانية وغيرها، وذلك للحقائق الاتية:

- **لأنه مسلمٌ، فهو يدين بالإسلام، أحسن دينٍ،**

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿125﴾﴾[1].

- **ولأنَّ كتابهُ القرآن الكريم، أحسن الحديث،**

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿23﴾﴾[2].

- **ولأنَّ كتابه هذا، مهيمنٌ على جميع كتبِ الله التي أنزلت قبله،**

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿48﴾﴾[3].

- **ولأنَّ رسوله محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين،**

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿40﴾﴾[4]، **فلا نبي بعده ولا رسول.**

- **ولأنَّ الله تعالى قد أخذ العهد من جميع الأنبياء والمرسلين على تصديقه واتباعه – ﷺ، إنْ هو بُعث في حياتهم،**

(1) النساء، الآية: ﴿125﴾.

(2) الزمر، الآية: ﴿23﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿48﴾.

(4) الأحزاب، الآية: ﴿40﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿81﴾﴾[1].

- **ولأنَّ رسوله، محمدٌ ﷺ الذي يتَّبِعهُ، ويتَّبِعُ سُنَّتهُ، قد أُوتي من الفضائلِ ما لم يؤت أحدٌ من الأنبياء والمرسلين- عليهم السلام أجمعين، فهو:**

- **خليل رب العالمين[2].**
- **وإمام الأنبياء والمرسلين، فله ﷺ جمع الله الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، فصلى بهم إمامًا ليلة الإسراء والمعراج[3].**
- **وهو ﷺ سيد ولدِ آدم، وأولُ منْ ينشقُ عنهُ القبرُ، وهو أولُ شافعٍ وأولُ مُشَفَّعٍ يوم القيامة[4].**

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿81﴾.

(2) عن جندب بن عبد الله قال: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ قَبْلَ أنْ يَمُوتَ بخَمْسٍ، وهو يقولُ: ﴿إنِّي أبْرَأُ إلى اللهِ أنْ يَكونَ لي مِنكُم خَلِيلٌ، فإنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كما اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا مِن أُمَّتي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وإنَّ مَن كانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أنْبِيَائِهِمْ وصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فلا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، إنِّي أنْهَاكُمْ عن ذلكَ.﴾، أخرجه مسلم في صحيحه، باب: (بَابُ النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ، عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا) برقم: (532).

(3) قال ابن حجر في فتح الباري: [وَقَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ وَقَعَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْيَقَظَةِ بِجَسَدِ النَّبِيِّ ﷺ وَرُوحِهِ بَعْدَ الْمَبْعَثِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْجُمْهُورُ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ، وَتَوَارَدَتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْ ذَلِكَ إِذْ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُهُ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى تَأْوِيلٍ.] اهـ. فتح الباري لابن حجر، 197/7.

وقد ذكر بعض أهل العلم احتمال كون حضور الأنبياء معه ببيت المقدس إنما كان بأرواحهم كما نقل ابن حجر في فتحه قال: [قَالَ عِيَاضٌ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا فِي بَيْتِ الْمُقَدّس، ثمَّ صعد مِنْهُم إِلَى السَّمَاوَاتِ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ ﷺ رَآهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُ بِهِمْ بَعْدَ أَنْ هَبَطَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَبَطُوا أَيْضًا. وَقَالَ غَيْرُهُ: رُؤْيَتُهُ إِيَّاهُمْ فِي السَّمَاءِ مَحْمُولَةٌ عَلَى رُؤْيَةِ أَرْوَاحِهِمْ إِلَّا عِيسَى لِمَا ثَبَتَ أَنَّهُ رُفِعَ بِجَسَدِهِ، وَقَدْ قِيلَ فِي إِدْرِيسَ أَيْضًا ذَلِكَ. وَأَمَّا الَّذِينَ صَلَّوْا مَعَهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَحْتَمِلُ الْأَرْوَاحَ خَاصَّةً، وَيَحْتَمِلُ الْأَجْسَادَ بِأَرْوَاحِهَا، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ صَلَاتَهُ بِهِمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَ قَبْلَ الْعُرُوجِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.] ا. هـ. فتح الباري لابن حجر، 209/7.

والقول بحضور أرواحهم وأجسادهم معه ببيت المقدس هو الأظهر، وقد استدل به ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه (الروح) على عدم أكل الأرض لأجساد الأنبياء.

(4) عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ.﴾، أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ تَفْضِيلِ نَبِيِّنَا ﷺ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، برقم (2278).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم قَوْله ﷺ: ﴿أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم يَوْم الْقِيَامَة، وَأَوَّل مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْر، وَأَوَّل شَافِع وَأَوَّل مُشَفَّع.﴾ قَالَ الْهَرَوِيُّ: السَّيِّد هُوَ الَّذِي يَفُوقُ قَوْمه فِي الْخَيْر، وَقَالَ غَيْره: هُوَ الَّذِي يُفْزَعُ إِلَيْهِ فِي النَّوَائِب وَالشَّدَائِد، فَيَقُومُ بِأَمْرِهِمْ، وَيَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مَكَارِههمْ، وَيَدْفَعُهَا عَنْهُمْ. وَأَمَّا قَوْله ﷺ: ﴿يَوْم الْقِيَامَة﴾ مَعَ أَنَّهُ سَيِّدهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة فَسَبَبُ التَّقْيِيد أَنَّ فِي يَوْم الْقِيَامَة يَظْهَرُ سُؤْدُده لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَبْقَى مُنَازِع، وَلَا مُعَانِد، وَنَحْوه، بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّار وَزُعَمَاء الْمُشْرِكِينَ. قَالَ الْعُلَمَاء: وَقَوْله ﷺ: ﴿أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم﴾ لَمْ يَقُلْهُ فَخْرًا، بَلْ صَرَّحَ بِنَفْيِ الْفَخْر فِي غَيْر مُسْلِم فِي الْحَدِيث الْمَشْهُور: ﴿أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم وَلَا فَخْرَ﴾ وَإِنَّمَا قَالَهُ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدهمَا اِمْتِثَال قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ﴾، وَالثَّانِي أَنَّهُ مِنَ الْبَيَان الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغه إِلَى أُمَّته لِيَعْرِفُوهُ، وَيَعْتَقِدُوهُ، وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، وَيُوَقِّرُوهُ ﷺ بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتُهُ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّه تَعَالَى. وَهَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِتَفْضِيلِهِ ﷺ عَلَى الْخَلْق كُلِّهِمْ، لِأَنَّ

- **وإليه يفزعُ الناسُ يوم المحشر لبَدء الحساب**[1].
- **وهو أول من يقرع باب الجنة، وله ﷺ أُمر خازن الجنة أنْ لا يفتحها إلّا لهُ ﷺ**[2].

مَذْهَب أَهْل السُّنَّة أَنَّ الآدَمِيِّينَ أي أهل الطاعة والتقى أفضل مِنَ الْمَلائِكَة، وَهُوَ ﷺ أَفْضَل الآدَمِيِّينَ وَغَيْرهمْ. وَأَمَّا الْحَدِيث الآخَر: ﴿لا تُفَضِّلُوا بَيْن الأَنْبِيَاء﴾ فَجَوَابه مِنْ خَمْسَة أَوْجُه: أَحَدهَا أَنَّهُ ﷺ قَالَهُ قَبْل أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَيِّد وَلَد آدَم، فَلَمَّا عَلِمَ أَخْبَرَ بِهِ. وَالثَّانِي قَالَهُ أَدَبًا وَتَوَاضُعًا. وَالثَّالِث أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى تَنْقِيص الْمَفْضُول. وَالرَّابِع إِنَّمَا نَهْيٌ عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى الْخُصُومَة وَالْفِتْنَة كَمَا هُوَ الْمَشْهُور فِي سَبَب الْحَدِيث. وَالْخَامِس أَنَّ النَّهْي مُخْتَصٌّ بِالتَّفْضِيلِ فِي نَفْس النُّبُوَّة، فَلا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفَاضُل بِالْخَصَائِصِ وَفَضَائِل أُخْرَى وَلا بُدَّ مِن اعْتِقَادِ التَّفْضِيل، فَقَدْ قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وَاللَّه أَعْلَم، اهـ. شرح مسلم للنووي، 37/15. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (صحيح مسلم بشرح النووي)، المؤلف: يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، الناشر: (ط المصرية القديمة)، المطبعة المصرية بالأزهر، 1347 – 1929، عدد المجلدات: 18، الطبعة الأولى.

(1) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ . فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ . نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ . أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى.﴾، أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾، باب برقم 3162، وكتاب التفسير، باب: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا﴾، برقم 4435)، ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم 194 و 195).

(2) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ.﴾، أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ ﴿أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا﴾، برقم 196. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ.﴾، رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ ﴿أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا﴾، برقم 197.

- **وهو صاحب الوسيلة**[1].
- **وإنّ أُمَّتهُ أولَ الأممِ دخولًا الجنة، وأكثرَ ساكنيها**[2].

فكيف يشعرُ مسلمٌ بالدونية والنَّقْصِ والذُّلِّ، مَنْ هذا دينهُ، وهذا كتابهُ، وهذا رسولهُ، أمامَ أُناسٍ يتَّبِعون أديانًا باطلةً ومنحرفةً، أو عبدةِ أوثانٍ وبقرٍ وبهائمٍ، أو ملحدينَ لا يحترمونَ عقولهم؟!

لقد أبطل الإسلام جميع الديانات الأخرى وألغى قبولها، فلم تَعُد صالحةً لا لدينٍ ولا لدنيا. ونرى اليوم كيف أنَّ جُلَّ اتباعها من اليهود والنصارى قد هجروا دينهم وكتبهم المقدسة، وحصروها داخلَ معابِدهم وكنائِسهم، وجعلوها مجرد مظاهر من صلبانٍ واصنامٍ عند النصارى. ورموز خاصة عند اليهود، يعلقونها في اعناقهم، ويضعونها على ملابسهم، وترانيم يرددونها، ولا تكاد تجد لها أثرًا يُذكر في حياتهم وشؤونهم، الَّا ما يدفعهم مِن حقدٍ، وحسدٍ، وكراهية للإسلام وأهله، وعداوةٍ، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[3].

فينبغي على المسلمِ أنْ لا يشعرَ بالدونية، والصَّغار، والضَّعف أمام هؤلاء الكفار، وهو يرى تفوقهم المادي، والعلمي، والعمراني، ويرى هيمنتهم على الكثير من الدول الإسلامية، والعربية منها بالتحديد، وعلى الكثير من الدول والشعوب الأخرى من غير المسلمين أيضًا، والمغلوبة على أمرها.

---

(1) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ.﴾، أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة برقم: (384).

(2) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ﴾، أخرجه مسلم في صحيحه كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ هِدَايَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، برقم 855، الحديث، وسيأتي بتمامه لاحقًا.

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ.﴾. أخرجه الترمذي في سننه برقم (2546)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم 5644.

وفي رواية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) (الواقعة: 14)، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَتْ: (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) الواقعة، الآية: ﴿39﴾. فَقَالَ: ﴿أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَتُقَاسِمُونَهُمُ النِّصْفَ الْبَاقِي.﴾، أخرجه أحمد في مسنده برقم (9080)، وحسنه لغيره محققو المسند.

وفي رواية: ﴿أَنْتُمْ رُبُعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ.﴾. أخرجه أبو نُعيم في (الحلية)، (101/7).

وفي رواية عن أبي هريرة قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِجُلَسَائِهِ يَوْمًا: ﴿أَيَسُرُّكُمْ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.﴾، قَالَ: ﴿أَفَيَسُرُّكُمْ أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟﴾، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ﴿فَإِنَّ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُلُثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، وَإِنَّ أُمَّتِي مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا.﴾. أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف)، (315/6).

(3) البقرة، الآية: ﴿109﴾.

وينبغي على المسلمِ أنْ لا ينتقِص من نفسهِ، وأمتهِ، ودينهِ، وأنْ لا يعتريه الخجل والذل، والهوان، وهو يرى استعبادَ اليهود والدول النصرانية، وغيرها من دول الكفر لأمته، وللكثير من بلاد المسلمين، ومن نهبٍ لثرواتهم، والتدخل في شؤونهم.

فكيف يشعرُ مسلمٌ بالدونية والنَّقْصِ والذُّلِ مَنْ هذا دينهُ، وهذا كتابهُ، وهذا رسولهُ، أَمامَ أُناسٍ إمّا ملاحدة، لا يؤمنون بالله أصلًا، ولا بأي دين سماوي. فهم لا يحترمون حتى عقولهم، حين يصرِّحون أنْ لا خالقَ وصانع لهذا الكون! ولسان حالهم يقول: إنَّ إلههم وخالقهم: الطبيعةُ، العمياءُ، والصماءُ!

فكيف يشعر مسلمٌ بالنقص والدونية أمامَ أناسٌ كهؤلاء، مطموسي البصر والبصيرة، يعتقدون أنهم هكذا وُجِدوا وخُلقوا، بالصدفة والعشوائية. وأنَّ كل ما في الكون من دقة وإحكام وقصد وعظمة، إنما جاء من لا شيء، ولا يدبره شيء، ولا يحكمه شيء، وغنما يحكم نفسه بنفسه! كيف يستقيم ذلك؟ قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿35﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿36﴾﴾[1].

فأيُّ عقل! وأيُّ احترام! وأيُّ إعجابٍ وتقديرٍ لهؤلاء؟! مهما ادّعوا من علمٍ، وتقدمٍ، وتكنولوجيا، وسيطرةٍ، وعلوٍ في الأرض! فلا وزنَ لهؤلاء، ولا قيمةَ، ولا اعتبار. ويوم القيامة سيعترف الكافِر منهم، ويُقرُّ بجهلهِ وغبائهِ وخبَلهِ، كما أخبر تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿10﴾﴾[2].

وكيفَ يشعرُ مسلمٌ بالدونية والنقص والذُّل، أمام اليهود، قتلةَ الأنبياء، ومُحرِّفي التوراة والإنجيلِ، وعَبَدةِ العِجل، يقولون: إنَّ الله يتعب، وينسى، وقد صرعه يعقوب - عليه السلام وحاشاه - فغلبهُ، وانتزعَ منه البركة بالقوة!؟ ويقولون بأنَّ العُزيرَ ابن الله، وأنَّ يدَ الله مغلولةٌ، وأنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وغيرها من السخافات، والحكايات والأساطير التي لا يصدقها عقل، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا!

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ

[1] الطور، الآيتان: ﴿35-36﴾.

[2] الملك، الآية: ﴿10﴾.

وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿10﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2].

وكيف يشعر مسلمٌ موحدٌ بالدونية والنقص، أمام النصارى، الذين يؤمنون بأنَّ الله ثالثُ ثلاثة، وأنَّ لهُ ولد، ومنهم مَنْ يقول: إنَّ الله هو المسيح -عليه السلام- تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. ويقولونَ إنَّ الله قد تجَسَّدَ ونزلَ إلى الأرضِ على هيئة إنسان، وجعل الناس يُعذبونه، ويهينونه، ومِنْ ثَمَّ صلبوه، وتركهم يفعلونَ به ذلك كي يغفرَ لهم خطيئاتهم - كما يزعمون - ولكي يخلِّصهم من عقابه، وغيرها من السخافاتِ، والتُّرهات، والقَصص والأباطيل، والمعتقدات التي لا يُصدقها حتى الأطفال والمجانين، ناهيك عن ذوي العقل السليم!

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿171﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿72﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿31﴾﴾[5].

---

(1) المائدة، الآية: ﴿10﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿18﴾.

(3) النساء، الآية: ﴿171﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿72﴾.

(5) التوبة، الآية: ﴿31﴾.

فلنحمدَ اللهَ نحن المسلمين، على نعمةِ الإسلام، وعلى نعمةِ التوحيد.

ولنَحمَدهُ على تسميتهِ لنا بالمسلمين، ولنَحمَدهُ على نسبتهِ لنا، إلى أبينا ابراهيمَ، عليه وعلى رسولنا أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم.

خطة الكتاب

إنَّ منهج وخطة الكتاب المعتمدة كما هو موضحٌ فيما يلي:

يبحث الكتاب في أمرين أساسيين هما: (**مزايا الأمة الإسلامية**)، و (**أركان تحقيق خير أمة أخرجت للناس**).

الأمر الأول: ما يخص مزايا وفضائل الأمة الإسلامية:

• يعتمد الكتاب في استخلاص تلك المزايا والفضائل بصورة رئيسية على القرآن الكريم. حيث سنقوم باستخراج تلك المزايا والفضائل من آيات القرآن الكريم، وفي ضوءِ أقوال السلف والخلف من أهل العلم والتفسير، ومدعومةً بما ورد في السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ بخصوص تلك المزايا المستخلصة من القرآن الكريم.

• بعد ذلك، نُعرّج على السُّنة النبوية لننقل ما ورد فيها من مزايا وفضائل أخرى لم ترد في القرآن الكريم. حيث سنستعرض بعضًا من تلك المزايا والفضائل، وليس جميعها، وبالأخص، تلك التي وردت في السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

ويرجع السبب إلى عدم استعراضنا لجميع (**مزايا وفضائل الأمة الإسلامية**) التي وردت في السنة الشريفة – وهي كثيرة جدًّا – وذلك لأَنَّ هدفنا في هذا الكتاب وبالمقام الأول، استعراض المزايا التي تخص قيام وبناء الأمة الإسلامية، أي قيام (**خير أمة أخرجت للناس**). وذلك من أجل تذكيرِ المسلمين، ولفت أنظارهم إلى تلك المزايا، وإلى مكانة أمتهم ومنزلتها عند الله تعالى.

إنَّ الغاية من ذكر (**مزايا وفضائل أمة الإسلام**) في كتابنا هذا، ليس لحصرها واستعراضها، فهي في الحقيقة كثيرة جدًّا ومتشعبة. حيث هناك العديد من الكتب التي صُنِّفت في هذا المجال، ويستطيع القارئ الرجوع إليها إنْ أراد المزيد والاستفاضة [1].

فما يهمنا هنا في هذا الكتاب، بصدد ذكر تلك المزايا والتعرف عليها، هو ما يدفع المسلمين ويحثُّهم، وينَبهِّهم على دورهم في العمل من أجل بناء وقيام الأمة الإسلامية. وما يهمنا أيضًا من ذكر تلك المزايا هنا، ما يُبرز ويُسلط الضوء على مسئوليتهم في الدعوة إلى الله وإلى نشر الدين.

---

(1) من هذه الكتب التي تخصصت في ذكر (مزايا وفضائل الأمة الإسلامية)، كتاب: خصائص الأمة المحمدية، محمد بن علوي المالكي المكي الحسني، الطبعة الثانية: 1421هـ، 2000م.

الأمر الثاني: ما يخص أركان قيام وتحقيق خير أمة أخرجت للناس:

• سنعتمد –كليًّا – على القرآن الكريم في استخلاص تلك الأركان، حيث سنبحث في السور والآيات وتفسيرها، لنستخرج ما فيها من أركان لبناء وتحقيق الأمة الإسلامية المنشودة. تلك الأمة التي أراد تعالى أنْ تكون مؤتَمنةُ على رسالتِهِ الأخيرة إلى البشر. وأرادها تعالى أنْ تكون الأمة المبلِّغة عن رسوله ﷺ من أجل حملِ وتبليغِ دينه تعالى ودعوته إلى أمم الأرض. وبذلك تكون جديرة باصطفاء الله لها وجعلها (**خير أمة أخرجت للناس**).

• والسبب في اعتمادنا على القرآن الكريم في استخلاص تلك الأركان، وذلك لأنَّ القرآن الكريم قد أسَّس وأصَّل لتلك الأركان، وغالبًا ما يربط بينها وبين قيام الأمة الإسلامية.

• أما السنة النبوية، فقد جاءت مبينة ومُفصِّلة لتلك الأركان. ولا شك أننا سنستشهد بالكثير من الأحاديث الشريفة التي جاءت بصدد كلِّ ركنٍ من تلك الأركان.

• ومن الجدير بالذكر أنَّ تلك الأركان المستخلصة، قد جاءت في القرآن الكريم في صور وأشكال مختلفة، منها[1].

• ما جاء على شَكلِ وصفٍ، حيث وصف القرآن الكريم به الأمة الإسلامية، ومثال ذلك:

ركن الأمة الواحدة، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2].

وكذلك ما وصف به تعالى المؤمنين بـ (الإخوة)، وذلك في (**ركن الأخوة بين المسلمين**)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[3].

---

(1) ونقصد بالصور والأشكال المختلفة، ما يصطلح عليه أهل العلم بـ (الأحكام التكليفية)، وذلك كالواجب والمحرم، والمكروه والمندوب.

فتعريف الواجب مثلًا: هو ما أمر به الشارع على وجه الإلزام والحتم.

والمحرم أو الممنوع والمحظور: هو ما نهى عنه الشارع على وجه الإلزام بالترك.

وهكذا بقية الأحكام الأخرى.

(2) الأنبياء، الآية: ﴿92﴾.

(3) الحجرات، الآية: ﴿10﴾.

وهكذا غيرها من الأركان.

• وإما على شكل أوامر وواجبات، أمَر تعالى بها الأمة الإسلامية، مثال ذلك: ركن الإصلاح بين المسلمين، كما في قوله تعالى:

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾﴾[1].

• وإما ضده، أي على شكل نواهي، قد نهى تعالى المسلمين وحذرهم من القيام بفعلها، أو ذم ذلك الفعل، وغيرها من أشكال النهي والتحريم، كما في: ركن (عدم التفرَّق)، كما في قوله تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴿103﴾﴾[2].

وهكذا مع بقية الأركان، وغيرها من صور النهي وأشكاله.

أما أقسام الكتاب الاخرى، فهي أربعة أبواب رئيسية، وكما يلي:

الباب الثاني: قصة البشرية

نستعرض في هذا الباب قصة البشرية، متمثلةً بخلق آدم عليه السلام، وعن مهمة الخلافة في الأرض، وعن تكريم الله تعالى للبشر، وإرسال الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وانتهاءً بمحمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

ونناقش في هذا الباب أيضًا مفهوم (خيرية الأمة الإسلامية)، وبالتالي دورها ومكانتها في حفظ ونشر رسالة الله إلى الناس أجمعين.

الباب الثالث: (مزايا وفضائل الأمة الإسلامية)

نستعرض في هذا الباب، (**مزايا وفضائل الأمة الإسلامية**) كما جاءت في الكتاب والسنة. ثم نركز على أهم تلك المزايا، وهي: (**الأمة الوسط**)، (**الأمة الشاهدة**) و (**العلو في الأرض**: ﴿وأنتم الأعلون﴾).

والسبب في استعراض (**مزايا الأمة الإسلامية**)، وذلك من أجل تعريف المسلمين بمكانة أمتهم ومنزلتها عند الله. ومن أجل أنْ يعرف المسلمون دورهم والمهمة التي كلَّفها تعالى لهم، لحمل الدين وتبليغه إلى

(1) الحجرات، الآية: ﴿10﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

الناس. فتلك المهمة ليست سهلة، وليس لهم الخيار بقبولها أو ردها، فقد أنيطت بهم، وتحملوها، من لحظة إسلامهم، ومن اللحظة التي أعلنوا فيها شهادة: أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

فذلك الإعلان، إنما هو تكليفٌ وتشريفٌ لكل مسلم. فهو تكليفٌ بأعباء الدين والدعوة إليه. وهو تشريفٌ باختيارهم لحملها، وبأن جعلهم (**خير أمة أخرجت للناس**).

فمعرفة (**مزايا الأمة الإسلامية**)، إنما هو زاد ومعين ودافع، وتذكير للأمة للقيام بدورها في إقامة الأمة الإسلامية المنشودة، وذلك من أجل حمل دعوة الإسلام.

فإذا لم تقم الأمة بذلك التكليف والتشريف، كان الاستبدال منه تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وكان العقاب عليها من الله أليمًا، وكان ذلك هو الخسران المبين الدنيا والآخرة.

من أجل ذلك أوردنا تلك المزايا والفضائل، قبل الحديث عن (أركان خير أمة أخرجت للناس)، فليحذر المسلمون.

الباب الرابع: أركان خير أمة أخرجت للناس

نستعرض في هذا الباب (أركان بناء وقيام خير أمة أخرجت للناس).

الباب الخامس: الآية الجامعة

نشرح ونحلل في هذا الباب الآيتين الأخيرتين من سورة الحج، ونركز على الآية الأخيرة، حيث نبين أنها جمعت كلَّ مزايا الأمة الإسلامية وأركان بنائها.

خاتمة:

حيث نلخص أهم ما جاء في الكتاب.

---

(1) محمد، الآية: ﴿38﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿54﴾.

الباب الثاني

قصة البشرية

خلق ادم (عليه السلام)

الهبوط إلى الأرض

إِعداد العُدَّة

الإسلام خاتم الأديان

الأمة الإسلامية حاملة أمانة الرسالة إلى البشرية

إعداد الأمة الإسلامية وتأهيلها لحمل أمانة الدعوة

أسباب وجوب العلم بخيرية الأمة الإسلامية ومزاياها الأخرى، وأثره في واقع المسلمين

خاتمة

الباب الثاني

قصة البشرية

خلق ادم (عليه السلام)

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

وقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ:

﴿كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ.﴾[3].

كان الله ولم يكن شيء في الوجود غيره سبحانه! فهو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء، ثم خلق تعالى العرش والماء والكرسي والملائكة والقلم، وخلق السموات والأرض، قال تعالى:

---

(1) ق، الآية: ﴿38﴾.

(2) هود، الآية: ﴿7﴾.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (الروم: 27)، برقم 3019، الحديث بطوله:

﴿عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا، وَرَوَى عِيسَى، عَنْ رَقَبَةَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ.﴾.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿9﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿10﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿11﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿12﴾﴾[1].

ثم خلق تعالى الجن وسائر المخلوقات على الأرض دون البشر[2].

فالجن قد خُلقوا قبل آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[3].

واقتضت حكمة الله تعالى وإرادته أنْ يخلق خلقًا آخر غير الملائكة والجن، ليُضيفه إلى مخلوقاته التي لا يحصي عددها إلا هو سبحانه. ولكنَّ المخلوق الجديد سيكون مختلفًا عن سابقه من جميع الكائنات، فالمخلوق الجديد ستوكل إليه مهمة الاستخلاف في الأرض، حيث سيكون خليفة الله فيها. فقد أخبر تعالى الملائكة بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4].

وسيتولى ذلك المخلوق الجديد مهمة إعمار الأرض التي خُلق منها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[5].

---

(1) فصلت، الآيات: ﴿9-12﴾.

(2)جاء في شرح حديث عمران بن الحصين: ﴿كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، الحديث.﴾ ما نصه:

[قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، قَالَ الطِّيبِيُّ: هُوَ فَصْلٌ مُسْتَقِلٌّ، لِأَنَّ الْقَدِيمَ مَنْ لَمْ يَسْبِقْهُ شَيْءٌ وَلَمْ يُعَارِضْهُ فِي الْأَوَّلِيَّةِ، لَكِنْ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ وَالْعَرْشَ كَانَا مَبْدَأُ هَذَا الْعَالَمِ لِكَوْنِهِمَا خُلِقَا قَبْلَ خلق السَّمَاوَات وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ ذَاكَ إِلَّا الْمَاءُ، وَمُحَصَّلُ الْحَدِيثِ أَنَّ مُطْلَقَ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ مُقَيَّدٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يكن شَيْء غَيره﴾، وَالْمرَاد بكان فِي الْأَوَّلِ: الْأَزَلِيَّةَ، وَفِي الثَّانِي: الْحُدُوثَ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ مَرْفُوعًا أَنَّ الْمَاءَ خُلِقَ قَبْلَ الْعَرْشِ، وَرَوَى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِأَسَانِيدَ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا مِمَّا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ.

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعًا: ﴿أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فَيُجْمَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهُ بِأَنَّ أَوَّلِيَّةَ الْقَلَمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا عَدَا الْمَاءَ وَالْعَرْشَ، أَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا مِنْهُ صَدَرَ مِنَ الْكِتَابَةِ، أَيْ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ اكْتُبْ أَوَّلَ مَا خُلِقَ.]، اهـ. فتح الباري لابن حجر العسقلاني، 289/6.

(3) الحجر، الآية: ﴿27﴾.

(4) البقرة: الآية ﴿30﴾.

(5) هود، الآية: ﴿61﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [قَالَ: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ أَيِ: ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ مِنْهَا، (مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي) خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَمَ، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: جَعَلَكُمْ (فِيهَا) عُمَّارا تُعَمِّرُونَهَا وَتَسْتَغِلُّونَهَا، لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ.]، اهـ. تفسير ابن كثير، 286/4.

لقد قصَّ علينا القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن خلقِ ادمَ — عليه السلام — وامتحانه امام الملائكة، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿31﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿32﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿33﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿34﴾﴾[1].

ثم أخبرنا تعالى عن اسكانه لآدم وزوجه حواء الجنة وما حدث بعد ذلك من اغوائهم من قبل الشيطان مما أدى الى خروجهم من الجنة وهبوطهم الى الأرض، فكانت تلك اول معركة وأول صراع للبشرية مع الشيطان، قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿35﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿36﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿37﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿38﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿39﴾﴾[2].

الهبوط إلى الأرض

حين أهْبَطَ تعالى آدم — عليه السلام— وزوجه إلى الأرض، أخبرهم أنَّهُ جعلها مستقرًّا ومتاعًا إلى حين، لهم ولذريتهم من بعدهم، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

(1) البقرة: الآيات: ﴿30 – 34﴾.

(2) البقرة: الآيات: ﴿35 – 39﴾.

وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿36﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿24﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿25﴾﴾[2].

ومنذ ذلك الحين، بدأت مرحلةٌ جديدةٌ من حالة الصراعِ والحربِ الدائرة رِحَاها بين آدم –عليه السلام– وذريته من بعده من جهة، وبين الشيطان من جهة أخرى، ولكنَّ ساحتها الآن: الأرض، وبكل ما تحمله تلك الأرض من معاني الكدِّ، والتعبِ، والنَّصَبِ، والإعمار، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿61﴾﴾[3].

فكان لزامًا على آدمَ وذريته الآن، أنْ يخوضوا ذلك الصراع المرير الذي لا هوادة فيه، مع إبليس وحزبه، وفي ظروف الأرضِ التي عليهم أنْ يعيشوا فيها، ويتكيَّفوا معها.

لقد مضى وولَّى عهد العيش الرغيد، والمقَام الأمين، الذي كان ينعم به آدم في الجنة، حيث كل شيء كان جاهزًا له، ومُعَدًّا لخدمته، ينعم فيه بالأمن والأمان، والسعادة والهناء، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ﴿118﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ﴿119﴾﴾[4].

وكان على آدمَ وذريته الآن، وهو يحققَ العبودية لله التي خُلِقَ من أجلها في الأرض، أنْ يَكِدَّ ويتعبَ وينصبَ ليوفر العيش الرغيد، والأمان والسكينة له ولذريته. وكان عليه أيضًا، أنْ يخوض هو وذريته من بعده، معركةً، إنما هي صراعٌ مع عدو، كلُّ هَمِّهِ ومبتغاه، الحيلولة دون تحقيق المهمة والغاية التي خُلِقَ من أجلها آدم وذريته، وهي تحقيق العبودية لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿56﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾﴾[6].

(1) البقرة، الآية: ﴿36﴾.

(2) الاعراف، الآيتان: ﴿24، 25﴾.

(3) هود، الآية: ﴿61﴾.

(4) طه، الآيتان: ﴿118، 119﴾.

(5) الذاريات، الآية: ﴿56﴾.

(6) البقرة، الآية: ﴿21﴾.

إِعداد العُدَّة

ومن أجل خوض تلك المعركة، كان لا بد لآدم –عليه السلام– مِن سلاحٍ وعُدَّةٍ، تكون معه ومع ذريته من بعده، من أجل مواجهة هذا العدو الشرس واللعين، ولدفع شرّهِ والانتصار عليه. من أجل ذلك، لم يترك تعالى البشرية هكذا سدًى، تلاقي مصيرها مع هذا العدو المتربص بها. فكان لا بد أَنْ يزودها بذلك السلاح وتلك العُدَّة، فهو تعالى الرحيم بعباده، وهو الخبير بهذا العدو اللعين، وبمَكره وكيده. فكانَ أنْ زوَّدهُ تعالى بسلاحيِّ: **الفطرة، وإرسالِ الأنبياء والمرسلين.**

سلاح الفطرة

مِن أجل أنْ تتزوَّد البشرية بأقوى إعداد، وتتسلح بأقوى الأسلحة، فقد فَطَرَهُم تعالى على ربوبيته لهم، وأودعَ في قلوبهم وفي أعماق أنفسهم وكيانهم، معرفته، وعبوديته، وافتقارهم إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿172﴾﴾[1].

ذلكم السلاح، هو نداء الفطرة التي فَطر الله تعالى عباده جميعًا عليها، وذكرها في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴿25﴾﴾[2]. وأخبرنا عنه رسوله الأمين ﷺ فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ،

(1) الاعراف، الآية: ﴿172﴾. ذكر السعدي في تفسيره الآية بقوله: [يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم. قالوا: بلى قد أقررنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم. فكل أحد مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تُغير وتُبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا قَالُوا: ﴿بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عندكم، من أن الله تعالى ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون فاليوم قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم.]، اهـ. تفسير السعدي، ص 308.

(2) الروم، الآية: ﴿25﴾.

فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴿25﴾﴾[1].

فكانت (**الفطرةُ**) أولَ سلاحٍ يزوِّد تعالى به عباده في معركتهم مع الشيطان الرجيم.

فهذه الفطرة في قلوبهم، تتمثل بنداء الإيمان به تعالى -في قلوبهم وأعماق أنفسهم- وبربوبيته وألوهيته، وبحاجتهم إليه وإلى عونه وسنده، وبأُنسهم بذكره، وراحة قلوبهم وأبدانهم بطاعته والقرب منه، جل شأنه.

فالحقيقة، أنَّ الأصل في دين كل إنسان وعقيدته، الإيمان بالله تعالى وتوحيده، أي أَنَّ الله تعالى قد خلق البشر جميعًا مؤمنين به وموحدين. لكنَّ الشياطين أضلَّتهم وصدتهم عن الحق، كما بينا آنفًا في آية أخذ الميثاق، وفي حديث الفطرة، وكما جاء أيضًا في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: ﴿أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا.﴾، وروى الحديث بطوله[2].

ذكر النووي في شرح الحديث المذكور ما نصه: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، أَيْ: مُسْلِمِينَ، وَقِيلَ: طَاهِرِينَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَقِيلَ: مُسْتَقِيمِينَ مُنِيبِينَ لِقَبُولِ الْهِدَايَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ حِينَ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي الذَّرِّ، وَقَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ﴿هَكَذَا هُوَ فِي نُسَخِ بِلَادِنَا ﴿فَاجْتَالَتْهُمْ﴾ بِالْجِيمِ، وَكَذَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عَنْ رِوَايَةِ الْأَكْثَرِينَ، وَعَنْ رِوَايَةِ الْحَافِظِ أَبِي عَلِيٍّ الْغَسَّانِيِّ﴾ فَاخْتَالَتْهُمْ، بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ.

قَالَ: وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَوْضَحُ، أَيْ: اسْتَخَفُّوهُمْ، فَذَهَبُوا بِهِمْ، وَأَزَالُوهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الْبَاطِلِ، كَذَا فَسَّرَهُ الْهَرَوِيُّ وَآخَرُونَ، وَقَالَ شَمِرٌ: اجْتَالَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ ذَهَبَ بِهِ، وَاجْتَالَ أَمْوَالَهُمْ سَاقَهَا وَذَهَبَ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ برقم 1293. وكتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، برقم 1319). ومسلم في صحيحه أيضًا في (بَابُ: مَعْنَى كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وأطفال المسلمين، برقم 2658.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: (الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم 2865.

بِهَا، قَالَ الْقَاضِي: وَمَعْنَى ﴿فَاخْتَالُوهُمْ﴾ بِالْخَاءِ عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَاهُ، أَيْ: يَحْبِسُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَصُدُّونَهُمْ عَنْهُ.] اهـ[1].

وهذه الفطرة والإيمان بالله تعالى ووحدانيته والافتقار إليه تعالى، موجودة في قلوب كل البشر بلا استثناء، مؤمنهم وكافرهم على حد سواء. فهي عند المؤمنين دومًا، تتجلى وتظهر آثارها على سلوكهم وفي حياتهم، فتراهم منقادين، طائعين، لدين الله تعالى وشرعه وحدوده.

أما الكفار، ففي العادة، لا تظهر تلك الفطرة في سلوكهم ومعاشهم، ولا ترى آثارها في حياتهم. فهم في واقع حياتهم، لا يؤمنون بالله، ولا يستسلمون له، ولا يدعوه، ولا يسألوه العون. ولكنَّ آثار هذه الفطرة إنَّما تظهر جليًّا عند الشدائد والكربات والمحن، وعندما يَمَسُّهُم الضُّر، ويستنفذون كل وسيلة لدفع ذلك الضُّر عنهم. عندها تظهر تلك الفطرة، ويعلم ذلك الكافر أنَّ إلهه ومولاه الحق هو الله، رب السموات والأرض. وعندها يدعون مولاهم الحق راغمين صاغرين، وتتعالى ألسنتهم وقلوبهم بالاستغاثة وطلب العون، والتضرع إلى الله وحده لكشف الضر ورفع البلاء. وعندها يستيقن قلب الكافر، وقلب الجاحد أن لا رب ولا معبودٍ سواه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿67﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿22﴾﴾[3].

---

(1) شرح مسلم للنووي، 197/17. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392، عدد الأجزاء: 18 (في 9 مجلدات).

(2) الاسراء، الآية: ﴿67﴾.

(3) يونس، الآية: ﴿22﴾.

آدم أبو البشر وأول الأنبياء والمرسلين

وأما السلاح الثاني الذي زوَّد تعالى به البشرية في معركتهم مع الشيطان، فقد جعل تعالى أباهم آدم —عليه السلام— نبيًّا من عنده. فآدم — عليه السلام— أبو البشر، هو أول نبيٍّ إلى البشرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿33﴾﴾[1].

جاء في تفسير الطبري في تفسير الآية: [القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿33﴾﴾، قال أبو جعفر: يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: إِنَّ اللَّهَ اجْتَبَى آدَمَ وَنُوحًا، وَاخْتَارَهُمَا لِدِينِهِمَا، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ لِدِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْإِسْلَامِ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ اخْتَارَ دِينَ مَنْ ذَكَرْنَا عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ الَّتِي خَالَفَتْهُ، وَإِنَّمَا عَنَى ﴿بِآلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَى أَنَّ آلَ الرَّجُلِ أَتْبَاعُهُ وَقَوْمُهُ وَمَنْ هُوَ عَلَى دِينِهِ.] اهـ[2].

وعن أبي ذرٍّ، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! أيُّ الأنبياءِ كان أولُ؟ قال: ﴿آدمُ﴾، قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ونبيٌّ كان؟! قال: ﴿نعم نبيٌّ مُكلَّمٌ﴾، قلتُ: يا رسولَ اللهِ: كم المرسَلون؟ قال: ﴿ثلاثُ مئةٍ وبضعةَ عشرَ؛ جمًّا غفيرًا.﴾[3].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿33﴾.

(2) تفسير الطبري، 328/5.

(3) أخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم 2668. الكتاب: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت 1420هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: 6، ج 1 - 4: 1415هـ- 1995م، ج 6: 1416هـ- 1996م، ج 7: 1422هـ- 2002م، الرياض - المملكة العربية السعودية.

وقد اختلف أهل العلم: هل كان آدمُ رسولًا؟ أيضًا، ونورد هنا جوابًا على ذلك من موقع (إسلام ويب) على شبكة الانترنت ما نصه:

[الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فإن أول الأنبياء والمرسلين هو آدم عليه السلام، فقد دلت الآيات القرآنية على أن الله تعالى أوحى إليه وأمره بشرع كان يطبقه في حياته هو وذريته.

فمن ذلك قوله الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، البقرة: 31﴾. إلى آخر السياق.

وقصة ابنيَ آدم تدل على أنَّ لهم شريعة من الله تعالى، فهذا كله من الأدلة على أن آدم كان نبيًّا ورسولًا إلى ذريته. ولكن يُشْكِل عليه ما جاء في حديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما، أن النبي ﷺ قال فيه: ...... فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض......

قال العلماء بعد بحث طويل يرجع إليه في مواضعه: إنَّ آدم وشيث عليهما السلام، كانا نبيين مرسلين قبل نوح عليه السلام إلا أن آدم أرسل إلى بنيه ولم يكونوا كفارًا، بل أمرهم بتعليم الإيمان وطاعة الله، وأما شيث فكان خلفًا له فيهم بعده، بخلاف نوح فإنه مرسل إلى كفار أهل الأرض. وهذا أقرب من القول بأن آدم وشيث لم يكونا رسولين.

وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي عند شرح حديث الشفاعة، والحاصل: أن أول نبي ورسول هو آدم عليه السلام. والله أعلم.] اهـ. موقع (إسلام ويب) على شبكة الانترنت.

وأَمَر تعالى آدمَ —عليه السلام– أنْ يُذَكِّر ذريته بمكر الشيطان وعداوته ويحذروه. وأمره أنْ يدعو ذريته إلى ربهم وإلههم الحق، وأنْ يهديهم إلى صراطه المستقيم ومنهجه القويم.

وقد نادى تعالى البشرية في عدة مواضع من القرآن الكريم، ببنوتها لآدم، وذلك بصيغة: ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، كي يظل عالقًا في أذهاننا مكرَ الشيطان وغوايته، وعداوته لأبينا آدم ولنا جميعًا، وعلى مر العصور. فقد أخبرنا تعالى نحن – بني آدم – بمكر الشيطان وعدواته لنا، وكيف أخرج أبَوَيْنا من الجنة، كي نحذرَ فِتْنَتَهُ وغوايته، قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿27﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾﴾[2].

فكانت أيضًا، نبوة أبيهم آدم —عليه السلام– بمثابة إشارة منه تعالى إلى البشر، يا بني آدم: كما أَنَّ أصل مادة خلقكم طيبة العنصر، فهي طيبة الفكر والمنهج أيضًا، وذات رشاد. فأنتم أبناء نبي، وأنتم مسلمون بالنسب والفطرة، فلا تنحرفوا عن إيمانكم وعن منهجكم النبوي الذي ورثتموه عن أبيكم آدم – عليه السلام – وتنحرفوا عن منهج الرسل من بعده، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿35﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿36﴾﴾[3].

وكذلك، فإنَّ آدمَ عليه السلام، بصفته نبيًّا، لا شكَّ قد دعا زوجه وأولاده إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ووجوب طاعته واجتناب نواهيه، ولا شك أنَّه قد قصَّ عليهم مكر الشيطان معه، وكيف أخرج أباهم وأمهم من الجنة، كي يحذرهم من غوايته ومكره وعداوته، لكي يتخذوه هم أيضًا عدوًّا لهم.

(1) الاعراف، الآية: ﴿27﴾.

(2) يس، الآية: ﴿60﴾.

(3) الاعراف، الآيتان: ﴿35، 36﴾.

إرسال الأنبياء والرسل

ولم يكن آدم –عليه السلام– النبي الوحيد إلى البشرية، فقد توالت الأنبياء والرسل من بعده، تُحذِّر من فتنة الشيطان وكيده ومكره، وتُذكِّرهم بقصته مع أبيهم، وتُبلِّغُهم رسالات الله وكتبه إلى الناس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴿44﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴿163﴾وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴿164﴾رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴿165﴾﴾[2].

وهكذا، توالت على البشرية أنبياءٌ ورسلٌ لا يحصي عددهم إلا الله، وما ذلك إلا من رحمته تعالى بعباده في معركتهم مع عدوهم اللدود، الشيطان الرجيم وحزبه اللعين.

وكما هو معلوم، فلم يقُصْ علينا القرآن الكريم إلا عددًا محدودًا من ذِكر وقِصصِ أنبيائه ورسله إلى البشرية، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿164﴾﴾[3].

---

(1) المؤمنون، الآية: ﴿44﴾.

(2) النساء، الآيات ﴿163– 165﴾. وفي موضع آخر من القرآن الكريم، ذكر تعالى أنبياءً آخرين، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴿83﴾وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿84﴾وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴿85﴾وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴿86﴾وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿87﴾ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿88﴾أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴿89﴾أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴿90﴾﴾، الأنعام: الآيات: ﴿83 – 90﴾.

(3) النساء، الآية: ﴿164﴾.

الإسلام خاتم الأديان

ثم اقتضت إرادة الله تعالى وحكمته أَنْ يختم رسالاته إلى الناس، وأنْ ينتهي عهد إرسال الأنبياء والرسل، وأَنْ يتوقف بعد ذلك الوحي الإلهي عن أهل الأرض، وأنْ تتوقف تلك السلسة المباركة من الأنبياء والمرسلين، فبعث تعالى محمدًا ﷺ سيد ولد آدم أجمعين، وأشرف أنبيائه ورسله، وصفوته من خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿79﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴿1﴾قُمْ فَأَنذِرْ﴿2﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴿119﴾﴾[3].

فكان كتابه ﷺ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[4].

وأخبر تعالى عن كتابه أَنَّه ثقيل بأحكامه وفرائضه ومسئولياته، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿5﴾﴾[5].

وأنه ثقيل الأجر والجزاء في الميزان يوم القيامة، وذلك لمن آمن به وعمل بمقتضاه.

وأخبر تعالى، أنَّه قد أحْكَمَ القرآن الكريم، وفصَّله، وبيَّنه للناس، كي يَسْهل عليهم العمل به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿17﴾﴾[6]، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴿106﴾﴾[7].

وأخبر تعالى أَنْ محمدًا ﷺ رسوله إلى الناس جميعًا، بلا استثناء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿158﴾﴾[8].

(1) النساء، الآية: ﴿79﴾.

(2) المدثر، الآية: ﴿2﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿119﴾.

(4) الانعام، الآية: ﴿19﴾.

(5) المزمل، الآية: ﴿5﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴿5﴾﴾ (المزمل: 5)، قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ ثَقِيلٌ مُبَارَكٌ الْقُرْآنُ، كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ فِي الْمَوَازِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ قَوْلٌ ثَقِيلٌ، فَهُوَ كَمَا وَصَفَهُ بِهِ ثَقِيلٌ مَحْمَلُهُ ثَقِيلٌ الْعَمَلُ بِحُدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ.]، اهـ. تفسير الطبري366/23.

(6) القمر، الآية: ﴿17﴾.

(7) الاسراء، الآية: ﴿106﴾.

(8) الاعراف، الآية: ﴿158﴾.

وأنه ﷺ رسوله إلى الجن أيضًا، قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴿1﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴿2﴾﴾[1].

فكان ﷺ مبعوثًا للعالمين جميعًا، رحمة منه تعالى وفضلًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴿107﴾﴾[2].

وكان اللسان العربي المبين لسان القرآن الكريم، وهو ذات لسانه ﷺ، ولغة قومه وأُمته العربية التي ينتمي إليها. فالعربية كانت لسان قريش على وجه التحديد، القبيلة التي ينتمي إليها ﷺ، وكانت أفصح قبائل العرب قاطبة.

وتلك هي سنة الله تعالى في كل رسول ونبي يبعثه على مر الزمان، وذلك أَنْ يبعثه بلغة قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿4﴾﴾[3]. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [هَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ: أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ عُمَرَ بْنِ ذَرٍ قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ». وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ: بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ يَضِلُّ تَعَالَى مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَفْعَالِهِ، فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ: أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِلُغَتِهِمْ، فَاخْتَصَّ كُلَّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَاخْتَصَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعطَهُن أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ

(1) الجن، الآيتان: ﴿1، 2﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴿29﴾قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴿30﴾يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿31﴾وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿32﴾﴾، الأحقاف: الآيات: ﴿29 – 32﴾.

(2) الانبياء، الآية: ﴿107﴾.

(3) ابراهيم، الآية: ﴿4﴾.

لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأُحِلَّت لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً.﴾] اهـ[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿2﴾[2]. فقد ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا وَأَوْسَعُهَا، وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنُّفُوسِ؛ فَلِهَذَا أنزلَ أَشْرَفُ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ، عَلَى أَشْرَفِ الرُّسُلِ، بِسِفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، وَابْتَدَئَ إِنْزَالُهُ فِي أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ وَهُوَ رَمَضَانُ، فَكَمُلَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، بِسَبَبِ إِيحَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ.] اهـ[3].

---

(1) تفسير ابن كثير، 410/4.

(2) يوسف، الآية: ﴿2﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 313/4.

من الجدير بالذكر فإنَّ عربية القرآن الكريم قد ذُكرت في أحدَ عَشَرَ موضعًا من القرآن الكريم، وهي كما يلي:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿2﴾﴾، يوسف، الآية: ﴿2﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴿37﴾﴾ ، الرعد، الآية: ﴿37﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴿103﴾﴾، النحل، الآية: ﴿103﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴿113﴾﴾، طه، الآية: ﴿113﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿192﴾نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴿193﴾عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴿194﴾بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴿195﴾﴾، الشعراء، الآيات: ﴿192 - 195﴾،

وقال تعالى: ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿28﴾﴾، الزمر، الآية: ﴿28﴾.

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿3﴾﴾، فصلت، الآية: ﴿3﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴿44﴾﴾، فصلت، الآية: ﴿44﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴿7﴾﴾، الشورى، الآية: ﴿7﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿3﴾﴾، الزخرف، الآية: ﴿3﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴿22﴾﴾، الأحقاف، الآية: ﴿22﴾.

ثم أخبر تعالى أنَّه بمبعث محمدٍ ﷺ ونبوته، فقد خَتم النبوات، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴿40﴾﴾[1]، فلا نبي بعده ولا رسول.

وبذلك، يكون كتابه ﷺ القرآن الكريم، هو آخر الكتب السماوية المنزلة إلى الناس، ومعجزته الخالدة التي تحدى بها سبحانه الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴿88﴾﴾[2].

ويكون دِينه ﷺ الإسلام، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿3﴾﴾[3]، هو خاتم الأديان والشرائع المنزلة من الله تعالى إلى البشر. فلا دين مقبول عنده تعالى بعد الآن غير الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿85﴾﴾[4].

وبذلك تكون أمته ﷺ الأمة الإسلامية، هي آخر الأمم من ذوات الرسالات السماوية، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ اليَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ.﴾[5].

الأمة الإسلامية حاملة أمانة الرسالة إلى البشرية

ثم مضى رسول الله ﷺ إلى ربه، وقد بلَّغَ رسالة الله تعالى على أكمل وجه وأتمِّه، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وشَهِد له الصحابة بذلك، فعن جابر بن عبد الله –رضي اللهُ عنه– وذكر حجة رسول الله ﷺ

(1) الاحزاب، الآية: ﴿40﴾.

(2) الاسراء، الآية: ﴿88﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

(4) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له في (في كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم 836، و856). ومسلم في صحيحه في (كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم 855، و856.

وخطبته في عرفة، إلى أنْ قال: قال ﷺ: ﴿وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ به، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقالَ: بإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.﴾(1).

ومن قبلُ، فقد شَهِد الحق سبحانه أيضًا بأداء النبي ﷺ لأمانة الرسالة المكلَّف بها، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴿3﴾﴾(2).

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينِ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خُلْف، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ (الْأَنْعَامِ: 115)، أَيْ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ الدِّينَ لَهُمْ تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ أَيْ: فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي رَضِيَهُ اللَّهُ وَأَحَبَّهُ وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ رُسُلِهِ الْكِرَامِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، أَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ أَكْمَلَ لَهُمُ الْإِيمَانَ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى زِيَادَةٍ أَبَدًا، وَقَدْ أَتَمَّهُ اللَّهُ فَلَا يَنْقُصُهُ أَبَدًا، وَقَدْ رَضِيَهُ اللَّهُ فَلَا يَسْخَطُه أَبَدًا. وَقَالَ أَسْبَاطٌ عَنِ السُّدِّيِّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَوْمَ عَرَفَة، فَلَمْ يُنَزَّلْ بَعْدَهَا حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَاتَ. قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيس: حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْحَجَّةَ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذْ تَجَلَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَمَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الرَّاحِلَةِ، فَلَمْ تُطِقِ الرَّاحِلَةُ مِنْ ثِقَلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ، فَبَرَكَتْ فَأَتَيْتُهُ فَسَجَّيْتُ عَلَيْهِ بُرْدا كَانَ عَلَيَّ. قَالَ ابْنُ جُرَيْج وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ يَوْمِ عَرَفَةَ بِأَحَدٍ وَثَمَانِينَ يَوْمًا.] اهـ(3).

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، برقم 1218.

(2) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 22/7.

فالآية المذكورة آنفًا، تتضمن رضاه تعالى، وشهادته لنبيه ﷺ بأداء ما أمره به، من تبليغ رسالته على أتم وجه. إذْ ما كان القرآن الكريم ليعلن كمال الدين وتمامه، ورضاه تعالى للناس، على الحال الذي نقله وبلَّغه رسوله ﷺ، لولا أنَّهُ ﷺ قد قام بذلك فعلًا، وأدَّاه على أحسن صورة، وأتم وجه.

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، صارت الأمةُ الاسلامية مسئولة عن حملِ أمانةِ وحِفظ الرسالة، ومسئولة عن الدعوة إلى الله، وذلك بأمر الله لها – أي الأمة الإسلامية – وتكليفه لها بذلك، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَة مِنَ الأمَّة مُتَصَدِّيَةٌ لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسْبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ.﴾ وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ﴾.] اهـ[2].

وهذا التكليف – أعني أمانة وحفظ الرسالة ونشرها – إنَّما هو تشريف للأمة الإسلامية، وللأمة العربية على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿44﴾﴾[3].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَشَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَلَمْ يَحْكِ سِوَاهُ. وَأَوْرَدَ الْبَغَوِيُّ هَاهُنَا حَدِيثَ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا أَكَبَّه اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ.﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ شَرَفٌ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أُنْزِلَ بِلُغَتِهِمْ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارُهُمْ وَصَفْوَتُهُمْ مِنَ الْخُلَّص مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَمَنْ شَابَهَهُمْ وَتَابَعَهُمْ.] اهـ[4].

(1) آل عمران، الآية: ﴿104﴾.

(2) تفسير ابن كثير 78/2.

(3) الزخرف، الآية: ﴿44﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 210/7.

وبأمر النبي ﷺ ووصيته هو أيضًا، صارت الأمة الإسلامية مسئولة عن أمانة وحِفظ الرسالة ونشرها بأمر. فعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص، رضي اللَّه عنْهُما، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: ﴿بلّغُوا عَنّي ولَوْ آيَةً، وحَدِّثُوا عنْ بَنِي إسْرَائيل وَلا حَرجَ، ومنْ كَذَب علَيَّ مُتَعمِّدًا فَلْيتبَوَّأْ مَقْعَدهُ مِنَ النَّار﴾[1].

وبذلك أصبح المسلمون، الأمة المُبلِّغة عن الرسول ﷺ والنائبة عنه، وحُجَّةُ الله تعالى على خلقه من غير المسلمين، بدعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى، والدعوة إلى توحيده وعبادته. وكذلك بدعوة الناس إلى الإيمان بنبيه ﷺ وإتّباع سنته وهديه، والدخول في الإسلام، دينُ اللهِ الذي لا يرتضي تعالى غيره من الأديان والشرائع السابقة.

لقد نسخ الإسلام كل الديانات والشرائع السابقة، وأبطل العمل بها، وألغى قبولها، فلم تعد تلك الأديان والشرائع قابلة للتعبُّدِ بها عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿85﴾﴾[2]. ذكر صديق حسن خان في (فتح البيان) في تفسيره للآية بقوله: [﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يعني: أنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وأنَّ كلَّ دينٍ سواه غير مقبول، لأنَّ الدين الصحيح: ما يَرضى الله عن فاعله، ويُثيبه عليه، ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الواقعين في الخسران يوم القيامة، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب.] اهـ[3].

وذكر السعدي أيضًا في (تيسير الكريم الرحمن) في تفسيره للآية بقوله: [أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأنَّ دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصًا وانقيادًا لرُسله، فما لم يأتِ به العبد، لم يأتِ بسبب النجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل.] اهـ[4].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.﴾[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم 3247.

(2) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

(3) فتح البيان، 278/2. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان، (ت 1307هـ)، عني بطبعِهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، 1412هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 15.

(4) تفسير السعدي، ص 137.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه في (كِتَابُ الْإِيمَانَ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (153).

وهكذا أصبح الإسلام، الدين الوحيد الذي يجب على الناس أنْ يدينوا به، والذي لا يقبل الله – بعد ذلك الحين – دينًا سواه من البشر.

وكذلك، فقد أصبحت الأمة الإسلامية، الأمة الوحيدة التي تدين بذلك الدين المقبول عنده تعالى. وصار المسلمون، الوحيدون في الأرض – من بني البشر – ممن يعبد الله على الوجه الذي أراده تعالى، وعلى المنهج الذي ارتضاه. فصار لزامًا على الأمة الإسلامية المحافظة ذلك الدين، والذود عنه، وحمله إلى الناس جميعًا، إذ لا نبي من بعد رسول الله ﷺ سيأتي كي يُبلِّغ رسالة الله إلى البشرية.

إعداد الأمة الإسلامية وتأهيلها لحمل أمانة الدعوة

ولما كانت الأمة الإسلامية مسئولةٌ ومؤتمنةٌ على إيصال رسالة نبيها ﷺ وحمل أمانته، وتبليغ دعوته إلى الأمم الأخرى، وليس فقط مجرد الإيمان بتلك الرسالة والعمل بها، ولما كان المسلمون قد نالوا الشرف بانتمائهم إلى صاحب الدعوة والرسالة وارتباطهم به ﷺ[1].

فمن أجل ذلك وغيره، جعل الله الأمة الإسلامية خير الأمم، وأوسَطها، وحجته، والشاهدة عليهم يوم القيامة، وغيرها من المزايا والفضائل الأخرى، وذلك لكي تكون مثالًا، وأسوةً حسنةً، تقتدي بها الأمم الأخرى وتتبعها. ولكي يكون أيضًا، حافزًا لها ومعينًا ودافعًا للقيام بنشر الرسالة في الأرض.

لقد خصَّ تعالى الأمة الإسلامية بتلك المزايا والفضائل، والتي جاء ذكر بعضٍ منها في القرآن الكريم، والبعض الآخر في السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وذلك لتعرف الأمة الإسلامية منزلتها عند الله، وبالتالي، تعرف حجم دورها الذي كلفها تعالى به في هذه الحياة الدنيا تجاه الأمم الأخرى.

لذا كان من الواجب على كل مسلم أنْ يعرف هذه المزايا والفضائل التي خص الله بها أمته الإسلامية من دون سائر أمم الأرض، وذلك كي يعتز بدينه، ويعتز بأمَّته الإسلامية التي ينتمي إليها، ولكي يعلم أنَّها خير أمم الأرض قاطبة، منذ أنْ خلق الله الأرض ومن عليها وإلى يوم القيامة.

لا بد لكل مسلم أنْ يعلم يقينًا أنَّنا أمة الإسلام خيرٌ من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس، ومن جميع أصحاب الرسالات السماوية السابقة، ناهيك عن الأمم الوثنية والملحدة الأخرى.

---

(1) سيُبيَّن ذلك لاحقًا.

لا بد أنْ يعلم أَنَّنا خير من هؤلاء جميعًا، وذلك لأنَّنا أتْباع محمدٍ ﷺ أشرف الأنبياء والمرسلين –عليهم السلام أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1].

فرسولنا أشرفهم وسيدهم –صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– لأنَّ الله تعالى قد أخذ العهد والميثاق من جميع الأنبياء والمرسلين على الإيمان برسولنا محمد ﷺ واتّباعه ونُصرته إنْ هو بُعث وهم أحياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿81﴾﴾[2].

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ.﴾[3].

ولأننا نحن المسلمون، الأمة الوحيدة التي تؤمنُ بجميع الأنبياء والمرسلين، وتحبهم، وتوقّرهم، ولا تفرَّق بين أحدٍ منهم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴿286﴾﴾[4].

فنحن المسلمون على عكس اليهود والنصارى من أهل الكتاب وغيرهم، الذين لا يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، وخصوصًا بنبينا محمدٍ ﷺ. فهؤلاء من أهل الكتاب لا يؤمنون بنبينا ﷺ ولا يؤمنون بكتابه،

---

(1) البقرة، الآية: ﴿253﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿81﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَمِّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُخِذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقُ، لئن بَعَث محمدًا وَهُوَ حَيّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وأمَرَه أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ: لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه.] اهـ. تفسير ابن كثير، 85/2.

وعن عبد الله بن ثابت الأنصاري جاء عمرُ بنُ الخطابِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ إني مررت بأخٍ لي من بني قريظةَ، فكتب لي جوامعَ من التوراةِ، ألا أعرضُها عليك؟ قال: فتغيَّر وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ قال عبدُ اللهِ يعني ابنَ ثابتٍ فقلت: ألا ترَى ما بوجهِ رسولِ اللهِ ﷺ فقال عمرُ: رضينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا، قال: فسُرِّيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: ﴿والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لو أصبح فيكم موسَى ثم اتبعتموه وتركتموني لضلَلتم، أنتم حظِّي من الأممِ وأنا حظُّكم من النبيينَ.﴾. أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، 173/1، رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفي وهو ضعيف.

(3) تقدم تخريجه.

(4) البقرة، الآية: ﴿286﴾.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿72﴾ وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿89﴾﴾[2].

وليس ذلك فحسب، بل إنَّ مِن اليهود مَنْ قتلوا الكثير من أنبياء الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿91﴾﴾[3].

ولأنَّنا نحن المسلمون قد أسلمنا وجهنا لله، وآمنا به، واتّبعنا ملة إبراهيم –عليه السلام– قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿125﴾﴾[4].

فمن أحسن مِنَّا دينًا، ومن أحسن مِنَّا مِلةً، وقولًا، وعملًا! قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿33﴾﴾[5].

فالمسلمون عمومًا، خيرٌ وأفضل مِنْ أَتْباع أَيِّ نبيٍّ من أنبياء الله تعالى، ناهيك عن الأمم الأخرى من البوذيين، والهندوس، والمشركين، والملحدين، وغيرهم من الكفار، مِن الذين لا دين سماوي لهم، أو لا يؤمنون بالله أصلا.

(1) آل عمران، الآيتان: ﴿72، 73﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿89﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿91﴾.

(4) النساء: ﴿125﴾.

(5) فصلت، الآية: ﴿33﴾.

أسباب وجوب العلم بخيرية الأمة الإسلامية ومزاياها الأخرى، وأثره في واقع المسلمين

إنَّ العِلم بخيريةِ أمةِ الإسلام، وكونها حجةُ اللهِ، والشاهدةُ على الأمم يوم القيامة، وما يقتضيه من الإيمان واليقين به، والعمل بمقتضى ذلك العلم، لهو مهم جدًّا، وضروري لكل مسلم أَن يَعيه، ويجعله دومًا نُصب عينيه، ومدار حياته ووجوده على الأرض.

ونحن إذْ نقولُ بوجوبِ هذا العلم والمعرفة واليقين، ليس مُجرد ذلك العلم الذي يعرفهُ الكثير من المسلمين عن خيرية أمتهم الإسلامية. وإنَّما نعني بذلك العلم، الذي يترتب عليه تَبِعات وواجبات على المسلمين تجاهَ بناءِ أمتهم، ونُصرتها، وصدِّ العدوان عنها.

وإِذ نقول ذلك أيضًا، وندعو المسلمين إلى معرفته، واليقين به، والاعتزاز به، والفرح بتلك المزايا، لا نقصد بذلك مجرد الفخر، والكبرياء، وإِنْ كان يَحُقُّ لنا ذلك. ولكنْ بشرطِ عدمِ الرياء والازدراء، والانتقاص من الآخرين من غير المسلمين، كبشرٍ، وكخلقٍ مِن خلقِ الله. فمنْ حقنا أنْ نفرحَ، ونفخرَ، ونعتز بكوننا مُسلمين ننتمي إلى الإسلام، ونتخذه دينًا ومنهجًا، وواقعًا في حياتنا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿57﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿58﴾﴾[1].

وإِنَّما قصدنا بوجوب ذلك العلم[2] للأسباب الآتية:

أولًا: التصديقُ بكلامِ اللهِ تعالى، وبكلامِ رسولهِ ﷺ

فهو تصديقٌ بالله تعالى وبكلامه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿87﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿122﴾﴾[3].

وهو أيضًا تصديقٌ بنبيه ﷺ وبسنته الشريفة، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴿1﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿2﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿3﴾﴾[4].

(1) يونس، الآيتان: ﴿57، 58﴾.

(2) أعني: العِلم بخيريةِ أمةِ الإسلام، وكونها حجةُ اللهِ، والشاهدةُ على الأمم يوم القيامة، وبقية المزايا الأخرى.

(3) النساء، الآيتان: ﴿87 و122﴾.

(4) النجم، الآيات: ﴿1 - 3﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[1].

فهذا التصديق بكلام الله ورسوله إنما هو من صُلب وأصول العقيدة. ونعني بذلك: أنْ نُصدِّق بكل ما أخبر تعالى أخبر رسوله، وإنْ كنا أحيانًا قد لا نرى أثر ذلك على الأرض، وقد يتأخر، قليلًا أو كثيرًا، فلا نُدركه نحن طوال حياتنا، وتُدركه الأجيال من بعدنا. فعلى الرغم من ذلك، فالمسلم يعلم يقينًا أنَّ كل ما صدرَ عن الله وعن رسوله حقٌّ وصدقٌ، وأنَّهُ واقعٌ لا محالة[2].

فقد أخبر ﷺ الصحابة بأنَّ كل ما يقولهُ لهم ويُخبر عنه، فهو حقٌّ، فعن عبدِ اللهِ بن عَمرٍو، قال: كنتُ أَكتُبُ كلَّ شيءٍ أَسمَعُهُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فنَهَتْني قُرَيشٌ، وقالوا: أَتكتُبُ كلَّ شيءٍ تَسمَعُهُ ورسولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ يَتكلَّمُ في الغضبِ والرِّضا؟ فأَمسَكْتُ عن الكِتابِ، فذَكَرْتُ ذلكَ لرسولِ اللهِ ﷺ فأَوْمأَ بأُصبُعِهِ إلى فيه، فقال: «اكتُبْ؛ فوالَّذي نفْسي بيدِهِ، ما يَخْرُجُ منه إلَّا حقٌّ.»[3].

فمن هذه الأخبار، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ متَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَينِ، وَيُمْشَطُ

---

(1) الحشر، الآية: ﴿7﴾.

(2) ومن جملة تلك الأخبار وتأخر تحقيقها، خبر انتصار الروم على فارس أيام العهد المكي، قال تعالى: ﴿الم﴿1﴾غُلِبَتِ الرُّومُ﴿2﴾فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴿3﴾فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴿4﴾بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿5﴾وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴿6﴾﴾، الروم، الآية: ﴿1 – 6﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآيات المذكورة بقوله: [نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ حِينَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الْفُرْسِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَقَاصِي بِلَادِ الرُّومِ، وَاضْطَرَّ هِرَقْلَ مَلك الرُّومِ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَحَاصَرَهُ فِيهَا مُدَّةً طَوِيلَةً، ثُمَّ عَادَتِ الدَّوْلَةُ لِهِرَقْلَ، كَمَا سَيَأْتِي.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ قَالَ: غُلبت وغَلَبت. قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فذُكر ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ» فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا. فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُون» أَرَاهُ قَالَ: «الْعَشْرِ». قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ. ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعًا، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ حُرَيْث، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَزَارِيِّ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ الثَّوْرِيِّ بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ، عَنْ حبيب.] اهـ. تفسير ابن كثير، 276/6.

(3) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم: 3646. صحيح سنن أبي داود للألباني، ثلاث مجلدات، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى الجديدة: 1419هـ، 1998م. وفي السلسلة الصحيحة برقم 1532.

بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.﴾[1].

والتشكيك في وعد الله ورسوله وأخبارهم، فيما لو تأخر تحقيقها، إنما هو حال المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿12﴾﴾[2].

ولهذا السبب، فإنَّ مجرد التشكيك بما أخبر الله ورسوله، يَخِلُّ ويَقدحُ بعقيدة المسلم، ناهيك عن رده وتكذيبه، فإنْ فعل ذلك، فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه، وخرج من حظيرة الإسلام.

فلا ينبغي للمسلم أنْ يشك ولو للحظة بخيرية أمته الإسلامية — على وجه الخصوص – ووعد الله لها بعلوها في الأرض، ولا يشكُّ بمزاياه الأخرى، على الرغم مما يرى مِن تفوقٍ وهيمنةٍ للكفار، وما يرى من تراجع وتخلف، ومن مصائب ونكبات تُصيب المسلمين.

إنَّ التصديق التام هو حال المؤمنين الصادقين، كما أخبر تعالى عن موقف أصحاب رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿22﴾﴾[3].

ثانيًا: الاستعلاء بالإسلام والاعتزاز به

يجب على المسلم وهو يُصَدِّق بخيرية أمته، أَنْ يعتزَّ ويستعليَ بدينه الإسلامي الذي خصه تعالى به.

فالواجب على كل مسلمٍ أنْ يعتزَّ بربهِ الذي يعبده،

وأنْ يستعليَ بدينه — الإسلام — الذي آمَنَ به واعتنقه،

وبكتابه — القرآن الكريم — الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

وبنبيه ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين،

أي باختصار، أنْ يعتز المسلمُ ويستعليَ بالرسالةِ التي آمنَ بها، وبكلِّ ما يتعلقُ بها.

فاعتزاز المسلم برسالته وبانتمائه إلى أمته الإسلامية، مهم جدًّا، كي لا يَشعر هو، على وجه الخصوص، وأمته الإسلامية بصورة عامة، بالنقص والدونية والهزيمة أمام الأمم الأخرى. لا سيما، حينما تضعف

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر برقم 6544، وكتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم 3416، وكتاب فضائل الصحابة، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، برقم 3639.

(2) الأحزاب، الآية: ﴿12﴾.

(3) الأحزاب، الآية: ﴿22﴾.

الأمة وتنتكس، وتنزوي على نفسها في فترة من فترات حياتها، ويتراجع المسلمونَ عن القيادة والريادة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾[1].

فقد تُهزم الأمة الإسلامية في بعض مراحلها، ويتسلَّط أعداؤها عليها، وينالوا منها الكثير. وقد يعتريها الضعف، والتمزق، وتتخلف عن ركب الأمم الأخرى، ولكنَّها في آخر الطريق، منصورة، ولها العلو في الأرض. فعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ.»[2].

فهذه سنة الله تعالى في الابتلاء والتمحيص والتمكين، وقد بينها تعالى جليًّا في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

فعلى سبيل المثال، ما ذكره تعالى في سورة آل عمران عن غزوة أُحُد، وأسباب هزيمة المسلمين في تلك المعركة، خير مثال على السبب الثاني الذي نحن بصدد الحديث عنه، قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿137﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿138﴾ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿140﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿141﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿142﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿143﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿144﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿145﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿146﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا

(1) آل عمران، الآية: ﴿139﴾.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، وهم أهل العلم، برقم 6881، وكتاب المناقب، باب: سؤال المشركين أنْ يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر، برقم 3441.

فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿147﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿148﴾﴾[1].

ولأهمية هذا السبب، وأعني وجوب استعلاء المسلم بدينه والاعتزاز به، وعدم اليأس والشعور بالذل والهوان عندما تُصاب الأمة بالمصائب والنكسات، سنتدبر هنا سريعًا بعضًا من هذه الآيات التي ذكرناها آنفًا، فنقول:

لقد طمأنَ تعالى المسلمين في بداية السياق، فأخبرهم بأنَّهم الأعلون دائمًا، ما داموا متمسكين بإيمانهم، معتصمين بالله وحبله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾[2].

وهذا، أعني (**العلو في الأرض**)، من فضائل ومزايا الأمة الإسلامية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره للآية بقوله: [وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّهُ خَاطَبَهُمْ بِمَا خَاطَبَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ، لِأَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (طه: 68)، وَقَالَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾. وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ اسْمِهِ الْأَعْلَى، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَلِيُّ، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.] اهـ[3].

بعد ذلك، ذكَّر تعالى الأمة بأنَّ ما يصيبها من أذى بسبب القتال، والصراع مع الباطل، فهو يصيب أعداءها أيضًا، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾[4].

وأخبرهم بأنَّها سُنَّته في مداولة الأحداث والزمان والحال بين الناس، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[5]، فقد ذكر الطبري في تفسيره للآية بقوله: [حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: 140)، إِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْلَا الدُّوَلُ مَا أُوذِيَ

---

(1) آل عمران، الآيات: ﴿137 – 148﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره للآيات المذكورة آنفًا بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُصِيبوا يومَ أُحُد، وقُتِل مِنْهُمْ سَبْعُونَ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَيْ: قَدْ جَرَى نَحْوَ هَذَا عَلَى الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا مَنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ وَالدَّائِرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْأُمُورِ عَلَى جَلِيَّتِهَا، وَكَيْفَ كَانَ الأممُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ وَ ﴿هُدًى﴾ لِقُلُوبِكُمْ وَ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ أَيْ: زَاجِرٌ (عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ).] اهـ، تفسير ابن كثير، 110/2.

(2) آل عمران، الآية: ﴿139﴾.

(3) تفسير القرطبي، 217/4.

(4) آل عمران، الآية: ﴿140﴾.

(5) آل عمران، الآية: ﴿137﴾.

الْمُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ قَدْ يُدَالُ لِلْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ بِالْكَافِرِ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ وَيَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ.] اهـ[1].

بعد ذلك، أخبر تعالى أنَّ سُنته اقتضت أيضًا امتحانُ إيمانِ الأمة وأفرادها، والتحقق من التزامها بدينها الذي ارتضاه لها، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وأخبر تعالى أَنَّهُ بذلك الابتلاء والاختبار، يصطفي من المؤمنين شهداء، كي يمنحهم منزلتين. المنزلة أُولى: وذلك أنهم أحياء يرزقون في الجنة. وأما المنزلة الثانية، وهي انهم شهداء، بمعنى أنَّهم يكونوا حجته على الأمم يوم القيامة، وذلك بقيامهم بواجب الدعوة وتبليغ الناس، والجهاد في سبيل الله لدفع أذى الكفار ورد عدوانهم، كي يكون الدينُ كله لله، قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿140﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2].

ثم طمأن تعالى المسلمين ثانيةً، فأخبرهم بأنَّه سيمحق الكافرين، ويستأصِل شأفتهم، قال تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿141﴾﴾.

(1) تفسير الطبري، 83/6. وذكر ابن كثير في تفسيره للآية أيضًا بقوله: [﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جراحٌ وقُتل مِنْكُمْ طائفةٌ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلٍ وَجِرَاحٍ ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَيْ: نُديل عَلَيْكُمُ الْأَعْدَاءَ تَارَةً، وَإِنْ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَكُمْ لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي مِثْلِ هَذَا لنَرَى، أَيْ: مَنْ يَصبر عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يَعْنِي: يُقْتَلُون فِي سَبِيلِهِ، ويَبْذُلون مُهَجهم فِي مَرْضَاتِهِ. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ: يُكَفِّرَ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، إِنْ كَانَ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَإِلَّا رُفِعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ: فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بَغَوا وبَطروا فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دَمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ ومَحْقهم وَفَنَائِهِمْ.] اهـ، تفسير ابن كثير 110/2.

(2) ذكر الآلوسي في (روح المعاني) في تفسيره الآية بقوله:[﴿ويَتَّخِذَ مِنكم شُهَداءَ﴾ جَمْعُ شَهِيدٍ وهو قَتِيلُ المعْرَكَةِ وأرادَ بِهِمْ شُهَداءَ أُحُدٍ كما قالَهُ الحَسَنُ وقَتادَةُ وابْنُ إسْحاقَ، و(مِن): ابْتِدائِيَّةٌ أوْ تَبْعِيضِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِيَتَّخِذَ، أوْ بِمَحْذُوفٍ وقَعَ حالًا مِن (شُهَداءَ)، وقِيلَ: جَمْعُ شاهِدٍ أيْ ويَتَّخِذَ مِنكم شُهُودًا مُعَدَّلِينَ بِما ظَهَرَ مِنَ الثَّباتِ عَلى الحَقِّ والصَّبْرِ عَلى الشَّدائِدِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِن شَواهِدِ الصِّدْقِ لِيَشْهَدُوا عَلى الأُمَمِ يَوْمَ القِيامَةِ، و(مِن) عَلى هَذا بَيانِيَّةٌ لِأنَّ تِلْكَ الشَّهادَةَ وظِيفَةُ الكُلِّ كَما يُشِيرُ إلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْناكم أُمَّةً وسَطًا لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى النّاسِ﴾ ويُؤَيِّدُ الأوَّلَ ما أخْرَجَهُ ابْنُ أبِي حاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قالَ: لَما أبْطَأ عَلى النِّساءِ الخَبَرُ خَرَجْنَ يَسْتَخْبِرْنَ، فَإذا رَجُلانِ مَقْتُولانِ عَلى دابَّةٍ أوْ عَلى بَعِيرٍ، فَقالَتِ امْرَأةٌ مِنَ الأنْصارِ: مَن هَذانِ؟ قالُوا: فُلانٌ وفُلانٌ أخُوها وزَوْجُها أوْ زَوْجُها وابْنُها، فَقالَتْ: ما فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ؟ قالُوا: حَيٌّ، قالَتْ: فَلا أُبالِي يَتَّخِذُ اللَّهُ تَعالى مِن عِبادِهِ الشُّهَداءَ، ونَزَلَ القُرْآنُ عَلى ما قالَتْ، ﴿ويَتَّخِذَ مِنكم شُهَداءَ﴾ وكَنّى بِالِاتِّخاذِ عَنِ الإكْرامِ لِأنَّ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا لِنَفْسِهِ فَقَدِ اخْتارَهُ وارْتَضاهُ، فالمَعْنى لِيُكْرِمَ أُناسًا مِنكم بِالشَّهادَةِ ﴿واللَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ﴿140﴾﴾ أيْ يُبْغِضُهم، والمُرادُ مِنَ الظّالِمِينَ إمّا المُنافِقُونَ كابْنِ أُبَيٍّ وأتْباعَهُ الَّذِينَ فارَقُوا جَيْشَ الإسْلامِ عَلى ما نَقَلْناهُ فِيما قَبْلُ فَهم في مُقابَلَةِ المُؤْمِنِينَ فِيما تَقَدَّمَ المُفَسَّرُ بِالثّابِتِينَ عَلى الإيمانِ الرّاسِخِينَ فِيهِ الَّذِينَ تُوافِقُ ظَواهِرُهم بَواطِنَهم، وإمّا بِمَعْنى الكافِرِينَ المُجاهِرِينَ بِالكُفْرِ، وأيًّا ما كانَ فالجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ لِتَقْرِيرِ مَضْمُونِ ما قَبْلَها، وفِيها تَنْبِيهٌ عَلى أنَّهُ تَعالى لا يَنْصُرُ الكافِرَ عَلى الحَقِيقَةِ وإنَّما يُغَلِّبُهُ أحْيانًا اسْتِدْراجًا وابْتِلاءً لِلْمُؤْمِنِ، وأيْضًا لَوْ كانَتِ النُّصْرَةُ دائِمًا لِلْمُؤْمِنِينَ لَكانَ النّاسُ يَدْخُلُونَ في الإيمانِ عَلى سَبِيلِ اليُمْنِ والفَأْلِ، والمَقْصُودُ غَيْرُ ذَلِكَ.] اهـ. تفسير الآلوسي، 238/2، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت 1270)، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، عدد الأجزاء: 16 (15 ومجلد فهارس).

وهكذا فَلْيطمئن المسلم، ولْيوقِن بأنَّ العُلُوَّ، والغَلَبَةَ، والنصرَ والتمكينَ، سيكون لدين الله، ولأمته الإسلامية في نهاية المطاف، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿105﴾﴾[1]، ومعلومٌ أنْ ليس في الأرض -اليوم- صالحون، غير المسلمين.

(1) الأنبياء: 105﴾. وذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [وقد ذكرنا قول من قال ﴿أَنَّ الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أنها أرض الأمم الكافرة، ترثها أمة محمد ﷺ، وهو قول ابن عباس الذي روى عنه عليّ بن أبي طلحة.] اهـ. تفسير الطبري، 437/16.

وذكر القرطبي أقوالًا أخرى في معنى (الأرض) وذلك في تفسيره الآية بقوله: [﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)، أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا أَرْضُ الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، لِأَنَّ الْأَرْضَ فِي الدُّنْيَا قال قَدْ وَرِثَهَا الصَّالِحُونَ وَغَيْرُهُمْ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: وَدَلِيلُ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ (الزمر: 74)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ. وَعَنْهُ أَيْضًا: أَنَّهَا أَرْضُ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ تَرِثُهَا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْفُتُوحِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، بِدَلِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ (الأعراف: 137)، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِبَادِ الصَّالِحِينَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَرَأَ حَمْزَةُ ﴿عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ بِتَسْكِينِ الْيَاءِ.] اهـ. تفسير القرطبي، 349/11.

وذكر البغوي في تفسيره الآية بقوله: [﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يَعْنِي أَرْضَ الْجَنَّةِ، ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ (الزُّمَرِ: 74)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ أَنَّ أَرَاضِي الْكُفَّارِ يَفْتَحُهَا الْمُسْلِمُونَ وَهَذَا حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ بِإِظْهَارِ الدِّينِ وَإِعْزَازِ الْمُسْلِمِينَ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَرْضِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ.] اهـ. معالم التنزيل للبغوي، 320/3. معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510هـ). تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ، عدد الأجزاء: 5.

وذكر السعدي في تفسيره الآية بقوله: [﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأنَّ الصالحين يُمكِّن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية.] اهـ. تفسير السعدي، ص 531.

وذكر الشوكاني في تفسيره الآية بقوله: [وقَدِ اخْتُلِفَ في مَعْنى ﴿يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ﴾ فَقِيلَ: المرادُ أرْضُ الجَنَّةِ، واسْتَدَلَّ القائِلُونَ بِهَذا بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وقالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وعْدَهُ وأوْرَثَنا الأرْضَ﴾ (الزمر: 74)، وقِيلَ: هي الأرْضُ المقَدَّسَةُ، وقِيلَ: هي أرْضُ الأُمَمِ الكافِرَةِ يَرِثُها نَبِيُّنا –صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ– وأُمَّتُهُ بِفَتْحِها، وقِيلَ: المرادُ بِذَلِكَ بَنُو إسْرائِيلَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وأوْرَثْنا القَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ (الأعراف: 137)، والظّاهِرُ أنَّ هَذا تَبْشِيرٌ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ –صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ– بِوِراثَةِ أرْضِ الكافِرِينَ، وعَلَيْهِ أكْثَرُ المفَسِّرِينَ. وقَرَأ حَمْزَةُ (عِبادِي) بِتَسْكِينِ الياءِ، وقَرَأ الباقُونَ بِتَحْرِيكِها.] اهـ. تفسير الشوكاني، 508/3. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت 1250)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414هـ.

وذكر صديق حسن خان في تفسيره الآية بقوله: [﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، قد اختُلف في معنى هذه الآية، فقيل: المراد أرض الجنة، قاله ابن عباس، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾، وقيل: هي الأرض المقدسة، وقيل: هي أرض الأمم الكثيرة الكافرة، يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها، وقيل: المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله سبحانه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾.

والظاهر أن هذا تبشير لأمته ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين.

قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ، ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون، وقيل: عام في كل صالح، فيتناول أمة محمد ﷺ وغيرها من الأمم.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 379/8.

ثالثًا: الإسلامُ خيرُ الأديانِ وأيسرُها وأكملُها وأشملُها، ورسولهُ خيرُ الرسلِ وسيِّدُهم

ولما كان الإسلام خير الأديان وأيسرها وأكملها وأشملها، وأنَّ رسوله ﷺ خير الرسل وسيدهم، كان لزامًا على كل مسلم أنْ يشعر بالفخر، والفرح باعتناقه هذا الدين وبانتمائه للأمة الإسلامية، واليقين بأنها خيرِ وأفضلِ أمة، وذلك لأنَّها تَتَّبِعُ خيرَ الأنبياء والمرسلين، وأشرفهم، وحبيب ربِّ العالمين، محمدٌ رسول الله وخاتم النبيين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿128﴾﴾[1].

ولأنَّها أمةٌ تحمل خير الرسالات، وأكملها، وأيسرها، وأشملها، ألا وهي رسالة الإسلام، تلك الرسالة التي نسخت كل الشرائع والرسالات السابقة، فلن يقبل الله من الناس غيرها بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِن الْخَاسِرِينَ ﴿85﴾﴾[2].

ولأنَّهُا أمةٌ قد تَنَزَّلَ عليها أعظم الكتب السماوية، ألا وهو القرآن الكريم، والذي تحدى فيه الحق سبحانه: الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾﴾[3].

فهذا الكتاب قد حَفِظَهُ ربُّ السموات والأرض، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يستطيع أنْ يُحرِّفُه المحرِّفون على مر الدهور، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿85﴾﴾[4].

---

(1) التوبة، الآية: ﴿128﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

(3) الإسراء، الآية: ﴿85﴾.

(4) الحجر، الآية: ﴿9﴾.

رابعًا: الخيرية المشروطة

وهذا من أهم الأسباب وأعظمها وأخطرها، وينبغي أنْ لا يغيب عن بال المسلم أبدًا. ونقصد بذلك، أنْ يعلمَ المسلمُ أَنَّ (خيرية هذه الأمة)، و(حُجِّيَّتها)، و(شَهادَتِها على الأمم الأخرى)[1]، إنَّما هي مشروطة بجملة من الشروط التي أمر الله تعالى بها، وأمر نبيه ﷺ الأمة الإسلامية بتحقيقها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

فلكي يكون المسلمون خير امة، فقد اشترط تعالى عليهم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الدعوة إلى الله ودينه، ثم عطف عليه بالإيمان به تعالى، أي بالالتزام بتوابع ومقتضيات ذلك الإيمان، أعني: العمل، وذلك بإقامة الدين في حياة الأمة الإسلامية، من عبادات ومعاملات وإقامة الحدود وغيرها من أمور الدين.

ويؤيد كلامنا هذا ما نقله الشوكاني عن مجاهد في ذلك الاشتراط، وما ذهب إليه الشوكاني نفسه عند تفسيره للآية حيث قال: [وقَوْلُهُ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلَخْ، كَلامٌ مُسْتَأْنَفٌ يَتَضَمَّنُ بَيانَ كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ مَعَ ما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِن أنَّهم خَيْرُ أُمَّةٍ ما أقامُوا عَلى ذَلِكَ واتَّصَفُوا بِهِ، فَإذا تَرَكُوا الأمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ زالَ عَنْهم ذَلِكَ، ولِهَذا قالَ مُجاهِدٌ: إنَّهم خَيْرُ أُمَّةٍ عَلى الشَّرائِطِ المَذْكُورَةِ في الآيَةِ، وهَذا يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ تَأْمُرُونَ وما بَعْدَهُ في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلى الحالِ أيْ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ حالَ كَوْنِكم آمِرِينَ ناهِينَ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وبِما يَجِبُ عَلَيْكُمُ الإيمانُ بِهِ مِن كِتابِهِ ورَسُولِهِ وما شَرَعَهُ لِعِبادِهِ، فَإنَّهُ لا يَتِمُّ الإيمانُ بِاللَّهِ سُبْحانَهُ إلّا بِالإيمانِ بِهَذِهِ الأُمُورِ.] اهـ[3].

ولهذا كان لزامًا على المسلمين أن يعلموا أنَّ نُصرةَ الله للأمة الإسلامية منوط بنصرتها لدينه وكتابه ورسوله ﷺ والدعوة إليهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿7﴾﴾[4].

---

(1) نقصد هنا، بـ (حجيتها) و (شهادتها على الأمم) لاستحقاق مزية (خير أمة أخرجت للناس)، أي بقيام المسلمين بواجب الدعوة إلى الله. لا بما جاء في السُّنة من شهادتها للأنبياء يوم القيامة بتبليغهم رسالة الله، كما جاء عن نوح –عليه السلام–، فتلك الأخيرة ثابتة، بغض النظر عن قيام المسلمون بواجب الدعوة أم قصَّروا، فلينتبه القارئ كي لا يخلط بين الاثنين.

(2) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

(3) تفسير الشوكاني، 425/1.

(4) محمد، الآية: ﴿7﴾.

فإن أخَلَّت الأمة بتلك الشروط، ولم تلتزم بها أو ببعضها، وضيَّعتها، كان العقابُ من الله تعالى شديدًا، والحسابُ عليها عسيرًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿54﴾﴾[1]. **وقال تعالى:** ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿38﴾﴾[2].

ويكون العقاب من الله أليمًا وشديدًا وذلك كي تعود الأمة إلى دينها، ومنهجها، وتلتزم بما شرط الله عليها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿165﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿166﴾﴾[3]، وذلك لأنَّ أمةَ الإسلام قدوةٌ، وأسوةٌ حسنةٌ لباقي الأمم، قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

فعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك مما حذّر ﷺ المسلمين منه، فعَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿والَّذي نَفسي بيدِهِ لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتَنهوُنَّ عنِ المنكرِ أو ليوشِكَنَّ اللَّهُ أن يبعثَ عليكُم عقابًا منهُ ثمَّ تَدعونَهُ فلا يُسْتَجابُ لَكُم.﴾[4].

وهذا يفسر لنا أسباب هزيمة الأمة الإسلامية في بعض مراحل حياتها، وحقبها التاريخية، ومنْ ثَمَّ تسلط الكافرين عليها، وبالتالي تراجعها عن قيادة العالم، وذلك عقوبة منه تعالى، كي ترجع الأمة إلى دينها، وكتابِ ربها، وتُحقِّق تلك الشروط التي أمرها تعالى بها، كي تستحق أنْ تكون خير أمة أخرجت للناس.

إنَّ الأمة الإسلامية تُمثِّلُ دينَ الله وشريعته ومنهجه في الأرض. فإنْ هي انحرفت، وضاعت، وانتهت، ضاع الدين من الأرض وانتهى، فعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - وهو يُحَدِّث عن يوم بدر، أنَّه رأى رسول الله ﷺ مستقبلًا القبلة يدعو: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا.﴾[5].

---

(1) المائدة، الآية: ﴿54﴾.

(2) محمد، الآية: ﴿38﴾.

(3) آل عمران، الآيتان: ﴿165، 166﴾.

(4) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، برقم 2169. صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، 1420هـ، 2000م.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، وتمام الحديث: حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ (هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ). حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى المشركينَ وهُم ألفٌ، وأصحابهُ ثلاثمائة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا. فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ. ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ﴿اللَّهُمَّ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي. اللَّهُمَّ! آتِ مَا وَعَدْتَنِي. اللَّهُمَّ! إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ

مصدر خيرية الأمة الإسلامية

ونود أَنَّ نبين هنا أمرًا مهمًّا يتعلق بسبب – أو مصدر – تلك الخيرية التي اكتسبتها الأمة الإسلامية.

فمن مراجعة السببين: الثالث والرابع لخيرية الأمة الإسلامية، واللَّذَيْن ذكرناهما آنفًا، يتبين لنا ما يلي:

أَنَّ فضل الأمة الإسلامية وخيريتها، ومِن ثَمَّ تأَهُّلها واستحقاقها لقيادة العالم، وذلك تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿33﴾﴾[1]، إنّما جاء من مصدرين: **أصلي ومكتسب:**

1. **أصلي**:

ونعني به: أي بسبب نزول المنهج الإلهي والرباني، المتكامل والشامل عليها، من دون سائر الأمم، وذلك كما فصَّلنا آنفًا في السبب الثالث من أسباب: (وجوب العلم بخيرية الأمة الإسلامية).

فكما هو معلوم، فإِنَّ كتاب الأمة الإسلامية – القرآن الكريم – هو خير الكتب، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴿23﴾﴾[2].

وهو المهيمن على جميع الكتب السماوية قبله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿48﴾﴾[3].

الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ﴾، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ. فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ. فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ. ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وقال: يا نبي الله! كفاك مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ. فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: 9) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ. إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ. وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا. فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ. فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فقال: ﴿صدقت. ذلك مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ﴾، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ. وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. أخرجه مسلم في صحيحه في: كتاب الجهاد والسير، بَابُ الْإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَإِبَاحَةِ الْغَنَائِمِ، برقم 1763.

(1) التوبة، الآية: ﴿33﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴿28﴾﴾، الفتح، الآية: ﴿28﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿9﴾﴾، الصف، الآية: ﴿9﴾.

(2) الزمر، الآية: ﴿23﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿48﴾.

وأنَّ رسولها محمدٌ ﷺ أفضل الرسل وأشرفهم، والذي أخذ تعالى الميثاق من جميع الرسل من قَبله على أن يؤمنوا به، ويصدقوه، ويتبعوه إنْ هو بُعِث في حياتهم ﷺ. فكما ذكرنا سابقًا، عن عبدالله بن ثابت الأنصاري، جاء عمرُ بنُ الخطابِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ إني مررت بأخٍ لي من بني قريظةَ، فكتب لي جوامِعَ من التوراةِ، ألا أعرضُها عليك؟ قال: فتغيَّر وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ قال عبدُ اللهِ، يعني ابنَ ثابتٍ، فقلت: ألا ترَى ما بوجهِ رسولِ اللهِ ﷺ فقال عمرُ: رضينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا، قال: فسُرِّيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لو أصبح فيكم موسَى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضلَلتم، أنتم حظِّي من الأممِ، وأنا حظُّكم من النبيينَ.»[1].

2. مكتسب

وأما المصدر الثاني، أي: (المكتسب)، فنعني به، بسبب قيام المسلمين بإقامة الدين في حياتهم، وقيامهم بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاعتصام بحبله، وعدم التنازع والتفرق، إلى آخره، مما أمرَ الله ورسوله به الأمة، وما نَهوا عنه وحَذَّروا منه.

فبالمصدر الأصلي وحده، لن تكون الأمة الإسلامية (خير أمة أخرجت للناس)، حتى تحقق ما أمرها الله به من إقامة دينه في الأرض، على نفسها وعلى الناس جميعًا، وذلك تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾﴾[2]، **وحينئذٍ تكون جديرة باختيار الله لها، واصطفائها من بين الأمم.**

وختامًا، نعيد ونكرر القول:

ينبغي أنْ لا يتكِئ المسلمون على خيرية أمتهم وفضلها، وذلك لمجرد أنهم أتباع خير الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأنَّ الله وعدَ رسوله وأمته بالنصر والتمكين في الدنيا، والرحمة والمغفرة والجنة في الآخرة. فلا شك أنَّ ذلك حق وكائن إنْ شاء الله، ولكن بشرط أنْ يحقق المسلمون أيضًا، الشروط التي أُمروا بها، والتي هي بمثابة أركان ودعائم لقيام (خير أمة أخرجت للناس).

(1) تقدم تخريجه.

(2) الفتح، الآية: ﴿28﴾.

خاتمة

تحدثنا في هذا الباب عن قصة خلقِ آدم –عليه السلام– ومعركته مع إبليس، ونزوله إلى الأرض، للقيام بواجب الخلافة، وبداية البشرية، واستمرار هذه المعركة، وتحذير الله لبني آدمِ مِن عدم نسيانِ ما فعله الشيطان مع أبيهم. ثم بينا أنَّ الله تعالى لم يتركْ آدمِ وذريته في معركتهم مع الشيطان، وكفاحهم في الأرض بدون سلاح وعُدَّة. فقد جهزهم تعالى بسلاح الفطرة، وأرسل أنبياءه ورسله ليبلِّغوهم رسالاته وكلماته، كي يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. ومن أجل أنْ يعودوا إلى موطنهم الأصلي الجنة، إنْ هم أطاعوا رسل الله، كما وعدهم تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم بيَّنا كيف أنَّ الله تعالى قد ختمِ رسالاته بـ (الإسلام)، آخِرَ الأديان، وبنبيه محمدًا ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين. وجعل تعالى أمة الإسلام (خير أمة أخرجت للناس)، ومنحها مزايا وفضائل كثيرة، من أهمها: (الأمة الوسط)، و (الشاهدة على الأمم يوم القيامة). وكلَّفها تعالى بمهمة الدعوة إليه، وتبليغ رسالته إلى البشرية، حيث لا نبي ولا رسول بعد رسول الله محمد ﷺ.

ثم بيَّنا وجوبِ معرفة المسلمين وعلمهم اليقيني بخيرية أمتهم، وبمزاياها الأخرى. وأنَّ هذه الخيرية مشروطة، وتقع عليها تبِعات على الأمة. ثم بينا تلك التبِعات وأثر هذا العلم في واقع أمتهم، وذلك من أجلِ القيام العبودية لله وحده، وإقامة دينه في واقعِ المسلمين وحياتهم، والقيامِ بواجبِ الدعوة والتبليغ في الأرض.

في الباب القادم، سنستعرض بالتفصيل (المزايا والفضائل) التي منحها تعالى للأمة الإسلامية، وخصَّها دون سائر الأمم، مع أدلتها من الكتاب والسنة، وذلك لتكون جديرة بحمل منهجه ورسالته إلى البشرية إلى أنْ يرِث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

الباب الثالث

مزايا وفضائل الأمة الإسلامية

مقدمة

فصل: الأُمَّةُ الوَسَطُ (خَيْرُ أُمَّة أُخرِجَتْ للنَّاس)

فصل: الأُمَّةُ الشَّاهِدَةُ على الأُمَمْ (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ)

فصل: العلو في الأرض: (وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ)

الباب الثالث

مزايا وفضائل الأمة الإسلامية

مقدمة

كما هو معلوم، فإِنَّ الله تعالى قد اختص الامة الإسلامية بجملة من المزايا والفضائل دون سواها من أمم الأرض لكي تكون حاملة ومبلغة لرسالته تعالى من بعد رحيل نبيه محمدٍ ﷺ وانتقاله الى الرفيق الأعلى وانتهاء عصر الرسل وبعثهم وختمها به ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

وذكرنا — سابقًا – في مقدمة الكتاب، أنَّنا استخرجنا هذه مزايا وفضائل الامة الإسلامية من كتاب الله تعالى، وفي ضوء مما استنبطهُ أهل العلم والتفسير من السلف والخلف.

وكذلك استخرجنا تلك المزايا من السنة النبوية الشريفة، من خلال ما ورد من أحاديث رسول الله ﷺ، في هذا الشأن. ومن الجدير بالذكر فإِنَّ المزايا المذكورة في السُّنة النبوية الشريفة، كثيرة ومتشعبة. ومنها ما ورد بطرق صحيحة وحسنة، ومنها ما ورد بطرق ضعيفة وفيها مقال، ولهذا السبب، فإِننا سنركز في بحثنا هنا على أهمها، وأصحها سندًا.

ونقصد بالتركيز على أهمها، أي أننا سنركز على استعراض ما تحتاجه الأمة من مزايا تُعرِّفها بمكانتها وموقعها بين الأمم، ولكي تُعَرِّفَ تلك المزايا الأمةَ أيضًا، بعِظم الأمانة المكلفة بها من أجل إقامة دين الله في الأرض، ومن أجل شحذ الهمم والطاقات لحمل هذا الدين، ودعوة إلى الناس جميعًا إليه. وبالتالي، كي يقوم المسلمون بذلك الدور الريادي العظيم، الذي لا توجد أمةٌ في الأرض قادرةٌ ومؤهلةٌ للقيام به غيرهم.

من خلال بحثنا في استخراج مزايا الأمة الإسلامية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، لاحظنا أنَّ جميع تلك المزايا والفضائل قد تجمعت وتركزت في ثلاث مزايا عظيمة وأساسية، ذكرهم تعالى في كتابه الكريم في أكثر من موضع وهم كما يلي:

الأمة الوسط (خير أمة أخرجت للناس)

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

الأمة الشاهدة على الأمم

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾[2].

العلو في الأرض

وقال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾[3].

فالأمة الإسلامية خير الأمم كتابًا وخيرها نبيًّا ورسولًا، فهي خير الأمم منهجًا ورسالةً وهديًا وطريقة وأتباعًا. وبالتالي، تحت تلك المزايا الثلاث – أعني (الأمة الوسط)، (الأمة الشاهدة)، و (العلو في الأرض) – تندرج جميع مزايا وفضائل الأمة الإسلامية الأخرى، والتي أخبر تعالى عنها في القرآن الكريم، وأخبر عنها ﷺ في السنة الصحيحة والثابتة، كما سنبين ذلك في هذا الباب إن شاء الله، وكلًّا حسب موضعه.

فيكفي بالأمة الإسلامية عمومًا، وبكل مسلم على وجه الخصوص، يكفيهم فخرًا بهذه المزايا الثلاث، لكي يشكروا الله تعالى على فضله عليهم، وبالتالي من أجل القيام بطاعته والعمل على مرضاته سبحانه وتعالى.

ويكفي بالأمة الإسلامية عمومًا، وبكل مسلم على وجه الخصوص، يكفيهم: مسئوليةً، وأمانةً، وعبأً، بهذه المزايا الثلاث، وذلك من أجل القيام بواجب الدعوة إلى الله وإلى دينه.

فلو تأملت الأمة الإسلامية، وتأمل كل مسلم أمر تلك المزايا الثلاث، لما سَكنَ لهم طَرفُ، ولما هدأ لهم بال!

فوصف الأمة الإسلامية ومنحها مزية: (الأمة الوسط) و (خير أمة أخرجت للناس)، يجعلها — أي الأمة – دائمة المراقبة لكل عمل يصدر منها، كي تبقى جديرة بهذا الوصف الإلهي، ويجعلها — أيضًا – دائمة الشكر لهذا الفضل الإلهي عليها.

ووصفها بـ (الأمة الشاهدة على الأمم)، يجعلها تعي حجم الأمانة والمسئولية لحمل ونشر دين الله ورسالته إلى أمم الأرض.

(1) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(2) الحج: الآية: ﴿78﴾.

(3) آل عمران، الآية: ﴿139﴾.

فالأمة الإسلامية شاهدة على قيام الأنبياء بتبليغ أقوامهم، وبوصول الرسالات إليهم. فأما شهادتها للأنبياء، فعنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وَالوَسَطُ: العَدْلُ.﴾[1].

والأمة الإسلامية شاهدة أيضًا — وهذا هو الأهم – على قيامها هيَ بإيصال رسالة الإسلام إلى الأمم الأخرى[2].

ووعدُ اللهِ للمسلمين بأنهم الأعلون إنْ كانوا مؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾، من شأنه أنْ يَطرد عن قلوبهم، الحزن والهوان والذل والصغار، وهم يجاهدون لإعلاء كلمة الله، على الرغم مما يصيبهم من نكبات، وما يرون من انتفاخ الباطل وانتفاشه وهيمنته.

بل على العكس، فإنَّ ذلك الوعد من الله، يجعلهم على يقين راسخ وتفاؤل دائم بأنهم المنصورون، وأنَّهم الأعلوْن، ما داموا مؤمنين بالله ورسوله وبوعده الحق.

ومن جانب آخر، يجعلهم ذلك الوعد من الله، على حذرٍ دائمٍ، ومراقبةٍ دائمةٍ من التزامهم بدينهم وإقامته في حياتهم وواقعهم، كي يفوزوا بوعد الله الحق، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿55﴾﴾[3].

سنقوم في هذا الباب باستعراض المزايا والفضائل التي خص الله بها الأمة الإسلامية من دون سائر الأمم، وذلك فضلًا منه تعالى، وتأهيلًا لها كي تقوم بدور الرسول والمبلِّغ عن الله، من أجل حمل رسالته إلى الأمم الأخرى.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ (نوح: 1) إلى آخر السورة، برقم 3161، وفي كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143﴾ برقم 4217، وفي كتاب الاعتصام بالسنة، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِلُزُومِ الجَمَاعَةِ، وَهُمْ أَهْلُ العِلْمِ برقم 6917.

(2) قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾﴾ الصف، الآية: ﴿9﴾.

(3) النور، الآية: ﴿55﴾.

فصل: الأُمَّةُ الوَسَطُ (خَيْرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاس)

القرآن الكريم

لقد كرّم الله تعالى الأمة الإسلامية أعظم تكريم، ووصفها بأروع وصف، ورفعها إلى أسمى مكانة، وذلك بأنْ جعلها (الأُمةَ الوسط) بين الأمم، أي: خيرها وأفضلها على الإطلاق، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(1). ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم –عليه السلام–، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها. ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب.] اهـ(2).

وذكر القرطبي أيضًا في تفسيره للآية نحوًا من ذلك فقال: [فيه أربع مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمّةً وَسَطًا، أي: جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط: العَدْل، وأصل هذا، أنَّ أحمدَ الأشياءِ أوسطها. وروى الترمذيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، قال: ﴿عَدْلًا﴾، قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي التنزيل: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ (القلم:28)، أي: أعدلهم وخيرهم.] اهـ(3).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، بيَّنَ تعالى بجلاء ووضوح، المقصود بالأمة الوسط، وذلك أنَّ الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس، فقد قال تعالى مخاطبًا الرعيل الأول من المسلمين وهم جيل الصحابة

---

(1) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 327/1.

(3) تفسير القرطبي، 153/1.

– رضي الله عنهم – وكذلك من بعدهم، الأمة الإسلامية وإلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

ذكر الشوكاني في تفسيره للآية بقوله: [قَوْلُهُ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ هَذا كَلامٌ مُسْتَأْنَفٌ يَتَضَمَّنُ بَيانَ حالِ هَذِهِ الأُمَّةِ في الفَضْلِ عَلى غَيْرِها مِنَ الأُمَمِ، وكانَ قِيلَ: هي التّامَّةُ؛ أيْ: وُجِدْتُمْ وخُلِقْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ، ومِثْلُهُ ما أنْشَدَهُ سِيبَوَيْهِ:

وجِيرانٌ لَنا كانُوا كِرامُ

ومِنهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كانَ في المَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: 29)، وقَوْلُهُ: ﴿واذْكُرُوا إذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ (الأعراف: 86). وقالَ الأخْفَشُ: يُرِيدُ أهْلَ أُمَّةٍ؛ أيْ: خَيْرَ أهْلِ دِينٍ، وأنْشَدَ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وهَلْ يَأْثَمَن ذُو أُمَّةٍ وهو طائِعُ

وقِيلَ مَعْناهُ: كُنْتُمْ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وقِيلَ: كُنْتُمْ مُنْذُ آمَنتُمْ. وفِيهِ دَلِيلٌ عَلى أنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ الإسْلامِيَّةَ خَيْرُ الأُمَمِ عَلى الإطْلاقِ، وأنَّ هَذِهِ الخَرِّيَّةَ[2] مُشْتَرَكَةٌ ما بَيْنَ أوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وآخِرِها بِالنِّسْبَةِ إلى غَيْرِها مِنَ الأُمَمِ وإنْ كانَتْ مُتَفاضِلَةً في ذاتِ بَيْنِها. كَما ورَدَ في فَضْلِ الصَّحابَةِ عَلى غَيْرِهِمْ. قَوْلُهُ: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ﴾ أيْ: أُظْهِرَتْ لَهم. وقَوْلُهُ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ﴾ إلَخْ، كَلامٌ مُسْتَأْنَفٌ يَتَضَمَّنُ بَيانَ كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ مَعَ ما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِن أنَّهم خَيْرُ أُمَّةٍ ما أقامُوا عَلى ذَلِكَ واتَّصَفُوا بِهِ، فَإذا تَرَكُوا الأمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المنْكَرِ زالَ عَنْهم ذَلِكَ، ولِهَذا قالَ مُجاهِدٌ: إنَّهم خَيْرُ أُمَّةٍ عَلى الشَّرائِطِ المذْكُورَةِ في الآيَةِ، وهَذا يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ تَأْمُرُونَ وما بَعْدَهُ في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلى الحالِ أيْ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ حالَ كَوْنِكم آمِرِينَ ناهِينَ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وبِما يَجِبُ عَلَيْكُمُ الإيمانُ بِهِ مِن كِتابِهِ ورَسُولِهِ وما شَرَعَهُ لِعِبادِهِ، فَإنَّهُ لا يَتِمُّ الإيمانُ بِاللَّهِ سُبْحانَهُ إلّا بِالإيمانِ بِهَذِهِ الأُمُورِ.] اهـ[3].

نقول: كون الأمة الإسلامية أنَّها الأمة الوسط، هو عِزٌ ما بعده عِزٌ، وفخرٌ، وتشريفٌ لكل مسلم ينتمي إلى هذه الأمة. وهو في الوقت ذاته، تكليفٌ أيضًا، وذلك لأنَّ الله تعالى، وبعد أَنْ أخبر أنَّهُ جعل الأمة الإسلامية، (الأمة الوسط)، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، عقَّب بعد ذلك بقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ

(1) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

(2) هكذا في الأصل، ولعل المقصود: الخيرية.

(3) فتح القدير، الشوكاني، 425/1.

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴿41﴾﴾[2].

فهو إذًا: تشريفٌ وتكليف، أو قُلْ: تشريفٌ مشروط. فهو تشريفٌ من جهة، وقد بيّنّا ذلك في فصل (الخيرية المشروطة). ومن جهة أخرى، فهو تكليفٌ، وذلك لأَنَّ الله تعالى قد اصطفى الأمة الإسلامية، واختارها دون سائر الأمم لحمل رسالته، والدعوة إليها، والقيام بواجب الرسول[3]، إذْ لا نبيَّ ولا رسولَ من بعده ﷺ وذلك كما أسلفنا آنفًا.

لهذا السبب، فمن الواجب على الأمة أَنْ تُحافظ على أسباب ذلك الاصطفاء، وأسباب جعلها خيرَ الأمم وأفضلها، والشاهدة عليهم، وذلك بأنْ تحقق جملة من الشروط ومنها: (الاعتصام بحبل الله)، و(عدم الاختلاف)، و(عدم الاقتتال) فيما بينها، والقيام بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى دينه)، وغيرها من الأوامر والواجبات التي أمر الله الأمة بالالتزام والقيام بها، والتي أطلقنا عليها اسم: (أركان خير أمة أخرجت للناس)[4].

باختصار شديد، أي أنْ تحقق الأمة الإسلامية العبودية لله في الأرض، لكي تكون مثالًا يُحتذى بها، وحجة الله على خلقه. فإنْ هي عَمِلت بمقتضى ذلك الاصطفاء، وأقامت دين الله تعالى، وحققت الأركان، والتزمت بأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ كانت خير الأمم وأفضلها.

رِضى اللهُ عن الأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ

إِنَّ من بشائر وعلامات استحقاق الأمة الإسلامية لمزية (الأمة الوسط)، وذلك أَنَّ الله تعالى مدحها ورضي عنها، وخصوصًا عن الصحابة - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين.

لقد أخبر تعالى أنَّه رضيَ عن السابقين الأوائل من جيل الصحابة، وهم المهاجرون والأنصار، وعن كل من تبِعهم بعد ذلك، وسار على منهجهم، واهتدى بهديهم، واستنَّ بسُنتهم التي أرشدهم إليها رسول الله

(1) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

(2) الحج، الآية: ﴿41﴾.

(3) سوف يأتي الحديث عن هذه المزية في فصل: (الأمة الشاهدة).

(4) سنأتي بالتفصيل على تلك الأركان في الباب القادم، إن شاء الله.

ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿100﴾﴾[1].

ورضى اللهِ تعالى - كما هو منصوص في الآية المذكورة - ليس مقصوراً على الصحابة من المهاجرين والأنصار، بل يشمل أيضًا، جميع الأمة الإسلامية، ولكن بشرط أنْ يتَّبعَ جيلَ الصحابة – رضوان الله عليهم – بإحسان إلى يوم القيامة. وبشرط أنْ يكون مِن يواليهم، ويترضَّى عنهم، ولا يقعَ في أعراضهم، ولا يتهمهم بمخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه، ناهيك عن اتهامهم بخيانة دينه وسُنَّته، واتهامهم – حاشاهم - بمعاداتهم لأهل بيته، وعداوتهم واضطهادهم لهم، كما تزعم الرافضة، ومن وافقهم من فرقهم الضالة وغيرهم[2] .

(1)التوبة، الآية: ﴿100﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ: فَيَا وَيْلُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ، أَوْ سَبَّهم، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا سيدُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ، أَعْنِي الصِّدِّيقَ الْأَكْبَرَ وَالْخَلِيفَةَ الْأَعْظَمَ: أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْذُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يُعَادُونَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم، عِياذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ، وَقُلُوبَهُمْ مَنْكُوسَةٌ، فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، إِذْ يسبُّون مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَتَرَضَّوْنَ عَمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَسُبُّونَ مَنْ سَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُوَالُونَ مَنْ يُوَالِي اللَّهَ، وَيُعَادُونَ مَنْ يُعَادِي اللَّهَ، وَهُمْ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ، وَيَقْتَدُونَ وَلَا يَبْتَدُونَ وَلِهَذَا هُمْ حِزْبُ اللَّهِ الْمُفْلِحُونَ وَعِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 178/4.

(2) ذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [وَبَيَّنَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿بِإِحْسانٍ﴾، مَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، لَا فِيمَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْهَفَوَاتِ وَالزَّلَّاتِ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.] اهـ. تفسير القرطبي، 238/8.

وقال البغوي في معالم التنزيل: [وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ سَلَكُوا سَبِيلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ أَوِ النُّصْرَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: هُمُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ بِالتَّرَحُّمِ وَالدُّعَاءِ. وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ: أَتَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: مَا قَوْلُكَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: جَمِيعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ مُحْسِنُهُمْ وَمُسِيئُهُمْ، فَقُلْتُ مِنْ أَيْنَ تَقُولُ هَذَا؟ فَقَالَ: يَا هَذَا اقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ شَرَطَ فِي التَّابِعَيْنِ شَرِيطَةً وَهِيَ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ فِي أَفْعَالِهِمُ الْحَسَنَةِ دُونَ السَّيِّئَةِ. قَالَ أَبُو صَخْرٍ: فَكَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ قَطُّ.] اهـ. تفسير البغوي، 382/2.

وقال صديق حسن خان في فتح البيان: [﴿والذين اتبعوهم﴾، أي اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم المتأخرون عنهم، الأميين الصحابة، فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحًا، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي ﷺ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون ﴿من﴾ في قوله ﴿من المهاجرين﴾ على هذا للتبعيض. وقيل إنها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة، ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة، كما قال ابن زيد: هم من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة. قال جماعة من الصحابة: لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: ﴿هذا لأمتي كلهم، وليس بعد الرضا سخط.﴾.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 382/5.

وقال الآلوسي في روح المعاني: [﴿والَّذِينَ اتَّبَعُوهم بِإحْسانٍ﴾ أيْ: مُتَلَبِّسِينَ بِهِ، والمرادُ كُلُّ خَصْلَةٍ حَسَنَةٍ، وهُمُ اللّاحِقُونَ بِالسّابِقِينَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ، عَلى أنَّ ﴿مِن﴾ تَبْعِيضَةٌ، أوِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهم بِالإيمانِ والطّاعَةِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ، فالمرادُ بِالسّابِقِينَ جَمِيعُ المهاجِرِينَ والأنْصارِ رَضِيَ اللَّهُ تَعالى عَنْهُمْ، ومَعْنى كَوْنِهِمْ سابِقِينَ أنَّهُمْ أوَّلُونَ بِالنِّسْبَةِ إلى سائِرِ المسْلِمِينَ، وكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ ذَهَبَ إلى هَذا.] اهـ. تفسير الآلوسي، 6/9 .

ففي الآية التي ذكرناها آنفًا، قسَّم القرآن الكريم الأمة الإسلامية، منذ عهد النبي ﷺ وإلى يوم القيامة، قسَّمها إلى ثلاثة أقسام، لا رابع لهم، وهم:

1. **المهاجرون**
2. **الأنصار**
3. **التابعون لهم بإحسان**

وقد جاء تفصيلُ هذه الأقسام الثلاثة وبعضًا من أوصافهم، في موضع آخر من القرآن الكريم، وبالتحديد، صفة القسم الأخير منهم، أعني: (التابعون لهم بإحسان)، وموقفه من القسم الأول والثاني، أعني: (المهاجرون والأنصار)، وكما يلي:

فعن القسم الأول (المهاجرون)، فقد زكاهم القرآن الكريم من خلال وصف حالهم، ثم ختم الحديث عنهم بأن أطلق عليهم لقب: (الصادقون)، وبدون شرط، إذْ قد أدوا ما عليهم بصدق وإخلاص، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿8﴾﴾[1].

وعن القسم الثاني (الأنصار)، فقد زكاهم القرآن الكريم أيضًا، من خلال وصف حالهم، ثم ختم الحديث عنهم بأن أطلق عليهم لقب: (المفلحون)، وبدون شرط، إذْ قد أدوا ما عليهم بصدق وإخلاص، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿9﴾﴾[2].

وأما عن القسم الثالث من المسلمين، وهم كل من عدا الصحابة إلى يوم القيامة، فقد اشترط تعالى الرضى عنهم وعلَّقهُ، من خلال اللقب الذي أطلقه عليهم (التابعون لهم بإحسان). فهو لقبٌ ووصفٌ مُعلَّقٌ، كما ذكرنا قبل قليل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ﴾.

(1) الحشر، الآية: ﴿8﴾.

(2) الحشر، الآية: ﴿9﴾.

ثم أضاف إليه شرطًا آخرًا، وهو دعاؤهم بالمغفرة للصحابة جميعًا بدون استثناء، ومحبتهم، وتخلية القلب من أي غلٍ أو حقد أو سوءِ ظنٍ بهم -رضي الله عنهم أجمعين-، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿10﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة بقوله:

[وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، هَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ فُقَرَاؤُهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ، وَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ ثُمَّ الْأَنْصَارُ، ثُمَّ التَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (التوبة: 100). فالتابعون لهم بإحسان هُمُ: الْمُتَّبِعُونَ لِآثَارِهِمُ الْحَسَنَةِ وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةِ، الدَّاعُونَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي هذه الآية الكريم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾، أَيْ: قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا﴾ أَيْ: بُغْضًا وَحَسَدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَنْبَطَ الْإِمَامُ مَالِكٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ لَيْسَ لَهُ فِي مَالِ الْفَيْءِ نَصِيبٌ لِعَدَمِ اتِّصَافِهِ بِمَا مَدَحَ اللَّهُ بِهِ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَسْرُوقِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ، فَسَبُّوهُمْ! ثُمَّ قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُ عُلَية، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أُمِرْتُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَبَبْتُمُوهُمْ. سمعتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: ﴿لَا تَذْهَبُ هَذِهِ الْأُمَّةُ حَتَّى يَلْعَنَ آخِرُهَا أَوَّلَهَا.﴾، رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ.] اهـ[2].

(1) الحشر، الآية: ﴿10﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 102/8.

السنة النبوية

أما في السُّنة، فقد جاء الكثير عن مزايا وفضائل الأمة الإسلامية، وذلك مما يندرج تحت مزية (الأمة الوسط، وخير أمة أخرجت للناس)، نذكر هنا أهمها.

أَنْتُمْ مُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةٍ أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ

أخبر ﷺ أنَّ الأمة الإسلامية خير الأمم وأكرمها على الله. فعن بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: ﴿أَنْتُمْ مُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةٍ أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ.﴾[1].

جاء في شرح الحديث المذكور: [قال: إنكم تتمون، أي يكتمل العدد بكم سبعين أمة، قيل: أي من الأمم الكبار، وقيل المراد بالأمم: التي آمنت برسولها، وقيل: العدد هنا لا يقصد لذاته، بل من التكثير، ﴿أنتم خيرها﴾، أي: أفضلها وأكرمها على الله، يعني: بما أعطى لها سبحانه من منزلة وفضائل وشرائع وأحكام خاصة بها دون من سبقها، وأفضل تلك الأمة هي الصحابة رضي الله عنهم.] اهـ[2].

وأخبر ﷺ أيضًا، أنَّ هذه الأمة، هي خير أمة أخرجت للناس، حيث تدعو الناس إلى دين الله تعالى، وتُبلِّغ رسالة الله تعالى الأخيرة (الإسلام) إلى البشرية. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: ﴿خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ.﴾[3]. جاء في الدرر السَّنية في شرح الحديث المذكور:

[وفي هذا الأثر، فسَّر أبو هريرة – رضي اللهُ عنه – الآية السابقة، بقوله: ﴿تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ﴾، يعني تأتون بهم أسرى مقيَّدين في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام طوعًا، فيكون أسلافهم سببًا لهم في دخولهم الجنة، وتحصيل السعادة في الدنيا والآخرة.] اهـ[4].

---

(1) أخرجه التِّرْمِذِيّ وَحسنه، برقم 3001، وابن مَاجَة، برقم 4288، والدارمي، برقم 2802 من رواية بهز بن حكيم، عن أبيه، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، برقم 4/84، ووافقه الذهبي، كتاب هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، تصنيف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852)، وبحاشيته: (النقد الصريح لما انتُقد من أحاديث المصابيح) للعلائي و(الأجوبة على أحاديث المصابيح) لابن حجر، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني [التخريج الثاني لمشكاة المصابيح]، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي (ت 1442هـ)، دار ابن القيِّم للنشر والتوزيع، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1442هـ- 2001م.

(2) موقع الدرر السَّنيَّة على شبكة الانترنت.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، برقم: (4281).

(4) موقع الدرر السَّنيَّة على شبكة الانترنت.

نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ

ومن مزايا هذه الأمة: أنَّها السابقة يوم القيامة، فقد أخبر ﷺ أنَّ الأمة الإسلامية هي آخر الأمم، أي: أنَّها آخر أمة ذات رسالة سماوية، ولكنَّها السابقة يوم القيامة، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ اليَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ.﴾[1].

أُمة الإسلام أَول الأُمم دخولًا الجنة

ومن مزايا وفضائل هذه الأمة، أنها وإِنْ كانت آخرَ الأمم، فإِنَّ أتباعها المسلمون يدخلون الجنة قبل غيرهم من الأمم[2].

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ (قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ) فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى.﴾[3].

نَبيُّنا مبعوثٌ للعالمين جميعًا

ومن مزايانا نحن أمة الإسلام، أنَّ نبينا مبعوث للعالمين جميعًا[4]، أي الناس جميعًا، بينما كان الرسول قبله ﷺ يُبعث إلى قومه بصورة خاصة، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وذكر الحديث، وفيه، قَالَ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً.﴾[5].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) وهذا أحد معاني: (السابقون) في حديث ﴿نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ.﴾ الذي مر ذكره آنفًا، والله أعلم.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ هِدَايَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، برقم 855.

(4) في الحقيقة، المقصود بالعالمين جميعًا، أي الإنس والجن، وذلك من جهة الدعوة والتبليغ.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التيمم)، برقم 328.

وليس للبشر فحسب، فهو ﷺ مبعوث إلى الجن أيضًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴿29﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴿1﴾﴾[2].

ولما كان نبينا ﷺ مبعوث إلى الناس جميعًا، دلَّ ذلك على أنَّ ديننا عالمي، ويقتضي ذلك على المسلمين، نشر دينهم إلى الناس جميعًا. وبالتالي، فإنَّ ذلك يقتضي أنَّ الناسَ تبعٌ لنا، ولسنا تَبعًا لهم، كما هو – للأسف – حال المسلمين اليوم.

اختصاصُ الأُمَّة الإسلامية بيومِ الجمعة، أحبُّ الأيام عند الله

من الثابت والمعلوم عندنا نحن المسلمين، أَنَّ يوم الجمعة من أحب الأيام، وأفضلها، وأشرفها عند الله، فعن أبي هُرَيرَة رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «خيرُ يومٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمسُ يومُ الجُمُعة؛ فيه خَلَقَ اللهُ آدَمَ، وفيه أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، ولا تقومُ السَّاعةُ إلَّا في يومِ الجُمُعة.»[3].

وعن أوسِ بنِ أوسٍ الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أفضل أيامكم يومَ الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِض، وفيه النَّفخة، وفيه الصَّعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عليَّ». قال: قالوا: يا رسول الله! وكيفَ تُعْرَضُ صلاتُنا عَليكَ وَقَد أَرَمْتَ[4]؟! قال: يقولون: بَلِيت! فقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ حَرَّمَ على الأَرْضِ أجسادَ الأنبياءِ.»[5].

وتكريمًا لهذه الأمة، فقد اختصها تعالى بيوم الجمعة، وهداها إليه من دون سائر الأمم، فعن أبي هُرَيرةَ وحُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أضلَّ اللهُ عنِ الجُمُعة مَن كان قَبْلَنا، فكانَ لليهودِ يومُ

---

(1) الأحقاف، الآية: ﴿29﴾.

(2) الجن، الآية: ﴿1﴾.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، برقم 854.

(4) (أَرَمْتَ) بفتح الراء وسكون ميم، أي: صِرت رميمًا. ورُوي (أُرِمْتَ) بضم الهمزة وسكون الراء.

(5) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم 1047، وفي صحيح الترغيب والترهيب برقم 696. صحيح الترغيب والترهيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2000م، عدد الأجزاء: 3.

السَّبت، وكان للنَّصارى يومُ الأحد، فجاءَ اللهُ بنا فهَدَانا ليومِ الجُمُعة، فجَعَل الجُمُعة والسَّبتَ والأَحَد، وكذلك هم تبعٌ لنا يومَ القيامَةِ، نحنُ الآخِرونَ من أهلِ الدُّنيا، والأَوَّلونَ يومَ القِيامَةِ، المقضيُّ لهم قبلَ الخلائقِ.﴾[1].

وجعل تعالى يوم الجمعة يوم عيد لنا، نحن المسلمين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ هذا يومُ عيدٍ، جعله الله للمسلمين، فمَن جاءَ الجمعةَ فليغتسلْ، وإنْ كان طيبٌ فليمَسَّ منه، وعليكم بالسواكِ.﴾[2].

صلاة وخطبة الجمعة استعراضٌ لعظمة الإسلام والدعوة إليه

لقد شرَّع تعالى للمسلمين في يوم الجمعة عبادة، هي من أعظم شعائر الإسلام، تلك هي: (صلاة وخطبة الجمعة)، وأمر المسلمين بالتفرغ لها، وترك التجارة والعمل، والسعي إلى المساجد لِأدائها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿9﴾﴾[3]. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله:

[إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً؛ لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَابِدِ الْكِبَارِ وَفِيهِ كَمُل جَمِيعُ الْخَلَائِقِ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ من الستة التي خلق الله فيها السموات وَالْأَرْضَ. وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا. وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ. وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ كَمَا ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ.] اهـ[4].

وذكر القرطبي في تفسيره للآية أيضًا، بقوله: [خَاطَبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجُمُعَةِ دُونَ الْكَافِرِينَ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَكْرِيمًا فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ خَصَّهُ بِالنِّدَاءِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ دَخَلَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ (المائدة: 58)، لِيَدُلَّ عَلَى وُجُوبِهِ وَتَأْكِيدِ فَرْضِهِ.] اهـ[5].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ هِدَايَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، برقم 856.

(2) رواه ابن ماجه بإسناد حسن، وأخرَجهُ الأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ برقم 707 وقال: حسن لغيره.

(3) الجمعة، الآية: ﴿9﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 144/8.

(5) تفسير القرطبي، 100/18.

ولهذا كان لزامًا على الأمة الإسلامية أنْ تُظْهِرَ شعائر الله، ومنها صلاة الجمعة وخطبتها. وتُظْهِرَ جماعة المسلمين ووحدتهم يوم الجمعة وعند الصلاة، أمام الناس من غير المسلمين، وذلك عند إقامتها في المساجد والجوامع، حيث يتكرر هذا المشهد العظيم كل اسبوع.

وكان لزامًا على ولاة الأمر، حثُّ المسلمين، وإجبارهم على أدائها، ومحاسبة المتخلف عنها من غير عذر. فقد ورد في شأن المتخلفين عن صلاة الجمعة، وصلاة الجماعة بصورة عامة، وعيدًا شديدًا، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: ﴿لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ.﴾[1].

وكان لزامًا أيضًا على أصحاب العمل، والمصانع، والمكاتب والحرف، وغيرها من مجالات العمل، وذلك بالسماح للعاملين بأداء صلاة الجمعة، وتنظيم أوقات العمل كي يُسهِّل أداء تلك الفريضة، ولا يُضيّقوا عليهم بحجة تضرر الإنتاج، وتوقف العمل وتأخيره، وغيره من الأعذار.

فالواجب على المسلمين أنْ يحرصوا على أداء هذه الشعيرة، ويتجمَّعوا لإظهارها، وإظهار عديدهم وجموعهم، فإنَّ الجمعة، كما هو الحال في مناسك الحج، والوقوف في عرفة، وصلاة العيدين، وغيرها من العبادات الجماعية، إنَّما هو يوم استعراض لأهل الإسلام أمام غير المسلمين، وذلك ليعرفوا، ويشاهدوا دين الله وشعائره، ويروا بأعينهم عديد المسلمين، واجتماعهم، وتآلفهم، وحرصهم على طاعة الله والتزام أوامره.

فهذه المزية، أعني اختصاص المسلمين بيوم الجمعة وصلاتها وخطبتها، إنَّما تُشعر المسلم بعَظمة دينه، وعزته، وبفَرح المسلم بانتمائه إلى هذا الدين، وإلى هذه الأمة، وذلك حينما يرى مشهد هذه الجموع الكبيرة من إخوانه المصلين، وقد اجتمعوا في مكان واحد، على اختلاف ألوانهم، وأشكالهم، وأجناسهم، وربما لغاتهم أيضًا، حيث لا فرق بين غني وفقير، ولا بين رئيس ومرؤوس، ولا صغير وكبير.

وصلاة الجمعة وما فيها من شعائر أيضًا، إنما هي بمثابة دعوة إلى الله، وإلى نشر الدين، فإنَّ غير المسلمين عندما يروا هذه الحشود والجموع الغفيرة من المصلين تتكرر كل أسبوع، وقد تركوا الدنيا، والتجارة، ومصالحهم وشؤونهم وراء ظهورهم، تلبيةً لنداء ربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ التَّغْلِيظِ فِي تَرْكِ الْجُمُعَةِ برقم 865. وفي رواية للنَّسَائي عن أبي الجَعْدِ الضَّمْري وكانت له صحبةٌ، عن النبي ﷺ قال: ﴿مَن ترَكَ ثلاثَ جُمعٍ، تَهاونًا بِها طبعَ اللَّهُ علَى قلبِه.﴾، أخرجه الألباني في صحيح سنن النسائي برقم 1368، وقال: حسن صحيح. صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى: 1419هـ- 1998م.

فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿9﴾﴾، لا يبالون بشيء إلّا بطاعة الله ورضوانه، فإن هذا المشهد لا بد وأنْ يحرك فيهم — أي غير المسلمين – القلوب والمشاعر لمعرفة هذا الدين، ومِنْ ثَمَّ قبوله والدخول فيه، لو هداهم الله إليه.

وقد يكون إظهار شعائر صلاة الجمعة، أيضًا، رادعًا قويًّا للكفار، أعداء الإسلام، من إيذاء المسلمين، والتعرض لهم ولدينهم، وذلك عندما يشاهدوا هذه الجموع الغفيرة أسبوعيًّا، ويلمسوا التزام المسلمين بدينهم وعقيدتهم.

الأمة الإسلامية محفوظةٌ من الاستئصال والزوال

لقد حفظ الله الأمة الإسلامية من الاستئصال والإبادة، وذلك على العكس مما كان من حال كثير من الأمم السابقة الذين استأصلهم سبحانه وأبادهم، وجعلهم أثرًا بعد عين. تلك الأمم التي كذَّبت أنبياءه ورسله، فحق عليها الفناء، أو أهلكها بسبب ما كان من تفشي وانتشار للكفر والمعاصي في مجتمعاتهم وديارهم، أو بسبب الانحراف عن منهجه تعالى، وغيرها من الظلم والذنوب، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴿59﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴿6﴾﴾[2].

لقد عاقب الله تلك الأمم السابقة عقابًا شديدًا، بسبب ظلمهم وكفرهم، واستأصلهم، وأبادهم جميعًا، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كل ممزق، كما جاء عن قوم سبأ، قال تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴿19﴾[3].

(1) الكهف، الآية: ﴿59﴾.

(2) الأنعام، الآية: ﴿6﴾.

(3) سبأ: الآية: ﴿19﴾. ومن أمثلة الأمم الأخرى التي أهلكها تعالى وأصبحت أثرًا بعد عين: فعن ثمود قوم صالح –عليه السلام– قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴿66﴾وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴿67﴾كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴿68﴾﴾، هود: الآيتان: ﴿66، 68﴾.

أمَّا الأمة الإسلامية فقد حفظها تعالى، فلم يستأصلها ويبيدها في حياة النبي ﷺ خصوصًا في بداية الدعوة عندما كانت قريش والكثير من قبائل العرب تكذبه ﷺ وتحاربه. كذلك، الحال بعد النبي ﷺ، فالأمة الإسلامية محفوظة أيضًا من عقاب الاستئصال، مهما كثرت ذنوبها وانحرافها عن الإسلام. ولكن هذا لا يمنع من أنْ يعاقبها تعالى عقابَ تأديبٍ، كي تعود إلى رشدها ودينها. فعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا) حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.﴾[1].

وإنَّ الأمة الإسلامية محفوظة من الزوال والاستئصال إلى قيام الساعة، بدليل بقاء طائفة منها ظاهرة وقائمة بأمر الله تعالى، فعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ.﴾[2].

وورد في بعض الروايات، أنَّ المسلمين باقون حتى يقاتلوا المسيح الدجال، فعن عمران بن الحصين، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يقاتِلونَ على الحقِ، ظاهِرينَ على مَن ناوَأَهُمْ، حتى يقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدجالَ.﴾[3].

ولعل الحكمة من عدم إبادة الأمة الإسلامية، واستئصال المسلمين عند انحرافهم عن الإسلام، وتفرقهم، وانتشار المعاصي والذنوب، وذلك لأنَّ زوالَ الأمة الإسلامية من العالم يعني زوالَ الدين الحق، والكتاب الحق وانتهاءه، وتوقف الدعوة والتبليغ. نعم، ستزول الأمة الإسلامية،

وعن قوم لوط –عليه السلام– قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴿82﴾مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴿83﴾﴾، هود: الآيتان: ﴿82 – 83﴾.

وعن مدين قوم شعيب –عليه السلام– قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴿94﴾كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿95﴾﴾، هود: الآيتان: ﴿94، 95﴾.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، برقم 2889.

(2) تقدم تخريجه.

(3) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المجلد الثاني، برقم: 7294.

وسينتهي الدين ويرفع القرآن الكريم، ولكنَّ ذلك لنْ يكون إلا عند انتهاء الدنيا، وقرب الساعة، أي أنَّ زوال الأمة الإسلامية هو من أشراط الساعة الكبرى.

عنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ.﴾[1]، وهذا لن يكون إلَّا عند اقتراب الساعة، وبعد نزول المسيح – عليه السلام – ووفاته.

فالمسلمون حَمَلة الدين إلى الناس، حيث لا نبي بعد رسولنا ﷺ، وبقاءهم يعني استمرارًا لدين الله في الأرض والدعوة إليه.

فليحمد المسلمون ربهم على هذه المزية العظيمة، وهذا الشرف العظيم، وليحذروا ولينتبهوا إلى دورهم الكبير في حفظ وحمل دين الله إلى الناس جميعًا.

الأمة الإسلامية يَرعَبُ منها أعداؤها

ومِن المزايا التي اختص الله بها الأمة الإسلامية: أنَّ الله يقذفُ الرعبَ في قلوب العدو الكافر من مسيرة شهر، وذلك إذا سمع بخروج المسلمين لقتالهِ، وأنَّ غنائمهم حلالٌ للمسلمين، وقد كانت غير ذلك للأنبياء وأتباعهم قبلنا، إذْ كانت تنزل عليها نارٌ من السماء فتحرقها.

عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً.﴾[2].

فكيف يتسنى لمسلم يؤمن بالصادق المصدوق ﷺ ويسمع حديثه هذا، ثم يخاف من الكفار؟ كيف يتسنى لأمة الإسلام، أنْ تخاف من أعدائها من الكفار والمشركين والمنافقين، بعد خبر الصادق المصدوق هذا؟ وبعد سماعها لكلام الله تعالى حيث قال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ ذَهَابِ الْإِيمَانِ آخِرِ الزَّمَانِ، برقم 148.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب التيمم، برقم 328، وكتاب أبواب المساجد، باب: قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، برقم 427). ومسلم في صحيحه في (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم 521).

يَفْقَهُونَ﴿13﴾﴾[1]. فإذا خاف المسلم من الكفار، وارتعب قلبه من عدتهم وعددهم وقوتهم، فليراجع دينه وإيمانه.

لا تجتمع الأمة الإسلامية على ضلالة

ومن المزايا العظيمة لهذه الأمة، أَنَّ الله تعالى لا يجمعها على ضلالة، فعَن ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي – أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ.﴾[2].

وفي رواية: عن أنس بن مالك: ﴿إِنَّ اللَّهَ قد أجارَ أمَّتي أنْ تجتمِعَ علَى ضلالةٍ﴾[3].

وهذا ما نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: [وَقَوْلُهُ ﷺ ﴿اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي؛ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ﴾، لِأَنَّ هَذَا صَارَ إجْمَاعًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالَةٍ عَلَى مَا نَقَلُوهُ وَفَهِمُوهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ.] اهـ[4].

ونود أنْ ننقل هنا كلامًا نفيسًا ذكره خالد بن علي العنبري عن (خيرية الأمة الإسلامية)، قال فيه: [الأمة الإسلامية هي خير الأمم جميعًا، مهما اشتد الاختلاف والزمان والمكان، ومهما تقدمت البشرية أو تأخَّرت، بل هي مقياس تقدم البشرية أو تأخَّرها، وذلك أَنَّ هاتيك الأمة خُلِقَتْ لتكون لها القيادة والريادة لِمِا تَمْلِكُهُ مِن اعتقاد صحيح، وتصور واضح، ونظام متكامل، ومنهج متسق، فهي خير أمة حقًّا وصدقًا، لا مُحالة ولا مُحاباة، فالله يريد أنْ تكون القيادة على هذه البسيطة للحق والخير، لا للباطل والفساد، وهذا ما ينبغي أنْ تعيهُ الأمة الإسلامية، لتعرف حقيقتها وقيمتها، ومِنْ ثَمَّ تقوم بمقتضيات هذه الخيرية، وتأتي هذه القمة السامقة من صيانة الحياة من الشر والفساد، وإقامتها على المعروف الذي شرَّعهُ اللهُ.] اهـ[5].

---

(1) الحشر، الآية: ﴿13﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ مِنَ اللَّهِ: يَقُولُ: هُمْ يَرْهَبُونَكُمْ أَشَدَّ مِنْ رَهْبَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر: 13)، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَذِهِ الرَّهْبَةُ الَّتِي لَكُمْ فِي صُدُورِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ مِنْ رَهْبَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ، قَدْرَ عَظَمَةِ اللَّهِ، فَهُمْ لِذَلِكَ يَسْتَخِفُّونَ بِمَعَاصِيهِ، وَلَا يَرْهَبُونَ عِقَابَهُ قَدْرَ رَهْبَتِهِ مِنْكُمْ.] اهـ. تفسير الطبري، 536/22.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الفتن، أبواب الفتن، حديث رقم 2167، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هذا الوَجْهِ. وَصَحَحَّهُ الألباني دون: ﴿وَمَنْ شَذَّ﴾ في صحيح الترمذي، برقم 2167. صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة: 1420هـ- 2000م، ثلاث مجلدات.

(3) حسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم 1331.

(4) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، 651/28. مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، 1425هـ- 2004م.

(5) كشف الغمة عن أحوال الأمة، خالد بن علي العنبري، ص (8)، دار الصُّمَيعي، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الأمة الإسلامية يُجَدّد لها دينَها كل قرن

ومن مزايا الأمة الإسلامية أيضًا، أنَّ الله تعالى يُجدِد لها شبابها، ويُجدِد الدماء في عروقها، ويبعث فيها الحيوية، فيبعث تعالى على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺأنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا.﴾[1].

---

(1) رواه أبو داود في سننه برقم 4291، والألباني في (السلسلة الصحيحة)، برقم 599.

ذكر موقع (الإسلام سؤال وجواب) كلامًا قيمًا عن معنى الحديث المذكور ننقله هنا:

جواب سؤال رقم (153535) تاريخ النشر: 04 – 12 – 2010: [وقد فسر أهل العلم هذا الحديث التفسير الصحيح، فقالوا: إنَّ كلمة ﴿مَن﴾ هاهنا، اسم موصول تفيد الإطلاق، فيحتمل أن يكون المجدد فردًا، ويحتمل أنْ يكون طائفةً من الناس، وبناءً عليه، فلا يلزم تتبع أسماء أفراد من العلماء في كل قرن، والمفاضلة بينهم، لتمييز المجدِّد فيهم، فقد يكون كلهم ساهم في تجديد هذا الدين وبعثه في الأمة.

يقول الحافظ الذهبي رحمه الله: (الذي أعتقده من الحديث أن لفظ (مَن يُجَدِّدُ)، للجمع لا للمفرد.) (انتهى)، من (تاريخ الإسلام): (180/23).

ويقول ابن كثير رحمه الله: (قال طائفة من العلماء: الصحيح أن الحديث يشمل كل فرد من آحاد العلماء من هذه الأعصار ممن يقوم بفرض الكفاية في أداء العلم عمن أدرك من السلف إلى من يدركه من الخلف، كما جاء في الحديث من طرق مرسلةٍ وغير مرسلة: ﴿يحمل هذا العلم من كل خلف عُدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين﴾، وهذا موجود ولله الحمد والمنة إلى زماننا هذا ونحن في القرن الثامن. (انتهى). من (البداية والنهاية): (256/6).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة (يعني قد تكون جماعة) وهو متجه، فإنَّ اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يُدَّعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أَطلَقَ أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي (وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة) إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد، سواء تعدد أم لا. انتهى، من (فتح الباري): (295/13).)

وكذلك لا يلزم لانطباق وصف التجديد على شخص معين أن ينتصر الإسلام في زمانه، وأن تكون الدائرة للدولة الإسلامية، فقد يكون المجدد في مجال العلم وليس في مجال القيادة والسياسة، بل قد يكون التجديد في جوانب دعوية أو تربوية ونحو ذلك، فهذا هو مفهوم إطلاق قوله ﷺ: ﴿يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا﴾.

وبهذا الفهم لا يبقى (في ظننا) إشكال لدى السائل في فهم الحديث.

قالت اللجنة الدائمة: (معنى قوله ﷺ: ﴿يجدد لها دينها﴾ أنه كلما انحرف الكثير من الناس عن جادة الدين الذي أكمله الله لعباده وأتم عليهم نعمته ورضيه لهم دينًا، بعث إليهم علماء أو عالما بصيرًا بالإسلام، وداعيةً رشيدًا، يبصر الناس بكتاب الله وسنة رسوله الثابتة، ويجنبهم البدع، ويحذرهم محدثات الأمور، ويردهم عن انحرافهم إلى الصراط المستقيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فسمي ذلك: تجديدًا بالنسبة للأمة، لا بالنسبة للدين الذي شرعه الله وأكمله، فإن التغير والضعف والانحراف إنما يطرأ مرة بعد مرة على الأمة، أما الإسلام نفسه فمحفوظ بحفظ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المبينة له، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.) انتهى. عبد العزيز بن باز، عبد الرزاق عفيفي، عبد الله بن غديان، عبد الله بن قعود، (فتاوى اللجنة الدائمة): (247/2 – 248).

ويقول العلامة حمود التويجري رحمه الله: (وأما قصر الحديث على أشخاص معدودين في كل مائة سنة واحد منهم؛ فهو بعيد جدًّا، والحديث لا يدل على ذلك؛ لأن لفظة (مَن) يراد بها الواحد، ويراد بها الجماعة، وعلى هذا فحمل الحديث على الجماعة القائمين بنشر العلم وتجديد الدين أولى من حمله على واحد بعد واحد منهم.

أمة الإسلام أكثر الأمم دخولًا للجنة

ومن مزايا وفضائل هذه الأمة أنَّ المسلمين يشكِّلون أكثر أهل الجنة بالمقارنة مع الأمم الأخرى ممن سيدخلون الجنة. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ.»[1].

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَهلُ الجنَّةِ عشرونَ ومئةُ صنفٍ ثمانونَ منها من هذِه الأمَّةِ وأربعونَ من سائرِ الأممِ.»[2].

نزول المسيح عليه السلام ليحكم بالإسلام ويصلي مقتديًا بإمام مسلم

ومن شرف هذه الأمة وظهور دينها ورسالتها على جميع الرسالات أنْ ينزلَ رسولٌ من أولي العزم من الرسل في آخر الزمان هو روح الله المسيح ابن مريم عليهما السلام ليحكم بشريعة الإسلام ويصلي بالصلاة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ. ومن تكرمة الله لهذه الأمة أنْ يرفض المسيح عليه السلام أنْ يؤم المسلمين ويطلب منهم أنْ يتقدم أحدهم ليؤم الناس، فيصلي هو – عليه السلام – مأمومًا. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيفَ أنتم إذا نزلَ ابنُ مريمَ فيكم وإمامُكم مِنكُم.»[3].

ويؤيد هذا ما رواه الترمذي وحسنه عن عمرو بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي.».

ويؤيده أيضًا ما رواه ابن وضاح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قال: الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم؛ يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله أهل العمى.... إلى آخر خطبته رضي الله عنه.

فهذا يدل على أن التجديد يكون في جماعة من أهل العلم، ولا ينحصر في واحد بعد واحد منهم.) انتهى باختصار.

إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: (366/1)، للشيخ حمود التويجري رحمه الله، والله أعلم.] اهـ. موقع (الإسلام سؤال وجواب) على شبكة الانترنت.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (كتابُ الإيمان، بَابُ كَوْنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ برقم 221). والبخاري في صحيحه (كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم 6266، وكتاب الرقائق، باب: كيف الحشر، برقم 6163).

(2) صححه الألباني في التعليقات الحسان برقم 7417، وفي المشكاة: 5644، وهداية الرواة: 5569.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، برقم 3265، وباب كسر الصليب وقتل الخنزير برقم 2344، وباب قتل الخنزير برقم 2109). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، برقم 155).

وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿لا تزالُ طائِفةٌ مِنْ أمتي يُقاتِلونَ على الحقِّ ظاهرينَ إلى يومِ القيامَة.﴾، قال: ﴿فيَنزِلُ عيسى ابنُ مَريمَ ﷺ فيقولُ أميرُهم: تعالَ صلِّ لنا، فيقولُ: لا، إنَّ بعضَكم على بعضٍ أُمراءُ تَكْرِمةَ اللهِ هذهِ الأُمَّةَ.﴾(1).

ميزات أخرى متفرقة

من كرم الله تعالى لهذه الأمة أنْ ميَّزها بفضائل خاصة بها، انفردت بها، ولا تشاركها فيها أيَّةُ أمة، إضافة إلى الميزات التي ذكرناها آنفًا. فمن هذه المزايا الخاصة بها:

- **صفوفَ المصلين تشبه صفوفَ الملائكة تكريمًا لهم، والتيمم، وجواز الصلاةِ على الأرض مباشرةً**

أَنَّ صفوف المصلين تشبه صفوف الملائكة، وهذا تكريم للمسلمين بتشبيههم بالملائكة الكرام البررة. وأنهُ يجوز للمسلم أَنْ يُصلي على الأرض مباشرة، وأنْ يتيمم بتربتها إذا انعدم الماء، وهذا من باب التيسير ورفع الحرج عن الأمة الإسلامية من أجل أداء الصلاة التي هي من أهم أركان الدين وشعائره. فعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى.﴾(2).

- **شفاعةُ النبيّ ﷺ لأمته يوم القيامة**

ومِنْ هذه المزايا الخاصة بهذه الأمة أيضًا، شفاعة النبي ﷺ لأمته يوم القيامة، وذلك لبيان شرفه ﷺ ومنزلته عند ربه تعالى، وكذلك رحمةً منه تعالى للمسلم المقتصد، الذي ربما قصَّر في طاعة الله تعالى، وأسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي. عن عوفُ بنُ مالكٍ الأشجعيُّ رضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: ﴿أتَدرونَ ما خَيَّرَني ربِّيَ اللَّيلةَ؟ قُلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: فإنَّهُ خَيَّرَني بينَ أن يدخلَ نصفُ أُمَّتي الجنَّةَ، وبينَ الشَّفاعةِ، فاختَرتُ الشَّفاعةَ، قُلنا: يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ أن يجعلَنا مِن أهْلِها، قالَ: هيَ لِكُلِّ مُسلمٍ.﴾(3) .

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، برقم 156.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، في كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، برقم 522.

(3) رواه ابن ماجه في سننه واللفظ له برقم (4317)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، برقم: (3503). وفي رواية: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بها، وأُرِيدُ أنْ أخْتَبِئَ دَعْوَتي شَفَاعَةً لِأُمَّتي في الآخِرَةِ.﴾، أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة، برقم 5945. ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، بَابُ اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ ﷺ دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ بالأرقام 198، 199، 200، 201، وغيره).

• حِلُّ بعضِ الأطعِمة

ومِنْ هذه المزايا الخاصة بالأمة الإسلامية أيضًا، فقد أُحِلَّت لها بعض الأطعمة، وهذا من كرم الله ورحمته ومن باب التيسير على الأمة[1]، فعن عبد الله عمر أن رسول الله ﷺ قال: ﴿أُحِلَّت لنا ميتتان ودَمان، فأمَّا الميتتان: فالجرادُ والحوت، وأمَّا الدَّمانِ: فالطُّحالُ والكَبِدُ.﴾[2].

• قَبَضُ نَبِيّهَا قَبْلَهَا

ومنها أيضًا، قَبْضُ رسولها ﷺ قبلها، فعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ.﴾[3].

• كثرةُ أنواعِ الشَّهادة

ومِن المزايا الخاصة بالأمة الإسلامية أيضًا: كثرة أنواع الشهادة سوى القتل في سبيل الله، فعن جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿مَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ؟﴾ قَالُوا: الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدةٌ.﴾[4].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.﴾[5].

(1) سيأتي لاحقًا الحديث عن موضوع التيسير على الأمة الإسلامية.

(2) صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، برقم 2695، وفي السلسلة الصحيحة برقم 1118. صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة: 1417هـ- 1997م، ثلاث مجلدات.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةَ أُمَّةٍ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، برقم 2288.

(4) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم 3111. تمام الحديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جاءَ يَعُودُ عَبْدَ اللهِ بْنَ ثَابِتٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ غُلِبَ عَلَيْهِ، فَصَاحَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَاسْتَرْجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: ﴿قَدْ غُلِبْنَا عَلَيْكَ يَا أَبَا الرَّبِيعِ﴾، فَصَاحَ النِّسْوَةُ وَبَكَيْنَ، فَجَعَلَ ابنُ عتيكٍ يُسْكِتُهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ، فَلَا تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ﴾، قَالُوا: وَمَا الْوُجُوبُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ﴿الْمَوْتُ﴾، فَقَالَت ابْنَتُهُ: وَاللهِ إِنْ كُنتُ لأَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَهِيدًا فَإِنَّكَ كُنْتَ قَدْ قَضَيتَ جِهَازَكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ – عز وجل – قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ، وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ؟﴾، قَالُوا: الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ تعالى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالذي يَمُوتُ تَحتَ الْهَدَمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ.﴾. وفي رواية: ﴿وَالنُّفَسَاءُ شَهَادَةٌ﴾.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه في واللفظ له في (كتاب الجهاد والسير، باب الشهادة سبع سوى القتل، برقم 2674). ومسلم في صحيحه في (بَابُ بَيَانِ الشُّهَدَاءِ برقم 1914).

ومن المزايا الخاصة بهذه الأمة أنَّ المسلمين أقل عملًا وأكثر أجرًا

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ.﴾[1].

قال ابن كثير: [وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله تعالى، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه.] اهـ[2].

ومِنْ فضل الله على هذه الأمة ومن مزاياها الخاصة بها أيضًا: أنَّها أولُ الأمم إجازةً على الصراط، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ

وعَنْ سُوَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ.﴾، صححه الألباني في صحيح سنن النسائي، برقم 4104.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. قَالَ: ﴿إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ!﴾ قَالُوا: فَمَنْ هُمْ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! ﴿قَالَ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ.﴾. أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ بَيَانِ الشُّهَدَاءِ حديث رقم 1914، و1915.

وكذلك يُعد شهيدًا من يموت على فراشه إن كان يسأل الله الشهادة بصدق؛ فعَنْ سهلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ.﴾. أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْإِمَارَةِ بَابُ اسْتِحْبَابِ طَلَبِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، برقم 1909. وغيرها من أنواع الشهادة، حتى قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: [وَقَدِ اجْتَمَعَ لَنَا مِنَ الطُّرُقِ الْجَيِّدَةِ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ خَصْلَةٍ.] اهـ. فتح الباري، 3/43.

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: [والشهداء أقسام لكن أفضلهم شهيد المعركة في سبيل الله عز وجل، ومنهم المطعون، الموت بالطاعون، والمبطون الذي يموت بالإسهال في البطن، وصاحب الهدم الذي يموت بالهدم، يسقط عليه جدار أو سقف، وفي حكمه من يموت بدهس السيارات، وانقلاب السيارات، وصدام السيارات، هذا من جنس الهدم. وكذلك الغرق كل هذه أنواع من الشهادة، لكن أفضلهم شهيد المعركة وهو الذي لا يغسل، ولا يصلى عليه، أما البقية فيغسلون ويصلى عليهم، وإن كانوا شهداء. أما الشفاعة فقد جاء الحديث الصحيح، في شهيد المعركة إذا كان صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، هذا جاء في شهيد المعركة، أما غيره فالله أعلم، له فضل ولهم خير، ولكن كونهم يشفعون في كذا، وكونهم يغفر لهم كل شيء، هذا محل نظر، يحتاج إلى دليل خاص، لكن لهم فضل الشهادة.] اهـ. فتاوى نور على الدرب، (4/ 338 - 339).

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار، برقم 2148.

(2) تفسير ابن كثير، 81/2.

دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا –شَكَّ إِبْرَاهِيمُ–، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّم، الحديث.﴾[1].

(1) تمام الحديث: عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا –شَكَّ إِبْرَاهِيمُ–، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّم، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمِ السَّعْدَانَ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الموبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ – أَوِ الموثَقُ بِعَمَلِهِ –، وَمِنْهُمُ المخَرْدَلُ، أَوِ المجَازَى، أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الملَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ، مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَد امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، وَيَدْعُو اللَّهَ، حَتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو يَضْحَكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيُذَكِّرُهُ، يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ: اللَّهُ ذَلِكَ لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ.﴾، قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ: وَأَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا. حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ مَعَهُ. يا أبا هُريرة، قالَ أبو هُرَيرةُ: مَا حَفِظْتُ إِلَّا قَوْلَهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قال أبو سَعيد: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ﴾. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أهل الجنة دخولًا الجنة. أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم 182). والبخاري في صحيحه في (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، القيامة: ﴿23﴾ برقم 7000 و7001.

- **الأمة الإسلامية هي أول من تُحاسب يوم القيامة**

ومنها أيضًا، أنَّ الأمة الإسلامية هي أول من تُحاسب يوم القيامة، وذلك لشرفها وشرف نبيها، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ، وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ.﴾[1].

- **الكافرَ فداءٌ للمسلمِ يومَ القيامة**

ومنها أيضًا، أنَّ الكافرَ فداءٌ للمسلم يوم القيامة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَرْحُومَةٌ، عَذَابُهَا بِأَيْدِيهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيُقَالُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ.﴾[2]. فالحديث المذكور، بيانٌ لتكرمة هذهِ الأمة، وليس كما يُتوهم مِنْ أنَّ الله ينقذ المسلم من النار بإدخال الكافر بدلًا عنه، فحاشا لله أَنْ يفعل ذلك، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿49﴾﴾[3].

ولكننا نقول: أَنَّ الكافرَ المستحق للنار يدفعه الله إلى المسلمِ الذي وَجَبتْ له الجنة، وذلك من بابِ بيانِ شَرفِ ومنزلة المسلم الموحّد عند الله، تمامًا كما تُفهم مسألة الشفاعة. فمن شروط الشفاعة، رضى الله عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[4]، أي أنَّ الله تعالى أصلًا قد رضي عن المشفوع له، ويريد أنْ يدخله الجنة، فيأتي الشفيع، والذي قد رضي الله عنه أيضًا، وأذِنَ له بالشفاعة، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا

(1) صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم 3482، وفي السلسلة الصحيحة برقم 2374.

(2) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (959) و(1381).

(3) الكهف، الآية: ﴿49﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿44﴾﴾، يونس، الآية: ﴿44﴾،

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿182﴾﴾، آل عمران، الآية: ﴿182﴾،

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿51﴾﴾، الأنفال، الآية: ﴿51﴾،

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿10﴾﴾، الحج، الآية: ﴿10﴾،

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿46﴾﴾، فصلت، الآية: ﴿46﴾،

وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿29﴾﴾، ق، الآية: ﴿29﴾، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا من الكتاب والسنة.

(4) الأنبياء، الآية: ﴿28﴾.

الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1]، فيأذن الله له بالشفاعة فيشفع، فيَدْخُلُ المشفوعُ له الجنة. وليس معنى الشفاعة كما يتوهم: أَنَّ الله يريدُ أنْ يُدخِلَ العبدَ النارَ، فيأتي الشفيع، فيَشفع له فيُدخِلهُ الجنة! فهذا محال على الله، فالله تعالى لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[2]، ولا يؤثر عليه أحد، ولا غالب لأمره، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾[3].

• **اختصاص الأمة الإسلامية بالسَّلامِ، والتأمينِ في الصلاة**

ومن مزايا هذه الأمة أيضًا اختصاصها بالسلام، والتأمين في الصلاة، فعن أمّ المؤمنين عائشة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿ما حسدتْكُم اليهودُ على شيءٍ، ما حسدَتْكُم على السلامِ والتأمينِ.﴾[4].

فصلاة المسلمين تنتهي بالسلام، وتحيتهم فيما بينهم السلام كما هي تحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿10﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴿23﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴿44﴾﴾[7].

وفي هذا القدر كفاية مما ذكرناه من (**مزايا وفضائل الأمة الإسلامية**)، مما يندرج تحت مزية: (**خير أمة أخرجت للناس**)[8].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿255﴾.

(2) الرعد، الآية: ﴿41﴾.

(3) يوسف، الآية: ﴿21﴾.

(4) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، وابن خزيمة في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم 5613، وفي صحيح الترغيب والترهيب برقم 515. صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب للمنذري، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتَبة المعارف لِلنَّشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2000م.

(5) يونس، الآية: ﴿10﴾.

(6) إبراهيم، الآية: ﴿23﴾.

(7) الأحزاب، الآية: ﴿44﴾.

(8) للمزيد، يراجع الكتب التي في هذا المجال ومنها: خصائص الأمة المحمدية، محمد بن علوي المالكي المكي الحسني، الطبعة الثانية: 1421هـ، 2000م.

فصل: الأُمَّةُ الشَّاهِدَةُ على الأُمَمْ (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ)

ذكرنا في الفصل السابق المزية الرئيسية الأولى التي تتصف بها الأمة الإسلامية وهي أَنَّ الله تعالى قد كرمها واصطفاها من بين سائر الأمم، فجعلها (الأمة الوسط)، و(خير أمة أخرجت للناس). وتعرَّفنا هناك أيضًا، على مزايا ثانوية أخرى تتعلق بتلك المزية الأولى والتي قد خص الله بها الأمة الإسلامية.

فبعد ذلك التكريم منه تعالى للأمة الإسلامية، ثم تكليفها وتكريمها بأمانة وواجب الدعوة إليه تعالى وإلى دينه، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

واستمرار قيام الأمة الإسلامية بحمل هذه الأمانة من بعد رحيل رسوله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، حيث لا دينَ، ولا وحيَ، ولا رسولَ بعد الإسلام ورسوله، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿40﴾﴾[2].

وإخباره تعالى بأنَّ الأمة ستكون مسئولة يوم القيامة عن هذه الأمانة متمثلة بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿44﴾﴾[3].

نقول بعد ذلك كله، فقد منح تعالى هذه الأمة شرفًا آخرًا، ومزية، هي في الحقيقة من خصائص الأنبياء –عليهم السلام–، وذلك بأنْ جعلها **(الأمة الشاهدة على باقي الأمم)**، و**(حُجته عليهم إلى قيام الساعة)**، وذلك كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فالأمة الإسلامية ستشهد يوم القيامة على قيام أنبياء الله ورسله بالدعوة والتبليغ إلى أقوامهم.

وستكون الأمة الإسلامية، أيضًا، حجة الله على الناس، بقيامها – أي الأمة الإسلامية – بالدعوة والتبليغ إلى الناس جميعًا، وكما أمرهم تعالى.

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

(2) الأحزاب، الآية: ﴿40﴾.

(3) الأنبياء، الآية: ﴿44﴾.

القرآن الكريم

فأما الأدلة من القرآن الكريم، فقد ذكر تعالى أنَّهُ إنَّما جعل الأمةَ الإسلامية، (الأمة الوسط)، كي تكون (شاهدة على الأمم الأخرى)، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾، يقول تعالى: إنَّما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم، لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل.] اهـ[2].

وجاء ذكر تلك المزية أيضًا، أعني -(الشاهدة على الأمم)- في موضع آخر من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴿78﴾﴾[3].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: إنَّما جعلناكم هكذا أمةً وسطًا عدولًا خيارًا، مشهودًا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، لأنَّ جميع الأمم معترفةٌ يومئذٍ بسيادتها وفضلها على كلِّ أمةٍ سواها، فلهذا تُقبل شهادتُهم عليهم يوم القيامة في أنَّ الرسلَ بلَّغتهم رسالةَ ربِّهم، والرسولُ يَشهدُ على هذهِ الأمةِ أنَّهُ بلَّغها ذلك.] اهـ[4].

واجبُ (الأمَّة الحُجَّة)

والمقصود من لفظ (الحُجَّة)، الذي ذكرناه في بداية هذا الفصل، أنَّ المسلمين هم أيضًا، حُجَّةُ الله ودليلهُ على الناس على تبليغ ووصول آخر الرسالات إليهم.

---

(1) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 327/1.

(3) الحج، الآية: ﴿78﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 400/5.

لقد أخبر تعالى أنه يُرسل رسله إلى الناس كي لا يكون للناس حُجَّةٌ على الله بعدم وصول الدعوة والتبليغ. أي بمعنى آخر، أنَّ هؤلاء الرسل هُم حجةُ الله تعالى على خلقه بوصول الدعوة والتبليغ إليهم، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿156﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿19﴾﴾[2].

فاتخاذ المسلمين حُجَّةً وشهداءَ لله على الناس، معناه: وجوب قيام المسلمين بواجب دعوة الناس إلى التوحيد، وإلى دين (الإسلام)، الذي أُنزل على محمد ﷺ خاتم الأنبياء المرسلين، حيث لادينَ مقبولَ عند الله بعد ذلك غير هذا الإسلام.

فلتحذر الأمة الإسلامية ولتنتبه إلى هذه المنزلة وهذه العدالة[3] التي كرَّمها الله بها، واختصها بها، من دون سائر الأمم، كي تقوم بالمهمة المنوطة بها من قِبَله تعالى، ومن قِبَلِ رسوله ﷺ لتكون شاهدةً على وصول الرسالة وتبليغ الأمانة إلى الأمم الأخرى.

السُّنَّةُ النبويَّة

أما من السُّنة، وكما هو معلوم فقد جعل تعالى الأمة الإسلامية شاهدةً للأنبياء عليهم السلام على قيامهم بتبليغ رسالة الله إلى أقوامهم. فعنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وَالوَسَطُ: العَدْلُ.»[4].

---

(1) النساء، الآية: ﴿156﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿19﴾.

(3) المقصود به عدالة الأمة الإسلامية، لأنه لا يُحتجُ ولا يُستشهدُ إلا بالعدول، كما سيأتي ذكر ذلك في موضوع: (عدالةُ الأمة الإسلامية)، في هذا الفصل.

(4) تقدم تخريجه.

وجعل تعالى أيضًا الأمة الإسلامية شاهدةً على الناس من غير المسلمين الناس كاليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، وذلك على وصول رسالات الله إليهم، وعلى قيام الأمة الإسلامية أيضًا بدعوتهم إلى الإسلام. وأخبر ﷺ أنَّ المسلمين شهداء الله في الأرض، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: ﴿وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ﴾، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: ﴿وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ﴾، قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ.﴾[1].

وعن حديث: ﴿خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ.﴾، وقد تقدم، قال قتادة: [هم أمة محمدٍ ﷺ، لم يُؤمرْ نبيٌّ قبلهُ بالقتال، فهم يقاتلون الكفار، فيدخلونهم في الإسلام، فهم خير أمة أخرجت للناس.] اهـ[2].

عدالةُ الأمة الإسلامية

إنَّ من فضلِ الله على الأمة الإسلامية، أَنَّ مزية (الأمة الشاهدة) تتضمن مزية أخرى وهي، (عدالة الأمة الإسلامية)، كما قرره القرطبي وابن كثير وغيرهم من أهل التفسير. فقد ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[3] بقوله: [قال علماؤنا: أنبأنا ربنا (تبارك وتعالى) في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية أَمرَ خطيرِ الشهادةِ على جميع خلقه، فجعلنا أولًا: أول مكانًا، وإن كنا آخرًا زمانًا كما قال عليه السلام: ﴿نحن الأولون الآخرون﴾، وهذا دليل على أنَّهُ لا يشهدُ إلّا العدول، ولا ينفذ قول غير العدول على غيرهم إلا أن يكونوا عدولًا، وهذا يزيد ترجيحنا القول قوة.] اهـ[4].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى برقم 949. والبخاري في صحيحه (كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت برقم 1301، وكتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز برقم 2499.

(2) تفسير البغوي، 90/2.

(3) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(4) تفسير القرطبي، 156/2.

إنَّ عدالة الأمة الإسلامية، إنما هي شهادة لها من الله تعالى بعظمةِ وعُلوّ منهجها ورسالتها وشريعتها، وبسُمُوّ عقيدةِ المسلمين، وأخلاقهم وفكرهم. فلا ينبغي للمسلم أن يحطَّ من قدر أمته ومنهجه، لما يرى من أفكار ومناهج الأمم الأخرى، وسلوكهم وعاداتهم، خصوصًا، عندما تمرُّ الأمة الإسلامية في فترة ضعفٍ وتبعية، وانحدار. بل على العكس، هذه الميزة — أعني عدالة الأمة الإسلامية – تدفعه أكثر، إلى التمسك بدينه وأمته، وإلى الاعتزاز بعقيدته ورسالته، وإلى نشرها وتبليغها إلى الأمم الأخرى، كما أمره ربه وأوصاه.

فأنعم بهذه المزية وهذا التشريف من رب العالمين للأمة الإسلامية، حاملة لواء التوحيد ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين.

فصل:
العلو في الأرض: (وأَنْتُم الأَعْلَوْنَ)

لما كانت الأمة الإسلامية، **(الأمة الوسط)**، و**(خير أمة أخرجت للأرض)**، و**(الأمة الحجة والشاهدة على الأمم)**، كان من مستلزمات هذه المزايا العظيمة، أنْ تحصل الأمة الإسلامية على مزيةٍ أخرى، تمكنها من تحقيق تلك المزايا التي ذكرناها آنفًا. إذ ستُعينُ تلك المزيةُ الأمةَ على أداء مهمتها التي أوكلت بها في الأرض، وستحفظ لها دينها وعقيدتها وأتباعها من عدوان الكافرين والطامعين. من أجل ذلك، كتب الله العلو للمسلمين في الأرض.

القرآن الكريم

أما الدليل من القرآن الكريم على مزية **(العلو في الأرض)** للأمة الإسلامية، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾[1]. فقد ذكر القرطبي تلك المزية والفضيلة في تفسيره للآية بقوله: [وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّهُ خَاطَبَهُمْ بِمَا خَاطَبَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ، لِأَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (طه: 68)، وَقَالَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾. وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ اسْمِهِ الْأَعْلَى، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَلِيُّ، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.] اهـ[2].

وذكر ذلك أيضًا ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ قَالَ مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَيْ: لَا تَضعفوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ: الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ.] اهـ[3].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿139﴾.

(2) تفسير القرطبي، 217/4.

(3) تفسير ابن كثير، 110/2.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، نهى تعالى المسلمين عن الضعف أمامَ عدوهم والمهادنة معه، وأخبرهم بعُلوّهم، وأكَّد ذلك بمعيته تعالى لهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿35﴾﴾[1]. ذكر البغوي في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ لَا تَضْعُفُوا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أَيْ لَا تَدْعُوَا إِلَى الصُّلْحِ ابْتِدَاءً، مَنَعَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا الْكُفَّارَ إِلَى الصُّلْحِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَرْبِهِمْ حَتَّى يُسْلِمُوا، ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الْغَالِبُونَ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: آخِرُ الْأَمْرِ لَكُمْ وَإِنْ غَلَبُوكُمْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ، ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ لَنْ يَنْقُصَكُمْ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ، يُقَالُ: وَتَرَهُ يَتِرُهُ وَتْرًا وَتِرَةً: إِذَا نَقَصَ حَقَّهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلٌ، وَالضَّحَّاكُ: لَنْ يَظْلِمَكُمْ أَعْمَالَكُمُ الصَّالِحَةَ بَلْ يُؤْتِيكُمْ أُجُورَهَا.] اهـ[2].

فالعلو في الأرض (وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ)، مزيةٌ عظيمةٌ أخرى، منحها تعالى للأمة الإسلامية. ومعنى تلك المزية، أي هيمنة الأمة الإسلامية في الأرض، وظهور دينها على بقية الأديان والشرائع والملل الأخرى. فعلى الرغم من انحسار الأمة وتراجعها في بعض فترات حياتها، فـ (أَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ) عمومًا، إنما هي المزيةُ الغالبةُ للأمةِ الإسلامية.

فالمسلمون إذا وحَّدوا صفوفهم، وجمعوا أمَّتهم، وأقاموا شرع الله وحكمه، وكان لهم إمامًا وخليفةً، يبايعه المسلمون، وأقاموا أركان بناء أمتهم الإسلامية على النحو الذي أمرهم الله ورسوله[3]، سادوا العالم، وكان لهم (العلوُّ في الأرض) على جميع الأمم. وصارت تخشاهم وتهابهم الأمم الأخرى، وتحسبُ لهم ألف حساب. والتاريخ شاهد على ذلك، أيام العصور الذهبية التي شهدتها الأمة الإسلامية، إبان عصر الخلافة الأموية، والعباسية والعثمانية.

---

(1) محمد، الآية: ﴿35﴾.

(2) تفسير البغوي، 4/219. وذكر القرطبي في تفسيره للآية أيضًا، بقوله: [فِيهِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ: الْأُولَى- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أَيْ تَضْعُفُوا عَنِ الْقِتَالِ. وَالْوَهَنُ: الضَّعْفُ وَقَدْ وَهَنَ الْإِنْسَانُ وَوَهَنَهُ غَيْرُهُ، يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى. قَالَ: إنني لست بموهون فقر، ووهن أيضًا (بالكسر) وهنًا أي ضعف، وقرى ﴿فما وَهَنُوا﴾ بِضَمِّ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا. وَقَدْ مَضَى فِي (آل عمران). الثَّانِيَةُ- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أَيِ الصُّلْحَ. ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أَيْ وَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنْهُمْ. وَقِيلَ: وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ فِي الْحُجَّةِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى وَأَنْتُمُ الْغَالِبُونَ لِأَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ وَإِنْ غَلَبُوكُمْ فِي الظَّاهِرِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ.] اهـ. تفسير القرطبي، 255/16.

(3) أعني: (أركان بناء خير أمة أخرجت للناس)، كما سياتي تفصيلها في الباب القادم من هذا الكتاب.

شتَّان بين علوِّ المسلمين وعلوِّ الكافرين

ومن الجدير بالذكر أنْ نشيرَ هنا إلى أنَّ (عُلوَّ الأمةِ الإسلامية) هو غير ذلك العُلو الذي نهى تعالى عنه، ونقصد به عُلو الكفار، كما ذكر تعالى في بداية حديثه في سورة القصص عن قصة فرعونَ، وعلوهِ وتجبرهِ وإفسادهِ في الأرض، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿4﴾﴾[1].

ثم ختمها، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿83﴾﴾[2]، فهذا علوٌّ تجبرٍ وظلمٍ وتكبرٍ وفسادٍ في الأرض.

ذكر الطبري في تفسيره للآية بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿83﴾﴾: يقول تعالى ذكره: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرًا عن الحقّ في الأرض وتجبرًا عنه ولا فسادًا. يقول: ولا ظُلم الناس بغير حقّ، وعملًا بمعاصي الله فيها.] اهـ[3].

وذكر ذلك أيضًا الشوكاني في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ أيِ: الجَنَّةُ، والإشارَةُ إلَيْها لِقَصْدِ التَّعْظِيمِ لَها والتَّفْخِيمِ لِشَأْنِها كَأنَّهُ قالَ: تِلْكَ الَّتِي سَمِعْتَ بِخَبَرِها وبَلَغَكَ شَأْنُها ﴿نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرْضِ﴾ أيْ: رِفْعَةً وتَكَبُّرًا عَلى المؤْمِنِينَ ﴿ولا فَسادًا﴾ أيْ: عَمَلًا بِمَعاصِي اللَّهِ – سُبْحانَهُ – فِيها، وذِكْرُ العُلُوِّ والفَسادِ مُنْكَرَيْنِ في حَيِّزِ النَّفْيِ يَدُلُّ عَلى شُمُولِهِما لِكُلِّ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ أنَّهُ عُلُوٌّ وأنَّهُ فَسادٌ مِن غَيْرِ تَخْصِيصٍ بِنَوْعٍ خاصٍّ، أمّا الفَسادُ فَظاهِرٌ أنَّهُ لا يَجُوزُ شَيْءٌ مِنهُ كائِنًا ما كانَ، وأمّا العُلُوُّ فالمَمْنُوعُ مِنهُ ما كانَ عَلى طَرِيقِ التَّكَبُّرِ عَلى الغَيْرِ والتَّطاوُلِ عَلى النّاسِ، ولَيْسَ مِنهُ طَلَبُ العُلُوِّ في الحَقِّ والرِّئاسَةِ في الدِّينِ ولا مَحَبَّةُ اللِّباسِ الحَسَنِ والمَرْكُوبِ الحَسَنِ والمَنزِلِ الحَسَنِ.] اهـ[4].

(1) القصص، الآية: ﴿4﴾.

(2) القصص، الآية: ﴿83﴾.

(3) تفسير الطبري، 343/18.

(4) تفسير الشوكاني، 217/4.

وكما ذكر تعالى أيضًا على لسان ملكة سبأ، عن علو الملوك والجبابرة إذا تمكنوا ودخلوا بلدٍ ما، فقال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿34﴾﴾[1].

والحق، إنَّ التاريخ لم يُسجل بأنَّ المسلمين عندما كانوا يحكمون الأرض، وكان لهم العلو والهيمنة في الأرض، قد ظلموا وتجبروا وأفسدوا[2]. بل على العكس من ذلك، فقد كان العدلُ منهم والإنصافُ، ونشرُ الدين، وهداية الناس، وإنقاذهم من الكفر والشرك والنار، والعفو عند المقدرة، هو ديدنهم وغايتهم. وما أصدق فيهم قول الشاعر:

مَلكْنا فكان العَفْوُ منَّا سَجيَّةً   فلمَّا ملكْتُمْ سالَ بالدَّمِ أبْطَحُ
وحَلَّلْتُمُ قتلَ الأسَارى وطالَما   غَدوْنا عن الأسْرى نَعفُّ ونصفَحُ
فحسْبُكُمُ هذا التَّفاوتُ بيْنَنا   وكلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يَنْضَحُ[3]

الأمة الإسلامية حيةٌ لا تموت

إنَّ الحقيقة التي لا لَبس فيها، والتي يشهد لها التأريخ، وهي أنَّ الأمة الإسلامية كلما ضعفت وتراجعت، بسبب ضعف التزامها بدينها، وتقاعست عن حمل أمانة الدعوة والتبليغ، وانتكست وأوشكت على الأفول، أعادَ تعالى لها الحياة من جديد، وسَرَتْ في عروقها دماءُ الشباب، وعادَ لها

(1) النمل، الآية: ﴿34﴾.

(2) إلَّا ما كان هناك من تصرفات فردية وشاذة، فالمسلمون ليسوا معصومين، وقد يحدث – هنا وهناك – نوع من الظلم والإيذاء والتجبر. ولكن عمومًا، فالأمة الإسلامية في زمن المُلكِ والتمكين والعُلو في الأرض، يشهد لها التاريخ، وحتى أعدائِها من غير المسلمين، على وجه الخصوص، بالعدل والإنصاف والرخاء، وحتى حرية ممارسة دينهم وحماية كنائسهم ومعابدهم، إنْ هم اختاروا البقاء على دينهم، وأدُّوا الجزية عن يدٍ وهم صاغِرون.

(3) قائل هذه الأبيات: أبو الفوارس، سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، الملقب بشهاب الدين، أديب وشاعر وفقيه مشهور من أهل بغداد، كان من أعلم الناس بأخبار العرب ولغاتهم وأشعارهم، لُقِّبَ بحيص بيص لأنَّه رأى الناسَ يومًا في حركةٍ مزعجةٍ وأمرٍ شديدٍ، فقال: (ما لِلناسِ في حَيْص بيص؟)، فبقيَ عليه هذا اللقب، ومعنى هاتين الكلمتين الشدة والاختلاط. وقيل سببُ تلقُّبِه، بيتٍ قاله يفتخر:

وإني سوفَ أرفَعكم بيأسٍ   وإنْ طالَ المدى في حَيْص بيص.

التمكين والعُلو في الأرض، وصدق فيها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿32﴾﴾[1].

فعن دوام ظهور ديننا الإسلامي: قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿33﴾﴾[2]،

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾﴾[3]،

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾﴾[4].

وعن جهاد المسلمين وتكالب الأمم عليهم، ووعد الله لهم بالعُلو، على الرغم من جراحهم ونَكَساتهم، قال تعالى:

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾﴾[5].

ومُطَمْئنًا لهم تعالى، ومُثَبِّتًا ومُبشرًا بالنصر والعُلو والتمكين، قال تعالى:

﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿104﴾﴾[6].

---

(1) التوبة، الآية: ﴿32﴾.

(2) التوبة، الآية: ﴿33﴾.

(3) الصف، الآية: ﴿9﴾.

(4) الفتح، الآية: ﴿28﴾.

(5) آل عمران، الآية: ﴿139﴾.

(6) النساء، الآية: ﴿104﴾.

ومبشرًا لهم بالغَلَبَةِ والنَّصر المبين، بصفتهم – أي المسلمين – رسله إلى الناس بعد رحيل نبيهم ﷺ وأنَّ لهم الغلبة، كما كتبها لرسُلِه – عليهم الصلاة والسلام أجمعين، قال تعالى:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿21﴾﴾[1].

وأخيرًا وليس آخرًا، وعدُ اللهِ لهم بالاستخلاف والتمكين، قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُم الْفَاسِقُونَ ﴿55﴾﴾[2].

السُّنَّةُ النبويَّة

أما الأدلة من السُّنة على علوِّ المسلمين في الأرض، واتساع مُلكهم وأرضهم، فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ اللَّهَ زَوَى لي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحْمَرَ والأبْيَضَ.﴾[3].

من الجدير بالذكر أنَّ مزية (**العلو في الأرض**) التي منحها الله للمسلمين، ليست مقصورة على الملك والحُكم، والسلطان، والقوة العسكرية وغيرها، وإنما تتخذ أشكالًا أخرى، أيضًا. فالأمة الإسلامية لها العلو في الأرض من خلال انتشار منهجها ورسالتها، ودخول غير المسلمين إلى هذا الدين، وانتشار المسلمين في الأرض، ووصول الدعوة والدين إلى جميع أصقاع الأرض. وهذا ما بشَّر به النبي ﷺ المسلمين، فعن تميم الدَّاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أَدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عَزيزٍ أو بِذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ. وكان

(1) المجادلة، الآية: ﴿21﴾.

(2) النور، الآية: ﴿55﴾.

(3) تمام الحديث: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ اللَّهَ زَوَى لي الأرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحْمَرَ والأبْيَضَ، وإنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتي أنْ لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإنَّ رَبِّي قالَ: يا مُحَمَّدُ، إنِّي إذا قَضَيْتُ قَضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أنْ لا أُهْلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأَنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، ولَوِ اجْتَمَعَ عليهم مَن بأَقْطارِها -أوْ قالَ: مَن بيْنَ أقْطارِها- حتَّى يَكونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، ويَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.﴾. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ برقم 2889.

تَميمٌ الدَّاريُّ يقولُ: قد عرَفْتُ ذلك في أهْلِ بَيْتي؛ لقد أَصاب مَن أَسلَمَ مِنهمُ الخَيرُ والشَّرفُ والعِزُّ، ولقد أَصاب مَن كان منهم كافِرًا الذُّلُّ والصَّغارُ والجِزْيةُ.﴾[1].

خاتمة

لقد تعرفنا في هذا الباب على (**مزايا وفضائل الأمة الإسلامية**) التي منحها تعالى للأمة، وخصها دون سائر الأمم، وكان من أعظمها تلك المزايا الثلاث، أعني:

- **(الأمة الوسط)، أي (خير أمة أخرجت للناس)،**
- **(الأمة الشاهدة وحجته تعالى على الأمم الأخرى)،**
- **(العلو في الأرض): (وأَنْتمُ الأَعْلَوْنَ).**

وبينا أنَّ الأمة الإسلامية لم تُمنح تلك المزايا الثلاث (على وجه التحديد)، إلا لتكون أهلًا لقيادة البشرية، ولكي تحقق العبودية الخالصة لله تعالى. ولكي تحقق أيضًا مُرادَ الله، وذلك بأنْ يَظهَر الدينُ الحق الذي من أجله بَعَث تعالى رسوله ﷺ، ليَظهر على جميع الأديان والشرائع والملل والنحل، ويكون الدينُ كله لله، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿33﴾﴾[2].

ولا يمكن للأمة الإسلامية أن تكون بحقٍّ: (**الأمةَ الوسط**) و(**الشاهدة**)، والتي اصطفاها تعالى من دون سائر الأمم كي تحقق وعد الله بأنْ يكون الدين كله لله، ويكون لها (**العُلو في الأرض**)، حتى تحقق الأمة العبودية لله في نفسها وبين أفرادها. وحتى تُقيم كتابَ اللهِ تعالى، وسنةَ نبيه ﷺ على أرضها، وعلى الواقع الذي تعيش فيه.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، برقم 16957، وقال عنه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، اهـ. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. وأخرجه الألباني في تحذير الساجد، برقم 158، وقال عنه: على شرط مسلم وله شاهد على شرط مسلم أيضًا.

(2) التوبة، الآية: ﴿33﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾﴾، الفتح، الآية: ﴿28﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾﴾، الصف، الآية: ﴿9﴾.

ولكي تحقق الأمة تلك العبودية، ومِنْ ثَمَّ تكون أهلًا لاصطفاء الله لحمل رسالته إلى الناس، لا بد لها من أَنْ تُحقق (جملةً من الشروط)، أو بعبارة أخرى: (جملة من الأركان)، والتي أَمَرَ تعالى الأمة الإسلامية بها، وأَمَرَ أيضًا نبيه ﷺ الأمة بها.

فإذا حققت الأمة تلك الأركان، كانت جديرةً بما أنعَم الله عليها من مزايا، وما أوكلَ إليها من مَهمة عظيمة، تلك هي (حمل الدعوة إلى دينه)، تلك الأمانة التي كان تعالى يَعهد بها إلى خيرة خلقه وصفوتهم، من الأنبياء والمرسلين، ثم انتقلت المسئولية إليها – أعني الأمة – منذ رحيل نبيها ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى.

- **فأمّةٌ، هذا كتابها:**

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿44﴾﴾

- **وهذا منهجها:**

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾

- **وهذه مزاياها:**

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾،
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

- **وهذه مهمَّتها:**

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾،
﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾،

- **وهذا وعدُها الحق:**

﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾،

لا ينبغي لها أَنْ تغفل، ولا أَنْ تتوانى عن حملِ هذه الرسالة، ولا ينبغي لها أَنْ تكون في ذيلِ القافلة، وأَنْ يعتريها الذُّلُّ والهوان، وهي التي كتبَ الله لها الريادةَ والقيادة، وكتبَ لها النصرَ والغلبة، والعلوَّ في الأرض.

فصل:

العلو في الأرض: (وأَنْتُم الأَعْلَوْنَ)

فنحن نعتقد أن تحقيق هذه الأركان هو السبيل الوحيد إلى إقامة (**خير أمة أخرجت للناس**)، وإلى العلو والتمكين في الأرض، لكي يعود المسلمون إلى بداية القافلة، ويقودوا البشرية إلى شاطئ التوحيدِ والعبوديةِ لله رب العالمين، فيفوزوا بخَيْرَي الدنيا والآخرة.

وهذا ما سنتكلم عنه بالتفصيل في الباب القادم إِنْ شاء الله، من خلال استعراض أركان خير أمة أخرجت للناس.

الباب الرابع

أَرْكانُ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس

مقدمة

ترتيب الأركان

الركن الأول: الأُمَّةُ الواحِدَةُ

الركن الثاني: الاعْتِصامُ بِحَبْلِ اللهِ

الركن الثالث: عَدَمُ الاخْتِلافِ

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

الركن الخامس: عَدَمُ الاقْتِتَالِ بينَ المُسلمين

الركن السادس: الإِصْلاحُ بَيْنَ المُسلِمينَ

الركن السابع: الأُخُوَّةُ في الدِّينِ

الركن الثامن: المُوالاةُ بين المُسلِمينَ

الركن التاسع: التَّعاونُ على البِرّ والتَّقوى

الركن العاشر: الأمرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ

الركن الحادي عشر: الجِهادُ في سَبيلِ الله

الباب الرابع

أَرْكانُ خَيرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس

مقدمة

تعرفنا في الباب السابق على **(مزايا وفضائل الأمة الإسلامية)** والتي اختصَّها تعالى بها دون سائر الأمم، كي تكون أهلًا لهداية البشرية لتخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن جوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة[1]. وكان من أعظم تلك المزايا، المزايا الرئيسية الثلاث: **(الأمة الوسط) – أي خير أمة أخرجت للناس، الأمة (الشاهدة وحجته تعالى على الأمم الأخرى)، العلو في الأرض: (وأَنْتُم الأَعْلَوْنَ)**.

وذكرنا أيضًا، أنَّ الأمة الإسلامية لا يمكنها أنَّ تكون بحق: **(الأمة الوسط)** و**(الشاهدة)**، وتنال وعد الله بـ **(العلو في الأرض)**، حتى تحقق الأمة العبودية لله في نفسها وبين أفرادها، وحتى تقيم كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ على أرضها، وعلى الواقع الذي تعيش فيه.

ولكي تحقق الأمة الإسلامية تلك العبودية، ومن ثم تكون أهلًا لاصطفاء الله لها لحمل رسالته إلى الناس، لا بد لها من أَنْ تحقق جملة من الشروط، أو بعبارة أخرى: جملة من الأركان، تلك التي أمر تعالى الأمة الإسلامية بإِقامتها، وأمر نبيه ﷺ بها أيضًا، وهي كما يلي:

1. **الأمةُ الواحدة**
2. **الاعتصامُ بحبل الله**
3. **عَدَمُ الاختلاف**
4. **عَدَمُ التفرُّق**
5. **عَدَمُ الاقتتال بين المسلمين**

---

(1) هذه عبارات مقتبسة من حديث ربعي بن عامر مع رستم قائد جيش الفرس في معركة القادسية، ذكرها ابن كثير في (البداية والنهاية)، ولأهل العلم كلام طويل في صحة ثبوت هذه الحديث مع رستم.

6. الإصلاحُ بين المسلمين
7. الأخوةُ في الدين
8. الموالاةُ بين المسلمين
9. التعاونُ على البِرّ والتقوى
10. الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر
11. الجهادُ في سبيل الله

فإذا حققت الأمة تلك الأركان، وصارت واقعًا في حياة المسلمين، كانت جديرة بما أنعم الله عليها من مزايا، وجديرة بما أوكل إليها من مهمة عظيمة، ألا وهي: حمل الدعوة إلى دينه، تلك الأمانة التي كان تعالى يعهدُ بها إلى خيرة خلقه وصفوتهم من الأنبياء والمرسلين.

فنحن نعتقد أن تحقيق هذه الأركان هو السبيل الوحيد إلى إقامة خير أمة أخرجت للناس، ومِنْ ثَمَّ حملِ رسالة الله ورسالة نبيه ﷺ وتبليغها إلى الناس. وبالتالي تكون الأمة جديرة بقيادة البشرية، وجديرة بكونها الشاهدة عليهم بوصول رسالة الله تعالى الأخيرة إليهم.

سنتعرف في الفصول القادمة من هذا الباب وبشيء من التفصيل على تلك الأركان والتي يقوم عليها إنشاء وبناء خيرِ أمة أخرجت للناس. تلك الأركان قد أخبرَ عنها تعالى في القرآن الكريم، وأخبرَ عنها رسول الله ﷺ، والتي جاءتْ على أشكالٍ متعددة، وصِيغٍ مختلفة، كما أسلفنا في مقدمة الكتاب.

ترتيب الأركان

لقد حاولنا جهدنا أنْ نستعرض تلك الأركان، ونُرتبها كلًّا حسب أهميته، وحسبَ ما يلزم من تحقيقه من ترتيبٍ وأولوية لِما قبله ولما بعده من أركان.

من أجلِ ذلك، فقد كان من الضروري ونحن نستعرضُ تلك الأركان ونُفَصِّلها، أنْ نبدأ بركنٍ ما، يكون مُنطلقًا لتحقيق بقية الأركان التي تأتي بعده. لذا وجدنا من المنطقي، ومما يدل عليه العقلُ أنْ نبدأ بركنِ **(الأمةِ الواحدة)**، حيث نعتقد أنَّه من أهمِّ الأركان، وأنه بمثابة الأساس والقاعدة لجميعها. ثم أتبعناه ببقية الأركان، من أجلِ أنْ ينسجم تحقيقُ كلِّ ركنٍ اعتمادًا على من قبله، ويكون تمهيدًا لما بعده، وهكذا مع بقية الأركان.

على أننا نقول، ليس من الضروري أنْ يكون بناء الأمة على حسب ما وضعنا هنا من ترتيب للأركان. إذْ أنَّ بعض الأركان قد يتداخل تنفيذها مع بعضها البعض، أو ربما تكون المصلحة تجاوز ركنٍ إلى الذي بعده، وهكذا. على العموم، سنتبع هذا الترتيب الذي ذكرناه آنفًا في عَرضِ أركانِ بناء الأمة الإسلامية.

لقد وصف الله المسلمين بأنهم أمة واحدة، وهذا من أعظم وأعز الأوصاف التي وصفهم به سبحانه، وأمرهم بتحقيقها في واقعهم. لذلك، فقد كان هذا هو السبب الذي يكمن وراء اختيارنا للبدء بهذا الركن عند استعراض الأركان، وذلك لأنَّ أعداء المسلمين ما انفكوا يوجهوا سهامَهم ومَكرهم وقوتهم إلى وحدة المسلمين واجتماعهم. فلو تتبعنا أسباب قوة المسلمين وعزهم واستمرار وجودهم –أيام عصورهم الذهبية– لوجدنا أَنَّ من بين أهم تلك الأسباب هو وحدة الأمة واجتماعها واجتماع كلمتها، وشعور المسلمين ويقينهم بأنَّهم أمة واحدة، وجسد واحد. وهذا في الحقيقة، ما كان أعداء الإسلام والمسلمين يستهدفونه دومًا، ويحاولون أنْ يمزقوا وحدة المسلمين بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وذلك كي يفرقوا شملهم ويُضعفوا قوتهم.

إنَّ هذا وغيرَه من الأسباب الأخرى، هو ما سنتعرض له بالتفصيل في الفصل القادم، وذلك عند حديثنا عن **(الأمة الواحدة)**، الركن الأول من أركان خير أمة أخرجت للناس.

فصل:

الركن الأول: الأُمَّةُ الواحِدَةُ

إنَّ الأمةَ الإسلامية، أمةٌ واحدةُ، على الرغم من اختلاف أجناس المسلمين، وألوانهم وألسنتهم، وبلدانهم. وذلك لأنَّ الإيمان بالله وتوحيده يجمعهم، ولأنَّ رسالتهم واحدة، ومهمتهم واحدة، وعدوهم واحد.

القرآن الكريم

لقد أخبر الحق سبحانه أنه خلق الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل وأعراقًا متعددة، كي يتعارفوا وينسجموا فيما بينهم، ويتعاونوا على ما فيه الخير والصلاح في دنياهم وآخرتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴿13﴾﴾[1]. وأخبر تعالى أنَّهُ ما خلقهم إلا لغايةٍ واحدة، وهي: أنْ يعبدوه وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿56﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾﴾[3].

ومن أجل تحقيق تلك الغاية، فقد بَعث تعالى رُسُلَه إلى الناس، ليرشدوهم إلى توحيده وعبادته وطاعته، واجتناب كل ما يُعبد من دونه، من أوثان وأصنام، وطواغيت بشرية وغيرها من الآلهة والمعبودات الزائفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[4].

---

(1) الحجرات، الآية: ﴿13﴾.

(2) الذاريات، الآية: ﴿56﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿21﴾.

(4) النحل، الآية: ﴿36﴾.

وأخبر سبحانه أنَّهُ بعث نبيه محمدًا ﷺ إلى الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿28﴾﴾[2]. فهو ﷺ مبعوثٌ إلى الناس جميعًا، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأصولهم.

ثم أخبر سبحانه، أنَّ أتباعه ﷺ من المسلمين إنما يُشكّلون أمة واحدة من دون سائر الأمم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿92﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿52﴾﴾[4].

فبانتمائهم إلى الإسلام دينًا، وإيمانهم بمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، فقد جمع الحق سبحانه المسلمين في جماعةٍ واحدةٍ، وصيَّرهم أُمَّةً واحدةً، على الرغم من هذا الاختلاف والتنوع في أصولهم، وأعراقهم، وأجناسهم، وبلدانهم.

فما معنى أنَّ المسلمينَ أمةٌ واحدةٌ؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد أنْ نتعرف أولًا على معنى **(الأمة)** لغةً فنقول:

إنَّ الأُمَّة في اللغة تأتي بمعنى مجموعة من الناس، والجماعة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴿23﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿66﴾﴾[6].

---

(1) الأعراف، الآية: ﴿158﴾.

(2) سبأ، الآية: ﴿28﴾.

(3) الأنبياء، الآية: ﴿92﴾.

(4) المؤمنون، الآية: ﴿52﴾.

(5) القصص، الآية: ﴿23﴾. وذكر ذلك ابن كثير في تفسيره: [﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ أيْ: جَمَاعَةً.] اهـ. تفسير ابن كثير، 6/204. والزمخشري: [أُمَّةً: جماعة كثيفة العدد مِنَ النَّاسِ من أناس مختلفين.] اهـ. تفسير الكشاف، الزمخشري، 3/400. وابن عاشور: [والأُمَّةُ: الجماعةُ الكَثِيرَةُ العَدَدِ.] اهـ. التحرير والتنوير، ابن عاشور (1393هـ)، 20/99.

(6) آل عمران، الآية: ﴿66﴾.

وبهذا المفهوم، فإِنَّ الأُمَّة تعني: مجموعة من الناس تشترك بأمر معين أو أكثر، كالرقعة الجغرافية، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، إلخ[1]. ومثال ذلك: الأمة العربية، حيث يشترك أفرادها برقعة جغرافية تمتد من الخليج العربي شرقًا، وحتى المحيط الأطلسي غربًا، وحيث اللغة المشتركة التي يتحدثون بها وهي اللغة العربية، وهكذا بقية الأمور المشتركة[2].

وبهذا المعنى لتعريف الأمة، فإنَّ المسلمين يُشكِّلون جماعة واحدة – لاشتراكهم بدينٍ واحدٍ– وهي جماعة المسلمين، وذلك كما سمَّاها رسول الله ﷺ[3].

وهذه الجماعة هي (أمة واحدة)، أي جماعة واحدة من حيث الأصل، وذلك لأنَّ أفراد هذه الجماعة، يشتركون بدين واحد، هو الإسلام، أي: بعقيدة واحدة، هي عقيدة التوحيد، وبكتاب واحد، هو كتاب الله تعالى: القرآن الكريم، وبنبي واحد، هو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فالمسلمون يشتركون بما ذكرناه آنفًا، بالرغم من اختلافاتهم الجغرافية والطبيعية: كالوطن، والعرق، والجنس، واللون، وغيرها.

وعلى هذا الأساس فإنَّ المسلمين يُشكِّلون أمة من دون سائر الأمم تسمى: **(الأمة الإسلامية)**.

وهم مشتركون بذلك أيضًا، بالرغم من اختلافاتهم المذهبية، واجتهاداتهم الفقهية، شريطة أَنْ تستند إلى الأصلين الثابتين، وهما: الكتاب، والسنة النبوية الصحيحة، وعلى فهم وأقوال الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان من السلف الصالح إلى يوم الدين.

(1) وجاء لفظ الأمة بمعنى الجماعة في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ الناسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَبِيّينَ مُبَشّرِينَ ومُنْذِرِينَ﴾، البقرة، الآية: ﴿213﴾. ما ذكره ابن عطية بقوله: [والأُمَّةُ: الجَماعَةُ عَلى المَقْصِدِ الواحِدِ، ويُسَمّى الواحِدُ أُمَّةً إذا كانَ مُنْفَرِدًا بِمَقْصِدٍ، ومِنهُ: قَوْلُ النَبِيِّ ﷺ في قِسّ بْنِ ساعِدَةَ ﴿يُحْشَرُ يَوْمَ القِيامَةِ أُمَّةً وحْدَهُ.﴾] اهـ. المحرر الوجيز، لابن عطية، 286/1، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542 هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422هـ.

(2) وقد جاء ايضًا لفظ (الامة) في القران بمعاني أخرى منها: الفترة من الزمن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾، (يوسف:45)، أي: بعد فترة من الزمن، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، (هود:8)، أي: إلى أجل معلوم. وبمعنى الشريعة والطريقة والمنهج، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، (الزخرف:22). وبمعنى الامام والرجل المقتدى به في كل شي، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، (النحل 120) أي: كان إمامًا وقدوة للناس.

(3) كما سيأتي ذكره لاحقًا في فصل: (النهي عن الافتراق).

مستلزمات الأمة الواحدة

وبناءً على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في وصف العلاقات والروابط بين المسلمين، فإنَّ المفهوم القرآني لوصفهم بـ (الأمة الواحدة)، يستلزم منهم – أي المسلمين– جملة من الأهداف والغايات وهي كما يلي:

أولًا: الإيمان بالله ورسوله

إنَّ عقيدتهم وإيمانهم وشريعتهم واحدة، هي عقيدة التوحيد والإيمان بالله ورسوله وأركان الإيمان الأخرى وتحقيق العبودية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿136﴾﴾[1].

ثانيًا: إقامة الدين في الأرض

وإنَّ غايتهم واحدة، هي إقامة دين الله في الأرض، قال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿13﴾﴾[2].

وتتمثل تلك الغاية بإقامة أركان الدين كالصلاة، والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحكيم الشريعة في حياة الأمة، وإحلالِ الحلالِ وإشاعته، وتحريم الحرام ومحاربته وإزالته، وغيرها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿41﴾﴾[3].

(1) النساء، الآية: ﴿136﴾.

(2) الشورى، الآية: ﴿13﴾.

(3) الحج، الآية: ﴿42﴾.

وتتضمن تلك الغاية أيضًا، أنْ يكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿193﴾﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿39﴾﴾[2].

أي تتضمن تلك الغاية، أن يَظهر الإسلام على جميع الأديان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿33﴾﴾[3]،

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿28﴾﴾[4]،

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿9﴾﴾[5].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية: ﴿193﴾ من سورة البقرة، والمذكورة آنفًا بقوله: [ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِقِتَالِ الكفَّار: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ: شِرْكٌ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، والسُّدي، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أَيْ: يكونَ دينُ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ (الْعَالِي) عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: سُئِل النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتل شُجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّة، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: ﴿مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فهو فِي سَبِيلِ اللَّهِ.﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: ﴿أمرْتُ أنْ أقاتلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ.﴾] اهـ[6].

(1) البقرة، الآية: ﴿193﴾.

(2) الأنفال، الآية: ﴿39﴾.

(3) التوبة، الآية: ﴿33﴾.

(4) الفتح، الآية: ﴿28﴾.

(5) الصف، الآية: ﴿9﴾.

(6) تفسير ابن كثير، 388/1.

ثالثًا: العدو المشترك

وأَنَّ عدوَّهم مشترك بينهم، وهو كل من لا يؤمن بالله وحده ويشرك به شيئًا، وكل من لا يدين بدين الإسلام، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[1].

ويشمل كذلك أيضًا أنَّ عدوهم: كلّ من حادَّ الله ورسوله[2]، قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿22﴾﴾[3].

ويشمل كذلك أيضًا أنَّ عدوهم: كلّ من يَصُد دعوة الله، ويقف حائلًا بينها وبين الناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿1﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿2﴾﴾[4].

ويدخل في زمرة أعداء الإسلام، أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿120﴾﴾[5].

---

(1) الممتحنة، الآية: ﴿4﴾.

(2) ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ الْمُحَادِّينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، يَعْنِي: الَّذِينَ هُمْ فِي حَدٍّ وَالشَّرْعُ فِي حَدٍّ، أَيْ: مُجَانِبُونَ لِلْحَقِّ مُشَاقُّونَ لَهُ، هُمْ فِي نَاحِيَةٍ وَالْهُدَى فِي نَاحِيَةٍ.]، اهـ. تفسير ابن كثير، 83/8.

(3) المجادلة، الآية: ﴿22﴾.

(4) الممتحنة، الآيتان: ﴿1، 2﴾.

(5) البقرة، الآية: ﴿120﴾.

العداوة بين المسلمين والكفار

ينبغي أنْ نُنَوهَ هنا إلى أمرٍ مهمٍ فيما يخص مسألة (العداوة بين المسلمين والكفار)، وأثرها في تعامل المسلمين معهم، فنقول[1]:

(1) إنه من المؤسف والمحزن أنْ تجد اليوم الكثير من المسلمين ممن يتحرج، وربما يمنع ويرفض إطلاق كلمة (الكفار) على غير المسلمين، وعلى وجه الخصوص: (اليهود والنصارى) من أهل الكتاب، ولا يقبل أنْ يعتبرهم أعداءً للمسلمين. وحُجة هؤلاء المسلمين المانعين من التكفير، أنَّ تكفير أهل الكتاب يُثير المشاكل والخلاف في البلد الواحد، ويؤدي إلى الاقتتال وسفك الدماء، وغير ذلك من الفتن. وقد تجد فريقًا آخرًا من المسلمين المانعين، غارقًا في الجهل في أمر دينه وعقيدته، فيقول: كيف نعتبرهم كفار، وهم يؤمنون بالله وبموسى والمسيح وغيرهم من الأنبياء –عليهم السلام–؟! وينسى هؤلاء المانعون والجاهلون –على حد سواء– أنَّ الله تعالى قد وصف أهل الكتاب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بالكفر، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴿30﴾﴾، التوبة، الآية: ﴿30﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴿64﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿64﴾.

وقال تعالى: لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴿17﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿17﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿72﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿72﴾.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿73﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿73﴾.

وقال تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴿1﴾﴾، البينة، الآية: ﴿1﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴿6﴾﴾، البينة، الآية: ﴿6﴾. وغيرها من الآيات الكريمة التي تنص على كفر أهل الكتاب.

وأخبر تعالى أنَّ هؤلاء الكفار من أهل الكتاب، هم أعداءٌ لله ولرسوله وللمؤمنين، ونهى المؤمنين عن اتخاذهم أولياء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿51﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿51﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿57﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿57﴾.

وعن عداوة الكافرين جميعًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴿144﴾﴾، النساء، الآية: ﴿144﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴿1﴾﴾، الممتحنة، الآية: ﴿1﴾.

الأصلُ، أنَّ كلَّ منْ لا يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ولا يؤمنُ بالإسلامِ ويتخذهُ دينًا له، فهو كافرٌ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿85﴾﴾[1].

وبالتالي، فذلك الكافرُ عدوٌّ لله ورسوله، وعدوٌّ لجميع المسلمين، قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[2].

ولكنْ، ليس معنى العداوة هنا، أنَّ على المسلمين – ابتداءً وبلا استثناء – محاربة وقتال جميع أعدائهم من الأصناف التي ذكرناها آنفًا. إنما يتوجب عليهم ذلك — أعني محاربة وقتال — أعداء الإسلام، المحاربين منهم على وجه الخصوص، والذين يصدون الناس عن الإسلام، وعن الدعوة إليه، ويؤذون المسلمين ويُخرجونهم من أرضهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿9﴾﴾[3].

أما أعداء الإسلام من الكفار غير المحاربين للمسلمين، والذين لا يصدون الناس عن دين الإسلام، ولا يقفون حائلًا بينه وبين الدعوة إلى الله، فهؤلاء قد جاء الامرُ بالكف عن قتالهم، بل والأمرُ ببرِّهم والقِسْط والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿8﴾﴾[4].

رابعًا: المصير الواحد المشترك

وأنَّ مصيرهم — أعني: جميع المسلمين — واحد مشترك، فما يُصيب بعضهم من أذًى أو اعتداء، فهو يُصيبُ المسلمين جميعًا، أينما كانوا، بغض النظر عن جنسهم، أو لونهم، أو عرقهم، أو موطنهم. وبالتالي كان لزامًا على الأمة نصرتهم ودفع الظلم والعدوان عنهم. فلا حواجز عرقية، ولا جنسية، ولا قومية فيما بينهم،

(1) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

(2) الممتحنة، الآية: ﴿4﴾.

(3)الممتحنة، الآية: ﴿9﴾.

(4) الممتحنة، الآية: ﴿8﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾[1].

ولأنَّ مصيرهم واحد، فقد أوجب القرآن الكريم على المسلمين نُصرة إخوانهم الذين يتعرضون إلى عدوانٍ إنْ هم احتاجوا إلى عون، قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿72﴾﴾[2].

فالإسلام والإيمان قد جمع المسلمين أينما كانوا ووحَّدهم، ولذلك، غالبًا ما نرى القرآن الكريم يخاطب المسلمين جميعًا بصفةٍ واحدةٍ، وبنداءٍ واحدٍ، هو نداء الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]، كي يُشعرهم: أنهم جماعةٌ واحدةٌ، وفريقٌ واحدٌ، أي: أمةٌ واحدةٌ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿38﴾﴾[5]،
وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿200﴾﴾[6]، وغيرها من الآيات في ذلك الخصوص.

السنة النبوية

أما مِن السُّنَّة النبوية، فقد كانت أفعال وأقوال وسيرة النبي ﷺ كلها تؤكدُ وترسِّخُ وتُؤصِّلُ لمفهومِ **(الأمة الواحدة)** بين المسلمين، كما سنستعرض ذلك الآن وبالتفصيل.

(1) النساء، الآية: ﴿75﴾.

(2) (الأنفال، الآية: ﴿27﴾.

(3) لقد ورد هذا النداء – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ – في تسع وثمانين موضعًا من القرآن الكريم.

(4) آل عمران، الآية: ﴿102﴾.

(5) التوبة، الآية: ﴿38﴾.

(6) آل عمران، الآية: ﴿200﴾.

تأسيس الأمة الإسلامية

عندما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، كان من أوائل ما فعله، وذلك بأنْ كتب وثيقة، هي بمثابة دستور تُعَرِّفُ مفهوم (الأمة الإسلامية)، وتحدده، وتبيِّن أساس الدولة الإسلامية الجديدة.

فقد أعلن ﷺ في تلك الوثيقة أنَّ المسلمين أمةً واحدةً، وأَنَّهم جماعةٌ واحدةٌ. قال ابن اسحاق: [وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهود، وأَقَرَّهم على دينهم، وأموالهم وشَرَط لهم، ومما جاء فيه: ﴿هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ بينه وبين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب، وممن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنّهم **أُمةٌ واحدة** من دون الناس.﴾.] اهـ[1].

فقد أسَّسَ رسولُ الله ﷺ بتلك الوثيقة (**الأمةَ الإسلاميةَ**)، وأرسى دعائمها، وكتب دستورها. وكان من أعظم بنود هذا الدستور، أنَّ المسلمين أمة واحدة من دون سائر الناس، أي من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والديانات الأخرى.

وجعل ﷺ نواة هذه الأمة، (الصحابة)، وهم المسلمون الأوائل من المهاجرين والأنصار، من قريش ويثرب (المدينة)، وغيرها من قبائل العرب ومدنها. ومِنْ ثَمَّ، جعل ﷺ الباب مفتوحًا إلى يوم القيامة، للانضمام إلى هذه الأمة، وذلك لكل من آمن به ﷺ وأتَّبع دين الإسلام ونَصَرَهُ.

فالأمة الإسلامية بهذا المفهوم القرآني والنبوي، أمةٌ حيَّةٌ نابضة، ومتجددة، ونامية، تتوسع باستمرار، وتستوعب مختلف الأعراق والأجناس.

المسلمون تتكافئ دماؤهم

وفي سياق التأكيد على وحدة المسلمين، وأنّهم أمةٌ واحدةٌ، وجماعةٌ واحدةٌ، فقد أخبر ﷺ بأنَّ دماء المسلمين تتكافئ، وأنَّهم يدٌ واحدةٌ، فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(1) الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 127، الرحيق المختوم (مع بعض التعديلات والزيادات من د علاء الدين زعتري وغسان محمد رشيد الحموي)، المؤلف: صفي الرحمن المباركفوري (ت 1427)، دار العصماء – دمشق، الطبعة: الأولى 1427.

﴿الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ. يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ.﴾[1].

ومعنى تتكافئ دماؤهم، أي ليس هناك تمايز طبقي، أو عرقي، أو قومي فيما بينهم. فإذا كان الناس سواسية جميعًا، وأنَّهم ينتمون إلى آدم عليه السلام، وآدم من تراب[2]. فمن باب أولى أنْ يكون المسلمون — وهم أمة واحدة — أَنْ تكون دماؤهم واحدة، وليس هناك تمايز فيما بينهم.

الأمر بلزوم الجماعة

ومن مقتضى الأمة الواحدة، لزوم جماعة المسلمين، وعدم مخالفتها والخروج عليها، وقد أمر ﷺ المسلمين بذلك. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿نَضَّرَ اللهُ عبْدًا سَمِع مَقالَتي هذه فحَمَلَها، فرُبَّ حامِلِ الفِقهِ فيه غيْرُ فقيهٍ، ورُبَّ حامِلِ الفِقهِ إلى مَن هو أَفْقَهُ منه. ثلاثٌ لا يَغِلُّ علَيهِنَّ صدرُ مُسلِمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ، ومُناصَحةُ أُولي الأمرِ، ولُزومُ جماعةِ المسلِمينَ؛ فإنَّ دَعْوتَهم تُحيطُ مِن وَرائِهم.﴾[3].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خطَبَنا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ بالجابِيَةِ قال: قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ مقامي فيكم اليومَ فقال: ﴿أحسِنوا إلى أصحابي، ثمَّ الَّذينَ يلونَهم، ثمَّ الَّذينَ يلونَهم، ثمَّ يفشو الكذِبُ، حتَّى يشهَدَ الرَّجُلُ على اليمينِ لا يُسأَلُها، فمَن أراد بُحبُوحةَ الجَنَّةِ فلْيلزَمِ الجماعةَ، فإنَّ الشَّيطانَ مع الواحِدِ، وهو مِن الاثنَيْنِ أبعَدُ، ولا يخلُوَنَّ أحَدُكم بالمرأةِ، فإنَّ الشَّيطانَ ثالثُهما، ومَن سرَّتْه حسَنَتُه، وساءَتْه سيِّئَتُه فهو مؤمنٌ.﴾[4].

وعن معنى لزوم الجماعة، فقد جاء في الدُّرَرَ السَّنيَّة:

---

(1) أخرجه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم (2751)، وقال: حسن صحيح.

(2) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ.﴾، أخرجه الألباني في صحيح الجامع برقم 1787 وحسنه.

(3)أخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند، الصفحة أو الرقم: (13350)، وقال: صحيح لغيره.

(4) صححه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند برقم 177، والألباني في السلسلة الصحيحة برقم 430. وفي رواية أخرى، عن ابن عمر — رضي الله عنهما — قال: ﴿خطَبَنا عُمَرُ بالجابيةِ، فقال: يا أيُّها الناسُ، إنِّي قُمْتُ فيكم كمقامِ رسولِ اللهِ ﷺ فينا، فقال: أُوصيكم بأصْحابي، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يَلونَهم، ثم يَفْشو الكَذِبُ حتى يَحلِفَ الرَّجلُ ولا يُستَحلَفُ، ويَشهَدُ الشاهِدُ ولا يُستَشهَدُ، ألَا لا يَخلُوَنَّ رَجلٌ بامرأةٍ إلَّا كان ثالثُهما الشيطانَ، عليكم بالجماعةِ، وإيَّاكم والفُرقةَ؛ فإنَّ الشيطانَ معَ الواحِدِ، وهو منَ الاثنَيْنِ أبعدُ، مَن أرادَ بُحْبوحةَ الجَنَّةِ، فلْيَلزَمِ الجَماعةَ، مَن سَرَّتْه حَسَنتُه، وساءَتْه سيِّئَتُه، فذلكمُ المؤمِنُ.﴾. أخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء، (5/ 88)، وقال: إسناده صحيح.

[وقد استنبط الشافعي من الحديث بأَنَّ معنى لزوم الجماعة، هو ليس اجتماع الأبدان، وإنما جماعة المسلمين، من التحليل، والتحريم، والطاعة فيها، أي: التزام دين الإسلام، من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ومن خالف بما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أُمر بلزومها.] اهـ[1].

ونستخلص من كلام الشافعي – رحمه الله – أَنَّ المقصود بلزوم جماعة المسلمين، أَنَّ يتحقق في الشخص أمران اثنان، كي يكون ملازمًا لها، وهما:

الأول: أنْ يَتَّبِعَ ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم، وهذا خاص بأمر الأحكام والمعاملات.

الثاني: أن يقوم بما تقوم به جماعتهم، وهذا خاص بأمر الاعتقاد والإيمان، والله أعلم.

التأكيد على لزوم جماعة المسلمين وإمامهم عند الفتن خصوصًا

لقد أكَّد رسول الله ﷺ على لزوم جماعة المسلمين، وحذَّر من مخالفتها ومفارقتها، وخصوصًا عند حدوث الفتن. فعن حذيفة بن اليمان — رضي الله عنه: كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّا كُنَّا في جَاهِلِيَّةٍ وشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بهذا الخَيْرِ، فَهلْ بَعْدَ هذا الخَيْرِ مِن شَرٍّ؟ قالَ: ﴿نَعَمْ﴾، قُلتُ: وهلْ بَعْدَ ذلكَ الشَّرِّ مِن خَيْرٍ؟ قالَ: ﴿نَعَمْ، وفيهِ دَخَنٌ﴾، قُلتُ: وما دَخَنُهُ؟ قالَ: ﴿قَوْمٌ يَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ منهمْ وتُنْكِرُ﴾، قُلتُ: فَهلْ بَعْدَ ذلكَ الخَيْرِ مِن شَرٍّ؟ قالَ: ﴿نَعَمْ، دُعَاةٌ علَى أبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَن أجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا﴾، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قالَ: ﴿هُمْ مِن جِلْدَتِنَا، ويَتَكَلَّمُونَ بأَلْسِنَتِنَا﴾، قُلتُ: فَما تَأْمُرُنِي إنْ أدْرَكَنِي ذلكَ؟ قالَ: ﴿تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وإمَامَهُمْ﴾، قُلتُ: فإنْ لَمْ يَكُنْ لهمْ جَمَاعَةٌ ولَا إمَامٌ؟ قالَ: ﴿فَاعْتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، ولو أنْ تَعَضَّ بأَصْلِ شَجَرَةٍ، حتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وأَنْتَ علَى ذلكَ.﴾[2].

وفي شرحه لصحيح مسلم، فقد بوب النووي –رحمه الله– لهذا الحديث تحت باب: (وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقه الجماعة)[3].

---

(1) الرسالة للإمام الشافعي بتحقيق أحمد شاكر صفحة (474 – 476) بتصرف، موقع (الدُّرَرَ السَّنِيَّة) على شبكة الانترنت.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم 3411، وكتاب الفتن، باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، برقم 6673، وباب علامات النبوة في الإسلام برقم 4311). ومسلم في صحيحه في (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة برقم 1847.

(3) صحيح مسلم بشرح النووي، (237/12).

وفي شرح فتح الباري لابن حجر في شرح حديث حذيفة، المذكور آنفًا، قال: [قال ابن بطال: (فِيهِ حُجَّةٌ لِجَمَاعَةِ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ لُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرْكِ الْخُرُوجِ عَلَى أَئِمَّةِ الْجَوْرِ لِأَنَّهُ وَصَفَ الطَّائِفَةَ الْأَخِيرَةَ بِأَنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ وَلَمْ يَقُلْ فِيهِمْ تَعْرِفُ وَتُنْكِرُ كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِينَ وَهُمْ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ إِلَّا وَهُمْ عَلَى غَيْرِ حَقٍّ وَأَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ.). ثم ذكر قول الطبري بأنَّ الأمر هنا في الحديث للوجوب، وساق ما ذكره الطبري من أقوال في المراد بالجماعة، إلى أنْ قال: (وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَتَى لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِمَامٌ فَافْتَرَقَ النَّاس أحزابا فَلَا يتبع أحدًا فِي الفرقة وَيَعْتَزِلُ الْجَمِيعَ إِنِ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ خَشْيَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ.).][1].

وقد وردت في هذا الصدد أحاديث كثيرة في التأكيد على أنَّ يدَ الله مع الجماعة، وأنَّ من شذَّ في النار، أو بمعنى قريبٍ منه، نورد هنا سريعًا، بعضًا منها.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ –رضي الله عنهما– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿يَدُ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّهُ مَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ﴾[2].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ.﴾[3].

وعن الحارث الاشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات، فذكر الحديث بطوله إلى أن قال ﷺ: ﴿وأنا آمرُكم بخمسٍ أمرني اللهُ بهنَّ: الجماعةُ، والسمعُ والطاعةُ، والهجرةُ، والجهادُ في سبيلِ اللهِ، فإنه من فارق الجماعةَ قيدَ شِبرٍ، فقد خلع ربقةَ الإسلامِ من عُنُقِه، إلّا أن يراجعَ، ومن دعا بدعوةِ الجاهليةِ فهو من جثَاءِ جهنَّمَ، وإن صام وزعم أنه مسلمٌ، فأدعو بدعوةِ اللهِ التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عبادَ اللهِ.﴾[4].

لزوم الجماعة عصمةٌ من الضلال

وأَنَّ من بركة الجماعة والمحافظة عليها ولزومها، أَنَّ الله تعالى يعصم المتمسكين بها من الزيغ والضلال.
عَن ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي، أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ

(1) فتح الباري لابن حجر، 37/13.

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه برقم 391 و396، وقال الألباني في مقدمة الصحيحة: رواه ابن أبي عاصم في (السنَّة)، وإسناده ضعيف كما بينتُه في ظلال الجنة، برقم 80، ولكنه حسن بمجموع طرقه، كما شرحته في الصحيحة، برقم 1331 وغيرها، وانظر (هداية الرواة) برقم 171. اهـ.

(3) حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 2019.

(4) صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم 1724، وفي صحيح الترغيب والترهيب، برقم 552.

مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ.﴾[1]. وفي رواية أخرى: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي – أَوْ قَالَ هَذِهِ الْأُمَّةَ – عَلَى الضَّلَالَةِ أَبَدًا وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ.﴾[2].

ويستفاد من هذه الأحاديث التي أوردناها، على وجوب لزوم جماعة المسلمين، والتحذير والترهيب من مفارقتها. وقد ذكر المباركفوري عند شرح حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿يد الله مع الجماعة﴾ الحديث، والذي ذكرناه في فصل (الأمة الوسط)، حيث قال: [الحديث يدلُّ على إجماعِ المسلمين حقٌّ، والمراد: إجماع العلماء، ولا غيره بإجماع العوام، لأنَّه لا يكون عن علم، وأمر النبي ﷺ لأمته على الجماعة باعتبار أنَّ المراد باجتماع الأمة: هو إجماع العلماء، فإنَّ العوام تبعٌ لهم في ذلك متابعة العلماء، وعدم الخروج عما أجمعوا عليه من أمور الدين، والوعيد الشديد لمن فارق الجماعة، والبشرى لمن لزم الجماعة] اهـ[3].

ومن أجل المحافظة على جماعة المسلمين، ومنْ ثَمَّ الأمة الإسلامية بكاملها، وتعويد المسلمين على لزوم الجماعة، وتعليمًا وتدريبًا لهم من أجل المحافظة عليها في الأمة، فقد أمر النبي ﷺ المسلمين بحضور صلاة الجماعة في المساجد، ورهَّب في تركها. وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة، نكتفي بما رواه البخاري في صحيحه تحت باب: كتاب (الأذان: باب صلاة الجماعة)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿والذي نَفْسِي بيَدِهِ لقَدْ هَمَمْتُ أنْ آمُرَ بحَطَبٍ، فيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بالصَّلَاةِ، فيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إلى رِجَالٍ، فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهُمْ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ لو يَعْلَمُ أحَدُهُمْ، أنَّه يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ العِشَاءَ.﴾[4].

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين ورغَّبهم في مواطن كثيرة بالاجتماع، وذلك تدريبًا لهم وتعليمًا على أهمية الجماعة ولزومها، وذلك من أجل وحدة الأمة الإسلامية، كحضور صلاة الجماعة يوميًّا في المسجد، وصلاة الجمعة والعيدين، والاجتماع في قيام رمضان —كما كان عمل الصحابة في عهد عمر – رضي الله

(1) رواه الترمذي في سننه برقم 2167 وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي: وإن لم يكن صحيحًا، فإنَّ معناه صحيحًا، وصححه الألباني دون ﴿وَمَنْ شَذَّ﴾. وأخرجه الحاكم في مستدركه، برقم 392.

(2) رواه الترمذي مختصرًا وقال: حسن غريب. والحاكم في مستدركه برقم 398، وقال: ثُمَّ وَجَدْنَا لِلْحَدِيثِ شَوَاهِدَ مِنْ غَيْرِ حَدِيثِ الْمُعْتَمِرِ، لَا أَدَّعِي صِحَّتَهَا، وَلَا أَحْكُمُ بِتَوْهِينِهَا، بَلْ يَلْزَمُنِي ذِكْرُهَا، لِإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، فَمِمَّنْ رَوَى عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنَ الصَّحَابَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، اهـ. المستدرك للحاكم، 201/1.

(3) موقع (الدُّرَرَ السَّنِيَّة) على شبكة الانترنت.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة برقم 618، وباب فضل العشاء في الجماعة برقم 626.

عنه، وعند أداء مناسك الحج والعمرة، والوقوف في عرفة، وصلاة الجنائز، والاستسقاء، والخسوف والكسوف، وغيرها من شعائر الإسلام التي تؤدى جماعة.

الأمرُ بالجماعة حتى في أصغر صورها

وقد أمر ﷺ بالجماعة حتى في أصغرِ صورها، وأقل عددها، وهي ثلاثًا فما فوق، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ما مِنْ ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ، إلا قد اسْتَحْوذَ عليهم الشيطانُ، فعليكم بالجماعةِ؛ فإنما يأكلُ الذِّئبُ من الغنمِ القاصية.﴾[1].

خاتمة

إنَّ شعور المسلمين أينما كانوا بأنَّهم أمة واحدة، على اختلاف اللغات، والألوان، والأجناس، والعادات والتقاليد، يجب أنْ لا يكون مجرد شعار، أو معلومة، أو مقولة يرددها المسلم بلسانه فقط، ولا يجد لها أثرًا في قلبه ووجدانه وواقعه.

إنَّ المسلمَ الذي يؤمنُ ويعتقد يقينًا بأنَّه جزءٌ من الأمة الإسلامية الواحدة الكبيرة، التي اجتباها رب العزة، واختارها دون سائر الأمم، لتكون حُجته على خلقه، والشاهدة عليهم، تلك الأمة التي أسَّسها رسول الله ﷺ وكان الصحابة ركيزتها، واللّبِنَة الأولى في هذه الأمة العظيمة، فهو يشعر بالفخر، وعزة الإسلام والإيمان، عندما يرى إخوانه المسلمين، من مختلف الأجناس، والأعراق، والبلدان يشاركونه بربٍ واحدٍ، وبكتابٍ واحدٍ، وبدينٍ واحدٍ، وبنبيٍ واحدٍ، وبقبلةٍ واحدةٍ. فهو يحبهم ويبادلهم مشاعِرَ الأخُوةِ والحبِ، والوفاءِ، والاحترامِ، والمسئولية.

كذلك، فهو لا يتعالى، ولا يزدري إخوتَه المسلمين، ولا يشعر بالتمييز، لمجرد أنَّهم من بلد غير بلده، أو عِرق غير عِرْقه، أو يتكلمون بلغة غير لغته، ناهيك عن عدم السخرية أو الاستهزاء بهم، أو الحطَّ من قدرهم.

كذلك، فهو – أي كلُّ مسلم- يشعر بالألم والحزن والأسى، لما يُصيبُ إخوانه من المسلمين، أينما كانوا، وذلك لما يتعرَّضون إليه من الأذى، والاضطهاد والظلم من قِبل أعداء الأمة، أو لِما يُصيبُهم من نكبات، وكوارث طبيعية، وغيرها من النكبات. فتراه يَهِبُّ، ويسعى لنُصرتهم، ونجدتهم، ورفع الحيْف والظلم عنهم، ودفع

(1) أخرجه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم 547 وحسنه، وفي صحيح النسائي برقم 846 وحسنه.

الأذى والعدوان عنهم. فهو لا يقول: إنهم ليسوا من بلده أو عرقه، وبالتالي فلا يَهُمه شأنهم! كلَّا، فجراحهم هي جراحه، ومصابهم هو مصابه أيضًا.

إنَّ الحدود التي اصطنعها أعداء الأمة الإسلامية كي يمزقوا جسدها، وحتى الحواجز الطبيعية لا تكون مانعًا من اتصال المسلمين وتقاربهم، ونُصرة بعضهم البعض. وينبغي ألا تكون هذه الحواجز سببًا في انطواءِ وانكفافِ كل بلد إسلامي على نفسه، ولا أن تكون سببًا لإعْراضِه، وغضّ الطّرْفِ عمَّا يُصيب إخوانه في البلاد الإسلامية الأخرى.

إنَّ البلدان والأقطار الإسلامية، وإنْ تعددت، وتباعدت، وكثرت الحواجز والحدود الطبيعية والجغرافية بينها، أو تلك التي اصطنعها العدو ورسخها، فهي تبقى (أمة واحدة)، هي (أمة الإسلام)، و(أرض واحدة): هي (أرض الإسلام). على أنّنا لا نقول أنْ يتخلى المسلم عن حبه لوطنه الذي وُلِدَ فيه، ومهدُ صِباه الذي نشأ وترعرع في أحضانه، وله جذوره وتأريخه وذكرياته، فلا شك أنَّ لكل قبيلة، وجماعة، وشعب، ووطن، تأريخه وخصوصيته التي يعتز بها، ولكن يبقى ذلك جزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامي، والوطن الإسلامي الكبير.

فصل:

الركن الثاني: الاعْتِصامُ بِحَبْلِ اللهِ

لكي يكون المسلمون أمة واحدة، ويحققوا في واقع حياتهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يجب أنْ يكونوا مجتمعين ومتوحدين على منهج واحد. ذلكم المنهج، هو النظام الرباني القويم، والصراط المستقيم، والنور المبين، الذي اختاره تعالى ورضيه للأمة الإسلامية، كي تتمسك به وتعتصم به، ولا تحيد عنه، إلى المناهج الأرضية والوضعية، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتذوق وبال أمرها، وتكون عاقبة أمرها خسرًا.

القرآن الكريم

من أجل ذلك، فقد أمر الحق سبحانه المسلمين بالاعتصام بحبله، أي بدينه القويم، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾[1].

فبالاعتصام بالدين، أي بالكتاب والسنة، كما فسرها ابن عباس – رضي اللهُ عنهما – يكون المسلمون أمَّة واحدة، وجماعة واحدة، قال القرطبي: [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِسِمَاكٍ الْحَنَفِيِّ: يَا حَنَفِيُّ، الْجَمَاعَةَ الْجَمَاعَةَ!! فَإِنَّمَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ الْخَالِيَةُ لِتَفَرُّقِهَا، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾، فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ.﴾. فَأَوْجَبَ تَعَالَى عَلَيْنَا التَّمَسُّكَ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِمَا عِنْدَ الِاخْتِلَافِ، وَأَمَرَنَا بِالِاجْتِمَاعِ عَلَى الِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا، وَذَلِكَ سَبَبُ اتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ وَانْتِظَامِ الشَّتَاتِ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَالسَّلَامَةُ مِنَ الِاخْتِلَافِ، وَأَمَرَ بِالِاجْتِمَاعِ وَنَهَى عَنِ الِافْتِرَاقِ الَّذِي حَصَلَ لِأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ.] اهـ[2].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

(2) تفسير القرطبي، 164/4.

وقد أمر الحق سبحانه أيضًا نبيه ﷺ بالتمسك بوحيهِ تعالى، أي بقرآنهِ ودينهِ، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿43﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴿44﴾﴾[1].

العبادةُ وإقامةُ أركانِ الدينِ من الاعتصامِ بحبلِ الله

إِنَّ من أُولى مظاهر الاعتصام بحبل الله وأعظمها، تحقيق العبودية الخالصة لله، فقد أَمَرَ تعالى الناس جميعًا بعبادته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿21﴾﴾[2].

وأمر تعالى المسلمين أيضًا –على وجه الخصوص– بعبادته وحده، وعدم الشرك به، فقال تعالى: ﴿۞وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[3].

وأخبر تعالى أنَّ تحقيق العبودية الخالصة له تعالى، إنما هي الغاية الرئيسية التي خُلقت الجن والإنس من أجلها، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿56﴾﴾[4].

فمن أجل ذلك أرسلَ تعالى الرُّسَلَ لتبليغ الناس ذلك الأمر، فهي وصيةُ كلّ الرسل، من لدُن آدم وحتى محُمد –صلى الله عليهم أجمعين[5].

---

(1) الزخرف، الآيتان: ﴿43، 44﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿21﴾.

(3) النساء، الآية: ﴿36﴾.

(4) الذاريات، الآية: ﴿56﴾.

(5) فعن نوح –عليه السلام–، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿59﴾ الأعراف، الآية: ﴿59﴾.

وعن هود –عليه السلام– إلى قومه (عاد)، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴿65﴾﴾ الأعراف، الآية: ﴿65﴾.

وعن صالح – عليه السلام – إلى قومه (ثمود)، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿73﴾﴾، الأعراف، الآية: ﴿73﴾.

وعن شعيب – عليه السلام – إلى قوم (مدين)، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴿84﴾﴾ هود، الآية: ﴿84﴾.

وكانت تلك أيضًا، وصية يعقوب – عليه السلام – الأخيرة لأبنائه، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِىۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴿133﴾﴾ البقرة، الآية: ﴿133﴾.

فقد أمر تعالى نبيه ﷺ بعبادته، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿123﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴿99﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴿2﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴿66﴾﴾[4].

وتحقيق عبودية الله إنما يكون بتحقيق شطريها الرئيسيين، ونعني بذلك: (العقيدة) و(الشريعة).

فأما تحقيق (العقيدة)، فنعني به: تحقيق الإيمان بعقيدة التوحيد، وشهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ، وتحقيق أركان الإيمانِ الأخرى، كما جاءت في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴿285﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴿136﴾﴾[6].

وأن يكون تحقيق أركان العقيدة على فهمِ السلف الصالح من هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعلى الأخص في القرون الخيرية الثلاثة الأولى[7].

---

(1) هود، الآية: ﴿123﴾.

(2) الحجر، الآية: ﴿99﴾.

(3) الزمر، الآية: ﴿2﴾.

(4) الزمر، الآية: ﴿66﴾.

(5) البقرة، الآية: ﴿285﴾.

(6) النساء، الآية: ﴿136﴾.

(7) عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ.»، أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد برقم 2509، وباب إذا قال: أشهد بالله، أو شهدت بالله برقم 6282، وباب فضائل أصحاب النبي ﷺ برقم 3451). ومسلم في صحيحه (بَابُ فَضْلِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ برقم 2533 و2534 و2545). قال النووي رحمه الله: [الصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ ﷺ: الصَّحَابَةُ، وَالثَّانِي: التَّابِعُونَ، وَالثَّالِثُ: تَابِعُوهُمْ.] اهـ. شرح النووي على مسلم، 85/16,

وأما تحقيق الشريعة، فيكون بتحقيق شطريها الرئيسيين أيضًا، ونعني بذلك (العبادات) و(المعاملات). وأن يكون ذلك أيضًا، على فهم سلف الأمة، كما ذكرنا آنفًا، مع مراعاة المصالح، والاحوال المتجددة، وذلك فيما يخص قسم المعاملات، شريطة أن يستند إلى الأصول والقواعد التي بَنَى عليها وأسَّس لها، فَهْمُ وعِلمُ السلف من الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

فتحقيق العبادات يعني إقامة أركان الإسلام وشعائر الدين، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من العبادات. وأما تحقيق المعاملات، فيعني تحكيم شريعة الله في حياة الناس وشؤونهم، كنظام الحكم وإدارة الدولة، والأحوال الشخصية في أمور النكاح والطلاق والميراث، وتطبيق القضاء الإسلامي، ومراقبة حرمات الله وإقامة حدوده، والالتزام بالأخلاق والسلوك الإسلامية، وفي كيفية التعامل مع غير المسلمين في البلاد الإسلامية والأحكام المتعلقة بهم، وغيرها مما يتعلق بحياة المجتمع والأمة الإسلامية عمومًا، وكذلك علاقتها مع الأمم الأخرى وما يُعرف بالسياسة الشرعية.

وباختصار شديد، نستطيع القول أنَّ تحقيق كل ما ذكرناه آنفًا يكون بتحقيق قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿5﴾﴾[1]، أي: إقامة الدين في كل ما أمر ونهى في حياة الأمة، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴿13﴾﴾[2].

والأمر بعبادة الله وحده هي أيضًا، وصية خاتم الأنبياء والمرسلين، محمدٍ ﷺ لأمته والناس جميعًا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿102﴾﴾[3].

ومن (الاعتصام بحبل الله)، أَنْ يُعبد تعالى على دين الإسلام - حصرًا - الذي أنزله على رسوله محمدًا ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا

(1) الفاتحة، الآية: ﴿5﴾.

(2) الشورى، الآية: ﴿13﴾.

(3) الأنعام، الآية: ﴿102﴾.

مُسْلِمُونَ ﴿64﴾﴾[1]، وذلك، لأنَّ الإسلام الذي أُنزِلَ على رسولِ الله ﷺ هو رسالة الله الأخيرة للبشرية، فهو الدين الوحيد المقبول في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿85﴾﴾[2].

التمسك بالسنة من الاعتصام بحبل الله

ومن الاعتصام بحبل الله، الاعتصام بالسُّنة التي أمر تعالى الأمة باتِّباعها أيضًا، والتي هي من حبل الله ودينه، كما مر بنا، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3].

فأمرهم تعالى بطاعة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿132﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[5].

وضمن الله لهم الفوز إنْ هم أطاعوه تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿52﴾﴾[6].

وأمرهم بالتحاكم إليه تعالى، وإلى رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿51﴾﴾[7].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿64﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿85﴾. ذكر صديق حسن خان في (فتح البيان) في تفسيره للآية بقوله:

[﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يعني: أنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وأنَّ كلَّ دينٍ سواه غير مقبول، لأنَّ الدين الصحيح: ما يَرضى الله عن فاعله، ويُثيبه عليه، ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الواقعين في الخسران يوم القيامة، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 278/2.

وذكر السعدي أيضًا في (تيسير الكريم الرحمن) في تفسيره للآية بقوله: [أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأنَّ دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصًا وانقيادًا لرسوله، فما لم يأتِ به العبد، لم يأتِ بسبب النجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل.] اهـ. تفسير السعدي، ص 127.

(3) الحشر، الآية: ﴿7﴾.

(4) آل عمران، الآية: ﴿133﴾.

(5) النساء، الآية: ﴿59﴾.

(6) النور، الآية: ﴿52﴾.

(7) النور، الآية: ﴿51﴾.

وحذَّرهم من مخالفته ﷺ، وعدم طاعة أمره، وذلك بترك سنته، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿63﴾﴾(1).

التحاكم إلى الله ورسوله من الاعتصام بحبله تعالى

ومن الاعتصام بحبل الله، التحاكم إليه تعالى، وإلى رسوله ﷺ أي إلى الكتاب والسنة، في أمور الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿59﴾﴾(2).

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَيْ: إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِهِ.

وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (الشُّورَى: 10)، فَمَا حَكَمَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ وَشَهِدَا لَهُ بِالصِّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أَيْ: رُدُّوا الْخُصُوماتِ وَالْجَهَالاتِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَجَالِ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا يَرْجِعْ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أَيِ: التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. وَالرُّجُوعُ فِي فَصْلِ النِّزَاعِ إِلَيْهِمَا خَيْرٌ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ أَيْ: وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلًا كَمَا قَالَهُ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَأَحْسَنُ جَزَاءً. وهو قريب.] اهـ(3).

(1) النور، الآية: ﴿63﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿59﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 304/2.

وأمر تعالى المسلمين عند الخصومات فيما بينهم، بالتحاكم إلى شرعه، وضده، التحاكم إلى الطاغوت، وهو ينافي الاعتصام بحبل الله، وقد حذَّرهم تعالى من الاحتكام إلى الطاغوت، وهو كل ما عُبِد من دون الله[1].

وأخبر تعالى أنَّ من صفات المنافقين، التحاكم إلى الطاغوت، وأنَّهم يأنفون ويصُدّون عن التحاكم إلى ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿60﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿61﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآيتين المذكورتين آنفًا بقوله: [هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ التَّحَاكُمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصَمَا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ. وَذَاكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾] اهـ[3].

---

(1) [اخْتَلَفُوا فِي الطَّاغُوتِ. فَقِيلَ: كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وقِيلَ: الْأَوْثَانُ، وقِيلَ: ما عُبِدَ مِن دُونِ اللَّهِ، وقِيلَ: الكُهّانُ.] اهـ. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، 589/3، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت 745هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420هـ.

(2) النساء، الآيتان: ﴿60، 61﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 305/2. وذكر القرطبي في تفسيره الآيتين بقوله: [رَوَى يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَدَعَا الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ. وَدَعَا الْمُنَافِقُ الْيَهُودِيَّ إِلَى حُكَّامِهِمْ، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ في أحكامهم، فلما اختلفا اجْتَمَعَا عَلَى أَنْ يُحَكِّمَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقَ.

﴿وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَعْنِي الْيَهُودِيَّ.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، أخبر تعالى عن المنافقين ورفضهم للتحاكم إلى الله ورسوله، وذلك بسبب نفاقهم وعدم اعتصامهم بدين الله، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿47﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿48﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿49﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿50﴾﴾[1].

ثم عقَّب تعالى بعد ذلك مباشرة بأن أثنى على المؤمنين الذين يتحاكمون إلى الله ورسوله، فهذا من كمال اعتصامهم بدين الله، وبشرهم بالفلاح في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿51﴾﴾[2].

من الاعتصام بحبله تعالى عدم اتباع المناهج الوضعية

ومن لوازم الاعتصام بحبل الله، عدم تبني واتباع الأفكار والمناهج المحرَّفة والأرضية، وكذلك الأحكام والقوانين التي من صنع البشر، واستبدالها بالمنهج الرباني القويم[3].

لقد سمَّى تعالى تلك المناهج المحرَّفة عن الكتب السماوية القديمة، كالتوراة والإنجيل والزبور، وكذلك المناهج الوضعية، فقد سماها جميعًا بالأهواء، وأمر نبيه ﷺ بالإعراض عنها، واتّباع القرآن الكريم. فبيَّن له تعالى عظمة المنهج الذي أنزله إليه متمثلًا بالكتاب (القرآن الكريم)، الذي جعله مهيمنًا على جميع الكتب السابقة،

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: دَعَا الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَدَعَاهُ الْمُنَافِقُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَهُوَ ﴿الطَّاغُوتِ﴾. وَرَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُقَالُ لَهُ بِشْرٌ، وَبَيْنَ يَهُودِيٍّ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: بَلْ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ ﴿الطَّاغُوتِ﴾ أَيْ ذُو الطُّغْيَانِ، فَأَبَى الْيَهُودِيُّ أَنْ يُخَاصِمَهُ إِلَّا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُنَافِقُ أَتَى مَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى لِلْيَهُودِيِّ.

فَلَمَّا خَرَجَا قَالَ الْمُنَافِقُ: لَا أَرْضَى، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَحَكَمَ لِلْيَهُودِيِّ فَلَمْ يَرْضَ، ذَكَرَهُ الزَّجَّاجُ، وَقَالَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى عُمَرَ فَأَقْبَلَا عَلَى عُمَرَ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّا صِرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَرْضَ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْمُنَافِقِ: أَكَذَلِكَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قال: رويدكما حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمَا. فَدَخَلَ وَأَخَذَ السَّيْفَ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الْمُنَافِقَ حَتَّى بَرَدَ (أي: مات)، وَقَالَ: هَكَذَا أَقْضِي عَلَى مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَضَاءِ رَسُولِهِ، وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَنْتَ الْفَارُوقُ﴾. وَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: إِنَّ عُمَرَ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَسُمِّيَ الْفَارُوقُ. وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتِ الْآيَاتُ كُلُّهَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء.] اهـ. تفسير القرطبي، 263/5.

(1) النور، الآيات ﴿47 – 50﴾.

(2) النور، الآية: ﴿61﴾.

(3) وإنْ كان هذا يتضمَّنه أيضًا موضوع (التحاكم إلى الطاغوت)، الذي تكلمنا عنه في الفقرة السابقة، ولكنَّ النهي هاهنا أعم وأشمل، كما سنبينه في هذه الفقرة.

أي: شهيدًا وحاكمًا[1]، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿48﴾﴾[2].

وفي الآية التالية من نفس السورة، فقد كرر تعالى الأمر لنبيه ﷺ باتباع منهجه تعالى، وذلك عند الحُكم بين المسلمين، وحذَّره من اتباع الأحكام والمناهج التي لدى الأمم الأخرى، سواء كانت وضعية من صنعهم، أو مُحرَّفة من الكتب السابقة، وسماها أهواءً، فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿49﴾﴾[3].

(حُرمة استيرادِ المناهج الوضعية المخالفة للدين في الحكم والقوانين التي يُدار بها شؤون الدولة والأمة)

ويدخل في ذلك النهي، حرمة استيراد المناهج الوضعية في الحكم والقوانين التي يُدار بها شؤون الدولة والأمة، كالأنظمة السياسية والفكرية والاقتصادية والمالية، وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها، مما يعارض ما في ديننا من نظم وأحكام وقوانين في ذلك المجال. ومن أمثلة تلك المناهج المستوردة والدخيلة على المنهج الرباني القويم، على سبيل المثال لا الحصر، كالديمقراطية في نظام الحكم وإدارة العملية السياسية، وأنَّ الشعب مصدر السلطات، وأنَّ الحكم للأغلبية، وإنْ خالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة! وفكرة فصلُ الدينِ عن الدولة، وحرية المعتقد وإن اشتمل على إلحاد أو كفر أو شرك! وحرية تأسيس الأحزاب والحركات. وكذلك فيما يخص تغريب المجتمع وسلخه عن الدين، كالمساواة بين المرأة والرجل، وإباحة الإجهاض، وإطلاق باب الحريات على

---

(1) ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله:

[وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى، فَإِنَّ اسْمَ (الْمُهَيْمِنِ) يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ، جَعَلَ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ، الَّذِي أَنْزَلَهُ آخِرَ الْكُتُبِ وَخَاتَمَهَا، أَشْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا وَأَحْكَمَهَا، حَيْثُ جَمَعَ فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ؛ فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا. وَتَكَفَّلَ تَعَالَى بِحِفْظِهِ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الْحِجْرَ: 9﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 116/3.

(2) المائدة، الآية: ﴿48﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿49﴾.

مصراعيها، بدون رادع وحدود من الشارع الحكيم، وإبداء الرأي فيما يخالف ثوابت الدين، بحجة حرية التعبير، وغيرها.

ويدخل في تلك المناهج والنظم المستوردة أيضًا، النظم الاقتصادية والمالية، مما يخالف ما في ديننا مما هو معلوم بالضرورة، ومن أشكاله، إباحة الربا وأنواع البيوع المحرمة التي تخالف مما في ديننا، وإباحة تجارة وتصنيع واستيراد وتصدير البضائع المحرمة، وغيرها.

(الأخذُ بتلك الأفكار والمناهج والأنظمة والقوانين الوضعية المعارِضة، يناقض ركن الاعتصام بحبل الله)

فهذه الأفكار والمناهج والأنظمة والقوانين الوضعية المستوردة التي تعارض ما عندنا من أصول وقوانين وتشريعات، فإنَّ الأخذ بها يناقض (ركن الاعتصام بحبل الله)، مما أمرنا به تعالى، وأمرنا به نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿50﴾﴾[1]،
وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿83﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[3].

وينبغي أنْ تعلم الأمة أنَّ الأخذ بهذه المناهج الوضعية، مما يتعارض مع ديننا، إنما هي ردة عن الدين، والعودة إلى المجتمع الجاهلي، وقوانين الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿50﴾﴾[4].

(1) المائدة، الآية: ﴿50﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿83﴾.

(3) الأنعام، الآية: ﴿114﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿50﴾.

وأنَّ الأخذ بهذه المناهج الوضعية، بمثابة عبودية غير الله من الطواغيت البشرية، وتسليط هذه الطواغيت على رقاب الناس، تتحكم فيهم حسب مصالحها ورغباتها وشهواتها، قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[1]،

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿21﴾﴾[2].

وأنَّ ذلك الأخذ بمثابة الحكم بغير ما أنزل الله، وقد توعَّد تعالى فاعله بأشد الوعيد، حيث وصفه تارة بالكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿44﴾﴾[3].

وتارة بالظلم، وهو الشرك، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴿45﴾﴾[4].

وتارة بالفسق، وهو الخروج عن دين الله وشرعه، قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿47﴾﴾[5].

فالله تعالى له الملك والتصرف في شؤون خلقه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾[6].

---

(1) الزمر، الآية: ﴿64﴾.

(2) الشورى، الآية: ﴿21﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿44﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿45﴾.

(5) المائدة، الآية: ﴿47﴾.

(6) ذكر ابن كثير في تفسيره الآية: [﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ﴾؟ أَيْ: لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصرُّفُ.] اهـ. (الأعراف: 54﴾، تفسير ابن كثير، 236/6.

وذكر الطبري في تفسيره الآية: [يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، كُلُّ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ، أَمَرَهُنَّ اللَّهُ فَأَطَعْنَ أَمْرَهُ، أَلَا لِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ، وَالْآمِرُ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُرَدُّ أَمْرُهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَدُونَ مَا عَبَدَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَخْلُقُ وَلَا تَأْمُرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ مَعْبُودَنَا الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ رَبُّ الْعَالَمِينَ.] اهـ. تفسير الطبري، 246/10.

(جوازُ الأخذِ بالأحكام والنُّظم الأخرى الوضعية، غير المعارِضة، في إدارة الدولة وشؤون الأمة، وغيرها)

على أنَّ ذلك النهي الذي فصلناه آنفًا، لا يتعارض مع الأخذ بالأحكام والنظم الأخرى وإنْ كانت وضعية، والتي لا تتعارض مع ما في ديننا، كالذي يتعلق بإدارة الدولة ومؤسساتها، كإنشاء المجالس النيابية (البرلمان)، بشرط أنْ تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿159﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿38﴾﴾[2].

وكإنشاء الدواوين والوزارات من أجل إدارة الدولة ومؤسساتها، كما ثبت عن عمر – رضي الله عنه – أنَّه كان أول من استحدثِ الدواوين. وكالأخذ بالأمور المستحدثة التي يحتاجها الناس في حياتهم، كأنظمة المرور، وتخطيط المدن، والشوارع والبناء والعمران، وغيرها.

ويشمل ذلك أيضًا، جواز الأخذ بقوانين الاقتصاد والمحاسبة والمال، وإنشاء المصارف والبنوك والمؤسسات المالية وصك العملات، كما تم ذلك في عهد الدولة الاموية أيام عبد الملك بن مروان، بشرط أنْ تؤسس على نظام إسلامي ليس فيه ربا، أو غش، أو غُبن، أو تحايل، أو تبايع بسلعٍ محرمة وغيرها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿275﴾﴾[3].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿159﴾.

(2) الشورى، الآية: ﴿38﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿275﴾. وكما هو معلوم، فقد جاء تحريم الربا في مواضع أخرى:

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴿276﴾﴾ البقرة، الآية: ﴿276﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة، الآية: ﴿278﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿130﴾﴾ آل عمران، الآية: ﴿130﴾.

وكذلك جواز الأخذ بالأنظمة الأخرى المستحدثة بين الدول، وما يتضمنه من تنظيم العلاقات الدولية وإنشاء السفارات، وترسيم الحدود ومقاسمة الثروات المشتركة، كالثروات الطبيعية مثل النفط والمعادن والأنهار وما يسمى بالمياه الإقليمية والدولية، وغيرها من الأمور المستحدثة مما لا يتعارض مع ما هو موجود في ديننا ومع الأصول التي يقوم عليها الدين الإسلامي.

ويندرج ذلك كله تحت قوله ﷺ: ﴿أَنتُم أَعلمُ بأَمرِ دُنياكم﴾، فعن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقالَ: ﴿لو لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ، قالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بهِمْ فَقالَ: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُمْ.﴾[1].

(الاعتصامُ بحبلِ الله نجاةٌ للأمة من الوقوع في المساوئ والأخطاء الجسيمة للنُّظُم والأفكار الوضعية)

إنَّ مما يجبُ أنْ يَعلمهُ كلُّ مُسلم، وتَعلَمهُ الأمة الإسلامية، أنَّ النتيجة الحتمية لعدم الاعتصام بحبل الله، هي الأخذ بالقوانين والنُّظُم والأفكار الوضعية، إذ لا بد للناس من قوانين وتشريعات، أيًّا كانت، لكي تنظم أمور حياتهم ومعاشهم. ولما كان البشر، بطبيعتهم التي خُلقوا وجُبِلوا عليها، غير معصومين من الخطأ والأهواء والزلل، كانت بالتالي، قوانينهم، وتشريعاتهم ناقصة، وقاصرة، ومتناقضة. وإذا صلُحت تلك القوانين لفئة معينة من الناس، وفي زمنٍ معين، ومكانٍ معين، فمما لا شك فيه، فإنها لا تصلُح لكل البشر، أيًّا كانوا، وفي أي زمانٍ، أو مكانٍ، كما هو الحال مع المنهج الرباني القويم، الذي يلائم جميع البشر، لأنَّه صادرٌ عن ربِّ البشر، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يظلم أحدًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴿28﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ

وأنَّ الربا محرمٌ في جميع الأديان، ومنهم أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴿161﴾﴾ النساء، الآية: ﴿161﴾.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي، برقم 2363.

[وَهو ﷺ أَعلمُ بأَمْرِ أُخراهم مِنهُم؛ فإنَّ الأَنبياءَ والرُّسلَ إنَّما بُعِثوا لإِنقاذِ الخَلائقِ مِنَ الشَّقاوةِ الأُخرويَّةِ وفَوزِهم بالسَّعادةِ الأَبديَّةِ. ففي الحديثِ: بيانُ الفَرقِ بَين ما قالَه ﷺ مِن مَعايشِ الدُّنيا عَلى سَبيلِ الرَّأيِ وبَين ما قالَه شَرعًا وحدَّثَ به عن رَبِّ العزَّةِ عزَّ وجلّ.] اه. موقع (الدُّرَرَ السَّنيَّة) على شبكة الانترنت.

(2) سبأ، الآية: ﴿28﴾.

جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[2].

(عدمُ اعتصام الأمة الإسلامية بحبل الله أدى إلى فشلها وتمزُّقها وتفرُّقها وذهابِ ريحها)

وأخيرًا نقول:

ما أوتيت الأمة الإسلامية في مقتلٍ، ولا تفرَّقت واختلفت وفشلت، وذهبت ريحها وقوتها، إلَّا من عدم اعتصامها بكتاب الله، ومن أخذها كلًّا أو جزءًا من الأفكار والأيديولوجيات المعارضة لأصول ديننا، ومن النظم والقوانين الوضعية. فترى اليوم الكثير من البلدان الإسلامية، تأخذ من الغرب والشرق، كل غثٍّ وسمينٍ من تلك النظم والقوانين.

ففي نظام الحكم وإدارة الدولة، تجد هذا البلد (المسلم) يأخذ بالنظام الاشتراكي، وذاك يأخذ بالنظام الرأسمالي، وآخر يتبنى النظام الليبرالي، وهذا يتبنى الديمقراطية، وذاك دكتاتوري مُستبد، وهذا ملكيٌّ يتوارث الحكم، ويحتكرُ السُّلطة، وذاك يسمح بتشكيل الأحزاب وتعددها، وهذا يمنعها ويجرم مؤسسيها والمنتمين إليها، وهكذا غيرها من الأنظمة والأفكار.

وأما فيما يتعلق بقوانين الأحوال الشخصية، وأصول المحاكمات والعقوبات، وغيرها من القوانين، فترى هذا البلد يأخذ بالقانون البريطاني، وذاك يأخذ بالقانون الفرنسي. وآخر يقنن لنفسه قوانين وعقوبات ما أنزل الله بها من سلطان. وفي الحقيقة، فإنَّ كلَّ تلك الأنظمة والقوانين لا تتلاقى لا من قريب، ولا من بعيد مع المنهج الرباني القويم، بل وربما تختلف وتتناقض كليًّا مع الحدود والعقوبات التي شرعها الإسلام، بل وتُعطِّلها وتحرِّمها تلك القوانين المستوردة!

وكنتيجة لهذا الإعراض عن (**الاعتصام بحبل الله**)، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، أدى بالأمة الإسلامية إلى الاختلاف، ومن ثَمَّ إلى التنازع والشقاق، وإلى تفرّق الكلمة، وتمزق وحدة الصف. فكلُّ

(1) الأعراف، الآية: ﴿158﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿138﴾.

قُطْرٍ من بلاد المسلمين بما لديهم من نظم وأفكار وقوانين وضعية ومستوردة، فرحين! وصار من الصعب جمعهم وتوحيدهم، وذلك لاختلاف مناهجهم ومشاربِهم، مما أدى ذلك الاستبدال إلى الوقوع في الاختلاف المذموم [1]، الذي نُهيت عنه الأمة أشدَّ النهي، وحُذِّرت من الوقوع فيه أشدَّ التحذير.

وليت شعري كان ذلك الاختلاف، فقط اختلافًا في الدين، أي: في فهم النصوص ومدلولاتها، لكان الخطب أهون، بالرغم من خطورته! وذلك لأنَّ فاعله لا يزال في حظيرة الإسلام، ولا يزال من الممكن إعادة المنغمس فيه إلى جادة الصواب.

أما هذا الاختلاف الذي نتحدث عنه هاهنا، فهو اختلافُ ناجمُ عن استبدال منهج الله بمناهج وقوانين وضعية من صنع البشر، أي بعبارة أوضح: اختلاف ناجم عن عدم الاعتصام بحبل الله، واتخاذه شِرعةً ومنهاجًا، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

فهو إذن اختلافٌ، يُصاحبه معه ما قد يُعتبر خروجًا ومفارقةً للدين، وذلك بسبب عدم الاعتصام بحبل الله والأخذ به والتمسك به، والعدول عنه إلى المناهج والقوانين الوضعية والأخذ بها بديلًا عنه.

ونتيجة لذلك، فقد خسرت الأمة الإسلامية وحدتها، وخسرت قيادتها للعالم، التي هي أهلٌ لذلك، بما عندها من المنهج الرباني القويم، وتراجعت عن دورها في هداية الأمم الأخرى، التي من أجله كانت خير أمة، وبسببه كانت لها القيادة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

وفي النهاية، فقد خسِرت الأمة الإسلامية ريادتها، وخسِرت صدارتها وبريقها الذي كانت تَنْعَمُ بهم لولا عدم اعتصامها بذكر الله، أي القرآن الكريم، الذي هو سببُ عِزّها وشرفها،

(1) سيأتي الحديث عنه في الفصل القادم من ركن (النهي عن الاختلاف).

(2) المائدة، الآية: ﴿48﴾.

(3) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

فصل:

الركن الثاني: الاعْتِصامُ بِحَبْلِ اللهِ

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿143﴾﴾[3].

فقد خسرت الأمة الإسلامية بريقها وصدارتها بين الأمم، فلا هي تمسكت بحبل الله، لتنال العزةَ والشرف! ولا هي تقدمت كما تقدمت الأمم الأخرى عندما أخذت نُظمها وقوانينها منهم. وصدق فيها قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله حين قال: ﴿إنا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ. ﴾[4].

(1) الزخرف، الآية: ﴿44﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿43﴾وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴿44﴾﴾ (الزخرف: 43، 44)، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فتمسك يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومنهاج سديد، وذلك هو دين الله الذي أمر به، وهو الإسلام.] اهـ. تفسير الطبري، 602/20.

وذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَشَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَلَمْ يَحْكِ سِوَاهُ. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أَيْ: عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 211/7.

وذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ شَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ، إِذْ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَعَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ.] اهـ. تفسير القرطبي، 93/16.

(2) الأنبياء، الآية: ﴿10﴾. ذكر القرطبي في تفسيره بعدما تحدث عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ثم عقب فقال:

[نَظِيرُهُ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ الأنبياء، الآية: ﴿10﴾، أَيْ شَرَفُكُمْ. فَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَإِيَّاهُمْ خَاطَبَ، فَاحْتَاجَ أَهْلُ اللُّغَاتِ كُلِّهَا إِلَى لِسَانِهِمْ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِذَلِكَ فَصَارُوا عِيَالًا عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ أَهْلَ كُلِّ لُغَةٍ احْتَاجُوا إِلَى أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنْ لُغَتِهِمْ حَتَّى يَقِفُوا عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي عُنِيَ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَجَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ، فَشُرِّفُوا بِذَلِكَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ اللُّغَاتِ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ عَرَبِيًّا.] اهـ. تفسير القرطبي،16/93.

(3) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(4) تمام الحديث: ﴿خرج عمرُ بنُ الخطابِ إلى الشامِ ومعنا أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، فأتوا على مَخاضةٍ وعمرُ على ناقةٍ، فنزل عنها وخلع خُفَّيه فوضعَهما على عاتقِه، وأخذ بزمامِ ناقتِه، فخاض بها المخاضةَ، فقال أبو عبيدةَ: يا أميرَ المؤمنين! أأنتَ تفعلُ هذا؟ تخلعُ خُفَّيك وتضعُهما على عاتقِك وتأخذ بزمامِ ناقتِك وتخوضُ بها المخاضةَ ما يسرُّني أنَّ أهلَ البلدِ استشرفوك، فقال عمرُ: أُوَّهْ لو يقلْ ذا غيرُك أبا عبيدةَ جعلتُه نكالًا لأمة محمدٍ ﷺ. إنَّا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ.﴾. أخرجه الألباني عن طارق بن شهاب، في السلسلة الصحيحة، برقم 51، وقال: صحيح على شرط الشيخين. وله شاهد من حديث الأعمش، عن قيس بن مسلم، وفي صحيح الترغيب والترهيب برقم 2893، وقال: صحيح موقوف.

السنة النبوية

أمَّا في السُّنَّة، فقد أمرَ رسول الله ﷺ الأمة أيضًا، بالاعتصام بحبل الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أنْ تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا به شيئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا.»[1].

وبيَّن رسول الله ﷺ بوضوحٍ لا لَبس فيه، معنى حبل الله، أنَّهُ كتاب الله. فعن يَزِيدُ بْنُ حَيَّانَ، قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ وَعُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ، وذكر الحديث بطوله، إلى أنْ قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ.»، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ. وفي رواية أخرى، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ أَبِي حَيَّانَ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ.»[2].

وعن جابر بن عبد الله في حديث حَجَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وقد ساق الحديث، إلى أنْ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ به، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قالوا: نَشْهَدُ أنَّكَ قدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقالَ: بإصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.»[3].

نقول: وهذا لا يتعارض مع تفسير ابن عباس آنفًا، وهو أنَّ حبلَ الله: هو الكتاب والسنة، فإنَّهُ إذا ذُكر الكتاب (القرآن الكريم) منفردًا، فذلك يشمل الكتاب والسنة، فإنَّ بينهما عموم وخصوص. ففي الكتاب، أمرَ تعالى بأخذ ما أتى به رسوله ﷺ والكف عما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[4].

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في: كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، برقم 1715.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ في: بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم 2408.

(3) تقدم تخريجه.

(4) الحشر، الآية: ﴿7﴾.

وحذَّر ﷺ المسلمينَ من الانحراف عن صراط الله المستقيم، وأمرَ بالاعتصام بحبله تعالى، فعن ابنِ مسعودٍ أنَّهُ قال: ﴿إنَّ هذا الصِّراطَ محتضرٌ، تحضرُهُ الشَّياطينُ ينادونَ: يا عبدَ اللهِ هذا الطَّريقُ هلُمَّ إلى الطَّريقِ، فاعتصموا بحبلِ اللهِ، فإنَّ حبلَ اللهِ القرآنُ.﴾[1].

وعن انس بن مالك –رضي الله عنه– أنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ الغَدَ حِينَ بايَعَ المسْلِمُونَ أبا بَكْرٍ، واسْتَوَى علَى مِنْبَرِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ تَشَهَّدَ قَبْلَ أبِي بَكْرٍ، فقالَ: ﴿أمَّا بَعْدُ، فاخْتارَ اللَّهُ لِرَسولِهِ ﷺ الذي عِنْدَهُ علَى الذي عِنْدَكُمْ، وهذا الكِتابُ الذي هَدَى اللَّهُ به رَسولَكُمْ، فَخُذُوا به تَهْتَدُوا وإنَّما هَدَى اللَّهُ به رَسولَهُ.﴾[2].

التمسك بالسُّنة والنهي عن محدثات الأمور

وأما عن السنة النبوية الشريفة والتمسك بها بالتحديد، وبكل ما أمر به ﷺ الأمة، فقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة، نذكر بعضًا منها.

عَن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ، مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ﴿أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.﴾[3].

وحذَّر ﷺ الأُمة من التفريق بين القرآن الكريم والسُّنة، من أجلِ طَرْحِ السُّنة وعدم الأخذ بها، والاكتفاء بما جاء في القرآن الكريم من حلالٍ وحرامٍ، فعن الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ، قال: حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ أَشْيَاءَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يُحَدِّثُ بِحَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ

(1) أخرجه ابن رجب، في كتاب مثل الإسلام، 195/1، وصححه. والدارمي في سننه (3360/3)، وإسناده صحيح، من كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، برقم 6841.

(3) أخرجه الترمذي في جامعه (2676/5)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم 165. وأخرجه ابن ماجه في سننه، والدارمي في سننه وكلها صحيحة، وأحمد في مسنده، وهو صحيح رجاله ثقات.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ.﴾[1]، حيث سنأتي بالتفصيل على شرح ذلك الحديث عند الكلام عن متابعة الرسول ﷺ وسُنَّةُ الخلفاء الراشدين من بعده، رضي الله عنهم أجمعين.

خاتمة

وهكذا نرى أنَّ من أهمِّ الأسباب، وأعظمها، وأولها لتعزيز وتقوية (ركن الأمة الواحدة)، ومن ثَمَّ السبيل إلى بناء وإقامة (خير أمة أخرجت للناس)، ألا وهو تحقيق (ركن الاعتصام بحبل الله)، أيّ أنْ تلتزم الأمة بالمنهج الرباني الذي خصها الله به، والذي تفتقر إليه الأمم الأخرى. من أجل ذلك، كانَ لزامًا على الأمة الإسلامية أنْ تعتصم بحبل الله، وتحقق ذلك في واقع حياتها، ولا تحيدَ عنه، وأن يكون أفرادها مثالًا حيًّا وواقعيًّا لهذا المنهج. وبالتالي، ترى الأمم الأخرى ذلك المنهج الرباني القويم والفريد، وتتلمس ثمراته، وترى آثاره في تصرفات المسلمين، ومعاملاتهم وحياتهم، وتطورهم وإنجازاتهم، فتتأثر به، وتؤمن بذلك المنهج وتنقاد إليه.

فعندما تحقق الأمة الإسلامية (ركن الاعتصام بحبل الله)، وتظهر آثاره في واقع المسلمين، فإنَّ الأمم الأخرى سترى وتتلمس آثار ذلك المنهج الرباني، وتلك الإنجازات والثمرات، ليست على الصعيد الداخلي للأمة الإسلامية فحسب، بل على صعيد العالم أجمع.

حينئذ، سترى الأمم الأخرى آثار ذلك المنهج الرباني وذلك من خلال ما تقدمه الأمة الإسلامية من خير وإنجازات للبشرية جمعاء. تلك الإنجازات في مجالات متنوعة من فكر، وعلم، ونظام حكم، وقوانين، وعدل، واستقرار وأمن وطمأنينة، وغيره، مما تحتاجه البشرية، وهي تعيش في ظُلمات الكفر والشرك والإلحاد، وعبودية بعضهم البعض، واضطهاد، وتمييز عنصري، وجنسي، وقبلي، وغيره.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (مسند الشاميين) برقم 17194، حديث صحيح، وهو بإسناد الذي قبله، غير أنَّ الإمام أحمد قَرَنَ هنا بعبدِ الرّحمٰن- وهو ابنُ مهدي- زيدَ بنَ الحباب، وأخرجه الحاكم في مستدركه في 191/1، برقم 371، من طريق الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، بهذا الإسناد، وصححه ووافقه الذهبي. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون. وفي رواية أخرى عن المقدام بن معدي كرب: ﴿يوشِكُ أنْ يقعُدَ الرجلُ مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِهِ، يُحَدِّثُ بحديثٍ مِنْ حديثي، فيقولُ: بينَنَا وبينَكُمْ كتابُ اللهِ، فما وجدْنا فيه مِنْ حلالٍ اسْتَحْلَلْناهُ، وما وجدَنا فيه مِنْ حرامٍ حرَّمْناهُ، ألَا وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ مثلَ ما حرَّمَ اللهُ.﴾، صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم 8186، وفي رواية أخرى عن المقدام بن معدي كرب: ﴿ألَا هلْ عسى رجلٌ يبلغُه الحديثَ عنّي وهوَ متكئٌ على أريكتِهِ، فيقولُ: بيننا وبينكم كتابُ اللهِ، فما وجدنَا فيهِ حلالًا استحللنَاهُ، وما وجدنا فيهِ حرامًا حرمناهُ، وإنْ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ كمَّا حرَّمَ اللهُ.﴾، صححه الألباني في صحيح الترمذي، برقم 2664.

حينئذٍ تصبح الأمة الإسلامية بالفعل، مثالًا يقتدى بها، وأنموذجًا حيًّا للمنهج الرباني، والذي أحوج ما يكون العالم إلى ذلك النموذج الإسلامي الفريد، خصوصًا وذلك العالم يعيش في تلك الظلمات، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿138﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿125﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿50﴾﴾[3].

حينئذٍ، سترى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، تمامًا كما كان الناس يُقبلون على هذا الدين، لما يرونه من أخلاقٍ، وسلوكٍ، ونهضةٍ، وتعاملَ المسلمين الأوائل، أيام عصر النبوة وعصر الراشدين، والعصور الذهبية التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية. لقد كانت الأمة الإسلامية في تلك الحقبة الذهبية من تأريخها، كانت بحقٍّ (خير أمة أخرجت للناس)، وذلك باعتصامها بحبل الله.

السِّر في تخلُّف المسلمين وتأخُّرِهم بالرغم من أخذِهم بذاتِ الأفكارِ والنُّظم والقوانين التي أنتجتها الأمم الأخرى وأخذت بها

وفي تلك الخاتمة، نود أن نبين أمرًا مهمًّا عن واقع المسلمين وأمتهم الإسلامية، وذلك فيما يخص موضوع إعراض الكثير من بلدان المسلمين وحكوماتهم عن تبني الإسلام ومبادئه كمنهج حياة لجميع شؤونهم، ابتداءً من إدارة الدولة ونظام الحكم، وانتهاءً إلى إدارة وتنظيم شؤون الناس ومعيشتهم وأحوالهم الشخصية، وإدارة جميع مرافق الحياة الأخرى.

وبدلًا من ذلك نرى عدم اعتصام الكثير من بلاد المسلمين بحبل الله، وأخذهم من الأمم الأخرى بعضًا من الأفكار والأيديولوجيات والأنظمة والقوانين في الحكم وإدارة الدولة، وغيرها فيما يخص تنظيم وإدارة حياة الناس وشؤونهم.

وعلى الرغم من أننا قد تكلمنا عن ذلك الموضوع في فقرة سابقة من هذا الفصل، ولكن يبقى هناك سؤالًا والتباسًا قد يراود الكثير من المسلمين اليوم ويختلط عليهم، وهو:

---

(1) البقرة، الآية: ﴿138﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿125﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿50﴾.

لماذا لا يتقدم المسلمون وتصلح حياتهم وشؤونهم وتزدهر بلدانهم، على الرغم من أخذهم بنفس الأفكار والنظم والقوانين التي أنتجتها الأمم الأخرى وأخذت بها؟ بل على العكس، نرى الأمة الإسلامية تتخلف عن ركب الأمم الأخرى!

والأدهى من ذلك والغريب في الأمر، أنه كلما ازداد اخذ المسلمين من تلك النظم والقوانين، ازداد تخلفهم، وازدادت تبعيتهم للأمم الأخرى، وازداد تفرقهم وضعفهم، وبالتالي ازدادت الفجوة بينهم وبين الأمم الأخرى، حتى صاروا في ذيل القافلة! في حين، نرى الأمم الأخرى تتقدم وتتطور وهي تأخذ بتلك الأفكار والمناهج الوضعية.

ولنعيد السؤال بعبارة أخرى:

لماذا لم تنجح تلك الأفكار والمناهج الوضعية في بلاد المسلمين؟

ولعلَ من مجيبٍ فيقول:

السبب يكمن في عدم جدية ونزاهة وصِدق حكام المسلمين في تطبيق تلك المناهج والأفكار الوضعية. إضافة إلى ذلك، أنَّ عدم نجاح تلك المناهج الوضعية وذلك بسبب الفساد المستشري في بلاد المسلمين، والمحسوبية، وأنَّ المسلمين لا يزالون متخلفين في أفكارهم وقيمهم، إلخ.

ونحن نقول: وإنْ كنا لا نتفق مع بعض هذه الأجوبة، لكن مما لا شك فيه أنَّ بعضها يكشف عن بعض تلك الأسباب، لكنها على العموم، تبقى تلك أسبابًا ثانويةً، حيث لا تسلط الضوء على السبب الرئيسي والحقيقي في تخلّفِ المسلمين عن الأمم الأخرى، بالرغم من أخذهم المناهج الوضعية التي تقدمت الأمم الأخرى بها.

لا يُصلح لهذه الأمة إلّا الإسلام

والسبب الحقيقي باختصار، وكما مر بنا، ما قاله وبيَّنهُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب —رضي الله عنه— ﴿إنا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ.﴾[1].

(1) تقدم تخريجه.

لقد فَطِن الصحابة، وأولهم عمر –رضي الله عنه– إلى هذا الأمر، فنحن أمةٌ لا تَعُزُّ إلا بالإسلام، ولا يصلُح لها ثوبٌ إلا ثوبُ الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾(1).

ومن الطبيعي والمنطقي أنْ يُطرح السؤال التالي، ولا بد له من جواب وتفسير، وهو:

لماذا لا يَصلُح لنا، نحن المسلمين بالذات، إلَّا الإسلام؟ بينما غيرنا من الأمم الأخرى قد صَلَحَ معها غير الإسلام من تلك النظم والمناهج الوضعية!

فقد صَلَحت ونجحت إلى حد كبير مع غيرنا، كاليهود والنصارى في الغرب، والشيوعيين والبوذيين في الشرق، وغيرهم من الأمم الأخرى. حيث نرى في تلك البلدان مظاهر التطور والتقدم والرفاهية، والأمن والاستقرار، والقوة العسكرية والاقتصادية والمالية، وغيرها(2)!

فلماذا لا يَصْلُح لنا إلَّا الإسلام؟

والجواب: أنَّ سبب عدم صلاح أي منهج للأمة الإسلامية غير الإسلام وتشريعاته، وإخفاق المسلمين وتراجعهم عند أخذهم من المناهج الوضعية، هو ما تكلمنا عنه في باب مزايا أمة الإسلام، وهو أنَّ الله تعالى اختار هذه الأمة لتكون الأمة الوسط بين الناس، والمبلغة لرسالته بعد رحيل نبيه ﷺ.

وأنَّ الله اختارها أيضًا لتكون الأمة الشاهدة والحجة على الأمم الأخرى في الدنيا والآخرة(3).

---

(1) الزخرف، الآية: ﴿44﴾.

(2) من الجدير بالذكر أنَّ هذا الصلاح والنجاح للنظم الوضعية إنما هو نسبيٌّ، وجزئيٌّ ووقتيٌّ، وتبقى تلك المناهج الوضعية، قاصرة، ومتحيزة، وغير صالحة لكل زمان ومكان وشعب. وإلَّا، فالنظرة الفاحصة والشاملة لواقع تلك الأمم، المسماة بـ (المتحضرة والمتقدمة)، تجد فيها من الأمراض والمشاكل والكوارث، والتفكك الأسري والاجتماعي، وفقدان القيم الإنسانية، الكثير مما يطفو على السطح بين الحين والآخر، ومما يؤدي بالنهاية إلى انهيارها وزوالها. وهذا يفسر لنا سبب هيمنة تلك الدول ومنها العظمى على سبيل التحديد، كالولايات المتحدة وروسيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها، هيمنتها على الشعوب الأخرى واحتلالها لبلدان كثيرة ونهب ثرواتها والتحكم في مصيرها، والتأريخ مليء بالشواهد على ذلك.

وفي الحقيقة، فهذا سببٌ آخر على عدم نجاح تلك الأفكار الوضعية في بلاد المسلمين، كي يحمي تعالى المسلمين وبلادهم ومجتمعاتهم من آثار تطبيق تلك الأفكار والمناهج الوضعية، ومن ذلك النجاح والتقدم الزائف.

(3) يراجع الباب الثاني من هذا الكتاب: مزايا أمة الإسلام.

فلو نجح المسلمون، واستقامت حياتهم، عند استبدالهم المناهج الوضعية بدين الله، لضاع الدين، ولتخلَّى المسلمون عن الإسلام! لأنه حينئذ سيُقال: ما دُمنا نجح بغير الإسلام، ونستطيع أنْ نبني حضارة، ونزدهر بدونه، فما الحاجة إذن بالأخذِ بالإسلام وبتشريعاته وقوانينه[1]؟!

وحينئذ، ستعلو الدعوات والصيحات إلى حَجْرِ الإسلام وتضييق دائرة عمله وتأثيره في المجتمع. وتتعالى الصيحات إلى الدعوة إلى تحديده في نطاق العلاقة بين المسلم وربه، وإلى حصره في زاوية ضيقة من حياة الفرد والمجتمع والأمة، وحصره في نطاق المسجد فقط[2].

وحينئذ، يصبح حال الإسلام، ومفهوم الدين عند المسلمين، كحال الديانات الأخرى!

عندئذ يصبح الإسلام مجرد شعائر وطقوس لا تتجاوز قلب ووجدان معتنقه! وبذلك يصبح مفهوم الإسلام كمفهوم الأديان الأخرى، كاليهودية والنصرانية وغيرها، وكما يزعمون بقولهم: ما لله، لله، وما لقيصر، لقيصر! والدين لله، والوطن للجميع! ولا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة! وغيرها من الشعارات العلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة، كما في مفهوم الدين عند النصارى وغيرهم من الديانات المنحرفة.

وحينئذ، سيغيب وينتهي المفهوم الحقيقي للدين من حياة المسلمين، كونه المنهج الرباني المتكامل، والذي أُنزل لينظم حياة البشرية، بدءًا من كرسي الحكم، وانتهاءً بأدق تفاصيل الحياة وأصغرها، فكان القرآن الكريم تبياناً لكل شيء، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿89﴾﴾[3].

(1) يشهد لما ذهبنا إليه، ما ورد في السيرة عن سبب فشل المسلمين وخسارتهم في معركة أحد، عندما لم يلتزم نفر منهم بأمر النبي ﷺ بعدم مغادرة مكانهم على جبل الرماة. فكانت الخسارة قاسية، ولم يَسلَم في تلك المعركة من أذى الكفار حتى النبي ﷺ حيث كُسرت رُباعيته، ودخلت حلقة الدرع في وجنته الشريفة، واستُشهد عمه حمزة رضي الله عنه، واستُشهد نحو سبعين من أصحابه الكرام، ومُنيَ المسلمون بهزيمةٍ كبيرةٍ. فكانت محنةٌ ومصيبةٌ كبيرةٌ، كي يتعلم المسلمون درسًا لن ينسوه في (الاعتصام بدين الله)، وبأوامر النبي ﷺ.

(2) وهذا ما يحصل الآن، فكيف الحال لو نجحت تلك الأفكار الوضعية في بلاد المسلمين؟!

(3) النحل، الآية: ﴿89﴾.

وكانت السُّنَّة كذلك، فعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه، قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْخِرَاءَةَ. فَقَالَ: ﴿أَجَلْ. لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوَ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينَ، أَوْ أَنْ نسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ. أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ.﴾[1].

ولو حصل ذلك، أعني استغناء المسلمين عن شرع الله وأحكامه، لخسر المسلمون دينهم ودنياهم، ولخسر العالم كله الحياة الآمنة والعادلة في ظل المنهج الرباني في الدنيا. وأدى ذلك إلى أن ترتد البشرية إلى عصر العبودية لغير الله، وإلى الكفر والشرك والانحلال الخلقي، واستشرى الفساد في الأرض، ولخسر الجميع في الآخرة. إذ ليست هناك أمة بعد المسلمين تبلغ رسالات الله، وتنهى عن الفساد في الأرض، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. وبالتالي، ستسير البشرية إلى الهاوية، ويكون ذلك إيذانا بقرب الساعة، وزوال الدنيا وانتهائها، وهذا كائن لا محالة عند ولكن عندما ينتهي آخر مسلم موحد على الأرض، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ. فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: الله، الله.﴾[2].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة، باب الاستطابة، برقم 262.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في (كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ ذَهَابِ الْإِيمَانِ آخِرَ الزَّمَانِ، برقم 148، وفي رواية: ﴿على أحد يقول: الله الله﴾). وأحمد في مسنده، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ برقم 12043 بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فصل:

الركن الثالث: عدمُ الاخْتِلافِ

إنَّ من مقتضى اعتصام الأمة بحبل الله تعالى: عدم الاختلاف فيما بين المسلمين، كي لا تختلف قلوبهم، ويؤدي ذلك بهم إلى التفرُّق، ومن ثَمَّ إلى الاقتتال، وتمزُّقِ الأمة وتشرذُمها. وبذلك يطمع فيها أعداؤها، ويتجرؤون على مهاجمتها، ويستبيحون بيْضتها، ويستحِلّون حُرماتها، ويهيمنون على مقدراتها وثرواتها، وتفقد بذلك الأمة سيادتها، وقرارها واستقلالها وريادتها بعدما كان لها العلو في الأرض، وقيادة وهداية البشرية.

القرآن الكريم

لقد ذمَّ القرآن الكريم الاختلاف والتنازع في مواطن كثيرة، وحذَّر المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة، وخصوصًا أهل الكتاب من قَبلِهم من الاختلاف في أمر دينهم،

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿105﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿213﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿105﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿213﴾.

جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴿253﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴿157﴾﴾[2].

وحذَّر تعالى المسلمين من التنازع، ومن ذلك ما جاء في سياق الحديث عن معركة بدر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴿44﴾﴾[3].

فقد حذَّر القرآن الكريم الأمة الإسلامية من الوقوع في هذا التنازع الذي يَذهب بقوتهم ويُوهِن شوكتهم، وبالتالي يَطمعُ فيهم أعداءهم، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿46﴾﴾[4].

والاختلاف قد يكون في أمور الدين أو الدنيا[5]، وقد جاء النهيُ عنه أيًّا كان نوعه، وإنْ كنا سنركز في كلامنا هنا في هذا الفصل، على الاختلاف في أمور الدين، فحيثما ذكرنا (الاختلاف)، فنقصد به الاختلاف في الدين، فهو أشد خطرًا، وأشد فتكًا، وأعظم مصيبة.

أنواع الاختلاف

إنَّ المتتبع لتاريخ المسلمين، سيلاحظ أنَّ الأمة الإسلامية ما تفرَّقت، واقتتلت، وانكسرت شوكتها، وذهبت ريحها، وأفَلَ بريقها، وَطمعَ فيها أعداؤها، إلّا بسبب اختلافها، أعني (الاختلاف في الدين)، والذي نُهيت عنه أشد النهي، وحُذِّرت أشدَّ التحذير من الانجراف والوقوع فيه.

(1) البقرة، الآية: ﴿253﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿157﴾.

(3)(الأنفال، الآية: ﴿44﴾.

(4) الأنفال، الآية: ﴿46﴾.

(5) نقصد بالاختلاف في أمور الدنيا، ذلك الاختلاف الذي يؤدي إلى خِلافٍ ونزاعٍ وشِجارٍ وهجرٍ، وربما عداوةٍ واقتتال، كالاختلاف في وجهات النظر، أو تضارب مصالح وحقوق وواجبات في أمور دنيوية ليس لها علاقة بالدين. ومن أمثلة ذلك الاختلاف، الاختلاف في التجارة والمال والميراث والحقوق والواجبات بين المتخاصمين. والاختلاف الذي يحدث بين الزوجين، وبين الإخوة والأقارب، وبين أبناء البلد الواحد، وغير ذلك، مما قد يؤدي ذلك الاختلاف إلى نزاع وشِجار، وظلم وتجاوزٍ وأكلٍ للحقوق، وربما إلى اقتتال بين أبناء البيت الواحد، أو الحي الواحد، أو البلد الواحد.

فصل:

الركن الثالث: عدمُ الاخْتِلافِ

من أجل ذلك، كان من الضروري على كلِّ مسلم أنْ يعرف أنواع الاختلاف، وحدوده، ومواطنه، وما هو مقبول منه وما هو مردود، كي يكون على بينة من أمر دينه.

من المعلوم أنَّ الاختلاف في الدين نوعان[1]، اختلافُ تنوعٍ واختلافُ تضادٍ،

(1) نورد هنا كلامًا قيمًا لشيخ الإسلام ابن تيمية ذكره في (اقتضاء الصراط المستقيم) ونقله ابنُ أبي العز الحنفي، شارح الطحاوية، في تعريف الاختلاف وأنواعه، فقد أجاد رحمه الله في تفصيل ذلك، حيث يقول:

[إِنَّ أَنْوَاعَ الافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الْأَصْلِ قِسْمَانِ: اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ، وَاخْتِلَافُ تَضَادٍّ:

وَاخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ عَلَى وُجُوهٍ:

مِنْهُ مَا يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ أَوِ الْفِعْلَيْنِ حَقًّا مَشْرُوعًا، كَمَا فِي الْقِرَاءَاتِ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حَتَّى زَجَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: ﴿كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ﴾، وَمِثْلُهُ اخْتِلَافُ الْأَنْوَاعِ فِي صِفَةِ الْأَذَانِ، وَالْإِقَامَةِ، وَالِاسْتِفْتَاحِ، وَمَحَلِّ سُجُودِ السَّهْوِ، وَالتَّشَهُّدِ، وَصَلَاةِ الْخَوْفِ، وَتَكْبِيرَاتِ الْعِيدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا قَدْ شُرِعَ جَمِيعُهُ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ أَرْجَحَ أَوْ أَفْضَلَ.

ثُمَّ تَجِدُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ مِن الاخْتِلَافِ مَا أَوْجَبَ اقْتِتَالَ طَوَائِفَ مِنْهُمْ عَلَى شَفْعِ الْإِقَامَةِ وَإِيتَارِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ! وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَرَّمِ. وَكَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْهَوَى لِأَحَدِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ: مَا دَخَلَ بِهِ فِيمَا نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وَمِنْهُ مَا يَكُونُ كُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ هُوَ فِي الْمَعْنَى الْقَوْلَ الْآخَرَ، لَكِنِ الْعِبَارَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ، كَمَا قَدْ يَخْتَلِفُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَلْفَاظِ الْحُدُودِ، وَصَوْغِ الْأَدِلَّةِ، وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. ثُمَّ الْجَهْلُ أَوِ الظُّلْمُ يَحْمِلُ عَلَى حَمْدِ إِحْدَى الْمَقَالَتَيْنِ وَذَمِّ الْأُخْرَى وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى قَائِلِهَا! وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا اخْتِلَافُ التَّضَادِّ، فَهُوَ الْقَوْلَانِ الْمُتَنَافِيَانِ، إِمَّا فِي الْأُصُولِ، وَإِمَّا فِي الْفُرُوعِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْمُصِيبُ وَاحِدٌ. وَالْخَطْبُ فِي هَذَا أَشَدُّ، لِأَنَّ الْقَوْلَيْنِ يَتَنَافَيَانِ، لَكِنْ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي مَعَ مُنَازِعِهِ فِيهِ حَقٌّ مَا، أَوْ مَعَهُ دَلِيلٌ يَقْتَضِي حَقًّا مَا، فَيَرُدُّ الْحَقَّ مَعَ الْبَاطِلِ، حَتَّى يَبْقَى هَذَا مُبْطِلًا فِي الْبَعْضِ، كَمَا كَانَ الْأَوَّلُ مُبْطِلًا فِي الْأَصْلِ، وَهَذَا يَجْرِي كَثِيرًا لِأَهْلِ السُّنَّةِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ، فَالْأَمْرُ فِيهِمْ ظَاهِرٌ. وَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ هِدَايَةً وَنُورًا رَأَى مِنْ هَذَا مَا يُبَيِّنُ لَهُ مَنْفَعَةَ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُلُوبُ الصَّحِيحَةُ تُنْكِرُ هَذَا، لَكِنْ نُورٌ عَلَى نُورٍ.

وَالِاخْتِلَافُ الْأَوَّلُ، الَّذِي هُوَ اخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ، الذَّمُّ فِيهِ وَاقِعٌ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَى الْآخَرِ فِيهِ. وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى حَمْدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، إِذَا لَمْ يَحْصُلْ بَغْيٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وَقَدْ كَانُوا اخْتَلَفُوا فِي قَطْعِ الْأَشْجَارِ، فَقَطَعَ قَوْمٌ، وَتَرَكَ آخَرُونَ. وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمَا بِالْحُكْمِ وَالْعِلْمِ.

وَكَمَا فِي إِقْرَارِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَنْ صَلَّى الْعَصْرَ فِي وَقْتِهَا، وَلِمَنْ أَخَّرَهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ﴾.

وَالِاخْتِلَافُ الثَّانِي، هُوَ مَا حُمِدَ فِيهِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَذُمَّتِ الْأُخْرَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ الْآيَاتِ.

وَأَكْثَرُ الاخْتِلَافِ الَّذِي يؤول إِلَى الْأَهْوَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ – مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَاسْتِبَاحَةِ الْأَمْوَالِ، وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ. لِأَنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَا تَعْتَرِفُ لِلْأُخْرَى بِمَا مَعَهَا مِنَ الْحَقِّ، وَلَا تُنْصِفُهَا، بَلْ تَزِيدُ عَلَى مَا مَعَ نَفْسِهَا مِنَ الْحَقِّ زِيَادَاتٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْأُخْرَى كَذَلِكَ. وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ مَصْدَرَهُ الْبَغْيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ لِأَنَّ الْبَغْيَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَذُكِرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.] اهـ. شرح العقيدة الطحاوية، ص 514 – 516. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي

فالأول مُسَوَّغٌ[1]، والثاني منهيٌّ عنه.

اختلاف التنوع

فاختلاف التنوع، اختلافٌ في الفروع، وهو مُسوَّغٌ، وإنَّما جاء النهي عنه باعتبار ما سيؤول إليه. فإنْ أدَّى اختلاف التنوع إلى التنازع والاقتتال، صار مذمومًا ومحرمًا، كاختلاف التضاد تمامًا، وإلا كان مُسوَّغًا.

واختلاف التنوع، على مشروعيته، فالتعصب فيه لقولٍ معينٍ وإسقاطُ الأقوال الأخرى، وربما أدى إلى البغي، والفُرقة والتنازع والاقتتال، هو ما حذَّر منه الشارع الحكيم. وهذا للأسف يمثل أكثر الاختلاف بين أفراد الأمة، والذي جرَّ الكثير من الويلات والنكبات على المسلمين، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال ما نصه:

[وَأَكْثَرُ الاخْتِلَافِ الَّذِي يؤول إِلَى الْأَهْوَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ – مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَاسْتِبَاحَةِ الْأَمْوَالِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ. لِأَنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَا تَعْتَرِفُ لِلْأُخْرَى بِمَا مَعَهَا مِنَ الْحَقِّ، وَلَا تُنْصِفُهَا، بَلْ تَزِيدُ عَلَى مَا مَعَ نَفْسِهَا مِنَ الْحَقِّ زِيَادَاتٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْأُخْرَى كَذَلِكَ. (وَلِذَلِكَ) جَعَلَ اللَّهُ مَصْدَرَهُ الْبَغْيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ لِأَنَّ الْبَغْيَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَذُكِرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.] اهـ[2].

العز الحنفي (ت 792هـ)، حققها وراجعها جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة 1408هـ- 1988م. ومن الجدير بالذكر أنَّ أصل هذا الكلام عن الاختلاف وأنواعه، قد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، 148/1 والصفحات اللاحقة، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، 1419هـ- 1999م، عدد الأجزاء: 2.

(1) ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿103﴾﴾، آل عمران، فقال:

[وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ الاخْتِلَافِ فِي الْفُرُوعِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ اخْتِلَافًا، إِذِ الاخْتِلَافُ: مَا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ الائْتِلَافُ وَالْجَمْعُ، وَأَمَّا حُكْمُ مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ، فَإِنَّ الاخْتِلَافَ فِيهَا بِسَبَبِ اسْتِخْرَاجِ الْفَرَائِضِ وَدَقَائِقِ مَعَانِي الشَّرْعِ، وَمَا زَالَتِ الصَّحَابَةُ يَخْتَلِفُونَ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُتَآلِفُونَ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ﴾، وَإِنَّمَا مَنَعَ اللَّهُ اخْتِلَافًا هُوَ سَبَبُ الْفَسَادِ.] اهـ. تفسير القرطبي، 159/4.

(2) مرَّ سابقًا، اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي.

ولهذا، كان من الضروري أَنْ يعرف المسلم، أَنْ ليس كلّ اختلافٍ في أمور الدين فهو مذمومٌ، وبالتالي منهيٌّ عنه، ويُعد صاحبه آثمًا، ومستحقًّا للوعيد. فالواجب عليه ألا يتسرَّع في اتهام أخيه المسلم المخالف له ويذمَّه، ناهيك عن تكفيره، وهدرِ دمه، لمجرد أنَّه خالفه في أمر معين من أمور الدين.

والحقيقة، أَنَّ بعض ما نراه من اختلافٍ في ذلك الباب، فهو طبيعيٌّ ومقبولٌ، ولا يستلزم الذم — نقصد بذلك: (اختلاف التنوع). بل قد يكون هذا من عظمة الإسلام، وسعته، ومن رحمة الله تعالى بعباده، ومن باب التخفيف ورفعِ الحرجِ عن المسلمين، كما سنبين ذلك لاحقًا.

الاختلاف المذموم (اختلاف التضاد)

أما عن الاختلاف المذموم، فنقول:

فبعد أنْ أمر تعالى الأمة بالاعتصام بحبله، نهاهم عن الاختلاف بكل أنواعه، وأكد على الاختلاف المذموم على وجه الخصوص، أي (اختلاف التضاد)، والذي يكون فيه كِلا القولين متضادين، ولا يمكن الجمع بينهما، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال ما نصه:

[وَأَمَّا اخْتِلَافُ التَّضَادِّ، فَهُوَ الْقَوْلَانِ الْمُتَنَافِيَانِ، إمَّا فِي الْأُصُولِ، وَإِمَّا فِي الْفُرُوعِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْمُصِيبُ وَاحِدٌ. وَالْخَطْبُ فِي هَذَا أَشَدُّ، لِأَنَّ الْقَوْلَيْنِ يَتَنَافَيَانِ، لَكِنْ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي مَعَ مُنَازِعِهِ فِيهِ حَقٌّ مَا، أَوْ مَعَهُ دَلِيلٌ يَقْتَضِي حَقًّا مَا، فَيَرُدُّ الْحَقَّ مَعَ الْبَاطِلِ، حَتَّى يَبْقَى هَذَا مُبْطِلًا فِي الْبَعْضِ، كَمَا كَانَ الْأَوَّلُ مُبْطِلًا فِي الْأَصْلِ، وَهَذَا يَجْرِي كَثِيرًا لِأَهْلِ السُّنَّةِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ، فَالْأَمْرُ فِيهِمْ ظَاهِرٌ. وَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ هِدَايَةً وَنُورًا رَأَى مِنْ هَذَا مَا يُبَيِّنُ لَهُ مَنْفَعَةَ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُلُوبُ الصَّحِيحَةُ تُنْكِرُ هَذَا، لَكِنْ نُورٌ عَلَى نُورٍ.] اهـ[1].

(اختلافُ التضاد) وقعَ فيه أهلُ الكتاب، وانقسموا إلى طوائفَ وفِرق، مختلفة كليًّا عن بعضها البعض)

(1) مرَّ سابقًا، اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي.

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وقع فيه أهل الكتاب، وانقسموا إلى طوائفَ وفِرقٍ، مختلفة كليًّا عن بعضها البعض. وأصبحت كل فِرقة كأنَّ لها دينها الخاص بها واعتقادها المختلف كليًّا عن الفرق الأخرى. وهذا مما حذَّر منه تعالى، وحذَّرَ رسولُ الله ﷺ المسلمين منه، لئلا يكون حالهُم حالَ أهل الكتاب من قبلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿105﴾﴾[1].

قال البغوي في تفسيره للآية: [قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: المبتدعة من الأمة.] اهـ[2].

و(اختلاف التضاد) هذا، قد يكون في الأصول أو الفروع، كما مر بنا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

فأمَّا في الأصول: كالعقيدة، وما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، وفي ثوابت الدين التي أجمعت عليها الأمة.

أو قد يكون في الفروع: كالعبادات، وكيفياتها، أو البيوع، وأحكام النكاح، والطلاق ونحو ذلك.

فعن هذا الاختلاف، فقد أخبر سبحانه بأنَّ الناس سيختلفون لا محالة، واستثنى منهم من رحمهم تعالى، وهم الذين تمسكوا بكتابه تعالى، وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿119﴾﴾[3]. ذكر ابن كثير في تفسيره الآيتين المذكورتين بقوله: [يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، أي ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم، واعتقادات مللهم، ونحلهم، ومذاهبهم، وآرائهم، وقال عكرمة: مختلفين في الهدى، وقال الحسن البصري: مختلفين في الرزق، يسخر بعضهم بعضًا، والمشهور الصحيح الأول. وقوله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله

(1) آل عمران، الآية: ﴿105﴾.

(2) معالم التنزيل للبغوي، 1/489.

(3) هود، الآيتان: ﴿118، 119﴾.

إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي، وخاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه، وصدقوه، ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية.] اهـ[1].

النهي عن الاختلاف المذموم (على وجه الخصوص) في القرآن الكريم

والقرآن الكريم قد نهى عن الاختلاف المذموم في مواضع كثيرة وحذَّر منه، نذكر منها:

قال تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿176﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿213﴾﴾[3].

---

(1) تفسير ابن كثير، 310/4.

(2) البقرة، الآية: ﴿176﴾. ذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالصِّدْقِ. وَقِيلَ: بِالْحُجَّةِ. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ﴾ يَعْنِي التَّوْرَاةَ، فَادَّعَى النَّصَارَى أَنَّ فِيهَا صِفَةَ عِيسَى، وَأَنْكَرَ الْيَهُودُ صِفَتَهُ. وَقِيلَ: خَالَفُوا آبَاءَهُمْ وَسَلَفَهُمْ فِي التَّمَسُّكِ بِهَا. وَقِيلَ: خَالَفُوا مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاخْتَلَفُوا فِيهَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْقُرْآنَ، وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ: هُوَ سِحْرٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَبَعْضُهُمْ: مُفْتَرًى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي معنى الشقاق، والحمد لله.]، اهـ. تفسير القرطبي، 237/2.

(3) البقرة: 2، الآية: ﴿3﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، أَخْبَرَنَا هَمَّام، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ. فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾.

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ بُنْدَار عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَكَذَا رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ: كَانُوا عَلَى الْهُدَى جَمِيعًا، ﴿فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ مُنْذِرِينَ﴾ فَكَانَ أَوَّلُ نَبِي بُعِثَ نُوحًا. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَوَّلًا.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يَقُولُ: كَانُوا كُفَّارًا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَصَحُّ سَنَدًا وَمَعْنًى؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ.

وأخبر الحق سبحانه: أنَّه بسبب اختلافهم، تقاتل الذين من قبلنا، قال تعالى:﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿253﴾﴾[1].

وقال تعالى:﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿19﴾﴾[2].

كلامُ اللهِ وكلامُ رسولِهِ فاصلٌ للخلافِ إذا وقع

وأخبر سبحانه أنَّ كلامه تعالى إنما هو مبيِّنٌ وفاصلٌ للخلاف بين المسلمين إذا اختلفوا، وذلك كي لا يقعوا فيما نهاهم عنه من الاختلاف المذموم، ثم التفرق والتنازع، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿10﴾﴾[3].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيْ: مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيْ: هُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النِّسَاءِ: ٥٩). ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أَيِ: الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيْ: أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الأمور.]، اهـ[4].

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنزلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، أَيْ: مِنْ بَعْدِ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 1/425.

(1) البقرة، الآية: ﴿253﴾.

(2) يونس، الآية: ﴿19﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿19﴾﴾. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أَهْلَ دِينٍ وَاحِدٍ وَمِلَّةٍ وَاحِدَةٍ، فَاخْتَلَفُوا فِي دِينِهِمْ، فَافْتَرَقَتْ بِهِمُ السُّبُلُ فِي ذَلِكَ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ (يونس: 19)، يَقُولُ: وَلَوْلَا أَنَّهُ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَهْلِكُ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس: 19)، يَقُولُ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِأَنْ يَهْلِكَ أَهْلُ الْبَاطِلِ مِنْهُمْ وَيُنْجِي أَهْلَ الْحَقِّ.] اهـ. تفسير الطبري، 143/12.

(3) الشورى، الآية: ﴿10﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 177/7.

وأخبر تعالى أنَّ نبيه ﷺ أيضًا، فاصل للخلاف بين المسلمين إذا ما اختلفوا في أمور دينهم. وبهذا يكون كلامه ﷺ رافعًا للخلاف، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿64﴾﴾(1).

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ رُسُلًا فَكُذِّبَتِ الرُّسُلُ، فَلَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ فَلَا يَهِيدَنَّكَ تَكْذِيبُ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أَيْ هُمْ تَحْتَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَاصًا وَلَا صَرِيخَ لَهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؟ فَالْقُرْآنُ فاصل بين النَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ ﴿وَهُدًى﴾ أَيْ لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أَيْ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾] اهـ(2).

وذكر الشوكاني أيضًا في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِزَاحَةِ الْعِلَّةِ مِنْهُمْ، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، وَهَذَا خِطَابٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، والمراد بالكتاب الْقُرْآنُ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفَرَّغٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ، أَيْ: مَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَلَا لِعِلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ إِلَّا لِعِلَّةِ التَّبْيِينِ لَهُمْ، أَيْ: لِلنَّاسِ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية، وَانتصاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ عَلَى أَنَّهُمَا مَفْعُولٌ لَهُمَا مَعْطُوفَانِ عَلَى مَحَلِّ لِتُبَيِّنَ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى اللَّامِ لِأَنَّهُمَا فِعْلَا فَاعِلِ الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ، بِخِلَافِ التَّبْيِينِ فَإِنَّهُ فِعْلُ الْمُخَاطَبِ لَا فِعْلُ الْمُنَزِّلِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَيُصَدِّقُونَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ.] اهـ(3).

السُّنة النبوية

تقدم الكلام عن الاختلاف وأنواعه في حديثنا – في هذا الفصل – عن الأدلة من الكتاب، فلا حاجة في إعادته هنا، وسنكتفي بعرض الأدلة من السنة عن نهي النبي ﷺ عن الاختلاف المذموم، وتحذير الأمة من الوقوع فيه.

(1) النحل، الآية: ﴿64﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 497/2.

(3) تفسير الشوكاني، 208/3.

التمسك بالسُّنة نجاةٌ من الاختلاف المذموم

فمن هذه الأدلة، حديث العرباض بن سارية، والذي تقدم ذكره، فقد جمع جملة من الأمور المهمة، والوصايا النبوية، والتي تخص وحدة الأمة الإسلامية، والمحافظة على بنائها من التفكك، والتمزق، والفوضى: كطاعة ولي الأمر، والنهي عن الاختلاف، واجتناب البدع والإحداث في الدين، والتمسك بالسنة، واتِّباع سنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين. وقد ذكرنا ذلك الحديث، في فصل الأدلة على التمسك بالسنة، وهي الأصل الثاني من دين الله تعالى، ونورد هنا، الحديث المذكور في هذا الفصل، وذلك لاشتماله النهي عن الاختلاف المذموم، خصوصًا في زمن الفتن.

عَن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ» وذكر الحديث، إلى أن قال ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.»[1].

الصحابة لم يقعوا في الاختلاف المذموم

فحديث العرباض المذكور، يستفاد منه ما يلي:

أولًا: أنَّ الصحابة لم يختلفوا – نعني بذلك: الاختلاف المذموم (اختلاف التضاد) – وذلك لقوله ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا»، أي إذا طال به العمر، فسيرى اختلافًا كثيرًا.

ثانيًا: أنَّ الاختلاف سيقع بعدهم، وبعد انقراض عصرهم، وهذا يفهم أيضًا من قوله ﷺ أعلاه.

---

(1) تقدم تخريجه.

ثالثًا: أنَّ المخرج من الوقوع في الاختلاف: هو التمسك بسنته ﷺ، وسُنة الخلفاء الراشدين من بعده، ﴿فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.﴾، وذلك لأمره ﷺ للأمة بذلك، وباتِّباع سنة الخلفاء الراشدين (على وجه الخصوص)، والصحابة عمومًا[1].

رابعًا: أنَّ الحديث المذكور إنَّما هو تزكية للصحابة، وإثبات لعدالتهم جميعًا –رضي الله عنهم أجمعين–. فهو إشارة منه ﷺ إلى أنَّ الصحابة لن يقعوا في الاختلاف المذموم الذي نهى عنه، وإلَّا لما أمرنا ﷺ باتباعهم.

قال المباركفوري رحمه الله عند شرح حديث الافتراق[2]، ما نصه: [قَالَ الْعَلْقَمِيُّ: قَالَ شَيْخُنَا: أَلَّفَ الْإِمَامُ أَبُو مَنْصُورٍ عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ طَاهِرٍ التَّمِيمِيُّ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ كِتَابًا قَالَ فِيهِ: قَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُرِدْ بِالْفِرَقِ الْمَذْمُومَةِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي فُرُوعِ الْفِقْهِ مِنْ أَبْوَابِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَإِنَّمَا قَصَدَ بِالذَّمِّ مَنْ خَالَفَ أَهْلَ الْحَقِّ فِي أُصُولِ التَّوْحِيدِ وَفِي تَقْدِيرِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَفِي شُرُوطِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَفِي مُوَالَاةِ الصَّحَابَةِ، وَمَا جَرَى مَجْرَى هَذِهِ الْأَبْوَابِ لِأَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهَا قَدْ كَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِخِلَافِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ غَيْرِ تَكْفِيرٍ وَلَا تَفْسِيقٍ لِلْمُخَالِفِ فِيهِ، فَيَرْجِعُ تَأْوِيلُ الْحَدِيثِ فِي افْتِرَاقِ الْأُمَّةِ إِلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ الاخْتِلَافِ.

وَقَدْ حَدَثَ فِي آخِرِ أَيَّامِ الصَّحَابَةِ خِلَافُ الْقَدَرِيَّةِ مِنْ مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، ثُمَّ حَدَثَ الْخِلَافُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَكَامَلَتِ الْفِرَقُ الضَّالَّةُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهِيَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ. انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ.]، اهـ[3].

إرشادات نبوية أخرى للنجاة من الاختلاف

وحرصًا منه ﷺ على سد كل أبواب الخلاف بين المسلمين، فقد أمر ﷺ المسلمين بعدم الإكثار من الأسئلة والبحث عن التفاصيل الدقيقة، وإنما قبول أمره ونهيه ﷺ، هكذا، وبدون غلو، أو تنطع، وفي

(1) عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ليأتينَّ على أمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتَّى إن كانَ مِنهم من أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي من يصنعُ ذلِكَ، وإنَّ بَني إسرائيل تفرَّقت على ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً، وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي.﴾. حسنه الألباني في صحيح الترمذي، برقم 2641، وفي المشكاة أيضًا، وقال: حسن، (171– التحقيق الثاني)، (الصحيحة) (1348).

(2) ﴿افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة﴾ قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: ﴿من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي﴾. وفي بعض الروايات: ﴿هي الجماعة﴾. سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في فصل: النهي عن الافتراق.

(3) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، 332/7، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت 1353هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: 10.

المقابل أيضًا: بدون تهاون، أي لا إفراط ولا تفريط. فقد أخبر ﷺ عن هلاك الأمم السابقة بسبب تلك التصرفات، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ.﴾[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ، فَخُذُوا عَنِّي، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ.﴾[2].

قد يبدأ الاختلاف من أمور تبدو صغيرة، لا يَفطِنُ لها المسلم

ولسد منافذ الاختلاف، لم يكتف النبي ﷺ بالكلام فقط، فقد كان يأمرهم ﷺ بتطبيق ذلك عمليًّا في واقع حياتهم وعباداتهم. فمن ذلك مثلًا، كان يأمر ﷺ، الصحابة بتسوية صفوفهم في الصلاة، وذلك تعليمًا لهم وتدريبًا على الاتفاق والاجتماع، وعدم اختلاف قلوبهم، فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو قال: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا في الصَّلَاةِ، ويقولُ: ﴿اسْتَوُوا، ولَا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنكُم أُولو الأحْلَامِ والنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قالَ أبو مَسْعُودٍ: فأنْتُمُ اليومَ أشَدُّ اخْتِلَافًا.﴾[3].

وفي الحديث المذكور، إشارةٌ منه ﷺ إلى أنَّ النجاة من الاختلاف، يكون بالتمسك بسنته ﷺ في الصلاة وغيرها. ويتحقق ذلك أيضًا — أعني عدم الاختلاف – بحرص المسلمين على قربهم من بعضهم في العبادات وغيرها من أمور الدين، وخصوصًا، تلك التي تقتضي تواجدهم في مكان واحد، فهي إشارةٌ منه ﷺ إلى أنَّ الاختلاف قد يبدأ من أمور تبدو صغيرة، لا يَفطِنُ لها المسلم، والله أعلم.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (بَابُ تَوْقِيرِهِ ﷺ وَتَرْكِ إِكْثَارِ سُؤَالِهِ عَمَّا، برقم 1337). والبخاري في صحيحه في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، برقم 6858).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، جامع الترمذي، كتاب العلم، باب: في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ، برقم 2679، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ وَإِقَامَتِهَا، وَفَضْلِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ مِنْهَا، برقم 432. وفي رواية أخرى لمسلم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلَامِ وَالنُّهَى. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ (ثَلَاثًا)، وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاقِ.﴾، هَيْشَاتِ الأَسْواقِ: أي اختلاطها، والمنازعة والخصومات، وارتفاع الأصوات واللغط والفتن التي فيها.

اختلاف الصحابة وتصحيحه ﷺ لهم

بالرغم من ثبوت عدم اختلاف الصحابة فيما بينهم، ذلك الاختلاف المذموم، ونعني به: القسم الثاني (اختلاف التضاد)، لا في زمن النبي ﷺ ولا بعده، وبالتالي عدم تفرُّقهم، كما بينا في فقرة السابقة من هذا الفصل. فعلى الرغم من ذلك، فهذا لا يمنع من وقوعه أحيانًا، وبدون قصدِ الاختلاف والتفرق، وفي زمن النبي ﷺ على وجه الخصوص. وقد يحدث ذلك، ولكن سرعان ما يُنبّهم ﷺ على ذلك، ويُصحّحَهُ لهم، فيعودون عنه، ويجتمع رأيهم وشملهم. حيث لم يثبت لنا من سيرتهم – رضي الله عنهم جميعًا – أنهم انقسموا إلى فرقٍ وجماعاتٍ متناحرة، كما هو الحال من بعدهم ممن اختلفوا وتفرقوا.

أما عن القسم الأول من الاختلاف، أي (اختلاف التنوع)، فقد حدث ذلك بين الصحابة، وكان ﷺ يُقرّهم عليه، ولكن ينهاهم عن الإنكار على بعضهم البعض، وبالتالي يذعنون ويستسلمون، ويزول الخلاف والجدال فيما بينهم رضي الله عنهم أجمعين. ومثال ذلك ما سنذكره من اختلاف القراءات.

اختلاف القراءات

فمن أمثلة القسم الأول هذا، نعني (اختلاف التنوع)، كالخِلاف الذي حصل بين الصحابة في اختلاف القراءات، فأقرَّهم ﷺ عليها، ونهاهم عن الخلاف وعلى الإنكار على بعضهم. فعن عبد الله قَال: سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَأَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ». قَالَ شُعْبَةُ: أَظُنُّهُ قَالَ: «لَا تَخْتَلِفُوا، فإنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم اخْتَلفوا فَهَلَكوا.»[1].

وكما في مسألة صلاة العصر في بني قريظة، وغيره.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الخصومات، باب: ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي برقم 2279، وكتاب فضائل القرآن، باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، برقم 4775.

الخِلاف يوم أُحُدْ

أما عن القسم الثاني، أي (اختلاف التضاد)، فكانت حالة واحدة فقط، شبيهة إلى حد ما بـ (اختلاف التضاد)[1]، ولم تستمر سوى ساعات، وذلك ما حدث يوم أُحُدْ، فقد وقع المسلمون في ذلك المحذور، وعاقبهم الله عقابًا شديدًا، حين اختلفوا في التعامل مع أمر النبي ﷺ بعدم ترك مواقعهم.

وإضافة إلى ذلك، أنه حصل بين مجموعة صغيرة من الصحابة وهم الرماة، وأدى اختلافهم إلى انقسامهم إلى طائفتين، ولم يحصل بين جميع المقاتلين يوم أُحد، ولم يسجل التاريخ حدوث ذلك بين الصحابة جميعًا، حتى وفاة آخِرِهم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

فعن تلك الحادثة، ننقل ما ذكره ابن كثير في تفسيره حيث قال: [وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عُبَيد اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: ﴿لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وأجْلَس النَّبِيُّ ﷺ جَيْشا مِنَ الرُّماة، وأمَّر عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ –يَعْنِي ابْنَ جُبَيْر– وَقَالَ: ﴿لَا تَبْرَحُوا إنْ رأيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا، وإنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلا تُعِينُونَا﴾. فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هربُوا، حَتَّى رَأَيْنَا النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقهن، وَقَدْ بَدَتْ خَلاخلهن، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغنيمةَ الغَنيمة. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا تَبْرَحُوا. فأبَوْا، فَلَمَّا أبَوْا صَرَفَ وُجُوهَهُمْ، فأُصِيب سَبْعُونَ قَتِيلًا. تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ عَمْرو بْنِ خَالِدٍ، عَنْ زُهَير بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ.] اهـ[2].

وأدى ذلك الاختلاف والتنازع إلى انقسامهم طائفتين، وخسارة المعركة بعد نصرهم الكبير في بدايتها، فلقنهم الله درسًا شديدًا لن ينسوه. وكانت تلك الحادثة أيضًا، درسًا وعبرةً لجميع المسلمين، وعلى مر العصور، بعدم الاختلاف والتنازع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿152﴾﴾[3].

(1) قلنا عن حالة الاختلاف بين الرماة يوم أُحد، أنها حالة شبيهة، ولم تكن حالة (اختلاف التضاد) حقيقة، لأنه لم يحدث فيها تكفير بين المختلفين، إنَّما كانت فقط اختلافًا نتيجة تأويلٍ غيرَ مُبررٍ، وانقسام وتفرق بين المختلفين.

(2) تفسير ابن كثير، 118/2.

(3) آل عمران، الآية: ﴿152﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله:

[القول في تأويل قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

ما حدث من الرماة يوم أحد، كان مجرد مخالفة لأمر النبيِّ، أم اختلافًا وتنازعًا؟

وقد يبدو للبعض أنَّ ما حدث يوم أحد من قبل الرماة، كان مجردُ مخالفةُ نفرٍ من المسلمين لأمر النبي ﷺ، وليس اختلافًا وتنازعًا بينهم!

ونقول: بل كان تلك الحادثة اختلافًا وتنازعًا، مما أدى ذلك إلى انقسام الرماة إلى فريقين. فريقٌ خالف أمر النبي ﷺ، وترك موقعه، وفريقٌ ثبتَ ولم يترك موقعه.

ونود أنْ نبين حقيقة ذلك الاختلاف لأهميته، لأنَّ أكثر ما يقع به المسلمون من عصيان ومخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، إنما هو بسبب سوء فهمهم وتأويلهم للنصوص. وبالتالي اختلافهم وتنازعهم.

ولبيان ما حدث يوم أُحُد من اختلاف ومن ثَمَّ عصيان، نقول:

أولًا: لقد وصف تعالى تلك الحادثة بالتنازع، قال تعالى: ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، أي اختلفتم في الأمر، فلا سبيل لرد ذلك الوصف.

أمَّا ذلك الاختلاف، فكما هو معلوم، فقد كان هناك رأيان اثنان، وكما يلي:

الرأي الأول:

أوَّلت تلك الطائفة أمْرَ النبي ﷺ[1]، وفسَّرته على أنَّه التزامٌ بالأمر، ما دامت المعركة لم تُحسم بعد! أمَّا وقد حُسِمت المعركة، وذلك لِما رأوهُ من انهزام المشركين، وإقبال المسلمين على حصد الغنائم، فلا داعي إذن للالتزام بالأمرِ والبقاء في مواقهم. ولهذا قررت تلك الطائفة ترك مواقعها بعد حَسْم المعركة.

الرأي الثاني:

قال أبو جعفر: يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ (آل عمران: 152)، حَتَّى إِذَا جَبُنْتُمْ وَضَعُفْتُمْ، ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ (آل عمران: 152)، يَقُولُ: وَاخْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ؛ يَقُولُ: وَعَصَيْتُمْ وَخَالَفْتُمْ نَبِيَّكُمْ، فَتَرَكْتُمْ أَمْرَهُ، وَمَا عَهِدَ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ الرُّمَاةَ الَّذِينَ كَانَ أَمَرَهُمْ ﷺ بِلُزُومِ مَرْكَزِهِمْ وَمَقْعَدِهِمْ مِنْ فَمِ الشِّعْبِ بِأُحُدٍ، بِإِزَاءِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ فُرْسَانِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا قَبْلُ أَمْرَهُمْ.

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: 152)، أَيِ: اخْتَلَفْتُمْ فِي الْأَمْرِ، ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: 152)، وَذَاكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، عَهِدَ إِلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ، فَنَسُوا الْعَهْدَ، وَجَاوَزُوا، وَخَالَفُوا مَا أَمَرَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَانْصَرَفَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ بَعْدَ مَا أَرَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ مَا يُحِبُّونَ.] اهـ. تفسير الطبري، 136/6.

(1) أعني قوله ﷺ: ﴿لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا، وإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلا تُعِينُونَا﴾.

فقد أخذ أمرَ النبي ﷺ على ظاهرِه، والتزم به حرفيًّا، ولم يُؤله، ولم يفسِّرهُ كما فعلت الطائفة الأولى، خصوصًا وقد كرر ﷺ القول لهم بـ ﴿لَا تَبْرَحُوا﴾ في حالة ظهورنا عليهم، أو ظهورهم علينا! ومِنْ ثَمَّ رأتْ تلك الطائفةُ الاستمرار بالتزام الأمر، حتى يأتيها أمرٌ آخر مخالف.

ثانيًا: أنَّ السبب الذي دعانا إلى فهم الحادثة على أنَّ منشأهُ كان اختلافًا وتنازعًا، وذلك لأنَّه يَبْعُد أنَّ الصحابة قد عصوا أمرَ رسول الله ﷺ ابتداء، حاشاهم من ذلك. وإنَّما السبب الحقيقي في مخالفتهم، يكمُنُ في تأويلهم لأمر النبي ﷺ. وفي الحقيقة، لم تكن هناك حاجة للتأويل، طالما كان تحذيرَ النبي لهم واضحًا كما ذكرنا. عمومًا، فإنَّ تأوليهم هذا، دعاهم إلى تركِ الأمر، ومغادرة أماكنهم، ومن ثَمَّ أدَّى ذلك إلى أنِ انقسموا إلى طائفتين، وحصلَ الذي حصل.

والذي ينبغي أنْ تعلمه الأمة، أنَّ تأويل النصوص (إذا لم تكن حاجة إلى ذلك من سبب أو قرينةٍ صارفةٍ)، وعدم الأخذِ بظاهِرها، هو من أكثر أسباب الاختلاف والانقسام الحاصل بين المسلمين، وبالتالي، تَفَرُّقَهم إلى طوائفَ مُتناحرة، والله المستعان.

(الصحابةُ أصدقُ وأفهمُ وأعلمُ مَنْ نقلَ وتعاملَ مع كلامِ اللهِ تعالى وكلامِ رسولِهِ ﷺ)

لقد كان الصحابةُ أصدقَ وأفهمَ وأعلمَ مَنْ نقلَ وتعاملَ مع كلامِ اللهِ تعالى وكلامِ رسولِهِ ﷺ.
لقد كان لنا – نحن المسلمون – في سيرتهم رضي الله عنهم جميعًا، عبرة ودروس، وفي كيفية تعاملهم مع النصوص الشرعية، وفي اجتهاداتهم جميعها. بل وحتى في اجتهاداتهم التي صحَّحها لهم رسولُ الله ﷺ، فَهُمْ بشرٌ وليسوا مَعصومين. ولكنَّهم، وعلى الرغم من ذلك، فَهُمْ أكملُ البشرِ بعد أنبياءِ اللهِ ورسُلِهِ، فقد شَهِد لهم الحق بالعدالة في الدنيا، وبالفوز والفلاح في الآخرة، وشَهِد لهم بذلك أيضًا، رسول الله ﷺ[1].

---

(1) قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِن الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿100﴾﴾، التوبة، الآية: ﴿100﴾.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، أكّد تعالى رضاه عن الصحابة، وذلك عند بيعة الرضوان، فقال تعالى ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴿18﴾﴾، الفتح، الآية: ﴿18﴾.

وما أصدق وصف عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – للصحابة، فعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ.﴾[1].

إنما أوردنا تلك الواقعة هنا وذلك الاختلاف والتنازع، واعتبرنا ما حدث صورة من صور (اختلاف التضاد)، كي ينتبه المسلمون ويأخذوا الدروس والعبر منها.

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن الاختلاف وأنواعه، وعن خطورته في تفرّق الأمة. وبيَّنا أنَّ من الاختلاف ما هو مُسوغ، ولا ينبغي أنْ يكون سببًا في إثارة الخلافات والنزاعات بين المختلفين. وذكرنا أمثلةً عن اختلافِ الصحابة فيما بينهم، وإقرار النبي ﷺ عليه، وتحذيرهم من الإنكار فيما بينهم، مما يؤدي بهم إلى النزاع والتفرق. وذكرنا غزوة أُحد وما حدث من اختلافٍ وانقسامٍ بين مجموعة الرُّماة بسبب تأويلهم لأمرِ النبي ﷺ بعدم ترك مواقهم، مهما حدث للمسلمين في المعركة. واعتبرنا أنَّ صورة هذا الاختلاف كانت قريبة من (اختلاف التضاد)، وأنَّ السبب في وقوعه، تأويلُ كلام النبي ﷺ من قِبل الطائفة التي خالفت وتركت مواقعها. وبيَّنا أنَّ أكثر أسباب الاختلاف، وبالتالي الانقسام والتفرُّق الذي ينتج عنه، إنَّما مَردُّهُ التأويل غير المبرر بسببٍ أو قرينةٍ صارفة، وعدم الأخذ بظاهر النصوص.

وشهد لهم رسول الله ﷺ، وأوصى باتباع طريقتهم عند اختلاف الناس وتفرقهم، فقال ﷺ: ﴿ليأتينَّ على أمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتَّى إن كانَ مِنهم من أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي من يصنعُ ذلِكَ، وإنَّ بَني إسرائيل تفرَّقت على ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً، وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أنا علَيهِ وأَصحابي.﴾، تقدم تخريجه.

(1) ورد هذا الأثر في عدة روايات، أخرجها ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، 947/2، برقم 1807 و1810، وانظر: إغاثة اللهفان لابن القيم، 1/159.

فصل:

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

إِنَّ الأمة إذا اختلفَت، ولم تعتصم بكتاب الله تعالى، وبسُنة نبيه ﷺ، حدث التَفَرُّقُ لا مُحالة، وصارت الأمة شيعًا، وأحزابًا، وجماعات، وفِرقًا متضادةً ومتناحرةً، وعمَّت الفوضى في جسدها، وحلَّ الخراب في ديارها، وهذا هو التفرُّق، الذي ذمَّهُ القرآن الكريم، وحذَّر الأمة من الوقوع فيه.

القرآن الكريم

لقد حذَّر تعالى المسلمين من التفَرُّق، وأخبرهم أنَّ التفرق إلى شيع وأحزاب، يؤدي بهم إلى الشرك، وذلك لأنَّ التفرّق من صفات وعمل المشركين، قال تعالى: ﴿مُنيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِن الْمُشْرِكِينَ ﴿31﴾ مِن الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿32﴾﴾[1].

وحذَّر تعالى من اتباع السُّبُل التي تؤدي إلى التفرُّق عن صراطه المستقيم، الذي فيه نجاة الأمة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿153﴾﴾[2].

من أجل ذلك، فقد نهى – القرآن الكريم – المسلمين عن التفرُّق، وأمَرَهم بالاعتصام بحبله، فهو أمانٌ لهم من التفرق والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[3].

---

(1) الروم، الآيتان: ﴿31، 32﴾.

(2) الأنعام، الآية: ﴿153﴾.

(3) آل عمران، الآية: ﴿103﴾. عن **الافتراق وأصول الفِرَق**، ذكر القرطبي في تفسيره الآية: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾، مسألتين، فذكر الأولى، ثم قال: [الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾، (يَعْنِي فِي دِينِكُمْ)، كَمَا افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي أَدْيَانِهِمْ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ وَلَا تَفَرَّقُوا مُتَابِعِينَ لِلْهَوَى وَالْأَغْرَاضِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَكُونُوا فِي دِينِ اللَّهِ إِخْوَانًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَنْعًا لَهُمْ عَنِ التَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ، وَدَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا﴾. وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ الاخْتِلَافِ فِي الْفُرُوعِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ اخْتِلَافًا إِذِ الاخْتِلَافُ مَا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ الائْتِلَافُ وَالْجَمْعُ، وَأَمَّا حُكْمُ مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ فَإِنَّ الاخْتِلَافَ فِيهَا بِسَبَبِ، اسْتِخْرَاجِ الْفَرَائِضِ وَدَقَائِقِ مَعَانِي الشَّرْعِ، وَمَا زَالَتِ الصَّحَابَةُ يَخْتَلِفُونَ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُتَآلِفُونَ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ﴾، وَإِنَّمَا مَنَعَ اللَّهُ اخْتِلَافًا هُوَ سَبَبُ الْفَسَادِ.

فصل:

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً.﴾، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أمتي ما أتى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى لَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ﴿مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي﴾. أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ الْإِفْرِيقِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. قَالَ أَبُو عُمَرَ: وَعَبْدُ اللَّهِ الْإِفْرِيقِيُّ ثِقَةٌ، وَثَّقَهُ قَوْمُهُ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ، وَضَعَّفَهُ آخَرُونَ.

وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: ﴿أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَأَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أقوام، تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ، وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ).

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ عَنْ أنس بن مَالِكٍ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، مَاتَ وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ.﴾، قَالَ أَنَسٌ: وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِمْ قَبْلَ هَرْجِ الْأَحَادِيثِ وَاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿فَإِنْ تابُوا﴾ (التوبة: 11)، قَالَ: خَلَعُوا الْأَوْثَانَ وَعِبَادَتَهَا: ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ﴾، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾. أَخْرَجَهُ عَنْ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيِّ عَنْ أَبِي أَحْمَدَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَنَسٍ.

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ: فَإِنْ قِيلَ هَذِهِ الْفِرَقُ مَعْرُوفَةٌ، فَالْجَوَابُ: أَنَّا نَعْرِفُ الافْتِرَاقَ، وَأُصُولَ الْفِرَقِ، وَأَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنَ الْفِرَقِ انْقَسَمَتْ إِلَى فِرَقٍ، وَإِنْ لَمْ نُحِطْ بِأَسْمَاءِ تِلْكَ الْفِرَقِ وَمَذَاهِبِهَا، فَقَدْ ظَهَرَ لَنَا مِنْ أُصُولِ الْفِرَقِ: **الْحَرُورِيَّةُ، وَالْقَدَرِيَّةُ، وَالْجَهْمِيَّةُ، وَالْمُرْجِئَةُ، وَالرَّافِضَةُ، وَالْجَبْرِيَّةُ.** وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَصْلُ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ هَذِهِ الْفِرَقُ السِّتُّ، وَقَدِ انْقَسَمَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهَا اثْنَتَيْ عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين فرقة.

انْقَسَمَتِ الْحَرُورِيَّةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً،

فَأَوَّلُهُمُ الْأَزْرَقِيَّةُ– قَالُوا: لَا نَعْلَمُ أَحَدًا مُؤْمِنًا، وَكَفَّرُوا أَهْلَ الْقِبْلَةِ، إِلَّا مَنْ دَانَ بِقَوْلِهِمْ.

وَالْإِبَاضِيَّةُ، قَالُوا: مَنْ أَخَذَ بِقَوْلِنَا فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَهُوَ مُنَافِقٌ.

وَالثَّعْلَبِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَقْضِ وَلَمْ يُقَدِّرْ.

وَالْخَازِمِيَّةُ، قَالُوا: لَا نَدْرِي مَا الْإِيمَانُ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَعْذُورُونَ.

وَالْخَلَفِيَّةُ، زَعَمُوا أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى كَفَرَ.

وَالْكَوْزِيَّةُ، قَالُوا: لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمَسَّ أَحَدًا، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الطَّاهِرَ مِنَ النَّجِسِ، وَلَا أَنْ يُؤَاكِلَهُ حَتَّى يَتُوبَ وَيَغْتَسِلَ.

وَالْكَنْزِيَّةُ، قَالُوا: لَا يَسَعُ أَحَدًا أَنْ يُعْطِيَ مَالَهُ أَحَدًا، لِأَنَّهُ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِقًّا، بَلْ يَكْنِزُهُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يَظْهَرَ أَهْلُ الْحَقِّ.

وَالشِّمْرَاخِيَّةُ، قَالُوا: لَا بَأْسَ بِمَسِّ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ لِأَنَّهُنَّ رَيَاحِينُ.

وَالْأَخْنَسِيَّةُ، قَالُوا: لَا يَلْحَقُ الْمَيِّتَ بَعْدَ مَوْتِهِ خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ.

وَالْحَكَمِيَّةُ، قَالُوا: مَنْ حَاكَمَ إِلَى مَخْلُوقٍ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَالْمُعْتَزِلَةُ، قَالُوا: اشْتَبَهَ عَلَيْنَا أَمْرُ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ، فَنَحْنُ نَتَبَرَّأُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

وَالْمَيْمُونِيَّةُ، قَالُوا: لَا إِمَامَ إِلَّا بِرِضَا أَهْلِ مَحَبَّتِنَا.

فصل:

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

وَانْقَسَمَتِ الْقَدَرِيَّةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

الْأَحْمَرِيَّةُ، وَهِيَ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ فِي شَرْطِ الْعَدْلِ مِنَ اللهِ: أَنْ يُمَلِّكَ عِبَادَهُ أُمُورَهُمْ، وَيَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِمْ.

وَالثَّنَوِيَّةُ، وَهِيَ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ الْخَيْرَ مِنَ اللهِ، وَالشَّرَّ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَالْمُعْتَزِلَةُ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَجَحَدُوا (صِفَاتِ) الرُّبُوبِيَّةِ.

وَالْكَيْسَانِيَّةُ وَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا: لَا نَدْرِي هَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنَ اللهِ أَوْ مِنَ العباد، ولا نعلم أثياب النَّاسُ بَعْدُ أَوْ يُعَاقَبُونَ. وَالشَّيْطَانِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الشَّيْطَانَ.

وَالشَّرِيكِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ السَّيِّئَاتِ كُلَّهَا مُقَدَّرَةٌ إِلَّا الْكُفْرَ.

وَالْوَهْمِيَّةُ، قَالُوا: لَيْسَ لِأَفْعَالِ الْخَلْقِ وَكَلَامِهِمْ ذَاتٌ، وَلَا لِلْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ذَاتٌ.

وَالزَّبْرِيَّةُ، قَالُوا: كُلُّ كِتَابٍ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَالْعَمَلُ بِهِ حَقٌّ، ناسخًا كان أو منسوخًا.

والمسعدية، زعموا أَنَّ مَنْ عَصَى ثُمَّ تَابَ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ.

وَالنَّاكِثِيَّةُ، زَعَمُوا أَنَّ مَنْ نَكَثَ بَيْعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ.

وَالْقَاسِطِيَّةُ، تَبِعُوا إِبْرَاهِيمَ بْنَ النَّظَّامِ فِي قوله: من زعم أن الله شيء فَهُوَ كَافِرٌ.

وَانْقَسَمَتِ الْجَهْمِيَّةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

الْمُعَطِّلَةُ، زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ وَهْمُ الْإِنْسَانِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ. وَإِنَّ مَنِ ادَّعَى أَنَّ اللهَ يُرَى فَهُوَ كَافِرٌ.

وَالْمَرِيسِيَّةُ، قَالُوا: أَكْثَرُ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى مَخْلُوقَةٌ.

وَالْمُلْتَزِقَةُ، جَعَلُوا الْبَارِيَ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَالْوَارِدِيَّةُ، قَالُوا لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ، وَمَنْ دَخَلَهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا أَبَدًا.

وَالزَّنَادِقَةُ، قَالُوا: لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُثْبِتَ لِنَفْسِهِ رَبًّا، لِأَنَّ الْإِثْبَاتَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ، وَمَا لَا يُدْرَكُ لَا يُثْبَتُ.

وَالْحَرْقِيَّةُ، زَعَمُوا أَنَّ الْكَافِرَ تَحْرِقُهُ النَّارُ مَرَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَبْقَى مُحْتَرِقًا أَبَدًا لَا يَجِدُ حَرَّ النَّارِ.

وَالْمَخْلُوقِيَّةُ، زَعَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

وَالْفَانِيَةُ، زَعَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ يَفْنَيَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ لَمْ يُخْلَقَا.

وَالْعَبْدِيَّةُ، جَحَدُوا الرُّسُلَ وَقَالُوا إِنَّمَا هُمْ حُكَمَاءُ.

وَالْوَاقِفِيَّةُ، قَالُوا: لَا نَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَلَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

وَالْقَبْرِيَّةُ، يُنْكِرُونَ عَذَابَ الْقَبْرِ وَالشَّفَاعَةَ.

وَاللَّفْظِيَّةُ، قَالُوا: لَفْظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ.

وَانْقَسَمَتِ الْمُرْجِئَةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

التَّارِكِيَّةُ، قَالُوا لَيْسَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ فَرِيضَةٌ سِوَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ.

وَالسَّائِبِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ اللهَ تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاءوا.

والراجية، قَالُوا: لَا يُسَمَّى الطَّائِعُ طَائِعًا وَلَا الْعَاصِي عَاصِيًا، لِأَنَّا لَا نَدْرِي مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

فصل:

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

وَالسَّالِبِيَّةُ، قَالُوا: الطَّاعَةُ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَالْبَهْيَشِيَّةُ، قَالُوا: الْإِيمَانُ عِلْمٌ وَمَنْ لَا يَعْلَمِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ فَهُوَ كَافِرٌ. وَالْعَمَلِيَّةُ، قَالُوا: الْإِيمَانُ عَمَلٌ.

وَالْمَنْقُوصِيَّةُ، قَالُوا: الْإِيمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ.

وَالْمُسْتَثْنِيَةُ، قَالُوا: الاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ. وَالْمُشَبِّهَةُ، قَالُوا: بَصَرٌ كبصر ويد كَيَدٍ.

وَالْحَشْوِيَّةُ، قَالُوا: حُكْمُ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا وَاحِدٌ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ تَارِكَ النَّفْلِ كَتَارِكِ الْفَرْضِ.

وَالظَّاهِرِيَّةُ، الَّذِينَ نَفَوُا الْقِيَاسَ.

وَالْبِدْعِيَّةُ، أَوَّلُ مَنِ ابْتَدَعَ هذه الأحداث في هذه الأمة.

وَانْقَسَمَتِ الرَّافِضَةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

الْعَلَوِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ الرِّسَالَةَ كَانَتْ إِلَى عَلِيٍّ وَإِنَّ جِبْرِيلَ أَخْطَأَ.

وَالْأَمْرِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ عَلِيًّا شَرِيكُ مُحَمَّدٍ فِي أَمْرِهِ.

وَالشِّيعَةُ، قَالُوا: إِنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَلِيُّهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّ الْأُمَّةَ كَفَرَتْ بِمُبَايَعَةِ غَيْرِهِ.

وَالْإِسْحَاقِيَّةُ، قَالُوا: إِنَّ النُّبُوَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكُلُّ مَنْ يَعْلَمُ عِلْمَ أَهْلِ الْبَيْتِ فَهُوَ نَبِيٌّ.

وَالنَّاوُوسِيَّةُ، قَالُوا: عَلِيٌّ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ، فَمَنْ فَضَّلَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ كَفَرَ.

وَالْإِمَامِيَّةُ، قَالُوا: لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ إِمَامٍ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ، وَإِنَّ الْإِمَامَ يُعَلِّمُهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا مَاتَ بُدِّلَ غَيْرُهُ مَكَانَهُ.

وَالزَّيْدِيَّةُ، قَالُوا: وَلَدُ الْحُسَيْنِ كُلُّهُمْ أَئِمَّةٌ فِي الصَّلَوَاتِ، فَمَتَى وُجِدَ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَمْ تَجُزِ الصَّلَاةُ خَلْفَ غَيْرِهِمْ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ.

وَالْعَبَّاسِيَّةُ، زَعَمُوا أَنَّ الْعَبَّاسَ كَانَ أَوْلَى بِالْخِلَافَةِ مِنْ غَيْرِهِ.

وَالتَّنَاسُخِيَّةُ، قَالُوا: الْأَرْوَاحُ تَتَنَاسَخُ، فَمَنْ كَانَ مُحْسِنًا خَرَجَتْ رُوحُهُ فَدَخَلَتْ فِي خَلْقٍ يَسْعَدُ بِعَيْشِهِ.

وَالرَّجْعِيَّةُ، زَعَمُوا أَنَّ عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا، وَيَنْتَقِمُونَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ.

وَاللَّاعِنَةُ، يَلْعَنُونَ عُثْمَانَ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَمُعَاوِيَةَ، وَأَبَا مُوسَى، وَعَائِشَةَ، وَغَيْرَهُمْ.

وَالْمُتَرَبِّصَةُ، تَشَبَّهُوا بِزِيِّ النُّسَّاكِ وَنَصَبُوا فِي كُلِّ عَصْرٍ رَجُلًا يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَهْدِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا مَاتَ نَصبُوا آخَرَ.

ثُمَّ انْقَسَمَتِ الْجَبْرِيَّةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً: فَمِنْهُمْ

الْمُضْطَرِّيَّةُ، قَالُوا: لَا فِعْلَ لِلْآدَمِيِّ، بَلِ اللَّهُ يَفْعَلُ الْكُلَّ.

وَالْأَفْعَالِيَّةُ، قَالُوا: لَنَا أَفْعَالٌ وَلَكِنْ لَا اسْتِطَاعَةَ لَنَا فِيهَا، وَإِنَّمَا نَحْنُ كَالْبَهَائِمِ نُقَادُ بِالْحَبْلِ.

وَالْمَفْرُوغِيَّةُ، قَالُوا: كُلُّ الْأَشْيَاءِ قَدْ خُلِقَتْ، وَالْآنَ لَا يخلق شيء.

وَالنَّجَّارِيَّةُ، زَعَمَتْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَذِّبُ النَّاسَ عَلَى فِعْلِهِ لَا عَلَى فِعْلِهِمْ.

وَالْمَنَّانِيَّةُ، قَالُوا: عَلَيْكَ بِمَا يَخْطِرُ بِقَلْبِكَ، فَافْعَلْ مَا تَوَسَّمْتَ مِنْهُ الْخَيْرَ.

وَالْكَسْبِيَّةُ، قَالُوا: لَا يَكْتَسِبُ الْعَبْدُ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا.

وَالسَّابِقِيَّةُ، قَالُوا: مَنْ شَاءَ فليعمل ومن شاء فلا يَعْمَلْ، فَإِنَّ السَّعِيدَ لَا تَضُرُّهُ ذُنُوبُهُ، وَالشَّقِيَّ لَا يَنْفَعُهُ بِرُّهُ.

التفرق من صفات المشركين

وحذَّر تعالى المسلمين وأخبرهم أنَّ التفرق إلى شيعٍ وأحزابٍ، يؤدي بهم إلى الشرك، وذلك لأنَّ التفرُّق من صفات وعمل المشركين، قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿31﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿32﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية المذكورة بقوله: [أَيْ: لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ أَيْ: بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أَيْ: تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وعَبَدة الْأَوْثَانِ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ، مِمَّا عَدَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الْأَنْعَامِ: 159)، فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ وملَل بَاطِلَةٍ، وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهُمْ عَلَى شيء، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَيْضًا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى نِحَلٍ كُلُّهَا ضَلَالَةٌ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، الْمُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَبِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعَيْنِ، وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ أَنَّهُ سُئِلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿مَا أَنَا عليه اليوم وأصحابي﴾.] اهـ[2].

وحذَّر تعالى من اتباع السُّبُل التي تؤدي إلى التفرّق عن صراطه المستقيم، الذي فيه نجاة الأمة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿153﴾﴾[3].

وَالْحِبِّيَّةُ، قَالُوا: مَنْ شَرِبَ كَأْسَ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى سَقَطَتْ عَنْهُ عِبَادَةُ الْأَرْكَانِ.

وَالْخَوْفِيَّةُ، قَالُوا: مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَسَعْهُ أَنْ يَخَافَهُ، لِأَنَّ الْحَبِيبَ لَا يَخَافُ حَبِيبَهُ.

وَالْفِكْرِيَّةُ، قَالُوا: مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا أُسقط عنه بقدر ذلك من العبادة.

وَالْخَشَبِيَّةُ، قَالُوا: الدُّنْيَا بَيْنَ الْعِبَادِ سَوَاءٌ، لَا تَفَاضُلَ بَيْنَهُمْ فِيمَا وَرَّثَهُمْ أَبُوهُمْ آدَمُ.

وَالْمِنِّيَّةُ، قَالُوا: مِنَّا الْفِعْلُ وَلَنَا الاسْتِطَاعَةُ. وَسَيَأْتِي بَيَانُ الْفِرْقَةِ الَّتِي زَادَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.] اهـ. تفسير القرطبي، 159/4.

(1) الروم، الآيتان: ﴿31، 32﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 285/6.

(3) الأنعام، الآية: ﴿153﴾.

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشُّورَى: 13)، وَنَحْوُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَحْوِ هَذَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: حَدَّثَنَا الْأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ: شَاذَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ — هُوَ ابْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ عَاصِمٍ — هُوَ ابْنُ أَبِي النُّجُودِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ — هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيل اللَّهِ مُسْتَقِيمًا»، وَخَطَّ عَلَى يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُل، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ، عَنِ الْأَصَمِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ، بِهِ. وَقَالَ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.] اهـ [1].

وللطبري أيضًا في تفسيره الآية، ذكر فيه: [القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿153﴾﴾، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا الذي وصاكم به ربكم، أيها الناس، في هاتين الآيتين من قوله: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾، وأمركم بالوفاء به، هو (صراطه)، يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده، ﴿مستقيمًا﴾، يعني: قويمًا لا اعوجاج به عن الحق، ﴿فاتبعوه﴾، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه، فاتبعوه، ﴿ولا تتبعوا السبل﴾، يقول: ولا تسلكوا طريقًا سواه، ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه، من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات، ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾، يقول: فيشتّت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعُكم إياها ﴿عن سبيله﴾، يعني: عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصّى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم، ﴿ذلكم وصاكم به﴾، يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصاكم به ربكم من قوله لكم: ﴿إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾، وصاكم به ﴿لعلكم تتقون﴾، يقول: لتتقوا الله في أنفسكم، فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه.] اهـ [2].

(1) تفسير ابن كثير، 328/3.

(2) تفسير الطبري، 699/9.

رسولُ اللهِ بريءٌ مِمن يتفرق

وأخبر سبحانهُ نبيه، عن الذين اختلفوا وتفرقوا في دينهم وفارقوه، أنَّه ﷺ ليس منهم في شيء، أي أنَّه بريء منهم ومن أعمالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿159﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية المذكورة، بعد أن ساق أقوال السلف في المقصود بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، فقال: [وَالظَّاهِرُ أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللَّهِ وَكَانَ مُخَالِفًا لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا افْتِرَاقَ، فَمَنِ اخْتَلَفَ فِيهِ ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أَيْ: فِرَقًا كَأَهْلِ المِلَلِ وَالنِّحَلِ – وَهِيَ الأَهْوَاءُ وَالضَّلَالَاتُ – فَاللَّهُ قَدْ بَرَّأَ رَسُولَهُ مِمَّا هُمْ فِيهِ. وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشُّورَى: 13)، وَفِي الحَدِيثِ: ﴿نَحْنُ مُعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلات، دِينُنَا وَاحِدٌ﴾. فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ، وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّمَسُّكِ بِشَرِيعَةِ الرَّسُولِ المتَأَخِّرِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَضَلَالَاتٌ وَجَهَالَاتٌ وَآرَاءٌ وَأَهْوَاءٌ، الرُّسُلُ بُرَآء مِنْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.] اهـ[2].

الاختلافُ أصلُ التفرُّق

لقد بينا في فقرة سابقة من هذا الفصل، كيف أنَّ القرآن الكريم قد حذر المسلمين من الاختلاف وذلك بتركهم حبلَ الله وسبيله، واتِّباعِهم السُّبل، أي المناهج والأهواء التي تؤدي بالأمة إلى التفرُّق والتمزُّق والانقسام، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿153﴾﴾[3].

---

(1) الأنعام، الآية: ﴿159﴾.

(2)تفسير ابن كثير، 339/3.

(3) الأنعام، الآية: ﴿153﴾.

وفي موضع آخر، فقد سمَّى تعالى سبيله ذلك أيضًا، بسبيل المؤمنين. واعتبر تعالى الإعراضَ عنه بمثابة مُشاقَّة للرسول ﷺ، وتوعَّد فاعله، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴿115﴾﴾[1].

فالآية المذكورة تعتبرُ الاختلافَ في فهم النصوص الشرعية، وأوامرِ الرسول ﷺ مما يؤدي إلى مخالفةِ ومفارقةِ ما أجمعَ عليه المؤمنون، تعتبرُ ذلك اتباعًا لغير سبيل المؤمنين. والسبب في ذلك، لأنَّ المخالفين أصبحوا في شِقٍّ، والمؤمنون وشريعتهم ودينهم في شقٍّ آخر، وبالتالي حدَث التفرُّق.

ولقد فصَّل ابن كثير ذلك في تفسيره الآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ أَيْ: وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ، فَصَارَ فِي شِقٍّ وَالشَّرْعُ فِي شِقٍّ، وَذَلِكَ عَنْ عَمْد مِنْهُ بَعْدَمَا ظَهَرَ لَهُ الحَقُّ وَتَبَيَّنَ لَهُ وَاتَّضَحَ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا مُلَازِمٌ لِلصِّفَةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ المخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ المحَمَّدِيَّةُ، فِيمَا عُلِمَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا، فَإِنَّهُ قَدْ ضُمِنت لَهُمُ العِصْمَةُ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الخَطَأِ، تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيهم ﷺ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ، قَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا طَرَفًا صَالِحًا فِي كِتَابِ (أَحَادِيثِ الْأُصُولِ)، وَمِنَ العُلَمَاءِ مَنِ ادَّعَى تَوَاتُرَ مَعْنَاهَا، وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي الاحْتِجَاجِ عَلَى كَوْنِ الإِجْمَاعِ حُجَّةً تَحْرُم مُخَالَفَتُهُ هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ، بَعْدَ التَّرَوِّي وَالْفِكْرِ الطَّوِيلِ. وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الاسْتِنْبَاطَاتِ وَأَقْوَاهَا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدِ اسْتَشْكَلَ ذَلِكَ وَاسْتَبْعَدَ الدِّلَالَةَ مِنْهَا عَلَى ذَلِكَ.

وَلِهَذَا تَوَعَّدَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أَيْ: إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَازَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزَيِّنَهَا لَهُ -اسْتِدْرَاجًا لَهُ- كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القَلَم: 44). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصَّفّ: 5). وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأَنْعَامِ: 110). وَجَعْلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الآخِرَةِ، لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ

(1) النساء، الآية: ﴿115﴾.

الْجَحِيمِ ﴿23﴾﴾ (الصَّافَّاتِ: 22، 23). وَقَالَ: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (الكَهْفِ: 53).] اهـ[1].

ومن هذا يتبين لنا، أنَّ الاختلاف أصلُ التفرق، ولولا اختلافُهم، ما تفرقوا وانقسموا. ولهذا السبب، فقد قَرَنَ القرآنُ الكريم بين التفرُّق والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿105﴾﴾[2].

وإِنْ كان بدأ بالتفرُّق، ثم عَطفَ عليه بالاختلاف، فكما هو معلومٌ، فإِنَّ العطَفَ لا يقتضي الترتيب.

لا يقوم دينُ الله في أمةٍ متفرقة

إنَّ إقامةَ دينَ الله تعالى – الذي هو من أهم وأعظم واجبات الأمة الإسلامية – لا يمكن أنْ يَتم، إِلّا إِذا كانت الأمة جمعاء، أيّ: كانت أمة واحدة، ومتماسكة، غير متفرقة ومنقسمة. ولهذا السبب، لما أمر تعالى المسلمين بإقامة الدين، عطفَ بالنهي عن الافتِراق، وذكَّرهم بافتراق أهل الكتاب، وحذَّرهم من الانزلاق فيما وقعوا فيه مِن تفرُّق وانقسام، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِن الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿13﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿14﴾﴾[3], فكما هو واضح، فقد ربط تعالى بين (إقامة الدين) و(عدم التفرُّق)، بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا﴾.

ذكر ابن كثير في تفسيره للآيتين المذكورتين آنفًا: [قال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، أي وصَّى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وقوله عز وجل: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي شقَّ عليهم، وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال جلَّ جلالهُ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي هو

(1) تفسير ابن كثير، 365/3.

(2) آل عمران، الآية: ﴿105﴾.

(3) الشورى، الآيتان ﴿13، 14﴾.

الذي يقدر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي إنَّما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشقة. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجَّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعًا. وقوله جلَّت عظمته: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشكٍّ مريب، وشِقاق بعيد.] اهـ[1].

وذكر الطبري أيضًا في تفسيره للآيتين السابقتين بقوله: [وعنى بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، أن اعملوا به على ما شرع لكم وفرض، كما قد بينا فيما مضى قبل، في قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ قال: اعملوا به. وقوله: ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يقول: ولا تختلفوا في الدين الذي أُمِرتُم بالقيام به، كما اختلف الأحزاب من قبلكم.] اهـ[2].

السُّنة النبوية

لقد حذَّر رسول الله ﷺ أمَّته من التفرُّقِ والانقسام، وأمَرَهم بلزوم الجماعة، فقد ورد في هذا الباب، أعني: (النهي عن التفرق ولزوم الجماعة)، أحاديث كثيرة جدًّا، تزيد على أربعة وثمانين حديثًا، سنذكر هنا بعضًا منها للإيجاز وعدم التطويل.

---

(1) تفسير ابن كثير، 178/2.

(2) تفسير الطبري، 513/21.

وجوبُ لزومِ جماعةِ المسلمين وإمامهم عند ظهور الفِرق

فمن هذه الأخبار، حديث حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – في ظهور التفرّق، وأمر النبي ﷺ له بعدم اتّباع أي فِرقةٍ، ولزومِ جماعةِ المسلمين. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال:
﴿كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّا كُنَّا في جَاهِلِيَّةٍ وشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بهذا الخَيْرِ، فَهلْ بَعْدَ هذا الخَيْرِ مِن شَرٍّ؟ قالَ: نَعَمْ قُلتُ: وهلْ بَعْدَ ذلكَ الشَّرِّ مِن خَيْرٍ؟ قالَ: نَعَمْ، وفيهِ دَخَنٌ قُلتُ: وما دَخَنُهُ؟ قالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ منهمْ وتُنْكِرُ قُلتُ: فَهلْ بَعْدَ ذلكَ الخَيْرِ مِن شَرٍّ؟ قالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ علَى أبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَن أجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قالَ: هُمْ مِن جِلْدَتِنَا، ويَتَكَلَّمُونَ بأَلْسِنَتِنَا قُلتُ: فَما تَأْمُرُنِي إنْ أدْرَكَنِي ذلكَ؟ قالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وإمَامَهُمْ قُلتُ: فإنْ لَمْ يَكُنْ لهمْ جَمَاعَةٌ ولَا إمَامٌ؟ قالَ: فَاعْتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، ولو أنْ تَعَضَّ بأَصْلِ شَجَرَةٍ، حتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وأَنْتَ علَى ذلكَ.﴾[1].

وأخبر ﷺ المسلمين أنَّ الله يكرهَ لهم أنْ يفعلوا ثلاثًا، ومنها: التفرُّق، وقَرَنهُ بالشرك به تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ﴿إنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أنْ تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا به شيئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا.﴾[2].

مفارقة الدين بمفارقة الجماعة

وحذَّر ﷺ المسلمين من مفارقة الجماعة، وعدَّها بمثابة مفارقةٍ للدين، فعن عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ.﴾[3].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، باب في قتل الخوارج، برقم 4758. وأخرجه الحاكم في المستدرك، برقم (401)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ.﴾، برقم (402)، وقال: تَابَعَهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الحَمِيدِ الضَّبِّيُّ، عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ وُهْبَانَ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ خَالَفَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ شِبْرًا، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ.﴾، خَالِدُ بْنُ وُهْبَانَ لَمْ يُجْرَحْ فِي رِوَايَاتِهِ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ مَعْرُوفٌ، إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَيْنِ لَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا المَتْنُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِهِمَا.

الصبر على الحاكم الظالم حرصًا على الجماعة

وأمرَ ﷺ بالصبرِ على الحاكمِ الظالمِ، وإنْ رأى منه شيئًا يكرههُ، وحذَّر من الخروجِ عليه، وذلك حفاظًا على الجماعة، وعدم مفارقتها. وبالتالي، حفاظًا على الأمة من التمزق، والفوضى، وانفلات الأمور.

ولقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة، منها: ما رواه البخاري في صحيحه، عَنِ الجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ، حَدَّثَنِي أَبُو رَجَاءٍ العُطَارِدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.﴾[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [وَلِهَذَا كَانَ المشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ الخُرُوجَ عَلَى الأَئِمَّةِ وَقِتَالَهُمْ بِالسَّيْفِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ ظُلْمٌ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ المسْتَفِيضَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّ الفَسَادَ فِي القِتَالِ وَالْفِتْنَةِ أَعْظَمُ مِنَ الفَسَادِ الحَاصِلِ بِظُلْمِهِمْ بِدُونِ قِتَالٍ وَلَا فِتْنَةٍ، فَلَا يُدْفَعُ أَعْظَمُ الفَسَادَيْنِ بِالْتِزَامِ أَدْنَاهُمَا، وَلَعَلَّهُ لَا يَكَادُ يَعْرِفُ طَائِفَةً خَرَجَتْ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ، إِلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ.] اهـ[2].

أقوال أهل العلم في مسألة (الخروج على الحاكم)

ننقل هنا —بإيجاز— كلامًا مهمًّا عن مسألة (الخروج على الحاكم)، أورده موقع (الدُّرَرَ السَّنيَّة): [الأئمة أحوالهم متباينة من شخص لآخر، وواحدهم لا يخرج عن أحد ثلاثة: إما أن يكون عادلًا مقسطًا، وإما أن يكون كافرًا مجرمًا، وإما أن يكون حاله مترددًا بين هذين، وهو الفاسق أو الظالم، وهذا قد يكون فِسقه وظلمه على نفسه وفي أعماله الخاصة، وقد يتعدى ذلك إلى الرعية، إما في أموالهم وأنفسهم، أو في دينهم وأعراضهم. ولكل واحد من هؤلاء حكم خاص.

الخروج على الأئمة الظلمة

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: ﴿سترون بعدي أمورًا تنكرونها﴾، برقم 6646، وكتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، برقم 6724). ومسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، برقم 1849. وفي رواية لمسلم في صحيحه أيضًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: ﴿مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، فَمَاتَ عَلَيْهِ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.﴾.

(2) منهاج السنة النبوية: (391/3)، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م، عدد المجلدات: 9.

ذهبِ غالبُ أهل السُّنة والجماعة إلى أنه لا يجوز الخروج على أئمة الظلم والجور بالسيف، ما لم يصل بهم ظلمُهم وجوْرُهم إلى الكُفر البواح، أو ترك الصلاة والدعوة إليها، أو قيادة الأمة بغير كتاب الله تعالى، كما نصَّت عليها الأحاديث السابقة في أسباب العزل.

وهذا المذهبُ منسوبُ إلى الصحابةِ الذين اعتزلوا الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وهم: سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة[1]، وأبو بَكْرَة رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وهو: مذهب الحسن البصري[2]، والمشهور عن الإمام أحمد بن حنبل وعامةِ أهل الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ أَهْلِ الحَدِيثِ تَرْكَ الخُرُوجِ بِالقِتَالِ عَلَى المُلُوكِ البُغَاةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى ظُلْمِهِمْ، إلَى أَنْ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاحُ مِنْ فَاجِرٍ.)[3].

هذا، وقد ادَّعى الإجماع على ذلك بعض العلماء: كالنووي في شرحه لصحيح مسلم[4]، وكابن مجاهد البصري الطائي فيما حكاه عنه ابن حزم[5]، ولكن دعوى الإجماع فيها نظر، لأن هناك من أهلِ السُّنة من خالف في ذلك[6].

الأدلة:

استدلوا على مذهبهم وهو ترك الخروج على أئمة الظلم بالسيف بالأدلة التالية:

أولًا: الأحاديث الواردة في الأمر بالطاعة، وعدم نَكْث البيعة، والأمر بالصبر على جوْرهم وإن رأى الإنسان ما يكره. وهي أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر المعنوي، كما ذكر ذلك الشوكاني[7] رحمه الله، أهمها:

---

(1) (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم (171/4).

(2) (البداية والنهاية) لابن كثير (135/9).

(3) (مجموع الفتاوى) (444/4) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(4) (شرح صحيح مسلم) (229/12).

(5) (مراتب الإجماع) لابن حزم (ص: 199).

(6) (إكمال المعلم) للقاضي عياض (6/128)، شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِي عِيَاض المسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (ت 544هـ)، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1998م، عدد الأجزاء: 8.

(7) (نيل الأوطار) (199/7)، نيل الأوطار، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت 1250هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م، عدد الأجزاء: 8، منتقى الأخبار بأعلى الصفحة، يليه - مفصولًا بفاصل - شرح الشوكاني.

1. حديث عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، قال: ﴿بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العُسر واليُسر، والمَنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أنْ لا نُنازع الأمر أهله، إلَّا أنْ تروا كفرًا بواحًا، عندكم من الله فيه برهان.﴾[1]، وفي رواية: ﴿وعلى أنْ لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.﴾[2].

قال ابن تيمية بعد ذكره لهذا الحديث: (فهذا أمرُ الطاعة مع استئثارُ ولي الأمر، وذلك ظُلم منه، ونَهي عن منازعة الأمرِ أهلهُ، وذلك نَهيٌ عن الخروج عليه[3].

2. حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها، قالت: ﴿إنَّ رسول الله ﷺ قال: إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتُنكرون، فمن كرِه فقد برَئ، ومن أنكرَ فَقد سَلِم، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ، قالوا: أفَلا نُقاتِلُهُمْ قَالَ: لا مَا صَلّوا.﴾[4].

3. حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: ﴿مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.﴾[5].

4. عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الأَشْجَعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ﴿خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ. وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ. وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ. وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ﴾، قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: ﴿لَا. مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ. لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ. أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ.﴾[6].

5. حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من خلع يدًا من طاعةٍ، لقيَ اللهَ يوم القيامة ولا حُجَّة له، ومن ماتَ وليس في عُنُقه بيْعة مات مِيتة جاهلية.﴾[7].

---

(1) رواه البخاري (6774)، (6647). ومسلم (6774).

(2) مسلم (1709).

(3) (منهاج السنة) (88/2).

(4) رواه مسلم (1854).

(5) رواه البخاري (6646)، ومسلم (1849).

(6) رواه مسلم (1855).

(7) رواه مسلم (1851).

6. حديث حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي. وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إنْ أدركتُ ذلك؟ قال: «تَسمع وتُطيع، وإنْ ضَربَ ظهرك، وأَخذَ مالك، فاسمعْ وأطعْ». وفي رواية: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قال: فإنْ لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفِرَقَ كُلَّها، ولو أن تعضَّ على أصلِ شجرة، حتى يُدركك الموتُ وأنت على ذلك.»[1].
إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا المعنى، وهي جميعها صريحة في النهي عن الخروج على الأئمة، وإن رأى الإنسان ما يكره، وصريحة كذلك في الأمر بالصبر على جورهم، وعدم نزع اليد من الطاعة.

فهذه الأحاديث وما في معناها، تدل على تحريم اقتتال المسلمين فيما بينهم، وهذا لا شك يكون عند الخروج على الأئمة بالسيف، فدلَّ على تحريم ذلك الخروج.

كما أنَّ مما يَدُل على ذلك: الأحاديث الواردة في النهي عن القتال في الفتنة، وهي أحاديث كثيرة منها:

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ستكون فتنٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائمِ، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرَّفَ لها تستشرِفْه، ومن وجد فيها ملجأً فليعذْ به.»[2]، أي: من وجد عاصمًا وموضعًا يلتجئ إليه ويعتزل فيه فليعتزل[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولهذا استقرَّ رأيُ أهل السُّنة على تركِ القتالِ في الفتنة، للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جوْر الأئمة وترك قتالهم.)[4].

قلت: ولا يَكاد أحد من علماء السلف يذكر عقيدته، إلَّا وينُصُّ على هذه المسألة ذاتها، ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره الإمام أحمد في عقيدته في أكثر من رواية، حيث قال: (ولا يحِلُّ قِتالُ السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مُبتدعٌ على غير السُّنة والطريق[5]، وبنحو كلام الإمام

(1) رواه البخاري (3411)، ومسلم (1847).

(2) رواه البخاري (6671).

(3) انظر: (فتح الباري) (30/13) بتصرف يسير.

(4) (منهاج السنة) (241/2).

(5) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي) (161/1).

أحمد هذا. نص على ذلك أبو زُرعة، وابن أبي حاتم الرازيان[1]، وعلي بن المديني[2]، وغيرهم كثير: كالطحاوي[3]، وأبي عثمان الصابوني[4]، وغيرهم.

ومن الأدلة على النهي عن الخروجِ على الأئمة: صلاةُ الصحابة رضوان الله عليهم خلفَ أئمة الجوْر والمبتدعة، وهذا يقتضي الإقرار بإمامتهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(إذا ظهرَ من المصلي بِدعةٌ أو فُجور وأمكن الصلاة خلفَ من يعلم أنَّه مُبتدعٌ أو فاسقٌ مع إمكان الصلاة خلف غيره، فأكثر أهل العلم يُصححِون صلاة المأمومِ، وهذا مذهبُ الشافعي وأبي حنيفة وهو: أحد القولين في مذهب مالك وأحمد، وأما إذا لم يمكن الصلاة إلَّا خلف المبتدعِ أو الفاجرِ كالجمعة التي إمامها مبتدعٌ أو فاجرٌ وليس هناك جمعة أخرى، فهذه تُصلّى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السُّنة والجماعة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة السُّنة بلا خلاف عندهم.)[5].

والذي يدل على ذلك الجواز: فعل الصحابة رضوان الله عليهم، حيث كانوا يصلون خلف من يعرفون فجوره، كما صلّى عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط، وقد كان يشرب الخمرَ، وصلّى مرةً الصُّبح أربعًا، وجَلَده عثمانُ رضي الله عنه على ذلك، وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف[6]، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد،

---

(1) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) (ص: 167) و(ص: 179).

(2) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) (ص: 164).

(3) (شرح العقيدة الطحاوية) (ص: 366).

(4) (رسالة عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان، إسماعيل الصابوني (ت 449هـ)، ضمن مجموعة (الرسائل المنيرية)، (129/1). مجموعة الرسائل المنيرية، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، أبو العباس تقي الدين – ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر – الشوكاني، الصنعاني وغيرهم، المحقق: محمد منير الدمشقي، الناشر: المطبعة المنيرية، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1343هـ- 1924م، عدد المجلدات: 4.

(5) (مجموعة الرسائل والمسائل الرسالة الأخيرة) (198/5)، مجموعة الرسائل والمسائل، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت 728هـ)، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي، عدد الأجزاء: 5 أجزاء في مجلدين.

(6) حديث كان ابن عمر يصلي خلف الحجاج ذكره ابن أبي شيبة في المصنف. وقال عنه الألباني: سنده صحيح على شرط الستة. انظر: (إرواء الغليل) (204/2).

وكان متهمًا بالإلحاد[1]، وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم: (أنَّ ابن عُمر كان في زمان الفتنة لا يأتي أميرًا إلا صلَّى خَلفَهُ، وأدَّى إليهِ زَكاةَ مَالهِ.)[2].

ومن الأدلة على عدم جواز الخروج على الأئمة الفَسَقَة: مُراعاة مقاصد الشريعة، إذ أنَّ من أهداف الشريعة الإسلامية: تحقيق أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم الضررين باحتمال أخفهما. ولا شك أنَّ الضرر في الصبر على جور الحكام أقل منه في الخروج عليهم، لما يؤدي إليه من الهَرَج والمرَج، فقد يُرتكب في فوضى ساعةٍ من المظالم ما لا يُرتكب في جوْر سنين.

قال ابن تيمية: (وقلَّ من خرج على إمام ذي سلطان، إلا كان ما تولَّد على فِعله من الشرِ، أعظم مما تولَّد من الخير.)[3].

ولذلك: (فلا يهدم أصل المصلحة شغفًا بمزاياها، كالذي يبني قصرًا ويهدم مصرًا)[4].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ الحكمة التي راعاها الشارع في النهي عن الخروج على الأمراء، وندب إلى ترك القتال في الفتنة، لما في المقَاتَلة من قتل للنفوس بلا حصول للمصلحة المطلوبة. قال: (وإن كان الفاعلون لذلك يرون أنَّ مقصودهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالذين خرجوا بالحرَّة وبدير الجماجم على يزيد والحجاج وغيرهما،)[5]، قال: (لكن إذا لم يُزَل المنكر إلا بما هو أنكر منه، صارت إزالته على هذا الوجه منكرًا، وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر، مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف، كان تحصيلَ ذلك المعروف على هذا الوجه منكرًا، وبهذا الوجه صارت الخوارج يستحِلّون السيفَ على أهل القِبلة، حتى قاتلت عليًا –رضي الله تعالى عنه– وغيره من المسلمين، وكذلك من وافقهم في الخروج على الأئمة بالسيف في الجملة من المعتزلة والزيدية والفقهاء وغيرهم.)[6].

(1) انظر: (مجموعة الرسائل والمسائل) (199/5).

(2) قال الألباني: سنده صحيح. انظر: (إرواء الغليل) (204/2).

(3) (منهاج السنة) (241/2).

(4) (إحياء علوم الدين) على هامشه ﴿إتحاف السادة المتقين﴾ للزبيدي (233/2). إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) أبو حامد الغزالي)، المؤلف: محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، سنة النشر: 1414هـ- 1994م، عدد المجلدات: 10.

(5) (منهاج السنة) (243/2).

(6) (منهاج السنة) (243/2).

فإذا كان هذا مآل الخارج، وإن كان قصده حسنًا، ولا يريد إلا الخير وإصلاح الأوضاع، فكيف يجوز الخروج؟[1].

والذي يترجح: ما ذهب إليه المحدثون وجمهور الفقهاء من أنَّ الفِسْقَ أو الظُّلم ليس من مُسُوِّغات الخروج على الحاكم، وأنَّ مجمل الموقف منه يتلخص في:

- وجوب طاعته في غير معصية الله
- مشروعية الصبر على أذاه
- وجوب نصحه والإنكار عليه
- عدم الخروج عليه بالسيف
- وأما عزله من غير فتنة فمحل نظر

وأما عَدَمِ الخروج عليه بالسيف: فللأحاديث المتقدمة وغيرها، وهي كثيرة جدًّا، قال عنها الشوكاني: إنها متواترة، ولقوله ﷺ: ﴿من حمل علينا السِّلاحَ فليس مِنَّا.﴾[2]. قال النووي: (وأما الخروج عليهم – يعني الأئمة – وقتالهم، فحرامُ بإجماعِ المسلمين، وإنْ كانوا فَسَقَة ظالمين.)[3].

وأما عزلهُ من غيرِ فتنة فلهُ أدلَّةٌ شرعيةٌ كثيرةُ:

أنَّ ذلك من باب تغيير المنكر الذي هو فرضٌ بلا خلاف.

ولأن هذا التغيير ينسجم مع قواعد الشريعة العامة مِثلُ: الضرر يُزال، والضرر الأشدُّ يُزالُ بالضرر الأخَف.

ولأنَّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحٌ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألةٍ خرجت من العدل إلى الجوْر وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العَبَث، فليست من الشريعة، وإنْ أُدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة

---

(1) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عمر الدميجي، ص (499﴾.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: ﴿من حمل علينا السلاح فليس منا﴾، برقم 6659.). ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمَانِ، بَاب: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿من حمل علينا السلاح فليس منا﴾، عن ابن عمر؛ أن النبي ﷺ قال: ﴿من حمل علينا السلاح فليس منا.﴾ برقم 98. وعَنْ إِيَاسِ ابن سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ سَلَّ عَلَيْنَا السَّيْفَ فَلَيْسَ مِنَّا.﴾ برقم 99. وفي باب قول النبي ﷺ: ﴿من غشنا فليس منا﴾، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا. وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا.﴾ برقم 101.).

(3) (شرح صحيح مسلم) للنووي (229/12).

عدلُ الله بين عباده، ورحمتهُ بين خلقه، وظِلُّهُ في أرضه، وحكمته الدالةُ عليه وعلى صِدْقِ رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها[1].

ولا شك أن إزالة المفسدة بمصلحة أكبر منها لا غبار عليه، فتجلب المصلحة الكبرى، وتدرأ المفسدة الصغرى بقدر الإمكان.

ثم إن النصوص الشرعية الواردة في المنع من الخروج على الفسقة جاءت في سياقين.

- السؤال عن المنازعة، والمنابذة، والمقاتلة.
- النهي عن مفارقة الجماعة، أو شق عصاها.

أما ما نحن بصدده: فلا أظن في النصوص ما يمنعه.

وهذا هو الذي قرره كثيرٌ من أهلِ العِلم، يقول الداودي: (الذي عليه العلماء في أمراء الجوْر: أنه إنْ قُدر على خلعه، بغير فتنة ولا ظلم، وجب، وإلَّا فالواجبُ الصبر.)[2].

على أنه ينبغي أن يَعلمَ أنَّ العَزلَ هنا ينبغي تقييده بأمرين:

- أنْ يَفحش فِسْق الحاكم وظلمه، بحيث لا يمكن إصلاحه وتقويمه.
- أنْ يتولى أمر العزل أهلُ الحلِّ والعَقْدِ، فكما أنهم تولّوا العَقْدَ، فكذلك الحلَّ والعَزْلُ، ولا يُترك الأمر للدهماء من العامة، فيكثر الهَرَج وتنتشرُ الفِتنة[3].] اهـ[4].

رد الإمام أحمد على فقهاء بغداد عندما استشاروه في الخروج على خلافة الواثق

وختامًا، ننقل ما ذكره ابن مفلح في (الآداب) عن رد الإمام أحمد على فقهاء بغداد عندما استشاروه في الخروج على خلافة الواثق، فقال:

---

(1) انظر: (إعلام الموقعين) لابن القيم (3/3)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ- 1991م، عدد الأجزاء:4.

(2) انظر: (فتح الباري) لابن حجر (8/13).

(3) مفهوم الطاعة والعصيان لعبد الله الطريقي، ص 76. مفهوم الطاعة والعصيان، المؤلف: عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1416هـ- 1995م.

(4) المبحث الثاني: حكم الخروج على الأئمة، بتصرف، موقع (الدُّرَرَ السَّنِيَّة) على شبكة الانترنت.

[قال حنبل: اجتمع فقهاءُ بغدادَ في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله – يعني الإمام أحمد بن حنبل– رحمه الله تعالى وقالوا له: إنَّ الأمرَ قد تفاقمَ وفشا – يعنون إظهار القولِ بخلقِ القرآن وغير ذلك – ولا نرضى بإمارتِهِ ولا سُلطانِهِ، فناظرهم في ذلك، وقال:

(عليكم بالإنكارِ في قلوبكم، ولا تَخلعوا يدًا من طاعة، لا تشُقُّوا عصا المسلمينَ، ولا تَسْفِكوا دِماءَكم ودِماءَ المسلمين معكم، وانظروا في عاقبةِ أمرِكم، واصبِروا حتى يَستريحَ برٌّ، ويُستراحَ مِنْ فاجرٍ). وقال: (ليس هذا - يعني نزعَ أيديهم مِنْ طاعتِهِ - صوابًا، هذا خِلافُ الآثار)] اهـ[1].

وجوب قتل من يفرق الجماعة

وحفاظًا على الجماعةِ، ولأنَّ أمرها عظيمٌ، ففي اجتماعها صلاحُ الأمة، وفي تفرُّقها ضياعُ الأمة، فقد أمر ﷺ بقتل من يريد أَنْ يُفَرِّقَ أمرَ الأمة كائنًا مَنْ كان. فعن عرفجة بن شريح أو ضريح أو شريك: ﴿إِنَّهُ سَتَكُونُ هَناتٌ وهَناتٌ، فمَن أرادَ أنْ يُفَرِّقَ أمْرَ هذِه الأُمَّةِ وهي جَمِيعٌ، فاضْرِبُوهُ بالسَّيْفِ كائِنًا مَن كانَ.﴾، وفي رواية: بمِثْلِهِ، غيرَ أنَّ في حَديثِهِمْ: ﴿جَمِيعًا فاقْتُلُوهُ﴾[2].

افتراق الأمة

على الرغمِ مِن كلِّ ذلك التحذير من اللهِ تعالى، ومن رسولهِ ﷺ للمسلمين بعدم الافتِراق، ووجوب لُزومِ الجماعة، والاعتصامِ بحبل الله، وعدم الاختلاف، فإِنَّ الأمة الإسلامية قد افترقت! كما افترقت الأمم السابقة، وكما أخبر ﷺ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[3].

---

(1) ابن مفلح، الآداب الشرعية، (1/ 175). الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (ت 763هـ)، الناشر: عالم الكتب، عدد الأجزاء: 3.

(2) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، برقم (1852). وفي رواية أخرى لمسلم في صحيحه: عَنْ عَرْفَجَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَن أتاكُمْ وأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ علَى رَجُلٍ واحِدٍ، يُرِيدُ أنْ يَشُقَّ عَصاكُمْ، أوْ يُفَرِّقَ جَماعَتَكُمْ، فاقْتُلُوهُ.﴾.

وفي رواية لأبي داود في سننه: ﴿ستكون في أمتي هنات وهنات وهنات، فمن أراد أنْ يُفرِّق أمر المسلمين وهم جميع، فاضربوه بالسيف، كائنًا من كان.﴾. صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم 4762.

(3) الأحزاب، الآية: ﴿38﴾.

لمْ يفترِقِ الصحابة

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يَختلِفون، ولكنَّهم لم يتَفرّقوا، وكانوا أمَّةً واحِدةً، وإخوة متحابين، [وكان اختلافهم ينتهي بالإجماع، أو العمل على ما يترجح، أو يفصِل في الأمور الخليفة، أو أهلُ الحلِّ والعَقْدِ، أو يبقى الخلافُ سائغًا.](1).

وذلك لأنَّ الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – كانوا بحبل الله معتصمين، وبسُنَّة نبيّه ﷺ متمسكين، وشهِد لهم بذلك الحق سبحانه ورسوله ﷺ، وكما بيَّنا سابقًا.

وقد بدأت بوادر هذا الافتراق تحدث وتلوحُ في الأفق في أواخر عصر الخلفاء الراشدين، وبالتحديد في عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — وبعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان — رضي الله عنه، حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

[وَالصَّحَابَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – كَانُوا أَقَلَّ فِتَنًا مِنْ سَائِرِ مَنْ بَعْدِهِمْ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا تَأَخَّرَ العَصْرُ عَنِ النُّبُوَّةِ كَثُرَ التَّفَرُّقُ وَالْخِلَافُ. وَلِهَذَا لَمْ تَحْدُثْ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بِدْعَةٌ ظَاهِرَةٌ، فَلَمَّا قُتِلَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ حَدَثَتْ بِدْعَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ: بِدْعَةُ الخَوَارِجِ المكَفِّرِينَ لِعَلِيٍّ، وَبِدْعَةُ الرَّافِضَةِ الْمُدَّعِينَ لِإِمَامَتِهِ وَعِصْمَتِهِ، أَوْ نُبُوَّتِهِ أَوْ إِلَاهِيَّتِهِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، فِي إِمَارَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَثَتْ بِدْعَةُ الْمُرْجِئَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي أَوَّلِ عَصْرِ التَّابِعِينَ فِي أَوَاخِرِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ حَدَثَتْ بِدَعَةُ الْجَهْمِيَّةِ الْمُعَطِّلَةِ وَالْمُشَبِّهَةِ الْمُمَثِّلَةِ. وَلَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ الصَّحَابَةِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ فِتَنُ السَّيْفِ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي وِلَايَةِ مُعَاوِيَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مُتَّفِقِينَ يَغْزُونَ الْعَدُوَّ، فَلَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ قُتِلَ الْحُسَيْنُ، وَحُوصِرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، ثُمَّ جَرَتْ فِتْنَةُ الْحَرَّةِ بِالْمَدِينَةِ.] اهـ(2).

ومنذ ذلك الحين، بدأ الاختلاف يدبُّ في جسد الأمة، وأخذ التفرُّق يشتتها ويمزقها إلى فرق وطوائف متناحرة ومتصارعة.

وقد جاء ذكر ذلك التفرُّق في جملة من الأحاديث، أطلق عليها أهل العلم اسم: (أحاديث الافتراق).

فقد وردت أحاديث الافتراق في السُّنَن والمسانيد، وبرواياتٍ متعددةٍ ومتقاربةٍ، وبأسانيد صحيحة، وحسنة، وذلك في سُنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، ومُسند الإمام أحمد. فعن أبي هريرة رضي

(1) أصول وتاريخ الفرق الإسلامية، 1/9. أصول وتاريخ الفرق الإسلامية، المؤلف: مصطفى بن محمد بن مصطفى، الطبعة: الأولى، سنة النشر: 1424هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 7.

(2) منهاج السنة، 231/6، السبب السابع: المصائب الدنيوية التي يكفر الله بها الخطايا.

اللهُ عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿افترقتِ اليهودُ على إحدى أو ثِنتينِ وسبعينَ فِرقةً، وتفرَّقَتِ النَّصارَى علَى إحدى أو ثِنتينِ وسبعين فرقةً، وتفترقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعين فِرقةً.﴾[1].

الفرقة الناجية: (الجماعة) أو (جماعة المسلمين)

وأخبر ﷺ أَنَّ جميعَ تلك الفِرَقِ في النّار، إلّا فِرقةً واحدةً في الجنة، سمَّاها ﷺ: (الجماعة)[2].
فعن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿افترقتِ اليَهودُ علَى إحدَى وسبعينَ فرقةً، فواحدةٌ في الجنَّةِ، وسبعونَ في النَّارِ، وافترقتِ النَّصارى علَى ثِنتينِ وسبعينَ فرقةً، فإحدَى وسبعونَ في النَّارِ، وواحدةٌ في الجنَّةِ، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لتفترِقَنَّ أمَّتي علَى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، واحدةٌ في الجنَّةِ، وثِنتانِ وسبعونَ في النَّار، قيلَ يا رسولَ اللَّهِ مَن هم؟ قالَ: الجماعَة.﴾[3].

---

(1) أخرجه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم (4596)، وقال: حسن صحيح.

وفي صحيح سنن أبي داود وفي نفس الباب المذكور أيضًا، حديث برقم (4597)، عنْ مُعاويةَ بن أبي سُفيان أنَّهُ قامَ فينا، فَقَال: ألَا إنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ فينا فقال: ﴿ألا إنَّ مَنْ كانَ قَبلَكُم مِنْ أهلِ الكِتابِ اِفترقوا عِلى ثِنْتَيْنِ وَسَبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذهِ الملَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلى ثَلاثٍ وَسَبْعينَ، ثِنْتَانِ وَسبَعونَ في النَّارِ، وَواحدةٌ في الجنَّةِ، وَهي الجَماعةُ.﴾. قال الألباني: حسن: (الصحيحة) (204)، (التعليق الترغيب) (44/1).

وفي رواية: عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿تفرَّقَتِ اليهود على إحدى وسَبعينَ – أو اثنتين وسبعين فِرقةً –، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً.﴾. أخرجه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ما جاء في افتراق هذه الأمة) برقم 2640، وقال: حسن صحيح: (ابن ماجه) (3991).

وفي رواية: عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ليأتينَّ على أمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتَّى إن كانَ مِنهم من أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي من يصنعُ ذلِكَ، وإنَّ بَني إسرائيل تفرَّقت على ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً، وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي.﴾. تقدم تخريجه.

(2) وسماها ﷺ أيضًا: (جماعة المسلمين)، كما في حديث العِرْباض بن سارية، وقد تقدم ذكره. و(السَّوادُ الأعظمُ)، و(ما أنا عليه وأصْحابي)، و(من كانَ على مثلِ ما أنا عليهِ اليومُ وأصحابي)، كما سنبين في الأحاديث.

(3)صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم:(3241)، وفي السلسلة الصحيحة برقم 1492، وقال: إسناده جيد رجاله ثقات.

وفي رواية: عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: ﴿افترقَتِ اليهودُ على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقةً، وتفرَّقت النَّصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقةً، وتَفترِقُ أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقةً.﴾. قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمَّد بن عمرو – وهو ابن علقمة الليثي– خالد: هو ابن عبد الله الواسطي.

وقال أيضًا: وفي الباب، عن أنس بن مالك عند أحمد (12208) وابن ماجه (3993). وهو حديث صحيح. وزاد في روايته: ﴿كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ﴾.

وعن معاوية بن أبي سفيان سيأتي بعده، وإسناده حسن. وزاد فيه: ﴿ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.﴾.

فصل:

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

وكذلك حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: ﴿أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أقوام، تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ، وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ.﴾[1].

وعن أبي أمامة، وإسناده حسن في الشواهد. وزاد: ﴿كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ.﴾. اهـ. سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430هـ- 2009م.

وفي رواية: قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن الفرقةُ الناجيةُ؟ قال: من كانَ على مثلِ ما أنا عليه اليومُ وأصحابي، وفي روايةٍ قال: هي الجماعةُ يدُ اللهِ على الجماعةِ.﴾. ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، في مجموع الفتاوى، في سؤاله عَنْ قَوْلِهِ ﷺ: ﴿تَفْتَرِقُ أُمَّتِي ثَلَاثَةً وَسَبْعِينَ فِرْقَةً﴾. مَا الْفِرَقُ؟ وَمَا مُعْتَقَدُ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْ هَذِهِ الصُّنُوفِ؟ فقال رحِمَهُ اللهُ فِي جَوابِهِ: الْحَدِيثُ صَحِيحٌ مَشْهُورٌ فِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِدِ؛ كَسُنَنِ أَبِي دَاوُد وَالتِّرْمِذِي وَالنِّسَائِيِّ وَغَيْرِهِمْ. مجموع الفتاوى، 345/3 لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي رواية: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً﴾، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ﴿مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي﴾. أخرجه الترمذي في سننه برقم 2641، وقال: هَذَا حَدِيثٌ مُفَسَّرٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُ مِثْلَ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. قال المحققون: حسنه الألباني. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395هـ- 1975م.

(1) رواه أبو داود برقم: (4597)، وقال شعيب الأرناؤوط في تخريجه سنن أبي داود: إسناده حسن كما قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف، اهـ. وأخرجه الحاكم برقم: (443) وصححه، وحسنه ابن حجر في (تخريج الكشاف)، (ص: 63)، وصححه ابن تيمية في (مجموع الفتاوى)، (345/3) لشيخ الإسلام ابن تيمية، والشاطبي في (الاعتصام)، (699/2)، والعراقي في (تخريج الإحياء)، (ص 133)، وقد ورد عن جماعة من الصحابة بطرق كثيرة.

ما مدى صحة الزيادة في الحديث: ﴿كلُّها في النار إلّا واحدة﴾؟

في إجابة على سؤال: ما مدى صحة الزيادة في الحديث: ﴿كلها في النار إلا واحدة﴾، أو نحوها؟ فأُجيبَ في موقع (الإسلام سؤال وجواب)، بعد أنْ أورَدَ الحديث المذكور آنفًا بما يلي:

[أولًا: وورد بلفظ: ﴿... وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي.﴾، رواه الترمذي برقم: (2641) وحسّنه ابن العربي في (أحكام القرآن)، (432/3)، والعراقي في (تخريج الإحياء)، (284/3)، والألباني في (صحيح الترمذي)

ثانيًا: ذكر الشوكاني هذا الحديث في (تفسيره)، (68/2): ثم قال:

(أَمَّا زِيَادَةُ كَوْنِهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، فَقَدْ ضَعَّفَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ، بَلْ قال ابن حزم: إنها موضوعة) انتهى.

وقد تعقبه الألباني رحمه الله فيما ذكره فقال:

(ولا أدري من الذين أشار إليهم بقوله: (جماعة ...)، فإني لا أعلم أحدًا من المحدثين المتقدمين ضعَّف هذه الزيادة، بل إنَّ الجماعة قد صححوها، وقد سبق ذكر أسمائهم، وأما ابن حزم فلا أدري أين ذكر ذلك، وأول ما يتبادر للذهن أنَّه في كتابه (الفصل في الملل والنحل)، وقد رجعتُ إليه، وقلَّبت مظانَّه فلم أعثر عليه، ثم إنَّ النقلَ عنه مختلف، فابن الوزير قال عنه: (لا يصح)، والشوكاني قال عنه: (إنها موضوعة)، وشتان بين النقلين كما لا يخفى، فإن صحَّ ذلك عن ابن حزم، فهو مردود من وجهين:

الأول: أن النَّقد العلمي الحديثي قد دلَّ على صحَّة هذه الزيادة، فلا عِبرة بقول من ضعَّفها.

والآخر: أنَّ الذين صححوها أكثر وأعلم بالحديث من ابن حزم، لاسيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده في النقد، فلا ينبغي أنْ يُحتجَّ به إذا تفرَّد عند عدم المخالفة فكيف إذا خالف؟!

جماعة المسلمين: أي ما كان عليهِ رسولُ الله ﷺ والصَّحابة

وفي روايات أخرى، وصفَ ﷺ تلك الجماعة، وأخبرَ أنَّها: (ما كان هو عليه وأصحابُه) ﷺ ورضي اللهُ عن أصحابه أجمعين. فعن عبد الله بن عمرو أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ليأتينَّ على أمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتَّى إن كانَ مِنهم من أتى أُمَّهُ علانيَةً، لَكانَ في أمَّتي من يصنعُ ذلِكَ، وإنَّ

وأما ابن الوزير، فكلامه الذي نقله الكوثري يشعر بأنه لم يطعن في الزيادة من جهة إسنادها، بل من حيث معناها، وما كان كذلك، فلا ينبغي الجزم بفساد المعنى لإمكان توجيهه وجهة صالحة ينتفي به الفساد الذي ادعاه. وكيف يُستطاع الجزمُ بفسادِ معنى حديث تلقَّاه كبار الأئمة والعلماء من مختلف الطبقات بالقبول وصرحوا بصحته؟ هذا يكاد يكون مستحيلًا ...) انتهى.

(سلسلة الأحاديث الصحيحة) (408/1).

ثالثًا: روي هذا الحديث بلفظ: ﴿تَفَرَّقُ أُمَّتِي عَلَى سَبْعِينَ أَوْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً﴾، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: ﴿الزَّنَادِقَةُ، وَهُمُ الْقَدَرِيَّةُ﴾. وهذا الحديثُ بهذا اللفظِ موضوعٌ مكذوبٌ على رسول الله ﷺ.

رواه العقيلي في (الضعفاء) (201/4) من طريق مُعَاذ بْن يَاسِينَ الزَّيَّاتُ قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَبْرَدُ بْنُ الْأَشْرَسِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا، ثم رواه من طريق يَاسِينَ الزَّيَّاتِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعِيدٍ أَخِي يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَنَسٍ. ثم قال العقيلي:

(هَذَا حَدِيثٌ لَا يَرْجِعُ مِنْهُ إِلَى صِحَّةٍ، وَلَعَلَّ يَاسِينَ أَخَذَهُ عَنْ أَبِيهِ، أَوْ عَنْ أَبْرَدَ هَذَا، وَلَيْسَ لِهَذَا الْحَدِيثِ أَصْلٌ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ وَلَا مِنْ حَدِيثِ سَعْدٍ.). انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(هذا الحديث لا أصلَ له، بل هو موضوعٌ كذِبٌ باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولم يروه أحد من أهل الحديث المعروفين بهذا اللفظ.

بل الحديث الذي في كتب السنن والمساند عن النبي ﷺ من وجوه أنه قال: ﴿ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار.﴾ انتهى من (بغية المرتاد)، (ص 337).

وقد ذكره ابن الجوزي في (الموضوعات)، (268/1) من طرق، وقال:

(هَذَا الحَدِيث لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... إلخ).

وقال الألباني رحمه الله:(وهذا المتنُ المحفوظ، يعني: ﴿كلهم في النار إلا واحدة﴾، قد وردَ عن جماعة من الصحابة، منهم أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد وجدت له عنه وحده سبعَ طُرُق، وذلك مما يؤكد بطلان الحديث بهذا اللفظ الذي تفرد به أولئك الضعفاء، وخاصة ياسين الزيات هذا، فقد خالفه من هو خير منه: عبد الله بن سفيان، فرواه عن يحيى بن سعيد عن أنس باللفظ المحفوظ.). انتهى.

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)، (126/3).

وقال الألباني أيضا في (سلسلة الأحاديث الضعيفة)، (1035): (موضوع بهذا اللفظ).

أما تصحيح البشاري لهذا الحديث، فقد ذكره في كتابه (أحسن التقاسيم)، (ص 39).

وكان البشاري أحد الرحالة وأشهر علماء الجغرافيا في عصره، وقد توفي في أواخر القرن الرابع الهجري أو بداية القرن الخامس، ولم يكن من علماء الحديث حتى يقدم قوله على قول أئمة الحديث.] اهـ. موقع (الإسلام سؤال وجواب) على شبكة الانترنت.

بَني إسرائيل تفرَّقت على ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً، وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي.﴾[1].

تعيين الجماعة

لقد تكلم أهل العلم في تعيين معنى (الجماعة)، أي (الفرقة الناجية)، والمقصودة في كلام النبي ﷺ في أحاديث افتراق الأمم المذكورة سابقًا، ومنها:

جاء في (عون المعبود) عن تعيين الجماعة ما نصه: [الجماعة: أي أهلُ القرآن والحديثِ والفِقه والعِلم، الذين اجتمعوا على اتِّباعِ آثارِه ﷺ في جميع الأحوالِ كلها، ولم يبتدِعوا بالتحريف والتغيير، ولم يُبَدِّلوا بالآراء الفاسدة.] اهـ[2].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجزم في تعيين فرقةٍ ما أنها هي الجماعة لا بد من دليل، فقال ما نصه: [وأما تعيين هذه الفِرَق، فقد صنَّف الناس فيهم مُصنَّفات، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفِرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليلٍ، فإنَّ الله حرَّم القولَ بلا علمٍ عمومًا، وحرَّم القولَ عليه بلا علمٍ خصوصًا.] اهـ[3].

ولهم في ذلك تفاصيل كثيرة، وكلام طويل من الممكن الرجوع إليه[4].

---

(1) تقدم تخريجه. وفي رواية: ﴿افترقتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فرقةٍ كلُّها في النارِ إلا واحدةٌ، وافترقتِ النصارى على اثنتين وسبعين فرقةٍ كلُّها في النارِ إلا واحدةٌ، وستفترقُ هذه الأمةُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةٍ كلُّها في النارِ إلا واحدةٌ. وفي لفظٍ: على ثلاثٍ وسبعينَ ملةٍ، وفي روايةٍ قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن الفرقةُ الناجيةُ؟ قال: من كانَ على مثلِ ما أنا عليه اليومُ وأصحابي، وفي روايةٍ قال: هي الجماعةُ يدُ اللهِ على الجماعةِ.﴾. تقدم تخريج تلك الروايات.

(2) عون المعبود (223/12)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، المؤلف: محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (ت 1329هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1415هـ، عدد الأجزاء: 14.

(3)(مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام ابن تيمية (346/3).

(4) جاء في الدُّرر السَّنِية في: المبحث الأول: (من هي الفرقة الناجية؟)، ما نصه:

[اختلف العلماء في المراد بها على أقوال، وهي إجمالًا:

1- قيل: إنها السوادُ الأعظمِ من أهلِ الإسلام

2- وقيل: هم العلماء المجتهدون الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ﴿إن أمتي لا تجتمع على ضلالة﴾، رواه ابن ماجه (3950) بهذا اللفظ ورواه أبو داود والترمذي بألفاظ مقاربة، وصححه الألباني.

أي لن يجتمع علماءُ أمتي على ضلالة، وخصَّهم شيخ الإسلام بعلماءِ الحديث والسُّنة.

فصل:

الركن الرابع: عَدَمُ التَّفَرُّقِ

ونودُّ أنْ نشير هنا إلى أمر مهم – ينبغي للمسلم أن يعرفه – وذلك فيما يخص تعيين (الفرقة الناجية) في أحاديث الافتراق، والتي سماها رسول الله ﷺ بـ (الجماعة). وذلك أنَّ هذه (الجماعة)، أَو (الفرقة الناجية)، ليس لها اسمًا خاصًّا بها، أو أنها فرقة معيَّنة، ومعرَّفة بكذا، أَو بكذا، أَو جماعة كذا، أو طائفة كذا، وذلك لأنَّ الكتاب والسنة قد نبَّهوا، وحذَّروا أصلًا من التفرق والتحزب، وتأسيس الفرق، والتشيَّع لجماعة معينة، وتكوين الجماعات (كما رأينا في الفصول السابقة).

وقد يقول قائل: ولكنَّ النبي ﷺ عرَّف تلك الفرقة الناجية، وسمَّاها تارة: بـ (الجماعة)، وتارة أخرى: (السواد الأعظم)، كما مرَّ بنا في أحاديث الافتراق، وهذه أسماءُ أعلامٍ. ونقول: نعم، ونحن نوافقكم على أنَّهُ اسمٌ علمٌ، ولكنَّهُ اسمٌ عامٌّ، لا يدلّ على معينٍ بذاته، ولكنْ إذا أُضيف إلى اسمٍ معينٍ، فقد تم تعيينه، كما نقول: جماعةُ المهاجرين، أو جماعةُ الأنصار، أو جماعةُ المدينة، أو جماعةُ البلد الفلاني، وهكذا.

فالفرقة الناجية ليس لها اسمًا معينًا، ولا تعني شيئًا محددًا بذاته. غير أنَّ رسول الله ﷺ لم يترك الأمر هكذا، مُبهمًا، إنَّما جعل ﷺ لها وصفًا دقيقًا، ذكره واضحًا جليًّا في بعض روايات الحديث، وذلك عندما سأله الصحابة عن تلك الفرقة الناجية: ﴿قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي.﴾[1].

3- إنهم خصوصٌ من أصحاب النبي ﷺ الذين قال فيهم الرسول ﷺ في رواية: ﴿ما أنا عليه اليوم وأصحابي﴾، رواه الطبراني في (الأوسط)، (137/5) (4886)، ورواه الترمذي (2641) بلفظ: ﴿ما أنا عليه وأصحابي﴾. وقال: هذا حديث مفسّر غريب، لا نعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه. وقال البغوي في (شرح السنة)، (185/1): ثابت. وقال الحافظ العراقي في (المغني)، (284/3): أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه. ولأبي داود من حديث معاوية، وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك: ﴿وهي الجماعة﴾، وأسانيدها جياد. وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

4- إنهم جماعة غير معروف عددهم، ولا تحديد بلدانهم، أخبر عنهم النبي ﷺ بإخبار الله له، أنهم على الحق حتى يأتي أمر الله. ولعل هذا هو الراجح من تلك الأقوال، ونحن نطمع إن شاء الله أن نكون منهم ما دمنا على التمسك بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وعلى منهج سلفنا الكرام.

5- وفيه قول خامس، أنَّ الجماعةَ هُم جماعةُ المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.] اهـ.

(الاعتصام) – بتصرف ج 2، ص (264-260)، وقد فصل القول فيها، وانظر (مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام ابن تيمية، (345/3). موقع (الدُّرَرَ السَّنيَّة) على شبكة الانترنت.

(1) حسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم (2641).

فالفرقة الناجية إذن: هي ما كان أهلُها على هَدْيِ رسولِ الله ﷺ، وهَدْيِ أصحابه ضي الله عنهم أجمعين. فهذا هو المعيار والميزان الذي يجب أنْ يتَّصِفَ به المسلمون، وأنْ يزنوا اعتقادهم وأعمالهم، كي يكونوا من أهل الفِرقة الناجية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الفِرَق المشار إليها في الحديث المذكور:

[فكثير من الناس يُخبر عن هذه الفرق بحُكم الظنِّ والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه، الموالية له، هم أهل السُّنة والجماعة، ويجعل من خالفها هم أهل البدع، قال: وهذا ضلال مبين، فإنَّ أهل الحق والسُّنة، لا يكون متبوعهم إلّا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلّا وحيٌ يُوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبرَ، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل يُؤخَذُ من قوله ويترك إلّا رسولُ الله ﷺ. فمن جعل شخصًا غير رسول الله ﷺ كان من أَحَبَّهُ ووافَقَهُ كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه، كان من أهل البدع، كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة الكلام في الدين وغير ذلك، كان من أهل البدع والضلال والتفرق.]، اهـ[1].

وقد ورد التأكيد على صفة الفرقة الناجية وذلك أنَّها: ما كان على هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه من بعده، كما جاء في حديث العِرباض بن سارية، وقد تقدم، وفيه: ﴿فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.﴾[2].

وجاء التحديد في بعض الروايات على الاقتداء بأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود –رضي الله عنهم أجمعين–، فعن عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي من أصحابي: أبي بكرٍ، وعمرَ، واهتدوا بهديِ عمَّارٍ، وتمسَّكوا بعهدِ ابنِ مسعودٍ.﴾[3].

---

(1) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، (346/3).

(2) تقدم تخريجه.

(3) صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم 1144، وفي صحيح سنن الترمذي، برقم 3805، وفي السلسلة الصحيحة برقم 1233.

وفي رواية: عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي؛ من أصحابي أبي بكرٍ وعمرَ، واهتدوا بهديِ عمَّارٍ، وما حدثكم ابنُ مسعودٍ فاقْبَلوه.﴾. أخرجه الألباني في صحيح الجامع، برقم 1143.

نقول: فما أوردناه هنا من روايات في صفة الفرقة الناجية، أنها: (على ما كان عليه ﷺ وأصحابه)، فهذا فيما يخص الدليل النقلي.

الدليل العقلي

أما الدليل العقلي على أَنَّ صفة الفرقة الناجية، يجب أنْ تكون على هدي النبي ﷺ، وهدي أصحابه من بعده، وذلك فيما نقلوه عنه ﷺ بكل صدقٍ وأمانةٍ، وفيما فهموا من الدين، وما أقاموا، وما مارسوا من شعائر، نقول بذلك ونعتقده، لأسبابٍ كثيرةٍ، نذكر هنا أهمها:

1. لأنَّهم – أي الصحابة –كانوا أقرب الناس إليه ﷺ، وقد لازموه طُوال حياته الشريفة، وعاشوا عصر النبوّة، وشاهدوا الوحي، وهو يتنَزَّلُ عليه ﷺ فكانوا بذلك أفهمَ الناس لدينِ الله تعالى من غيرهم ممن سيأتي من بعدهم، وذلك بما علَّمهم رسول الله ﷺ وبيَّن لهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿44﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿64﴾﴾[2].

ولهذا السبب، صارَ فهمُ الصحابةِ للكتابِ والسُّنة، وصارتْ أقوالهم وأفعالهم، حجةً على جميع المسلمين، وإلى يوم القيامة[3].

2. ولأنَّ الصحابة كانوا أصدقَ الناس إيمانًا، وإخلاصًا، فقد شَهِدَ تعالى على صدقهم بما عاهدوه عليه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿22﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

وفي رواية: عن حذيفة قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فقال: ﴿إنِّي لا أدري ما قَدْرُ بقائي فيكُم فاقتَدوا باللَّذَينِ مِن بعدي –وأشارَ إلى أبي بَكرٍ وعمرَ–، واهتَدُوا بِهَدْيِ عمَّارٍ وما حدَّثَكم ابنُ مسعودٍ فصدِّقوهُ.﴾. صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، برقم: 3799.

(1) النحل، الآية: ﴿44﴾.

(2) النحل، الآية: ﴿64﴾.

(3) انظر: (أعلام الموقعين عن رب العالمين)، ابن قيم الجوزية. و (الانتصار في حجية قول الصحابة الأخيار)، المؤلف: د. عبد العزيز بن ريس الريس، الناشر: مركز سطور للبحث العلمي، دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع– المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1440هـ. و(قول الصحابي وحجية العمل به)، المؤلف: أنس محمد رضا قهوجي، الناشر: دار النوادر، ط 1433– 2012، دمشق.

اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿23﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿24﴾﴾[1].

فكانوا بذلك أصدقَ الناس نقلًا لكل شعائر الدين وأحكامه، وسنة النبي ﷺ وحديثه، وتصرفاته كلها.

3. ولأن اللهَ تعالى مدحَ الصحابة جميعًا في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿29﴾﴾[2].

ثم فصَّل تعالى في مدحهم:

(أ) فبدأ بمدح المهاجرينَ وأثنى عليهم، وهم الصِنّف الأولِ من الصحابة، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿10﴾﴾[3].

(ب) ثم عقَّبَ تعالى، فمدحَ الأنصار وأثنى عليهم أيضًا، وهم الصِنف الثاني من الصحابة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿9﴾﴾[4].

4. ولأنَّ الله تعالى أخبرَ في كتابه برضاهُ عن كِلا الصنفين، أي عن الصحابةِ جميعًا، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

---

(1) الأحزاب، الآيات: ﴿22 – 24﴾.

(2) محمد، الآية: ﴿29﴾.

(3) الحشر، الآية: ﴿10﴾.

(4) الحشر، الآية: ﴿9﴾.

وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿100﴾﴾[1].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، أكّد تعالى رِضاه عن الصحابة، وذلك عند بيعة الرِّضوان، فقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴿18﴾﴾[2].

5. ولأنَّ الله تعالى قد اشترطَ على كل من يأتي من المسلمين مِن بعد الصحابةِ، وإلى يوم القيامة، اشترطَ عليهم أمرين:

الأمر الأول: أنْ يكونوا من التابعين لهم — أي للصحابة - بإحسانٍ في كلِّ ما يَخُصُّ الدين، وأنْ يقتدوا بهم، ويهتدوا بهديهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

وذلك لأنَّ الصحابة هم منْ حَملَ الدين وبلَّغه عن رسول الله ﷺ من بعده، ولولاهم لما وصلَ إلينا دينُ الله، ولولا عدالتِهم وصِدقهم وأمانتِهم، لما وصلَ إلينا نقيًّا كاملًا كما أنزله تعالى على نبيّه ﷺ.

الأمر الثاني: أن يدعو الله تعالى بالمغفرة للصحابة، وأن يحبوهم، وذلك بأنْ يسألوه تعالى أنْ لا يجعل في قلوبهم غلًّا أو حقدًا أو كراهيةً تجاه الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴿10﴾﴾[3].

فالآيات المذكورة في الفقرات: (2 - 5)، من أقوى الأدلة على عدالة الصحابة جميعًا، وعلى وجه الخصوص تلك الآية.

وعلى الرغم مما ذكرنا من تلك الأسباب والتي هي أيضًا، بمثابة أدِلَّة على عَدالة وصِدق وإخلاصِ الصحابة، فنحن لا ندَّعي عِصمتهم رضي الله عنهم أجمعين، وهذا ما بيناه سابقًا. وهذا ما تُشير إليه الآية المذكورة آنفًا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾. فقد اشْتَرَطَ تعالى اتِّباعَهم فيما أحسنوا، لا فيما

(1) التوبة، الآية: ﴿100﴾.

(2) الفتح، الآية: ﴿18﴾.

(3) الحشر، الآية: ﴿10﴾. على الرغم من مجيء ذلك على سبيلِ الإخبار، فإنَّ محبَّة الصحابةِ والدُّعاءَ لهم بالمغفرة، وسلامةَ القلبِ من كلِّ غِلٍّ وحقد وكراهيةٍ تجاههم هو مِنْ أصول الدين، إذْ لولاهم لما كانَ هناك دين، فالصحابة هم نَقَلةُ الدين، وإذا أُسقِط الناقِلُ فقد سَقَطَ المنقول.

أخطأوا وأساءوا. فالصحابةُ بَشر، وقد يُخطِئون، ولكنْ إذا صَدر منهم خطأٌ أو سوء فهمٍ للدين، أو التبس عليهم الأمرَ، فسرعان ما كان رسول الله ﷺ يُصحح ذلك لهم ويُقوّمهم. وسرعانَ ما كانوا – رضي الله عنهم أجمعين – ينصاعون إلى الحق ويقبلون به، ويقولون: سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴿285﴾﴾[1].

فنقول باختصار:

إنَّ رسول الله ﷺ قد ماتَ وهو راضٍ عن الصحابة، وعن فَهْمِهِم لدين الله تعالى، وطاعتِهم وعبادتِهم، واجتماعِهم رضي الله عنهم أجمعين.

ونعود فنقول: ومما يؤيد قولنا هذا، أنَّهُ ﷺ أيضًا، قد أمَرَ الأمة من بعده، وإلى يوم القيامة، باتّباعِ سُنَّتهم وهدْيهم الذي هو من سُنته وهدْيه ﷺ وذلك بقوله: ﴿ما أَنا عليه وأَصحابي﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.﴾[2].

---

(1) (البقرة: 285﴾. ذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [وَقِيلَ سَبَبُ نُزُولِهَا الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فَإِنَّهُ لَمَّا أُنْزِلَ هَذَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوه ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، والجهاد، والصدقة، وقد أنزل الله عليك هَذِهِ الْآيَةَ، وَلَا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنا وَعَصَيْنا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فَقَالُوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لَا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾، قَالَ: ﴿نَعَمْ﴾، ﴿رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْرًا كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا﴾، قَالَ: ﴿نَعَمْ﴾، ﴿رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا مَا لَا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾، قَالَ: ﴿نَعَمْ﴾، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾، قَالَ: ﴿نَعَمْ﴾. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. قَالَ عُلَمَاؤُنَا: قَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى: ﴿قَدْ فَعَلْتُ﴾، وَهُنَا قَالَ: ﴿نَعَمْ﴾، دَلِيلٌ عَلَى نَقْلِ الْحَدِيثِ بِالْمَعْنَى، وَقَدْ تَقَدَّمَ. وَلَمَّا تَقَرَّرَ الْأَمْرُ عَلَى أَنْ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، مَدَحَهُمُ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَرَفَعَ الْمَشَقَّةَ فِي أَمْرِ الْخَوَاطِرِ عَنْهُمْ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ الطَّاعَةِ وَالِانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا جَرَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ضِدُّ ذَلِكَ مِنْ ذَمِّهِمْ وَتَحْمِيلِهِمُ الْمَشَقَّاتِ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالِانْجِلَاءِ إِذْ قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ الْعِصْيَانِ وَالتَّمَرُّدِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ نِقَمِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.] اهـ. تفسير القرطبي، 436/3.

وغيرها من الشواهدِ الكثيرة على انْصياعِ الصحابةِ إلى كلامِ اللهِ تعالى ورسولهِ ﷺ، وأمرِهما.

(2) تقدم تخريجه.

الصحابة أبر هذه الأمة قلوبًا

وكان عبدُ الله بن مسعود –رضي الله عنه– وغيره من الصحابة الكرام، يُنبهون الناس إلى ضرورةِ اِتّباع منهجِ الصحابة – رضوان الله عليهم– حيث يقول: ﴿منْ كانَ منكم مُتأسِّيًا، فليتأسَّ بأصحاب محمد ﷺ، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذهِ الأمةِ قُلوبًا، وأعمَقُها عِلمًا، وأقلُّها تكلُّفًا، وأقومها هدْيًا، وأحْسَنها حالًا، قومًا اختارهم اللهُ لصُحبةِ نبيِّهِ ﷺ، وإقامةِ دينهِ، فاعْرِفوا لهم فَضْلهم، واتّبِعوهم في آثارِهم؛ فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم.﴾[1].

الضابطُ لاستحقاق لقبِ أهلِ السُّنَّة

وبهذا الوصفُ النبويُّ الذي للفِرقة الناجية الذي نقلناه، يخرج منه: كُلُّ مَنْ خالفَ رسولَ الله ﷺ في اعتقادٍ، أو قولٍ، أو عملٍ، أو زادَ فيه أو أنْقَصَ، أو خالفَ أصحابَهُ رضي الله عنهم أجمعين، ناهيك عنْ مَنْ تَبَرَّأَ منهم، وطَعَنَ في عدالتِهم، وصِدْقِهم وصُحْبَتِهم، — فهذا قد يصل بصاحبهِ إلى الرِّدة والكُفر.

فيَخرجُ بهذا الوصفِ النبويُّ للفِرقة الناجية: كلُّ مَنْ خَالفَ جمهورَ الصحابةِ، وتابِعيهم بإحسانٍ في فَهْمِ كلامِ اللهِ تعالى ومُراده، أو ابتدعَ في الدين ما لم يَكنْ على عهدِ رسولِ الله ﷺ وعلى عهدِ أصحابهِ من بعدهِ، من الاعتقاداتِ والأقوالِ والأعمال.

أهل السُّنَّة والجماعة هم الفرقة الناجية

فبهذه الأدلةِ التي ذكرناها، وبالوصفِ الذي أخبرَ به ﷺ عن الفِرقة الناجية، يصبح الأمر واضحًا لا مِرية ولا لَبس فيه، وبذلك تكون الفِرقة الناجية هي: (أهلُ السُّنَّةِ والجماعة).

إنَّ أهل السُّنة والجماعة ينطبق عليها الوصفُ النبوي الذي ذكرناه، وذلك لأنَّهم اتبعوا سُنَّتهُ وهدْيهُ ﷺ. ولأنَّهم اتبعوا ما كان عليه أصحابه في حياته وبعد مماته ﷺ. وأنَّهم والوا أصحابه رضي الله عنهم جميعًا، وأحَبُّوهم، وترضَّوا عنهم، واقْتَدَوا بهم جميعًا، وعلى وجه الخصوص، بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكما أمَرَ ﷺ فقال: ﴿اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي؛ من أصحابي أبي بكرٍ وعمرَ﴾[2].

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

وعن مطابقة هذا الوصف النبوي، يقول البغدادي: [ولسنا نجد اليوم من فِرَقِ الأمة مَنْ هُم على موافقةِ الصحابةِ رضي الله عنهم، غيرَ أهلَ السُّنَّةِ والجماعة.] اهـ(1).

ويقول الاسفراييني في سبب نجاةِ أهلِ السُّنة: [وهو مُتابَعتُهم لرسولِ اللهِ ﷺ، وليس في فِرَقِ الأمة متابعة لأخبارِ الرسول ﷺ أكثرَ تبعًا لسُنَّتِهِ من هؤلاء، ولهذا سُمّوا: أصحابَ الحديث، وسُمّوا بأهلِ السُّنَّةِ والجماعة] اهـ(2).

إذن، فاتّباعُ ما كان عليه ﷺ وأصحابه، هو الضَّابِطُ لاستحقاقِ لقبِ أهل السُّنَّة، والفوز والنجاة. وهذا ضابطٌ مهمٌّ لمعرفة أهل السُّنَّة من غيرهم(3).

أهل السُّنة والجماعة ليسوا فرقةً أو طائفةً، بل هم أصلُ الإسلام

ولا بد أنْ ننوه هنا إلى أمرٍ مهمٍّ قد يختلط على بعض المسلمين، وبالتالي يُساء فهم كلام النبي ﷺ المذكور في حديث الافتراق، ويُفْهَمُ خَطأً بأنَّ (الجماعة الناجية) إنَّما هي فِرقة من فِرق المسلمين، ويستدلوا بأمرين اثنين، هما:

الأول: أنَّ النبي ﷺ قال: ﴿لتفترِقَنَّ أمَّتي علَى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، واحدةٌ في الجنَّةِ، وثِنتانِ وسبعونَ في النَّار﴾، الحديث. حيث صرَّح الحديث بأنَّها (فرقة).

الثاني: أَنَّ أهلَ العلمِ أطلقوا اسمَ (الفِرقة الناجية) على أهل السُّنة والجماعة.

فنقول: إنَّ المقصود من كلام النبي ﷺ بأنَّ الجماعة الناجية هم: (فرقة)، وذلك من باب المشاكلة، كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ولا ينبغي أنْ يُفهم على أنَّهم (فِرقة) كباقي الفِرق، بمعنى أنَّهم انشقُّوا وصاروا فرقةً، حالها كحالِ الثنتين وسبعين فرقة.

والحق: أنَّ (الجماعة الناجية) - وبالوصف الذي ذكرناه في الفقرات السابقة- هم المسلمون الحقيقيون، كما كانوا على عهده ﷺ وعلى سيرته، وسيرة الصحابة من بعده. ونعني بذلك: أنهم لم ينشقوا

---

(1) الفَرْقُ بين الفِرَق، ص 304. الفَرْقُ بين الفِرَق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الاسفراييني، أبو منصور (ت 429هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1977.

(2) التبصير في الدين، ص 185، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، المؤلف: طاهر بن محمد الاسفراييني، أبو المظفر (ت 471هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: عالم الكتب – لبنان، الطبعة: الأولى، 1403هـ- 1983م.

(3) موقع (الدُّرَرَ السَّنيَّة) على شبكة الانترنت.

ويتفرَّقوا، بل ثبتوا على كتاب الله تعالى وسنته ﷺ، واتبعوا هدْيَه وسُنته، وهدْيَ وسُنَّة أصحابه من بعده، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين. ثم بعد ذلك تفرقت عنهم الفِرق الأخرى، وانشقت عنهم، وهي الثنتين وسبعين، والتي ذكرها رسول الله ﷺ، وصاروا بهم (أي بالجماعة الناجية) ثلاث وسبعين فرقة.

وهذا الفهم ضروريٌّ لئلا نقعَ في إشكالات خطيرة، منها:

أولًا: إنَّ الله تعالى ورسوله قد نَهوا الأمة عن التفرُّق، كما تبين لنا مما سبق. فكيف تكون (الجماعةُ) فرقةً ناجيةً، وقد تفرَّقت وأصبحت فِرقة كباقي الفِرق؟ وهذا متناقض!

ثانيًا: وهذا أمْر مهمٌّ جدًّا، يجب على المسلم أنْ يَفْهَمهُ، وهو أنَّ الفِرق الأخرى قد انشقت، وتفرَّقت عن الإسلام الحق الذي ارتضاه تعالى للمسلمين، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[1].

وأما أهل السُّنة والجماعة، فقد ثبتوا على تمسكِهم على ذلك الإسلام الحق الذي كان على عهده ﷺ: «ما أَنا علَيهِ وأَصحابي»، وكما نقله الصحابة الكرام بكل صدقٍ وأمانةٍ إلى جيل التابعين، ومن بعدهم إلى الأجيال الأخرى.

فلو فرضنا جدلًا أنَّ (أهل السُّنة والجماعة) فِرقة كباقي الفرق، فيستوجب ذلك أنَّهم انشقوا وتفرَّقوا. ومن المنطقي أنْ يسألَ سائلٌ: عن أي شيء تفرَّقوا؟ إذا كانوا يمثلون الإسلام الحق! والصحيح، أنَّ الفِرق الأخرى هي التي تفرَّقت عنهم، أي عن الإسلام الحق المتمثل بهم، أعني (أهل السنة والجماعة).

ثالثًا: وإدراك هذه الحقيقة[2] يدفعُ إشكالًا كبيرًا وخطيرًا، وذلك حين يدعو المسلم إلى دينه غير المسلمين. فربما يقول المدعو حينئذٍ: وأيُّ فِرقة أتبعُ لأكون على الإسلام الصحيح؟ ما دام هناك فرقًا كثيرة، وكُلًّا يدَّعي أتْبَاعُها أنهم على الحق!

إذن، لا بد أنْ توضح هذه المسألة جليًّا، فأهل السُّنة والجماعة ليسوا فِرقةً، ولا طائفةً، إنما هم المسلمون الحقيقيون، وأنهم على الإسلام الحق، كما نزل أول مرة غضًّا طريًّا، لا شائبة فيه. من أجل ذلك كان من الضروري أنْ توضح تلك المسألة، كي لا يلتبس الأمرُ على المسلمين وغير المسلمين، ويعرفوا الإسلام الحق وأهله.

---

(1) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

(2) أعني أنَّ (أهل السنة والجماعة) ليست فرقةً كباقي الفِرق، وإنما هي الإسلام الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام.

(فأهل السنة والجماعة ليسوا فرقةً انشقت كباقي الفِرق، أو طائفة كباقي الطوائف، وإنَّما هم أصلُ الإسلام وأهلهُ وحُمَاته، كما نزلَ على رسولِهِ ﷺ.)

فالإسلام الحق، يتمثل بما أطلقَ عليه أهلِ العلمِ من السَّلف والخَلف: (أهل السنة والجماعة). وأما عن السبب في إطلاق تلك التسمية، وذلك لتمييزهم عن الفِرق الضالة الأخرى، حيث كلها تدعي أنها مُسلمة، وأنها تمثل الإسلام الحق، وكما قال الشاعر:

وَكُلٌّ يَدَّعي وَصْلًا بِلَيْلى وَلَيْلَى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذاكا

تاريخ لفظ (أهلَ السُّنَّةِ والجمَاعة)

ولا بد أنْ نشير هنا إلى أنَّ لفظ (أهلَ السُّنَّةِ والجمَاعة) ليس مصطلحًا حديثًا، وإنَّما يعودُ إلى عهد النُّبوة والخلافة الراشدة.

فقد جاء في الدُّرَرَ السَّنيَّة في هذا الخصوص ننقله هنا ما نصه:

[يرجع تاريخ إطلاق هذا اللفظ إلى صدر الإسلام، إلى عصر النبوة، والقرون المفضلة.

فقد أخرج اللالكائي بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1]؛ (فأما الذين ابيضَّتْ وجوههم: فأهلُ السُّنة والجماعة وأولو العلم، وأما الذين اسودتْ وجوههم: فأهلِ البدعِ والضلالة.)[2].

ثم تتابع ورودُ استعمال هذا اللفظِ وإطلاقه عن كثير من أئمة السلفِ رحمة الله عليهم، أذكر طائفة منهم حسب التسلسل التاريخي: فمن وردَ عنه ذلك:

• أيوب السختياني (68 – 131هـ):

فقد أخرج اللالكائي عنه أنه قال: (إني أُخْبَرُ بموتِ الرجل من أهل السُّنة، وكأني أفقد بعض أعضائي)، وقال أيضًا: (إنَّ من سعادةِ الحدَث والأعجمي، أنْ يُوفِّقهما الله لعالمٍ من أهل السُّنة.)[3].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿106﴾.

(2) اللالكائي، (شرح أصول أهل السنة)، (79/1)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (ت 418هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة – السعودية، الطبعة: الثامنة، 1423هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 9 أجزاء (4 مجلدات) – الجزء 9 تجده منفردًا باسم: كرامات الأولياء. والبغوي في تفسير البغوي، (339/1)، وابن كثير في تفسير ابن كثير، (2/72).

(3) اللالكائي، (شرح أصول أهل السنة)، (66/1).

• سفيان الثوري (ت 161هـ):

قال: (استوصوا بأهلِ السُّنة خيرًا، فإنَّهم غرباء.)، وقال: (ما أقل أهل السنة والجماعة.)[1].

• الفضيل بن عياض (ت 187هـ):

قال: (أهل الإرجاء يقولون: الإيمانُ قولٌ بلا عمل، وتقول الجهمية: الإيمانُ المعرفة بلا قولٍ ولا عملٍ، ويقول أهلُ السُّنة: الإيمانُ المعرفةُ والقولُ والعمل.)[2].

• أبو عُبيد القاسم بن سلام (157 - 224هـ):

قال في مقدمة كتاب (الإيمان) له: (... فإنك كنت تسألني عن الإيمان واختلاف الأمة في استكماله، وزيادته، ونقصانه، وتذكر أنك أحببت معرفة ما عليه أهل السُّنة من ذلك ...)[3].

• الإمام أحمد بن حنبل (164- 241هـ):

قال في مقدمة كتاب (السنة) له: (... هذه مذاهبُ أهلِ العلمِ وأصحابِ الأثرِ وأهل السُّنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا ...)[4].

• الإمام ابن جرير الطبري (ت 310هـ):

قال: (وأما الصوابُ من القولِ في رؤيةِ المؤمنينَ ربَّهم عزَّ وجلَّ يوم القيامة، وهو ديننا الذي نَدين الله به، وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة، فهو أنَّ أهلَ الجنة يروْنهُ على ما صحتْ به الأخبار عن رسول الله ﷺ.)[5].

• أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (239 – 321هـ):

---

(1) اللالكائي، (شرح أصول أهل السنة)، (71/1).

(2) ابن جرير الطبري: (تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار) بتحقيق د. ناصر سعد الرشيد، وعبد القيوم عبد رب النبي، ط. مطابع الصفا – مكة، على نفقة الأمير فهد بن عبد العزيز، 1402هـ، (182/2).

(3) (الإيمان)، (ص: 53). الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت 224هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2000م.

(4) (السنة)، (ص: 33- 34)، مع كتاب له: (الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكَّوا فيه من تشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله)، المؤلف: إمام أهل السنة والجماعة: أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، المحقق: صبري بن لامة شاهين، الناشر: دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى: 1424هـ- 2003م.

(5) (صريح السنة) للطبري، ص 20. صريح السنة، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، المحقق: بدر يوسف المعتوق، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت، الطبعة: الأولى، 1405هـ.

قال في مقدمة عقيدته المشهورة: (... هذا ذكر بيانُ اعتقادِ أهلِ السُّنة والجماعة...)[1].

وبهذه النقول يتضح لنا جليًّا أن لفظ (أهل السُّنة) معروفُ عند السلَف متداولً بينهم، أطلقوه في مقابل (أهل البدع)، وألّفوا في بيان عقيدة أهل السنة، وميزوا بينهم وبين أهل البدع، كما فعل الإمام أحمد والإمام الطحاوي وغيرهم.

وفي هذا ردٌّ على من زعم أنَّ لقب (أهل السُّنة) أول ما أطْلِق على الأشاعرة، كما زعم ذلك الأستاذ مصطفى الشكعة إذ يقول في كتابه (إسلامٌ بلا مذاهب): (... وهكذا نجد أن لقب (أهل السُّنة) أطلق أول ما أطلق على جماعة الأشاعرة، ومن نحا نحوهم، ثم اتسعت دائرته، فشملت أصحاب المذاهب، والفقهاء، من أمثال الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وابن حنبل، والأوزاعي، وأهل الرأي والقياس ...)[2].

ولا أدري كيف يستقيم هذا القول، وهؤلاء أئمة قد توفوا قبل زمن الأشعري؟

ثم زعم في موضع آخر من كتابه أنَّ هذه التسمية لم تُعرف إلا في القرن السابع الهجري قال: (... وذلك أن تسمية جمهرة المسلمين بأهل السُّنة، تسمية متأخرة، يرجع تاريخها إلى حوالي القرن السابع الهجري؛ أي: بعد عصر آخر الأئمة المشهورين، وهو ابن حنبل بحوالي أربعة قرون.)[3].

على أنه يتناقض فيعترف في نفس كتابه هذا، بوجود من يعرف بـ (أهل السُّنة) قبل أن يخلق الله الأشعري والأشاعرة، إذ يقول: (إنَّ المأمون وهو على أُهبة الخروج إلى طرسوس على حدودِ بلاد الروم سنة 218هـ، بعث إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد كتابًا، يأمره فيه أن يستحضر علماء بغداد وقضاتها، وأنْ يمتحنهم في موضع خلق القرآن.

قال: وكتاب المأمون هذا من أشنع الكتب التي حَوَتْ سبًّا وتطاولًا على علماء المسلمين من أهل السنة...) اهـ[4].

إذن، كان هناك أهلُ سُنَّة يدافعون عن عقيدتهم في القرآن، ويردُّون على من قال بخلقه، يُعرفون بأنهم (أهل السُّنة).

---

(1) العقيدة الطحاوية، ص 31. العقيدة الطحاوية، المؤلف: أبي جعفر الطحاوي (ت 321هـ)، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1414هـ.

(2) (إسلام بلا مذاهب)، (ص 489)، إسلام بلا مذاهب، المؤلف: مصطفى الشكعة، الناشر: الدار المصرية اللبنانية – القاهرة، الطبعة الحادية عشر، 1416هـ- 1996م.

(3) (إسلام بلا مذاهب)، (ص: 410)، مصطفى الشكعة، طبعة الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الحادية عشر، 1416هـ- 1996م.

(4) (إسلام بلا مذاهب)، (ص: 470)، مصطفى الشكعة، طبعة الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الحادية عشر، 1416هـ- 1996م.

فكيف يقال: إن هذا اللقب أُطلقَ أول ما أُطلقَ على جماعة الأشاعرة؟ أم كيف يقال: إن هذه التسمية لم تعرف إلَّا في القرن السابع الهجري؟] اهـ[1].

بقيةُ الاثنتينِ وسبعين فِرقة ليسوا جميعًا كفار

من الجدير بالذكر أَنَّ في فِرَق الأمة المتبقية، أعني الاثنتين وسبعين، والتي نصَّ الحديث على أنَّهم في النار، أَنَّ في تلك الفِرق: العاصي، والمبتدع، والكافر، إذ ليسوا جميعًا كُفَّار، كما يُتوهَّم. فقد نقل شعيب الأرناؤوط قول الخطابي في تخريجه لحديث ﴿افترقَتِ اليهودُ على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقةً، وتفرَّقت النَّصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقةً، وتَفترِقُ أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقةً.﴾، فقال: [قال الخطابي: فيه دلالة على أنَّ هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين، إذ قد جعلهم النبي ﷺ كلهم من أمته. وفيه: أن المتأول لا يخرج من الملة وإن أخطأ في تأويله.] اهـ[2].

وهذا ما بينه أيضًا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله عند جوابهِ على سؤال، عن حديث الافتراق المذكور آنفًا، فقال رحمهُ الله تعالى ما نصُّه: [نعم، هذهِ رواها الترمذي الزيادة، وفي اللفظ الآخر، وهي (الجماعة)، وقد أجمعَ أهلُ السُّنة أنَّ الفرقةَ الناجيةَ: هُم أهلُ السُّنة والجماعة، بإجماع المسلمين، هُم أتْباعُ الرسول ﷺ من الصحابة، ومَنْ بعدهم. أمّا مَن خالفهم، فهُمْ أقسام: ثنتان وسبعون فرقة، فيهم الكافر، وفيهم غيرُ الكافر، لكنَّهم متوعَّدون بالنار لخِلافِهم الحق، إمّا بالبِدع، وإمّا بالمعاصي الكبيرة، والعياذ بالله، وإمّا بالكُفر، ويدخل فيهم: الجَهْمية، والمعتزلة والمرْجِئة، والرافِضة، وغيرهم من أهلِ البدع المضِلَّة. نسألُ الله العافية.] اهـ[3].

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن خطورة التفَرُّق الذي هو ابنُ الاختلاف ونتيجته الحتمية، واللذان نُهيت الأمة عن الوقوع فيهما. وذكرنا حديث الافتراق، وكيف انشقت الأمة الإسلامية إلى فِرق وطوائفَ كثيرة، كما أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ، وكيف بيَّن لنا النجاة من الافتراق، وذلك بلزوم جماعة المسلمين. وذكرنا أيضًا الوصف النبوي لتلك الجماعة والفرقة الناجية، وهو أنْ تكون على هدْيِهِ ﷺ وهدْي أصحابه من بعده،

(1) المطلب الأول: نشأة مصطلح (أهل السنة)، وتاريخ إطلاقه، موقع (الدُّرَر السَّنِيَّة) على شبكة الانترنت.

(2) سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط، 5/7.

(3) موقع الإمام ابن باز، على شبكة الانترنت.

رضي الله عنهم أجمعين. وبينا أنَّ النبي ﷺ بهذا الوصف للفرقة الناجية، قد زَكَّى الصحابة، حينما أمَرنا باتباع هدْيِهِم وطريقتهم رضي الله عنهم أجمعين.

ومما لا شكَّ فيه، أنَّ الإسلامَ يحرِصُ على أنْ يجمعَ المسلمين في جماعةٍ واحدةٍ، وينهاهم عن الاختلاف والتفرُّق، ويسعى إلى تحقيق الوحدة والاجتماع، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. ولكنْ ليعْلمَ كلُّ مسلمٍ أنَّ اجتماع المسلمين، ووحدتهم، لا يكون على حساب عقيدتهم، وأصول دينهم، كالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، من غير تعطيلٍ، أو تشبيهٍ، أو تكييفٍ. ونعني بذلك، أنْ لا يكون ذلك الاجتماع على حساب فَهمِ الدينِ وأصوله، وفهمِ نصوصِ الكتاب والسُّنة، كما فَهمهُ السلفُ الصالح من الصحابة والتابعين.

ولا يكون، أعني اجتماع المسلمين، على حسابِ فهمِنا أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيد بالطاعات، ويَنقص بالمعاصي، وأنَّ عِصمةِ النبي ﷺ حقٌّ، ولا عِصمة لسواه، ولا على اكتمالِ الدين وتمامه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[1].

ولا يكون أيضًا على حسابِ كمال القرآن وحِفظه، وعدمِ نُقصان حرفٍ منه، وعلى عدالة الصحابة، وغيرها من ثوابتِ الدين، وما هو معلومٌ منه بالضرورة، مما أجمعتْ عليه الأمة، وغيره[2].

(بُطلانُ مقولةَ: نتعاونُ فيما اتفقنا عليه، ويَعذر بعضُنا بعضًا فيما اختلفنا فيه)

(1) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

(2) في إجابة على سؤال موجه إلى فضيلة الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان:

[السؤال: أحسن الله إليكم، هذا السائل يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هناك بعض من الدعاة يضع قاعدة يقول إنها من توحيد الكلمة، (نتفق فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه).

الجواب: إذا كان الاتفاق في العقيدة نعم، قد يحصل اختلاف في مسائل الفروع، والمجتهد يؤخذ بما أصاب فيه، ويترك ما خالف فيه، فإذا كان الاتفاق على العقيدة، والاختلاف إنما هو في مسائل الفقه والفروع، فهذا له وجه، أما إذا كان الاختلاف في العقيدة، فعلى أي شيء اتفقنا إذن؟! ما اتفقنا على شيء، وهذا هو الظاهر اللي يريدون، هذا ما يجوز. نعم.] اهـ. الموقع الرسمي للشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان.

من أجل ذلك، فلا يأتي اليوم قائلٌ فيقول: إنَّ المصلحةَ تقتضي أنْ نجتمعَ مع مَنْ خالفنا! ويقصدون بذلك: أنهم يريدوننا أنْ نجتمعَ مع مَنْ خالفنا ولو كانوا من أهلِ الأهواء، والانحراف. وأنْ نجتمعَ، حتى مع أهلِ الزيغ والضلال، ومع من يخالفنا في أصولِ الدينِ والعقيدة.

فهؤلاء من دُعاة التقريب، ودُعاة ما يسمَّى بـ (الوحدة الوطنية)، يريدوننا أنْ نجتمعَ مع أولئك الذين خالفوا دين الله، وانحرفوا عنه إلى درجةٍ كبيرة، حتى لم يُبقُوا من الإسلامِ إلا اسمهُ، ولا من القرآن إلا رسمهُ! يريدوننا أن نجتمع معهم ومع غيرهم من الفِرق الضالة الأخرى، التي خرجت عن حظيرة الإسلام، أو صارت قابَ قوسينِ أو أدنى من ذلك، كالمعطِّلة، والمشبِّهة، والصُّوفية الغلاة، والحلولية، والرّافِضة، والدروز، والقاديانية، والأحمديَّة، وغيرها من الفِرق المنحرفة قديمًا وحديثًا.

ونقول: إنَّ مما ينبغي للمسلم أنْ يعلمه، هو أنَّ أهلَ الإسلامِ، المتمثل بأهل السُّنة والجماعةِ، هم أحرصُ الناس على جمع المسلمين ووحدتهم، وعدم تفرقهم. ولكنْ لا يمكن أنْ يجتمعوا مع من يُخالِف دينهم في أصوله، ومع من يردُّ صريحَ القرآنِ، فيُعطله، أو يَصرفه عن معناه الذي نزل من أجله، أو يَرُدَّ صريح السُّنَّة.

فعلى سبيل المثال، لا يمكن لأهل السُّنة والجماعة أنْ يجتمعوا مع مَنْ يَزيدُ في أركان الدين، ويَشكِّكُ في حِفظ القرآن، ويعتقدُ تحريفه وتغييره بنُقصان. فضلًا عنْ مَنْ يُشَكِّكُ في عَدالةِ الصحابة، ناهيك عنْ مَنْ يَتَّهِمُ اصحابَ رسولِ الله رضي الله عنهم جميعًا عدا أفراد معدودين، بالردة والخيانة والانحراف! فلا يمكن لأهل السنة والجماعة أنْ يجتمعوا مع مَن يسبُّ ويتهمُ عِرْضَ نبيه ﷺ، ويُكَذِّبُ صريح القرآن الكريم، وغيرها من الانحرافات والخلافات التي تَهدم الإسلام من أساسه، كما في دين الرافضة واعتقاداتهم وغيرهم.

ومن ذلك يتبين بطلان من يقول: (نتعاونُ فيما اتفقنا عليه، ويَعذر بعضُنا بعضًا ما اختلفنا فيه)، إذا كان المقصود بذلك: العمل والتعاون والاجتماع والوحدة مع الفِرق التي ذكرناه آنفًا، ومع كلِّ مَنْ يختلف معنا، نحن أهلُ السُّنة والجماعة، فيما ذكرناه من خِلاف في أصول الدين، وثوابت الإسلام.

أمَّا إنْ كان المقصود: العمل والتعاون بين أهل السُّنة أنفسهم على اختلاف مذاهبهم الفقهية، أو مع الفِرق والجماعات التي لا تختلف مع أهل السُّنة في أصول الدين، كحفظ القرآن من الزيادة أو النقصان، ووجوب اتباع السنة النبوية، وفي مسائل العقيدة والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته كما جاءت في الكتاب والسنة الصحيحة، من غير الخوض فيها بنفيٍ، أو تعطيلٍ، أو تشبيهٍ، أو تأويلٍ، وإثباتِ عدالة الصحابة، والثوابت التي ذكرناه آنفًا، ولكنْ قد تختلف تلك الفِرَق والجماعات مع أهل السنة والجماعة في بعض الأمور الفرعية، كالفقهية وغيرها، أو حتى مع بعض مسائل العقيدة التفصيلية وبتأويلات معينة، كالمعتزلة، والأشاعرة،

والزيدية، على سبيل المثال لا التحديد، فإِنَّ تلك المقولة سائغة مع الحذر الشديد! ولكن، وحينئذٍ، ينبغي على أهل السنة والجماعة أنْ يثبتوا، وأنْ لا يساوموا على حساب عقيدتهم، وأنْ يبينوا خطأَ وزيغَ المخالفين والمنحرفين، لئلا يُفهم أنهم موافقون لمن يتعاونوا معهم، أو أنهم مداهنون لهم.

ومثال ذلك أيضًا، جواز العمل والتعاون مع بعض الجماعات الإسلامية، كجماعة التبليغ، على ما فيها من بعض البدع والتصوف. وكذلك مع جماعة الإخوان، مع الحذر لما عندهم من تساهل في أمور القبور ومحاربة البدع، والولاء للجماعة لا للإسلام، ومنازعة ولي الأمر، وجواز الخروج عليه، والتشهير به، لما هو دون الكفر من المعاصي والمخالفات والظلم الذي قد يصدر عنه، وغيرها[1].

(1) مآخذ على جماعة الإخوان

[إن المآخذ على جماعة الإخوان المسلمين لم تقتصر على المواقف السياسية. بل وجه لها النقد في بعض الجوانب العقائدية والمنهجية وأقوال الأتباع:

فمن الناحية العقائدية أُخِذ على البنا قوله في مجال تعداد صفات الحركة الشمولية (وحقيقة صوفية). والتصوف –كما هو معلوم– مخالف لمنهج أهل السنة. ولعل الشيخ رحمه الله قد تأثر بنشأته الأولى مع الطريقة الحصافية، أو أنه أراد (تقريب) أهل التصوف للجماعة. وهذا مسلك خاطئ؛ لأنه يستحيل جمع الحق بالباطل إلا بالتنازل والمداهنة.

كما أُخِذ على البنا موقفه التفويضي في مجال الأسماء والصفات، واعتبار البدعة الإضافية خلافًا فقهيًّا.

كما أن الجماعة لا تعنى كثيرًا بنشر عقيدة السلف والدعوة إلى التوحيد الخالص، والتحذير من البدع والشركيات المنتشرة؛ سواء في مصر منشأ الجماعة أو غيرها؛ مما جعلها تهتم (بالتجميع) على حساب التصفية، وبالكم لا الكيف.

وقد أُخِذ على بعض أتباع الحركة الغلو في إعجابهم بالشيخ حسن البنا. كما صدرت عن بعضهم (التلمساني وسعيد حوى) عدد من الأقوال التي لا يجيزها الإسلام.] اهـ. (موقع (صيد الفوائد) على شبكة الانترنت).

وفي سؤال موجه للشيخ ابن باز رحمه الله: الفرق بين دعوة الإخوان المسلمين وجماعة أنصار السنة، أجاب رحمه الله بما يلي:

[الإخوان المسلمون وأنصار السنة كلاهما من الدعاة إلى الله، وكلاهما نرجو لهما الخير، ولكن أنصار السنة فيما نعلم أنشط منهم في إيضاح التوحيد وبيان حقيقة الشرك، وأكثر منهم عناية بهذا الأمر، فكانوا معروفين في مصر وفي السودان بالعناية ببيان التوحيد والتحذير من الشرك والتعلق بالأموات والاستغاثة بأهل القبور.

وأما الإخوان المسلمون فليس لهم نشاط واضح في بيان التوحيد وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما دعوتهم عامة إلى الإسلام، وهذا لا يكفي، بل يجب على الإخوان المسلمين وعلى غيرهم من الدعاة أن يكون نشاطهم تفصيليًّا، وأن يعنوا بالعقيدة الصحيحة، وأن يوضحوها للناس حتى يخرج مدعي الإسلام من عقيدة الكفر إلى العقيدة الصحيحة، فإنه قد يدعي الإسلام وقد يتكلم به ويصلي مع الناس وهو مع ذلك يعبد الأموات ويستغيث بالبدوي أو بالحسين أو بالشيخ عبدالقادر أو بفلان وفلان، ويسأله المدد والغوث إذا مر بقبورهم، وهذا كفر أكبر نعوذ بالله من ذلك، وقد يكون عندهم طريقة من طرق الصوفية خبيثة، فالواجب البيان والإيضاح.

فأنصار السنة في هذا الباب أنشط وأكمل للدعوة وأقوى في هذا الأمر، والإخوان المسلمون يُمدحون على نشاطهم في الدعوة الإسلامية العامة، ويُرجى لهم المزيد من التوفيق، لكن يؤخذ عليهم فيما بلغني وفيما أعلم يؤخذ عليهم عدم العناية بالتفصيل فيما يتعلق بالعقيدة وفيما يتعلق بالبدع التي يتعاطاها بعض الناس.

فالواجب عليهم أن يغيروا من سيرتهم، وأن يجتهدوا في إيضاح العقيدة الصحيحة، وأن يدعوا إلى توحيد الله والإخلاص له، وينبهوا على دعوة الأموات والاستغاثة بهم وأنها شرك وكفر، وأن يوضحوا أيضًا الطرق الصوفية الخبيثة المنكرة التي في بلادهم، وأن الواجب على الناس جميعًا أن يتبعوا طريق النبي ﷺ ويسيروا على سيرته، وأن يحذروا الطرق الموجهة المخالفة لسيرته عليه الصلاة

والسلام، وإن فعلها من الأكابر، فإن العبرة بالحق لا بالناس، العبرة بالحق الذي جاء به المصطفى ﷺ ودرج عليه صحابته المرضيون، وإن كانوا ضعفاء وإن كانوا فقراء، ولا عبرة بمن خالف الحق وإن كانوا من الأكابر والرؤساء والعظماء والأغنياء، لا، لا ينبغي النظر إلى هذا، بل ينبغي النظر إلى العمل والحقيقة والعقيدة فيشجع أهل العقائد الصحيحة ويدعو لهم بالتوفيق، وينشطون على الثبات على ما هم عليه، ويدعو أهل العقائد المنحرفة وإن كانوا كبارًا لا يستحيي منهم ولا يداهنون، يدعون إلى الحق، ويوضح لهم ما هم فيه من الخطأ في العقيدة أو في الأخلاق أو في البدع التي يؤيدونها، هذا هو الواجب على أنصار السنة وعلى الإخوان المسلمين وعلى جميع الدعاة إلى الله جل وعلا الواجب عليهم أن ينصحوا لله ولعباده، وأن يوضحوا العقيدة الصحيحة، وأن يبينوا حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن ينبهوا على الشرك الذي أنكرته الرسل وحذروا منه، وأن لا يداهنوا الناس في هذا الأمر، وأن لا يكون همهم كثرة الناس، لا، المهم وجود الحقيقة ولو كانوا قليلين، المهم أن تكون الدعوة صافية نقية، وأن يكون أهلها مستقيمين على الحق ثابتين عليه ولو كانوا قليلين، فالقليل مع الصدق والإخلاص أنفع بكثير من الكثيرين مع الضعف والجهل وقلة البصيرة أو قلة الصدق والإخلاص ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم.] اهـ. (موقع (الإمام ابن باز) على شبكة الانترنت).

فصل:

الركن الخامس: عَدَمُ الاقْتِتَالِ بينَ المُسلمين

إذا كان الاختلافُ في الدين، بمثابةِ مَزَلَّةِ القدمِ على بداية طريقٍ ضَعف الأمة وتمزقها، والتفَرُّقُ وسَطُهُ، فإنَّ الاقتتالَ هو آخره! فإنَّ الأُمَّةَ إذا اقتتلتْ، ذَهبَ ريحُها، وطَمعَ فيها عدوُّها، ونالَ منها ما لم يكن يَتمنّاهُ ويَحلُم بِه.

القرآنُ الكريم

لقد أُصيبَ المسلمون، جرَّاءَ الاقتتال فيما بينهم، أكثرَ مما أصيبوا من أعدائهم من الكفار، ولهذا كان الخطبُ فيه أعظم. وليتَ شعري لو توقفَ الاختلاف عند التفرُّقِ، لكان الخطبُ أهون. ولكنْ هيهات! فما أَنْ يَحُلَّ التفرُّق في الأمة، حتى يقولَ الاقتتالُ: خذني معك! قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿253﴾﴾[1].

وذلك لأنَّ الأمة إذا تفرَّقت، كفَّرَ بعضُها بعضًا، واقتتلت فيما بينها، وسُفِكت الدماء، وانتُهِكت الحُرمات، وامتلأتِ الصُّدور بالأحقادِ والضغائنِ والثأرِ، وحلَّ الخرابُ والدمارُ ديارَها، وضَعُفَتْ شوكتها، وطَمع فيها عدوّها، فيَستبيحَ بيْضَتها، ويَملك زِمامَ أمْرِها، ويتسلَّطَ عليها.

الاقتتالُ بين المسلمين من أعظمِ ما أُصيبت به الأمةُ الإسلامية

لقد كان الاقتتال بين المسلمين من أعظم ما أُصيبت به الأمة الإسلامية عبر تأريخها، وما جرَّ عليها ذلك الاقتتال من ويلات ونكبات، مما أدى إلى تراجعها عن دورها ومهمتها التي أُنيطت بها لهداية وقيادة البشرية. وأدى ذلك إلى أنْ ذهبت ريحها، وتناقصت مساحتها، وضاعت أقطار كثيرة منها، وانكمشت الأمة الإسلامية على نفسها، وانزوتْ وتقوقعت، بعدما كان يَدين لها الشرق والغرب، وتهابُها ممالك الدنيا، وتحسبُ لها ألفَ حِساب.

---

(1) البقرة، الآية: ﴿253﴾.

وهذه الآفة التي أصيبت بها الأمة، أعني الاقتتال بين المسلمين، قد يكون في الدنيا أو الدين. أمَّا في الدنيا، أي من أجلها، وذلك بسبب أطماعٍ ومنافعٍ مادية، أو حقوقٍ مغتصبة، أو منصبٍ ورياسة، أو هيمنةٍ، أو ثارات وأحقاد وعصبية قبلية، وغيرها.

أما الاقتتال في الدين، أي بسبب الاختلاف في قبول النصوص وردها، أو في فهمها وتأويلها، وما ينتج عنه من تفَرّقٍ وتحزبٍ، فهذا القسم من الاقتتال أشد خطرًا، وأعظم فتكًا. وقد ينشأ بسبب اختلافٍ في أصول الدين، أو حتى في فروعه، فلا ينضبط ذلك الاختلاف حينئذٍ بالشرع. مما يؤدي بالتالي، إلى التفرُّق — كما مر بنا في الفصل السابق — ثم يتطور الأمر إلى الصراع والاقتتال، وسفك الدماء وانتهاك الحرمات، وتمزق الأمة وتشتتها أكثر مما هي عليه من التشرذم.

الاقتتالُ في الدين

على الرغم أنَّ الإسلام قد نهى المسلمين عمومًا عن الاقتتال فيما بينهم، أيًّا كان هذا النوع من الاقتتال، وحذَّرهم من السقوط فيه، لكنّه من الملاحظ أنَّ مُعظم نصوص النهي هذه، قد جاءت تُحَذِّرُ بصورة رئيسية من القسم الثاني من الاقتتال، أعني (الاقتتال في الدين). من أجل ذلك، سنركز جُلَّ حديثنا هنا على هذا القسم من الاقتتال بين المسلمين.

إنَّ الحقيقة التي لا مِراء فيها، هي أنَّ الاقتتال بسبب (الخلاف والتفرق في الدين) يمزق نسيج الأمة، ويُضعِف دينها، ويُظهِرهُ أيضًا - أي الدين - أمام أعداء الإسلام، وكأنَّهُ السبب في تفرق الأمة وتشرذمها، وتأخُّرها، وتراجع نهضتها. ويُظهِره كأنه المانعُ من تجمع أفرادها ووحدتهم، ووحدة بلادهم، وهذا أمرٌ خطير جدًّا، يضرُّ بالدين. ويؤدي بالتالي ذلك إلى نفور الكثير من الناس مِنَ الدين وأهله، وإلى انتشار الكُفر، والإلحاد، والمعاصي، والفجور. ثم تكون النتيجة الحتمية وهي، انحطاط الأمة، وابتعادها عن منهج الله وقيادة البشرية، فلا تَعُدْ خير أمة أخرجت للناس.

لقد بيَّن القرآن الكريم، أَنَّ الاختلاف[1] والتفرق، سيؤديان – لا مَحالة – بالأمة إلى الاقتتال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿253﴾﴾[2].

ذكر السعدي في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾: فكان موجب هذا الاختلاف: التفرُّق، والمعاداة، والمقاتلة.] اهـ[3].

وذكر الطبري أيضًا في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴿253﴾﴾، قال أبو جعفر: يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: وَلَكِنِ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ لَمَّا لَمْ يَشَأِ اللَّهُ مِنْهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنْ لَا يَقْتَتِلُوا، فَاقْتَتَلُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ بِتَحْرِيمِ الاقْتِتَالِ وَالِاخْتِلَافِ، وَبَعْدَ ثُبُوتِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ رُسُلِهِ وَوَحْيِ كِتَابِهِ، فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ بَعْضُهُمْ، وَآمَنَ بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنَّهُمْ أَتَوْا مَا أَتَوْا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى خَطَأٍ تَعَمُّدًا مِنْهُمْ لِلْكُفْرِ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِعِبَادِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾، قُولُ: وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْجِزَهُمْ بِعِصْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ فَلَا يَقْتَتِلُوا مَا اقْتَتَلُوا وَلَا اخْتَلَفُوا، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أَنْ يُوَفِّقَ هَذَا لِطَاعَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ فَيُؤْمِنَ بِهِ وَيُطِيعَهُ وَيَخْذُلَ هَذَا فَيَكْفُرَ بِهِ وَيَعْصِيَهُ.] اهـ[4].

الوعيد الشديد لمن يقتل مؤمنًا بغير حق، والخِلافُ في قبولِ توبته

وتوعَّدَ تعالى بأشد الوعيد لمن يقتل مؤمنًا متعمدًا بغير حق، وأخبر عن خمسِ عقوباتٍ مُغلَّظة وشديدة بحق القاتل، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴿93﴾﴾[5].

حتى أنَّ بعضًا من أهل العلم من الصحابة والسلف قد اختلفوا في قبول توبة القتل العمد. وننقل هنا ما ذكره البغوي في تفسيره الآية المذكورة، فقد أجاد وأوجز، فقال: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

---

(1) نقصد به: الاختلاف المذموم، كما بينا في فصل: ركن (النهي عن الاختلاف).

(2) البقرة، الآية: ﴿253﴾.

(3) تفسير السعدي، ص 109.

(4) تفسير الطبري، 523/4.

(5) النساء، الآية: ﴿93﴾.

مُتَعَمِّدًا﴾ الْآيَةَ، نَزَلَتْ فِي مِقْيَسِ بْنِ صُبَابَةَ الْكِنَانِيِّ، وَكَانَ قَدْ أَسْلَمَ هُوَ وَأَخُوهُ هِشَامٌ، فوجد أخاه هشام قَتِيلًا فِي بَنِي النَّجَّارِ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ رَجُلًا مِنْ بَنِي فِهْرٍ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ قَاتِلَ هِشَامِ بْنِ صُبَابَةَ أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَى مِقْيَسٍ فَيَقْتَصَّ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ دِيَتَهُ، فَأَبْلَغَهُمُ الْفِهْرِيُّ ذَلِكَ فَقَالُوا: سَمْعًا وَطَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ لَهُ قَاتِلًا وَلَكِنَّا نُؤَدِّي دِيَتَهُ، فَأَعْطَوْهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، ثُمَّ انْصَرَفَا رَاجِعَيْنِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَأَتَى الشَّيْطَانُ مِقْيَسًا فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَقْبَلُ دِيَةَ أَخِيكَ فَتَكُونُ عَلَيْكَ مَسَبَّةٌ، اقْتُلِ الَّذِي مَعَكَ فَتَكُونَ نَفْسٌ مَكَانَ نَفْسٍ وَفَضْلُ الدِّيَةِ؛ فَتَغَفَّلَ الْفِهْرِيَّ فَرَمَاهُ بِصَخْرَةٍ فَشَدَخَهُ، ثُمَّ رَكِبَ بَعِيرًا وَسَاقَ بَقِيَّتَهَا رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ كَافِرًا فَنَزَلَ فِيهِ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾. ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ بِكُفْرِهِ وَارْتِدَادِهِ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَثْنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، عَمَّنْ أَمَّنَهُ فَقُتِلَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أَيْ: طَرَدَهُ عَنِ الرَّحْمَةِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ.

فَحُكِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ قَاتِلَ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا لَا تَوْبَةَ لَهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، إِلَى أَنْ قَالَ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ (الْفُرْقَانِ 67 - 70)، فَقَالَ: كَانَتْ هَذِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَزَنَوْا فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَدْعُوا إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةٌ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾، فَهَذِهِ لِأُولَئِكَ.

وَأَمَّا الَّتِي فِي النِّسَاءِ فَالرَّجُلُ إِذَا عَرَفَ الْإِسْلَامَ وَشَرَائِعَهُ ثُمَّ قَتَلَ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: لَمَّا نَزَلَتِ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، عَجِبْنَا مِنْ لِينِهَا فَلَبِثْنَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ نَزَلَتِ الْغَلِيظَةُ بَعْدَ اللَّيِّنَةِ فَنَسَخَتِ اللَّيِّنَةُ، وَأَرَادَ بِالْغَلِيظَةِ هَذِهِ الْآيَةَ، وَبِاللَّيِّنَةِ آيَةَ الْفَرْقَانِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تِلْكَ آيَةٌ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدَنِيَّةٌ نَزَلَتْ وَلَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ قَاتِلَ الْمُسْلِمِ عَمْدًا تَوْبَتُهُ مَقْبُولَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (طه: 82)، وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: 48)، وَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَهُوَ تَشْدِيدٌ وَمُبَالَغَةٌ فِي

الزَّجْرِ عَنِ الْقَتْلِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ لَمْ يَقْتُلْ يُقَالُ لَهُ: لَا تَوْبَةَ لَك، وَإِنْ قَتَلَ ثُمَّ جَاءَ يُقَالُ: لَكَ تَوْبَةٌ. وَيُرْوَى مَثَلُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.] اهـ[1].

فكيف يكون الحال لِمنْ يقتل المسلمين بدافع التكفيرِ والتأويلِ الفاسد غير المنضبط! فيكون بذلك قد ارتكب جُرمين اثنين: تكفيرٌ، وإزهاقُ روحٍ مُسلمة.

السنة النبوية

وأما عن الأدلة في السُّنة، فقد نهى رسول الله ﷺ الأمة عن الاقتتال فيما بينها أيًّا كان السبب، وشبَّهَ المتقاتلين بالكفّار، ويكفي بذلك وعيد وتحذير. فعَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: ﴿اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.﴾[2]. قال في فتح الباري في شرح الحديث: [والمعنى: لا تفعلوا فعل الكفار، فتشبهوهم في حالة قتل بعضهم بعضًا.] اهـ[3].

والحديث المذكور جزء من خطبة حجة الوداع، وقد جاء بطرق أخرى – انظر الهامش – وسنكتفي برواية البخاري في صحيحه، فقد ورد فيها تفصيل كثير، حيث أخبر ﷺ المسلمين بحُرمة دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وحُرمة الاقتتال فيما بينهم، إلا ما دعت إليه الحاجة، كما سنبينه فيما بعد.

فقد أخرج البخاري في صحيحه، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا: مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ، ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحَجَّةِ، وَالمحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ ذَا الحَجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ – قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ – عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبْلِغِ

(1) تفسير البغوي، 587/1.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب المغازي، باب حجة الوداع، برقم 4143، وكتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ومن أحياها﴾ (المائدة: 32﴾، برقم 6472، وكتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: ﴿لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض﴾، برقم 6669. ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: ﴿لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض﴾، برقم 65.

(3) فتح الباري.

الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ – فَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ: صَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ.﴾[1].

وأَمَرَ ﷺ المسلمين بالطاعة، وعدم التفرُّق ومُفارقة الجماعة، ونهى عن العصبيَّة الجاهلية، والقتال الأعمى زمن الفتن، وأخبر ﷺ أنه بريء ممن يخرج على الأمة، ويقتل كل من هبَّ ودبَّ، ولا يرعى فيهم ذِمَّةً ولا عهدًا. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ.﴾[2].

التحذيرُ من حملِ السِّلاح على المسلمين أو حتى مُجرد الإشارة به

وأخبر ﷺ أنَّ مَن حَمل السلاح على المسلمين فليس منهم، وكفى بذلك وعيدًا، وكفى به تحذيرًا من النبي ﷺ عن حُرمة الاقتتال بين المسلمين. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا.﴾[3].

ونهى ﷺ حتى عن مجرد الإشارة بالسلاح على المسلم، فعَنْ هَمَّامٍ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي، لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ.﴾[4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الأضاحي، باب من قال الأضحى يوم النحر، برقم 5230، وباب قول النبي ﷺ: ﴿لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ﴾، برقم 6667، وباب من قال الأضحى يوم النحر، برقم 5254، وباب حجة الوداع، برقم 4144، وباب ما جاء في سبع أرضين، برقم 3025، وباب الخطبة أيام منى، برقم 1666، وباب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، برقم 104، وباب قول النبي ﷺ: ﴿رب مبلغ أوعى من سامع﴾ برقم 67). ومسلم في صحيحه في (كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، بَابُ تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ، برقم 1679).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَاب الْإِمَارَةِ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، برقم 1848.

(3) تقدم تخريجه.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: (من حمل علينا السلاح فليس منا)، برقم 6661. ومسلم في صحيحه في (كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، برقم 2617.

وأخبر ﷺ أنَّ من يفعل ذلك، فإنَّ الملائكةَ تلعَنَهُ، فعَنِ ابْنِ سِيرِينَ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: ﴿مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ.﴾[1].

وأخبر ﷺ، أنَّ المسلِمَيْنِ إذا تقاتلا، فكلاهما في النار. فعَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِذَا التَقَى المسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمقْتُولُ فِي النَّارِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ.﴾[2]

التحذير من الاقتتالِ بين المسلمين من أجلِ الدنيا

أما عن الاقتتالِ من أجل الدنيا، فقد حذَّرَ ﷺ أمته من التنافسِ والنزاعِ من أجلها، ومِنْ ثَمَّ الاقتتال فيما بينهم، إذا بُسِطَتْ عليهم الدنيا. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ، أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ، وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، كَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إِلَى البَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ العَلَاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَتْهُ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: ﴿أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ﴾، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ﴿فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ.﴾[3]. وعن شرح الحديث المذكور، جاء في فتح الباري ما نصه: [وفيه، أنَّ المنافسة في الدنيا قد تَجُرُّ إلى هلاكِ الدينِ، ووقع في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم مرفوعًا:

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، برقم 2616.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الإيمان، باب ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾، برقم 31.) ومسلم في صحيحه في (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، برقم 2888).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم 6061، وكتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، برقم 2988، وكتاب المغازي باب: شهود الملائكة بدرًا، برقم 3791.). ومسلم في صحيحه في (كتاب الزهد والرقائق، برقم 2961.).

﴿تَتَنافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدابَرُونَ، ثُمَّ تَتَباغَضُونَ﴾[1]، فيه إشارة إلى أنَّ كلَّ خِصلة من المذكورات مُسبّبة عن التي قبلها.] اهـ[2].

وينبغي أن ينتبه المسلمون إلى الأسباب التي تؤدي إلى الاقتتال فيما بينهم، فهي كما أشرنا ليست مقصورة بالخلاف والتفرُّق في الدين، بل أيضًا في أمور الدنيا. وهذا مما حصل، ولا يزال يحصل للمسلمين، وكما أخبر ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي ذكرناه العسقلاني في فتح الباري: ﴿تَتَنافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدابَرُونَ، ثُمَّ تَتَباغَضُونَ﴾، ومِنْ ثَمَّ يؤدي إلى الاقتتال، وإلى تفرُّق الأمة، مما ينعكس سلبًا على الإسلام والدعوة إلى الله تعالى. وبذلك يصبح المسلمون نموذجًا سيئًا ومشوهًا عن الإسلام أمامَ الأمم الأخرى. فليحذر المسلمون من الانجراف والسقوطِ في تلك الهاوية فيكونوا وبالًا على دينهم وأمتهم.

النهي عن الثأر من قريب القاتل

وعن الاقتتال من أجل الدنيا، ومنه أيضًا: الثأرُ، فقد أبطلَ الإسلامُ الثأرَ، وأخذِ أقارب القاتلِ بجنايته، وذلك بقتلِ أحدِ أقاربه، ولكنْ أوجبَ القَصاص من القاتل في القتل العَمْد، أو الدية، أو العَفو. عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَلَا يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ أَبِيهِ وَلَا بِجَرِيرَةِ أَخِيهِ.﴾[3].

وفي رواية، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.﴾[4].

فما أكثر ما نسمع من قتلٍ لأبرياء باسم الثأر، ليس لهم ذنبٌ إلَّا أنَّهم أقرباءُ للقاتل. وهذا من أعظم الظلم والذنوب، وقد حذَّر رسول الله ﷺ من ذلك، كما مر بنا: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ أَبِيهِ وَلَا بِجَرِيرَةِ أَخِيهِ.﴾، مما يؤدي إلى ثارات، وأحقاد، وسلسال من الدماء، لا تنتهي بسهولة، لِما تتوارثه الأجيال من ضغائن وصراعات، لا يليق بخير أمة أخرجت للناس.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد، برقم 2962، وتمام الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: ﴿إذا فُتِحَتْ علَيْكُم فارِسُ والرُّومُ، أيُّ قَوْمٍ أنتُمْ؟﴾، قالَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كما أمَرَنا اللَّهُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ﴿أوْ غيرَ ذلكَ، تَتَنافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدابَرُونَ، ثُمَّ تَتَباغَضُونَ، أوْ نَحْوَ ذلكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ في مَساكِينِ المهاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ علَى رِقابِ بَعْضٍ.﴾.

(2) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، 263/6.

(3) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، 6/283، رجاله رجال الصحيح. والنسائي برقم (4127) واللفظ له.

(4) تقدم تخريجه.

التحذير والوعيد في قتل المؤمن

لقد جاء في السُّنة أحاديثُ كثيرة جدًّا في تحريمِ القتل، والوعيد الشديد للقاتل، نذكر بعضًا من هنا:

عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ.﴾[1].

عن ابن عباس أنَّ رجلًا أتاهُ فقال: أرأيتَ رجلًا قتلَ رجلًا مُتعمدًا قال: جزاؤهُ جهنمُ خالدًا فيها، وغضِبَ اللهُ عليهِ، ولعنَه، وأعدَّ له عذابًا عظيمًا، قال: لقد أُنزلتْ في آخرِ ما نزل، ما نَسَخَها شيءٌ حتى قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ، وما نزل وحيٌ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ، قال: أرأيتَ إنْ تاب وآمنَ وعمل صالحًا ثم اهتدَى، قال: وأنَّى له بالتوبةِ وقد سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ﴿ثَكِلَتْهُ أمُّه، رجلٌ قتلَ رجلًا متعمدًا، يَجِيءُ يومَ القيامةِ، آخذًا قاتلَه بيمينِه أو بيسارِه، وآخذًا رأسَهُ بيمينِهِ أو شمالِهِ، تَشْخُبُ أوْداجُهُ دمًا في قبلِ العرشِ، يقولُ: يا ربِّ سَلْ عبدَكَ فيمَ قتَلَني.﴾[2].

وفي رواية أخرى عنِ ابنِ عباسٍ: أنَّهُ سألَهُ سائلٌ، فقال: يا أبا العباسِ، هل للقاتِلِ من توبةٍ؟ فقال ابنُ عباسٍ –كالمتعجِّبِ من شأنِه–: ماذا تقولُ؟ فأعادَ عليه مَسألَتَهُ، فقال لهُ: ماذا تَقولُ؟ مرتيْنِ أو ثلاثًا. ثمَّ قال ابنُ عباسٍ: أنَّى لهُ التوبةُ؟ سمِعتُ نبيَّكمْ ﷺ يقولُ: ﴿يأتِي المقتُولُ مُتعلِّقًا رأسُهُ بإحدَى يديْهِ، مُتلبَّبًا قاتِلَهُ بيدِهِ الأُخرَى، تَشخَبُ أوْداجُهُ دمًا، حتى يأتِيَ بهِ العرْشَ، فيَقولُ المقتولُ لِربِّ العالمينَ: هذا قَتَلَنِي، فيَقولُ اللهُ للقاتِلِ: تَعِسْتَ، ويُذْهبُ بهِ إلى النارِ.﴾[3].

وعَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يَزَالَ المؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ، ما لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا.﴾[4].

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا، صَالِحًا، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّح.﴾[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الديات، برقم 6471، واللفظ له، وكتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة برقم 6168. ومسلم في صحيحه في (كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة برقم 1678.).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، برقم 2142 واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه في (كتاب التفسير برقم 3023).

(3) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 2697.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الديات، برقم6469.

(5) أخرجه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم 7693. المعْنِق: طويل العنق، الذي له سوابق في الخير. بلَّحَ: أعيا وانقطع.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ على اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ.﴾[1].

وعن يزيد الرَّقاشي: حدثنا أبو الحكم البَجَليُّ، قال سمعت أبا سعيد الخُدْري وأبا هريرة يذكران، عن رسول الله ﷺ قال: ﴿لو أنَّ أَهلَ السَّماءِ وأَهلَ الأرضِ اشترَكوا في دمِ مؤمنٍ لأَكبَّهمُ اللَّهُ في النَّارِ.﴾[2].

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن ركن (النهي عن الاقتتال بينَ المسلمين)، وكيف حذَّر القرآن الكريم والسنة النبوية من سفك دماء المسلمين، واختلاف العلماء في صحة توبة القاتل وقبولها. فالاقتتال بين المسلمين أمر خطير، ينبغي للمسلمين أنْ يحذروا من الوقوع فيه، ولطالما جرَّ الويلاتِ والأحقادَ والضغائنَ والفِتنَ على الأمة الإسلامية أفرادًا أو جماعات. ولطالما اشغلَ الأمة عن مهمتها في الأرض، في إعلاء كلمة الله ودعوة الناس إلى الإسلام والتوحيد. إنَّ الاقتتال لا يبدأ إلا حين يتوقف العقل عن التفكير، والحكمة عن التدبير ومداراة الحال وتدارك الفتنة والاختلاف. ولا يبدأ الاقتتال إلَّا عندما يتوقف صوت الحق والحكمة، والموعظة الحسنة، وحين تعلو المصالح الفردية والعصبية الجاهلية على مصلحة الإسلام ودعوته. فالأمة مطلوبة بأنْ توجه قوتها وسهامها وثأرها إلى أعدائها وأعداء دينها، لا إلى إخوانها في العقيدة والدين. ومطلوب من الأمة أنْ تدَّخِر هذه الجهود وهذه القوة لنصرة دينها والدعوة إليه، وإلى أنْ يرى منها أعداءها، الرحمة والعفو والسماحة والمحبة والأخوة بين أفرادها، كي يدفعه إلى الدخول في دين الله أفواجًا، طائعين مستسلمين.

(1) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 5077.

وفي رواية: ﴿لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ على اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيرِ حَقٍ.﴾، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 5078.

وفي رواية: ﴿لا يَزَالُ العبدُ في فَسْحَةٍ من دِينِه ما لم يُصِبْ دَمًا حرامًا.﴾. صححه الألباني في صحيح الجامع برقم 7691.

(2) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1398.

فصل:

الركن السادس: الإِصْلاحُ بَيْنَ المُسلِمينَ

الإصلاحُ في الأرضِ عمومًا، يعني إعمارُها حقيقةً. ولا يكون الإعمارُ حقيقيًّا إلّا بطاعة الله ورسوله، وبإقامة دين الله وشرعه، مِن أجلِ إصلاح ما أفسدَ الشركُ والكفرُ في الأرض. ويكون الإصلاحُ في الأرض أيضًا بتطهيرها من الشرِّ، كالصراعات والنزاعات والأحقاد والضغائن التي تحدث بين المسلمين، وذلك من خلال حلِّ النِزاع والخِلاف بين المتخاصِمينَ من الأمة، أفرادًا كانوا أو جماعات. فالإصلاحُ كلُّ الإصلاح يكون في طاعة اللهِ وتوحيدِهِ وعبادتِهِ، وإقامة حدوده، وإصلاح ذات بيْنِ المسلمين. والإفساد كلُّ الإفساد، يكونُ في معصيتِهِ تعالى، وعدم إقامةِ شَرعِهِ وحدوه، وإفسادِ ذات بيْنِ المسلمين.

القرآن الكريم

لقد كانت مهمة الرسل – عليهم السلام – (الإصلاح في الأرض)، قال تعالى حاكيًا عن شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[1].

ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ﴾، يَقُولُ: مَا أُرِيدُ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِلَّا إِصْلَاحَكُمْ وَإِصْلَاحَ أَمْرِكُمْ ﴿مَا اسْتَطَعْتُ يَقُولُ: مَا قَدَرْتُ عَلَى إِصْلَاحِهِ لِئَلَّا يَنَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ عُقُوبَةً مُنَكِّلَةً، بِخِلَافِكُمْ أَمْرَهُ وَمَعْصِيَتِكُمْ رَسُولَهُ. ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ يَقُولُ: وَمَا إِصَابَتِي الْحَقَّ فِي مُحَاوَلَتِي إِصْلَاحَكُمْ وَإِصْلَاحَ أَمْرِكُمْ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُعِينُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ لَا يُعِنِّي عَلَيْهِ لَمْ أُصِبِ الْحَقَّ فِيهِ.] اهـ[2].

ولأهمية الإصلاح بين الناس، فقد أخبر تعالى أنَّ الأمرَ بالإصلاح، كانت وصية موسى لأخيه هارون – عليهما السلام – حين خلَّفه على بني إسرائيل، وذلك حينما ذهب موسى لميقات ربه، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدنا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ

(1) هود، الآية: ﴿88﴾.

(2) تفسير الطبري، 594/12.

ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿142﴾﴾[1]، وذلك من أجل المحافظة على الأمة ووحدتها واجتماعها، وأداء مهمة الخلافة في الأرض على أتم وجه.

وقد أثنى تعالى على المصلحين، وأخبر أنَّ من صفاتهم: التمسك بكتابه الكريم، وكذلك إقام الصلاة، التي هي من أهم أركان الدين، ووعدهم بعدم ضياع أجرهم وثوابهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿170﴾﴾[2].

وأخبر تعالى أنَّ من موانع نزول العذاب والعقاب وهلاك القرى، الإصلاحُ فيها، ووجود أناسٍ مصلحون فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿117﴾﴾[3].

وأما عن الإفساد في الأرض والمفسدين، فقد ذكر تعالى مثالًا عن قومِ ثمودَ ونُصْحِ صالحٍ –عليه السلام– وتحذيره لهم، قال تعالى: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿151﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿152﴾﴾[4].

وعن هؤلاء المفسدين من ثمود، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٍ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿48﴾﴾[5].

فهؤلاء المفسِدون لم يطيعوا رسول الله صالحًا – عليه السلام – ولم يلتزموا بأمر الله بعدم التعرُّضِ للناقة التي أرسلها تعالى آية لهم. وبالتالي، كان هؤلاء النفر المفسِدون والذين لا يُصلحون، كانوا السبب الرئيسي في نزول عذاب الله على قومهم، قوم ثمود، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿48﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿49﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿50﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا

(1) الأعراف، الآية: ﴿142﴾.

(2) الأعراف، الآية: ﴿170﴾.

(3) هود، الآية: ﴿117﴾. سيأتي تفصيل ذلك لاحقًا، في ركن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، حيث إنَّ (الإصلاحُ في الأرض) من أشكال (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، لأنَّ الإصلاح عكس الإفساد، أي: بالنهي عن ضده، وهو (الإفساد في الأرض).

(4) الشعراء، الآية: ﴿152﴾.

(5) النمل، الآية: ﴿48﴾.

دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴿51﴾فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿52﴾وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿53﴾﴾[1].

الإصلاح بين الناس

ومن المواضيع المهمة التي يتضمنها الإصلاح في الأرض: (الإصلاحُ بين الناس)، وهو موضوعنا الرئيسي هنا، في هذا الركن السادس من (أركان خير أمة أخرجت للناس).

ونقصد بالإصلاح بين الناس، أي (الإصلاحُ بين المسلمين) عند حصول الخصام، والتشاحن، والاختلاف، والتنازع، والعمل على فضِّ النزاعات والصراعات بينهم، أيًّا كان نوع هذا الخلاف والصراع، سواء كان في أمر الدينِ أو الدنيا.

ويتم الإصلاح بين المتخاصمين بالتوعية والإرشاد، والتذكير بمخافة الله تعالى وتقواه، وبتقريب وجهات النظر بين المختلفين، وإعادة الحقوق المسلوبة والمتنازع فيها، وتحذيرهم من الظلم وهضم حقوق الآخرين. وكذلك من خلال تذكيرهم برابطة الأخوة بينهم كمسلمين، وأنَّ عليهم الحفاظ على تماسك الأمة الإسلامية، وعدم التسبب في تمزيقها وتفريقها. وأنَّ على هؤلاء المتخاصمين الترفُّعَ والاستعلاءَ على هذه الخلافات الشخصية والجانبية، والاهتمام بمصالح الأمة العليا والتحديات التي تجابهها من قبل أعدائها المتربصين بها.

(الإصلاح بين المسلمين من آكد الواجبات، خصوصًا في هذا العصر الذي كثُر فيه الخلافات والنزاعات، والتفرُّق بين المسلمين)

فالإصلاح بين المسلمين وفضّ النزاع والخلاف بين أفراد الأمة الإسلامية ومكوناتها وجماعاتها، ركنٌ أساسيٌّ لقوة الأمة، واستقرارها وديمومتها. وهو، أعني (الإصلاح بين المسلمين)، من آكد الواجبات، خصوصًا في هذا العصر الذي كثُر فيه الخلافات والنزاعات، والتفرُّق بين المسلمين. إذْ لا يمكن أنْ ترى أمةً أو شعبًا، يستطيعُ العيشَ في سعادةٍ ورخاءٍ وتقدم وازدهار وتعاون، ما لم يكن الناس متصالحين فيما بينهم ومتفاهمين، ويسودُ الودُّ والصفاءُ والتقاربُ والتسامحُ، حياتَهم وشؤونَهم. ولهذا السبب، ينبغي على المسلمين المسارعة في

(1) النمل، الآيات: ﴿48 - 53﴾.

الإصلاح، خصوصًا إذا استفحلَ الخلاف والشقاق بين المسلمين. وأدى ذلك الخِلاف إلى صراعٍ واقتتالٍ بين المختلفين، واتَّسَعتْ رُقعتهُ، وتعدى حدودَ المدينةِ والبلد. وإذا استفحل الأمرُ، وأدى إلى نشوب صراعٍ واقتتالٍ على نطاقٍ واسع بين المسلمين، صارَ الإصلاح بين المسلمين المتخاصمين من أهم الفرائض، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿9﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾﴾[1].

من أجل ذلك، كان من الواجب على الأمة الإسلامية الإصلاحُ، والعملُ على إزالة أسباب الخلاف والشقاق بين المسلمين. كي تكون الأمة مثالًا، وقدوةً حسنةً للأمم الأخرى، وذلك من خلال تلاحم أفرادها، وتعاضدهم وتكاتفهم. ولكي ترى الأمم الأخرى عَظَمة وسموَّ الإسلام وتعاليمه، وعِظَم أثره على أتباعه المسلمين، وإلَّا كانوا، أعني المسلمين، فتنةً ووبالًا على الدين ورسالته، وصدًّا ومانعًا من الدخول فيه.

لقد أوْجبَ الحق سبحانه على الأمة الإسلامية العملَ دومًا على إصلاحِ ذاتِ بَيْنِها، ورغَّبَ فيه، وحثَّ عليه، كي لا يحدث النزاع والاقتتال بين أفراد الأمة، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿1﴾﴾[2].

ولقد ورد موضوع (الإصلاح بين المسلمين)، والحثُّ عليه في القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعًا، وأخبر تعالى عن أهميته لبناء الأمة الإسلامية ودوامها واستقرارها. وقد ذكر تعالى جوانب كثيرة ومتعددة في (إصلاح ذات البين) بين المسلمين، ابتداءً من الأسرة، والإصلاح بين الزوجين المتخاصمين، ومشاكل الطلاق والميراث، والمشاكل التي تحدث بين الأقارب بسبب الميراث أو الخلافات الشخصية. وكذلك ما يحدث بين المسلمين عمومًا، من قطيعة وهجر وإعراض وخصومات بسبب الاختلاف في وجهات النظر فيما بينهم. ووجوب حلِّ النزاعات بين المسلمين المتخاصمين في الحي الواحد، والمدينة، والبلد، والإصلاح فيما بينهم، وانتهاءً بالإصلاح بين شعوب المسلمين ودولهم.

(1) الحجرات، الآيتان: ﴿9، 10﴾.

(2) الأنفال، الآية: ﴿1﴾.

وفي المقابل، أخبر تعالى عن أثرِ وعواقبِ تهاون الأمة الإسلامية في إصلاح ذات بينها. وعن عدم الإسراع في تدارك الإصلاح، والتهاون في حلِّ الخلافات والشقاق بين المسلمين.

وهذا ما سنُبينه في الفقرات القادمة إنْ شاء الله، وبشيءٍ من التفصيل لتلك المواضيع التي تخصّ (الإصلاح بين المسلمين).

الإفساد عكس الإصلاح، من صفات المنافقين والطغاة الجبابرة

أخبر تعالى في كتابه الكريم، أنَّ من أبرز صفات المنافقين هو الإفساد في الأرض، وتخريبها بالكفر والمعاصي، والتفريق بين المسلمين بإثارة الفتن، والنَّعَرات، والعصبيّات فيما بينهم، الذي هو شأنُ المنافقين في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿11﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَأَهْلُ النِّفَاقِ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَعْصِيَتِهِمْ فِيهَا رَبَّهُمْ، وَرُكُوبِهِمْ فِيهَا مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ، وَتَضْيِيعِهِمْ فَرَائِضَهُ، وَشَكِّهِمْ فِي دِينِهِ الَّذِي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلٌ إِلَّا بِالتَّصْدِيقِ بِهِ وَالْإِيقَانِ بِحَقِيقَتِهِ، وَكَذِبِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَاهُمْ غَيْرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ، وَمُظَاهَرَتُهُمْ أَهْلَ التَّكْذِيبِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، إِذَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. فَذَلِكَ إِفْسَادُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ مُصْلِحُونَ فِيهَا.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَيْ: نُرِيدُ أَنْ نُدَارِيَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَنَصْطَلِحَ مَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جبير، عن ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا نُرِيدُ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ. يَقُولُ اللَّهُ: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ: أَلَا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ، وَلَكِنْ مِنْ جَهْلِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بِكَوْنِهِ فَسَادًا.] اهـ[2].

وعكسُ الإفساد في الأرض، الإصلاح فيها، وما يتضمنه من طاعة الله وإقامة شرعه، كما بينا آنفًا.

ومن أبرز أقسام الإصلاح في الأرض، الإصلاح بين الناس من أجل حفظ أرواحهم ودمائهم، وتأمين حياتهم، وعيشهم في أمان وسلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ

---

(1) البقرة، الآية: ﴿11﴾.

(2) تفسير ابن كثير، بإيجاز، 92/1.

أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿19﴾﴾[1].

من أجل ذلك أمر القرآن الكريم الأمة بإصلاح ذات البين فيما بين المسلمين، وذلك كي لا يعمل المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمغرِضون والمرجِفون وأعداء المسلمين من الكفار وغيرهم على بث الخلاف والشقاق والنزاع بين المسلمين. ومن الجدير بالذكر، أنَّ أعداء المسلمين من المنافقين والكفار وغيرهم، ليسوا وحدهم من يفرّق بين المسلمين ويثير الصراعات والشقاق والخلاف، إنما هناك عوامل أخرى لا تقل تأثيرًا وخطورة على صلاح ذات البين بين المسلمين، كالتنافس على الدنيا، والحسد، وحتى الاختلاف في الدين، مما يشعل العداوة والبغضاء بين المسلمين، ويؤجج للصراع والتنازع والتدابر بين أفراد الأمة الإسلامية.

من أجل ذلك كله، أمر تعالى المسلمين بالإصلاح فيما بينهم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿1﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾، أَي اتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ وَلَا تَظَالَمُوا وَلَا تَخَاصَمُوا وَلَا تَشَاجَرُوا فَمَا آتَاكُمُ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أَيْ فِي قَسْمِهِ بَيْنَكُمْ عَلَى ما أراده الله، فإنه إنما يقسمه كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَقَالَ ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا وَيُصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾ أَيْ لا تستبوا. ولنذكر هَاهُنَا حَدِيثًا أَوْرَدَهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْمُثَنَّى الْمَوْصِلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي مُسْنَدِهِ فَإِنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُجَاهِدُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا عَبَّادُ بْنُ شَيْبَةَ الْحَبَطِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَايَاهُ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بأبي أنت وأمي؟ فقال: ﴿رجلان من أمتي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أخي. فقال الله تعالى، أعطِ أخاك مظلمته، قَالَ: يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ قَالَ: رَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي﴾. قال: فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ، يَوْمٌ

(1) القصص، الآية: ﴿19﴾.

(2) الأنفال، الآية: ﴿1﴾.

يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى مَنْ يَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ: ارْفَعْ بصرك وانظر فِي الْجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ، لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا؟ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا؟ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا لِمَنْ أعطى ثمنه، قال رب ومن يملك ثمنه؟ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قَالَ: مَاذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: تَعْفُو عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ، فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ، فادخلا الْجَنَّةَ﴾. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ القيامة﴾.] اهـ[1].

وهكذا نلاحظ، أنَّ القرآن الكريم غالبًا ما يقْرِن بين تقوى الله والإصلاح، والسبب في ذلك يعود إلى أنَّهُ لا يُصلِحُ الَّا من خاف اللهَ واتقاه في السر والعلن، وأقام حدوده، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿35﴾﴾[2].

فالمسلمُ الذي آمن بالله واتقاه وخشيه، يحرص على الإصلاح، ونقصد هنا بإصلاحِ ما بينه وبين الناس، وما بين الناس أنفسهم، ويَبغض الفُرْقَة والخلاف والنزاع.

الإصلاح بين المسلمين يبدأ من إصلاحِ الأسْرة فيما بينها

ينبغي على المسلمين أنْ يعلموا أنَّ (إصلاح ذات البين) يبدأ من أصغر مكوِّنٍ ورابط في الأمة، وهي (الأسرة). ونعني بذلك، الإصلاح فيما بين أفراد (الأسرة الواحدة)، وإصلاح وتقوية روابط القربى والرحم فيما بينهم. كالإصلاح بين الزوجين المتخاصمَيْن، والإصلاح بين الإخوة والأقارب المتخاصمين. إذْ لا خيرَ في أمة، حيث أصغر نواة فيها –أي الأسرة– يعم فيها الشقاق والخلاف والحقد والبغضاء، وتكون متناحرة ومتصارعة ومتدابرة ومفككة.

ثم يتوسع نطاق (الإصلاح بين المسلمين)، فيشمل الإصلاح بين القبائل والجماعات والفرق المتخاصمة والمتناحرة، والجماعات المتفرقة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

(1) تفسير ابن كثير، 9/4.

(2) الأعراف، الآية: ﴿35﴾.

بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿9﴾إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿10﴾﴾[1].

وهكذا يتدرج نطاق (الإصلاح بين المسلمين)، حتى يصلَ إلى أقصاه وأعظمه، فيشمل نوعًا آخرًا لا يقل أهمية عن باقي أنواع ودرجات الإصلاح، ونعني بذلك، (الإصلاح بين شعوبِ ودولِ الأمة الإسلامية)، وذلك إذا ما نشب بينهم خلاف ونزاع، لا قدر الله.

ونعود إلى موضوع إصلاح الأسرة فنقول:

لقد أمر تعالى بالإصلاح بين الزوجين المتخاصمين لأنَّهما عِماد الأسرة التي هي نواة المجتمع والأمة، حيث أمر تعالى بالإصلاح بينهما حتى قبل حدوث الشقاق والخلاف، وبمجرد الظن وتوقع حصول ذلك الشقاق، وذلك لتلافي وقوع ما هو أكبر وأعظم، وتفاقم الخلاف بينهما، والذي قد يؤدي إلى الطلاق وتشتت الأسرة والأولاد. ولقد حثَّ تعالى المصلِحيْنَ (أي الحَكَمين من قِبَل الزوج والزوجة) على استحضار النية الصادقة في الإصلاح بين الزوجين، كي يبارك تعالى مساعيهم للإصلاح ويرزقهم التوفيق في ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴿35﴾﴾[2].

ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا﴾، إِنْ يُرِدَ الْحَكَمَانِ إِصْلَاحًا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، أَعْنِي بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ الْمَخُوفِ شِقَاقُ بَيْنِهِمَا، يَقُولُ: ﴿يُوَفِّقُ اللَّهُ﴾ بَيْنَ الْحَكَمَيْنِ، فَيَتَّفِقَا عَلَى الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ إِذَا صَدَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِيمَا أَفْضَى إِلَيْهِ مِنْ بَعْثٍ لِلنَّظَرِ فِي أَمْرِ الزَّوْجَيْنِ.]. اهـ[3].

وهكذا نرى كلَّ هذه المساعي من الشارعِ الحكيم من أجل دَرْءِ الشِقاق والنزاع بين الزوجين داخل الأسرة، وذلك كي تكون تلك الأسرة مستقرة، ولكي ينشأ الأولاد ويعيشون في بيئة صالحة وهادئة ومُصلِحة.

وعند وقوع الطلاق، ومن أجل إشاعة إصلاح ذات البين بين المسلمين، وكانت هناك رغبة لدى الزوج لإعادة مُطلقته، من أجل إعادة لُحمة الأسرة من جديد، وذلك بعودتها إلى بيت الزوجية، فقد وعد تعالى

(1) الحجرات، الآية: ﴿9، 10﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿35﴾.

(3) تفسير الطبري، 6/729.

بالتوفيق بينهما، ولكن بشرط وجود (نية الإصلاح)، ونية تسوية المشاكل وإنهائها، كي لا يستمر النزاع والخلاف بينهما إلى ما لا نهاية، بحيث يكون حالة مزمنة ومستعصية، وواقع حال. وإلَّا فما الفائدة من أسرة، يكون فيها الزوجان الوالدان، في بيت واحد، ولكنهما على خِلافٍ وصراعٍ دائم! وبينهما بون شاسع في المشاعر، وعدم قبول كل واحد منهما للآخر! إذْ كيف سيتربى الأولاد في هذا الجو المشحون وغير المستقر؟ وأنَّى لهم العيش بسلام وأمان في تلكم الأحوال من الشجار والتوتر والنفور والنشوز بين الزوجين! ولهذا، فقد اشترط تعالى — عند رغبة إعادة المطلقة – وجود نية الإصلاح، والتغيير، وإعادة بناء العلاقات والروابط بين الزوجين من جديد، وإعطاء كل ذي حق حقه، على أسس شرعية واجتماعية، تضمن سلامة وأمن واستقرار الأسرة، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿228﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾ أَيْ: وَزَوْجُهَا الَّذِي طَلَّقَهَا أَحَقُّ بِرَدَّتِهَا مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا، إِذَا كَانَ مُرَادُهُ بِرَدَّتِهَا الْإِصْلَاحَ وَالْخَيْرَ.]اهـ[2].

وعن الإصلاح في أسرة متعددة الزوجات، ومن أجل إصلاح ذات البين بين المسلمين، حيث يتأكد الإصلاح في هذه الحالة، وذلك لاحتمال نشوب المشاكل والخلافات، واستحالة العدلِ بين الزوجات. ففي هذا الحال، فقد أمَرَ تعالى الزوج أنْ لا ينحرف كثيرًا في إظهار مشاعره وتعامله مع زوجاته، فيميل كل الميلِ إلى زوجةٍ دون أخرى، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾[3].

وأوجب تعالى على الزوج الإصلاح بين زوجاته قدر المستطاع، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

وأوجب عليه العدلَ بينهم في النفقة والعشرة، وأنْ يُؤلّف بينهم قدر المستطاع، فلا تكون كل زوجة منفصلة ومنعزلة بأولادها[5]، وكأنَّها عائلة مستقلة وغريبة، لا علاقة لها بالأخرى، مما يؤثر ذلك سلبًا على

---

(1) البقرة، الآية: ﴿228﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 459/1.

(3) النساء، الآية: ﴿129﴾.

(4) النساء، الآية: ﴿129﴾.

(5) ليس مقصودنا من ذلك، المنع من أنْ تكون لكل زوجة بيتًا مستقلًا، إنْ كان للزوج القدرة المادية للقيام بذلك، ورأى فيه مصلحة راجحة.

الأولاد، فيتدابرون، ويتقاطعون. وبالتالي، ينشأ مجتمعٌ، الأُسر فيه متفككة ومتصارعة، وصلات القربى والرحم فيه مقطوعة وممزقة، مما يؤثر على نسيج الأمة، ووحدتها، واستقرارها، وتقدمها.

ولأهميةِ إصلاحِ ذات البين في الأمة، كان من ضمن دعوة المسلم ﷺ ربَّه، أنْ يُصلح الله ذريته، فيُصلح دينهم، ويُصلح ذات بينهم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿15﴾﴾[1].

الإصلاح بين المورّث وورثته

ومن أجل إصلاح ذات البين بين المسلمين، فقد أمر تعالى بالإصلاح بين المَوَرِّث والوَرثة، وبين الوَرثة أنفسهم، لئلا يقع الشِقاق والخِلاف بينهم بسب الطمع بالميراث، والمحاولة للاستحواذ عليه، وعدم قِسمته كما أمر تعالى. فقد يتفاقم الخلاف ويؤدي إلى التدابر والتقاطع والتناحر بين الأخوة والأقارب من الأسرة الواحدة، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿128﴾﴾[2].

جاء في جامع البيان للطبري في تفسير الآية المذكورة: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿182﴾﴾، اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَأْوِيلُهَا: فَمَنْ حَضَرَ مَرِيضًا وَهُوَ يُوصِي عِنْدَ إِشْرَافِهِ عَلَى الْمَوْتِ، فَخَافَ أَنْ يُخْطِئَ فِي وَصِيَّتِهِ فَيَفْعَلُ مَا لَيْسَ لَهُ أَوْ أَنْ يَعْمِدَ جَوْرًا فِيهَا فَيَأْمُرَ بِمَا لَيْسَ لَهُ الْأَمْرُ بِهِ، فَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ فَسَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَرَثَتِهِ بِأَنْ يَأْمُرَهُ بِالْعَدْلِ فِي وَصِيَّتِهِ، وَأَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ مَنْعِهِ مِمَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ وَأَبَاحَهُ لَهُ.] اهـ[3].

---

[1] الأحقاف، الآية: ﴿15﴾.

[2] البقرة، الآية: ﴿128﴾.

[3] تفسير الطبري، 3/142.

فليحذر المَوَرِّثون والوَرثة على حد سواء والمسلمون جميعًا من فتنة المال والميراث، وذلك كي لا يفسد دينهم ودنياهم بالظلم والتعدي، وسلبِ حقوق ذويهم وأقاربهم من الميراث، والذي أبى الله إلا أنْ يُقسِّمه بنفسه، فأنزل فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

من أجل ذلك، فقد فصَّل تعالى نصيبَ كلِّ وارثٍ في مالِ مُوَرِّثه، ثُمَّ عقَّب تعالى فسمَّى تلك الأنصبة: ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾، وتوعَّد من يتجاوزها ولا يؤديها إلى أصحابها، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿13﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿14﴾﴾[1].

وبالرغم من ذلك الوعيد، فما أكثر ما شاع اليوم في المجتمعات الإسلامية من إفسادٍ لذات البَين في الأسرة الواحدة، بين الأشقاء والشقيقات، وذلك بسبب الصراع على الميراث والاستئثار به، وهضم الحقوق، وسرقة نصيب الورثة، أو منعه وتأخير تسليمه إلى مستحقيه. وقد أدى ذلك الحال إلى امتلاء المحاكم، ودور القضاء بتلك الدعاوى والمظالم. وصار شائعًا أنْ ترى الشقيق يُقاضي شقيقَه وأقاربه. بل قد وصلَ الأمر إلى مُقاضاة الأبِ من قِبل أبنائه، ورفع دعاوى الحْجر عليه، من أجل الاستحواذ على ماله وإرثه في حياته وقبل موته.

ونتيجة لذلك، صِرنا نرى مجتمعًا مفككًا ومتصارعًا، لا قيمة فيه لقرابة، ولا لذي رحم، فلا رحمةَ ولا شفقةَ ولا عدلَ ولا إحسان.

فليحذر المسلمونَ من هذا الظلم الذي لا يترك الله منه شيئًا[2]، ولا بد من مجيء يومٍ يكون فيه القصاص، حيث لا مالٌ فيه ولا متاعٌ يُقتص منه، إنما يكون القصاص من الحسنات، فلا ينبغي أنْ يحدثَ هذا في مجتمعٍ إسلامي، وفي أُمَّة أراد الله لها أنْ تكون داعيةً وحاملةً لدينه إلى الناس، وأنْ تكون مثلًا أعلى في أداءِ الحقوق إلى أهلها، وفي صَلاحِ ذاتِ البيْن.

---

(1) النساء، الآيتان: ﴿13، 14﴾.

(2) ونقصد به هنا غصب حق الورثة ومنعه، ويشمل أيضًا الحقوق المالية الأخرى بين المسلمين من أموال وديون، وودائع، وأراضٍ، وغيرها.

نكث اليمين من أجل الإصلاح بين المسلمين

ولأهمية صلاحِ ذات البين، ومن أجلِ السعي في (الإصلاح بين المسلمين)، والحثِّ عليه، فقد نهى تعالى المسلمين أنْ تكون اليمينُ – على عَظمتها عنده تعالى – عارِضًا ومانعًا لهم من تحقيق ذلك الإصلاح. من أجل ذلك، فقد شرَّع تعالى للمسلمين الحنْث به، وقدَّم الإصلاحَ على الوفاءِ باليمين المنعقِدة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَـٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصۡلِحُوا۟ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿225﴾﴾[1].

فقد ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿224﴾﴾، يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يَقُولُهُ الْحَالِفُ مِنْكُمْ بِاللَّهِ إِذَا حَلَفَ، فَقَالَ: وَاللَّهُ لَا أَبَرُّ، وَلَا أَتَّقِي، وَلَا أُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قِيلِكُمْ وَأَيْمَانِكُمْ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا تَقْصِدُونَ وَتَبْتَغُونَ بِحَلِفِكُمْ ذَلِكَ الْخَيْرَ تُرِيدُونَ أَمْ غَيْرَهُ، لِأَنِّي عَلَّامُ الْغُيُوبِ وَمَا تُضْمِرُهُ الصُّدُورُ، لَا تَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ، وَلَا يَنْكَتِمُ عَنِّي أَمْرٌ عُلِنَ فَظَهَرَ أَوْ خَفِيَ فَبَطَنَ. وَهَذَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ تَهَدُّدٌ وَوَعِيدٌ. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَاتَّقَوْنِ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُظْهِرُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ مِنَ الْقَوْلِ، أَوْ بِأَبْدَانِكُمْ مِنَ الْفِعْلِ، مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، أَوْ تُضْمِرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَتَعْزِمُوا بِقُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ فِعْلَ مَا زَجَرْتُكُمْ عَنْهُ، فَتَسْتَحِقُّوا بِذَلِكَ مِنِّي الْعُقُوبَةَ الَّتِي قَدْ عَرَّفْتُكُمُوهَا، فَإِنِّي مُطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تُعْلِنُونَهُ أَوْ تُسِرُّونَهُ.] اهـ[2].

ويؤيد ذلك، ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنِّي وَاللَّهِ –إِنْ شَاءَ اللَّهُ– لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا.﴾[3].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ قَالَ: لَا تَجْعَلَنَّ اللهَ عُرْضَةً لِيَمِينِكَ أَلَّا تَصْنَعَ الْخَيْرَ، وَلَكِنْ كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَاصْنَعِ الْخَيْرَ[4].

(1) البقرة، الآية: ﴿225﴾.

(2) تفسير الطبري، 13/4.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، برقم 6340). ومسلم في صحيحه في (كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يمينًا، فرأى غيرها خيرًا منها، أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، برقم 1649).

(4) ذكره ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَـٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصۡلِحُوا۟ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿225﴾﴾. تفسير ابن كثير، 451/1.

الإصلاحُ شرطٌ لصحةِ وقَبولِ التوبة

وأخبر تعالى أنَّ من شروط صحة التوبة وقبولها عنده، (الإصلاح)، ويشمل ذلك، إصلاح النفس والحال بالطاعة، وقيام التائب بإصلاح ما أفسدَ ما بينه وبين الله. وكذلك أوجب تعالى على التائب القيامَ بإصلاح ما قام به من إفساد بين الناس فيما بينهم –إنْ كان قد فعل ذلك– كإثارة العداوات والشحناء والبغضاء وغيرها من أجل التفريق، وبث الشِقاق والنزاع بين المسلمين.

فعن المنافقين التائبين، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴿146﴾﴾[1].

فقد اشترط تعالى لقبول توبتهم: **(الإصلاح)**، و **(الاعتصام بالله)**، أي بدينه، لأنَّهم فارقوه بنفاقهم. واشترط تعالى عليهم أيضًا، الإخلاصِ في دين الله، أي إصلاح ما شابَ التوحيد من فسادٍ بسبب نفاقهم. ولهذا، كان لزامًا عليهم أنْ يجددوا إيمانهم ويستأنفوا العمل، ومن أهمه: الإصلاحُ فيما أفسدوا في الأرض من تخريب، وبث الفُرقة والخلاف والشقاق بين المسلمين.

وكذلك الحال مع العُصاة من المؤمنين إذا تابوا، فقد اشترط تعالى (الإصلاح) أيضًا، من أجل قبولِ توبتهم، وقد ذكر ذلك في مواضع كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿54﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[4].

وعن كيفية الإصلاح بعد التوبة من الذنوب، نضرب مثالًا عن التوبة من الذنب الذي فيه هضم وأكل حقوق الغير. فلا يكفي للتائب أنْ يُعيد الحق إلى صاحبه، وإنما يجب عليه إصلاحُ ما نتجَ عن ذلك

---

(1) النساء، الآية: ﴿146﴾.

(2) الأنعام، الآية: ﴿54﴾.

(3) النحل، الآية: ﴿119﴾.

(4) النور، الآية: ﴿5﴾.

الذنب من قطيعةٍ وهجرٍ وإعراضٍ. ونقصد بذلك، (إصلاحُ ذات البين) فيما بينه وبين من أكلَ حقهُ، وإعادةِ روابطَ الأخوةِ والمحبةِ وصِلة الرحمِ، إنْ كان من ذوي الأرحام، وغيرها من أشكالِ (إصلاح ذات البين) والعلاقات الاجتماعية.

ومثالًا آخرًا عن الإصلاح بعد التوبة من النميمة، فيجب إصلاحُ ما أحدَثه النمَّامُ التائبُ فيما بين الناس من نزاعٍ، وخِلافٍ، ومشاكلَ، فينبغي إصلاحه وتداركه، ولا يكفي فقط الاستغفار والندم والعزيمة على عدم فعل المعصية. وهذا مبسوطٌ في كتب الفقه والسلوك في شروط صحة التوبة من الذنوب بنوعيها، نعني ما بين العبد وربه، وما بين العباد فيما بينهم.

الإصلاحُ بين الناس من أعظم أعمال الخير

ولبيان أهمية الإصلاح بين المسلمين بكل أنواعه وجوانبه، وعِظَمِ ثوابه عند الله، فقد أخبر سبحانه أنْ لا خيرَ في كلام الناس وحديثهم فيما بينهم، إلَّا في ثلاثةِ أعمالٍ فاضلةٍ، ذكرها تعالى في كتابه الكريم، من بينها: (الإصلاحُ بين الناس)، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ الناس وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿114﴾﴾[1].

والإصلاح المذكور في الآية عامٌّ، يشمل كل ما يقعُ فيه الاختلاف والنزاع بين المسلمين، كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره الآية المذكورة بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عَامٌّ فِي الدماء والأموال والأعراض، وفي كل شيء يَقَعُ التَّدَاعِي وَالِاخْتِلَافُ فِيهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي كُلِّ كَلَامٍ يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى.] اهـ[2].

وذكر ذلك أيضًا الطبري في تفسيره الآية ما نصه: [يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾، لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَى النَّاسِ جَمِيعًا، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، و ﴿الْمَعْرُوفُ﴾: هُوَ كُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَوْ نَدَبَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: هُوَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ الْمُتَبَايِنَيْنِ أَوِ الْمُخْتَصِمَيْنِ بِمَا أَبَاحَ اللَّهُ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا لِيَتَرَاجَعَا إِلَى مَا فِيهِ الْأُلْفَةُ، وَاجْتِمَاعُ الْكَلِمَةِ عَلَى مَا أَذِنَ اللَّهُ وَأَمَرَ بِهِ.] اهـ[3].

---

(1) النساء، الآية: ﴿114﴾.

(2) تفسير القرطبي، 384/5.

(3)تفسير الطبري، 471/7.

وعن أهمية الإصلاح بين المسلمين وثوابه عند الله، أخبر تعالى أنَّ عفوَ المظلوم والمعتدى عليه عمَّن ظلمه، أعظمُ أجرًا –عنده تعالى– وأنفعُ للأمة، لأنَّه يؤدي إلى إصلاح الأمة، واجتماع كلمتها، وإزالة الأحقاد والضغائن من الصدور، وبثِّ روحِ العفو والتسامح والمغفرة بين المسلمين، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. فقد ذكر القرطبي في تفسيره للآية أنَّ العفو عن الظالم هو إصلاحٌ للعلاقة ما بين المظلوم الظالم، ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ تَرَكَ الْقِصَاصَ وَأَصْلَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ بِالْعَفْوِ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيْ إِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُهُ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ مُقَاتِلٌ: فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.] اهـ[2].

الأمرُ بالإصلاح بين المسلمين المتقاتلين وفرضُه بالقوة

وعند حدوث النزاع والاقتتال بين المسلمين، فإنَّ الأمرَ بـ (إصلاحِ ذات البين) يتأكّد، وذلك لإيقاف الاقتتال فورًا، وحقْن الدماء، وحلِّ الخلاف، ورد الحقوق المغتصبة، وإشاعة روح الجماعة والوحدة بين الأمة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿9﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾﴾[3]. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله:

[يقول تعالى آمرًا بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الاقْتِتَالِ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْخَوَارِجُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ.] اهـ[4].

(وجوبُ قتالِ المسلم المُمتنعُ عن قبولِ الصُّلح، لأنَّ الله اعتبر الإصلاحَ أمرًا منه تعالى)

(1) الشورى، الآية: ﴿40﴾.

(2) تفسير القرطبي، 40/16.

(3) الحجرات، الآيتان: ﴿9، 10﴾.

(4) تفسير القرآن العظيم، 349/7.

فإذا تعذَّر الإصلاح، وذلك أَنَّ إحدى الطائفتين المتقاتلين أَبَتْ ورفضت قبول الصلح، وأصرَّت على عنادها، ولم تنصع إلى النصح ووأد الفتنة، ولم تقبل التسوية، ورفضت وقف القتال، فقد أمر الحق سبحانه الأمة أنْ تُقاتلَ تلك الطائفةُ الرافضةُ للإصلاحِ وإيقاف القتال. وقد أطلق تعالى على تلك الطائفة الممتنعة: صفة البغي، وهو التجاوز والطغيان، قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى﴾.

وبالتالي، صار لزامًا على الأمة أنْ تفرضَ (الإصلاحَ) بالقوة على الفئةِ الباغيةِ، لأنها لم تَفِئْ إلى أمرِ اللهِ تعالى، وهو الصُّلح[1]، والاعتصام بحبلِ اللهِ المتين، وذلك من أجل المحافظة على الجماعة، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

ومن الملاحظ هنا، وبالرغمِ من تحريمِ قتالِ المسلمِ، وهو الأصلُ في الدين، فقد أَوجبَ تعالى قِتاله في تلك الحالة، وذلك لأَنَّ مصلحةَ اجتماعِ المسلمينَ ووحدَتهم، وعدَم تفَرُّقِهم، أعظم من قتالِ الباغي المسلم، وإِنْ أدى إلى إهراقِ دمه - إذا دعت الحاجة - وذلك بسبب بغيِهِ، وعدمِ قبوله الإصلاحَ والفيءَ إلى أمرِ الله تعالى، وذلك للحفاظِ على جماعة المسلمين من البغي والتمزق والفوضى.

قتالُ الطائفةِ الباغية، قتالُ إصلاحٍ لا اِستئصال

ومن الجدير بالذكر أَنْ نُبيِّن هنا أمرًا مهمًّا عن نوعِ هذا القتال، وهو أنَّ قتالَ الطائفة الباغية، قتالُ إصلاحٍ لا اِستئصالٍ، كما هو الحال مع قتال الكافر الذي يحارب الله ورسوله، ولا يدينُ بدينِ الله تعالى. فالغاية من قتال الباغي المسلم: لإصلاحه، وإعادتهِ إلى جماعةِ المسلمين، وردعهِ عن بغيهِ وعُدوانه، وليس لاستئصاله، إلّا إذا امتنع وأصرَّ على القتال، وذلك للأسباب الاتية:

أولًا: أَنَّ الله تعالى قد وصفَ كِلتا الطائفتينِ بالإيمان، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾، وكما مر معنا قبل قليل، بالرغم من معصيتهما بالاقتتال فيما بينهما، فأبقى تعالى لهما عقدَ الإيمان.

ثانيًا: لم يَنْفِ القرآن الكريم صفة الإيمانِ عن الطائفة الباغية، حتى بعد أمرِ الله تعالى للأمة بقتالها بسبب بَغْيِها، وعدمِ قبولها للإصلاح. فبالرغم مِن أنَّ معصيةِ الطائفة الباغية قد ازدادت برفضها الصُّلح والإصرار على القتال، فلا يزال عَقدُ الإيمان لها محفوظًا. فليحذرِ المسلمُ مِن التساهلِ والانزلاقِ والتسرُّعِ في التكفير.

(1) من الملاحظ هنا أنَّ القرآن الكريم سمَّى (الإصلاحَ بين الطائفتين المتقاتلتين)، (أمرَ الله). حيث يُفهم من ذلك، أنَّ قبولَ الصلحِ واجبٌ على المتقاتلين، وأنَّه أمرٌ من الله يجبُ تنفيذه.

ثالثًا: أمْرُهُ سبحانه للأمة بالإصلاحِ بينهما بعد انتهاء القتالِ وإجبار الطائفة الباغية على قبول الصُّلح، قال تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿9﴾﴾.

فهذه محاولة ثانية من قِبلِ الأمة للإصلاحِ بينهما بالعدل والمساواة في التعامل، وتتجنب التوبيخ والتقريع، خصوصًا مع الفئة الباغية التي فاءتْ للصُلح، وإنْ كان ذلك قد تمَّ بقوة السلاح، لأنَّ الفئة الباغية قد تكون خسِرت من الأرواحِ والمالِ والسلاحِ، السُّمعة والجاه، وغيره. من أجل ذلك، كان واجبًا على الأمة، أنْ تنصحها، وتُطيّب خاطِرها، وأنْ تعدِل ولا تميلَ كلَّ الميلِ إلى الفئةِ الأخرى، التي فاءتْ ولم تبغِ.

رابعًا: الأصلُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

بعد ذلك، أخبر القرآن الكريم الأمة، وذكَّرها بأَنَّ الأصلَ بين المؤمنين (الأخوةُ في الدين). فقد يحدث بين الإخوة نزاع وخلاف، كما هو الحال بين الإخوة في النسب، ومع ذلك لا تنتهي الأخوَّة بينهم وتتلاشى. فينبغي الحرصُ على الإصلاحِ فيما بينهم، والاستمرار في بذل الجهد فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾﴾.

فمن أجل ما ذكرناه من أسباب، كانت أحكام قِتالِ المسلمِ الباغي تختلف كثيرًا عن قِتال الكافر، ومنها: أنَّه لا يُسْلَبْ مالُهُ، ولا يُتبع إذا هرب، ولا تُسبى زوجته، إلى آخره من الأحكام[1].

السنة النبوية

أما الأدلة من السنة النبوية على أهمية ركن (الإصلاح بين المسلمين)، فقد ورد في ذلك الكثيرُ من الأحاديث في وجوب (إصلاح ذات البين) بين المسلمين، والمحافظة على صِلات الرحم والقرابة والأخوة بين المسلمين. وفي المقابل، فقد حذَّرت السنة النبوية من الخلاف والشقاق بين المسلمين، ومن تفكك أواصر القرابة والأخوة من النسب والدين بين أفراد الأمة الإسلامية، ومن فساد ذات البين المسلمين عمومًا، وكما سنستعرض في الفقرات التالية.

(1) انظر: الشافعي، كتاب الأم، (كتاب قتال أهل البغي وأهل الردة)، والمغني لابن قدامة، (كِتَاب قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ)، والأحكام السلطانية للماوردي، باب: (قتال أهل البغي)، وغيرها.

فساد ذات البَيْن وعدم الإصلاح بين المسلمين يَحْلق الدين

لقد حث رسول الله ﷺ وشجَّع على الإصلاح فيما بين أفراد الأمة الإسلامية، كالإصلاح بين الزوجين المتخاصمين، وبين الإخوة والأقارب والاصدقاء، وأهل المسجد الواحد، وغير ذلك، وإشاعة روح التسامح والعفو، وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين من المسلمين على مستوى البيت الواحد، والأقارب، والقبيلة، والمسجد، والمدينة، والدولة، وما بين بلدان المسلمين عمومًا.

فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ: الْحَالِقَةُ.﴾[1].

جاء في تفسير الحديث: [وَفِي الْحَدِيثِ حَثٌّ وَتَرْغِيبٌ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَاجْتِنَابٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِيهَا لِأَنَّ الْإِصْلَاحَ سَبَبٌ لِلِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ ثُلْمَةٌ فِي الدِّينِ، فَمَنْ تَعَاطَى إِصْلَاحَهَا وَرَفَعَ فَسَادَهَا نَالَ دَرَجَةً فَوْقَ مَا يَنَالُهُ الصَّائِمُ الْقَائِمُ الْمُشْتَغِلُ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِهِ، قَالَ الْمُنْذِرِيُّ وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: صَحِيحٌ، وَقَالَ أَيْضًا وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ.﴾] اهـ[2].

وفي رواية أخرى، عَنْ يَعِيشَ بْنِ الوَلِيدِ، أَنَّ مَوْلًى لِلزُّبَيْرِ، حَدَّثَهُ أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ، حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ.﴾، هَذَا حَدِيثٌ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي رِوَايَتِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ. فَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ يَعِيشَ بْنِ الوَلِيدِ، عَنْ مَوْلَى الزُّبَيْرِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ عَنِ الزُّبَيْرِ.﴾[3].

(1) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين برقم 4919. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. أبو معاوية: هو محمَّد بن خازم، والأعمش: هو سليمان بن مهران، وسالم: هو ابن أبي الجعد. وأخرجه الترمذي (2677) عن هناد، عن أبي معاوية، بهذا الإسناد. وقال بإثر حديثه: هذا حديث صحيح، ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿هي الحالقةُ، لا أقولُ تحلق الشَّعرَ، ولكن تحلق الدين﴾. وهو في مسند أحمد (27508)، وصحيح ابن حبان (5092). وانظر تمام تخريجه في المسند.

(2) عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم أبادي، 178/13.

(3) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم 2510، وحسنه الألباني. سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر وفؤاد عبد الباقي.

إصلاح ذات البَيْن بين المسلمين أفضلُ أنواعِ الصدقةِ وأفضلُ الأعمالِ

لقد عدَّ رسول الله ﷺ (الإصلاح بين المسلمين) بابًا من أبواب الصدقة، بل وأخبر ﷺ أنّه مِن أفضلِ الصدقة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: ﴿أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ.﴾[1].

وأخبر ﷺ أنَّ الله تعالى يُحب تلك الصدقة –أي الإصلاح بين الناس– عن أبي أيوب، قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿يا أبا أيُّوبَ! ألا أدلُّك على صدقةٍ يحبُّها اللهُ ورسولُه؟ تصلِحُ بين النَّاسِ إذا تباغَضوا وتفاسَدوا.﴾[2]، بلْ وعدّهُ –أي (الإصلاح)– من أفضلِ الأعمال، وقرنه ﷺ مع الصلاة، فعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿ما عمِلَ ابنُ آدمَ شيئًا أفضلَ من الصلاةِ، وصلاحِ ذاتِ البَيْنِ، وخُلُقٍ حَسَنٍ.﴾[3].

الإصلاحُ بين المسلمين تجارة

واعتبر ﷺ أنَّ الإصلاح بين الناس، إنَّما هو بمثابة تجارةٍ يجني المسلم المصلِح منها الأجر العظيم، فعن أنس بن مالك أنَّ النبي ﷺ قال لأبي أيوب: ﴿ألا أدُلُّك على تجارةٍ؟ قال: بلى، قال: صِلْ بين الناسِ إذا تفاسدوا، وقرِّبْ بينهم إذا تباعَدوا.﴾[4].

وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ أصلح بين بني عمرو من أهلِ قُباء حين اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ.﴾[5].

---

(1) أخرجه الألباني في صحيح الترغيب في كتاب الأدب وغيره، الترغيب في الإصلاح بين الناس، برقم 2817، قال الألباني: صحيح لغيره.

(2) أخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب في كتاب الأدب وغيره، الترهيب من أن يعتذر إلى المرء أخوه فلا يقبل عذره، برقم 2820. وقال: حسن لغيره، له خمسة، طرق أحدها مرسل صحيح، خرجتها في (الصحيحة) (2644).

(3) صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: 5645، وفي السلسلة الصحيحة برقم 1448.

(4) أخرجه الألباني في صحيح الترغيب، برقم: (2818)، وقال: حسن لغيره.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الصلح، بَاب: قَوْلِ الْإِمَامِ لِأَصْحَابِهِ: اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ، برقم 2547. ومسلم في صحيحه في (كتاب الصلاة، بَاب: تَقْدِيمِ الْجَمَاعَةِ مَنْ يُصَلِّي بِهِمْ إِذَا تَأَخَّرَ الْإِمَامُ وَلَمْ يَخَافُوا مفسدةً بالتقديم، برقم 421).

جواز الكذب من أجل (الإصلاح بين المسلمين)

من المعلوم حُرمة الكذب وعِظم جُرمه في الدين، وأنَّهُ من صفاتِ الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا بآياته، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِم اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿104﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُم الْكَاذِبُونَ ﴿105﴾﴾[1].

فعلى الرغم من ذلك، ولبيان أهمية (الإصلاح بين المسلمين)، فقد رخَّصَ رسول الله ﷺ في الكذب، في ثلاث حالاتٍ فقط، إحداها: الإصلاح بين الفُرقاء المتخاصمين، وذلك لأهمية اجتماع المسلمين ووحدتهم، وعدم تفرقهم بسبب العداوة والبغضاء والشحناء بينهم، وتأليفًا لقلوبهم. فعن حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ أُمَّهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ، اللَّاتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ ﷺ، أَخْبَرَتْهُ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا.﴾، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.﴾[2].

وفي رواية أخرى، عن أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا.﴾[3].

(الإصلاح بين المسلمين) بابٌ عظيمٌ لدفع أعدى أعداء المسلمين

إنَّ (الإصلاح بين المسلمين) بابٌ عظيمٌ لجمع المسلمين، ولإزالة الأحقاد والضغائن من صدورهم، وإنهاء الخصومات، والخلاف، والنزاع فيما بينهم. فهو باب عظيم من أجل دفع أعدى أعداء المسلمين، وذلك لأنَّ المسلمين أمام عدوين لدودين:

العدو الأول:

وهو العدو الداخلي، أعني (الشيطان)، وما يوسوس به في صدور المسلمين وقلوبهم، والذي لا يفتأ يوقع العداوة والبغضاء، والشحناء بين المسلمين وذلك بالتحريش بينهم، كما حذرنا تعالى منه، قال تعالى:

---

(1) النحل، الآيتان: ﴿104، 105﴾.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب، وبيان المباح منه، برقم 2605.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، برقم: 2546.

فصل:

الركن السادس: الإِصْلاحُ بَيْنَ المسلِمينَ

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿53﴾﴾[1].

وكما حذَّر تعالى المسلمين من النجوى، وما يُدخِله الشيطان في قلوب المسلمين وعقولهم من الظنون السيئة والضغائن والأحقاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿9﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿10﴾﴾[2].

وكما أخبر ﷺ الأمة وحذرها من كيد الشطان ومكره بالمسلمين، فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ قدْ أيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المصَلُّونَ في جَزيرَةِ العَرَبِ، ولَكِنْ في التَّحْرِيشِ بيْنَهُمْ.﴾[3].

جاء في شرح الحديث: [في هذا الحديثِ، بيانُ أنَّ الشَّيطانَ قد أَيِسَ أنْ يَعبُدَه المصلُّونَ في جَزيرةِ العَرَبِ؛ فإنَّه لا يَجتمِعُ في العَبدِ الصَّلاةُ وعِبادةُ الشَّيطانِ، وقَد يَئِسَ الشَّيطانُ مِن أَهلِ الإيمانِ أن يَعبُدوه لَمَّا رَأى كَثرَتَهم وَانتشارَهُم في البِلادِ فأَيِسَ أنْ يَنْتَكِسَ الأَمْرُ ويَعودَ كَما كان النَّاسُ مِنْ قَبلُ لِعِبادةِ الأَصنامِ ويُستَبدَلُ

---

(1) الإسراء، الآية: ﴿53﴾.

(2) المجادلة، الآيتان: ﴿9، 10﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره لتلك الآيتين بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أَيْ: يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ، وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَالْعُدْوَانُ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ، يُصِرون عَلَيْهَا وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا.] اهـ. تفسير ابن كثير، 74/4.

(3) رواه مسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأنَّ مع كل إنسان قرينًا، برقم: (2812). وروي الحديث بطرق أخرى منها: وفي رواية: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الشيطانَ قد أَيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المِصَلُّونَ، ولكنْ في التَّحْرِيشِ بينَهُمْ.﴾. أخرجه الألباني في صحيح الجامع، برقم: 1651، وحسنه. وفي رواية عن عمرو بن الأحوص: ﴿يا أَيُّها الناسُ! أَيُّ يومٍ أَحْرَمُ؟ أَيُّ يومٍ أَحْرَمُ؟ أَيُّ يومٍ أَحْرَمُ؟ قالوا: يومُ الحجِّ الأكبرِ، قال: فإن دماءَكم، وأموالَكم، وأعراضَكم عليكم حرامٌ، كحُرْمَةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، في شهرِكم هذا، ألَا لا يَجْني جانٍ إلا على نفسِه، ألَا ولا يَجْني والدٌ على ولدِه، ولا وَلَدٌ على والدِه، ألَا إنَّ الشيطانَ قد أَيِسَ أن يُعْبَدَ في بلدِكم هذا أبدًا، ولكن ستكونُ له طاعةٌ في بعضِ ما تَحْتَقِرون من أعمالِكم، فيَرْضَى بها، ألَا إنَّ المسلمَ أَخُو المسلمِ، فليس يَحِلُّ لمسلمٍ من أَخِيهِ شيءٌ إلا ما أَحَلَّ من نفسِه، ألَا وإنَّ كلَّ رِبًا في الجاهليةِ موضوعٌ، لكم رؤوسُ أموالِكم لا تَظْلِمونَ ولا تُظْلَمُونَ، غيرَ رِبَا العباسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ؛ فإنه موضوعٌ كُلُّه، وإنَّ كلَّ دمٍ كان في الجاهليةِ موضوعٌ، وأولُ دَمٍ أَضَعُ من دمِ الجاهليةِ دمُ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ، ألَا واستَوْصُوا بالنساءِ خيرًا، فإنما هُن عَوَانٌ عندكم، ليس تملكونَ منهن شيئًا غيرَ ذلك، إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَّةٍ مُبَيِّنَةٍ، فإن فَعَلْنَ فاهجُروهن في المضاجِعِ، واضرِبوهن ضَرْبًا غيرَ مُبَرِّحٍ، فإن أَطَعْنَكم، فلا تَبْغُوا عليهِن سبيلًا، ألَا وإنَّ لكم على نسائِكم حقًّا، ولنسائِكم عليكم حقًّا، فأمَّا حقُّكم على نسائِكم؛ فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَن تَكْرَهون، ولا يَأْذَنَّ في بيوتِكم لِمَن تَكْرَهون، ألَا وإنَّ حَقَّهُنَّ عليكم أن تُحْسِنوا إليهِنَّ في كِسْوَتِهِنَّ وطعامِهِنَّ.﴾. أخرجه الألباني في صحيح الجامع، برقم: 7880، وحَسَّنَهُ.

دِينُ الإسلامِ ويُهدَمُ منَ الأَساسِ، ويَستَمِرُّ الشِّركُ ويَظهَرُ، ولكِنْ في التَّحريشِ بَينَهم، أي: إنَّه لم يَيْأسْ منَ التَّحريشِ بَينهم، والمعنى أنَّه يُوقعُ بَينهُمُ الخُصوماتِ والشَّحناءَ، والحُروبَ والفِتَنَ ونَحوَها.] اهـ[1].

أمَّا العدو الثاني:

وهو العدو الخارجي، أعني (الكفار)، وبِكلِّ أشكالهم، ومِللهم، ونِحلهم، الذين يحاربون المسلمين ليلَ نهار، من أهل الكتاب: كاليهود والنصارى، وغيرهم من الكفار، كالبوذيين والهندوس، والوثنيين والملحدين، وغيرهم. فهؤلاء الأعداء لا ينالون من المسلمين في دينهم كما ينالون من إثارة العداوة، والبغضاء، والأحقاد، والخصومات فيما بينهم. تمامًا، كما كان يفعل اليهود مع المسلمين في المدينة على عهد النبي ﷺ. فعن زيد بن أسلم، قال: مرَّ شَاسُ بنُ قيسٍ، وكانَ شيخًا قد عسَا في الجاهليةِ، عظيمَ الكفرِ، شديدَ الطعنِ علَى المسلِمينَ، شديدَ الحسدِ لهم، علَى نَفَرٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ من الأوسِ والخزرجِ في مجلسٍ قد جمَعَهُمْ، يتَحدَّثُونَ فيه فغَاظَهُ، ما رأى من أُلْفَتِهِم وجماعتِهِم، وصلاحِ ذاتِ بينِهم على الإسلامِ، بعد الذي كان بينَهم من العداوةِ في الجاهليةِ، فقال: قد اجتَمَعَ ملأُ بنِي قِيلَةَ[2] بهذِه البلادِ، واللهِ ما لنا معهُم إذا اجتمع ملَؤُهم بها من قرارٍ، فأَمَرَ فتًى شابًّا معه من يهودٍ، فقال: اعمَدْ إليهم فاجلِسْ معَهم، ثمَّ ذكِّرهُم يومَ بُعاثٍ، وما كان قَبْلَه، وأنشدَهم بعض ما كانوا يتقَاوَلُونَ فيه من الأشعارِ، وكانَ يومَ بعاثٍ يومًا اقتَتَلَتْ فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظَفَرُ فيه للأوْسِ على الخزرَجِ، ففَعَلَ، فتَكَلَّمَ القومُ عند ذلك، وتنازَعُوا وتفَاخَرُوا، حتَّى تَواثَبَ رجلانِ من الحَيَّيْنِ على الركبِ، أوسُ بنُ قَيْظِيّ، أحدُ بنِي حارِثَةَ مِنَ الأوسِ، وجُبَارُ بنُ صخرٍ، أحدُ بنِي سلمةَ من الخزرجِ، فتَقَاوَلا، ثم

---

(1) موقع (الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ) على شبكة الانترنت.

(2) أي: الأوس والخزرج، نسبةً لأُمُّهم: قِيلَة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس. والأوس والخزرج هم أبناء عمومة، وجدَّاهُما: الأوس والخزرج، وهما أخَوانِ، وهذا نسبهما:

الأوس:

الأوس هم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

الخزرج:

الخزرج هم بنو الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وعن الحرب التي دارت رَحاها بين الأوس والخزرج، ذكر ها الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، ما نصه: [حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا سَلَمَةُ، قَالَ: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: (كَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ، حَتَّى قَامَ الْإِسْلَامُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَتْ حَرْبُهُمْ بَيْنَهُمْ وَهُمْ أَخَوَانٌ لِأَبٍ وَأُمٍّ، فَلَمْ يُسْمَعْ بِقَوْمٍ كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَرْبِ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَطْفَأَ ذَلِكَ بِالْإِسْلَامِ، وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.] اهـ. تفسير الطبري، 651/5.

قالَ أحدُهُمَا لصاحبِهِ: إنْ شِئْتُمْ، واللهِ رددنَاهَا الآنَ جَذْعَةً، وغَضِبَ الفَرِيقَانِ جميعًا، وقالُوا: قد فعلْنَا، السلاحَ السلاحَ، موعِدُكُم الظاهرةَ، والظاهرةُ: الحَرَّةُ، فخرجوا إليها، وانضمَّتِ الأوسُ بعضُها إلى بعضٍ، والخزرجُ بعضُها إلى بعضٍ على دَعْوَاهُم التي كانوا عليها في الجاهليةِ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرجَ إليهِم فيمَنْ معه من المهاجِرينَ من أصحابِهِ، حتَّى جاءَهم، فقالَ: ﴿يا معشرَ المسلِمينَ: اللهَ اللهَ، أبِدَعْوَى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكُم؟ بعدَ إذْ هدَاكُم اللهُ إلى الإسلامِ، وأكرمَكُمْ بِهِ، وقطَعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليةِ، واستنقذَكُم به من الكفرِ، وألَّفَ به بينَكم، ترجِعونَ إلى ما كنتم عليه كفارًا؟﴾.

فعرَفَ القومُ أنها نَزَغةٌ من الشيطانِ، وكيدٌ من عدوِّهِم لهم، فألْقَوُا السلاحَ مِن أيديهِم، وبَكَوْا، وعانَقَ الرجالُ بعضُهم بعضًا، ثم انصرَفُوا معَ رسولِ الله ﷺ، سامِعِينَ مطيعينَ، قد أطْفَأَ اللهُ عنهم كيدَ عدوِّ اللهِ شاسٍ، وأنزلَ اللهُ في شأنِ شاسِ بنِ قيسٍ وما صَنَعَ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعْمَلُونَ﴾، وأنزَلَ في أوسِ بنِ قَيظِيٍّ وجُبارِ بنِ صخرٍ ومَن كانَ معهمَا من قومِهِمَا الذين صنَعُوا ما صنعوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابِ﴾، إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن أهمية تحقيق ركن (**الإصلاح بين المسلمين**)، وإصلاح ذات بينهم، وأثره في قوة المسلمين ووحدتهم وانتصارهم على عدوهم. وتحدثنا كذلك عن أثرِ صلاح حال المسلمين على الدعوة إلى الله، وعلى هداية غير المسلمين وتأثرهم بواقع المسلمين، لما يرونه من حب ووئام وتفاني وترابط عظيم بين المسلمين.

واستعرضنا الأدلة التي وردت في الكتاب والسُّنة عن أهمية ذلك (**الإصلاح بين المسلمين**). وبينا أنَّ (**الإصلاح بين المسلمين**) يبدأُ من أصغرِ جزء في المجتمع والأمة ونواتهم، وهي (الأسرة) و (البيت المسلم). ثم تتوسع دائرة الإصلاح حتى تشمل الأمة الإسلامية بكاملها. وبينا كيف أنَّ الإسلام قد أباح بعض المحرمات من أجل تحقيق ذلك الركن. ومن تلك المحرمات، أنَّ الله تعالى فرضَ بقوة السلاح الإصلاحَ بين المسلمين المتقاتلين، وقدمه على حُرمة دماءهم إذا ما رفضوا الصُّلح. وأمَرَ تعالى الأمةَ بقتال الطائفة الباغية التي ترفض

(1) رواه الطبري في تفسيره جامع البيان، في تفسير قوله تعالى: الآيتان ﴿98-99﴾ من سورة آل عمران، 627/5.

الانصياع إلى أمر الله بالصُّلح. وفي إباحة بعض المحرمات تحقيقًا للإصلاح بين المسلمين استعرضنا كذلك، الأدلة من السُّنَّة على الترخيص في الكذب من أجل إصلاح ذات بين المسلمين.

والحاصل، أنَّ كل ذلك التركيز على ركن (**الإصلاح بين المسلمين**) إنما هو من أجل وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم، وتوحيد جهودهم، وتوجيهها إلى نصرة دينهم وعقيدتهم. ومن أجل قيام المسلمين بالدعوة الناس إلى دينهم من خلال ما يُبرزُونه من صورة ناصعة عن صلاح ذات بينهم، وتآلفهم. وأيضًا، من أجل توجيه سهام المسلمين وغضبهم، إلى عدوهم الحقيقي الذي يتربص بهم وبدينهم وبأمتهم. إذْ لا يمكن لأمة أنْ تدعو الناس إلى دينها وعقيدتها، وإلى وحدة الكلمة وصلاح ذات البين، ما لم تكن تلك الأمة مترابطة ومتماسكة، وكانت مثالًا يُحتذى في الإصلاح في الأرض، وفي صلاح ذات بينها.

فصل:

الركن السابع: الأُخُوَّةُ في الدِّينِ

إِنَّ من مقتضى (الأمة الواحدة) أنَّ المسلمين جميعًا إِخوةٌ في الدين، وأنَّ تلك الأخوة هي صفتهم الرئيسية، أينما كانوا، وحيثما حلّوا، وذلك بغض النظر عن أجناسهم، وألوانهم، وأشكالهم، ولغاتهم، وغيرها من الفوارق الطبيعية. وليس ذلك فحسب، بل تتعدى تلك الأخوة الإسلامية حتى حدود الزمان.

فالأخوة بين المسلمين تمتد في أعماق الزمان، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا. فالمسلمونَ إخوةٌ لمن سبقوهم إلى دار الآخرة، وهم إخوةٌ لجميعِ المسلمين في حاضِرهم، وهم إخوةٌ لجميع المسلمين لمن يأتي من بَعدِهم، وإلى أنْ يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها وهو خير الوارثين.

لقد كانت الأُخُوَّة في الدين أمرًا غريبًا لم يعهده العرب في تاريخهم قبل الإسلام. بل على العكس، كان الكثير من العرب قد اعتادوا في الجاهلية على الاعتزاز بأهلهم وعشيرتهم. وقد اعتاد الكثير من العرب على الأَنَفَة والكِبْر، وربما الظلم والاعتداء، والاستحواذ على مالِ ومتاعِ من ليس من قبيلته، أو من هو دونه في الحسب والنسب، والمال والجاه، خصوصًا مع العبيد والأرِقَّاء منهم. والحقيقة، أنَّ هذا لم يكن حال العرب وحدهم، بل كان أيضًا، حالُ الكثير من الأمم الأخرى الكافرة.

إنَّ الأخوة في الدين التي أعلنها الإسلام، والتي تجاوزت حدود الزمان، والمكان، والجنس، والعرق، واللون، والجاه، والمال، قد قرَّبت البعيد، وأبعدت القريب. فصار بها المسلمُ أخًا قريبًا، وإنْ كان عبدًا حبشيًّا. وصار الكافرُ عدوًّا بعيدًا، وإنْ كان ذا قُربى، وكان سيدًا قرشيًّا. فكانت تلك الأخوة بحق أمرًا غريبًا، لم تعهدها البشرية في ذلك الزمان.

القرآن الكريم

بعد أَنْ أمَرَ القرآن الكريم المسلمين بـ (**الاعتصام بحبل الله**)، و (**نهاهم عن التفرُّق**)، كما مر بنا في الفصول السابقة، ذكَّرهم كيف أنَّهم كانوا أعداءً مختلفين ومتنازعين، فألَّفَ بين قلوبهم، وجعلهم إخوةً متحابين، قال تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿103﴾﴾[1].

ذكر القرطبي في تفسيره للآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها﴾، أَمَرَ تَعَالَى بِتَذَكُّرِ نِعَمِهِ، وَأَعْظَمُهَا الْإِسْلَامُ، وَاتِّبَاعُ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّ بِهِ زَالَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْفُرْقَةُ، وَكَانَتِ الْمَحَبَّةُ وَالْأُلْفَةُ. وَالْمُرَادُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَالْآيَةُ تَعُمُّ. وَمَعْنَى ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾، أَيْ صِرْتُمْ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ إِخْوَانًا فِي الدِّينِ، وَكُلُّ مَا فِي القرآن ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ مَعْنَاهُ صِرْتُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً﴾ (الملك: ٣٠)، أَيْ صَارَ غَائِرًا. وَالْإِخْوَانُ جَمْعُ أَخٍ، وَسُمِّيَ أَخًا لِأَنَّهُ يَتَوَخَّى مَذْهَبَ أَخِيهِ، أَيْ يَقْصِدُهُ.] اهـ[2].

ولما أمرَ تعالى المؤمنين بالإصلاح فيما بينهم، وحتى مع الباغي منهم، كما مرَّ بنا في ركن (الإصلاح بين المسلمين)، ذكَّرهم تعالى بأنَّهم جميعًا إخوة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾﴾[3].

الأُخُوَّة في الدين أقوى من الأخُوَّة في النسب

لقد وسَّع الإسلام معنى الأخُوَّة، ولم يقتصرها على أُخوَّة الدم والنسب، وأضاف إليها أُخوةً جديدة هي أخوّةُ الدين، وجعلها من أعلى وأقوى الروابط فيما بين المسلمين، وذلك لأنَّها مرتبطة بحبل اللهِ وعقيدة التوحيد. ولهذا، كان لِزامًا على المسلم أَنْ يستشعرَ بهذه الأخوَّة الإسلامية في قلبه ووجدانه، ويحققها على أرض

(1) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

(2) تفسير القرطبي، 164/4.

(3) الحجرات، الآية: ﴿10﴾.

الواقع، فلا تبقى مجرد شعار وكلام يردده. إنَّما يترجمها إلى حُبٍّ وتعاونٍ وإيثارٍ وتضحيةٍ، ونصرةٍ لأخيه المسلم، أينما كان، ومهما كان لونه وجنسه وعرقه وبلده، ما دام كونه مسلم يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وينبغي على المسلم أنْ يفعل ذلك تمامًا مع إخوته في الدين، كما يفعله مع أخيه في النسب، بل ربما أكثر. والسبب في ذلك، لأنَّ الأخوَّة في الدين إنما هي شاهدٌ ومقياسٌ على مدى حُب المسلم لدينه وربه. فكلما ازداد حُبُّ المسلم لدينه وربه، ازداد حُبُّهُ لكل من ينتمي إلى هذا الدين.

إنَّ المسلمَ الحقيقي هو الذي يشعر بالفخرِ والفرح بانتماء الناس إلى دينه. ويحبّ أنْ يرى الناس جميعًا في هذا الدين، يتشاركون معه نفس الإيمان والعقيدة التي يحملها، ويؤدون نفس الشعائر والطاعات التي يمارسها، وبذلك تتقوى روابط الأخوة فيما بينهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿54﴾﴾[1].

ذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ﴿أَذِلَّةٍ﴾، نعتٌ لقومٍ، وكذلك ﴿أَعِزَّةٍ﴾ أي: يرأفون بالمؤمنين، ويرحمونهم، ويلينون لهم، من قولهم: دابَّةٌ ذلولٌ، أَي: تنقاد، سهلة، وليس من الذُّلّ في شيء. ويغلِظون على الكافرين، ويعادونهم. قال ابن عباس: هُم للمؤمنين كالوالدِ لِلولد، والسيدِ للعبدِ، وهُم في الغلظة على الكفار كالسَّبْعِ على فريسته، قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الفتح: 29)، ويجوز ﴿أَذِلَّةً﴾ بالنصب على الحال، أي: يحبهم ويحبونه في هذا الحال.] اهـ[2].

الأُخُوَّة بين المؤمنين تستوجب الاستغفارَ لهم، وفراغُ القلبِ من الغِلِّ عليهم

إنَّ الأخُوَّة في الدين بين أبناء الأمة الإسلامية، كما هي تتعدى حدود الجنس واللون واللسان والجغرافيا، فهي تتعدى حدود الزمان أيضًا. فالمسلمون الأحياء هم إخوةٌ للمسلمين الذي سبقوهم بالإيمان، أولئك الذين رحلوا إلى الدار الآخرة. وهم –أيضًا– إخوةٌ للمسلمين الذي سيأتون من بعد، على مر العصور، وإلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(1) المائدة، الآية: ﴿54﴾.

(2) تفسير القرطبي، 220/6.

ومن علامات ومظاهر تلك الأخُوَّة بين المسلمين، والتي تتعدى حواجز الزمان، تتجلى وتظهر في محبة واستغفار اللاحقين للسابقين، وطلب العفو والمغفرة لهم من الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

فهكذا يجب أنْ تكون الأخوة بين المؤمنين، وهكذا ينبغي للمسلمين أنْ يفهموها، وهكذا ينبغي أنْ يقيموها في حياتهم.

الأخُوَّة في الدين لا تزول بالذنوب ما خلا الكفر

والأخوَّة في الدين بين المسلمين لا تتأثر بسهولة – ناهيك عن زوالها – بالذنوب والمعاصي، والخلاف والنزاع والخصام، بل وحتى الاقتتال، كما لاحظنا ذلك في فصل (الإصلاح بين المسلمين)، ما خلا ما يَخرجُ به المسلمُ من دائرة الإسلام[2]، فهي ثابتة للمسلم بعَقد الإسلام. فعلى سبيل المثال، في حالة الاقتتال بين المؤمنين،

---

(1) الحشر، الآية: ﴿10﴾.

(2) المقصود بها نواقض الإسلام العشرة: قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–: [إعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض.

الناقض الأول:

الشرك في عبادة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴿48﴾﴾ (النساء: 48)، وقال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿72﴾﴾ (المائدة: 72)، ومنه الذبح لغير الله، كمن يذبح للجن أو للقبر، وأشهرها الشرك في عبادة الله.

الناقض الثاني:

من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم، كفر إجماعًا.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿3﴾﴾ (الزمر: 3)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿106﴾﴾ (يونس: 106).

الناقض الثالث:

من لم يُكفّر المشركين، أو شكَّ في كفرهم، أو صحَّح مذهبهم كفر.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿256﴾﴾ (البقرة: 256).

الناقض الرابع:

من اعتقد أنَّ هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حُكم غيره أحسن من حكمه، وكالذي يفضل حُكم الطواغيت على حُكمه فهو كافر.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿65﴾﴾ (النساء: 65).

ومع البغي من أحدهم، رأينا كيف أَنَّ القرآنَ الكريم، وبعد أنْ أمر بقتال الباغي منهم، عقَّبَ بأَنَّ المؤمنين إِخوةٌ، ولم يرفعْ هذه الصفة عنهم، حتى عن الباغي بعد بغيِهِ وقتالِهِ، وأمرَ تعالى بإصلاح ما فسد بينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾﴾[1].

وكذلك الحال حتى مع القتلِ العَمْد، فقد جعلَ القرآن الكريم القاتلَ أَخًا لولي المقتول، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿178﴾﴾[2].

الناقض الخامس:

من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴿9﴾﴾ (محمد: 9).

الناقض السادس:

من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ، أو ثوابه، أو عقابه؛ كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴿65﴾لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة: 65، 66).

الناقض السابع:

السحر، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: 102).

الناقض الثامن:

مظاهرةُ المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿51﴾﴾ (المائدة: 51).

الناقض التاسع:

من اعتقد أنَّ بعض الناس يسَعَهُ الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى – عليه السلام – فهو كافر.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: 153).

الناقض العاشر:

الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿22﴾﴾ (السجدة 22).] اهـ، دروس في شرح نواقض الإسلام، المؤلف: صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة الرشيد، الطبعة الثالثة، 1426هـ- 2005م، وإتحاف الأفهام بشرح نواقض الإسلام، عبد الله بن حمود الفري.

(1) الحجرات، الآية: ﴿10﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿178﴾.

السنة النبوية

أما الأدلة من السُّنَّةِ عن ركن (الأخوَّة في الدين)، وشكل وصور تلك الأخوة، وأهميتها ودورها في حياة الأمة، فهي كثيرة، كما سنفصله فيما يلي.

الأخوة بين المهاجرين والأنصار في بداية الإسلام

أخبر النبي ﷺ المسلمين بأَنَّهم إخوةٌ في الدين، فعن عبدالله بن عُمرَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ﴿الْمُسْلِمُ أخُو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، مَن كانَ في حاجَةِ أخِيهِ كانَ اللَّهُ في حاجَتِهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عنْه بها كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ.﴾[1]، وقال ﷺ: ﴿أَلَا إنَّ المسلمَ أَخُو المسلمِ، فليس يَحِلُّ لمسلمٍ من أَخِيهِ شيءٌ إلا ما أَحَلَّ من نفسِه.﴾[2]، وغيرها من الأحاديث في الأخوة بين المسلمين.

(أخُوةُ الوَلايةِ في الدين)

ولكي تكون الأخوة حقيقة في واقع المسلمين، وعونًا لهم على أمور دنياهم، فقد جمع ﷺ بين بعض مزايا الأخوَّة في النسب والأخوَّة في الدين، وقدَّم للأمةِ أخوَّةً، لم يشهد التأريخ مثيلًا لها. لقد جعل رسول الله ﷺ في تلك الأخوة لكل فرد من المهاجرين أخًا محددًا من الأنصار. وصار في تلك الأخوَّة الفريدة والجديدة التي قدمها الإسلام، يتشارك فيها المسلمان المتآخيان كُلًّا من الدين والمال، بل وحتى أنَّهما كانا يتوارثان فيما بينهما، على الرغم من عدم وجود أي رحمٍ بينهما[3].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه، برقم 2310). ومسلم في صحيحه في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم 2580).

(2) أخرجه الألباني في صحيح الجامع، جزء من حديث طويل عن عمرو بن الأحوص، برقم 7880 وحسنه.

(3) وتُسمى هذه الأخوة بـ (الولاية في الدين)، كما نقل الطبري عن ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُم النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿72﴾﴾، إلى أنْ قال ابن عباس: [جعل الله بعضهم أولياء بعض، فكانوا يتوارثون بينهم، إذا تُوفِّيَ المؤمنُ المهاجرُ ورِثه الأنصاريُ بالوَلايةِ في الدين.] اهـ. تفسير الطبري، 290/11.

فصل:

الركن السابع: الأُخُوَّةُ في الدِّينِ

فقد آخى ﷺ في بداية الإسلام وعند قدومه المدينة، بين المهاجرين والأنصار، وذلك لأنَّ المهاجرين قد تركوا أموالهم وممتلكاتهم في مكة فرارًا بدينهم، واستولى عليها المشركون، فلم يبق لهم شيء هناك. وبسبب تلك الأخوة، فقد صار للمهاجرين نصيبًا في أموال إخوانهم من الأنصار.

ذكر الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهم أَوْلى بِبَعْضٍ في كِتابِ اللَّهِ﴾، بقوله: [أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ، وابْنُ أَبِي حاتِمٍ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوّامِ قالَ: أنْزَلَ اللَّهُ فِينا خاصَّةً مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: ﴿وأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهم أَوْلى بِبَعْضٍ في كِتابِ اللَّهِ﴾، وذَلِكَ أنّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَمّا قَدِمْنا المدِينَةَ، قَدِمْنا ولا أمْوالَ لَنا، فَوَجَدْنا الأنْصارَ نِعْمَ الإخْوانُ، فَواخَيْناهم ووارَثْناهم فَآخُونا، فَآخى أبُو بَكْرٍ خارِجَةَ بْنَ زَيْدٍ، وآخى عُمَرُ فُلانًا، وآخى عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ رَجُلًا مِن بَنِي زُرَيْقِ بْنِ أسْعَدَ الزُّرَقِيِّ، قالَ الزُّبَيْرُ: وآخَيْتُ أنا كَعْبَ بْنَ مالِكٍ، ووارَثُونا ووارَثْناهم، فَلَمّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ قِيلَ لِي: قَدْ قُتِلَ أخُوكَ كَعْبُ بْنُ مالِكٍ، فَجِئْتُهُ، فانْتَقَلْتُهُ، فَوَجَدْتُ السِّلاحَ قَدْ ثَقَّلَهُ فِيما يُرى، فَواللَّهِ يا بُنَيَّ: لَوْ ماتَ يَوْمَئِذٍ عَنِ الدُّنْيا، ما ورِثَهُ غَيْرِي، حَتّى أنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ فِينا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ والأنْصارِ، فَرَجَعْنا إلى مَوارِيثِنا. وأخْرَجَ أبُو داوُدَ الطَّيالِسِيُّ والطَّبَرانِيُّ وأبُو الشَّيْخِ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، قالَ: ﴿آخى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أصْحابِهِ ووَرِثَ بَعْضُهم مِن بَعْضٍ، حَتّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهم أَوْلى بِبَعْضٍ﴾، فَتَرَكُوا ذَلِكَ وتَوارَثُوا بِالنَّسَبِ.﴾] اهـ[1].

ولقد ضربَ الصحابةُ من الأنصار أروع الأمثلة في الإيثار والتضحية والبذل والعطاء، وطبقوا المؤاخاة النبوية فيما بينهم أعظم وأروع تطبيق، لا يكاد يصدقها أحد، وعُدَّت ضربًا من الخيال، لولا أنَّ هذه الروايات جاءت بأسانيد صحيحة ثابتة، ومسندة. إذ لم يُشرك الأنصارُ إخوانهم المهاجرين بأموالهم وممتلكاتهم فحسب،

---

(1) تفسير الشوكاني، 377/2. وذكر الطبري أيضًا في تفسيره للآية أيضًا بقوله:

[حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾، يقول: لا هجرة بعد الفتح، إنما هو الشهادة بعد ذلك، ﴿والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾، إلى قوله: ﴿حتى يهاجروا﴾. وذلك أن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاثة منازل:

منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه في الهجرة، خرج إلى قوم مؤمنين في ديارهم وعَقارهم وأموالهم، و﴿آووا ونصروا﴾، وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذّب وجحد، فهذان مؤمنان، جعل الله بعضهم أولياء بعض، فكانوا يتوارثون بينهم، إذا توفي المؤمن المهاجر ورثه الأنصاري بالولاية في الدين. وكان الذي آمن ولم يهاجر، لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر. فبرّأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال الله: ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾. وكان حقًّا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أنْ ينصروهم إنْ قاتلوا، إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم، إلا على العدوِّ الذين لا ميثاق لهم.

ثم أنزل الله بعد ذلك أنْ ألحقْ كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين هاجروا والذين آمنوا ولم يهاجروا. فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبًا مفروضًا بقوله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 75﴾، وبقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: 71﴾.] اهـ. تفسير الطبري،290/11.

بل أنَّهم طلبوا من المهاجرين أنْ يُشركوهم معهم حتى في نسائهم! كيف كان ذلك؟ لنستمع إلى هذه الرواية الصحيحة التي جاءت في أصحِّ كتابٍ بعد كتاب الله تعالى. فقد أخرج البخاري في صحيحه، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ المَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ، فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَهْيَمْ؟ قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟ قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ.﴾[1].

ثم بعد أنْ تحسَّنَ حالُ المهاجرين، واستقر وضعهم في المدينة، نزل قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾، فألغى رسول الله ﷺ هذا النوع من الأخوة، وأبقى الأخوة العامة في الدين، إضافة إلى أخوة النسب[2].

الأصل في العلاقة بين المسلمين حُسنُ الظَّن

لقد حذَّر القرآن الكريم المسلمين من إساءة الظن فيما بينهم، وأمَرَهم بتجنب ذلك، من أجل المحافظة على الأخوة بين المسلمين. ونهاهم عن التجسس والتنصت على بعضهم البعض، ونهاهم عن النميمة، وعن الغيبة، وشبَّه تعالى فاعلها بأبشع صورة، وهو أنْ يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿12﴾﴾[3].

واستنادًا إلى تلك الآية الكريمة، ينبغي على المسلمين أنْ يعلموا أمرًا مهمًّا، تقتضيه الأخوة الإسلامية فيما بينهم، وهو: **إنَّ الأصلَ في العلاقة بين المسلمين: حُسنُ الظنِّ، لا سُوءُ الظنِّ. وهذا أصلٌ مهم جدًّا للحفاظِ على الأُخُوَّة وترابط الامة.**

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب فضائل الصحابة، باب: إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، برقم 3570. وكتاب البيوع، باب: ما جاء في قول الله تعالى، برقم 1943 و1944.

(2) قال البغوي: [﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾، وَهَذَا نَسَخَ التَّوَارُثَ بِالْهِجْرَةِ وَرَدَّ الْمِيرَاثَ إِلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ.] اهـ. تفسير البغوي، 313/2.

(3) الحجرات، الآية: ﴿12﴾.

ونعني بذلك الأصل، أنَّ كلَّ ما يَصدرُ عن المسلمِ من تصرفاتٍ وأقوالٍ وأفعالٍ ومعاملاتٍ خاصة به، أو تجاه أخيه المسلم، فتُحملُ على (حُسنِ الظن)، أي: على الخير، وسلامةِ الصدر والسريرة، وبراءة الذمة، إلَّا إذا ثبتَ العكس. ولا يَثبتُ العكسُ بمجرد الظنّ والحدس والشكوك والاحتمالات والشائعات، وقيل كذا، وسمعت كذا، وربما يكون قد قَصد كذا! ما لم يتم التحققُ والتثبت من صحة ما ورد من كلامٍ، وأخبارٍ، وتصرفاتٍ، وغيرها.

ومثال ذلك، إذا بلغَ الناس عن فلانٍ مسلمٍ، تصرفاتٌ فيها معصيةٌ، أو أقوالٌ فيها مخالفة للدين، أو أي شيء آخر قد يعارضُ الدين، من ذنوب أو فسوق أو فجور وغيرها، فالواجب عدم تصديقه، وردُّه، إلّا إذا ثبتَ ذلك، بدليلٍ واضِح صحيحٍ وصريح.

وليس ذلك فحسب، إنَّما يجب التحذير من ترويج تلك الأخبار، وعدم تناقلها وبثها بين المسلمين، لأنَّ الأصل في المسلمِ كما ذكرنا: حُسنُ الظن به، أي براءةُ ذمته، وصحةُ إسلامه وإيمانه، وقيامهُ بالطاعات، واجتنابه المحرمات، إلّا إذا ظهر خِلافُ ذلك، بدليلٍ واضِح صحيحٍ وصريح، وكما ذكرنا ذلك.

وهذا أصلٌ وقاعدة عامة ينبغي أنْ تكون أساس العلاقات والمعاملات بين المسلمين. سواء كان ذلك على مستوى البيت الواحد والأهل والأقارب، أو مع الآخرين في المسجد، أو السوق، أو العمل، أو البلد، أو على مستوى أوسع بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ودولهم.

وخير دليل على ذلك الأصلِ قِصة (حادثة الافك) في أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– وما رماها المنافقون به من كذبٍ وبُهتان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿11﴾لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴿12﴾﴾[1].

فمن الملاحظ في الآية الكريمة، أنَّ الله تعالى قد عاتبَ الصحابة –رضي الله عنهم جميعًا– وعلَّمهم درسًا مهمًّا، وأرسى لهم أصلًا وقاعدة في (**الأخوة بين المسلمين**)، وكيفية التعامل مع الأخبار السيئة والشائعات التي ترِدُ عن المسلمين في المجتمع المسلم.

فقد أخبر الله تعالى أنَّه كان على الصحابة وهم يسمعون بالإفك أنْ يحسنوا الظن بـ (أنفسهم)، على الرغم من أنَّ المقصود بالإفك، كانت أمُّ المؤمنين، وليسوا هم، أي الصحابة. فكان هذا تأكيدًا

(1) النور، الآيتان: ﴿11، 12﴾.

منه تعالى للمسلمين، أنهم إخوة، وأنَّهم جسدٌ واحدٌ، وأمةٌ واحدةٌ. فما يصيب أحدهم من اتهام يُسيء إليه، فهو يُسيء إلى الجميع، ويُصيب الأمة كلها. فينبغي عليهم تطهيرَ قلوبَهم ومسامعَهم ومجالسَهم من سَماع وقَبول الأخبار والاتهامات التي تُسيء إلى المسلمين، وتُشعِلُ العداوةَ والبغضاءَ والنزاعَ والفُرقةَ بينهم.

وفِي المقابل، ينبغي للمسلم أنْ لا يتجسس على أخيه المسلم، ولا يتَنَصَّتَ على حديثه من حيث لا يعلم ولا يشعر به، وذلك بُحجة معرفة إذا ما كان ينوي به شرًّا أو لا. أو لكي يتأكد مِن صحة ما بلغهُ عنه من غيبة أو اتهام، إذ ليس له الحق أنْ يفعل ذلك.

وإنما ينبغي عليه فعله في هذه الحالة –ومباشرة– أنْ يردَّ من حَملَ إليه نبأ تلك الغيبة، وذلك لوأدها في مهدها، وعدم إفساح المجال لمروجي نقلِ الغيبةِ والأخبار السيئة عن المسلمين وإشاعتها في الأمة الإسلامية.

ثم بعد ذلك، إنْ أرادَ التحقق مِن صحَّةِ ما ورده من كلام، فليذهب لمن اغتابه وأساءَ إليه بقول أو عمل، ويتكلم معه مباشرة، ويستفسر منه ويتحقق. ولا ينبغي أنْ يدعَ نفْسَه وظنَّه أنْ يذهبا بعيدًا، ويفترضَ ما هو سيئًا بأخيه، ويبني على ذلك أحكامًا وتصرفاتٍ، ربما تؤدي إلى القطيعةِ والتدابر والتناحر.

وما أكثر المشاكل والصراعات والخلافات، وحتى الحروب التي تحدث بين المسلمين أنفسهم، ويكون سببها: إما خبرٌ سيئ، أو قولٌ كاذبٌ وملفَّق، لم يتم التحقق والتثبت منه، مما يؤدي إلى نزاعٍ وخلافٍ وأحقادٍ لا يمكن السيطرة عليها. وتكون النتيجة هذه الكوارث والمصائب التي تعصف بالأمة وتمزقها وتُذهب بريحها، والواقع شاهد على كثير من هذه الحوادث.

من أجل هذا نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن (سوء الظن)، وذلك لتقوية الأخوة بين المسلمين، وسدِّ كل منافذ التمزق والتفكك والخلاف والنزاع في الأمة، كي تكون الأمة الإسلامية بحق: (خير أمة أخرجت للناس).

فقد أمر ﷺ المسلمين بـ (حسن الظن) وذلك بأنْ نهاهم عن ضده، فيما بينهم. وبيَّن ﷺ للأمة، أنَّ الأخوة في الدين لها آثار على أرض الواقع، وفي حياة المسلم، وليس مجردَ كلامٍ أو شعارٍ يردده المسلمون. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.﴾[1].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، برقم 5717، وكتاب النكاح، باب لا يخطب من خطب أخيه حتى ينكح أو يدع، برقم 4849.). ومسلم في صحيحه في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش، ونحوها، برقم 2563).

ففي الحديث المذكور، أَمَرَ ﷺ المسلمَ أنْ لا يُسيء الظنَّ بأخيه المسلم، بل يحمل كلامه وتصرفاته على حسن الظن. وأنْ لا يتجسس عليه، ولا يغتابه، ولا يطَّلع المسلم على عورات أخيه المسلم، ولا ينتقص منه، ولا يغتصب حقوقه، ولا ينتهك حرماته.

وفي رواية أخرى، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ علَى بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا المسْلِمُ أخُو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هاهُنا، ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المسْلِمَ، كُلُّ المسْلِمِ علَى المسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ.﴾[1].

ففي هذا التوجيه النبوي، قد نهى ﷺ المسلمين عن المزايدة (التناجش) على السلعة، وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها، وعن الحسد والتباغض والكره والتقاطع، وكل ما يمزق الأمة الإسلامية، وأمرهم بأن يكونوا إخوة متحابين في الدين.

حُرمة هجر المسلم فوق ثلاث ليالٍ

ولإبقاء الأخوة بين المسلمين راسخةً ومستمرةً، وتقويتها وعدم ضَعفها وفتورها بسبب الجفاء والقطيعة التي قد تحصل بسبب خلافٍ أو غيبةٍ أو غيرها، فقد حرَّمَ ﷺ على المسلمِ أَنْ يَهْجُرَ أخاهُ ويقطعهُ. ووقَّتَ ﷺ لذلك ثلاثَ ليالٍ، كحد أقصى، كي يُراجِع نفسه، ويُصْلِحَ ما بينهُ وبين أخيهِ، ولا يقاطعه، ولا يهجرهُ بعدها الا لسبب شرعي. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿لا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ.﴾[2].

وأخبر ﷺ أنَّ خَيْرَ المتَخاصِمَيْنِ، الذي يبادر في الإصلاح، وينهي الجفوة بينه وبين أخيه المسلم، ويبدأُ التحية والسلام. فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.﴾[3].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم 2564). والبخاري في صحيحه في (كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، برقم 5718).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، برقم 5718، وباب الهجرة، برقم 5726). ومسلم في صحيحه في (بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّدَابُرِ برقم 2558).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأدب، باب: الهجرة برقم 5727، وكتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة، برقم 5883). ومسلم في صحيحه في (كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الْهَجْرِ فَوْقَ ثَلَاثٍ بِلَا عُذْرٍ شَرْعِيٍّ، برقم 2560).

وجوب نُصرة المسلمِ أخاه المسلم إذا احتاج إلى ذلك

إنَّ من لوازم ومقتضيات الأخوة في الدين، نُصرةُ المسلمِ لأخيهِ المسلم إذا احتاج إلى ذلك[1]، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[2].

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيَّيْنِ قالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا في مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ويُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتُهُ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أحَدٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ.»[3].

إنَّ من أهم أسبابِ وجوبِ نُصرة المسلم لأخيه المسلم، أنَّ المسلمين كالجسدِ الواحد، وذلك كما أخبر ﷺ. فعن النعمان بن بشير: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَثَلُ المؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى.»[4].

وهذا تشبيهٌ نبويٌّ بليغ لكيان الأمة الإسلامية، ينبغي لكل مسلم أنْ يَعيَهُ ويُدْرِكهُ، لأنَّه أحدُ مظاهر الأخوَّة الحقيقية في الدين. ومعنى أنهم جسدٌ واحدٌ، أي أنَّ ما يُصيبُ المسلمين في مكان ما في الأرض، فهو يُصيبُ المسلمين جميعًا أينما كانوا. وذلك لأنَّ أعداءهم وإنِ اختلفوا وتفرقوا، إنما هم عدوٌّ واحد. وأنَّهم —أَيِ الأعداء— إنما يعادون ويحاربون جميع المسلمين، أينما كانوا، وبلا استثناء. وهذه حقيقةٌ وليست مبالغةٌ، وذلك لسببين رئيسيين هما:

السبب الأول: عقائدي

إنَّ أعداءَ المسلمين هم في الحقيقة: أعداءٌ للدينِ أصلًا، فهم أعداءٌ ومحاربونَ للكتابِ والمنهجِ والعقيدة التي يحملها كلُّ مسلمٍ يعتنق الإسلام، أينما كان ذلك المسلم، ومهما كان، قال تعالى:

(1) سنتكلم بالتفصيل عن نُصرة المسلم في ركن (الموالاة بين المسلمين).

(2) الأنفال، الآية: ﴿72﴾.

(3) حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 5690.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم 2586 واللفظ له). والبخاري في صحيحه في (كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، برقم 5665).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وبالتالي، فهم أعداءٌ لله تعالى وللمؤمنين، كما ذكر القرآن الكريم، وبيَّن سبب عداوتهم، وهو كُفرهم بما أنزل الله على المؤمنين. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [قَوْلُهُ: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّهْيِيجِ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ وَعَدَمِ مُوَالَاتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانَكُمْ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (الْبُرُوجِ: ٨)، وَكَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الْحَجّ: 40).] اهـ[2].

وأخبر تعالى أيضًا نبيه ﷺ عن هذه الحقيقة، أعني تكذيب المشركين وعداوتهم للقرآن الكريم وللدين الذي جاء به من عند الله، وليس له ولشخصه ﷺ، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴿33﴾﴾[3]، وبدليل استعدادهم للرضى عنه ﷺ فورًا، وإيقاف العداوة والحرب معه، حالما يترك دينه، ويتبع مِلتهم، وحاشاه أنْ يفعل ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[4].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿73﴾﴾[5].

السبب الثاني: واقعي

إنَّ أعداء المسلمين وإنْ حاربوا واعتدوا اليوم على بلد مسلم معين، أو على شعب مسلم معين فقط، ولم يعتدوا على بلدٍ وشعبٍ مسلمٍ آخر، فإنهم ما أنْ ينتهوا من اعتدائهم على ذلك البلد المسلم، وسيطرتهم عليه لا قدر الله، إلا وسيحاربون ويعتدون على المسلمين في البلاد الإسلامية الأخرى، لا محالة، وكما يُقال:

---

(1) الممتحنة، الآية: ﴿1﴾.

(2) تفسير ابن كثير 115/8.

(3) الأنعام، الآية: ﴿33﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿120﴾.

(5) الإسراء، الآية: ﴿73﴾.

(أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثورُ الأبيض). وهذا مما يشهد له الواقع والتاريخ، فهو مليءٌ بتلك الأخبار والوقائع. ولهذا كان من الواجب على المسلمين جميعًا أنْ يكونوا يدًا واحدةً، مجتمعين ومتوحدين، وينصرُ بعضُهم بعضًا. ولن يستطيعوا فهل ذلك إذا لم يكونوا إخوةً متحابين في دين الله تعالى.

لا يحتقرُ المسلمُ أخاه المسلم

ومن لوازم الأخوة في الدين ومظاهرها، أَنْ لا يَظلم المسلمُ أَخاه، ولا يُذِلَّهُ، ولا يَحْتَقِرَهُ. وكما تكلَّمنا عن حُرْمَةِ دِماءِ المسلمينَ وأموالهم، فكذلك الحال في حُرْمَةِ أعراضِهم[1]، وذلك بعدم نَبْزِهِم أو غَمْزِهم أو لمزِهم، وحُرْمَةِ الاستهزاء بهم والسُّخْريةِ منهم، بل الواجبُ عليه أنْ يسترهُ إنْ رأى مِنْهُ سوءًا، كذنبٍ أو عيبٍ، وعليه أنْ يَنْصَحُهُ، ولا يَنشُرَهُ بين الناس ويَفْضَحُهُ، فيعينُ الشيطانَ عليهِ. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ علَى بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا المسْلِمُ أخُو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هاهُنا، ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المسْلِمَ، كُلُّ المسْلِمِ علَى المسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ.﴾[2].

جاء في منهاج شرح صحيح مسلم: [وأمّا: ﴿ولا يَخْذِلَهُ﴾ فقال العلماء: الخَذْلُ: تَرْكُ الإعانةِ والنَّصْرِ، ومعناه: إذا استعانَ بِهِ في دَفْعِ ظالمٍ ونَحوه، لَزِمَهُ إعانَتَهُ، إذا أمكَنَهُ ولم يَكنْ لهُ عذرٌ شرعيٌّ، ﴿ولا يَحْقِرَه﴾: هو بالقاف والحاء المهملة، أي: لا يَحْتَقِرَهُ، فلا يُنْكِرُ عليهِ، ولا يَسْتَصْغِرَهُ ويَسْتَقِلَّهُ. قال القاضي: ورواه بعضهم: لا يَخفِرَهُ، بضمّ الياءِ والخاءِ المعْجَمةِ والفاءِ، أي: لا يَغْدِرَ بِعَهْدِهِ، ولا يَنْقُضُ أمَانَهُ. قَالَ: وَالصَّوَابُ الْمَعْرُوفُ هُوَ الْأَوَّلُ وَهُوَ الْمَوْجُودُ فِي غَيْرِ كِتَابِ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ خِلَافٍ.] اهـ[3].

فالمسلم ليس مأمورًا فقط أنْ ينتهي عن ظُلم أخيه المسلم وخُذلانه واحتقاره فحسب، بل الواجبُ عليه أيضًا، أنْ يُعينَ أخاهُ المسلمُ، ويَسعى في تَفريجِ كُربةٍ عَنهُ، وقَضاءِ حاجةٍ لهُ، وهذا ما أمرَ ﷺ المسلمينَ بِهِ، فعن عبداللهِ بن عُمرَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ﴿الْمُسْلِمُ أخُو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، مَن كانَ في

(1) العِرْضُ: موضِعُ المدحِ والذَّمِّ من الإنسانِ في نفسهِ أو في سَلَفِهِ أو مَنْ يَلْزَمُهُ أمرُهُ. تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، 46/6، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (ت 1353هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: 10.

(2) تقدم تخريجه.

(3) شرح صحيح مسلم للنووي، 121/16. وروى نحوه أبو داود والترمذي وأحمد في مسنده.

حاجَةِ أخِيهِ كانَ اللَّهُ في حاجَتِهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عنْه بها كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ.﴾[1].

الحواجز الجغرافية بين بلاد المسلمين لا تُسقط الأخُوَّة بينهم ووجوب نصرة المحتاج

إنَّ (الأخوة في الدين) ركنٌ عظيم من أركان بناء الأمة الإسلامية، وأساسًا عظيمًا لجمع المسلمين، وإزالة الخلاف والخصام والتنازع فيما بينهم. ولهذا السبب، فإنَّ أعداء الأمة يسعَون جاهدين لهدمِ ذلك الركن باصطناع حواجز الجغرافيا، والعِرق، والجنس، واللغة، واللون، وغيرها من الحواجز والفوارق، كي يمزقوا الأمة، ويشتتوا شملها، ويفرقوا كلمتها واجتماعها.

غيرَ أنَّ (الأخوة في الدين) وتحقيقها في واقع المسلمين، لا تتنافى مع اعتزازِ كلِّ شعبٍ مسلمٍ، وكل بلدٍ مسلمٍ بعِرقه، ولغته، وأرضه، وعاداته وتقاليده التي ولِد فيها، ونشأ وترعرع عليها. ولكنْ بشرط أنْ لا يكون ذلك الاعتزاز على حساب اعتزازه بإخوانه المسلمين، ومحبتهم ونُصرتهم أينما كانوا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وينبغي أَنْ لا يكونَ ذلك الاعتزاز والانتماء على حسابِ انتماءه إلى الأمة الإسلامية العظيمة، والشعور بأنه جزء منها، وأنَّ مصيره من مصيرها، وأنها أمةٌ واحدةٌ لا تتجزأ، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿52﴾﴾.

وينبغي ألا يكون اعتزازهُ بوطنهِ الأم على حسابِ اعتزازه وانتماءه إلى الوطنِ الإسلامي الكبير، وإلّا كان اعتزازه ذلك جاهليةً، وعصبيةً مَقيتة، قد نهانا عنها ديننا، فقد قالَ رسول الله ﷺ: ﴿يا معشرَ المسلِمينَ: اللهَ اللهَ، أبِدَعْوَى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكُم؟ بعدَ إذْ هدَاكُم اللهُ إلى الإسلامِ، وأكرمَكُمْ بِهِ، وقطَعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليةِ، واستنقذَكُم به من الكفرِ، وألَّفَ به بينَكم، ترجِعونَ إلى ما كنتم عليه كفارًا؟﴾[2].

فالواجب على المسلم أنْ يهتم بأمرِ أخيه المسلم أينما كان، وأنْ يُعينه ويقضي له حاجته، ويخففَ عنه آلامه ومصيبته، فعن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ: ﴿مَن لَمْ يهتَمَّ بأمرِ المسلِمينَ فليس منهم، ومَن لَمْ

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

يُصبِحْ ويُمْسِ ناصحًا للهِ ولرسولِه ولكتابِه ولإمامِه ولعامَّةِ المسلِمينَ فليس منهم.﴾[1]. قال ابن باز –رحمه الله تعالى– في جوابه على مَنْ سألَ عن الحديث المذكور: [هذا الحديث رواه الطبراني وجماعة، وفيه ضعف، لكن معناه صحيح، وأنَّ الواجب على المسلمين أنْ يهتم بعضهم ببعض، يقول النبي ﷺ: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه﴾، ويقول عليه الصلاة والسلام: ﴿المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا، وشبّك بين أصابعه.﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.﴾.] اهـ[2].

فلا ينبغي أنْ يكون كل ما ذكرناه من فوارق وحواجز، سبباً في تفرّق المسلمين، وانزواء كل بلد مسلم، وكل شعب مسلم، على نفسه، وتحزبه، وتعصبه لبلده، وقوميّته، وتأريخه.

ولا ينبغي أن تكون تلك الفوارق مبررًا في إهمالِ إخوانهِ المسلمين في البلدان الأخرى، وتركهم وما يعانون فيه من جوع، وحرمان، وفاقة.

ومن تلك المآسي والِمحن التي يعاني منها المسلمون اليوم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، ما نراه في بعض البلدان الإسلامية الفقيرة، والتي يعاني فيها المسلمون من الفَقر، والحاجة، والتخلف، والجهل، والمرض، أمثال الصومال، وبنغلادش، وبورما، وغيرها. إذْ مَا عُذْرُ هَؤُلَاءِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ مدِّ يدِ العوْن لإخوانهم في الدين؟ هل سيكون لسانُ حالهم كما قال المخلَّفون من الأعراب لرسول الله ﷺ شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الجهاد ونُصرة إخواننا في الدين؟ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿11﴾﴾[3].

ناهيك عن الأذى والعدوان الذي يتعرَّض له هؤلاء المسلمون المستضعفون ليلَ نهار من قبل أعداء الإسلام، ولا بواكي لهم.

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، 270/7، برقم 7473، وقال: لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ حُذَيْفَةَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ. وفي رواية: ﴿مَن لا يَهتمُّ بأمرِ المسلمينَ فَليسَ مِنهُم، ومَن لا يُصبِحُ ويُمْسي ناصِحًا للهِ ورَسولِه، ولكتابِه ولإمامِه ولعامَّةِ المسلمينَ فَليسَ مِنهُم.﴾. أخرجه الألباني عن حذيفة بن اليمان في السلسلة الضعيفة، برقم: (312)، وقال: ضعيف.

(2) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز على شبكة الانترنت.

(3) الفتح، الآية: ﴿11﴾.

وكذلك ما يجري في البلدان الإسلامية المحتلة من قبل أعداء المسلمين، وفي مقدمتهم، فلسطين، حيث أولى القبلتين وثالثِ الحرميْن، وجُرح العرب والمسلمين النازف منذ عقود طويلة، والمحتلة من قبل العدو الصهيوني الغاصب، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾[1].

وكذلك الحال في كشمير المحتلة من قِبل الهنود الهندوس، وشعب الروهينغا المسلم، الذي يعاني أشد أنواع الظلم والاضطهاد، والتطهير الديني والعرقي من قبل الصين الشيوعية الملحدة! وَالْقَائِمَةُ تَطُولُ، إِذَا اِسْتَرْسَلْنَا فِي اَلتَّفْصِيلِ، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن ركن (الأخوة في الدين)، ودورِ تلك الأخوة في تأسيس (الأمة الواحدة) التي أرادها تعالى للمسلمين، وفي تعزيزها وتقويتها لمجابهة أعدائها الطامعين. وذكرنا الأدلة من الكتاب والسُّنة على أُخوَّة الدين والعقيدة، وأنها مُقدَّمة على أخوَّةِ الرحمِ والنسبِ، فيما لو تعارضا. وذكرنا قضية المؤاخاة التي أمَرَ بها رسولُ الله ﷺ في بداية العهد المدني، عند قدومه المدينة، وكيف أنَّ الأنصار قد ضربوا أروعَ الأمثلة في تطبيقها مع إخوانهم المهاجرين. ثم ذكرنا لوازمَ ومقتضياتِ (الأخوة في الدين)، وتجاوزها لحدود العِرق والجنس واللغة وحواجز الجغرافيا، ووجوب نُصرة المسلمِ أخاهُ المسلم المستضعف، أيًّا كان لونه وجنسه ومكانه، إذا ما احتاج إلى عونٍ ودفعِ أذًى.

(1) النساء، الآية: ﴿75﴾.

فصل:

الركن الثامن: المُوالاةُ بين المُسلِمينَ

إِنَّ من مقتضى تحقيق ركن (الأمة الواحدة)، و(الأخوَّة في الدين): (المُوالاةُ بين المسلمين)، أي محبتهم والقرب منهم، ونُصرة بعضهم البعض. والموالاة بين المسلمين مظهرٌ عظيم من مظاهر الأخوة الإسلامية، وركنٌ أساسي من أركان تحقيق (خير أمة أخرجت للناس)، وذلك من أجل المحافظة على تماسك الأمة، وصد أي عدوانٍ عنها، أو عن جزءٍ أو جماعةٍ منها، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[1].

وضدها: (البراءة من المسلمين)، وبُغضهم، وخُذلانهم ومُفارقتهم، وتولّي الكافرين بدلًا عنهم، وهذه هي الرِّدةُ والكفرُ بعينه، والتي ينبغي أنْ تكون مع الكفار أعداء الله وأعداء المسلمين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿144﴾﴾[2].

فالأصل في العلاقة بين المسلمين أن يتولَّى بعضُهم البعض، أي أنْ يحبَّ بعضُهم البعض، وأنْ يتناصروا ويتعاونوا فيما بينهم، والقرب من بعضهم البعض، ما كان إلى ذلك سبيلًا.

القرآن الكريم

إِنَّ الموالاة بين المؤمنين تقتضي تحقيق مفهوم (**الولاء والبراء**) في واقع المسلم، وفي تصرفاته وحياته كلها. وهي مسئولية فردية وشخصية تقع على عاتقِ كلِّ مسلم، كُلًّا وحسب حاله.

وهي كذلك مسئولية الأمة الإسلامية برمتها تجاه الدول والشعوب الإسلامية الأخرى من أجل تحقيق مفهوم (الولاء)، ونقصد بذلك موالاة المسلمين ونصرتهم.

---

(1) التوبة، الآية: ﴿71﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿144﴾.

وهي كذلك مسئولية الأمة الإسلامية تجاه الدول والشعوب الأخرى غير الإسلامية، من أجل تحقيق مفهوم (البراء)، ونقصد بذلك، البراءة من غير المسلمين شعوبًا ودولًا، وعدم نُصرتهم وإعانتهم على المسلمين، وهي مسئولية ولاةُ الأمْر، على وجه الخصوص.

تعريف الولاء والبراء

إنَّ قضية الموالاة في الإسلام ترتكز على مفهوم (الولاء والبراء). ومن أجل التعرف على المقصود بذلك المفهوم، لا بد من تعريف تلك المفردتين — أي (الولاء) و (البراء) – لغة واصطلاحًا، فنقول:

إنَّ الكلمة التي تتألف من الواو واللام والياء، يمكن صياغة عدة أفعال منها، مختلفة الصيغ والمعاني، يأتي منها: وليَ، ولّى، تولّى، والى، استولى.

ذكر محمد بن سعيد القحطاني في كتابه (الولاء والبراء في الإسلام)[1] في تعريف الولاء والولاية ما نصه:

[الولاءُ لغةً: اسم مصدر من والى، يوالي، موالاة، وولاء.

الولاء في اللغة: جاء في لسان العرب: الموالاة –كما قال ابن الأعرابي–: أنْ يتشاجرَ اثنان فيدخل ثالثٌ بينهما للصُّلح، ويكون له في أحَدِهِما هوًى فيواليه أو يُحابيه. ووالى فلانٌ فلانًا: إذا أحبَّه.

والمَوْلى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة[2].

والوَلاية – بالفتح – في النسب والنصرة والعتق.

---

(1) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، ص87، الطبعة السادسة، 1413هـ، دار طيبة: مكة المكرمة — الرياض.

(2) لسان العرب، ابن منظور 409/15. لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر — بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414هـ، عدد الأجزاء: 15. وانظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص 344، القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت 817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان الطبعة: الثامنة، 1426هـ– 2005م.

والموَالاة – بالضم – من وَالى القومَ. قال الشافعي في قوله ﷺ: ﴿مَنْ كنتُ مَوْلاه فعليٌّ مَوْلاه﴾[1]، يعني بذلك وَلاء الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد: 11).

والموالاة ضد المعاداة، والوَلي ضد العدو، قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: 45).

قال ثعلب: كلُّ من عَبدَ شيئًا من دون الله فقد اتخذه وليًّا. وقوله تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، (البقرة: 257). وليهم في نَصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم. وقيل: وليُّهم، أي: يتولَّى ثوابَهم ومجازاتهم بحُسن أعمالهم.

والولي: القربُ والدُّنو [2]، والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتِّباع.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ (محمد: 38). أي: أنْ تُعرِضوا عن الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، (المائدة: 51).

معناه: من يتبعهم وينصرهم[3].

وقال صاحب (المصباح المنير) الولي: فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: 257).

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي الله. وَوَالَاهُ مُوَالَاةً وَوِلَاءً: مِنْ بَابِ (قَاتَلَ) أي تَابَعَهُ[4].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب برقم 3713، من حديث زيد بن الأرقم رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي بنفس الرقم، وفي الصحيحة برقم 1750.

(2) لسان العرب، ابن منظور، 411/15.

(3) لسان العرب، ابن منظور، 411/15.

(4) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، 627/2. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: 2.

أما في الاصطلاح، فالولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهرًا، قال تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: 257)(1).

فموالاة الكفار تعني التقرّب إليهم وإظهار الوِدَّ لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا(2).] اهـ(3).

وعن تعريف الوَلاية ومعنى الموالاة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى–:

[الوَلاية ضد العداوة، وأصل الوَلاية: المحبَّةُ والقُرب، وأصل العداوة: البُعد، وقد قيل: إنَّ الولي سُمِّيَ وليًّا من موالاته للطاعات، أي: متابعته لها، والأول أصح، والولي: القريب، فيقال: هذا يلي هذا، أي: يقرب منه، ومنه: قولهُ ﷺ: ﴿أَلْحِقُوا الفَرائِضَ بأَهْلِها، فَما بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ﴾، أي: لأقرب رجلٍ إلى الميت. فإذا كان وليُّ الله هو الموافق، المتابع له فيما يُحبهُ ويرضاهُ ويُبغِضُه ويُسْخِطُه ويأمر به، وينهى عنه، كان المعادي لوليّهِ مُعاديًا له، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ (الممتحنة: 1)، فمن عاداه، فقد حاربه، فلهذا قال: ﴿ومن عادى لي وليًّا، فقد بارزني بالمحاربة﴾.] اهـ(4).

وهكذا، فالأصل في العلاقة بين المسلمين، تولّي بعضِهم البعض، أي: محبةُ بعضِهم البعض، والنصرة والتعاون فيما بينهم، والقُرب من بعضهم البعض، ما كان إلى ذلك سبيلًا.

ومن ذلك أيضًا، نفهم أنَّ معنى موالاة الله ورسوله، أي: حُب الله ورسوله، والقُربُ منهما وذلك بطاعتهما، وعدم معصيتهما فيما أمَرا، ونُصرة الكتاب والسنة، ومحبة واتّباع الصحابة، الذين هم أولياء الله ورسوله، وكذلك اتّباع ومحبةِ التابعين، ومن تَبِعهم إلى يوم الدين من المؤمنين من أهل القبلة، ونُصْرتِهِم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى

(1) شرح الطحاوية، ص 358، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، ص 336. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، المؤلف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، 1423هـ- 2002م.

(2) الإيمان، نعيم ياسين، ص 110. الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه، للمؤلف: محمد نعيم ياسين، الناشر: دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

(3) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، ص87، ط6، 1413هـ، دار طيبة: مكة المكرمة – الرياض.

(4) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية، ص 9. الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، عام النشر: 1405هـ- 1985م.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿54﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿55﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿56﴾﴾[2].

فالموالاةُ في جوهرها وحقيقتها، إنما هي مظهرٌ من مظاهرِ (الأخوةِ في الدين) بين المؤمنين من الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿10﴾﴾[3].

فقد أخبر تعالى أنَّ المؤمنين على مرِّ العصور والدهور يُحِب بعضهم بعضًا، ويستغفر اللاحق منهم للسابق، ويدعون الله تعالى أنْ لا يجعل في قلوبهم كراهيةً أو حقدًا على أيٍّ من المؤمنين، وهذا هو عين الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

وعكس الولاء: البراء، وهو في اللغة كما قال ابن الأعرابي: بَرِئَ إذا تخلص، وبَرِئَ، إذا تنزه وتباعد، وبَرِئَ: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: 1)، أي: إعذار وإنذار.

والبراء والبريء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر[4].

وفي الاصطلاح، فالبراء: هو البُعد، والخلاص، والعداوة بعد الإعذار والإنذار[5].

فالبراء: هو بُغْضُ وعداوةُ مَنْ خالف اللهَ ورسولَهُ، وخالف الصحابة والتابعين، ومن تَبِعَهُم مِنَ المؤمنين الموحدين، أي: بُغْضِ وعداوة الكافرين والمنافقين والمشركين، والابتعاد عنهم ومفارقتهم، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ

(1) المائدة، الآية: ﴿54﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿56﴾.

(3) الحشر، الآية: ﴿10﴾.

(4) لسان العرب، 33/1.

(5) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، ص87.

لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[1].

وهذا هو ما يطلق عليه أهل العلم بـ (الولاء والبراء)، أي موالاة الله ورسوله والمؤمنين، والبراءة من أعدائهم.

فالمؤمنون قريبون من بعضهم بقرابة الإيمان والإسلام، ويحب بعضهم البعض، لحبهم لربهم ودينهم ونبيهم، ولذا فقد أوجب سبحانه على المسلمين نُصرة إخوانهم إنْ حصل عليهم عدوانٌ، وطلبوا النُّصرة.

وأَوجب تعالى على الأمة الإسلامية القتالَ لنُصرة المستضعفين من المسلمين، وإنقاذهم من أيدي أعدائهم في الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يُحَرِّضُ تعالى على عباده المؤمنين، الجهاد في سبيل الله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان، المبرمين بالمقام بها، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ يعني مكة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ (مُحَمَّدٍ: 13)، ثم وصفها بقوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾ أي: سخِّر لنا من عندك وليًّا وناصرًا.] اهـ[3].

وذكر القرطبي أيضًا في تفسيره للآية بقوله: [وفيه ثلاث مسائل، الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حَضٌّ عَلَى الْجِهَادِ. وَهُوَ يَتَضَمَّنُ تَخْلِيصَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَيْدِي الْكَفَرَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَيَفْتِنُونَهُمْ عَنِ الدِّينِ، فَأَوْجَبَ تَعَالَى الْجِهَادَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَاسْتِنْقَاذِ الْمُؤْمِنِينَ الضُّعَفَاءِ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَلَفُ النُّفُوسِ.] اهـ[4].

(1) الممتحنة، الآية: ﴿4﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿75﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 315/2.

(4) تفسير القرطبي، 279/5.

المؤمنون بعضهم أولياء بعض

وقد أخبر تعالى أَنَّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿71﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2]. ذكر الطبري في تفسيره للآية بقوله: [القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. ﴿وَهَاجَرُوا﴾ يَعْنِي: هَجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ وَدُورَهُمْ، يَعْنِي: تَرَكُوهُمْ وَخَرَجُوا عَنْهُمْ، وَهَجَرَهُمْ قَوْمُهُمْ وَعَشِيرَتُهُمْ. ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَقُولُ: بَالَغُوا فِي إِتْعَابِ نُفُوسِهِمْ وَإِنْصَابِهَا فِي حَرْبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الْكُفَّارِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَقُولُ فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ طَرِيقًا إِلَى رَحْمَتِهِ وَالنَّجَاةَ مِنْ عَذَابِهِ. ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ يَقُولُ: وَالَّذِينَ آوَوْا رَسُولَ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ مَعَهُ، يَعْنِي أَنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُمْ مَأْوًى يَأْوُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمَثْوَى وَالْمَسْكَنُ، يَقُولُ: أَسْكَنُوهُمْ وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ مَنَازِلِهِمْ مَسَاكِنَ؛ إِذْ أَخْرَجَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ مَنَازِلِهِمْ ﴿وَنَصَرُوا﴾ يَقُولُ: وَنَصَرُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يَقُولُ: هَاتَانِ الْفِرْقَتَانِ، يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، بَعْضُهُمْ أَنْصَارُ بَعْضٍ، وَأَعْوَانٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَيْدِيهِمْ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَبَعْضُهُمْ إِخْوَانٌ لِبَعْضٍ دُونَ أَقْرِبَائِهِمُ الْكُفَّارِ.] اهـ[3].

---

(1) التوبة، الآية: ﴿71﴾.

(2) الأنفال، الآية: ﴿72﴾.

(3) تفسير الطبري، 289/11. وذكر البغوي أيضًا في تفسيره الآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أَيْ: هَجَرُوا قَوْمَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ مَعَهُ، أَيْ: أَسْكَنُوهُمْ مَنَازِلَهُمْ، ﴿وَنَصَرُوا﴾ أَيْ: وَنَصَرُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَهُمُ الْأَنْصَارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ دُونَ أَقْرِبَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ. قِيلَ: فِي الْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي الْمِيرَاثِ وَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالْهِجْرَةِ، فَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَتَوَارَثُونَ دُونَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، وَكَانَ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ لَا يَرِثُ مِنْ قَرِيبِهِ الْمُهَاجِرِ حَتَّى كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ وَانْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ، وَتَوَارَثُوا بِالْأَرْحَامِ حَيْثُ مَا كَانُوا، وَصَارَ ذَلِكَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الْأَحْزَابُ: 6﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَعْنِي الْمِيرَاثَ، ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ قرأ حمزة: (ولايتهم) بِكَسْرِ الْوَاوِ، وَالْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ، وَهُمَا وَاحِدٌ كَالدِّلَالَةِ وَالدَّلَالَةِ.] اهـ. تفسير البغوي، 312/2.

وأوجب تعالى على المؤمنين نُصرة بعضهم البعض، قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ، الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَالٍ دِينِيٍّ، عَلَى عَدُوٍّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أَيْ: مُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ، فَلَا تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ. وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.] اهـ[2].

الكفار بعضهم أولياء بعض

وكما أنَّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، فقد أخبر تعالى بأَنَّ الكافرين هم أيضًا: بعضهم أولياءُ بعض، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[3]، فقد جاء في تفسير الطبري في تفسير الآية المذكورة آنفًا ما نصه: [قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَوْلَى التَّأْوِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَنْصَارُ بَعْضٍ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْمُقَامَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَتَرْكَ الْهِجْرَةِ؛ لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ مَعْنَى الْوَلِيِّ أَنَّهُ النَّصِيرُ وَالْمُعِينُ أَوِ ابْنُ الْعَمِّ وَالنَّسِيبُ. فَأَمَّا الْوَارِثُ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِيهِ إِلَّا بِمَعْنَى أَنَّهُ يَلِيهِ فِي الْقِيَامِ بِإِرْثِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَذَلِكَ مَعْنًى بَعِيدٌ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَحْتَمِلُهُ الْكَلَامُ. وَتَوْجِيهُ مَعْنَى كَلَامِ اللَّهِ إِلَى الْأَظْهَرِ الْأَشْهَرِ، أَوْلَى مِنْ تَوْجِيهِهِ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ. وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَبَيِّنٌ أَنَّ أَوْلَى التَّأْوِيلَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، تأويلُ مَنْ قَالَ: إِلَّا تَفْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَالنُّصْرَةِ عَلَى الدِّينِ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ؛ إِذْ كَانَ مُبْتَدَأُ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بِالْحَثِّ عَلَى الْمُوَالَاةِ عَلَى الدِّينِ وَالتَّنَاصُرِ جَاءَ، وَكَذَلِكَ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ خَاتِمَتُهَا بِهِ.] اهـ[4].

---

(1) الأنفال، الآية: ﴿72﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 85/4.

(3) الأنفال، الآية: ﴿70﴾.

(4) تفسير الطبري، 299/11.

فالكفار يتناصرون فيما بينهم، ويتعاونون على حماية ونشر باطلهم، ويتعاونون على محاربة الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿19﴾﴾ [1].

الباطلُ أساسُ الموالاةِ بين الكافرين

إنَّ أساسَ الموالاة بين الكافرين هو الباطل عمومًا، فهو أصلُ موالاتهم فيما بينهم، وهو الرابط الذي يربط بعضهم ببعض، وهو السبب في اجتماعهم، وفي نصرة بعضهم البعض، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴿62﴾﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [4].

---

(1) الجاثية، الآية: ﴿19﴾.

(2) الحج، الآية: ﴿62﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية الكريمة بقوله: [لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ، الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَيِ: الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ؛ لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، ذَلِيلٌ لَدَيْهِ، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.] اهـ. تفسير ابن كثير، 393/5.

وذكر الطبري أيضًا في تفسيره الآية الكريمة بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴿62﴾﴾، يعني تعالى ذكره بقوله ﴿ذلكَ﴾ هَذَا الْفِعْلَ الَّذِي فَعَلْتُ مِنْ إِيلَاجِي اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَإِيلَاجِي النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ؛ لِأَنِّي أَنَا الْحَقُّ الَّذِي لَا مِثْلَ لِي، وَلَا شَرِيكَ، وَلَا نِدَّ، وَأَنَّ الَّذِي يَدْعُونهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى صَنْعَةِ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْمَصْنُوعُ، يَقُولُ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَفَتَتْرُكُونَ أَيُّهَا الْجُهَّالُ عِبَادَةَ مَنْ مِنْهُ النَّفْعُ، وَبِيَدِهِ الضُّرُّ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، وَتَعْبُدُونَ الْبَاطِلَ الَّذِي لَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَتُهُ.] اهـ. تفسير الطبري16/621.

وذكر القرطبي أيضًا في تفسيره الآية الكريمة بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَيْ ذُو الْحَقِّ، فَدِينُهُ الْحَقُّ وَعِبَادَتُهُ حَقٌّ. وَالْمُؤْمِنُونَ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ النَّصْرَ بِحُكْمِ وَعْدِهِ الْحَقُّ. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ﴾ أَيِ الْأَصْنَامُ الَّتِي لَا اسْتِحْقَاقَ لَهَا فِي الْعِبَادَاتِ.] اهـ. تفسير القرطبي، 91/12.

(3) لقمان، الآية: ﴿30﴾.

(4) محمد، الآية: ﴿3﴾.

فموالاة الكافرين بعضهم البعض، أساسها الباطل الذي آمنوا به ويدعون إليه، وكل ما سوى الحق، كالكفر والشرك بالله، والاستكبار، والهيمنة، والعلوّ في الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿52﴾﴾[1].

فالكفار قد اتبعوا الباطل بكل أنواعه، كالشرك والكفر والإلحاد، والعقائد والأديان المنحرفة، والأفكار والأيديولوجيات، والنظريات الوضعية، والتعصب للون، والجنس، والأرض.

ومن باطلهم أيضًا، عداوتهم المشتركة للإسلام وأهله، وبغضهم ورفضهم لما أنزل الله، وبغضهم للأهل الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿118﴾ هَاأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿119﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿120﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿1﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿2﴾﴾[3].

---

(1) العنكبوت: ﴿52﴾.

(2) آل عمران، الآيات: ﴿118 – 120﴾. وإنْ كانت الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، فإنها تشمل جميع أقسام الكفار، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره للآيات بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَبِطَانَةُ الرَّجُلِ: هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِ أَمْرِهِ.]، اهـ. تفسير ابن كثير، 92/2.

(3) الممتحنة، الآيتان: ﴿ 1، 2﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴿120﴾﴾[1].

ومن باطلهم أيضًا، والذي يتجمعون حوله، ويتناصرون من أجله فيما بينهم، (المصالح المشتركة) التي ترتكز على أساسٍ عنصريٍ أو ماديٍ، كالمصالح السياسية، والاقتصادية، والجغرافية، وغيرها. فهذا هو أساسُ موالاةِ الكفارِ فيما بينهم.

الباطلُ المتذبذبِ أمامَ الحقِّ الثابِت

وهناك أمرٌ مهمٌّ نود أنْ نلفت الأنظار إليه، حول قضية الموالاة بين الكفار، وذلك كي لا يلتبس الأمر على بعض المسلمين، ومن أجل أنْ لا يقعوا فيه هم أيضًا، أعني (المسلمون)، وهم يحققون ركن الموالاة بينهم.

فعلى الرغم من حقيقة موالاة الكفار بعضهم البعض، فقد نرى في بعض الأحيان وعلى أرض الواقع، قيامَ الكفار بخذلان بعضهم البعض، والنكول عن نُصرة أولياءهم في الباطل وعدم مَدِّ يدِ العون لهم، مما نتعجب من حدوث ذلك فيما بينهم! إذ كيف يستقيم ذلك مع قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ومع ما نرى أحيانًا من تخاذلِ وعدم نصرةٍ بين الكفار أنفسهم؟

والحقيقة، فإن الأمر ليس غريبًا ولا مما يثير العجب، لو رجعنا وأمعنا النظر في أصل موالاتهم ونعني بذلك، الباطل.

إنَّ الجواب على هذا اللبس يكمُنُ في معرفة حقيقة ذلك الباطل الذي هو أصلُ موالاتهم، ومن ثَمَّ علاقة الكفار بذلك الباطل، فنقول:

لما كان هذا الباطل[2] بكل أشكاله وأحواله، غير ثابتٍ وغير مستقرٍ. فهو يتبدل ويتغير بحسب الظروف والأحوال والمصالح، حيث ذلك التذبذبُ وعدمُ الاستقرار، هي حقيقة وطبيعة الباطل بكل أشكاله وصوره. ومثال ذلك: تغيُّر الأفكار عندهم، وتبدّلها وتطورها، وتغيُّر العقائد والمصالح والمستجدات، وتغيُّرُ الأوليات، وغيرها من الباطل الذي يستندون ويركنون إليه، مما ينعكس على الموالاة فيما بينهم. نقول، لما كان

(1) البقرة، الآية: ﴿120﴾.

(2) تحدثنا عن حقيقة هذا الباطل وأشكاله وأحواله، في بداية الفقرة الحالية فارجع إليه، ولا حاجة لإعادته، خشية الإطالة.

هذا التغيَّر في ذلك الباطل المتذبذب، الذي هو أصل موالاتهم، كانت هذه الموالاة غير ثابتة ومتغيرة، تبعًا لذلك، ولا تستند على أصلٍ متين، ولا على ثوابت قوية ورصينة.

ولهذا السبب، فقد يخذِل الكفارُ بعضهم البعض، ويتخلّون عن إخوانهم في الباطل عند الشدائد وفي أحلك الظروف، بسبب تغير المصالح، أو بسبب جُبنٍ وخوف، وتغيُّر في الأولويات عندهم، وغيرها من الأسباب الأخرى. والتاريخ مليءٌ بتلك الشواهد والأحداث على نكول وتخاذل الكفار في موالاة بعضهم البعض.

ومن تلك الأمثلة والشواهد الحية في حياة المسلمين، ما قصَّه علينا القرآن الكريم عما حدث بين المنافقين وأهلِ الكتاب في المدينة المنورة في حياة النبي ﷺ. ونعني بذلك، قصة وعدِ كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ليهود بني النضير لنصرتهم ثم تخليهِ عنهم وتخاذله، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿11﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿12﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿13﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿14﴾﴾[1].

ذكر الطبري في تفسيره للآيات المذكورة بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿11﴾﴾. يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنِ قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَتَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا، وَهُمْ فِيمَا ذُكِرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ، وَوَدِيعَةُ، وَمَالِكٌ ابْنَا نَوْفَلٍ وَسُوَيْدٌ وَدَاعِسٌ بَعَثُوا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ حِينَ نَزَلَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْحَرْبِ أَنِ اثْبُتُوا وَتَمَنَّعُوا، فَإِنَّا لَنْ نُسْلِمَكُمْ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ خَرَجْتُمْ، خَرَجْنَا مَعَكُمْ، فَتَرَبَّصُوا لِذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَذَفَ

(1) الحشر، الآيات: ﴿11 - 14﴾.

اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُمْ، وَيَكُفُّ عَنْ دِمَائِهِمْ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا الْحَلْقَةَ.]، اهـ[1].

ومثالٌ آخر على تغيُّر الموالاة بين الكفار وتبدلها عند تغيُّر المصالح، والتخلّي عن نصرة بعضهم البعض، ما نقله ابن كثير في (البداية والنهاية) عن ابن إسحاق من تخذيل نعيم مسعود للأحزاب وخِداعه ليهود بني قريظة، مما أدى إلى نكول بني قريظة عن نُصرة المشركين في غزوة الخندق[2].

---

(1) تفسير الطبري، 534/22. وذكر ابن كثير في تفسيره للآيات المذكورة، أيضًا بقوله: [يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَضْرَابِهِ، حِينَ بَعَثُوا إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ يَعِدُونَهم النَّصْرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيْ: لَكَاذِبُونَ فِيمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ إِمَّا أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُمْ قَوْلًا مِنْ نِيَّتِهِمْ أَلَّا يَفُوا لَهُمْ بِهِ، وَإِمَّا أَنَّهُمْ لَا يَقَعُ مِنْهُمُ الَّذِي قَالُوهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ أَيْ: لَا يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ، ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ أَيْ: قَاتَلُوا مَعَهُمْ ﴿لَيُوَلُّنَّ الأدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ وَهَذِهِ بِشَارَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لأنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ: يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النِّسَاءِ: 77)؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾، يَعْنِي: أَنَّهُمْ مِنْ جُبنهم وهَلَعهم لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجَهَةِ جَيْشِ الْإِسْلَامِ بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُقَابَلَةِ بَلْ إِمَّا فِي حُصُونٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ مُحَاصَرِينَ، فَيُقَاتِلُونَ للدفع عنهم ضرورة. ثُمَّ قَالَ ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أَيْ: عَدَاوَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الْأَنْعَامِ: ٦٥)؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أَيْ: تَرَاهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَتَحْسَبُهُمْ مُؤْتَلِفِينَ، وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ غَايَةَ الاخْتِلَافِ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 103/8.

(2) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ما نصه: [وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فيما وَصَفَ اللَّهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالشِّدَّةِ لِتَظَاهُرِ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ وَإِتْيَانِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ. قَالَ ثُمَّ إِنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودِ بن عَامِرِ بْنِ أُنَيْفِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ قُنْفُذِ بن هلال بن خلاوه بن أشجع بن رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ﴾. فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ: قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ، وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. قَالُوا: صَدَقْتَ، لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ. فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَتَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ، لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ. قَالُوا: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي. قَالُوا: نَفْعَلُ. قَالَ: تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ، فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى تَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ. فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ، فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي. قَالُوا: صَدَقْتَ مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ. قَالَ: فَاكْتُمُوا عَنِّي. قَالُوا: نَفْعَلُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ، وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ. فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ، وَكَانَ مِنْ صنيع اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَرُءُوسُ غَطَفَانَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، فَقَالَ لهم: إنا لسنا بدار مقام، هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ، فَأَعِدُّوا لِلْقِتَالِ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، وَنَفْرُغَ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَهُوَ يَوْمٌ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَقَدْ كَانَ أَحْدَثَ فِيهِ بَعْضُنَا حَدَثًا، فَأَصَابَهُمْ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ، وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينِ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِينَا ثِقَةً لَنَا، حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَى إِنْ ضَرَّسَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْكُمُ

من أجل ذلك فقد أخبر تعالى أنَّ الكفار لا مولى لهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴿11﴾﴾(1).

وأنَّ الكفار، أولياؤهم الطاغوت، فهو يُضلُّهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿257﴾﴾(2).

وأنهم يقاتلون من أجل الطاغوت، ولذلك سماهم تعالى: (أولياء الشيطان)، وطمأنَ تعالى المؤمنين، لأنهم يقاتلون في سبيله، وأمَرَهم بعدم الخوف منهم، لأنَّ كيد الشيطان ضعيف، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

الْقِتَالُ، أَنْ تَنْشَمِرُوا إِلَى بِلَادِكُمْ، وَتَتْرُكُونَا وَالرَّجُلَ فِي بِلَادِنَا، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِذَلِكَ مِنْهُ. فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، قَالَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ: وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي حَدَّثَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ. فأرسلوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْقِتَالَ، فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا. فَقَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ حِينَ انْتَهَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بِهَذَا: إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، مَا يُرِيدُ الْقَوْمُ إِلَّا أَنْ تُقَاتِلُوا، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ انْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ فِي بَلَدِكُمْ. فَأَرْسَلُوا إِلَى قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ وَخَذَّلَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ شديدة البرد، فجعلت تَكفأُ قُدورهم وَتطرحُ آنيتهم.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قِصَّةِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ أَحْسَنُ مِمَّا ذَكَرَهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ. وَقَدْ أَوْرَدَهُ عَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ مَا حَاصِلُهُ أَنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يُذِيعُ مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْحَدِيثِ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ عِشَاءً، فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ تَعَالَ، فَجَاءَ فَقَالَ:

مَا وَرَاءَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ فيناجزوك، فقالت قُرَيْظَةُ: نَعَمْ، فَأَرْسِلُوا إِلَيْنَا بِالرُّهُنِ. وَقَدْ ذَكَرَ فيما تَقَدَّمَ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ عَلَى يَدَيْ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ بِشَرْطِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِرَهَائِنَ تَكُونُ عِنْدَهُمْ تَوْثِقَةً، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ﴾، قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلْحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾. فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ عَامِدًا إِلَى غَطَفَانَ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الْحَرْبُ خَدْعَةٌ وَعَسَى أَنْ يَصْنَعَ اللَّهُ لَنَا﴾، فَأَتَى نُعَيْمٌ غَطَفَانَ وَقُرَيْشًا فَأَعْلَمَهُمْ، فَبَادَرَ الْقَوْمُ، وَأَرْسَلُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرِمَةَ وَجَمَاعَةً مَعَهُ، وَاتَّفَقَ ذَلِكَ لَيْلَةَ السَّبْتِ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا لِلْقِتَالِ مَعَهُمْ. فَاعْتَلَّتِ الْيَهُودُ بِالسَّبْتِ، ثُمَّ أَيْضًا طَلَبُوا الرُّهُنَ تَوْثِقَةً، فَأَوْقَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَاخْتَلَفُوا.

قُلْتُ: وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْظَةُ لَمَّا يَئِسُوا مِنِ انْتِظَامِ أَمْرِهِمْ مَعَ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُونَ مِنْهُ الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَرُدَّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا اخْتَلَفَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَا فرّق الله من جمعهم دَعَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَبَعَثَهُ إِلَيْهِمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ لَيْلًا.] اهـ. البداية والنهاية، ابن كثير، 111/4.

قال الألباني في تخريجه لأحاديث (فقه السيرة): ذكر هذه القصة ابن إسحاق بدون إسناد وعنه ابن هشام، 193/2. لكن قوله ﷺ: ﴿الحرب خدعة﴾ صحيح متواتر عنه ﷺ، رواه الشيخان من حديث جابر وأبي هريرة وغيرهما. وقال الدكتور العمري: (هذه الروايات لا تثبت من الناحية الحديثة، ولكنها اشتهرت في كتب السيرة). اهـ. السيرة النبوية الصحيحة، 2/430.

(1) محمد، الآية: ﴿11﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْنَا بِهَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ: فَرِيقِ الْإِيمَانِ، وَفَرِيقِ الْكُفْرِ، مِنْ نُصْرَتِنَا فَرِيقَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَتَثْبِيتِنَا أَقْدَامَهُمْ، وَتَدْمِيرِنَا عَلَى فَرِيقِ الْكُفْرِ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُ: مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ وَلِي مَنْ آمَنَ بِهِ، وَأَطَاعَ رَسُولَهُ. وقوله ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾، يَقُولُ: وَبِأَنَّ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ لَا وَلِيَ لَهُمْ، وَلَا نَاصِرَ.] اهـ. تفسير الطبري، 196/21.

(2) البقرة، الآية: ﴿257﴾.

يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿76﴾﴾[1].

فالكفار يجمعهم الكفر بالله، والحقد على الإسلام وأهله، ونصرة آلهتهم الباطلة، وضلالاتهم وبدعهم، وتحقيق المصالح الدنيوية، وغيرها.

أساسُ الموالاةُ بين المؤمنين: موالاةُ اللهِ ورسولِهِ

أما موالاة المؤمنين، فشتَّان بينها وبين موالاة الكافرين لبعضهم البعض.

فموالاة المؤمنين أساسها: (موالاة الله ورسوله)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿55﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿56﴾﴾[2]، أي: محبتهما، والقرب منهما بطاعتهم في كل ما أمروا به ونهوا عنه.

وتعني — أي (موالاة الله ورسوله) - أيضًا، نُصرة الله ورسوله، وذلك بإقامة دين الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

وتعني أيضًا، طلب النُّصرة والعون من الله تعالى والتضرع إليه والإقبال عليه، والتوسل إليه بإتِّباع شرعه تعالى وسنة نبيه ﷺ، فهذا سببٌ مهمٌّ من أسباب استجلاب النصر والعون والتأييد من الله تعالى.

وبناءً على (موالاة الله ورسوله) ومعانيها تلك، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، يحب بعضهم بعضًا، ويتناصرون فيما بينهم، ويتعاونون على إقامة دين الله في الأرض، وعلى إعانة المحتاجين منهم وإغاثة الملهوف، ودفع الأذى والعدوان عنهم، وصدِّ العدوِ الصائِلِ عن بلاد المسلمين وحُرماتهم.

(الموالاةُ بين المؤمنين ثابتةٌ، لا تحكمُها أفكار وعقائدُ وضعيةٌ، وأهواءٌ تخضعُ للتغيير والتطوير!)

فهذه الموالاة، ثابتةٌ بين المسلمين مهما كانت الظروف، واختلفت البُلدان والأجناس، وتباعدت المسافات فيما بينهم، ما داموا مسلمين موحدين، يؤمنون بالله ورسوله، ويقيمون شرعَ اللهِ وسُنَّة نبيه ﷺ.

فهي —أي الموالاة بين المسلمين— لا تتغير ولا تتبدل، كما هو الحال مع موالاة الكافرين فيما بينهم.

---

(1) النساء، الآية: ﴿76﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿55، 56﴾.

فالموالاة بين المؤمنين لا تحكمها أفكارٌ وعقائدُ وضعيةٌ وأهواءٌ تخضع للتغيير والتطوير!

وهي موالاةٌ لا تتأثر ولا تخضع إلى حدودٍ جغرافية، أو أصولٍ عرقية، أو جنسية، أو مصالحَ سياسية، أو اقتصادية، أو مالية، أو غيرها من المصالح الأخرى التي تقبل التغيير والمساومة. ولا تتعطل الموالاة بين المسلمين بسبب نظام الحكم والفكر السياسي الذي يحكم ذلك البلد المسلم.

(وجوبُ نُصرةِ المسلمين، بغضّ النظرِ عن نظامِ الحُكمِ والحاكمِ الذي يحكُم ذلك البلدِ المسلم)

ومثال ذلك، لو تعرض بلد مسلمٌ، عامة شعبه مسلمون، وكان الإسلام هو الدين الغالب في البلد. وكان ذلك البلد المسلم يحكمه نظام علماني أو حزبي متسلط، ذو عقيدة وأيديولوجية مخالفة للإسلام كليًّا أو جزئيًّا، كالقومية، أو الاشتراكية، أو الرأسمالية، أو غيرها من الأفكار. ففي تلك الحالة، لا يمنع نظامُ الحكم هذا، ولا الأفكار والعقائد الحاكمة والسائدة، من نُصرة ذلك البلد المسلم، ومد يد العون ونُصرة السواد الأعظم من المسلمين، من أجل المحافظة على أرض المسلمين المتمثلة بذلك البلد.

ووجه السبب في وجوبِ نُصرةِ المسلمين والبلد المسلم المعتدى عليه، بغض النظر عما ذكرناه آنفًا من أنظمة الأفكار والعقائد الوضعية الحاكمة في ذلك البلد المسلم المعتدى عليه، وهو أنَّ أعداء المسلمين إنما يحاربون المسلمينَ من أجل دينهم وعقيدتهم! وإنْ تظاهروا وادَّعوا معاداتهم لذلك الحاكم، أو لنظام الحكم، أو من أجل تحرير الناس، ودفع الظلم والاضطهاد عنهم، كما يدَّعون زورًا وكذبًا.

إنّ مقصد أعداء المسلمين وغايتهم الرئيسية من محاربة المسلمين، إنما هو من أجل صدِّهم عن دينهم وعقيدتهم، كما أخبر تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿217﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿217﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿109﴾.

ومن أهدافهم أيضًا، في محاربة المسلمين، وذلك للسيطرة على أرض المسلمين، ونهبِ ثرواتهم وخيراتهم، وبسطِ نفوذهم على بلاد المسلمين، وجعلها مُمزقة ومجزأة وتابعة لهم ولسلطانهم، تأتمر بأمرهم وتدور في فلكهم، كي لا تملك أمرها واستقلاليتها وسيادتها. وللأسف، فواقع المسلمين اليوم، وحالهم وحال بلاد المسلمين، لهو خير شاهد على ذلك.

(الحاكمُ الظالمُ المُتسلّط في البلد المسلم، ونظامُ الحكمِ والفكرِ المخالف للإسلام، والباطل بكل أشكاله، مهما طال أَمَدُهُ، لا بد له من نهاية وزوال، وبعد ذلك يبقى الناس على دينهم وعقيدتهم الإسلامية، ويبقى ذلك البلد أرضًا إسلامية)

وسببٌ آخرٌ ومهمٌّ في وجوب نصرة المسلمين والبلد المسلم المعتدى عليه، خصوصًا التي قد تحكمه أنظمة وأفكار وعقائد مخالفة للإسلام. والحقيقة أنه سببٌ خطير، يلتبس على كثير من المسلمين، وعواقبه وخيمة إذا لم يفطن له المسلمون. ذلك السبب مفاده، أنَّ ذلك الحاكم الظالم المتسلط، ونظام الحكم والفكر المخالف للإسلام، والباطل بكل أشكاله، مهما طال أَمَدُهُ، لا بد له من نهاية وزوال، فتلك سنة الله تعالى في الأرض، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴿17﴾﴾[1].

ثم من بعد زوال ذلك الباطل وذلك الحاكم، يبقى الناس على دينهم وعقيدتهم الإسلامية، ويبقى ذلك البلد أرضًا إسلامية كما كان، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴿137﴾﴾[2].

لهذا كان واجبًا على المسلمين نصرتهم، حفاظًا على أرض الإسلام وعلى المسلمين المستضعفين، لئلا يُفتنوا عن دينهم بتسلط الكفار عليهم، وضياع أرض المسلمين، وتناقصها يوم بعد يوم، قال تعالى: ﴿وَمَا

(1) الرعد، الآية: ﴿17﴾.

(2) الأعراف، الآية: ﴿137﴾.

لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِن الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾[1].

لقد جمع تعالى تلك الأقسام الثلاثة من الموالاة، أعني: **(موالاة الله ورسوله والمؤمنين)** في موضع واحد من كتابه الكريم، وعقَّب تعالى بعدها مباشرة، وأطلق على هؤلاء المؤمنين الذي يحققون تلك الولاية الثلاثية اسم (حزب الله)، وأخبرهم بالنصر والغلبة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿55﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُم الْغَالِبُونَ ﴿56﴾﴾ (2).

وأخبر تعالى في غير موضع من القرآن الكريم أنّه ولي المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، أخبر تعالى أنَّه وليُّ المؤمنين، أي أنَّهُ يهديهم، ويخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[4].

وطمأن تعالى المؤمنين وأخبرهم أنَّهُ مولاهم وناصرهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿40﴾﴾[5].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أَيْ: وَإِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارَبَتِكُمْ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ﴾ سَيِّدُكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.] اهـ[6].

(1) النساء، الآية: ﴿75﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿55﴾.

(3) آل عمران، الآية: ﴿68﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿257﴾.

(5) الأنفال، الآية: ﴿40﴾.

(6) تفسير ابن كثير، 50/4.

موالاة الله عصمة من الجُبْن والضُّعف والتخاذل والردة

وأخبر تعالى المؤمنين أنَّ ولايته لهم مستمرة ولا تنقطع، حتى عند ضَعفهم وهَمِّهم بالمعصية ومخالفة أوامره، فهو تعالى جل شأنه يتولَّاهم ويرحمهم ويحميهم من الوقوع فيها، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

ذكر الطبري في تفسيره للآية بقوله: [حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾، الْآيَةَ، وَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَالطَّائِفَتَانِ: بَنُو سَلَمَةَ، وَبَنُو حَارِثَةَ، حَيَّانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، هَمُّوا بِأَمْرٍ، فَعَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ قَتَادَةُ: وَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالُوا: مَا يَسُرُّنَا أَنَّا لَمْ نَهُمَّ بِالَّذِي هَمَمْنَا بِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ أَنَّهُ وَلِيُّنَا.

قال أبو جعفر: وَكَانَ هَمُّهُمَا الَّذِي هَمَّا بِهِ مِنَ الْفَشَلِ: الانْصِرَافَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، حِينَ انْصَرَفَ عَنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُول بِمَنْ مَعَهُ، جُبْنًا مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا نِفَاقٍ؛ فَعَصَمَهُمُ اللَّهُ مِمَّا هَمُّوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَضَوْا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِوَجْهِهِ الَّذِي مَضَى لَهُ، وَتَرَكُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُول وَالْمُنَافِقِينَ مَعَهُ، فَأَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمَا بِثُبُوتِهِمَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ وَلِيُّهُمَا وَنَاصِرُهُمَا عَلَى أَعْدَائِهِمَا مِنَ الْكُفَّارِ، كَمَا: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا سَلَمَةُ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أَيِ الدَّافِعُ عَنْهُمَا مَا هُمَا بِهِ مِنْ فَشَلِهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمَا عَنْ ضَعْفٍ وَوَهَنٍ أَصَابَهُمَا، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَصَابَهُمَا فِي دِينِهِمَا، فَتَوَلَّى دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمَا بِرَحْمَتِهِ وَعَائِدَتِهِ، حَتَّى سَلِمَتَا مِنْ وَهَنِهِمَا وَضَعْفِهِمَا، وَلَحِقَتَا بِنَبِيِّهِمَا ﷺ؛ يَقُولُ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ مَنْ كَانَ بِهِ ضَعْفٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ وَهْنٌ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَيَّ وَلْيَسْتَعِنْ بِي أُعِنْهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَدْفَعْ عَنْهُ، حَتَّى أَبْلُغَ بِهِ وَأُقَوِّيَهُ عَلَى نِيَّتِهِ.] اهـ بإيجاز[2].

وإذا قَدَّرَ أنْ يقعَ أولياؤه المؤمنون في المعصية، فتحَ تعالى لهم باب التوبة والإنابة والرجوع إليه، فيقبلهم ويعفو عنهم. كما كان للثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴿116﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴿117﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا

(1) آل عمران، الآية: ﴿122﴾.

(2) تفسير الطبري، 14/6.

رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِن اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿118﴾﴾[1].

ذكر صديق خان في تفسيره الآية بقوله: [(ثم تاب) أي رجع (عليهم) بالقبول والرحمة وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة (ليتوبوا) عنها ويرجعوا فيها إلى الله، ويندموا على ما وقع منهم، ويحصلوا التوبة وينشؤوها فحصل التغاير وصح التعليل (إن الله هو التواب) أي الكثير القبول لتوبة التائبين (الرحيم) أي الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده.][2].

ونفى تعالى عن أوليائه المؤمنين الخوف والحزن، لأنهم في حفظ الله وكنفه وتأييده، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿62﴾﴾[3].

الملائكة أيضًا أولياء المؤمنين

وأخبر تعالى ﷺ أنَّ الملائكة أولياء المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿31﴾﴾[4].

ففي الدنيا، تحميهم وتنصرهم بأمر الله تعالى، كما ﷺ حدث يوم بدر من إنزال الملائكة للقتال مع المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿123﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿124﴾﴾[5].
وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿9﴾﴾[6].

(1) التوبة، الآيات: ﴿116 – 118﴾.

(2) فتح البيان، صديق حسن خان، 120/5.

(3) يونس، الآية: ﴿62﴾.

(4) فصلت، الآية: ﴿31﴾.

(5) آل عمران، الآيتان: ﴿123، 124﴾.

(6) الأنفال، الآية: ﴿9﴾.

وعند الموت تتنزل عليهم لتبشرهم بالجنة والنعيم المقيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿31﴾﴾[1].

وذلك لأنَّ المؤمنين يجمعهم الإيمان بالله ورسوله، والاعتصام بحبل الله المتين، والحب في الله، والإيثار والتضحية من أجل نصرة الكتاب والسنة، فلا مطمع دنيوي لهم غير الفوز بالجنة.

النهي عن موالاة الكفار

وضِد الولاء، البراء، أي البراءةُ من الكفار، وعدم موالاتهم، ومحبَّتهم ونُصرتهم، واتخاذهم أعوان ضد المسلمين.

لقد نهى القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن موالاة الكفار على اختلاف مِللهم ونِحلهم، وحذَّر المسلمين من فعل ذلك أشد تحذير ووعيد. وكما هو معلوم، فالكفار أصناف كثيرة، كالمنافقين، والمشركين، والملحدين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس، وغيرهم. وما سنذكره هنا من نهي عن موالاتهم، يشمل أصناف الكفار جميعًا وبلا استثناء.

ومثال ذلك، ما نهى تعالى المسلمين عن موالاة المنافقين ومحبتهم وصحبتهم. وأخبر تعالى أنَّهم يودُّوا لو تركَ المسلمون دينهم وكفروا مثلهم، فلا تكون للمسلمين حينئذ مزيةً عليهم. وهذا هو حالُ ورغبة جميع الكفار على اختلاف أصنافهم، مع أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿89﴾﴾[2]).

وعن المشركين والتحذير من موالاتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ

(1) فصلت، الآية: ﴿31﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿89﴾.

رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿1﴾﴾[1].

وعن البراءة وعدم تولّي الكفار عمومًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿144﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَن اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُصَادَقَتَهُمْ وَمُنَاصَحَتَهُمْ، وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ٢٨)، أَيْ: يُحَذِّرُكُمْ عُقُوبَتَهُ فِي ارْتِكَابِكُمْ نَهْيَهُ. وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أَيْ: حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ.] اهـ[3].

ولمكانة وعِظَمِ أمرِ الموالاة في الدين، فقد نهى القرآنُ الكريم المسلمين عن اتخاذ الكافرين أولياء، حتى لو كانوا من أقرب الناس رحِمًا ونسبًا، كالوالدين والإخوة وغيرهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿23﴾﴾[4].

---

(1) الممتحنة، الآية: ﴿1﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿144﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 390/2.

(4) التوبة، الآية: ﴿23﴾.

النهيُ عن موالاةِ أهلِ الكتابِ على وجهِ الخصوص

بالرغم من نهي القرآن الكريم عن موالاة الكفار عمومًا، فقد جاء النص بالتأكيد على أقسام معينة منهم، كأهل الكتاب بالتحديد. فقد جاء التأكيد في النهي عن موالاتهم، لئلَّا يتوهم أحد، ويقول: ما دام أنَّهم أهل كتاب، فهم أقرب إلينا نحن المسلمين[1].

فقد نهى —سبحانه— المسلمين عن موالاة اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿51﴾﴾[2].

حيث أخبر سبحانه: أَنَّ من يتولَّهُم، يَكْفُر مِثلَهُم، ويَصير من عِدادِهم. ذكر الطبري في تفسيره للآية بعد أنْ ساق مجموعة من الروايات عن أسباب نزول الآية المذكورة، ومن كان المقصود بها بالتحديد، فقال: [وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا أَنْ يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَنْصَارًا وَحُلَفَاءَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَنِ اتَّخَذَهُمْ نَصِيرًا وَحَلِيفًا وَوَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ فِي التَّحَزُّبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْهُ بَرِيئَانِ. وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ وَحُلَفَائِهِمَا مِنَ الْيَهُودِ. وَيَجُوزُ

---

(1) قد يقول قائل: ولكن الله تعالى قد ذكر في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴿82﴾وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿83﴾وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴿84﴾فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴿85﴾وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴿86﴾﴾ (المائدة: 82 – 86).

ونقول: قد نزلت هذه الآيات في واقعة مخصوصة، وإنِ اختلف أهل التفسير فيها، فهي محصورة في (النجاشي) أو في وفدٍ أرسله، أو وفدٍ قدِم من الحبشة إلى رسول الله ﷺ في المدينة (يراجع أسباب النزول للسيوطي).

ثم إنْ قيل: ولكنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فنقول: قد تجد في أهل الكتاب من النصارى، وربما من اليهود أيضًا، من في قلبه رحمة ومودة، وإنصات لكلام الله وتأثر، ولكن هذا نادر وشاذ، ونحن نتكلم عن العموم. ونورد هنا كلام للبغوي في تفسيره للآيات المذكورة آنفًا، مما يؤيد كلامنا.

وذكر البغوي في تفسيره الآيات بقوله: [قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يَعْنِي: مُشْرِكِي الْعَرَبِ، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ جَمِيعَ النَّصَارَى لِأَنَّهُمْ فِي عَدَاوَتِهِمُ الْمُسْلِمِينَ كَالْيَهُودِ فِي قَتْلِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَأَسْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ بِلَادِهِمْ وَهَدْمِ مَسَاجِدِهِمْ وَإِحْرَاقِ مَصَاحِفِهِمْ، لَا وَلَاءَ، وَلَا كَرَامَةَ لَهُمْ، بَلِ الْآيَةُ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ مِثْلُ النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ، [وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي جَمِيعِ الْيَهُودِ وَجَمِيعِ النَّصَارَى، لِأَنَّ الْيَهُودَ أَقْسَى قَلْبًا وَالنَّصَارَى أَلْيَنُ قَلْبًا مِنْهُمْ، وَكَانُوا أَقَلَّ مُظَاهَرَةً لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْيَهُودِ.] اهـ. تفسير البغوي، 74/2.

(2) المائدة، الآية: ﴿51﴾.

أَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بِسَبَبِ فِعْلِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَ السُّدِّيُّ أَنَّ أَحَدَهُمَا هَمَّ بِاللَّحَاقِ بِدَهْلَكَ الْيَهُودِيِّ، وَالْآخَرُ بِنَصْرَانِيٍّ بِالشَّأْمِ. وَلَمْ يَصِحَّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ خَبَرٌ يَثْبُتُ بِمِثْلِهِ حُجَّةٌ فَيُسَلَّمُ لِصِحَّتِهِ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَمَا قِيلَ. فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالصَّوَابُ أَنْ يُحْكَمَ لِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ بِالْعُمُومِ عَلَى مَا عَمَّ. وَيَجُوزُ مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيهِ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِخِلَافِهِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُنَافِقٍ كَانَ يُوَالِي يَهُودَ أَوْ نَصَارَى، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ دَوَائِرِ الدَّهْرِ.] اهـ[1].

وأكد تعالى النهي عن موالاة من استهزأ بالإسلام والمسلمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿57﴾﴾[2].

إعلانُ البراءةِ من الكفار

ومجرد إعلان عدم موالاة الكفار وحدها لا تكفي، بل ينبغي أنْ يَتبع ذلك العمل، أي: تحقيق القسم الثاني من مفهوم (الولاء والبراء)، وهو: البراءة من الكفار. ونعني بالبراءة من الكفار، أي معاداتهم، وبُغضهم، والكُفر بمعتقداتهم التي تخالف الإسلام، وغيرها مما يتعلق بلوازم تحقيق البراء. وَقَدْ مَدَحَ تَعَالَى نَبِيَّهُ إِبْرَاهِيم – عليهِ السَّلَام – وَأَتْبَاعَهُ الْمُؤْمِنينَ بِتَبَرُّئِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ الْكُفَّارُ، وإعلانهم ذلك صراحةً. وأَمَرنا تعالى نحن المسلمون باتخاذهم قدوةً حسنةً، وعدم موالاة الكفار والبراءة منهم، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[3].

(1) تفسير الطبري، 8/507.

(2) المائدة، الآية: ﴿57﴾.

(3) الممتحنة، الآية: ﴿4﴾.

الكُفر والرِّدةُ لمن يُوالي الكفار

وموالاة الكفار عمومًا إنما هي بمثابة رِدَّةٌ عن دين الله، فقد أخبر تعالى المؤمنين، أنّ من يتولَّ الكافرين، فالله بريءٌ منهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾(1).

وأخبر تعالى صراحةً بكُفر من يتولَّى الكفار، ونفى عنهم الإيمان باللهِ ورسوله وبما أنزل إليه، وضرب مثالًا على ذلك، موالاةَ المنافقين لليهود، قال تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿78﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿79﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿80﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿81﴾﴾(2).

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿28﴾.

(2) المائدة، الآيات: ﴿78 – 81﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآيات المذكورة بقوله: [يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ لِلَّهِ وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ. ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ: كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِيُحَذِّرَ أَنْ يُرْكَبَ مِثْلُ الَّذِي ارْتَكَبُوا، فَقَالَ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ حَدَّثَنَا شَرِيك بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمة عَنْ أَبِي عُبَيدة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ –قَالَ يَزِيدُ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَأَسْوَاقِهِمْ–وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ. فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: ﴿لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا.﴾. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّفَيْلِي، حَدَّثَنَا يُونُسُ بن راشد، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بني إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولتَنهون عَنِ الْمُنْكَرِ، ولتأخذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولتَأطرنَّه عَلَى الْحَقِّ أطْرا، أَوْ تَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا.﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مُوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرْكَهُمْ مُوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي أَعْقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَسْخَطَتِ اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُخْطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 154/3، باختصار.

شبهة وردها

لقد دحضَ الحقُّ سبحانه حُجةَ نفرٍ من المنافقين – وبالأخص أُبي بن سلول – ممن كان يتولى الكفار من أهل الكتاب، ووصف تعالى هذا النفر أَنَّ في قلوبهم مرضٌ، لأنَّهم يدَّعون، أنَّهم بموالاتهم لأولئك الكفار، إنَّما يدفعون عن أنفسهم أذاهم وبأسهم وعداوتهم.

فبعد أنْ نهى تعالى المؤمنين عن موالاةِ اليهودَ والنصارى في الآية التي ذكرناها سابقًا[1]، عقَّب مباشرةً بدفع حُجَّةِ من يتولّاهم، فقال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿52﴾﴾[2].

ومن الجدير بالذكر أَنَّ القرآن الكريم غالبًا ما يطلق وصفَ: (في قلوبهم مرض)، على المنافقين، فليحذر المسلم ذلك.

وترى البعض الآخر يوالي الكفار من أجل أنْ يعتزوا وينتصروا بهم، فرَدَّ القرآن الكريم عليهم، بأَنَّ العزة لله، وذلك بالاعتصام بحبلهِ، واتّباعِ صِراطهِ المستقيم، وموالاة أوليائه، والبراءة من أعدائه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿139﴾﴾[3].

ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴿139﴾﴾، قال أبو جعفر: أما قوله جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فَمِنْ صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ. يَقُولُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: يَا مُحَمَّدُ، بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَهْلَ الْكُفْرِ بِي وَالْإِلْحَادِ فِي دِينِي ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: يَعْنِي أَنْصَارًا وَأَخِلَّاءَ ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يَعْنِي: مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، يَقُولُ: أَيَطْلُبُونَ عِنْدَهُمُ الْمَنَعَةَ وَالْقُوَّةَ بِاتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِي؟ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، يَقُولُ: فَإِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ

(1) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿51﴾﴾، المائدة، الآية: ﴿51﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿52﴾.

(3) النساء، الآية: ﴿139﴾.

أَوْلِيَاءَ ابْتِغَاءَ الْعِزَّةِ عِنْدَهُمْ، هُمُ الْأَذِلَّاءُ الْأَقِلَّاءُ، فَهَلَا اتَّخَذُوا الْأَوْلِيَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَلْتَمِسُوا الْعِزَّةَ وَالْمَنَعَةُ وَالنُّصْرَةَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمَنْعَةُ، الَّذِي يُعِزُّ مَنْ يَشَاءٍ، وَيُذِلَّ مَنْ يَشَاءُ، فَيُعِزَّهُمْ وَيَمْنَعَهُمْ؟] اهـ[1].

العِلَّة في النهي عن موالاةِ الكفار

تكلمنا عن عقيدة (**الولاء والبراء**) في ديننا، وبيَّنا أنّ أيمانَ المسلمِ وتوحيده لا يتم إلا بتحقيق ركني الموالاة، أعني (**الولاء والبراء**). فموالاة المسلم لا تتم حتى يتبرأ من الكفار.

وربما يسأل سائل، ما العلة في النهي عن موالاة الكفار ووجوب البراءة منهم؟ وما الضير من القرب منهم ومحبتهم والتودد إليهم؟ أليس ذلك يُسهِّلُ على المسلم دعوتهم؟ أليس ذلك أدعى لهم لمعرفة الإسلام عن قرب والتأثر به[2]؟ وهكذا غيرها من الحجج والمبررات التي يجادل به بعض المسلمين ممن يجهل عقيدة الولاء والبراء، فنقول:

إنَّ العِلَّة في النهي عن موالاة الكفار وذلك للأسباب الرئيسية الاتية:

أولًا: الكفار أعداء الله

إنَّ من بينِ أهم أسباب النهي عن موالاة الكفار، والتي بينها تعالى لعباده المؤمنين: أَنَّ الكفار أعداءُ اللهِ، وبالتالي، فهم أعداءٌ لرسوله، وأعداءٌ للمؤمنين الذين آمنوا بالله وبرسوله. فالكفار جميعًا، لا يؤمنون بالدين الذي يؤمن به المسلمون. وقد أخرج الكفارُ رسولَ الله ﷺ والمؤمنين من ديارهم من مكة، ونهبوا أموالهم ومتاعهم، واستحوذوا عليها ظلمًا وعدوانًا. وهذا هو ديدن الكفار في كل عصر وحين، حيث يحاربون المسلمين، ويحتلون بلادهم، وقد يُخرجونهم من ديارهم، وربما يطاردونهم أينما ذهبوا واستقروا، ويضطهدونهم، فيضطر المؤمنون لترك ديارهم، هربًا بدينهم، وإنقاذًا لأرواحهم ودمائهم، فكيف يجوز للمؤمنين أنْ يُوادّوهم ويوالوهم! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي

(1) تفسير الطبري، 601/7.

(2) سيأتي الحديث لاحقًا في هذا الفصل عن جواز (البر والإحسان) للكفار غير المحاربين.

وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿1﴾﴾[1].

فكيف يستقيم لأولياء الله –أي المؤمنين– أنْ يوالوا أعداءَ وليّهم ومحبوبهم ومعبودهم، سبحانه وتعالى؟ فينبغي لكل مسلمٍ يؤمن بالله ويحبه ويوقِّره ويعبده، أنْ يفهم معنى موالاة الكفار، فلا يجوز لمسلمٍ أنْ يحبَّ ويستنصِرَ، وينَصُرَ ويوقِّرَ مَنْ عادى اللهَ تعالى، الذي هو محبوبُ ومعبودُ ووليُّ كلَّ مؤمنٍ ومُسلمٍ.

ثانيًا: موالاة الكفار تُفسِدُ دينَ المسلمِ وعقيدتَه، وتُضْعفُ الدعوةَ إلى الله في قلبه

من البديهي أنَّ المسلمَ إذا والى الكفارَ وتقرَّب منهم ولم يتبرأ منهم ومن كُفرهم، فإنَّ ذلك سيؤدي بمرور الزمن إلى فسادِ دينه وعقيدته بما يراهُ ويسمعهُ، ومما سيألفه، من أفكارِ ودينِ وعقيدةِ الكفار. وهذا بالتالي سيؤدي أيضًا، إلى ضَعفِ وتَهوينِ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(الدعوة إلى الله) في قلبِ المسلمِ. وفي النهاية، سيجرُّ ذلك حتمًا إلى توقف المسلم نهائيًّا عن الدعوة إلى الله. وقد يحدث أسوأ من ذلك، وهو موافقة الكفارِ على كفرهم، وانسلاخِ المسلم عن دينه وعقيدته شيئًا فشيئًا، من حيث يعلمُ أو لا يعلم! فهذا سببٌ خطيرٌ آخرَ يوضِّح العِلَّةَ في النَّهي عن مُوالاةِ الكفار.

من أجل ذلك، فقد حذَّر القرآن الكريم المسلمين أشدَّ التحذير من اتخاذ الكفار أولياء، واختلاطهم بالكفار بدون مصلحة ضرورية، مما يؤدي إلى فساد دين المسلمين وعقيدتهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿73﴾﴾[2]. فقد ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، قَطَعَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، كَمَا قَالَ. الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ: عَنْ أُسَامَةَ، عن النبي ﷺ قال: ﴿لا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا﴾ ثم قرأَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. قُلْتُ: الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ﴾. وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ، مِنْ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى﴾، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، إلى أَنْ قال: ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ اي: إِنْ

[1] الممتحنة، الآية: ﴿1﴾.

[2] الأنفال، الآية: ﴿70﴾.

لم تُجانِبوا المشركين وتُوالوا المؤمنين، وإلَّا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمرِ، واختلاطُ المؤمنُ بالكافر، فيقعَ بين الناسِ فسادٌ مُنتشرٌ طويل عريض.] اهـ[1].

فما أحسنَ قولَ ابن كثيرٍ (رحمه الله) في تفسيره للآية المذكورة الذي أوردناه أعلاه، وذلك بقوله: **(إنْ لم تُجانِبوا المشركين وتُوالوا المؤمنين، وإلَّا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمرِ، واختلاطُ المؤمنُ بالكافر، فيقعَ بين الناسِ فسادٌ مُنتشرٌ طويل عريض.)**

ثالثًا: استهزاء الكفار بالدين

وأخبر تعالى أنَّ الكفار يسخرون ويستهزئون بديننا، فكيف يوالي المؤمنون من لا يُقيم وزنًا لكتاب الله، ولا لرسوله، ولشعائر الإسلام، ومن يجعلْ ذلك كله مَحلَّ سُخريةٍ، واستهزاءٍ ومهانةٍ وإذلالٍ! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿57﴾﴾[2].
وهكذا غيرها من الأسباب التي تستوجب النهي عن موالاة الكفار والبراءة منهم ومن كفرهم.

النهي عن موالاة الكفار حتى من ذوي الأرحام

ولأهميةِ وعِظَمِ مسألة (الولاء والبراء) في الدين، فقد نهى القرآن الكريم عن موالاةِ الكفار حتى من ذوي الأرحام، كالوالدين والإخوة، والأبناء، وغيرهم، ولو كانوا أقرب الناس رحمًا ونسبًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿23﴾﴾[3].

---

(1) تفسير ابن كثير، 86/4.

(2) المائدة، الآية: ﴿57﴾.

(3) التوبة، الآية: ﴿23﴾.

جواز البِرّ والقِسْطِ وليس الموالاة مع غير المحاربين من الكفار

يتبين لنا مما سبق، حُرمة موالاة الكفار أيًّا كان صِنفهم وسبب كفرهم، سواء كانوا مشركين، أو منافقين، أو ملحدين لا يؤمنون بالله تعالى أصلًا، ولا يؤمنون بخالق لهذا الكون وما فيه من كائنات، ولا يؤمنون ببعث ولا نشور.

ولا تجوز موالاتهم أيضًا، سواء كانوا كفارًا لا يؤمنون بدين سماوي، أو كانوا أهل كتاب مُحرَّفٍ، كاليهود والنصارى وغيرهم، إذ لا فرق بين هؤلاء الكفار جميعًا في عدمِ جواز اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[1].

فلا تجوز حينئذ موالاتهم، بغض النظر عن اختلاف درجاتِ وأصنافِ كفرهم، ما داموا لا يؤمنون بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا ونبيًّا.

أما من ناحية تعامل الإسلام والمسلمين مع الكفار، وموقفهم من الدين، على اختلاف أصنافهم وسبب كفرهم، فقد دل القرآن الكريم والواقع، على انقسامهم، إلى صنفين رئيسين لا ثالث له، وهما: **كُفار محاربون، وكُفار مسالمون**[2].

وبناءً على ذلك، أوجب الإسلام التفريق في التعامل معهم، وكما سنبين ذلك كما يلي، وباختصار شديد:

الصنف الأول: كفار محاربون

ونقصد بهم، الكفار الذي يحاربون الله ورسوله، ويحاربون دينه، ويحاربون المسلمين، ويعادونهم ويضطهدونهم، ويصُدون الناس عن دين الله، ويقفون حائلًا وعائقًا أمام الدعوة إلى الله ونشر الإسلام. فهذا

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿28﴾.

(2) ذكر ابن القيم في (زاد المعاد) حول أقسام الكفار في عهد النبي ﷺ، وبعد نزول سورة التوبة، ما نصه:

[فَاسْتَقَرَّ أَمْرُ الْكُفَّارِ مَعَهُ بَعْدَ نُزُولِ (بَرَاءَةٌ) عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُحَارِبِينَ لَهُ، وَأَهْلِ عَهْدٍ، وَأَهْلِ ذِمَّةٍ، ثُمَّ آلَتْ حَالُ أَهْلِ الْعَهْدِ وَالصُّلْحِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَصَارُوا مَعَهُ قِسْمَيْنِ: مُحَارِبِينَ، وَأَهْلَ ذِمَّةٍ، وَالْمُحَارِبُونَ لَهُ خَائِفُونَ مِنْهُ، فَصَارَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ بِهِ، وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ، وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ.]، اهـ. زاد المعاد لابن القيم، فصل (في سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه)، 160/3. زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت 751هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ- 1994 م.

الصنف من الكفار قد جاءت النصوص ليس بالنهي عن موالاته فحسب، وإنما بوجوب محاربته أيضًا، ومقاتلته لصد عدوانه، ومن أجل دفع أذاه عن الإسلام والمسلمين. وكذلك، من أجل دفع عدوانه وأذاه عن غير المسلمين، ممن يرغب بالتعرف على الإسلام والدخول فيه. إذ يعمد هؤلاء الكفار المحاربون إلى تشويه الإسلام وبث الأراجيف، وتشكيك الناس بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، لصدهم عن الإسلام والدخول فيه.

الصنف الثاني: كفار مسالمون

وهم الكفار الذين لا يعادون المسلمين ولا يحاربونهم، ولا يكونوا عائقًا في نشر دين الله والدعوة إليه. وهؤلاء يَطلق عليهم أهل العلم مصطلحَ (أهل الذمة). وقد جاء الأمر أيضًا بحُرمة موالاة هذا الصنف من الكفار، أسوةً بالصنف الأول، أعني (الكفار المحاربون).

ولكنْ، ومن باب الإحسان والمعاملة بالمثل، فقد جاء الأمر بالبِر والقِسط والإحسان إلى القسم الثاني، أعني (الكفار المسلمون: أهل الذِّمَّة)، ورفعِ الحرج عن المسلمين بالبِر والإحسان معهم، ولكن بشرط عدم موالاتهم أيضًا.

ولهذا السبب، فقد جاء في القرآن الكريم، التفريق بين هذين الصنفين من الكفار، حيث أمَرَنا تعالى بالقسط وحسن السيرة والتعامل مع ذلك الصنف الثاني، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿8﴾﴾[1].

ونهانا عن فعلِ ذلك مع الصنف الأول، أعني (الكفار المحاربون)، وعقَّب القرآن الكريم بالتأكيد على ضرورة إظهار الشدةِ والعداوةِ، وعدمِ الإحسانِ والشفقةِ معهم، ناهيك عن عدم موالاتهم أصلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿9﴾﴾[2]، كي لا يختلط الأمرُ ويلتبس على المسلمين. ذكر ابن كثير في تفسيره الآيتين: ﴿8، 9﴾ آنفًا من سورة الممتحنة بقوله:

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أَيْ لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ، كَالنِّسَاءِ وَالضَّعَفَةِ مِنْهُمْ، ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أَيْ: تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: تَعْدِلُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا

(1) الممتحنة، الآية: ﴿8﴾.

(2) الممتحنة، الآية: ﴿9﴾.

أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْمُنْذِرِ، عَنْ أَسْمَاءَ -هِيَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَتْ: قَدِمت أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فأتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: ﴿نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ.﴾ أخرجاه.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَارِمٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، حَدَّثَنَا عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَدِمَتْ قُتَيلة عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ بِهَدَايَا: صِنَاب وَأَقِطٌ وَسَمْنٌ، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَأَبَتْ أسماء أن تقبل هديتها تُدْخِلَهَا بَيْتَهَا، فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا، وَأَنْ تُدْخِلَهَا بَيْتَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمُ الْعَدَاوَةَ، فَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ. ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مُوَالَاتِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿51﴾﴾ الْمَائِدَةِ: ﴿51﴾.] اهـ[1].

السنة النبوية

أما الأدلة من السُّنة على ركن (الموالاة بين المسلمين)، ومفهوم الولاء والبراء، ومحبة المؤمنين وبُغضِ الكافرين، فقد جاءت أحاديث تبين أهمية ذلك الركن، وخطورة التهاون في تحقيقه في واقع الأمة الإسلامية، نذكرها فيما يلي.

(1) تفسير ابن كثير، 118/8.

الموالاة من أوثقِ عُرى الإيمان

لقد عدَّ رسول الله ﷺ (الموالاة بين المسلمين) من أوثق عُرى الإيمان، وذلك بركنيها: (الولاء والبراء)، وبأعظم آثارها ومظاهرها، وهو: الحُب والبُغض في الله. فعن عبد الله بن عباس، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الموَالاةُ في اللهِ، والمعادَاةُ في اللهِ، والحُبُّ في اللهِ، والبغضُ في اللهِ.»[1].

المحبة من أعظم مظاهر الموالاة

فالمحبة من أعظم مظاهر الموالاة بين المسلمين، وذلك لأنَّ المسلم إذا أحبَّ أخاه المسلم، سيُعينُه ويُواسيه ويَدعَمُهُ إذا احتاج إلى ذلك. وسينصُره إذا احتاج للنُّصرة، وسيذُبَّ عن عِرضه وحُرمته إذا انتهِك عِرض أخيه المسلم، وانتهكت حرماته. ومن أجل ذلك، أخبر ﷺ في الحديث الذي ذكرناه آنفًا، بأنَّ الحبَّ في الله هو أحدُ أوثق عُرى الموالاة في الله.

(لنْ يكتملَ إيمانُ المسلمين إلَّا بتحقيقِ المحبةِ فيما بينهم)

ولهذا السبب، فقد أمَر رسول الله ﷺ المسلمين بالمحبة فيما بينهم، والمودَّةِ والقُربِ مِن بعضهم البعض. وأخبرهم ﷺ بأنَّهم لن ينالوا كمال صفة الإيمان، إلا بتحقيق تلك المحبة فيما بينهم وفي واقعهم. ولكي تكون المحبة واقعًا ملموسًا في حياة المؤمنين، فقد أرشدهم ﷺ إلى أحد تلك الأسباب التي تجلب تلك المحبة، وذلك بإشاعة تحية الإسلام فيما بينهم. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ.»[2].

وأخبر ﷺ المؤمنين بسُموِّ منزلة المتحابين يوم القيامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي.»[3].

(1) أخرجه الألباني في صحيح الجامع برقم (2539)، وقال: صحيح، وفي السلسلة الصحيحة أيضًا، برقم 1728.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في (كِتَابُ الْإِيمَانَ)، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأنَّ إفشاء السلام سبب لحصولها، برقم 54.

(3)أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: (الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ)، باب في فضل الحب في الله، برقم 2566.

تحقيق الموالاة سبب لتذوق حلاوة الإيمان

وأخبر ﷺ أَنَّ الموالاة، ومنها: (المحبة بين المسلمين)، سببٌ لتذوق حلاوة الإيمان. فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ.﴾[1]. فبقدر محبةِ المسلمِ لربه ورسوله ﷺ ودينه، يُحب أخاه المسلم، ويُحب أمته. وكلما ازداد حبُّ المسلم لدينه، ازداد حُبه وتعلقه بأخيه المسلم. عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: ﴿ما تحابَّ رجلان في اللهِ إلا كان أحبُّهما إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أشدَّهما حُبًّا لصاحبِه.﴾[2].

وينبغي أنْ يعلمَ المسلمُ أمرًا مهمًّا، فيما يخص الموالاة! وهوَ أنَّه كلما عَظُمت محبةُ الله ورسوله في قلب المسلم، كلما عظُمت محبته لأمته الإسلامية، وعَظُم ولائه ونُصرته للمسلمين، وازداد اهتمامه وخوفه على وحدة المسلمين. وبالتالي، عَظُم خوفُه على أمته الإسلامية من تفككها وتسلط أعدائها عليها.

إنَّ المسلمَ الذي يتولَّى الله ورسوله والمؤمنين، يسعى بكل ما أُوتي من قوةٍ وإمكانياتٍ وعلمٍ، من أجل نُصرة أمته، والحفاظ عليها من كيد أعدائها. ويزداد ذلك المسلم فرحًا بانتمائه إلى أمته الإسلامية، ويزدادُ استعلاؤه بذلك الانتماء على باقي أمم الكفر في الأرض. ولهذا، تراه يجاهد بكل ما أوتي من قوة، لرد أي عدوان، أو انتقاص، أو انتهاك يتوجه إلى المسلمين أينما كانوا، وذلك لأنَّهم إخوةً له في الله وفي الدين.

المسلم الذي حقق الموالاة يهتم لأمْرِ أمته

وكُلما ازدادَ حُبُّ المسلمِ لله ولرسوله وللمؤمنين، كُلما ازدادت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين. وبالتالي، ازداد عفوه وتغاضيه عمَّا قد يحدث من أخطاء وزلل وتجاوز، أو ظُلم بينه وبين إخوانه المسلمين. وازداد بالتالي، ألمهُ وحسرتهُ لما يُصيب المسلمين، وما تقعُ فيه الأمة، أو بعض أفرادها، هنا وهناك من تقصيرٍ، أو ضَعفٍ في الدين، أو ارتكاب معاصي.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، برقم 16). ومسلم في صحيحه في (الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم 43).

(2) أخرجه الألباني عن أنس بن مالك في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (3014)، وقال: حسن صحيح.

ولن يكتمل إيمانُ المسلمِ ووَلايته لدينه، إلاَّ عندما يصبح أكبرَ همِّه كيف يُصلحُ حالَ أمَّتِهِ، ولسانُ حالهِ يقول كما قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿88﴾﴾[1].

وتراه يدعو إخوانه وأُمَّته إلى العودة إلى دين الله، وإلى هجر الذنوب والمعاصي، وإلى النهوض بالأمة لأخذِ دورها ومكانتها التي اختارها تعالى للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، كي تكون بحق: (خير أمة أخرجت للناس).

وعلى العكس من ذلك، لا يكونُ همه —كما هو للأسف حال كثير من المسلمين اليوم— وديدنه مجرد التشهير، والتنكيل، والتشفي بما يعتري الأمة من ويلاتٍ ونكباتٍ، وتقصيرٍ ومعاصٍ.

ولا ينبغي أنْ يسعى في هذا الاتجاه وبهذه الطريقة، حتى لو كان على سبيل تنبيه الناس وتحذيرهم، إذ ليس هذا هو السبيل الصحيح في النصح والإرشاد والتحذير[2].

(المسلم الذي حقَّقَ الموالاةَ يُصلحُ ويسترُ، ولا يَفضحُ ولا يُفشي، كي لا تتشوه صورةَ الأمة الإسلامية أمام العالم)

فالمسلم الذي حقق الولاية لله ورسوله ودينه وأمته، هو الذي يتألمُ لِما يصيبُ الأمة من تفريط فيما عليها من واجبات ومهام تجاه نفسها وتجاه الأمم الأخرى، وبسبب تقاعسها عن قيامها بدورها الريادي الذي اختارها الله لقيادة الأمم. فتراه يتألم لما يصيب أمته من انحراف عن منهج الله، لأنه يعلم أنَّ الأمة الإسلامية إنْ أخطأت وقصَّرَتْ، وتم فضحها والتشهير بها، فإنَّ أولَ من يقع عليه الضررُ هو دين الله، إذ سيكون ذلك بمثابة حُجة لأعداء الإسلام لإلقاء اللوم على الدين والمنهج الذي يعتنقه المسلمون. وبذلك يتأذى دين الله، وربما

(1) آل عمران، الآية: ﴿88﴾.

(2) نقول ذلك، لأننا وللأسف، صرنا نرى اليوم الكثير من المسلمين يتناقلون ويروجون كل غثٍّ وسمينٍ عن الأمة الإسلامية وعن المسلمين. ينقلون أخبارَ وحكاياتِ كل ما يحدث من ويلاتٍ ونكباتٍ ومعاصي وتقصير وتجاوز للحدود، وانحراف عن الإسلام، وغيرها من الأخبار، والإشاعات، والقصص، والحكايات. نرى الكثير منهم اليوم، يفعلون ذلك وبدون رَويةٍ وتمحيصٍ وتحققٍ من صِحة أو كذب ما يتناقلون. خصوصًا في هذا الزمان الذي كثُرت فيه وسائل الاتصال، وصارت في متناول القاصي والداني. وأصبحَ من السهل جدًّا نقلَ وبثَّ الأخبارِ والإشاعات إلى معظم أرجاء العالم، بالصورة والصوت، وحيًّا على الهواء.

يطمع فيها أعداؤها ويتسلطون عليها بسبب ضَعفها وتفككها. وحينئذٍ، ستكون فتنة للناس للابتعاد عن دين الله، بدل أنْ يأتوا إليه أفواجًا. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿85﴾﴾[1].
وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿5﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآيتين بقوله: [﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: لَا تُظْفِرْهُمْ بِنَا، وَتُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا، فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا سُلِّطُوا لِأَنَّهُمْ على الحق ونحن على الباطل، فَيُفْتَنُوا بِذَلِكَ. هَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، وأبي الضُّحى. وقال ابن أبي نَجِيح وغير وَاحِدٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ، فَيَقُولُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ: لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ مَا عُذِّبُوا، وَلَا سُلِّطنا عَلَيْهِمْ، فَيُفْتَنُوا بِنَا.][3]. وكذلك بقوله: [﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ، فَيَقُولُوا: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقٍّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ. وَقَالَ قَتَادَةُ لَا تُظْهِرهم عَلَيْنَا فَيَفْتَتِنُوا بِذَلِكَ، يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِحَقٍّ هُمْ عَلَيْهِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.] اهـ[4].

فالمسلم الذي حقق ركن الموالاة، يعمل جهد إمكانه بأن يُصلح، ويستر، ولا يفضح، ولا ينشر، ولا يُفشي، كي لا تتشوه صورة الأمة الإسلامية أمام العالم. وليس معنى ذلك أنَّهُ يتغاضى ويسكت عن المنكرات والمعاصي والظلم والتجاوز على حدود الله وعلى الحرمات. وإنما المقصود: أنْ لا يَفضح ولا يتشفَّى بما يحدث، وكأنَّ لسان حاله يقول: (إنهم يستحقون ذلك)! و(دعهم يذوقون وبال أمرهم)، وغيرها من العبارات. فيتمنى انتصار العدو على أمته، أو على جزء منها، أو على أي بلد إسلامي، لمجرد أنَّ هذا البلد قد أخطأ أهله، أو قصّروا، أو قصَّر ولاة الأمور وانحرفوا قليلًا، وقد رأينا وسمعنا كثيرًا من هؤلاء، هداهم الله إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

إنَّ من لوازم تحقيق الموالاة بين المسلمين، أنْ يكون همُّ المسلم منصبٌّ على نُصرة أمته بكل ما أوتيَ من سبيل. فمنها مثلًا، أن يُصلح ولا ينتقد فقط. فإنْ لم يستطع الإصلاحَ، فلا يذكر، ولا يتناقل، ولا ينشر

(1) يونس، الآية: ﴿85﴾.
(2) الممتحنة، الآية: ﴿5﴾
(3) تفسير ابن كثير، 251/4.
(4) تفسير ابن كثير، 116/8.

الأخطاء والمساوئ عن الآخرين من إخوانه. ولا يجعل من نفسه بوقًا للشيطان ولأعداء المسلمين، وذلك بفضح أخطائهم، فليس هكذا يكون تغيير المنكر.

أنَّ من معاني (موالاة المسلمين)، أنْ يدعو المسلم لأمته، لا يدعو عليها، ونقصد بذلك، أنْ يدعو للمُخْطِئين والمقصِّرين من أمته بالهداية، والتوبة، والعودة إلى الحق، وأَنْ يلتمس لهم النُصح والإصلاح بالحسنى. عن جرير بن عبد الله قال: أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ وهو يبايعُ، فقلتُ يا رسولَ اللهِ: ابسُطْ يدَك حتى أبايعَك، واشتَرِطْ عَلَيَّ فأنت أعلمُ، قال: ﴿أبايعُك على أن تعبدَ اللهَ، وتُقِيمَ الصلاةَ، وتؤتِيَ الزكاةَ، وتناصحَ المسلمينَ، وتفارقَ المشْرِكَ.﴾[1].

نُصرةُ المسلمِ مِن أعظم مظاهر الموالاة بين المسلمين

ومن مظاهرِ الموالاة، بل أعظمها، أنْ يَنْصُرَ المسلمُ أخاهُ المسلم، وأنْ تَنصرَ الأمةُ المسلمينَ أينما كانوا، وفي أي بلدٍ، إنِ احتاجوا إلى ذلك وطلبوه، وذلك لأنَّ نَصرَ المسلمُ لأخيه المسلم هو في الحقيقة نَصرٌ لدين الله تعالى. عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أفَرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: تَحْجُزُهُ، أوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ.﴾[2].

لقد بيَّن ﷺ في هذا الحديث، كيفية نُصرة المسلم، حتى في حالة كونه ظالِمًا، وذلك بأنْ يردَعَه عن الظلم، ويُعيده إلى صوابه. جاء في فتح الباري في شرح الحديث المذكور:

[قال ابن بطال: النصر عند العرب الإعانة، وتفسيرهُ لِنُصْرةِ الظالم، بمنعه من الظلم، من تسمية الشيء بما يؤول إليه، وهو من وجيز البلاغة، قال البيهقي: معناه: أَنَّ الظالمَ مظلوم في نفسه، فيدخل فيه رَدعُ المرْءِ عن ظلمهِ لنفسهِ حِسًّا ومَعنًى.] اهـ[3].

فهكذا تكون نُصرة المسلم حقيقة، وذلك بإعانته، والدفاعِ عنه بالمال والنفس، والذبِّ عن عِرضه، والدعاءِ له بظهر الغيب بالنصر والتوفيق والسداد. وتكون نصرة المسلم أيضًا، بتتبع أخبار المسلمين في أنحاء

(1) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 636.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإكراه، يمين الرجل لصاحبه: إنه أخوه، إذا خاف عليه القتل أو نحوه، برقم: 6552.

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 98/5.

الأرض، والوقوفِ على أحوالهم، والإسراعِ في مساعدتهم ونجدتهم، والذوْدِ عنهم وإصلاحِهم، وعدمِ نشرِ عيوبهم وأخطائهم وفضحهم.

ومِن مظاهر الولاء بين المسلمين، النُّصحِ والإرشادِ لهم، وذلك إذا رأى المسلمُ من أخيه شيئًا يعارِضُ أمرَ اللهِ ورسولهِ ودينهِ، أو ما يَسيءُ المسلم به لنفسه، فينْصحه، ولا يفضَحُه، ولا يُشَهِّرُ به[1]، فعن تميمٍ الداري، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ.﴾ [2]. جاء في (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج) في شرح الحديث المذكور، كلامًا قيمًا نورده هنا لأهميته:

[قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله: النصيحة كلمة جامعة، معناها: حيازة الحظ للمنصوح له، قال: ويقال: هو من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة مفردة يُستوفى بها العبارة من معنى هذه الكلمة، كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه، قال: وقيل: النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبهوا قول الناصح فيما يتحرّاه من صلاح المنصوح له بما يسده من خَلَل الثوب. قال: ويقال: مأخوذة من نَصحتُ العسلَ، إذا صفّيته من الشمع، إلى أنْ قال: ومعنى الحديث: عِماد الدين وقوامه: النصيحة، كقوله: (الحج عرفة)، أي عماده ومعظمه: عرفة. ثم قال: وأما النصيحة لأئمة المسلمين، فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه وأمرهم به، وتنبيهم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم. قال الخطابي رحمه الله: ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيفٌ أو سوءُ عِشْرة، وأنْ لا يُغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعى لهم بالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين: الخلفاء وغيرهم، ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات، وهذا هو المشهور. وحكاه أيضًا الخطابي ثم قال: وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين، وأنْ من نصيحتهم: قبول ما رووه، وتقليدهم في الأحكام، وإحسان الظن بهم. ثم قال: وأما نصيحة

---

(1) مسألة التشهير بالمسلم العاصي:

ونود أنْ نؤكدَ هنا كثيرًا على مسألةِ (التشهير بالمسلم العاصي)، وبثِّ ونشر معصيته وخطأه وزلّتهُ، وذلك لأنه قد كَثُر هذا الأمر في هذه الأيام، واستفحلَ بسبب انتشار وسائل التواصل الاجتماعي. فقد صار بالإمكان، وبسهولة، وخلال ثواني معدودة نشرِ أي حدَث، وبالصوت والصورة، وإلى العالم أجمع. فينبغي للمسلم الحذَر كل الحذَر، وأنْ يتقي الله، ولا يكون بوقًا أو واسطة لنقل ما يُسيء إلى الإسلام والمسلمين. فلا ينبغي أن يفعل ذلك لو كان صادقَ النية في ذلك، وكان قصْدُه التحذير والتبليغ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إنَّ الإصلاح والتغيير لا يكون بالتشهير والفضيحة (إلا في حدود ضيقة بينها أهل العلم)، والله أعلم بالصواب.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم 55.

عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر، فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، فيُعلِّمَهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسَدِّ خلَّاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخوّلهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأنْ يُحبَّ لهم ما يُحبُّ لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثِّهم على التخلُّق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيط هِمَمهم إلى الطاعات، وقد كان في السلف رضي الله عنه من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه، والله أعلم.] اهـ[1].

الأحلاف بين المسلمين من أعظم مظاهر الموالاة بين المسلمين

إنه لمن دواعي الأسى والعجب أنْ تجد الكفار يتعاونون فيما بينهم لنُصرة بعضهم البعض، ويقيمون المعاهدات والأحلاف، كحلف الناتو، وحلف وارسو، وحلف جنوب شرق آسيا (مانيلا)، وغيرها من الأحلاف[2] على اختلاف دياناتهم، ومذاهبهم، وقومياتهم. وفي المقابل لا نرى للمسلمين مثل هذه الأحلاف والمعاهدات، والذين هم بأمسِّ الحاجةِ إلى ذلك. نحن لا ننكر أنَّ هنالك بعض أشكال هذه الأحلاف، واتفاقيات الدفاع المشترك بين بعض الدول العربية، أو الإسلامية. ولكنَّ معظم أشكال هذه الأحلاف، إذا لم يكنْ جميعها إنَّما تقوم على أساس قومي أو جغرافي، أو غيرها من الأسس غير الإسلامية، على الرغم من عدم وجود ضرر أو مشكلة في قيامها على تلك الأسس. إنما المشكلة تكمن في عدم وجود مثل تلك الأحلاف بين الدول الإسلامية حصرًا. ونعني بذلك ضرورة قيام الدول الإسلامية بتأسيس أحلافٍ فيما بينهم، بغض النظر عن القومية واللون والجنس واللغة، وعلى أساس أنَّ تلك الدول تدين بالإسلام دينًا رسميًّا للدولة، وأنَّ غالبية شعوبها مسلمين.

ولِمَ لا يكون للمسلمين أحلافًا تحفظ كيانهم، وأراضيهم، وثرواتهم، ومصالحهم، ودينهم، وهويتهم الإسلامية، أسوة ببقية دول العالم؟

(1) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، 37/2.

(2) بعض هذه الأحلاف قد انتهت، وإنما ذكرناها هنا على سبيل المثال.

لا شكَّ أنَّ هناك عقبات بين الدول الإسلامية، تحول دون إنشاء مثل تلك الأحلاف، وذلك بسبب اختلاف أنظمة الحكم، والأفكار التي تحكم بعض بلدان المسلمين. وكذلك بسبب تبعية بعض الأنظمة في الدول الإسلامية إلى المعسكر الشرقي أو الغربي، أو غيرها من المعسكرات والتكتلات الإقليمية والدولية. وإنْ كنا نأمل ونتمنى عدم وجود مثل هذه العقبات، لو كانت جميع بلدان المسلمين تحكم بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ.

ولكننا نقول: على الرغم من وجود تلك العقبات كواقع حال في بعض بلاد المسلمين، فلا ينبغي أنْ تكون تلك العقبات مانعًا أَمام المسلمين، وأمامَ وولاة الأمور على وجه الخصوص والمسئولية، من إنشاء تلك الأحلاف، وذلك لما فيه الخير لجميع المسلمين.

(ما لا يُدركُ كُلُّه لا يُتركُ جُلُّه)

ولا ينبغي أيضًا أنْ تكون تلك العقبات حائلًا أَمام قيامِ حِلف بين المسلمين، ولو ضَمَّ بعض الدول الإسلامية وليس جميعها، وذلك تطبيقًا للقاعدة الأصولية: (ما لا يُدركُ كُلُّه لا يُتركُ جُلُّه). فلعل ذلك يكون نواةً، وحافزًا للدول الإسلامية الأخرى للالتحاق بذلك الحلف مستقبلًا، إذا تغيّرت الظروف، وتغيَّر الحاكمُ ونظام حكمه، الذي ربما كان سببًا في عدم انضمام ذلك البلد المسلم منذ البداية.

نحن نرى أنَّ قيام مثل تلك الأحلاف، وعلى سبيل المثال: (حلف للدفاع المشترك بين الدول الإسلامية)، بغض النظر عن جنسية تلك الدولة المسلمة، وقوميتها ولسانها، لهو من أعظم مظاهر (الموالاة)، و(الأخوة)، و(التعاون على البر والتقوى)، وغيرها من (أركان السبيل إلى خير أمة أخرجت للناس).

فقيام مثل هذا الحلف بين الدول الإسلامية، ويكون من بنوده الأولى مثلًا: (تتعهد جميع الدول الإسلامية بالدفاع عن أي بلدٍ مسلمٍ يتعرض إلى عدوانٍ خارجي)، لهو أكبر رادع لأعداء الإسلام من مهاجمة واحتلال أي دولة من دول المسلمين.

ومن المؤكد أنَّ ذلك الحلف سيوفر الأمان والاستقرار للدول الإسلامية الضعيفة والمستهدفة من قبل الأعداء، فلا يشعر حينئذ المسلمون في تلك الدول بالخوف والرعب والاضطراب من تسلط الأعداء والطامعين عليهم.

إنَّ تأسيس (حلف الدفاع المشترك بين الدول الإسلامية)، يعتبر من أولى وأعظم واجبات المسلمين، وولاة الأمور على وجه التحديد. فبقيام ذلك الحلف، يكون ولاةُ أمرِ المسلمين قد حققوا فعلًا، وعلى أرض

الواقع، ما أمرهم به تعالى في كتابه الكريم من نُصرة المسلمين المستضعفين، ومن حماية حياضِ الأمة الإسلامية ودينها وأمنها واستقرارها، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾[1].

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن ركن (**الموالاة بين المسلمين**)، وأهميته في بناء الأمة الإسلامية من أجل تأسيس (**خير أمة أخرجت للناس**). وبيَّنا مفهوم (**الولاء والبراء في الإسلام**) وأنه من أصول العقيدة، وأنَّ إيمان المسلم لا يتم حتى يتولَّى الله ورسوله والمؤمنين، ويتبرأ من أعدائهم من الكفار. وأنَّ أساسَ الموالاة بين المسلمين، موالاةُ الله ورسوله ومحبتهم.

وذكرنا أنَّ من أعظم مظاهر (**الموالاة بين المسلمين**)، المحبة فيما بينهم، ونُصرة بعضهم البعض.

وتعرفنا أيضًا على الموالاة بين الكفار، وأنَّ أساسها الباطل بكل أشكاله، كالأفكار والعقائد المنحرفة، والشرك والكفر بكل أنواعه، والعداوة المشتركة بينهم ضد المسلمين، والمصالح المشتركة وغيرها من أشكال الباطل. وبينا أنَّ الموالاة بين الكفار تتبدل وتتغير بتغير الباطل المتذبذب، ولهذا تجدهم أحيانًا يتخلون عن نُصرة بعضهم إذا ما تغيرت المصالح والدوافع، أعني الباطل الذي يقوم عليها أساس الموالاة فيما بينهم.

أما الموالاة بين المسلمين، فثابتة وراسخة، لا تتبدل ولا تتغير، لأنها قائمة على أساس ثابت وهو الحق، أعني موالاة الله ورسوله. فالمسلمونَ ينصرُ بعضهم بعضًا، بغض النظر عن الجنس، واللون، والعرق، والجغرافيا. وبغض النظر عن طبيعة الحكم السائد، وولي الأمر الحاكم في ذلك البلد المسلم المحتاج للعون والنصرة، ما دام السواد الأعظم فيه من المسلمين.

وذكرنا أنَّ البراءة من الكفار لا تمنع من البر والقسط والإحسان إلى المسالمين منهم، غير المحاربين، والذين يجهرون بمعاداة الإسلام والمسلمين.

---

(1) النساء، الآية: ﴿75﴾.

وذكرنا أيضًا ضرورة قيام حلف للدفاع المشترك بين المسلمين في حالة تعرُّضِ بلدٍ مسلمٍ إلى عدوانٍ أو تهديد من قبل الكفار. فإذا كان الكفار لهم أحلاف ومعاهداتٍ يتناصرون بينهم، فالمسلمون من باب أولى أنْ يكون لهم ذلك أيضًا، لكثرة أعدائهم، والمتربصين بدينهم، والطامعين بديارهم وثرواتهم.

وأخيرًا نقول:

من خلال ما تعرفنا عليه في هذا الفصل عن مفهوم (**الموالاة بين المسلمين**)، وما جاءت فيه من نصوص مستفيضة في الكتاب والسنة، ومن أثر ذلك المفهوم في حياة الأمة الإسلامية، يتبين لنا بحق أنَّ الموالاة، أمرٌ جامعٌ لكل ما هو سابقٌ من أركان تحقيق: (خير أمة أخرجت للناس). وهو كذلك، دافعٌ وسببٌ لكلِّ ما هو لاحقٌ من تلك الأركان.

فالموالاة تجمع: بين مفهوم (الأمة الواحدة)، و(الاعتصام بحبل الله)، و(عدم الاختلاف) و(عدم التفرق) و(عدم الاقتتال)، والسعي في (الإصلاح بين المسلمين)، وتحقيق (الأخوة في الدين).

أما نتيجة وثمرة تحقيق هذا الركن، أعني (الموالاة بين المسلمين)، فهو ما تبقى من أركان نحو: (السبيل إلى خير أمة أخرجت للناس).

وهذه الأركان المتبقية هي: (التعاون على البر والتقوى)، و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، و(الجهاد في سبيل الله) لنصرة دين الله ونصرة المؤمنين المستضعفين، كما بسطنا القول عن مفهوم الموالاة في نصرة إخواننا في الدين إذا استنصرونا، وبذلك يتبين أهمية الولاء والبراء في الدين وفي حياة وواقع الأمة الإسلامية.

فصل:

الركن التاسع: التَّعاونُ على البِرّ والتَّقوى

إِنَّ منْ مُقتضى الموالاة بين المسلمين، (التعاون على البر والتقوى)، أي: التعاونُ على كلّ ما هو خير للأمة الإسلامية. ومِن أعظم صورِ (التعاون على البر والتقوى)، إقامةُ دينُ الله في الأرض، وتعبيد الناس لله، وإنقاذهم من الكفر والشرك، والأديان المنحرفة والباطلة. والتعاون على الدعوة إلى الله ورسوله، وعلى إقامة شرع الله وحدوده، ودفع الظلم والأذى عن المسلمين وديارهم، ونصرة المستضعفين من الأمة، والتعاون على دفع العدو الصائل عن بلاد المسلمين، وغيرها من أشكال التعاون على البر والتقوى.

وضده (**التعاون على الإثم والعدوان**)، والذي نُهي المسلمون عن فعله، والمقصود به الإعانة والمشاركة على فعل جميع ما حرَّمَ الله من المعاصي والمنكرات. ومن أمثلة (**التعاون على الإثم والعدوان**)، الإعانة على الفسوق والمجون، كتأجير محل يُباع فيه الخمر أو آلات الموسيقى، أو لعب القمار، وغيرها. وكالإعانة على الربا والمعاملات التجارية المحرمة، كتقديم خدماتٍ مباحةٍ في الأصل، إلى البنوك الربوية، كأعمال الصيانة والتنظيف والحراسة، وتزويدها بالحاسبات والأجهزة الإلكترونية والكهربائية، وما تحتاجه من مستلزمات، وغيرها.

ويشمل ذلك أيضًا، على سبيل المثال، تعاونُ جماعة من المسلمين، على ضررِ مسلمين آخرين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. أو قيامُ بلدٍ مسلمٍ بالاشتراك مع بلدٍ مسلم آخر، على إيذاءٍ وضررِ بلدٍ مسلمٍ معين، وإيذاء المسلمين فيه. ويتأكد النهي والتحريم إذا كان بتعاونٍ وتواطؤٍ بين مسلمٍ وكافرٍ، ضد مسلمين، وقد يَخرُج فاعله من دائرة الإسلام بحسب النيّات والأهداف من وراء ذلك التعاون مع الكافر ضد المسلم. ومثال ذلك، العقوبات الاقتصادية أو السياسية أو المالية، وغيرها، أو الحصار الذي يفرضهُ الكافر بقرارٍ منه أو مِن (منظمةٍ عالميةٍ)، ضد بلدٍ مسلمٍ، بغير حقٍ، وينصاعُ لذلك الحصار، ويُنفّذ ذلك القرار بقيةُ البلاد

الإسلامية. فهذا من أشد وأقبح أشكال (**التعاون على الإثم والعدوان**)، لما فيه من تمزيقِ الأمة الإسلامية وإضعافها، وإعانة الكافر عليها[1].

وتزداد الحُرمة، ويزداد الكفر، إذا كان المسلم هو المبتدأ بذلك التعاون على الإثم والعدوان مع الكافر ضد أخيه المسلم، والله المستعان.

(1) نود أنْ نبين هنا أمرًا مهمًّا بخصوص تطبيق القرارات والعقوبات الدولية (غالبًا ما تكون جائرة ومنحازة) التي تُفرض من قبل ما يسمى بـ (المجتمع الدولي) والمنظمات الدولية، كالأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومحكمة العدل الدولية، وغيرها من المنظمات، على الدول الأخرى وخصوصًا، الإسلامية والعربية، فنقول:

ينبغي أنْ لا يتذرَّعَ ولاة الأمر في البلاد الإسلامية بما يسمى (القانون الدولي)، وأنَّ هذه عقوبات دولية، تخضع للقانون الدولي، متمثلة بالأمم المتحدة ومجلس الأمن، وغيرها من المنظمات الدولية. وبالتالي، يجب على الدول (ومنها الإسلامية) الالتزام بها وتطبيقها، وإلا فستلاقي نفس مصير الدولة المحاصرة والتي فُرضت عليها العقوبات. فالحقيقة التي لا تخفى على أحد، أنَّ القانون الدولي، وهذه المنظمات الدولية، إنما هي منحازة، ومسيطرٌ عليها من قِبل الدول الكبرى. وإنَّ ما يُسمى بـ (المجتمع الدولي)، زورًا وبهتانًا، إنما هو (مجتمع الدول الكبرى)، كالولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا، وروسيا، وحتى الصين، وغيرها من الدول الاستعمارية، التي تستعبد الشعوب، وتهيمن على قراراتها ومواردها، خدمةً لمصالح تلك الدول الاستعمارية. ونتيجةً لذلك، فإنَّ هذه المنظمات الدولية لها معايير مزدوجة، وتكيل بمكيالين، وتأتمر بأمر تلك الدول الاستعمارية الكبرى.

ولهذا السبب، تجد أنَّ تلك الدول – أعني الكبرى – غالبًا ما تضربُ بعرض الحائط القوانين الدولية أو تَنقضها بما يسمى (حق الفيتو)، إذا كانت تعارض مصالحها. وربما يحصل ذلك أيضًا من قِبل بعض الدول الأخرى، وتتحدى تلك القرارات ولا تنصاع لها.

فإذا كان هذا هو الحال، فلماذا يجب على المسلمين الالتزام بها والانصياع لها؟ وأخُصُّ بالذكر، تلك القوانين والعقوبات التي تخصُّ المسلمين، والتي في معظمها، قرارات ظالمة، ومنحازة، وغير عادلة. مما أصبح ذلك، معروفًا ومكشوفًا للقاصي والداني، ومما يشهد له الواقع على مرِّ السنين، منذ تأسيس تلك المنظمات ولحد الآن! فلماذا يجب على المسلمين الالتزام بها، وتطبيقها على إخوانهم في البلدان الإسلامية الأخرى؟ اللهم إلَّا أنْ تكون الدول الإسلامية، والعربية منها على وجه الخصوص، مغلوبٌ على أمرها، ولا تملك قرارها! من أجل هذا، يجب عليها أنْ تنصاع وتطبق تلك القوانين الجائرة! وان كان هذا لا يليق بأمة عادية، فكيف يليقُ بـ (خير أمة أخرجت للناس)!؟

نحن لا ندعو بكلامنا هذا، إلى الفُوضى والتمرّد، وعدم احترام القوانين الدولية، إذا كان في تلك القوانين والقرارات مصلحةٌ ومنفعةٌ للعالم أجمع، وللمسلمين على وجه الخصوص.

إنما قصدنا أنْ تكون للدول الإسلامية الاستقلالية، والقوة، والتأثير، وامتلاك قرارها. وأنْ لا تكون عونًا للكافر والظالم على إيذاء إخوانهم في البلدان الإسلامية الأخرى. وأنْ يسعى ولاة أمور المسلمين إلى تقوية بلدانهم، وإعدادها بكل ما أوتوا من قوةٍ: من سلاحٍ، واقتصادٍ، ومالٍ، وعلمٍ، كي يمتلكوا قرارهم وسيادتهم، فالعالم لا يعترف إلا بالقوي، ولا يستمع للضعيف وإنْ كان محقًّا مظلومًا. فهذا واجب ولاة الأمر، وهي مسئوليتهم، التي سيحاسبون عليها أمام الله، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴿24﴾﴾، الصافات: ﴿24﴾.

والحق، فإنَّ تبعية المسلمين وحالهم المزري هذا والمستكين، إنما هو غشٌّ في حقهم، وولاة الأمر مسئولون عنه. وكلامنا هذا إلى ولاة الأمر، لا ندعو به إلى الفوضى والخروج عليهم، إذا كانوا مغلوبين على أمرهم، أو أنهم يعملون جاهدين للخروج من هذه التبعية وهذا الخنوع. ولكننا نقول ذلك، تذكيرًا لهم بمسئوليتهم العظيمة تجاه أمتهم الإسلامية، والأمانة التي وافقوا على حملها.

فعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، قَالَ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.﴾. وفي رواية لمسلم: ﴿ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ.﴾. أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم برقم 1829.

القرآن الكريم

لقد أمر الحق سبحانه المؤمنين أَنْ يتعاونوا فيما بينهم لما فيه الخير والصلاح لهم في أمر دينهم ودنياهم. ونهاهم عن ضده، وهو: (التعاون على الإثم والعدوان)، وما يتضمنه من شر ومعصية، وعن كل ما يؤدي بالأمة إلى التفرق والاقتتال، أي: ما فيه شرٌ لدينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَهُوَ الْبِرُّ، وَتَرْكِ الْمُنْكِرَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْإِثْمُ تَرْكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ، وَالْعُدْوَانُ مجاوزة ما حد الله لكم في دينكم، ومجاوزة ما فرض الله عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ.] اهـ[2].

وذكر السعدي أيضًا، في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي ليُعِنْ بعضكم بعضًا على البر، وهو اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحِبّهُ الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين. والتقوى في هذا الموضع: اسمٌ جامعٌ لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكُلُّ خصلةٍ من خِصال الخير المأمور بفعلها، أو خِصلةٍ من خِصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكلِّ قولٍ يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك. ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ﴾، وهو التجرّؤ على المعاصي التي يأثَمُ صاحبها، ويحرج. ﴿وَٱلْعُدْوَانِ﴾، وهو التعدّي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كَفُّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.] اهـ[3].

معنى البِر

وعن شمول البِرّ لكل ما أمرَ اللهُ تعالى، وأمرَ رسولُه ﷺ الأمةَ التعاون على فعله من وجوه الخير، وأنَّه (أي البِر) ليس مجرد الصلاة، وغيرها من العبادات، كما يتوهم كثير من المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ

(1) المائدة، الآية: ﴿2﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 10/3.

(3) تفسير السعدي، ص 218.

أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿177﴾ ﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره، بعد أن ساق أقوال السلف في تفسير الآية، ثم قال: [وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: هَذِهِ أَنْوَاعُ الْبِرِّ كُلُّهَا. وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي عُرَى الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْخَيْرِ كُلِّهِ.] اهـ. ثم مضى في تفسير الآية، إلى أن قال: [وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقوا فِي إِيمَانِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ الْقَلْبِيَّ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، لِأَنَّهُمُ اتَّقَوُا الْمَحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ.] اهـ[2].

نقول: فالآية الكريمة المذكورة، قد فصَّلت في معنى البِر الذي أمر الله المسلمين بالتعاون على فعله في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وقسَّمت البر إلى قسمين: **(برٌّ قولي)**، و **(برٌّ عملي)**، أي: **(الإيمان)** و**(الإسلام)**، كما جاء في الكتاب والسنة، وفي تفصيل أهل العلم قديمًا وحديثًا.

فالإيمان، يشمل الاعتقاد، وهو قول وعمل القلب. فقول القلب: التصديق والإقرار، وعمل القلب: النية والإخلاص، والصدق، والمحبة، والخشية، وغيرها من أعمال القلوب.

والإسلام، ويشمل قولَ وعملَ الجوارح، ومنها قولُ اللسان، أي النطق بالشهادتين، وعمل الجوارح الأخرى، وهو فعل الطاعات وترك المحرمات[3].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿177﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 354/3.

(3) إرشاد العباد إلى معاني لمعة الاعتقاد، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك، إعداد: عبد الله السحيم، الناشر: دار التدمرية، الطبعة: الأولى، 1433هـ- 2012م.

فالإيمان هو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وهو ما جاء في حديثِ جبريل عليه السلام[1]، عندما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، وهو خاص بالقلب.

والقسم الثاني: الإسلام، وهو ثمرة الإيمان، ويُمثِّله: العمل، أي عمل الجوارح، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

إقامة دين الله في الأرض مِن أعظمِ التعاون على البِرّ والتقوى

إنَّ من أعظم صور التعاون على البر والتقوى، إقامة دين الله في الأرض، وتعبيد الناس لله، وإنقاذهم من الكفر والشرك، والأديان المنحرفة والباطلة. وكذلك تخليصهم من العبودية للآلهة الزائفة، كالأوثان والقبور والأضرحة، واتخاذ بعض البشر معبودًا وآلهة، كالأولياء، والصالحين، والطغاة. وكذلك اتخاذ بعض الحيوانات وغيرها آلهة ومعبودات زائفة. وكذلك، التعاون على الدعوة إلى الله ورسوله، وعلى إقامة شرع الله وحدوده، كي يأمنَ الناسُ على حياتهم وممتلكاتهم، ويعيشوا في أوطانهم أحرارًا، آمنين مطمئنين لا يخافون شيئًا، حيث يحكمهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿41﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

(1) عن عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضيَ الله عنهُما، قال: حدَّثَني أَبِي عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ قالَ: بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ علَيْنا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النبيِّ ﷺ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْهِ. وَقالَ: يا مُحَمَّدُ أخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ﴿الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا.﴾، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قالَ: ﴿أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ.﴾، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ، قالَ: ﴿أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ.﴾، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قالَ: ﴿ما المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ.﴾ قالَ: فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها، قالَ: ﴿أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ.﴾، قالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قالَ لِي: ﴿يا عُمَرُ أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟﴾ قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: ﴿فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ.﴾.

أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، برقم 8.

(2) الحج، الآية: ﴿41﴾.

منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَاتِ لَيَسْتَخْلفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُم الْفَاسِقُونَ ﴿55﴾﴾[1].

نَجدةُ المسلم واسترجاعُ حقِّهِ المنهوب من آكد الواجبات في هذه الأيام

ومن صور (التعاون على البر والتقوى)، نُصرة المسلمِ، ومساعدته وإعانته ونَجدته، واسترجاع حقِّهِ المنهوب. وهذا من آكد الواجبات في أيامنا هذه، لما نرى من حال المسلمين في زماننا هذا، حيث الحقوق المنهوبة والمسلوبة، والظلم والاعتداء الواقع على الكثير من المسلمين في مختلف أصقاع العالم الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴿57﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴿72﴾﴾[3].

ناهيك أنَّ لزوم نُصرة المسلم ونجدته تدخل أيضًا ضمن أركانٍ كثيرةٍ كما مر بنا سابقًا، مثل ركن (**الأمة الواحدة**)، و(**الموالاة بين المسلمين**)، و(**الأخوة في الدين**).

ومن (التعاون على البر والتقوى)، إطعام الفقراء والجياع والمعوزين والمحتاجين من المسلمين. فهذه المجاعات التي تضرب العالم بصورة عامة، وبعض البلاد الإسلامية بصورة خاصة، ومنذ عقود طويلة، ونسمع عنها كل عام، كما في الصومال وإرتيريا وبنغلاديش، وغيرها من بلاد المسلمين. والتي أصبحت مألوفة إلى درجة، كلما ذُكر بلدٌ من هذه البلدان، تبادر إلى أذهاننا الفقر والجوع والتخلف. وللأسف، فقد غدت هذه البلدان المسلمة عنوانًا للفقر، والجوع والحرمان، والله المستعان.

(1) النور، الآية: ﴿55﴾.

(2) النساء: ﴿55﴾.

(3) الأنفال، الآية: ﴿72﴾.

السُّنة النبوية

أما عن الأدلة عن ركن (التعاون على البر والتقوى) من السنة النبوية فكثيرة ومتنوعة.

فعن نُصرة المسلم المستضعف ونجدته، ووجوب تعاون الأمة على ذلك، وأنْ تهبَّ لنصرته وإنقاذه، فقد حثَّ رسول الله ﷺ المسلمين على فعل ذلك، وحذَّرهم من خُذلان المسلم المظلوم والمنكوب، وأخبرَ أنَّ الجزاء من جنس العمل. فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيَّيْنِ قالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ويُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتُهُ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أحَدٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ.﴾[1].

وعن تعاون المسلمين لسد الجوع والفاقة فيما بينهم، ووجوب التكافل فيما بينهم، فقد حذَّر ﷺ المسلمَ من أنْ يبيتَ المسلمُ وجاره جائعٌ، لا يجد ما يسد رمَقَه، ولا ما يدفع الجوع عنه وعن أولاده وأهله. عن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: ﴿ما آمَن بي مَن بات شبعانَ وجارُه جائعٌ إلى جنبِه وهو يعلَمُ به.﴾[2] .

وجوبُ تعاونِ المسلمينَ فيما بينهم، على مستوى الشعوبِ والدول

وإعالة المسلم الجائع والمحتاج لا يقتصر على مستوى الأفراد، بل ينطبق أيضًا على مستوى الشعوب والبلدان الإسلامية. فلا يَحلّ لشعبٍ مسلم، وبلد مسلم، ينعم بالخيرات التي وهبها الله له، وعنده الفائض من الطعام، والموارد، والثروات الطبيعية، وجاره البلد المسلم يعاني من الجوع والفقر والحرمان وقلة الموارد. لذا كان لزامًا على البلد الغني المسلم أنْ يعينَ إخوانه في الدين والعقيدة في البلد الفقير، ولا ينبغي أنْ يتركهم لدول الكفر، يلتجئون إليها كي يتصدقوا عليهم!

(1) تقدم تخريجه.

(2) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 5505. وفي رواية: ﴿ليس المؤمنُ بالذي يشبعُ وجارُه جائعٌ إلى جنبَيْهِ.﴾، صححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الجامع الصغير برقم 5382، وفي السلسلة الصحيحة برقم 149.

فالمسئولية تقع أولًا: على عاتق ولاةِ أمر المسلمين في الدول الغنية المسلمة كي يعينوا إخوانهم في العقيدة.

وتقع ثانيًا: على عامة المسلمين الأغنياء ومن دونهم، وحسب طاقاتهم وإمكانياتهم، كي يعينوا إخوانهم المحتاجين في البلدان الإسلامية الفقيرة.

فلا يليق بشعبٍ مسلمٍ ذي عوَزٍ وحاجةٍ، وهو جزءٌ من (خير أمة أخرجت للناس)، لا يليق به أنْ يتكفف الناس والدول الكافرة، ويستجديهم، بينما إخوانهم المسلمون في البلدان الإسلامية الأخرى الغنية، ينعمون بخيرات كثيرة ووفيرة، لا يأبهون بهم، ولا يهبون لنجدتهم، ولا يشركونهم في خيراتهم التي أنعم الله بها عليهم.

وإذا وافقت تلك الدول الكافرة على مدِّ يدِ العون لهم، فلن يفعلوا ذلك لوجه الله تعالى ودون مقابل! ومن المؤكد أنَّ تلك الدول المانحة ستفرضُ على ذلك البلد المسلم المحتاج وشعبه، ما تريد من مقابلٍ وتنازلات لذلك العوْن. وربما استغل المانحون حاجة ذلك البلد المسلم، فيفرضوا عليهم شروطهم، ويتدخلوا في شؤونهم، لقاء ما يعطونهم من مساعدات، يسمونها زورًا: (هِبات)، وفي الواقع إنما هي: (نَهبات)، ينهبوا بها حرية وإرادة واستقلال ذلك البلد.

وهذا بالضبط ما يفعله ما يسمى بـ (صندوق النقد الدولي) مع الدول المقترضة[1]، وذلك عندما تضطر الدول الفقيرة إلى الاقتراض، إذا لم تجد من يساعدها ويخرجها من محنتها وأزمتها.

إنَّ سياسات (صندوق النقد الدولي) في استغلال واستعباد الشعوب، معروفة للقاصي والداني. ولكي يوافق (صندوق النقد الدولي) على منح القروض، فإنَّه يفرض على الدول المقترضة حزمة من الشروط، يسميها (إصلاحات) في نظام البلد المالي، والاقتصادي، والسياسي، وحتى التعليمي والاجتماعي. وبذلك تصبح الدول الفقيرة المقترضة رهينةً وأسيرةَ هذا الوحش الدولي، فتخسر حريتها ورأيها وقرارها. ناهيك عن حجم وثقل الربا (يسمونه زورًا وبهتانًا بالفائدة) الذي يتكبده البلد والشعب المقترض، فيقع في عبودية القروض وذُلّ الربا وكفره. فهل يليق ذلك الحال بخير أمة أخرجت للناس؟!

(1) وهذه سياسته مع جميع الدول المقترضة، ولكننا نتحدث هنا عن الدول المقترضة، الإسلامية منها بالتحديد، وأثره على مكانة المسلمين ودينهم ودعوتهم.

فيا ترى! كيف تستطيع أمة، مهمتها دعوة الأمم الأخرى وهدايتها، أنْ تقوم بواجبها هذا، وتُقنع الناس بعظمة وصلاحية وتفوق منهجها، وهي على هذا الحال من الفقرِ والحاجة، والذُّلِ والهوان؟ ما لم يتعاون أهلها على البر والتقوى، فيُساعِد غنيُها فقيرَها، وينصرْ قويُّها ضعيفَها؟

ثُم، أيُّ الأمم الكافرة ستستمع إلى أمةٍ تدعو الناس إلى دينها -وهو واجبها الذي ينبغي أنْ تقوم به- بينما هذه الأمةُ الداعيةُ، فقيرة، وضعيفة، ومُضطهَدة، ومسلوبٌ أمرها، وحريتها، واستقلالها، وإرادتها؟ تُرى منْ سيستجيب لها ويدخل في دينها، وهي على هذا الحال من الفقر، والعوز، والتبعية، والإذلال؟

من المؤكد أنَّ الأمة الإسلامية لن تستطيع أنْ تُقنع الناس بصحة دينها وعقيدتها والدخول فيه، وهي على هذا الحال، ما لم تتكاتف الأمة جميعًا، وتتكافل بلدانها وشعوبها فيما بينها، ويساعد غنيُّها فقيرَها، ويَنصُر قويُّها ضعيفَها، ويُعلِّم عالمها جاهِلَها! وهذا هو واجب ولاةُ أمرِ المسلمين في كل بلدٍ مسلمٍ من أجل القيام بأمر رعيتهم وسد حاجتهم، والقضاء على الجوع والفقر، والجهل، والتخلف، وغيرها. وهو واجبهم أيضًا في مد يد العون إلى إخوانهم في البلدان الإسلامية الفقيرة للنهوض بحالهم وواقعهم.

دخلَ أبو مُسلِمٍ الخوَلاني على مُعاويةَ بنَ أبي سُفيان فقال: السَّلامُ عليكَ أيُّها الأجير، فقالوا: قُل: السَّلامُ عليكَ أيُّها الأمير، فقالَ: السَّلامُ عليكَ أيُّها الأجير، فقالوا: قُلْ: السلامُ عليكَ أيُّها الأمير، فقالَ: السلامُ عليكَ أيُّها الأجير، فقالوا: قُلْ: أيُّها الأمير، فقالَ معاوية: دَعوا أبا مُسلِمٍ، فإنه أعلمُ بما يقول، فقال: إنَّما أنتَ أجيرٌ استأجركَ ربُّ هذه الغَنمِ لِرعايتِها، فإنْ أنتَ هَنأْتَ جَرْبَاها، وَداوَيْتَ مَرْضَاها، وَحبستَ أُولاها على أُخْراها، وفَّاكَ سَيّدُها أجرَها. وإنْ أنْتَ لمْ تَهْنَأْ جَرْبَاها، وَلَمْ تُداوِ مَرْضَاها، وَلَمْ تَحبِسْ أُولاها على أُخْراها، عَاقَبَكَ سيِّدُها[1].

---

(1) السياسة الشرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، ص 13. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (661 - 728هـ)، المحقق: علي بن محمد العمران، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - جديع بن محمد الجديع، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، 1440هـ-2019م (الأولى لدار ابن حزم).

أخرج القصة أبو نعيم في (الحلية)، (125/2)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق): (223/27)، (218/67)، وقال: هذه الحكاية محفوظة عن أبي مسلم الخولاني. الهناء هو القَطِران، ومنه: إذا هنأتَ البعير، إذا طَلَيْتهُ بالقَطِران.

لذا كان لزامًا على الأمة أنْ تتعاون على البر والتقوى، وكما أمرها ربها وأمرها نبيها ﷺ كي تبقى عاليةً شامخةً، ومعتزةً بدينها، مالِكةً لقرارها وحريتها، ومستغنية عن الناس، حتى لا تصل إلى ذلك الدرك الأسفل، وتكون فتنة للذين كفروا.

إنَّ الحقيقة التي لا مِراء فيها، والتي يشهد لها الواقع، أنَّ غالب الناس لا تستمع، ولا تُنصت، وبالتالي، لا تتأثر بفكر ما أو دعوة ما، وإنْ كانت حقًّا، ما لم يكن صاحبها قويًّا بشكلٍ من الأشكال. فالناس مثلًا، تنصت، وتتأثر، وتنصاع، وتتبعُ القوي ماديًّا (أي الغني، ذو مال وثروة)، أو عسكريًّا، أو حضاريًّا، أو علميًّا وتقنيًّا، وغيرها من صور القوة والتمكين. ولهذا السبب، فإنَّ الأمة الإسلامية أولى من غيرها من الأمم، بأنْ تكون أمة قوية في كل شيء، لأنها أوتيت من كل شيء من أسباب القوة الفكرية والمادية. فلقد حبى الله الأمة الإسلامية قوة في الفكر والمنهج، والثروات الطبيعية، والرقعة الجغرافية الشاسعة، وغيرها من أسباب التمكين. من أجل ذلك كان لزامًا على المسلمين أنْ يأخذوا بكل أسباب القوة والتمكين والحضارة، وذلك مما أباح الله، ولا يخالف أمر دينهم، كي يكون لهم القوة والتأثير حين يدعون إلى دينهم وعقيدتهم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿60﴾﴾[1].

وإعدادُ القوة في الآية الكريمة، لا يقتصر فقط على القوة العسكرية، وإنما يشمل كل أشكال القوة والتمكين، من حضارة واقتصاد وعلم وتكنولوجيا وغيرها، فالآية عامة في أمرها بالإعداد من كل قوة ممكنة.

وعن طيِّباتِ الدُّنيا بكل أشكالها، فالمسلمون أولى من غيرهم بالأخذ بها والاستمتاع بها، كأشكال الحضارة من بناء وعمران وعلم وتكنولوجيا وتقدم وازدهار، وفي كل مجالات الحياة. وكذلك من طيبات الدنيا، كالثروة، والملذات المباحة، كالمأكل والملبس والمشرب، وغيرها من طيّبات الدنيا، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿32﴾﴾[2].

(1) الأنفال، الآية: ﴿60﴾.

(2) الأعراف، الآية: ﴿32﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّم شَيْئًا مِنَ الْمَآكِلِ أَوِ الْمَشَارِبِ، وَالْمَلَابِسِ، مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللَّهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَابْتِدَاعِهِمْ: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾،

عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ —حَتَّى قَالَ— وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَت، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ.»[1].

وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ.»[2].

فالمقصود من كلامنا هذا كله، أنَّ الأمة الإسلامية لا بد لها وأنْ تظهرَ بمظهر القوة والتقدم والحضارة والاكتفاء والازدهار والرقي، كي تستطيع نشرها دينها وعقيدتها، حتى تتأثر الناس بها، وتقبل دعوتها ومنهجها. ولا يتم ذلك إلا بأنْ تتعاون البلدان الإسلامية فيما بينها على البر والتقوى، وتتكاتف الجهود فيما بين المسلمين، ويتكافلوا فيما بينهم، كما أمرهم دينهم.

إنَّ الأمة التي لا تملك غذاءها وسلاحها على وجه الخصوص، لا يمكن لها أنْ تنتصر وتخضع لها الأمم وتتأثر بمنهجها وعقيدتها، ناهيك عن استطاعتها حماية نفسها وعقيدتها وأراضيها.

الْآيَةَ، أَيْ: هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَبَدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ شَرَكَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حِسًّا فِي الدُّنْيَا، فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَشْرَكهم فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.]، اهـ. تفسير ابن كثير، 3/367.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار برقم 1017.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الشركة، باب: الشركة في الطعام والنهد والعروض برقم 2345). ومسلم في صحيحه في (كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، باب من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم برقم: (2500). أرملوا في الغزو: أي فَنِيَ طعامهم.

خاتمة

تعرفنا في هذا الفصل على ركن (**التعاون على البر والتقوى**)، وبينا أنّه عامٌّ يشمل كل أنواع التعاون على فعل ما هو خير للأمة، كإقامة الدين، وتعبيد الناس لله رب العالمين، ونصرة المسلمين المستضعفين ونجدتهم، وسد الفقر عنهم والحاجة والعوز، ودفع العدو الصائل عن بلاد المسلمين. ويجب أن يكون هذا التعاون على كافة المستويات، ونعني بذلك على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب، والدول الإسلامية، والأمة الإسلامية برمتها. وبينا أيضًا أنَّ (التعاون على البر والتقوى) هو مسئولية ولاة الأمر كذلك لما لهم من سلطان وإمكانيات.

وبينا أنَّ ضد (التعاون على البر والتقوى)، (التعاون على الإثم والعدوان)، الذي نُهيَ المسلمونَ عن فعله، لما فيه من الإيذاء والظلم والعدوان على أمتهم وبلادهم الإسلامية. وبينا أنَّ الحُرمة تزداد، ويتأكد النَّهيُ، وقد يَخرُجُ المتعاون فيه من حظيرة الإسلام إلى الكفر، إذا اقترنَ ذلك (التعاون على الإثم والعدوان) بتواطؤ المسلمِ مع الكافر ضدَّ المسلم لما فيه من إضرار بالمسلمين، وإضعافِ الأمة الإسلامية، وتمكينِ الكافرِ على المسلم. وضربنا مثالًا على ذلك، ما يحدثُ مِن حِصارٍ وفرض عقوبات تقوم بها دولٌ كافرة، ومنظمات عالمية على بلد مسلم، ثم يُطبق تلك العقوبات، ويُنفِّذ ذلك الحصار بقية الدول الإسلامية.

وذكرنا، أنه ينبغي للمسلمينَ أنْ يتعاونوا على البر والتقوى من أجل التكاتف والتكافل فيما بينهم شعوبًا ودولًا، وأنْ يعدّوا كلَّ ما يستطيعون من قوة عسكرية ومادية، وحضارة وعلم وتكنولوجيا وازدهار ورُقي، كي يستطيعوا أن يدعوا الناس إلى دينهم وينشروا رسالتهم الإسلامية، وبالتالي، تتأثر الناس بهم وتقبل دعوتهم. ولا ينبغي للمسلمين أنْ يظهروا بمظهر الفقير والجائع والمتخلف، ويتكففوا الكفار ويطلبوا منهم العون والمساعدة، وهذا كله لا يتم الا بتعاونِ المسلمينَ شعوبًا ودولًا على البِرِّ والتَّقوى فيما بينهم.

فصل:

الركن العاشر: الأمرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ

إِنَّ مِن أعظمِ واجبات الأمة الإسلامية ومَهامِّها التي أوكلها تعالى إليها، وائتمنها عليها، القيام بواجب (الأمرِ بالمعروفِ والنهي عنِ المُنكر)، والذي يتضمَّنُ أساسًا، الدعوة إلى الله وتوحيده، والدعوة إلى كتابه تعالى، وسُنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾﴾[1].

فالقيام بهذا الركن – أعني (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) – لهو من أهم خصائص الأمة الإسلامية، والذي نالت به شرفُ الوصفِ، بـ (**الأمة الوسط**)، و(**الشاهدة على الأمم يوم القيامة**)، كما مر بنا سابقًا في فصلي (**الأمة الوسط**)، و(**الشاهدة على الأمم**). فإذا قامت الأمة الإسلامية بهذا الركن، فقد تكاملت فيها صفة (**خير أمة أخرجت للناس**).

القرآن الكريم

لقد أخبر تعالى في كتابه الكريم أَنَّهُ إنما جعل الأمة الإسلامية (**خير أمة أخرجت للناس**)، لأنَّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ولأهمية ذلك الواجب في حياة الأمة فقد قرَنَهُ بالإيمان به تعالى، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿110﴾﴾[2].

والحقيقة، فإِنَّ (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) والدعوة إلى الله، يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، أي يدخل في ركن (**التعاون على البر والتقوى**)، والذي مر بنا في الفصل السابق.

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿104﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

فالأمر بالمعروف يدخل في باب: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، وذلك بالتعاون والتواصي والأمر بفعل كل ما فيه خيرٍ وصلاحٍ، من أجل تعبيد الناس لربهم، وإعانتهم على طاعته، والقيام بما افترضه عليهم.

وأما النهي عن المنكر، فيدخل في باب: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، أي بعدم التعاون والنهي عن فعل ما فيه إثمٌ، وعدوانٌ، ومضرَّةٌ، وإيذاء. ويتم ذلك من خلال العمل على إزالة الكفر، والشرك، والمعاصي، والذنوب، والظلم والاضطهاد، والنهي عن ذلك، وعن غيره من أشكال الإثم والعدوان عن الناس، وعن شرع الله تعالى، بالتعدي على حدوده وتجاوزها.

ولكنْ، ولأهمية وخصوصية واجب (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) في حياة المسلمين، فقد أفردناه، وجعلناه ركنًا قائمًا بذاته.

حكمُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر

لقد أمر تعالى الأمة الإسلامية جميعًا، وبلا استثناء بالقيام بركن (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**)، كُلًّا حسب علمه، واستطاعته، ومقدرته، وظرفه. إذْ لا يُتصور أنْ تخلو حياة المسلم من (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، أيًّا كانت درجةُ وشكلُ ذلك الأمر والنهي[1]. وهذا مما يُفهم من عمومِ كثير من النصوص التي جاءت في الكتاب والسنة في ذلك الصدد.

(الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر فرضُ عينٍ على جميع المسلمينَ، كُلٌّ حسب علمهِ، واستطاعتهِ، ومَقدرتهِ، وظَرفهِ)

فمن تلك النصوص القرآنية التي تفيد عموم وجوب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وأنه فرض عين على جميع المسلمين، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿110﴾﴾[2].

(1) ونقصد بذلك، لا بُد من قيامِ المسلم في حياته بواجب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ولو بشكل بسيطٍ وحسب علمه وقدرته، وذلك في نطاق بيته وأسرته ومجتمعه وبيئته التي يعيش فيها.

(2) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية المذكورة، أنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) واجبٌ على كل فرد من الأمة بحسبه، فقال: [وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أن تكون فرقة من هذه الْأُمَّةِ مُتَصَدِّيَةٌ لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسْبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ﴾. وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ﴾.] اهـ[2].

ويفهم أنه فرضُ عينٍ على جميع المسلمين، من عموم وصفه تعالى للمؤمنين والمؤمنات، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿71﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿112﴾﴾[4].

وكذلك من وصفه تعالى أيضًا للمؤمنين عند التمكين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿41﴾﴾[5].

وهذا الحكم –أعني أنَّ (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) فرضُ عينٍ– هو مما يُفهم أيضًا من سبب هلاكِ الأمم الماضية، كما ذكره القرآن الكريم في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿117﴾﴾[6].

فقد نفى تعالى في تلك الآية هلاكَ القرى عندما يكون أهلها مصلحون. ومن المعلوم، فإنَّ الانسانَ لا يكونُ مُصلحًا حتى يأمرَ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ. وهذا المعنى واضحٌ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ

(1) آل عمران، الآية: ﴿104﴾.
(2) تفسير ابن كثير، 78/2.
(3) التوبة، الآية: ﴿71﴾.
(4) التوبة، الآية: ﴿112﴾.
(5) الحج، الآية: ﴿41﴾.
(6) هود، الآية: ﴿117﴾.

مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿164﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿165﴾ ﴾[1].

فقد أخبر تعالى في تلك الآيات عن نجاةِ طائفةٍ من بني إسرائيل لأنَّها كانت تَنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿165﴾ ﴾.

وهكذا في غيرها من الآيات الكريمة ومن نصوص السنة النبوية[2]، التي تُشير إلى وجوب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على جميع المسلمين، وكلٍ حسب استطاعته وعلمه.

ومن أجل القيام بركن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على أحسن وجه، وبخطًى ثابتةٍ ومدروسةٍ، وعلى علمٍ وبصيرةٍ، وهو ما يندرج تحت القاعدة الأصولية: (ما لا يتمُ الواجبُ إلَّا بهِ فهو واجب)، فقد أمر تعالى المسلمين أيضًا بأنْ تقوم به جماعةٌ متخصصةٌ، ومتفرغةٌ لهذا الشأن، ويكون ذلك بمتابعة من ولي الأمر، وهذا مما يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾ ﴾[3].

وكذلك من قوله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿122﴾ ﴾[4].

(الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر فرضُ كفايةٍ، يقوم به ولاةُ الأمرِ، والعلماءُ، والوعَّاظُ والمجاهدونَ، والمتصدّونَ لتفقُّدِ أحوالِ الناسِ وإلزامهم بالشَّرْع)

ومن الجدير بالذكر، فقد ذكر أهلُ العلم بأنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فرضُ كفاية، فإذا قامت به طائفةٌ، وحصل المقصود، سقط عن الباقي، فإن لم تقم به طائفة، ولم يحصل المقصود، أثِم الجميع.

(1) الأعراف، الآية: ﴿164، 165﴾.

(2) كما سنبين بعد قليل في هذا الفصل ان شاء الله.

(3) آل عمران، الآية: ﴿104﴾، كما سيأتي لاحقًا قول أهل التفسير في تلك الآية.

(4) التوبة، الآية: ﴿122﴾، كما سيأتي لاحقًا تفسير تلك الآية الكريمة.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾﴾[1]. فقد ذكر السعدي في تفسيره الآية المذكورة بقوله:

[وهذا إرشادٌ من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة. فكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ إلخ، أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة. ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب.] اهـ[2].

والحقيقة، فإنّ قول أهل العلم: أنَّ (الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ)، (فرضُ كفاية)، لا يتعارض مع ما ذكرنا أنَّه (فرضُ عينٍ) و(فرضُ كفايةٍ) في الوقت ذاته. فما ذكرناه إنما هو بمثابة جمعٍ لنصوصِ الكتاب والسنة في ذلك الباب. إِذْ أنَّ قِسمًا من تلك النصوص تفيد بأنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فرضُ عينٍ على كل مسلم. والقسم الآخر يفيد بأنَّهُ فرضُ كفايةٍ.

إِنَّ وجوبَ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على جميع الأمة، هو ما يُفهم من نصوص الكتاب والسنة التي جاءت في ذلك الصدد. فمن ذلك مثلًا، ما جاء في السُّنة، أنَّ كلَّ مسلمٍ راع، وهو مسئولٌ عما استرعاه الله وائتمنه عليه، وجعل له ولاية عليه. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ

(1) آل عمران، الآية: ﴿104﴾.

(2) تفسير السعدي، ص 142.

مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.﴾، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.﴾[1].

ولهذا كان من أهمِّ واجبات الراعي –كالحاكم، وإمام المسجد، والعالم، وشيخ القبيلة والوالدين، وغيرهم من أولياء الأمور – القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا كان غاشًّا لرعيته. فعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، قَالَ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.﴾[2].

من أجل هذا كان من واجب ولي الأمر تجاه رعيته، أنْ يُقيم جماعة أو هيئة متخصصة ومتفرغة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان من واجب الزوج تجاه زوجته، أن يأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر. وهو كذلك واجبُ الزوجةِ تجاهَ زوجِها، وواجبُ الوالدين تجاه أبناءِهم، وواجبُ الإخوةِ والأخواتِ تجاهَ بعضِهم البعض. وكذلك الحال مع جميع المسلمين، وكلٌّ حسب ولايته وحاله ومقدرته ومسئوليته، كما يفهم مما جاء عن عموم الوعيد في عدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعَنْ حُذَيْفَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.﴾[3].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق

وقد جاء ذكرُ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، بعد أنْ أمرَ الله تعالى المسلمين بـ (الاعتصام بحبله)، و (عدم التفرق)، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي، الغاش لرعيته، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم 142). والبخاري في صحيحه في (كتاب الأحكام، باب: من استرعي رعية فلم ينصح برقم 6731 و6732).

(3) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2169.

مِنْهَا كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿103﴾ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾﴾[1].

وهذا بمثابة إشارة للمسلمين كي يكونوا قدوةً حسنةً، فلا يخالفُ حالهم وواقعهم لما يأمرون به وينهون عنه. ففي تلك الآيات، ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم بأنْ جعلهم إخوةً متحابين، بعد أنْ كانوا أعداءً متفرقين ومتقاتلين، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من النار، لولا رحمته ولطفه تعالى بأنْ نجَّاهم منها بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿103﴾﴾ (2).

ثم بعد ذلك، أمرهم تعالى بالقيام بالمهمة التي اختارها لهم من دون سائر الأمم، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿104﴾﴾[3].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ مُنْتَصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ وَخَاصَّةُ الرُّوَاةِ، يَعْنِي الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿الخَيرُ: إتِّبَاعُ القُرآنِ وَسُنَّتي﴾ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أنْ تكونَ فِرقة مِن هذهِ الْأُمَّةِ مُتَصَدِّيَةٌ لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسْبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ.﴾ وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ.﴾] اهـ[4].

والدعوة إلى الخير في الآية، أي الإسلام[5]، فيحتمل أنْ يكون المراد بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) خاصٌّ بالمسلمين، و(الدعوة إلى الخير) أي الإسلام عمومًا، خاص بغير المسلمين، والله اعلم.

(1) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿103﴾.

(3) آل عمران، الآية: ﴿104﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 78/2.

(5) تفسير الطبري وتفسير البغوي.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم صفات المؤمنين

وفي باب التأكيد على أهمية هذا الواجب في حياة المسلمين، فقد أخبر تعالى أَنَّ من أهم صفات المؤمنين، أنَّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[1].

فالمؤمنون قائمون على أمر الله ورسوله، من صلاةٍ، وصيامٍ، وطاعةِ الله ورسوله، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر. ذكر السعدي في تفسيره للآية بقوله: [لما ذكر أنَّ المنافقين بعضهم أولياء بعض، ذكر أنَّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ﴾، أي: ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، في المحبة، والموالاة، والانتماء، والنُّصرة. ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهو اسم جامع لكل ما عُرِفَ حُسْنُهُ من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل: في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾، وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة. ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُدخِلهم في رحمته، ويَشملهم بإحسانه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يُحمد على ما خلقه وأمر به.] اهـ[2].

وأخبر تعالى أنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، هو أيضًا من صفات المؤمنين المجاهدين، الذين اشترى منهم أنفُسَهم وأموالهم، أولئك المتصِّفون بتلك الصفات الجميلة، والخلال الجليلة، قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿112﴾﴾[3].

(1) التوبة، الآية: ﴿71﴾.

(2) تفسير السعدي، ص 343

(3) التوبة، الآية: ﴿112﴾.

وجوبُ تربيةِ وتعليم الابناء منذ الصغر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وأخبر تعالى أنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كانت وصية لقمان – عليه السلام – لابنه، وهو لا يزال صغيرًا، كما يفهم من سياق الآيات. وتلك الوصيةُ إشارةٌ من القرآن الكريم للأمة الإسلامية، وللوالدين بصورة خاصة، بوجوب تربية الأبناء، وتعويدهم منذ الصِّغر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذْرِ ذلك فيهم، وتنمية الشعور بالمسئولية فيهم تجاه دينهم وأمتهم، قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿17﴾﴾[1].

ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ ﴿17﴾﴾، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُخْبِرًا عَنْ قولِ لُقْمَانِ لِابْنِهِ: ﴿يا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلاةَ﴾، بِحُدُودِهَا، ﴿وأْمُرْ بالمعْرُوفِ﴾، يَقُولُ: وَأْمُرِ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، ﴿وَانْهَ عَنِ المنْكَرِ﴾ يَقُولُ: وَانْهَ النَّاسَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَمُوَاقَعَةِ مَحَارِمِهِ، ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصَابَكَ﴾ يَقُولُ: وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ مِنَ النَّاسِ فِي ذَاتِ اللَّهِ إِذَا أَنْتَ أَمَرْتَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ ذَلِكَ مَا نَالَكَ مِنْهُمْ، ﴿إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾، يَقُولُ: إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ عَزْمًا مِنْهُ.] اهـ[2].

القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهمّ صفاتِ أهلِ التمكين

وأخبر القرآن الكريم أَنَّ من أهم صفات أهل التمكين، إضافةً إلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أَنَّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿41﴾﴾[3].

فينبغي أنْ يكونَ همُّ المسلمِ ليس مُنصبًّا فقط على إقامة الدين على نفسه، وإنَّما على أمته، وإلى دعوة الناس جميعًا إلى هذا الدين من خلالِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) لقمان، الآية: ﴿17﴾.

(2) تفسير الطبري، 558/18.

(3) الحج، الآية: ﴿41﴾.

القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتوقف في أي حال

ولأهمية واجب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في حياة الأمة، وفي أمنها واستقرارها، ولكيلا ينتشر الجهل بالأحكام الشرعية، وتظهر المعاصي، فقد أمر تعالى أَنْ يستمرَّ المسلمون بالقيام بهذا الواجب، وأنْ لا يتوقف ويتعطل، حتى في أشدِّ الظروف التي تمر بها الأمة وأحْلَكِها، كالحربِ وحال النفير العام، وذلك كي لا تنتشر المعاصي، وتعم الفوضى، وتنتهك حدود الله. ومن أجل أنْ لا يُتساهل أيضًا بذلك الواجب — أعني (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) – ويُتغاضى عنه، بحجة أنَّ الأمة مشغولةٌ بقتال أعدائها، وأنْ لا وقت لهذا الواجب في تلك الظروف.

من أجل ذلك، فقد أمرَ تعالى، في حالة النفير العام ووقت الجهاد، أَنْ تتفرغ طائفةٌ من المسلمين للتفقه في الدين، كي تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالرغم من حاجة الأمة إلى مقاتلين في تلك الظروف العصيبة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿122﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا جَمِيعًا وَيَتْرُكُوا النَّبِيَّ ﷺ وَحْدَهُ، ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يَعْنِي: عُصْبَةً، يَعْنِي: السَّرَايَا، وَلَا يَتَسرَّوا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا وَقَدْ نَزَلَ بَعْدَهُمْ قُرْآنٌ تَعَلَّمَهُ الْقَاعِدُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّكُمْ قُرْآنًا، وَقَدْ تَعَلَّمْنَاهُ. فَتَمْكُثُ السَّرَايَا يَتَعَلَّمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ بِعَدَهُمْ، وَيَبْعَثُ سَرَايَا أُخْرَى، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يَقُولُ: لِيَتَعَلَّمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ، وَلِيُعَلِّمُوا السَّرَايَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَرَجُوا فِي الْبَوَادِي، فَأَصَابُوا مِنَ النَّاسِ مَعْرُوفًا، وَمِنَ الْخِصْبِ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَدَعَوْا مَنْ وَجَدُوا مِنَ النَّاسِ إِلَى الْهُدَى، فَقَالَ النَّاسُ لَهُمْ: مَا نَرَاكُمْ إِلَّا وَقَدْ تَرَكْتُمْ أَصْحَابَكُمْ وَجِئْتُمُونَا. فَوَجَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ تَحَرُّجًا، وَأَقْبَلُوا مِنَ الْبَادِيَةِ كُلُّهُمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يَبْتَغُونَ الْخَيْرَ، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وَلِيَسْتَمِعُوا مَا فِي النَّاسِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَهُمْ، ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ النَّاسَ كُلَّهُمْ ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.] اهـ[2].

(1) التوبة، الآية: ﴿122﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 206/4.

ومن الجدير بالذكر، فإنَّ تلك الآية وإنْ كانت قد نزلت في واقعة معينة، فإنَّها تعُمُّ كل وقتٍ وعصرٍ، خصوصًا في زماننا هذا، لِكَثرة الناس وانتشارهم، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في أصول التفسير.

هل يحتاجُ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ إلى علم؟

من المعلوم أنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يحتاجُ إلى علمٍ ودرايةٍ للداعي بما يأمر به ويدعو إليه. ويحتاج كذلك، إلى علمٍ بمعرفة أحوال الناس، ومدى استعدادهم وتقبلهم لما يُؤمرون به ويُنهون عنه. لذا، كان لزامًا على الداعي، طلب العلم والتفقه في الدين.

ونقصد بالحاجة إلى ذلك العلم والدراية، في حق من يتصدَّر لواجب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وتعليم الناس العلومَ الشرعية، ومراقبة حدود الله ومدى تطبيقها في المجتمع.

أمَّا بالنسبة لعامَّة المسلمين، فيمكن لكلِّ مسلمٍ أنْ يأمرَ بما يعرفه من معروف، ويَنهى عمَّا يعلمه من منكر، وكلٌّ على قدر ما عنده من علم، وحسب استطاعته وولايته على من يدعو. إذ ليس المقصود من وجوب العلم الشرعي على القائمِ بركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنْ لا يقومَ بذلك الركن إلا الراسخون في العلم. وإلَّا صار من الصعب إيجاد أولئك القائمون به، وأدى ذلك إلى قلةِ القائمين به، وقِلة ظهور المعروف، وإلى تفشي وانتشار المنكر، وضياع الدين. ولهذا، فقد ذكر كثير من أهل التفسير أنَّ الآية المذكورة آنفًا، ونعني قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴿122﴾﴾[1] أصلٌ في طلبِ العلمِ وتعليمه أيضًا.

فقد ذكر القرطبي في تفسيره تلك الآية بقوله: [فيه ست مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَما كانَ الْمُؤْمِنونَ﴾، هي أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ عَلَى الْأَعْيَانِ وَأَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ، إِذْ لَوْ نَفَرَ الْكُلُّ لَضَاعَ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْعِيَالِ، فَلْيَخْرُجْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ لِلْجِهَادِ وَلْيُقِمْ فَرِيقٌ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيَحْفَظُونَ الْحَرِيمَ، حَتَّى إِذَا عَادَ النَّافِرُونَ أَعْلَمَهُمُ الْمُقِيمُونَ مَا تَعَلَّمُوهُ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَمَا تجدد نزول عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَهَذِهِ الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ (التوبة: 39)، وَلِلْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَابْنِ زَيْدٍ.

(1) التوبة، الآية: ﴿122﴾.

الثَّانِيَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي وُجُوبِ طَلَبِ الْعِلْمِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ مقيم، لا يَنفِر، فيتركوه وحده. ﴿فَلَوْلا نَفَرَ﴾ بعد ما عَلِمُوا أَنَّ النَّفِيرَ لَا يَسَعُ جَمِيعَهُمْ. ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ﴾، وَتَبْقَى بَقِيَّتُهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، لِيَتَحَمَّلُوا عَنْهُ الدِّينَ وَيَتَفَقَّهُوا، فَإِذَا رَجَعَ النَّافِرُونَ إِلَيْهِمْ أَخْبَرُوهُمْ بِمَا سَمِعُوا وَعَلِمُوهُ. وَفِي هَذَا إِيجَابُ التَّفَقُّهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّهُ عَلَى الْكِفَايَةِ دُونَ الْأَعْيَانِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أيضًا قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 43)، فَدَخَلَ فِي هَذَا مَنْ لَا يَعْلَمُ الْكِتَابَ والسنن.] اهـ [1].

الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ حِصنٌ للأمة، ونجاةٌ لها من عذابِ اللهِ وسَخَطِهِ إذا نَزل

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حصنٌ للأمة وللقائمين به، ونجاةٌ لهم من عذابِ الله وسَخَطِهِ إذا نزل. فقد أخبر القرآن الكريم أَنَّ عذاب الله تعالى وسخطه إذا نزل، بسبب ظُلم الناس وانحرافهم عن منهج الله وانتشار الذنوب وتفشي المنكر، فلن ينجُ منه – عندئذ – إِلَّا من كان يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿165﴾﴾[2]. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية المذكورة آنفًا بقوله:

[قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَيْ: فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ الْمُنْكَرَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ، ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي: ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ

---

(1) تفسير القرطبي، 8/293. وجاء في تفسير تلك الآية أيضًا، ما ذكره الطبري بقوله: [حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثَنَا يَزِيدُ، قَالَ: ثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، قَالَ: هَذَا إِذَا بَعَثَ نَبِيُّ اللَّهِ الْجُيُوشَ أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يُعَرُّوا نَبِيَّهُ؛ وَتُقِيمُ طَائِفَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ، وَتَنْطَلِقُ طَائِفَةٌ تَدْعُو قَوْمَهَا وَتُحَذِّرُهُمْ وَقَائِعَ اللَّهِ فِيمَنْ خَلَا قَبْلَهُمْ.] اهـ. تفسير الطبري، 12/78.

وما ذكره السعدي عن تفسيره لتلك الآية أيضًا بقوله: [يقول تعالى: – منبهًا لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم – ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: جميعًا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى. ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي. ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علما ومنحه فهمًا.] اهـ، تفسير السعدي، ص 355.

(2) الأعراف، الآية: ﴿165﴾.

النَّاهِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا، وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا، وَمَعَ هَذَا فَقَدَ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِيهِمْ: هَلْ كَانُوا مِنَ الْهَالِكِينَ أَوْ مِنَ النَّاجِينَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.] اهـ[1].

وقد خصَّ القرآن الكريم في الآية المذكورة، النهي عن السوء — أي المنكر — لسببين، هما:

الأول: لأنَّه يَعمَّ الأمر بالمعروف، فالنهي عن المنكر هو أمرٌ بفعل ضده، فهو في الحقيقة أمرٌ بالمعروف. ومثال ذلك النهي عن التفرق، فهو أمر بالمعروف وهي الوحدة والجماعة. والحال نفسه مع الأمر بالمعروف، أي يعم النهي عن ضده، أعني المنكر. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا افترقا، اجتمعا، أي دخل كل منهما بمعنى الآخر، وإذا اجتمعا افترقا، أي اختص كلُّ واحدٍ منهما بمعناه الخاص به.

والثاني: لأنَّ درءَ المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع، من أجل ذلك ذُكر فقط، النهي عن المنكر (السوء).

وحذَّر القرآن الكريم المسلمين أنْ يفعلوا مثل أهل الكتاب من اليهود، فيأمرون بالبِر وينسون أنفسهم، حيث قصَّ تعالى علينا من نبأهم فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿44﴾﴾[2]. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى: كَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ — يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَهُوَ جِمَاعُ الْخَيْرِ — أَنْ تَنْسَوْا أَنْفُسَكُمْ، فَلَا تَأْتَمِرُوا بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ، وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصر فِي أَوَامِرِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ؛ فَتَنْتَبِهُوا مِنْ رَقدتكم، وَتَتَبَصَّرُوا مِنْ عَمَايَتِكُمْ. وَهَذَا كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَةَ فِي قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قَالَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِتَقْوَاهُ، وَبِالْبِرِّ، وَيُخَالِفُونَ، فَعَيّرهم اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ. وَكَذَلِكَ قَالَ السُّدِّيُّ.] اهـ[3].

هل لا يأمر بالمعروف إلَّا من يفعل المعروف؟ ولا ينهى عن المنكر إلَّا من لا يفعل المنكر؟

ومن الجدير بالذكر أنْ نُبين أمرًا مهمًّا يختلط على كثيرٍ من المسلمين، وإثمًا عظيمًا يقعون فيه، وذلك بسبب سوء فهم الآية المذكورة آنفًا، أعني قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿44﴾﴾، فنقول:

(1) تفسير ابن كثير، 445/3.

(2) البقرة، الآية: ﴿44﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 151/1.

على الرغم من ذمِّ الله تعالى لبني إسرائيل لعدمِ قيامهم بفعل ما يَأمرون به من برٍّ ومعروفٍ، فليس معنى ذلك أنْ لا يأمرُ بالمعروف إِلَّا مَنْ يَفْعَل ذلك المعروفِ أصلًا، ولا يَنهى عن المنكر إِلَّا لِمَنْ لا يَفعل ذلك المنكر أصلًا. بل الواجب على المسلمِ أنْ يفعل ذلك في حاله كله، بغض النظر عن كونه مُتصفًا وقائمًا بفعل المعروف، ومُنتهيًا عن فعل المنكر. إذ لا يخلو مسلمٌ من التقصير في أداءِ المعروف والطاعات، وارتكابه المعاصي. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كلُّ بني آدم خَطَّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائِينَ التوابون.﴾[1].

وربما يكون ذلك أعذر له عند الله، أعني أنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإنْ كان غير متصف وقائم بذلك. فلعل ذلك يجعلهُ أعذرَ له عند ربه من عدم قيامه أصلًا بواجب (الأمر المعروف والنهي عن المنكر). ويزداد عذرهُ -إنْ شاء الله- إذا نوى صادقًا ومخلصًا من قلبه عزمه على عدم مخالفة ما يأمر به وينهى عنه. وجاهد نفسه من أجل ذلك، وعمِل بقول شعيب عليه السلام، حين نهى قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿88﴾﴾[2].

نقول: أن ذلك أعذر له عند الله، لأنه في تلك الحالة يكونُ قد ارتكب معصيةً واحدة، وهي مخالفته لما يأمرُ به وينهى عنه، مع نيته بعدم المخالفة.

أما إذا تَرك (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بالكلية، بحجة تقصيره وعصيانه، وخوفه من مشابهة اليهود، حينئذٍ يكونُ قد ارتكب مُحرَّمين هما: ترك القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذنوبه المتمثلة بدوامه في التقصير والمعصية. وللمزيد من التوضيح عن ذلك الموضوع، نورد هنا كلامًا قيمًا لابن كثير، حيث يقول في تفسيره الآية المذكورة[3] بقوله: [وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ إِذَا جَاءَ الرَّجُلُ يَسْأَلُهُمْ عَنِ الشَّيْءِ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾. وَالْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى خَطَئِهِم فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمُّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ، بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَالِمِ، وَلَكِنَّ الْأَوْلَى

(1) رواه الترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 4515، وفي مشكاة المصابيح برقم 2341.

(2) هود، الآية: ﴿88﴾.

(3) أعني: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿44﴾﴾، البقرة، الآية: ﴿44﴾.

بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ أَمْرِهِ بِهِ، وَلَا يَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿88﴾﴾ (هُودٍ: 88). فَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَفِعْلِهِ وَاجِبٌ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الْمَعَاصِي لَا يَنْهَى غَيْرَهُ عَنْهَا، وَهَذَا ضَعِيفٌ، وَأَضْعَفُ مِنْهُ تَمَسُّكُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعَالِمَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنِ ارْتَكَبَهُ، قَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ لَهُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. وَقَالَ مَالِكٌ: وَصَدَقَ، مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: وَلَكِنَّهُ – وَالْحَالَةُ هَذِهِ – مَذْمُومٌ عَلَى تَرْكِ الطَّاعَةِ، وَفِعْلِهِ الْمَعْصِيَةَ، لِعِلْمِهِ بِهَا وَمُخَالَفَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ فِي الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمُعَلَّى الدِّمَشْقِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْمَعْمَرِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا هشام بن عمار، حدثنا علي بْنُ سُلَيْمَانَ الْكَلْبِيُّ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي تَميمة الهُجَيمي، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ﴾، هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

حَدِيثٌ آخَرُ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ هُوَ ابْنُ جُدْعَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ شِفَاهُهُمْ تُقْرَض بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ ﴿قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟﴾.

وَرَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي مُسْنَدِهِ، وَتَفْسِيرِهِ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُوسَى، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهِ.] اهـ[1].

تركُ (الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ) يستوجبُ اللعنَ والطردَ من رحمةِ الله

إنَّ ترك (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أمرٌ خطيرٌ، وكبيرةٌ من الكبائر، تستوجب لعنةَ الله، والطرد من رحمته. فقد أخبر تعالى أنَّه لعنَ بني إسرائيل لعدم قيامهم بالنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا

(1) تفسير ابن كثير، 152/1.

يَعْتَدُونَ ﴿78﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿79﴾﴾[1]. ذكر ابن كثير في تفسير تلك الآيات بقوله:

[ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، أَيْ: كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِيُحَذَرَ أَنْ يُرْكَبَ مِثْلُ الَّذِي ارْتَكَبُوا، فَقَالَ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا شَرِيك بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمة، عَنْ أَبِي عُبَيدة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ –قَالَ يَزِيدُ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَأَسْوَاقِهِمْ – وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ. فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: ﴿لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا.﴾. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّفَيْلي، حَدَّثَنَا يُونُسُ بن راشد، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بني إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، ولتَنهون عَنِ الْمُنْكَرِ، ولتأخذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأطرنَّه عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ تَقْصُرُنَهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا﴾. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمة، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: (حَسَنٌ غَرِيبٌ). ثُمَّ رَوَاهُ هُوَ وَابْنُ مَاجَهْ، عَنْ بُنْدَار، عَنِ ابْنِ مَهْدِيّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مُرْسَلًا.] اهـ[2].

وهكذا نفهم من الآية المذكورة آنفًا أنَّ القيامَ بالنهي عن المنكر يستوجبُ من الناهي مفارقة المنهي، أي الفرد الذي يعمل المنكر، ويجب عدم مجالسته، وهجره، كي يرتدِع عن معصيته وينتهي. ولهذا السبب، فقد عاقبَ – تعالى – ولعنَ من قام بالنهي عن المنكر، ولكنَّه لم يفارِق العاصي ويهجره. فإذا كانت هذه عقوبة هؤلاء، فما بالك بعقوبة من لا ينهى عن المنكر أصلًا!

(1) المائدة، الآيتان: ﴿78، 79﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 145/3.

يتبين لنا مما سبق أنَّ على المسلمين جميعًا - الطائع منهم والعاصي، والعالم والعامي – القيام بواجب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وكلٌّ حسب قدرته وعلمه. فلا يتذرَّعُ مسلمٌ بعدم استطاعته القيام بذلك، لأنَّه أصلًا لم يفعل المعروف، ولم يتوقف عن فعل المنكر، أو أنَّهُ ليس من أهلِ العلم والصلاح. فحُجتهُ داحِضةٌ كما بيَّنا، إنْ تذرَّع بتلك أو بذاك. ويلزمه القيام بواجب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على قدر علمه واستطاعته، وليعزم النية على عدم مخالفته لما يأمرُ به وينهى عنه. وليسأل الله تعالى أنْ يُعينه على ذلك، كي يكون مثالًا وقدوةً حسنةً لِمَنْ يأمره وينهاه، فربما يهديه الله ويوفقه لذلك. حينئذٍ سيستطيع من فعل المعروف قبل دعوة الناس إليه، ولن يفعل المنكر ابتداء، أو ينتهي عنه، فهذا خيرٌ له مِنْ عدم قيامه بذلك الواجبِ أصلًا.

السنة النبوية

أما الأدلة من السُّنة على وجوب القيام بركن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بذلك الركن والدعوة إلى دين الله تعالى، كي تتحقق صفة الخيرية التي منحها الله تعالى لأمَّتهم، كونها (الأمة الوسط)، و(الشاهدة على الأمم)، كما ذكرنا ذلك في فصل السابق عن الأدلة من القرآن الكريم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحَّدُ أحب الاعمال الى الله تعالى

فمن تلك النصوص من السُّنة، أنّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، مِنْ أحبِّ الأعمال إلى الله. فعن رجلٍ من خثعم، قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو في نفرٍ من أصحابِه، فقلتُ: أنت الذي تزعمُ أنك رسولُ اللهِ؟ قال: ﴿نعم﴾، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! أيُّ الأعمالِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: ﴿الإيمانُ بالله﴾، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ثم مَهْ؟ قال: ﴿ثم صِلَةُ الرَّحِمِ﴾، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ثم مَهْ؟ قال: ﴿ثم الأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ﴾، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! أيُّ الأعمالِ أبغضُ إلى اللهِ؟ قال: ﴿الإشراكُ باللهِ﴾، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ثم مَهْ؟ قال: ﴿ثم قطيعةُ الرَّحِمِ﴾، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ثم مَه؟ قال: ﴿ثم الأمرُ بالمنكرِ، والنهيُ عن المعروفِ.﴾[1].

(1) صححه الألباني في صحيح الترغيب، برقم 2522، ورواه أبو يعلى بإسناد جيد.

(الأمْرَ بالمعْروفِ والنَّهيُ عنِ المُنكرِ) يُكَفِّرُ فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ

وأخبر ﷺ أنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، من بين الأعمال التي تكَفِّرُ فِتنة الرجلِ في أهلِهِ، ومالِهِ، وولدِهِ، وجارِهِ. وذلك بمعنى أنَّ هذه الفتن الخاصة، التي تُصيبُ المسلم بسبب ظُلمهِ لنفسهِ، وولدِهِ، ومالِهِ، تُكَفِّرُها الطاعات والحسنات، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فعَنْ حُذَيْفَةَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في الفتنة؟ فقالَ حُذَيْفَةَ: أنا أحفظُ كما قال، قال: هات، إنك لجريء، قال رسول الله ﷺ: ﴿فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ.﴾[1].

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ سَهْمٌ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سَهْمٌ، منْ سِهامِ الإسلامِ، مِثلُ أركانِ الإسلامِ

وأخبر ﷺ أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهمٌ من سهامِ الإسلام، فقد شبَّهه ﷺ بأركان الإسلام، كالصلاة والزكاة وغيرها، فلا يكتمل إسلامُ المسلم الا بتحقيقها كلها، وإلَّا كان إسلامه ناقصًا، وربما استحق النار. فعَنْ حُذَيْفَةَ قال: ﴿الإسلامُ ثمانيةُ أسهمٍ: الإسلامُ سهمٌ، والصَّلاةُ سهمٌ، والزَّكاةُ سهمٌ، وحجُّ البَيتِ سهمٌ، والجهادُ سهمٌ، وصَومُ رمضان سهمٌ، والأمرُ بالمعروفِ سهمٌ، والنَّهيُ عن المنكرِ سهمٌ، وخابَ مَن لا سهمَ لهُ.﴾[2].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ﴾. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ: ﴿فَإِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا المجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ﴾. قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ﴿غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المنْكَرِ.﴾[3].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له (كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام برقم 3393). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وإنه يأرز بين المسجدين برقم 144).

(2) صححه ابن رجب في جامع العلوم والحكم، 100/1، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا، عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولى، 1411هـ. وأخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم 741، وقال: حسن لغيره.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له (كتاب الاستئذان، باب برقم 5875، وكتاب المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات برقم 2333). ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب من حق الجلوس على الطريق رد السلام برقم 2121.

البيعةُ النبويّةُ على الأمْرَ بالمعْروفِ والنّهي عنِ المُنكرِ

وللتأكيد على أهميةِ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، كان رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يأخذ البَيْعة من المسلمين على القيام به. فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ.»[1].

الأمْرُ بالمعْروفِ والنّهيُ عنِ المُنكرِ صَدَقَةٌ

وفي الحثِّ على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أخبر ﷺ أنَّ أجرَ القيام به كأجرِ الصدقة، فمَن لا مالَ عنده يتصدَّقُ به، وأرادَ الحصول على أجرِ الإنفاق في سبيل الله، فليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر. عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ.»[2].

وعن أبي ذر الغفاري أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصبِحُ على كُلِّ سُلامى من ابنِ آدَمَ صَدَقةٌ، تَسليمُه على مَن لَقِيَ صَدَقةٌ، وأمْرُه بالمعروفِ صَدَقةٌ، ونَهيُه عن المنكَرِ صَدَقةٌ، وإماطَتُه الأذَى عن الطَّريقِ صَدَقةٌ، وبُضعُه أهْلَه صَدَقةٌ، قالوا: يا رسولَ اللهِ ﷺ، يأتي شَهوَتَه وتكونُ له صَدَقةٌ؟ قال: أرأيت لو وَضَعَها في غَيرِ حَقِّها، أكانَ يأثَمُ؟ قال: ويُجزِئُ من ذلك كُلِّه رَكعَتانِ من الضُّحى.»[3].

(1) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 63، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم 1006. الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير.

(3) صححه شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود برقم 5243، والألباني في صحيح سنن أبي داود برقم 1165، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم. وقد أخرجه هو وأبو عوانة بنحوه.

التَّحذيرُ مِن تركِ (الأمْر بالمعْروفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ) ومِنَ المخالفةِ

وحذَّر ﷺ المسلمين من ترك (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فعن أنس بن مالك، قيل: يا رسولَ اللهِ؛ متَى يُترَكُ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ؟ فقال عليه السَّلامُ: ﴿إذا ظهرت المداهنةُ في خيارِكم، والفاحشةُ في شِرارِكم، وتحوَّلُ الملكُ في صِغارِكم، والفقهُ في أراذلِكم.﴾[1].

وعن التحذير مِنْ مخالفة القائمِ بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، لما يأمرُ وينهى، فقد مر بنا في فصل الأدلة من القرآن الكريم، بعض الأحاديث في أقوال المفسرين، ونزيد عليها هنا. فعن أسامة بن زيد قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ﴿يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَومَ القِيَامَةِ، فيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بهَا كما يَدُورُ الحِمَارُ بالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فيَقولونَ: يا فُلَانُ ما لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بالمعروفِ، وَتَنْهَى عَنِ المنْكَرِ؟ فيَقولُ: بَلَى، قدْ كُنْتُ آمُرُ بالمعروفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ المنْكَرِ وَآتِيهِ.﴾[2].

وعن جُندب بن عبد الله، قال: ﴿مثلُ العالِمِ الذي يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ ويَنْسَى نفسَهُ، كمثلِ السِّراجِ، يُضيءُ للناسِ ويَحرقُ نفسَهُ، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: لا يَحُولَنَّ بينَ أحدِكم وبينَ الجنةِ، وهو ينظرُ إلى أبوابِها، مِلءُ كَفٍّ دمِ مسلمٍ إهراقَهُ ظُلمًا، قال: فتكلَّمَ القومُ، فذكروا الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ، وهو ساكتٌ يستمعُ منهم، ثم قال: لم أرَ كاليومِ قطُّ قومًا أحقُّ بالنجاةِ إنْ كانوا صادقينَ.﴾[3].

الحِسْبَة للقيام بـ (الأمْرَ بالمعْروفِ والنَّهيُ عنِ المُنكرِ)

وعلى الرغمِ من وجوبِ قيامِ جميع الأمة بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وكل حسب قدرته وعلمه، فإِنَّ على وليِّ الأمْر تخصيصُ جماعةٍ وهيئةٍ للقيام بذلك، والإشراف عليه، ومتابعة تنفيذه، ومراقبة ومتابعة مدى تنفيذ حدود الله، وتقيُّدِ الناس بشرع الله، والالتزام بالحلال والحرام. فهذا كله من مسئولية الدولة، ويقع ضمن ولايتها على أفراد الأمة، حيث تعوَّد الناسُ أنْ لا ينصاعوا أو ينتهوا بسهولة لمن يأمرهم بالمعروف

(1) أخرجه الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، كتاب العلم، الباب الرابع، 54/1، وقال: أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن. وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك: ﴿قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، متى يُترَكُ الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عنِ المنكرِ؟ قالَ: إذا ظَهَرَ فيكم ما ظَهَرَ في الأممِ قبلَكُم قلنا: يا رسولَ اللَّهِ، وما ظَهَرَ في الأممِ قبلَنا؟ قالَ: الملكُ في صغارِكُم، والفاحِشةُ في كبارِكُم، والعلمُ في رذالِكُم.﴾، أخرجه أحمد شاكر في عمدة التفسير، 717/1، وقال: إسناده صحيح.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له في (كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله برقم 2989). والبخاري في صحيحه في (كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار، وأنها مخلوقة برقم 3094.).

(3) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم 3379، وقال عنه: إسناده جيد.

وينهاهم عن المنكر. لذا، كان من الواجبِ على وليِّ الأمرِ توليَة من يقومون بذلك، فيكون حينها، لهم السلطة والنفوذ على الناس، وهذا ما يصطلح عليه أهل العلم بـ (الحِسْبَة)[1].

لقد كان رسول الله ﷺ يقوم بذلك الواجب بنفسه الشريفة، فيتجول في أسواق المدينة، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فعن أبي هريرة أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ مَرَّ علَى صُبْرَةِ طَعامٍ فأدْخَلَ يَدَهُ فيها، فَنالَتْ أصابِعُهُ بَلَلًا فقالَ: ﴿ما هذا يا صاحِبَ الطَّعامِ؟﴾، قالَ: أصابَتْهُ السَّماءُ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: ﴿أفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعامِ كَيْ يَراهُ النَّاسُ، مَن غَشَّ فليسَ مِنِّي.﴾[2]. وهكذا فعل الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ كما ثبت ان امير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان يتجول في الأسواق ويضرب بالدرة وبأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويراقب أحوال المسلمين وهكذا غيره من الخلفاء والامراء وولاة المسلمين من بعدهم.

أقسام الكفار ودعوتهم إلى الإسلام

لقد صرحَّ القرآن الكريم عن الغاية الرئيسية من خلق الإنسان (والجن أيضًا)، وهي عبادة الله وحده، واتباع المنهج الإلهي الذي أنزله إليهم عن طريق أنبياءه ورسله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿56﴾ ﴾[3].

ومن أجل ذلك أرسلَ تعالى الرسل –عليهم السلام– تأمر الناس جميعًا أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿102﴾ ﴾[5].

والأمر بعبادة الله وحده، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان والآلهة الزائفة، كان عنوانُ رسالةِ ومهمة كل نبيٍّ من لَدُن آدم وحتى خاتم النبيين، محمدٍ – صلى الله عليهم أجمعين.

(1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القاضي أبو يعلى بن الفرّاء الحنبلي، (ت 458هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى أبوه الشنقيطي، دار البخاري للنشر والتوزيع، المدينة المنورة.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: ﴿من غشنا فليس منا﴾، برقم 102.

(3) الذاريات، الآية: ﴿56﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿21﴾.

(5) الأنعام، الآية: ﴿102﴾.

فعن نوحٍ –عليه السلام– قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴿59﴾﴾[1].

وعن هود –عليه السلام– قال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿65﴾﴾[2].

وعن صالحٍ –عليه السلام– قال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴿61﴾﴾[3].

وهكذا توالت دعوةُ ورسالاتُ الأنبياء والمرسلين، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، إلى أنْ خُتِمت بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وبرسالة الإسلام التي جاء بها من عند الله تعالى.

وعلى الرغم من توالي هذا العدد الكبير والمبارك من الأنبياء والمرسلين من عند الله، عبر العصور، لم يستجب أكثرُ الناس إلى نداء الله وأمرِه بعبادته وحده، وكذبوا رسلَ الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴿44﴾﴾[4].

(1) الأعراف، الآية: ﴿59﴾.

(2) الأعراف، الآية: ﴿65﴾.

(3) هود، الآية: ﴿61﴾.

(4) المؤمنون، الآية: ﴿44﴾. وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع كثيرةٍ كُفْر معظم الناس بدعوة الله وأنبياءه ورسله:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴿17﴾﴾ هود، الآية: ﴿17﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴿103﴾﴾ يوسف، الآية: ﴿103﴾.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴿1﴾﴾ الرعد، الآية: ﴿1﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴿89﴾﴾ الإسراء، الآية: ﴿89﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴿50﴾﴾ الفرقان، الآية: ﴿50﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴿42﴾﴾ الروم، الآية: ﴿42﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴿59﴾﴾ غافر، الآية: ﴿59﴾.

ونتيجة لذلك الإعراض والتكذيب لأنبياء الله ورسله، انقسم الناسُ إلى مؤمنٍ وكافرٍ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿2﴾ ﴾[1].

ومن المعلوم، فليس هناك اليوم في الأرض مِن أُمّةٍ تعبدُ الله على دينٍ ومنهجٍ مقبولٍ عنده تعالى، غير أُمّةِ الإسلام[2]، الذي أكمل الله لها دينها، ورضيه لها، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿85﴾ ﴾[4].

ولمَّا كان المسلمون اليوم الأمة الوحيدة التي تَعبد الله، وتَدينُ له بالمنهج المقبول عنده – أعني الإسلام، كان لزامًا على المسلمينَ دعوةُ كل مَن عداهم من غير المسلمين إلى الإسلام، إذ لا نبيَ ولا رسولَ مبعوثٌ إلى الناس بعدَ رسول الله محمد ﷺ.

لقد ذكرنا في بداية هذا الفصل، أنَّ من أهم واجبات الأمة الإسلامية، (القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ودعوةُ الناس جميعًا – من غير المسلمين – إلى الله تعالى، وإلى دينه، وكتابه، وسُنة نبيه ﷺ. ونقصد بتلك الدعوة، أي نشر الدين الإسلامي في الأرض، وتحقيق قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿33﴾ ﴾[5].

ونقصد بـ (الناس من غير المسلمين)، أي الكُفار عمومًا، ممن لا يَدين بدين الإسلام، ولا يُؤمن بمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، ولا يؤمن بالقرآن الكريم وحيًا وكتابًا من عند الله تعالى.

---

(1) التغابن، الآية: ﴿2﴾.

(2) نقصد بذلك: الإسلام الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، والمقصود في قوله ﷺ: ﴿ما أنا عليه وأصحابي.﴾، والذي سبق ذكره في فصل: (النهي عن التفرق) / الفرقة الناجية.

(3) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

(4) آل عمران، الآية: ﴿10﴾.

(5) التوبة، الآية: ﴿33﴾.

وهؤلاء الكفار يمكن تقسيمهم إلى قسمين رئيسيين: **(كفّار أصحابُ كُفرٍ أصلي)**، و **(كُفّار أصحابُ كُفْرٍ طارئٍ)**[1]، وعلى التفصيل الآتي:

القسم الأول: كفّار أصحابُ كُفرٍ أصلي:

وهم الكُفار الذين لا يدينون بأيّ دينٍ سماويٍّ، وقد لا يؤمنون بالله تعالى، ولا بوجود خالقٍ أصلًا. وهؤلاءِ الكُفار، أصحابُ الكفرِ الأصلي، يمكن تصنيفهم أيضًا إلى صنفين:

الصنفُ الأول: وهم الكفار ممن لا يؤمنون بالله ولا بخالق لهذا الكون، ولا يدينون بأي دينٍ أصلًا، كالملحدين، والوجوديين وغيرهم. فهذا الصِّنف من الكفار لا يمارسون أي طقوسٍ أو عباداتٍ شِركيةٍ أو وثنيةٍ، وليس عندهم أي كُتبٍ يقدِّسونها.

الصنفُ الآخر: ونقصد بهم الكُفار الذين قد يؤمنون بالله وبخالق لهذا الكون، وبمعبود يتقربون إليه، ولكن عندهم اعتقادات منحرفة، وتصورات باطلة عن هذا الإله والمعبود، وهم يُشرِكون معه مخلوقات كثيرة. فهذا الصنفُ من الكفار ليسوا أصحاب دين سماوي، وقد ابتدعوا لهم أديانًا وطقوسًا وثنيةً. ومثال هؤلاء: كالمشركين، والوثنين، والبوذيين، والسيخ، والهندوس، أمثال عبدة البقر والحيوانات الأخرى، والأجرام السماوية، والنار، والأوثان، وغيرهم.

القسم الثاني: كُفّار أصحابُ كُفْرٍ طارئٍ

وأما القسم الثاني من الكفار، فهم أصحابُ الكُفرِ الطارئ، وهؤلاء، في الأصل، مِمن كان لهم دينٌ وكتابٌ سماويٌّ من عند الله، ولكنْ تم تحريفه وتغييره، وتبديله، وزِيد وأُنْقص فيه. وقد شَهِدَ بذلك التحريف

(1) في الحقيقة، ليس هناك فرقٌ في كُفر كِلا الصنفين من الكفار، أعني: أصحاب الكفر الأصلي، والكفر الطارئ، من جهة أنَّهما يشتركان في عدمِ إيمانهم بالإسلام ورسوله ﷺ، وبالقرآن وحيًا منه تعالى. وإنَّما الفرقُ في كيفية التعامل معهما، فيما إذا رفضَ أيٌّ منهما قَبول رسالة الإسلام، وكتابه، ورسوله ﷺ. فأصحابُ الكُفر الأصلي لا تُقبل مِنه الجزية إذا رفضَ الإسلام، والثاني تُقبل منه.

والتبديل القرآن الكريم، والتاريخ، والواقع، والعقل، والمنطق. وهذا القسم مِن الكُفار يشمل اليهود، والنصارى، والصابئة[1]، والمجوس[2]، وغيرهم من أصحاب الديانات المنحرفة التي كان لها أصلٌ سماويٌ.

(1) أظهر الأقوال في دين الصابئة:

ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿62﴾﴾ البقرة، الآية: ﴿62﴾، بقوله: [قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ العَدني، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: قَالَ سَلْمَانُ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَهْلِ دِينٍ كُنْتُ مَعَهُمْ، فذكرتُ مِنْ صَلَاتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الْآيَةَ: نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، بَيْنَا هُوَ يُحَدِّثُ النَّبِيَّ ﷺ إِذْ ذَكَرَ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُمْ، فَقَالَ: كَانُوا يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيُؤْمِنُونَ بِكَ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّكَ سَتُبْعَثُ نَبِيًّا، فَلَمَّا فَرَغَ سَلْمَانُ مِنْ ثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، قَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَا سَلْمَانُ، هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ﴾. فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى سَلْمَانَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَانَ إِيمَانُ الْيَهُودِ: أَنَّهُ مَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ وَسُنَّةِ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حَتَّى جَاءَ عِيسَى. فَلَمَّا جَاءَ عِيسَى كَانَ مَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ وَأَخَذَ بِسُنَّةِ مُوسَى، فَلَمْ يَدَعْهَا وَلَمْ يَتْبَعْ عِيسَى، كَانَ هَالِكًا. وَإِيمَانُ النَّصَارَى أَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْإِنْجِيلِ مِنْهُمْ وَشَرَائِعِ عِيسَى كَانَ مُؤْمِنًا مَقْبُولًا مِنْهُ حَتَّى جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ لَمْ يتبعْ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْهُمْ وَيَدَعْ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُنَّةِ عِيسَى وَالْإِنْجِيلِ كَانَ هَالِكًا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو هَذَا.

قُلْتُ: وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا رَوَى عَلِيّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الْآيَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران: ﴿85﴾.

فَإِنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ إِخْبَارٌ عَنْ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ طَرِيقَةً وَلَا عَمَلًا إِلَّا مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فِي زَمَانِهِ فَهُوَ عَلَى هُدًى وَسَبِيلٍ وَنَجَاةٍ، فَالْيَهُودُ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَى التَّوْرَاةِ فِي زَمَانِهِمْ.

فَلَمَّا بُعِثَ عِيسَى ﷺ وَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ وَالِانْقِيَادُ لَهُ، فَأَصْحَابُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ هُمُ النَّصَارَى، وَسُمُّوا بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَدْ يُقَالُ لَهُمْ: أَنْصَارٌ أَيْضًا، كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ آل عمران: 52﴾. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ إِنَّمَا سُمّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا يُقَالُ لَهَا: نَاصِرَةٌ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيجٍ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَجَبَ عَلَيْهِمْ تصديقُه فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَالِانْكِفَافُ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.

وَأَمَّا الصَّابِئُونَ فَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهِمْ؛ فَقَالَ سفيان الثَّوْرِيُّ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: الصَّابِئُونَ قَوْمٌ بَيْنَ الْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْهُ وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ نَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَأَبُو الشَّعْثَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَالضَّحَّاكُ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ: الصَّابِئُونَ فِرْقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ الزَّبُورَ. وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِسْحَاقُ: لَا بَأْسَ بِذَبَائِحِهِمْ وَمُنَاكَحَتِهِمْ.

وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنْ مُطَرِّفٍ: كُنَّا عِنْدَ الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ فَحَدَّثَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الصَّابِئِينَ: إِنَّهُمْ كَالْمَجُوسِ، فَقَالَ الْحَكَمُ: أَلَمْ أُخْبِرْكُمْ بِذَلِكَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ ذَكَرَ الصَّابِئِينَ، فَقَالَ: هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: أَخْبَرَ زِيَادٌ أَنَّ الصَّابِئِينَ يُصَلُّونَ إِلَى الْقِبْلَةِ وَيُصَلُّونَ الْخَمْسَ. قَالَ: فَأَرَادَ أَنْ يَضَعَ عَنْهُمُ الْجِزْيَةَ. قَالَ: فَخُبِّرَ بَعْدُ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ: بَلَغَنِي أَنَّ الصَّابِئِينَ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَيَقْرَؤُونَ الزَّبُورَ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْقِبْلَةِ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ.

وإنما أطلقنا عليهم لقب (**كفارُ أصحابُ كفرٍ طارئ**) لأنهم في الأصل كانوا مؤمنين(1)، وأصل ديانتهم توحيد، فهم أصحاب رسالة سماوية، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ﴿1﴾رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴿2﴾فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴿3﴾وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴿4﴾وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: الصَّابِئُونَ قَوْمٌ مِمَّا يَلِي الْعِرَاقَ، وَهُمْ بِكُوثَى، وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّينَ كُلِّهِمْ، وَيَصُومُونَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَيُصَلُّونَ إِلَى الْيَمَنِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ صَلَوَاتٍ.

وَسُئِلَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ عَنِ الصَّابِئِينَ، فَقَالَ: الَّذِي يَعْرِفُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَيْسَتْ لَهُ شَرِيعَةٌ يَعْمَلُ بِهَا وَلَمْ يُحْدِثْ كُفْرًا.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: الصَّابِئُونَ أَهْلُ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ، كَانُوا بِجَزِيرَةِ الْمَوْصِلِ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَيْسَ لَهُمْ عَمَلٌ وَلَا كِتَابٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولٍ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ: هَؤُلَاءِ الصَّابِئُونَ، يُشَبِّهُونَهُمْ بِهِمْ، يَعْنِي فِي قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَمُتَابِعِيهِ، وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينٌ مُقَرَّرٌ لَهُمْ يَتْبَعُونَهُ وَيَقْتَفُونَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِيِّ، أَيْ: أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الصَّابِئُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيٍّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 182/1، بإيجاز.

(2) اختلفَ أهلُ العلم في حالِ المجوس، فذهبت طائفةٌ من أهل العلم أنَّهم من أهل الكتاب، وذكروا أنهُ كان لهم كتابٌ ثم رُفِع، ولهذا أُخذت منهم الجزية دون غيرهم من المشركين. واتفق العلماء على أنَّهم لا يُناكحون، ولا تُؤكل ذبائِحهم، بخلاف اليهود والنصارى. فقد قال البغوي: [وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْمَجُوسَ: هَلْ هُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْ لَا؟ فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ يَدْرُسُونَهُ فَأَصْبَحُوا، وَقَدْ أُسْرِيَ عَلَى كِتَابِهِمْ، فَرُفِعَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ. وَاتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ ذَبَائِحِ الْمَجُوسِ وَمُنَاكَحَتِهِمْ بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ.] اهـ. تفسير البغوي، 336/2.
ولكنَّ ابن القيم ذكر عدمَ صحة هذا القول، فقال في أحكام أهل الذمة في أثناء ترجيحه للقول بأن الجزية تؤخذ من عموم المشركين ما نصه: [وقد أخذها -يعني الجزية- رسول الله ﷺ مِنَ الْمَجُوسِ وَهُمْ عُبَّادُ النَّارِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَا يَصِحُّ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ، وَلَوْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ عِنْدَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ الْعِظَامَ وَلَمْ يَذْكُرْ لِلْمَجُوسِ – مَعَ أَنَّهَا أُمَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمَمِ شَوْكَةً وَعَدَدًا وَبَأْسًا – كِتَابًا وَلَا نَبِيًّا، وَلَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بَلِ الْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِذَا أُخِذَتْ مِنْ عُبَّادِ النِّيرَانِ فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ؟] اهـ. أحكام أهل الذمة، ابن القيم، 11/1. أحكام أهل الذمة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (659 – 751هـ)، ج 1: تحقيق (محمد عزير شمس)، تخريج (نبيل بن نصار السندي)، ج 2: تحقيق (نبيل بن نصار السندي)، راجعه: محمد أجمل الإصلاحي – سليمان بن عبد الله العمير، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، 1442هـ- 2021م (الأولى لدار ابن حزم)، عدد الأجزاء: 2.
وقال في زاد المعاد: [وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَلَمْ يَكُونُوا عَلَى كِتَابٍ أَصْلًا، وَلَا دَانُوا بِدِينِ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا فِي عَقَائِدِهِمْ وَلَا فِي شَرَائِعِهِمْ، وَالْأَثَرُ الَّذِي فِيهِ أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ فَرُفِعَ وَرُفِعَتْ شَرِيعَتُهُمْ لَمَّا وَقَعَ مَلِكُهُمْ عَلَى ابْنَتِهِ لَا يَصِحُّ الْبَتَّةَ، وَلَوْ صَحَّ لَمْ يَكُونُوا بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّ كِتَابَهُمْ رُفِعَ وَشَرِيعَتُهُمْ بَطَلَتْ فَلَمْ يَبْقَوْا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لَهُ صُحُفٌ وَشَرِيعَةٌ، وَلَيْسَ تَغْيِيرُ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ لِدِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَرِيعَتِهِ بِأَعْظَمَ مِنْ تَغْيِيرِ الْمَجُوسِ لِدِينِ نَبِيِّهِمْ وَكِتَابِهِمْ لَوْ صَحَّ، فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ عَنْهُمُ التَّمَسُّكُ بِشَيْءٍ مِنْ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ وَالسَّلَامُ، بِخِلَافِ الْعَرَبِ، فَكَيْفَ يُجْعَلُ الْمَجُوسَ الَّذِينَ دِينُهُمْ أَقْبَحُ الْأَدْيَانِ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ.] اهـ. زاد المعاد، ابن القيم، 84/5.

(1) نقصد بذلك الرعيلَ الأول من أصحاب هذه الديانات، الذين عاصروا أنبياءهم وآمنوا بهم. وكذلك الحال مع الذين من بعدهم، إلى أنْ حدثَ التحريف والتغيير في كتبهم ودياناتهم، وحدث الانحراف عن التوحيد والمنهج الإلهي الذي أرسل به أنبياؤهم.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴿5﴾﴾[1]. وعن النصارى الأوائل، فقد ذكر تعالى إيمانهم به وبالمسيح عليه السلام، واقرارهم بأنهم مسلمون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴿111﴾﴾[2].

وأمر تعالى المسلمين بأنْ يكونوا أنصار الله وأمرهم بالاقتداء بالحواريين في ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴿14﴾﴾[3].

فأصل ديانتهم سماوية، ولكنْ طرأ الكفرُ عليهم بسبب انحرافهم وضلالهم، وتحريفهم لكتبهم، أو كتمانهم إياها.

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن ذلك الصِّنف من الكفار من أصحاب الكفر الطارئ، من اليهود والنصارى على وجه التحديد، وكيف أنهم كفروا بتحريفهم لكلام الله، وانحرافهم عن أوامره تعالى وعصيانهم. فعن اليهود مثلًا، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿75﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿46﴾﴾[5].

وعن النصارى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿14﴾ يَا

(1) البينة، الآيات: ﴿1 – 5﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿111﴾.

(3) الصف، الآية: ﴿14﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿75﴾.

(5) النساء، الآية: ﴿46﴾.

أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿15﴾﴾[1].

وهؤلاء الكفار، قد طرأ الكُفر عليهم – أيضًا – بسبب رفضهم للإسلامِ، ولدعوة النبي ﷺ، كما قصَّ لنا القرآن الكريم عن اليهود، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿89﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿90﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿91﴾﴾[2].

دعوةُ الكفار إلى الإسلام

من المعلوم أنَّ رسالاتِ الله تعالى إلى البشر قد انتهت بالإسلام، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴿3﴾﴾[3]. وأنَّ ذلك الإسلام، هو الدينُ الوحيدُ المقبولُ عنده تعالى، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿19﴾﴾[4].

وهو الدين الذي لا يقبل الله –بعد ذلك– غيره من البشر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿85﴾﴾[5]. ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ، حَتَّى خُتِمُوا بِمُحَمَّدٍ

(1) المائدة، الآيتان: ﴿14، 15﴾.

(2) البقرة، الآيات: ﴿89 – 91﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

(4) آل عمران، الآية: ﴿19﴾.

(5) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

ﷺ، الَّذِي سَدَّ جَمِيعَ الطُّرُقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بِعْثَتِهِ مُحَمَّدًا ﷺ بدِين عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ، فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آلِ عمران: 85). وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخْبِرًا بِانْحِصَارِ الدِّينِ الْمُتَقَبَّلِ عِنْدَهُ فِي الْإِسْلَامِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾.] اهـ[1].

ومعلومٌ أنَّ رسولَ الله محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿40﴾﴾[2]، فلا نبيَّ بعدهُ ولا رسول.

وأنَّهُ ﷺ مبعوثٌ للناس جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿158﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿33﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾﴾[5].

ولما كانت الأمة الإسلامية تحمل ذلك الدين الحق الذي ارتضاه تعالى للبشرية، كان لزامًا على المسلمين القيام بالدعوة إلى الله ونشر ذلك الدين، وذلك بصفتهم (**الأمة الحجة**) و(**الشاهدة على الأمم**) يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿143﴾﴾[6].

(1) تفسير ابن كثير، 21/2.

(2) الأحزاب، الآية: ﴿40﴾.

(3) الأعراف، الآية: ﴿158﴾.

(4) التوبة، الآية: ﴿33﴾.

(5) الفتح، الآية: ﴿28﴾.

(6) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

فصل:

الركن العاشر: الأمرُ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المنْكَرِ

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿77﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴿78﴾﴾[1].

وللقيام بنشر الدين، يتوجب على الأمة الإسلامية دعوة ذلك القِسمين من الكفار، والذَيْن تم ذكرهما آنفًا، وكلٌّ حسبَ طبيعةِ كُفره[2]، وذلك كما سنوجزه فيما يلي:

أولًا: دعوةُ الكفار ممن ليس لهم دينٌ سماوي

لقد أمر تعالى الناس جميعًا أنْ يعبدوه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿21﴾﴾[3]، وقد جاء ذلك الأمر من عنده تعالى، على لسان جميع الأنبياء المرسلين[4]، ومن لدُن آدمَ وإلى محمدٍ – صلى الله عليهم أجمعين –، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

---

(1) الحج، الآيتان: ﴿77، 78﴾.

(2) نقول بوجوبِ الدعوة تلك، من حيث الأصل والمبدأ. أما كيفية تطبيق ذلك في أيامنا هذه، فذلك يخضع إلى معرفةِ أحكامِ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، و (الدعوة إلى الله)، و (أحكام الجهاد في سبيل الله)، و (أحكام أهل الذمة)، وغيرها من الأحكام. وتحتاج إلى ضوابطَ وشروطٍ كثيرةٍ، فصَّل فيها أهلُ العلم، فليراجع ذلك.

(3) البقرة، الآية: ﴿21﴾.

(4) فعلى لسان نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿59﴾﴾ الأعراف، الآية: ﴿59﴾.

وعلى لسان إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿16﴾﴾ العنكبوت، الآية: ﴿16﴾.

وعلى لسان هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴿65﴾﴾ الأعراف، الآية: ﴿ 65﴾.

وعلى لسان صالح –عليه السلام–، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿73﴾﴾ الأعراف، الآية: ﴿ 73﴾.

فعلى لسان شعيب –عليه السلام–، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿85﴾﴾ الأعراف، الآية: ﴿85﴾.

وعلى لسان المسيح عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿72﴾﴾ المائدة، الآية: ﴿72﴾.

أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴿36﴾﴾[1].

ولذا، فالأمة الإسلامية، وبصفتها الأمة التي تَنزَّلَ عليها آخِر الكتب، وآخِر الشرائع، وبُعث فيها آخر الأنبياء والرسل، وجعلها تعالى مبُلِّغةً عنه، وداعيةً إلى دينه وصراطه المستقيم، كان لزامًا عليها أنْ تدعو غير المسلمين.

ونعني بغير المسلمين هنا، القسم الأول من الكفار بصنفيه والذي بيناه آنفًا. ويشمل هذا القسم من الكفار ممن (لا دين له أصلًا)، كالملحدين والوجوديين، أو ممن (له دين وثني)، كالمشركين، والوثنين، والبوذيين، والهندوس، والسيخ.

فالأمةُ الإسلامية مأمورةٌ بأنْ تدعو هؤلاء إلى الإسلام، حيث لا وحيَ، ولا رسولَ بعد رسول الله ﷺ وذلك لأنَّ مهمة الدعوة إلى الله قد انتقلت إلى المسلمين، ووكِّلت إليهم، وائتُمِنوا عليها، وذلك بعد رحيل رسولهم ﷺ[2]، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3].

فالمسلمون هم حُجة الله على خلقه، ويجب عليهم أنْ يدعوا الناس إلى عبادته تعالى وحده، وأنْ يبينوا لهم دين الإسلام، وعقيدة التوحيد، ويدعوهم إلى نبذ الشرك، والكفر، والإلحاد. فيدعون أهل الشرك إلى التوحيد وإخلاص العبودية لله وحده، ويقيموا لهم الأدلة على بطلان ما يشركون، قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿163﴾﴾ (4)، (5) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴿25﴾﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿91﴾﴾[7].

---

(1) النحل، الآية: ﴿36﴾.

(2) يراجع فصل: (الأمة الشاهدة على الأمم).

(3) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿163﴾.

(5)

(6) الأنبياء، الآية: ﴿25﴾.

(7) المؤمنون، الآية: ﴿91﴾. وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴿60﴾أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴿61﴾أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ

ولدعوة الملحدين والوجوديين، على المسلمين أنْ يقيموا الأدلة على بُطلانِ وجود الكون والمخلوقات، بدون خالق عظِيم قدير، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿35﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿36﴾﴾[1].

وهكذا يدعو المسلمونَ الكفارَ، ويقيمون الأدلة والبراهين لدحض كل أنواع الكفر والشرك والإلحاد.

ويدعوهم أيضًا إلى نبذ ما هم عليه من الأديان والشرائعِ الوضعية والباطلة. فلا يجوز للبشر أنْ يشرّعوا لأنفسهم نظامَ حياةٍ، ومنهج اجتماعي وإرثي وجنائي، ما لم يستمدوا ذلك من منهج إلهي، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿21﴾﴾[2].

ويبينُ المسلمون لهؤلاء الكفار أنَّ ذلك المنهج الإلهي –أعني الإسلام– هو منتهى العدل والرحمة في رعاية مصالح الجميع، وبلا استثناء أو تمييز بين البشر على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، وغيرها من الفوارق بين بني البشر. فطبيعة هذا النظام أنه إلهي، ورباني، ليس فيها ظلم أو جور أو حيف، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿49﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿46﴾﴾[4].

وأنَّ طبيعة ذلك المنهج الرباني أنَّهُ يتلائم ويتوافق وينسجم مع حياة البشر جميعًا، أينما كانوا، وعلى مر العصور والأزمان، ومها اختلفت الأحوال.

فواجب المسلمين أنْ يبينوا ذلك كله، ويثبتوا ويبرهنوا لهؤلاء الكفار، ويدعوهم إلى التحاكم إلى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ للفوز بخيري الدنيا والآخرة.

ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿62﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿63﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿64﴾﴾ النمل، الآيات: ﴿60 – 64﴾. وغيرها من الآيات الكريمة، ومن الأدلة العلمية والعقلية في ذلك الباب.

(1) الطور، الآيتان: ﴿35، 36﴾. وغيرها من الآيات الكريمة، ومن الأدلة العلمية والعقلية في ذلك الباب.

(2) الشورى، الآية: ﴿21﴾.

(3) الكهف، الآية: ﴿49﴾.

(4) فصلت، الآية: ﴿46﴾.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿125﴾﴾[1].

وقد أثنى القرآن الكريم على من يقوم بالدعوة إليه، وأخبر أنَّ ذلك من أفضل وأعظم الأعمال عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿33﴾﴾ [2].

ثانيًا: دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب السماوية الأخرى

وأما القسم الثاني من الكفار، من أهل الدعوة، وذلك فيما يخص أصحاب الديانات السماوية المحرفة: كاليهود، والنصارى، والصابئة، والمجوس، وغيرهم، فيجب علينا نحن المسلمون دعوة هؤلاء جميعًا. وإنْ نُبيِّنَ ونُثبتَ لهم أَنَّ جميع دياناتهم، وكتبهم السماوية قد حُرِّفَت، وبُدِّلت، وضاع الكثير منها.

ونُبيِّن لهم أنَّ ما بين أيديهم اليوم من كتبٍ، يعتقدونَ أنّها مُقدَّسة وسماوية، ليس صحيحًا، وليس فيها من كلام الله شيء صحيح، أو موثوق أو مسند، لا في التوراة، ولا في الإنجيل، الذي يتداولونه. فالقارئ والباحث في نسخ التوراة والإنجيل (أو ما يُسمى بالعهد القديم والعهد الجديد)، يجد فيها من التناقضات والأباطيل والخرافات الكثيرة جدًّا، والتي لا يقبلها، ولا يصدقها أي عقل سليم. ناهيك عن النسخ الكثيرة منها، والمختلفة، والنصوص الكثيرة المتناقضة، والطبعات المختلفة، والمتناقضة مع بعضها البعض[3]، فلم تعد مقبولةً، ولا صالحةً لمواكبة حياة البشر وشؤونهم.

فالواجب على المسلمين أنْ يبينوا لهؤلاء ذلك، ويقدموا لهم الأدلة والشواهد على حدوث ذلك التحريف والتبديل، فهذه مهمتهم —أي المسلمون— وذلك كي يبينوا لهم الحق، ويقيموا الحجة عليهم، كي لا ينخدع البُسطاء والعوام منهم، عسى الله أنْ يهديهم إليه تعالى، وإلى صراطه المستقيم ودينه الحق.

(1) النحل، الآية: ﴿125﴾.

(2) فصلت، الآية: ﴿33﴾.

(3) يراجع الكتب المتخصصة في هذا الموضوع، ومنها: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، المؤلف: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، 1419هـ- 1999م، عدد الأجزاء: 6. وكذلك كُتب الشيخ أحمد ديدات في ذلك الصدد.

ولقد أخبر القرآن الكريم في مواضعَ كثيرةٍ، عن ذلك التحريف، وضياع الكثير من كلام الله وتبديله، قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿46﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿75﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[4].

ثالثًا: الإسلام: الدين الحق

وهذا عام، يخص جميع أقسام الكفار الذين ذكرناهم آنفًا، وجميع مِللهم ونِحَلِهم، وذلك بأنَّ تُبيِّنَ الأمة الإسلامية لهؤلاء الكفار، أنَّ الله تعالى قد أرسل رسولًا خاتمًا لجميع الرسل، وخاتمًا ولجميع الرسالات منه قبله. وأنزل مع ذلك الرسول ﷺ كتابًا هاديًا، هو القرآن الكريم، ودينًا هو الإسلام، فلا رسول، ولا كتاب، ولا دين، صار مقبولًا عنده تعالى غيرهم.

لقد أبدلهم تعالى منهجًا غير المناهج القديمة والمحرفة، وأبدلهم دينًا غير الأديان السابقة – إنْ كان عندهم منهج سماوي أو أرضي– وأبدلهم كتابًا هو أحسنُ الكتب، وأحسنُ الحديث، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿23﴾﴾[5].

(1) البقرة، الآية: ﴿46﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿75﴾.

(3) المائدة، الآية: ﴿41﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿13﴾.

(5) الزمر، الآية: ﴿23﴾.

وأنزل في هذا الكتاب شريعةً متكاملة، وشاملة، وصالحة لحياة الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿138﴾﴾[1].
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿125﴾﴾[2].
وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿18﴾﴾[3].
وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿20﴾﴾[4].

رابعًا: إبطال كل دينٍ غيرَ دينِ الإسلام

وذلك بأنْ تُعلن الأمة الإسلامية للناس جميعًا[5]، أنَّه بمبعث محمد ﷺ، وبنزول القرآن الكريم، وتمام الدين، وانتهاء الوحي من السماء، ووصول الدعوة إليهم، وقيام الحجة عليهم، فإنَّ الله تعالى لم يَعُد يقبل من الناس غير الإسلام دينًا، وغيرَ مُحمدٍ هاديًا ومتبوعًا، وغير القرآن كتابًا يتعبَّدُ الناسُ به إليه تعالى، ويتبعون

---

(1) البقرة، الآية: ﴿138﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية:

[وَقَوْلُهُ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: دِينُ اللَّهِ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَعِكْرِمَةَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ، وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيِّ، نَحْوَ ذَلِكَ.

وَانْتِصَابُ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ إِمَّا عَلَى الْإِغْرَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ (الروم: 30﴾، أَيِ: الزَمُوا ذَلِكَ عَلَيْكُمُوهُ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 323/1.

(2) النساء، الآية: ﴿125﴾. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وَهَذَا قَضَاءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِالْفَضْلِ عَلَى سَائِرِ الْمِلَلِ غَيْرِهِ وَأَهْلِهَا، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾، أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَصْوَبَ طَرِيقًا وَأَهْدَى سَبِيلًا ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، يَقُولُ: مِمَّنِ اسْتَسْلَمَ وَجْهُهُ لِلَّهِ، فَانْقَادَ لَهُ بِالطَّاعَةِ، مُصَدِّقًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، يَعْنِي: وَهُوَ عَامِلٌ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ، مُحَرِّمٌ حَرَامَهُ، وَمُحَلِّلٌ حَلَالَهُ. ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، يَعْنِي بِذَلِكَ: وَاتَّبِعِ الدِّينَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَأَمَرَ بِهِ بَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْصَاهُمْ بِهِ، حَنِيفًا يَعْنِي: مُسْتَقِيمًا عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ.] اهـ. تفسير الطبري، 528/7.

(3) الجاثية، الآية: ﴿18﴾.

(4) الجاثية، الآية: ﴿20﴾.

(5) نؤكد ذلك –مرة ثانية– بوجوب تلك الدعوة من حيث الأصل والمبدأ. أما كيفية تطبيق ذلك على أرض الواقع، اليوم، فذلك يخضع إلى معرفة (أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، و(الدعوة إلى الله)، و(أحكام الجهاد في سبيل الله)، و (معرفة المصالح والمفاسد) المترتبة على القيام بالدعوة، وكل ذلك يحتاج إلى ضوابط وشروط كثيرة، فصَّل فيها أهل العلم، فليراجع ذلك.

منهجه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِن الْخَاسِرِينَ ﴿85﴾﴾[1].

(العِلمُ واليقينُ) و(القُدوةُ في الدُّنيا والدّين)، أعظمُ البراهين في الدعوةِ إلى الدين

من المعلوم أنَّ المسلمين، وفي دعوتهم الكفارَ إلى الله تعالى وإلى دينهِ، ولكي يقنعوهم بالإيمان به وقبوله، واعتناقه، لا بد للمسلمين من إقامة الأدلة على عظمةِ دينهم الإسلامي. ولا بد لهم من إقامة البراهين على صحةِ، وصدقِ، كتابهم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى سمو وشمول شريعتهم، وقوانينها الربانية الراقية. ولا يتم تحقيق ذلك الا بأمرين اثنين هما: **(العلمُ واليقين)** و **(القُدوة في الدُّنيا والدّين)**.

الأمر الأول: (العلمُ واليقين)

ينبغي للمسلمين وهم يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ، ويدعون إلى الله، أنْ يتسلحوا بالعلم، واليقين الراسخ الذي لا يتطرق إليه شك، والاطمئنان إلى صحة دينهم، ومنهجهم الإسلامي الرباني. وذلك، كي يستطيعوا أنْ يبينوا ويثبتوا لغير المسلمين صحةَ دينهم، وعقيدتهم، وشريعتهم التي يدعونهم إليها.

ونعني بـ (العلم)، أنْ يكون لدينا، نحن المسلمون، البصيرة، والفهم الصحيح لعقيدتنا وشريعتنا وتاريخ أمتنا، كي نعرِّف الكفار بالإسلام، ونبين لهم تفاصيل الدين، وكي ندحضَ كلَّ لَبْسٍ وشُبهةٍ يثيرها المتشككون

---

(1) ذكر الطبري في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿85﴾﴾، قال أبو جعفر: يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: وَمَنْ يَطْلُبْ دِينًا غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ لِيَدِينَ بِهِ، فَلَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ مِنْهُ ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، يَقُولُ: مِنَ الْبَاخِسِينَ أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.] اهـ.، تفسير الطبري، 555/5.

وذكر ابن كثير أيضًا، في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أَيْ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا سِوَى مَا شَرَعَه اللَّهُ فَلَنْ يُقْبل مِنْهُ ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 60/2.

وذكر صديق حسن خان أيضًا، في تفسيره للآية المذكورة بقوله: [﴿دينًا فلن يقبل منه﴾، يعني أنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وأنَّ كلَّ دين سواه، غير مقبول، لأنَّ الدين الصحيح ما يرضي الله عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، أي الواقعين في الخسران يوم القيامة، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب. أخْرَجَ أَحْمَدُ والطَّبَرانِيُّ في الأوْسَطِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «تَجِيءُ الأعْمالُ يَوْمَ القِيامَةِ فَتَجِيءُ الصَّلاةُ فَتَقُولُ: يا رَبِّ أنا الصَّلاةُ، فَيَقُولُ: إنَّكِ عَلى خَيْرٍ، وتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يا رَبِّ أنا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ إنَّكِ عَلى خَيْرٍ، ويَجِيءُ الصِّيامُ فَيَقُولُ: أنا الصِّيامُ، فَيَقُولُ إنَّكَ عَلى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الأعْمالُ كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ: إنَّكِ عَلى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الإسْلامُ فَيَقُولُ: يا رَبِّ أنْتَ السَّلامُ وأنا الإسْلامُ، فَيَقُولُ: إنَّكَ عَلى خَيْرٍ بِكَ اليَوْمَ آخُذُ وبِكَ أُعْطِي، قالَ اللَّهُ تَعالى في كِتابِهِ ﴿ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنهُ وهو في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 278/2.

والمغرضون. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿108﴾﴾[1].

ذكر البغوي في تفسيره للآية بقوله: [وَالْبَصِيرَةُ: هِيَ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أَيْ: وَمَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي أَيْضًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ. هَذَا قَوْلُ الْكَلْبِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ، قَالُوا: حَقٌّ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَيُذَكِّرَ بِالْقُرْآنِ. وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يَقُولُ: إِنِّي عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّي، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَنِي. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا عَلَى أَحْسَنِ طَرِيقَةٍ وَأَقْصَدِ هِدَايَةٍ، مَعْدِنَ الْعِلْمِ، وَكَنْزَ الْإِيمَانِ وَجُنْدَ الرَّحْمَنِ.] اهـ[2].

وأنْ تكون الدعوة إلى الله على بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ شَرْعِيٍّ وَعَقْلِيٍّ[3].

ونعني بـ (اليقين)، أنْ نكون على يقينٍ راسخٍ، لا ريبَ فيه، ولا يتزلزل، ولا يتطرق إليه أدنى شك، أنَّ ديننا ومنهجنا الإلهي، هو الحق الذي لا مِراء فيه. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿24﴾﴾[4].

ذكر السعدي في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم، هدى، والمؤمنون به منهم، على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله، إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة

---

(1) يوسف، الآية: ﴿108﴾.

(2) تفسير البغوي، 518/2.

(3) ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، آمِرًا لَهُ أَنْ يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِهَا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ هُوَ وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ ويقين وبرهان عقلي وشرعي.] اهـ. تفسير ابن كثير، 361/4.

(4) السجدة، الآية: ﴿24﴾.

لليقين. فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك، فبالصبر واليقين، تُنَالُ الإمامة في الدين.]، اهـ[1].

فينبغي علينا ونحن ندعو إلى ديننا، أنْ نركز على علم ويقين فيما يلي:

- إنّ كتاب الله تعالى وسُنَّة نبيه ﷺ فيهما من الأدلة الدامغة التي لا يتطرّق إليها الشك. وفيهما من الحجج الثابتة، والبراهين التي أثبت التأريخ، والعقل، والمنطق السليم صحتها.
- وأننا ندعو إلى الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿119﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿147﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿176﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿105﴾﴾[5].
- وأنَّ مِن الكفار، من أهلِ الكتاب على وجه التحديد، يعرفونَ أننا ندعوهم إلى الحق، ولكنهم ينكرونه ويجحدونه، كما أخبرنا الحق سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿146﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿33﴾﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿14﴾﴾[8].

---

(1) تفسير السعدي، ص 656.

(2) البقرة، الآية: ﴿119﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿147﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿176﴾.

(5) الإسراء، الآية: ﴿105﴾.

(6) البقرة، الآية: ﴿146﴾.

(7) الأنعام، الآية: ﴿33﴾.

(8) النمل، الآية: ﴿14﴾.

- وأنَّ الله تعالى الذي ندعو الناس إلى الإيمان به وعبادته، هو الذي خلقَ كل شي بالحق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴿73﴾﴾[1].
- وقد أخبرنا تعالى أنَّهُ هو الحَكمُ العدلُ، العليمُ بكل شيء، ولذلك، فقد فصَّل وبيَّن لنا كلَّ ما نحتاجهُ في حياتِنا لسعادتنا واستقرارنا، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴿114﴾﴾[2].
- وأخبرنا تعالى أنَّه أعلمُ، وأعرفُ بحالنا منا، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[3].
- وهو –تعالى– أعلمُ بما ينفعنا وما يضرنا، وما هو صالحٌ ومناسبٌ لنا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].
- من أجل ذلك، فقد شرَّع لنا قوانينًا وأحكامًا تُنظم حياتنا، وحذَّرنا من اتباع أهواءِ المشرّعين، وواضعي القوانين الأرضية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴿13﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[6].

(1) الأنعام، الآية: ﴿73﴾.

(2) الأنعام، الآية: ﴿114﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿114﴾.

(4) الحجرات، الآية: ﴿16﴾.

(5) الشورى، الآية: ﴿13﴾.

(6) المائدة، الآية: ﴿48﴾.

- والله تعالى لا يُريدنا أنْ نكون عبيدًا لبعضنا البعض، فيستعبدنا المشرِّعون والحُكَّام الظلمة. وقد قصَّ علينا من تلك الأحداث والأخبار، ومثال ذلك ما قصه علينا من نبأ فرعون، الذي لم يَعرف التأريخ مثله طاغيةً ومستبدًا، حيث كان يقولُ لقومه: أنَّهم لا يرونَ، ولا يفهمونَ، ولا يتّبعونَ الا ما يراهُ هو لهم، وما يقولهُ ويشرِّعهُ لهم! قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴿29﴾﴾[1]. فاستخفَّ بهم وبعقولهم، فاتبعوه، وانقادوا لأمره وحُكمه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴿54﴾﴾[2].

وكانت النتيجة أنْ تجبَّر عليهم، وطغى، وظلمهم، ومزَّقهم إلى فِرقٍ وطوائفٍ، وسفكَ دماءهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴿4﴾﴾[3]. وأخبر تعالى عنه[4]، أنه انتقم منه وأغرقه، كي يكون عبرةً لكل من يطغى، ويشرّع للناس من دون الله.

وأخبر تعالى أنَّ فِرعونَ الذي كان يدعو الناس لعبادته، واتباع تشريعاته، قد أعلن إيمانه بالله تعالى ووحدانيته، ولكن هذا الإيمان جاء متأخرًا، جاء في وقتٍ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[5].

(1) غافر، الآية: ﴿29﴾.

(2) الزخرف، الآية: ﴿54﴾.

(3) القصص، الآية: ﴿4﴾.

(4) لخَّص القرآن الكريم قصة فرعون وطغيانه وإضلاله لقومه، في آيات معدودة، وأخبر تعالى كيف أنه كان سببًا في دخول قومه النار، فكان الخزي في الدنيا والآخرة، لمن يَعبدُ ويتّبِعُ ربًّا، وإلهًا، ومشرعًا غير الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴿96﴾إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴿97﴾يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُم النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴿98﴾وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴿99﴾ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴿100﴾وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُم آلِهَتُهُم الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴿101﴾وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴿102﴾إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴿103﴾﴾ (هود: 96 – 103﴾.

ذكر ابن كثير في تفسيره الآيات المذكورة بقوله: [﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أَيْ: مَسْلَكَهُ وَمَنْهَجَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًى، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ وَضَلَالٌ، وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ، وَكَمَا أَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ مُقَدمهم وَرَئِيسَهُمْ، كَذَلِكَ هُوَ يُقدمهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، فَأَوْرَدَهُمْ إِيَّاهَا، وَشَرِبُوا مِنْ حِيَاضِ رَدَاها، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ، مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 299/4.

(5) الأنعام، الآية: ﴿158﴾.

قال تعالى، مخبرًا عن مصير فرعون في لحظاته الأخيرة: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿90﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿91﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿92﴾﴾[1].

فما ذكرناه آنفًا، كان مثالًا عن (العلم واليقين)، من خلال الأدلة، والبراهين، والحجج، والقصص، التي ينبغي للمسلم أنْ يوردها في سياق دعوة الكفار إلى دين الله. ولذلك، ينبغي للمسلمين عمومًا، والدعاة إلى الله على وجه الخصوص، أنْ يتسلَّحوا بالعلم الشرعي، والمادي، والعقلي، وغيرها من العلوم[2]، كي يستطيعوا أنْ يقنعوا من يدعونهم، ويبينوا لهم مزايا دين الله ومنهجه، ويقيموا الحجَّة عليهم.

ونحن إذْ نؤكدُ على أهمية (العلم واليقين)، وذلك لأنَّ السوادَ الأعظم من المسلمين اليوم، لا يعرف الا القليلَ عن دينه، وأصوله، وعقيدته، وعبادته، ناهيك عن أمور كثيرة في الشريعة وأحكامها، وعن تاريخ المسلمين، وغيرها. وصارت معلومات المسلم عن دينه تقتصر على النزر اليسير، مما يتعلمه في بيته، ومدرسته، ومحيطه، ومما يبذله من جهود شخصية لتعلم دينه، ومما يقرأ ويكتسبه من خلال الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، في وقتنا الحاضر. ولا شك أنَّ معظم تلك المصادر، وطرق التعليم هذه، إما قاصرة، وإما غير صحيحة ومشوهة في عَرْضِ وتعليمِ المسلمِ دينه، وعقيدته، وفي فهم طبيعة الدين. إذ أنَّ كثيرًا من طرق التعليم هذه، لا تخضع إلى علم شرعي صحيح وموثَّق من قبل أهل العلم العدول، والمتخصصين، ممن يُعتدُّ بقولهم، وتلقَّتهم الأمة علمهم وفتواهم بالقبول. مما أدى ذلك كله، إلى ضعف التزام الكثير من المسلمين بدينهم، والشباب على وجه الخصوص، وتأثرهم بما يُثار من شكوك وشبهات وتزييف عن الإسلام. ناهيك عن ضعف همتهم ورغبتهم في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكانت النتيجة أنْ نرى ونسمع يوميًّا، عن انحراف في عقيدة وإيمان، بل وارتداد الكثير من المسلمين، بصور مختلفة. ومن أمثلة ذلك الانحراف، كتأثر الكثير منهم بالفرق المنحرفة كالأشعرية، والمعتزلة، والمرجئة، والخوارج، والرافضة، وغيرها من الفرقة التي ضلت السبيل، وحذرنا منها رسول الله ﷺ في أحاديث الافتراق.

فمن صور تلك الانحرافات، نتيجة العلم القاصر، كتأويل الأسماء والصفات، وإنكار بعضها أو كلها، وعلو الله تعالى على مخلوقاته، وأنه تعالى، مستوٍ على عرشه، بائنٌ عن خلقه. ومثل إنكارِ ما هو معلوم

---

(1) يونس، الآية: ﴿90 – 92﴾.

(2) يُراجَع الكتب الخاصة بموضوع (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(الدعوة إلى الله).

من الدين بالضرورة، كعذاب القبر، ووجوب الحجاب على النساء، وقوانين الميراث، والحكم بالشريعة الإسلامية، وتكفير اليهود والنصارى.

ومن أمثلة ذلك الانحراف أيضًا، التشكيك بما أجمعت الأمة على قبوله وصحته، كصحيح البخاري ومسلم، والتشكيك بالسنة عمومًا، ورد كل نصٍّ خالفَ عقولهم السقيمة.

فكيف تكون الدعوة إلى الله ناجحة ومؤثرة، ما لم يكن المسلمونَ على علمٍ، ويقينٍ، وبصيرةٍ، من أمر دينهم. من أجل هذا كان التأكيد على أمر (العلم واليقين) في حياة كل مسلم، والدعاة منهم على وجه الخصوص.

الأمر الثاني: (القُدوة في الدُّنيا والدّين)

ونعني بـ (القُدوة في الدُّنيا والدّين)، أنْ يكون المسلمون مثالًا حيًّا، وصادقًا وواقعيًّا لتعاليم الإسلام، في أمرِ الدنيا والدين، كي يعطوا الصورة الصحيحة، والأثر الطيب على سُمُوِّ منهجهم، وكماله، وصلاحه لسعادة البشر وراحتهم في الدنيا والآخرة.

في الحقيقة، ينبغي لكل مسلم بصورة عامة – والدعاة إلى الله ودينه بصورة خاصة – أنْ يعلموا أمرًا مهمًّا جدًّا، ينفعهم في طريقِ الدعوة إلى الله، ويُسَهِّلُ عليهم مهمتهم، ويُوفِّرُ لهم الكثير من الجهد والوقت، ويُذلِّلُ الكثير من المصاعب، ويختصر الطريقَ نحو هداية الناس إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإخلاص العبودية له، وإلى قبول الناس الإسلام، والدخول في دين الله أفواجًا، ذلك الأمر هو: القدوة الحسنة، أعني المثالَ الحَسَن[1]، في أمرِ الدينِ، والدُّنيا.

فأما القُدوةُ في أمرِ الدين:

فنعني بذلك: أنْ يكون واقعُ المسلمين، تطبيقٌ شاملٌ، وامتثالٌ تامٌّ، وترجمةٌ صادقةٌ، وواقعٌ حي لدين الله تعالى، كما كان رسول الله ﷺ كذلك، وكما وصفته عائشة أم المؤمنين، حينما سُئِلت عن خُلُقِهِ ﷺ، فقالت: ﴿كانَ خُلُقُهُ القُرآنَ.﴾[2].

---

(1) هذا بالإضافة إلى أنَّ ذلك مطلوبٌ – أصلًا – من كل فردٍ من الأمة، بصفته كمسلم، وهو الالتزام، وطاعة الله ورسوله بكل ما أمروا به ونهوا عنه، والإخلاص والصدق في ذلك الالتزام والطاعة.

(2) عَنْ يَزِيدَ بْنِ بَابَنُوسَ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْنَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! مَا كَانَ خُلُقُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: ﴿كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ...﴾. أخرجه الألباني عن عائشة، في صحيح الأدب المفرد برقم 234، وقال: صحيح لغيره.

ومعنى أنَّ خُلُقَهُ – ﷺ – القرآن، أي انه كان ترجمةً حرفيةً، وواقعًا عمليًا لك ما أمر تعالى ونهى عنه. فينبغي للمسلم أن يكون هكذا، في حياته وواقعه، فيحافظ على صلاته وأركان دينه وعبادته، والتخلق بأخلاق الإسلام الحسنة كالرحمة والعفو والمغفرة، وحسن الجوار وصلة الرحم، وغيرها.

وفي المقابل ينبغي للمسلم أنْ لا يظلمَ، ولا يخون، ولا يرتشي، ولا يغش، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يرتكب الفواحش، وغيرها من نهي الله ورسوله عنه. فينبغي على المسلمين مراقبة أعمالهم وتصرفاتهم وسلوكهم كي لا يخالفوا دينهم وعقيدتهم فيما أُمروا به ونُهوا عنه.

فإذا كانت الأمة الإسلامية مثالًا حيًّا، وأنموذجًا لمبادئ الإسلام، وتعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، صار المسلمون قدوةً حسنة للكفار. وبالتالي، صارت الأمة الإسلامية قدوةً حسنة للأمم الأخرى، وذلك لما تراه من أثر ذلك المنهج، وذلك الدين –أي الإسلام– الذي يدعو إليه المسلمون الأممَ الأخرى.

إنَّ التزام المسلمين بدينهم، وتطبيقهم له في واقعهم بكل إخلاص وصدق، سيحقق لهم رُقيهم، وتطورهم، وسعادتهم، واستباب الأمن واستقراره في بلادهم، وانتشار الرخاء في مرابعهم، كما وعدَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1].

أما القدوة في الدنيا:

ونعني به ضرورةُ وجودِ مظاهرِ الحضارةِ والرُّقي بكل أشكالها وصورها في بلاد المسلمين وواقعهم وحياتهم. فمن هذه المظاهر، البناء والعمران العصري المنظم والمتجدد، في البيوت والمباني والمؤسسات، والشوارع، وتخطيط المدن، والنظافة، وتطبيق القوانين واحترامها ومعاقبة المخالفين لها.

وفي رواية: ﴿كان خُلُقُه القرآنَ.﴾، صححه الألباني في صحيح الجامع برقم 4811.

وفي رواية: أتَيْتُ عائشةَ، فقُلْتُ: يا أُمَّ المؤمنينَ، أخْبِريني بخُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالت: ﴿كان خُلُقُه القُرآنَ، أمَا تَقرَأُ القُرآنَ، قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)، قُلْتُ: فإنِّي أُريدُ أنْ أتبَتَّلَ، قالت: لا تَفعَلْ، أمَا تَقرَأُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21)؟ فقد تزوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ، وقد وُلِدَ له.﴾. صححه عن عائشة، شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند برقم: 24601.

(1) الأعراف، الآية: ﴿96﴾.

ومنها التزام المسلمين بأنظمة المرور، ونظافة بيئتهم، وعدم العبث والفوضى وتخريب الممتلكات العامة، وصيانتها من قبل الدولة باستمرار، ومعاقبة كل من يتجاوز عليها أو على حقوق الآخرين وممتلكاتهم، وفرض القانون بالقوة على أولئك المخالفين.

والحقيقة فان الكلام يطول إذا استرسلنا في الحديث عن هذا الموضوع. ولكننا نتساءل عن أمور كلنا شاهدها ولمسها في بلاد الغرب المتقدمة، كمعظم الدول الأوربية، وكندا والولايات المتحدة وغيرها، وبعض بلاد الشرق كاليابان وكوريا، والصين، وسنغافورا، وغيرها.

لماذا ترى في تلك البلاد مظاهر الرُّقي، والعمران، والنظافة، والالتزام بالقوانين وأنظمة المرور، وحقوق الآخرين، والتقدم العلمي والتكنولوجي، والاقتصادي، والمالي، والزراعي، والتعليمي وغيرها من مجالات؟

لماذا ترى الناس الذي ينتمون إلى أكثر الدول فقرًا وتخلفًا، والذين اعتادوا في بلدانهم على الفوضى، وعدم المسؤولية، وعدم احترام القوانين، إنْ وجدت، لماذا تراهم إذا ذهبوا إلى تلك الدول المتقدمة يتغيرون رأسًا على عقِب! ونعني بذلك انهم يلتزمون بالقوانين، ويحافظون على النظافة، ويتبعون التعليمات والارشادات في كل مرافق الحياة! بل وحتى في طريقة كلامهم، وأكلهم، وشربهم، وممارسة هواياتهم وغيرها، ويغيرون حتى عاداتهم وتقاليدهم! بالرغم أنهم لم يعتادوا فعل معظم تلك المظاهر في بلدانهم، ولم يفكروا حتى في تطبيقها وإشاعتها في شعوبهم وبلدانهم ومدنهم!

وهذا الواقع والحال المزري نفسه للأسف في معظم بلاد المسلمين[1] !

ولا نريد إطالة النقاش، والبحث عن الأسباب، إلَّا فيما يهمنا هنا نحن المسلمين وبلادنا الإسلامية، فنقول:

ألسنا نحن المسلمون، أولى بإعمار الأرض وإصلاحها، وإعمار بلادنا الإسلامية، وإشاعة مظاهر الحضارة والرقي والمدنية والأمن والنظام، واحترام القوانين، والأنظمة، وتطبيقها؟ أليس من الأولى أنْ يحافظ المسلمون على نظافة بيوتهم وبيئتهم ومدنهم، وشوارعها ومرافقها؟

---

(1) أرجو ألا يُساء فهمي. أعلم أنَّ هناك بعض المسلمين، وبعض البلاد الإسلامية، لا ينطبق عليهم هذا الكلام، وأنهم ممن يحترم القوانين ويلتزم بها، ويحافظ على تطور ورقي بلده المسلم، وأنَّ في تلك البلاد من الرقي والحضارة ما يفتخر به المسلم. إنما –للأسف– أتكلم هنا عن السواد الأعظم والغالبية الساحقة من المسلمين غير الملتزمين، والذين لا يأبهون بشيء ولا يعيرون أهمية لكل تلك القوانين، والحضارة، والرُّقي والمدنية.

وللأسف أتكلم عن معظم دول المسلمين التي ترى فيها الكثير من مظاهر التخلف، والفوضى، والعشوائية في البناء، وفي مخالفة القوانين وعدم احترامها، وفي التخلف العلمي والتعليمي والتكنولوجي والاقتصادي، وغيرها.

لماذا لا يلتزم المسلمون بنظافة بلداهم ومدنهم ومبانيها ومنشآتها ومؤسساتها، وشوارعها، وأزقتها، وأحياءها؟

لماذا لا يتجرأ المسلم في الدول الغربية على رمي الأوساخ في الشارع أو الزقاق أو الحي؟ ويفعل ذلك بلا مبالاة ولا أدنى شعور بالمسؤولية في بلده المسلم، وشارعه، وزقاقه، وحيِّه!

لماذا لا يضطهد ربُّ العملِ المسلمُ عُمَّاله وموظفيه في البلاد الغربية، ويوفر لهم كل أسباب الراحة والسلامة والأمان في مكان عملهم، ويعطيهم حقوقهم؟ بينما في البلاد الإسلامية، قلما تجد من يفعل ذلك! فلا يوفر رب العمل لعماله أدنى أسباب الراحة والأمان وتجنب أخطار الإصابات والحوادث! وترى معظم أماكن العمل سواء كانت متاجر أو مصانع أو مزارع، تكاد تخلو من تلك الوسائل والإجراءات التي تضمن سلامة العاملين وراحتهم!

لماذا لا يتجرأ المسلمُ على مخالفة أنظمة المرور، وتجاوزها، حتى لو كان في الهزيع الأخير من الليل، وفي ظلام دامس، وليس هناك شرطيًّا ولا رقيبًا، ولا حتى الة تصوير (كاميرا)؟ بينما يفعل ذلك جهارًا نهارًا في وضح النهار، ولا يأبه لقانونٍ ولا لسلامةٍ إنسان!

باِختصار شديد ودون الخوض في التفاصيل، لماذا الكفار في البلاد الغربية، منظمين، عندهم قوانين ومعايير في كل مرفق من مرافق الحياة، ولا يسمح لأحد بتجاوزها ومخالفتها؟! ولماذا ترى الناس هناك وبمرور الزمن، قد اعتادوا عليها، والتزموا بها، وصارت جزءًا لا يتجزأ ولا ينفصل عن عاداتهم وثقافتهم، وبالتالي صاروا يمارسونها في معظم الأحيان، حتى عندما لا يكون هناك رقيب أو حسيب؟!

وفي الحقيقة، أعلمُ أنَّ معظم الأجوبة ستقول: السبب في ذلك هو الرُّقي والتقدم والحضارة، وأنَّ هناك نظامًا وقوانين صارمة، ودولًا متقدمة. وأنَّ هناك مسؤولين نزيهين يحبون بلدانهم، ويخلصون في العمل من أجلها! وأنَّ هناك حكومات تراقب وتطبق تلك القوانين، وتحاسب حسابًا شديدًا المخالفين، وتفرض عليهم عقوبات وغرامات، وأنَّ القانون هناك لا يرحم المخالف، وليست هناك محاباة ومحسوبية!

ونقول، هذا صحيح، ولكن من الذي أنشأ تلك الدول والقوانين والأنظمة، وبالتالي ذلك الرقي والتقدم؟ أليس الناس هم أنفسهم!

أليس من الأولى نحن المسلمون أنْ نفعل كما فعلوا؟ السنا نحن المسلمون أولى منهم بها!

أليست تلك المظاهر، وذلك الالتزام وتلك الحضارة، إنما هي ثمرة وانعكاس لعظمةِ وسموِّ ورِفعةِ وصلاحِ إيماننا والتزامنا بديننا الإسلامي؟

إننا انْ التزمنا بها وعمِلناها، سنعكس للعالم ونثبت له صحةَ منهجنا وديننا، وصِدق كلام ربنا فينا، إننا خير أمة أخرجت للناس.

وحينئذ، سيقول الناس: لولا أنَّ منهجهم حقٌّ، وراقٍ، وسامٍ، لما استطاع هؤلاء المسلمون من تحقيق كل ذلك الالتزام والرّقي والحضارة!

وحينئذ، سيندهش القاصي والداني مما يرونه ويسمعونه عن حال المسلمين، وحال بلادهم من الأمن والأمان والخير، والتطور، والالتزام بالقوانين، واحترامها. وبالتالي، سيصبح شأنهم – أي المسلمين – حديث العالم أجمع.

وسيقول كل ذي لُبٍّ منهم، ومُنصف: لولا أنّ دين هؤلاء المسلمين ومنهجهم حق وخير، لما كان ليجتمعوا، على اختلاف أجناسهم، وألوانهم، وألسنتهم، وثقافاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم! ولما استطاعوا أن يحققوا كل ذلك الرخاء والأمن والأخوة والاستقرار، وكل تلك الإنجازات والعمران والتطور! وبالتالي سترى الكثير من غير المسلمين ممن سيتأثر بديننا الإسلام، وبعلومنا، وتراثنا، وتقاليدنا. بل وسيتأثرون حتى بلغتنا العربية بالذات، لأنها لغة كتابنا وديننا، والقاسم المشترك بيننا جميعًا نحن المسلمين في شتى أنحاء العالم.

وما نقوله ليس ضربًا من الخيال، ولا مجرد أحلام وردية نحلم بها، أو أحلام اليقظة، ولا أماني عسيرة المنال أو مستحيلة!

لقد كان كل ذلك بالأمس القريب، حقيقة وواقعًا، أيام عصر الأمة الإسلامية الذهبي، عندما كان المسلمون لا يعتزون بهوية غير هوية الإسلام، وليس عندهم منهجًا غير كتاب الله تعالى، يستمدون منه نظام حياتهم ويديرون به شؤونهم، ويعملون به في واقعهم. فكانت بلادهم الإسلامية عنوانًا للرُّقي والتقدم، والعلم والبناء والعمران، ورمزًا للوحدة والانسجام والتعايش بين أفراد الأمة. فكان غير المسلمين، من جميع أصقاع الأرض، ومن أوربا المسيحية بالذات، يأتون إلى جامعاتنا وإلى حواضر العالم الإسلامي في بغداد ودمشق ومصر والقيروان والأندلس، ليتعلموا العربية، ولينهلوا من العلوم التي أبدعها المسلمون. وكان الفرنجي يفخر بين أقرانه من قومه، لأنه يتحدث العربية، ولأنه يدرس في جامعات المسلمين! تمامًا كما يفعل اليوم الكثير من الناس، ومن مختلف بلدن العالم، ومن بلاد المسلمين، ومن العرب — للأسف — على وجه التحديد، وذلك من تقليد للغرب —الأوربي والأمريكي—، وتقليد لكل ما يتعلق بهم من ثقافته وعاداته، وتقليد لغته، وحتى في طريقة كلامه وملبسه! وهكذا هي طبيعة البشر، وعليها جُبِلوا! فهم لا يقلّدون، ولا يتأثرون، إلا بالقوي! ونقصد بالقوي: قويٌّ في فكره، وعلمه، ومنهجه، ونظامه، وسلاحه.

والفرق بيننا نحن المسلمون وبينهم، إنهم يملكون كل شيء، إلا المنهج الذي يَصلُح لهداية، وأمنِ، واستقرار البشر.

أمَّا نحن، فلدينا — بالإضافة الى الكثير من مقومات الحضارة المادية والتقدم — لدينا ذلك المنهج الإلهي والرباني، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا يملكونه هم أنفسهم! وانما يتخبطون في ضلالهم وافكارهم ودياناتهم المنحرفة وما يبتدعونه من ايديولوجيات ونظريات فيها خطأ كبير ومنافع للناس، وخطأها أكبر من نفعها اِنْ نفعت!

أما نحن فلدينا ذلك المنهج الرباني وليس البشري والارضي، والذي أعطانا ذلك المنهج هو الله، الذي بيده ملكوت كل شي، وبيده النصر والتمكين، والسعادة والرقي، ووعدنا تعالى أنْ يكون معنا، ولكن بشرط أنْ نكون معه!

ووعدنا بأن ينصرنا إنْ نحن نصرناه، ويعصمنا اِنْ اعتصمنا بحبل وكتابه، وذلك بنصرنا لدينه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1].

وإذا نَصَرَنا الله، فمن ذا الذي يستطيع أنْ يهزمنا بعد ذلك؟ قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴿160﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[3] .

فنحن المسلمون لدينا المنهج الذي نسودُ ونقود به الأمم إلى الخير لهم ولنا، في الدنيا والآخرة.

ولكي نحقق ذلك فكلُّ ما نحتاجه أنْ نكون المثال الحَسن لديننا، ونعني بذلك الالتزام الحقيقي بذلك المنهج، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿55﴾﴾[4].

---

(1) محمد، الآية: ﴿7﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿160﴾.

(3) آل عمران: الآية: ﴿103﴾.

(4) النور، الآية: ﴿55﴾.

خاتمة

تعرفنا في هذا الفصل على الركن العاشر من أركان بناء وإقامة (خير أمة أخرجت للناس)، وهو ركن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، والذي يمثل باختصار (الدعوة إلى الله). وبينا أهمية ذلك الركن من حيث إنه من أهم خصائص الأمة الإسلامية، والذي به صارت (خير أمة أخرجت للناس)، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وذكرنا الأدلة من الكتاب والسُّنة على وجوب ذلك الركن، وأنه فرضُ عينٍ على كل مسلم، وحسب استطاعته وما عنده من علم، وأنَّه في الوقت ذاته، فرضُ كفايةٍ أيضًا، لضرورة ولزوم قيام جماعةٍ متخصصةٍ، لديها العلم الشرعي، والسلطة والولاية على الناس، للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبينا الأدلة من الكتاب والسنة على كِلا الحكمين.

وذكرنا أنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لا يتوقف ولا يتعطل بأي حال، وأنَّه من أهم صفات المؤمنين، وصفات أهل التمكين، وأنَّه حِصنٌ ونجاةُ للأمة من نزول عذاب الله عليها وعقابه، وإذا نزل العذاب، فلن ينجو إلا القائمين بذلك الركن.

وبينا أنَّ المسلم يقوم بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في جميع أحواله، ولا يستلزم: ألاّ يأمر بالمعروف إلَّا من يفعل المعروف، ولا ينهى عن المنكر إلَّا من لا يفعل المنكر، وإلَّا تعطل ذلك الركن، إذ لا يخلو مسلم من التقصير.

وذكرنا أيضًا فضائل ذلك الركن، وعواقب تركه، والتهاون فيه، وذلك من خلال الأدلة من الكتاب والسنة النبوية.

وأخيرًا، ذكرنا أقسام الكفار والتفريق بينهم، وكيفية دعوتهم إلى الإسلام بصورة صحيحة، وأنَّ ذلك لا يتم إلا بأمرين اثنين، (العلم واليقين)، و(القدوة في الدنيا والدين).

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

فصل:

الركن الحَادي عَشَر: الجِهادُ في سَبيلِ الله

إِنَّ الامةَ الإسلاميةَ، وكبقية الأمم، لا بد لها من قوةٍ وعُدَّةٍ لحماية أفرادها وأراضيها من أعدائها والمتربصين بها، والذين يسعون للهيمنة عليها، ويطمعون للسيطرة على أراضيها وثرواتها ومواردها.

ولكنَّ الأمة الإسلامية تختلف عن باقِي الأمم، إِذ أَنَّها أكثرُ أممِ الأرضِ عُرضةً للعدوان والاحتلال، والغزو الفكري، والأخلاقِي، والعقائدي، وذلك لامتلاكها أعظم وآخرَ دينٍ سماوي مقبولٍ عند الله، ألا وهو الإسلام. فهي أمةٌ مستهدفةٌ من قِبل الكفار لأنها حاملةٌ لكتابِ الله تعالى، وحاملةٌ للواء التوحيد، والمنهجِ الرباني والشمولي.

فالأمة الإسلامية بصفتها (الأمة الحجة) و (الشاهدة على الأمم)، تحمِل همَّ الدعوة إلى الله، ومسئولية إيصال هذه الدعوة ورسالة الإسلام إلى البشرية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴿143﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

من أجل ذلك، يحاول أعداء الإسلام منعها من القيام بتلك المهمة التي أوكلها الله إليها. من أجل ذلك، تسعى دول الكفر من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دول الإلحاد والشرك، والوثنيين والبوذيين والهندوس وغيرهم، يسعون جاهدين لمحاربة المسلمين واضطهادهم. ومن أجل السيطرة على بلادهم وتغيير عقيدتهم، وأفكارهم، وأخلاقهم، وطمس هويتهم الإسلامية.

إنَّ الواقع والأحداث، على مر التاريخ، تشهد بأنَّ أُمَّتنا الإسلامية مُستهدفة من قِبل أعدائها، أكثر من غيرها من أُمم الأرض. ولقد أخبرنا القرآن الكريم بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

(1) البقرة، الآية: ﴿143﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿110﴾.

مَا لَكَ مِن اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴿120﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿109﴾﴾[3].

وفي الحقيقة، فإنَّ الأمة العربية، بصفتها مهدُ الإسلام، ونواةُ الأمة الإسلامية وأصلها الذي لا ينفك عنها، هي الأمة المستهدفة على وجه الخصوص من بين المسلمين في ذلك العداء والحرب، الذيَن لا ينتهيان إلى قيام الساعة[4].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿120﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿217﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿109﴾.

(4) إنَّ استهداف الأمة العربية – على وجه الخصوص- من أجل محاربة الإسلام والمسلمين، يشهد له الواقع والأحداث، والمنطق عند أعداء المسلمين، وذلك لعدة أسباب، منها:

- أنَّ القرآن الكريم والدين قد نزل بلغتهم العربية.
- وأنَّ رسول الإسلام محمدًا ﷺ عربيًّا.
- وأنَّ أرضهم هي مهد الإسلام، فقد احتضنت الإسلام وتاريخه ومقدساته، كالحرمين الشريفين في مكة والمدينة.
- وأنهم –أعني العرب– هم رجال الإسلام وحملته الأوائل إلى الناس جميعًا.
- وأنهم أول من تلقَّاه وقبِله وفهِمه وعاشه، فصار الإسلام للعرب عنوانًا وهويةً، وتأريخًا، ومجدًا، وعزًّا. فارتبط اسم الإسلام بالعرب، وارتبط اسم العرب بالإسلام، فأصبحا صنوان، فحيثما ذُكِرَ أحدُهما، تبادر إلى الأذهان الآخر.
- وأنَّ غير العرب من المسلمين يحبون ويقتدون بالعرب، وبلغتهم، ويحبون أرضهم التي تمثل لهم تاريخ الإسلام، وتذكرهم بسيرة رسولهم ﷺ وبكل أحداث الإسلام وعصر النبوة والخلافة الراشدة، والعصور الإسلامية الزاهرة. وهكذا غيرها من الأسباب الأخرى التي تستعدي أعداء الإسلام على الأمة العربية، وتدفعهم إلى محاربتها والهيمنة عليها.

فإذا تمت السيطرة على العرب، وتم اضطهادهم، وتغيرت أفكارهم وعقيدتهم، والتزامهم بالإسلام، فسيكون لذلك الأثر السيئ على باقي الأمة الإسلامية من غير العرب. والسبب في ذلك يعود إلى أنَّ العرب –كما ذكرنا– يمثلون القدوة والأسوة الحسنة، وأهل الإسلام وأنَّ ديارهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث بيت الله الحرام والمسجد النبوي، تهوي إليهما أفئدة كل المسلمين. وكذلك الحال مع ديار العرب الأخرى في الجزيرة العربية، وبغداد والشام والقدس الشريف، حيث المسجد الأقصى ومسرى ومعراج الرسول ﷺ، وباقي بلاد العرب في مصر والمغرب العربي. وفي الحقيقة، فإنَّ كل تلك الديار والبقاع العربية الطاهرة، تذكّر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بتاريخ الإسلام، وبسيرة نبيهم ﷺ وبتلك الأيام الخالدة من تأريخ دينهم. فإذا أُسقِط العرب، وانحرفوا وأُحتلوا من قِبل أعداء الإسلام، وتغيَّرت أخلاقهم وعقيدتهم وسلوكهم، وتغرَّبت ثقافتهم وعاداتهم، وضَعُف تمسكهم بلغتهم العربية، لغة القرآن الكريم، أدى ذلك إلى أنْ تذهب كل هذه الاعتبارات من مشاعر غير العرب من المسلمين من قلوبهم ووجدانهم. وأدى ذلك بالنتيجة إلى ضعف الإسلام والمسلمين والتزامهم بدينهم، وضياع الدين.

القرآن الكريم

من أجل ذلك أمر تعالى المسلمين بالجهاد في سبيله، فقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2].

وأمَرهم بالقتال في سبيله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وكتبهُ عليهم وأوجبه، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿216﴾﴾[4].

ذكر ابن كثير في تفسيره لتلك الآية بقوله: [هَذَا إِيجَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ: أَنْ يكُفُّوا شَرَّ الْأَعْدَاءِ عَنْ حَوْزة الْإِسْلَامِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: الجهادُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، غَزَا أَوْ قَعَدَ؛ فَالْقَاعِدُ عَلَيْهِ إِذَا اسْتُعِينَ أَنْ يَعينَ، وَإِذَا استُغيثَ أَنْ يُغيثَ، وَإِذَا استُنْفرَ أَنْ يَنْفِرَ، وَإِنْ لَمْ يُحتجْ إِلَيْهِ قَعَدَ. قُلْتُ: وَلِهَذَا ثَبَت فِي الصَّحِيحِ: ﴿مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.﴾. وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْفَتْحِ: ﴿لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ ونيَّة، إِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أَيْ: شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمَشَقَّةٌ. وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يجرحَ مَعَ مَشَقَّةِ السَّفَرِ ومجالدَة الْأَعْدَاءِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أَيْ: لِأَنَّ القتالَ يَعْقُبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالاسْتِيلَاءُ عَلَى بِلَادِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وذرَاريهم، وَأَوْلَادِهِمْ. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، قَدْ يُحِبّ المرءُ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ خِيَرَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ. وَمِنْ ذَلِكَ القُعُود عَنِ الْقِتَالِ، قَدْ يَعْقُبُه اسْتِيلَاءُ الْعَدُوِّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْحُكْمِ. ثُمَّ

وهذا – في الحقيقة – مما يعمل له أعداء المسلمين لمحاربة الإسلام وأهله، وذلك بالتركيز على إذلال العرب واضطهادهم، وتغريبهم وسَلخِهم عن دينهم، والهيمنة على ديارهم، ليسْهُل عليهم الهيمنة على باقي الأمة الإسلامية، وتغيير دينها، أو حَجرِه وعزله عن حياة الأمة وحصره في زاوية ضيقة جدًّا من حياة المسلمين، تتمثل بعلاقة العبد بربه، لا تتعداه إلى شؤون الحكم والدولة والحياة العامة والدعوة إلى الله.

لعل الله تعالى ييسر لنا إفراد كتابٍ خاصٍّ في موضوع علاقة العرب بالإسلام، ودورهم في بقاء الدين وحِفظه، وقضية استهدافهم على وجه الخصوص من قبل أعداء المسلمين.

(1) الحج، الآية: ﴿78﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿35﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿244﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿216﴾.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ مِنْكُمْ، وأخبَرُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ؛ فَاسْتَجِيبُوا لَهُ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ، لَعَلَّكُمْ تَرْشُدُونَ.] اهـ [1].

وأمَر تعالى المسلمين بإعداد العُدَّة، والقوة، والسلاح، وكلّ مستلزمات القتال والجهاد، وبإنفاق المال في سبيله تعالى، من أجل الاستعداد لقتال أعدائه وأعدائنا نحن المسلمين، وإرهابهم، كي لا يجرؤا على محاربتنا، والتعرُّضِ لديننا وأمتنا، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿60﴾﴾[2].

وأمر تعالى المسلمين بالنفير، والجهاد في سبيلهِ تعالى بالمال والنفس، فقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿41﴾﴾[3].

فما هو إذن تعريف الجهاد؟ وما حُكمه وفضيلته؟ وما هي أقسامه؟ وكل ما تتعلق به من أمور أخرى؟ هذا ما سنتناوله باختصار، في الصفحات القادمة، بإذن الله تعالى.

تعريف الجهاد

الجهاد في اللغة معناه: بذلُ الطاقةِ، والمشَّقةِ، والوُسْعِ، والقِتالِ، والمبالغة. فقد عرَّفه الكاساني من الحنفية بقوله: [وَأَمَّا الْجِهَادُ فِي اللُّغَةِ، فَعِبَارَةٌ عَنْ بَذْلِ الْجُهْدِ بِالضَّمِّ، وَهُوَ الْوُسْعُ وَالطَّاقَةُ، أَوْ عَن الْمُبَالَغَةِ فِي الْعَمَلِ مِن الْجَهْدِ بِالْفَتْحِ.][4].

أمَّا في الشرع فله تعريفان: عام وخاص.

(1) تفسير ابن كثير، 428/1.

(2) الأنفال، الآية: ﴿60﴾.

(3) التوبة، الآية: ﴿41﴾.

(4) بدائع الصنائع، الكاساني، 97/7. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المؤلف: علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى: 587هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، 1406هـ – 1986م، عدد الأجزاء: 7.

فالعام كما عرَّفه شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه، حيث قال: [وَالْجِهَادُ: هُوَ بَذْلُ الْوُسْعِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ فِي حُصُولِ مَحْبُوبِ الْحَقِّ وَدَفْعِ مَا يَكْرَهُهُ الحَقُّ.] اهـ [1].

وفي بيان حقيقة الجهاد، قال رحمه الله: [وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ الاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِن الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ وَمِنْ دَفْعِ مَا يَبْغُضُهُ اللَّهُ مِن الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، إلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (التوبة: 24﴾، فَتَوَعَّدَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ.] اهـ[2].

ويقول ابن القيّم: [وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي حَقِّ الْجِهَادِ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ اسْتِفْرَاغُ الطَّاقَةِ فِيهِ، وَأَلَّا يَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَقَالَ مقاتل: اعْمَلُوا لِلَّهِ حَقَّ عَمَلِهِ، وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: هُوَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى. وَلَمْ يُصِبْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْآيَتَيْنِ مَنْسُوخَتَانِ[3]، لِظَنِّهِ أَنَّهُمَا تَضَمَّنَتَا الْأَمْرَ بِمَا لَا يُطَاقُ، وَحَقُّ تُقَاتِهِ وَحَقُّ جِهَادِهِ: هُوَ مَا يُطِيقُهُ كُلُّ عَبْدٍ فِي نَفْسِهِ، وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُكَلَّفِينَ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعَجْزِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ. فَحَقُّ التَّقْوَى وَحَقُّ الْجِهَادِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقَادِرِ الْمُتَمَكِّنِ الْعَالِمِ شَيْءٌ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى العَاجِزِ الجَاهِلِ الضَّعِيفِ شَيْءٌ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ عَقَّبَ الْأَمْرَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: 78)، وَالْحَرَجُ: الضِّيقُ، بَلْ جَعَلَهُ وَاسِعًا يَسَعُ كُلَّ أَحَدٍ، كَمَا جَعَلَ رِزْقَهُ يَسَعُ كُلَّ حَيٍّ، وَكَلَّفَ الْعَبْدَ بِمَا يَسَعُهُ الْعَبْدُ، وَرَزَقَ الْعَبْدَ مَا يَسَعُ الْعَبْدَ، فَهُوَ يَسَعُ تَكْلِيفَهُ وَيَسَعُهُ رِزْقُهُ، وَمَا جَعَلَ عَلَى عَبْدِهِ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بِوَجْهٍ مَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»، أَيْ: بِالْمِلَّةِ، فَهِيَ حَنِيفِيَّةٌ فِي التَّوْحِيدِ، سَمْحَةٌ فِي الْعَمَلِ.] اهـ[4].

وبهذا التعريف العام للجهاد، فإنَّ كل ما يبذله المسلم من قدرة، وطاقة، ووسع، ومجهود، في طاعة الله تعالى، لأداء ما افترضه عليه من أوامر، وفي دفع الشيطان ووساوسه، وهوى النفس، وذلك لاجتناب حدود الله ونواهيه وحدوده، يُعَدُّ جهادًا.

---

(1) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، 188/5. الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1408هـ – 1987م، عدد الأجزاء 6.

(2) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية 187/5.

(3) المقصود بالآيتين، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴿102﴾﴾ آل عمران: ﴿102﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: 78).

(4) زاد المعاد، ابن القيم، فصل: الجهاد في أول الإسلام، 3/8.

وهذا الجهاد له صورٌ وأشكالٌ متعددة وكثيرة. فيكون جهادًا بالنفس، عندما يَبذلُ المسلم نفسه، أو بدنه، فيَحْملهما على طاعة الله بتحمُّل الصِعاب والمشاق، كالصلاة، والوضوء لها في الجو البارد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ.﴾، وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ شُعْبَةَ ذِكْرُ الرِّبَاطِ وَفِي حَدِيثِ مَالِكٍ ثِنْتَيْنِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ[1].

فهذا مثال جِهاد البدن، ومثله: كالصيام في الحر والقيظ، وتحمل الجوع والعطش، والحج، وغيرها من العبادات البدنية.

ويكون جهادًا بالنفس، وذلك ببذلها وإزهاقها في سبيل الله في الحرب لقتال الكفار، وصد العدوان عن بلاد المسلمين، ولأجل إعلاء كلمة الإسلام، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿81﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿168﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿169﴾﴾[3].

والجهاد بالنفس، والجود بها، هو أعلى درجات الجهاد، وأقصى أنواع الجود، قال مسلم بن الوليد[4]:

يَجُودُ بالنَّفْسِ إنْ ضَنَّ الجَوادُ بِها　　　والجودُ بالنَّفْسِ أَقْصَى غايةِ الجُودِ

ويكون جهادًا بالمال، عندما يكون ببذل المال، وبكل ما يملكه المسلم مِن متاعٍ وحاجاتٍ، وذلك بإنفاقه فيما أمَر الله، كالزكاة والصدقة، وتجهيز المقاتلين، وفكِّ الكرب وإعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف وذوي

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَابِ الطَّهَارَةِ، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، برقم 251.

(2) التوبة، الآية: ﴿81﴾.

(3) آل عمران، الآيتان: ﴿168، 169﴾.

(4) شاعر متقدم، من شعراء الدولة العباسية، ويُلقب بصريع الغواني.

الرحم والقرابة[1]، وغيرها من وجوه الإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾[2].

ويكون جهادًا بالوقت، عندما يبذُل المسلمُ الوقتَ والعُمر، فيقضيه في طاعة الله تعالى بالذكر والتعبّد والاعتكاف وطلب العلم ونشره، وهكذا سائر انواع الجهاد.

يقول ابن القيّم: [وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُجَاهِدُوا فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ، كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَكَمَا أَنَّ حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، فَحَقُّ جِهَادِهِ أَنْ يُجَاهِدَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ لِيُسْلِمَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ لِلَّهِ، فَيَكُونُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ لَا لِنَفْسِهِ وَلَا بِنَفْسِهِ، وَيُجَاهِدُ شَيْطَانَهُ بِتَكْذِيبِ وَعْدِهِ، وَمَعْصِيَةِ أَمْرِهِ، وَارْتِكَابِ نَهْيِهِ، فَإِنَّهُ يَعِدُ الْأَمَانِيَّ وَيُمَنِّي الْغُرُورَ، وَيَعِدُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَيَنْهَى عَنِ التُّقَى وَالْهُدَى وَالْعِفَّةِ وَالصَّبْرِ، وَأَخْلَاقِ الْإِيمَانِ كُلِّهَا، فَجَاهِدْهُ بِتَكْذِيبِ وَعْدِهِ، وَمَعْصِيَةِ أَمْرِهِ، فَيَنْشَأُ لَهُ مِنْ هَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ قُوَّةٌ وَسُلْطَانٌ، وَعُدَّةٌ يُجَاهِدُ بِهَا أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي الْخَارِجِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَمَالِهِ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا.]اهـ[3].

أما التعريف الخاص للجهاد، فالمقصود به: القتال في سبيل الله، حيث عرفه الكاساني من الحنفية، فقال: [وَفِي عُرْفِ الشَّرْعِ، يُسْتَعْمَلُ فِي بَذْلِ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ بِالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَاللِّسَانِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَو الْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ –تَعَالَى– أَعْلَمُ.][4].

وعندهم أيضًا: [الْجِهَاد: الدُّعَاء إِلَى الدّين الْحق، وقتال مَنْ لم يَقبلهُ حَقِيقَةً أَو حكمًا بأَدَاء الْجِزْيَة أَو الْمُصَالحَة.][5].

---

(1) عن سَعِيدُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ.﴾، أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة، فمن لم يجد فليعمل بالمعروف، برقم 1376، وكتاب الأدب، باب: كل معروف صدقة، برقم 5676). ومسلم في صحيحه في (كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم 1008).

(2) الأنفال، الآية: ﴿72﴾.

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، فصل: الجهاد في أول الإسلام، 3/8.

(4) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، 97/7.

(5) قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، 255/1. قواعد الفقه، المؤلف: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: الصدف ببلشرز –كراتشي، الصدف ببلشرز – كراتشي، الطبعة: الأولى، 1407هـ – 1986م.

وعرَّفه المالكية بأنه: [قِتالُ مُسلِمٍ كافِرٍ غَيْرَ ذي عهدٍ لإعلاءِ كَلمةِ اللهِ تعالى.][1].

وعند الشافعية: [وشرعًا بَذلُ الجُهدِ في قتالِ الكُفَّارِ.][2].

وعند الحنابلة: [وشرعًا قِتالُ الكُفَّارِ.][3].

وبناء على هذا التعريف الخاص للجهاد –أعني القتال في سبيل الله– سارَ أغلب أهل العلم، على الرغم من شمولية معنى الجهاد في الشرع، كما مر بنا في تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، والذي ذكرناه آنفًا. ولذلك نجد أنَّ الجهاد بمعنى: (القتال في سبيل الله)، صار طاغيًا على مسامع الناس وإدراكهم وفهمهم، فمتى ذُكِر الجهاد، من غير تقييد، تبادر إلى الأذهان: (القتال في سبيل الله)، من أجل رفع راية الإسلام.

القتالُ في سبيل الله

إنَّ القيامَ بمهمة الدعوةِ إلى الله، تستوجب من الأمة –أيضًا– أنْ تكون متهيئةً ومستعدةً للتصدي لمن يرفض دعوتها، ولا يُسلم وجهه لله، ولا ينصاع إلى كلمة الحق وكلمة التوحيد، ولا يدخل في دين الله، ويرفض دفع الجزية، فلا يعطيها. وربما تمادى بعيدًا، ذلك الكافر الذي يرفض الإسلام، وأخذ يحارب الدعوة، بل ويقف حائلًا بينها وبين الناس، فيمنعهم، ويضطهدهم، من أجل الحيلولة بينهم وبين الدخول في دين الله. وتأريخ الدعوة إلى الله شاهد على مقاومةِ الكفارِ والطغاةِ لنشر الإسلام، وعلى صدِّهم واضطهادِهم وفتنتهم لمن يدخل في دين الله من بني جلدتهم. ناهيك عن محاربتهم واعتدائهم ابتداء على بلاد المسلمين، وحربهم الشعواء على الإسلام وكتاب الله تعالى ورسوله ﷺ.

فمن أجل ذلك، فرض الله الجهاد على المسلمين، وذلك لتحقيق غايتين أساسيتين هما[4].

---

(1) الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى فقه الإمام مالك، للدردير، 2/267. بلغة السالك لأقرب المسالك، المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير (الشرح الصغير هو شرح الشيخ الدردير لكتابه المسمى: أقرب المسالك لِمَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ)، المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي (ت 1241هـ)، الناشر: دار المعارف، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ عدد الأجزاء: ٤.

(2) فتح الباري، 6/3.

(3) كتاب مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيبانى مولدًا ثم الدمشقي الحنبلي (ت 1243هـ)، 2/497، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1415هـ- 1994م.

(4) وهاتان الغايتان هما في الحقيقة: قسما الجهاد، أي: (جهاد الدفع)، و (جهاد الطلب).

الغاية الأولى: الدفاع عن الأمة الإسلامية (جهاد الدفع)

ونقصد بذلك، دفاع الأمة الإسلامية عن استقلالها، وأمنها، واستقرارها، وسيادتها، ووحدة أراضيها وثرواتها، أمام العدو الغاصب والطامع.

فهذا القسم من الجهاد يطلق عليه أهل العلم: (جهاد الدفع)، وحكمه الوجوب. فيجب على جميع المسلمين القيام به وكل حسب استطاعته، لدفع العدو الصائل. فالمقصود بـ (جهاد الدفع)، أي: دفع وصد العدوان عن الأمة، إذا ما حاول بلد ما، أو جماعة ما، الاعتداء عليها، وذلك طمعًا في أراضيها، أو ثرواتها، أو تعرَّض لدينها، أو لعقيدتها، أو كتابها، أو نبيها ﷺ.

فهذا النوع من العدوان، وبالتالي صده والرد عليه، هو أمر طبيعي، يحصل بين الأمم على مر التاريخ. وبسببه تنشب الحروب بين الدول والأمم، طمعًا بالمصالح، ومن أجل الهيمنة على الدول الأخرى، ونهب خيراتها، وثرواتها، واستعبادها. وإمعانًا في الهيمنة والسيطرة، ومن أجل نشر ثقافة البلد المعتدي، ولغته، فقد يصل الأمر إلى استحواذ ذلك المعتدي على تلك الدولة والأرض المعتدى عليها، واحتلالها، وضمها إلى أراضيه وحدوده. لهذا السبب، كان واجبًا على الأمة الإسلامية دفع ذلك العدوان والتصدي له ودحره.

ينبغي أنْ يعلمَ كلّ مسلمٍ، وكما أشرنا آنفًا في بداية هذا الفصل، أَنَّ أمتهم الإسلامية، من أكثرِ الأممِ تعرضًا للطمع فيها، والاعتداءِ عليها، واحتلالِ أراضيها، والهيمنة عليها. ليس ذلك، بسبب ثَرواتها، وخيراتها التي حباها الله وخصَّها بها فحسب، بل، وأيضًا، لأنها صاحبة المنهجِ الإلهي الحق، والرسالةِ السماوية الأخيرةِ والمقبولة عند اللهِ في الدنيا والآخرة.

وقد يكون هذا، أعني بصفتها صاحبةُ الرسالةِ السماويةِ الأخيرة، هو السببُ والدافعُ الرئيسي لكثيرٍ من الأعداء والطامعين، وخصوصًا من أهل الكتّاب من اليهود والنصارى الصليبيين، ومن الأقوام المُدَّعين زورًا وبهتانًا أَنَّهم مسلمون، كالفُرس الروافض[1]، وبقيةِ الفِرق الضالّة.

(1) نقصد بالفُرس الروافض، أولئك الذين ليسوا على الكتابِ والسُّنة وهَدْي آل البيت الحق، وعلى هَدْي الصحابة، الذي هو في الحقيقة هَدْيُ رسول الله ﷺ والمنقول عنه. أمَّا ما نراه اليوم عن الدين السائد في بلاد فارس (إيران)، إنما هو دين ممسوخ، لا يَمتُّ بِصلةٍ إلى الإسلام، ولا إلى نهج آل البيت أصلًا، ولا حتى إلى نهج بعض الفرق الشيعية المعتدلة كالزيدية. غير أننا لا نُنكر دور إيران وكثير من أهل فارس، في العلم ونشر الإسلام أيام كانت على الكتاب والسنة، وقبل أنْ تتحول إلى التشييع ومذهب الرافضة، والانحراف عن الإسلام في عهد الشاه إسماعيل الصفوي. ومن الجدير بالذكر، فلا تزال هناك، بحمد الله، وحتى الآن، مجموعة كبيرة من أهل السُّنة والجماعة من الفرس الإيرانيين، ولكنهم مضطهدين من قبل النظام المجوسي الرَّافضي الذي يحكم إيران في هذه الأيام.

فصل:

الركن الحَادي عَشَر: الجِهادُ في سَبيلِ الله

لقد أخبر الحق سبحانه الأمة الإسلامية، أنَّها مستهدفة من قبل أعدائها من الأمم الأخرى من الكفار، وبالأخص، من أهل الكتاب، فهم يحسدون المسلمين على هذا الدين وعلى نبيهم الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿109﴾﴾[1].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿109﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سُلُوكِ طَرَائِقِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَيُعْلِمُهُمْ بِعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَمَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ. وَيَأْمُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالِاحْتِمَالِ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ. وَيَأْمُرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ. وَيَحُثُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَوْ عِكْرِمَةُ، عَنِ ابْنِ عباس، قال: كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَأَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ مِنْ أَشَدِّ يهودَ لِلْعَرَبِ حَسَدًا، إِذْ خَصهم اللهُ بِرَسُولِهِ ﷺ، وَكَانَا جَاهدَين فِي ردِّ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَاعَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمَا: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ الْآيَةَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَر عَنِ الزُّهْرِيِّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قَالَ: هُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، حَدَّثَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِيَّ كَانَ شَاعِرًا، وَكَانَ يَهْجُو النَّبِيَّ ﷺ. وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولًا أُمِّيًّا يُخْبِرُهُمْ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ، ثُمَّ يُصَدِّقُ بِذَلِكَ كُلِّهُ مِثْلَ تَصْدِيقِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوا ذَلِكَ كُفْرًا وحسدًا وبغيًا؛ ولذلك قال اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا أَضَاءَ لَهُمُ الْحَقُّ لَمْ يَجْهَلُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ حَمَلَهُمْ عَلَى الْجُحُودِ، فعيرَّهم وَوَبَّخَهُمْ وَلَامَهُمْ أشدَّ الْمَلَامَةِ، وَشَرَعَ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِقْرَارِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِمْ، بِكَرَامَتِهِ وَثَوَابِهِ الْجَزِيلِ وَمَعُونَتِهِ لَهُمْ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَكَفَرُوا بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا؛ إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾ (آل عمران: 186﴾.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عباس فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ نَسَخَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوْبَةِ: 29﴾، فَنَسَخَ هَذَا عَفْوَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ، وَيُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عُرْوَة بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ أَخْبَرَهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يتأوَّل مِنَ الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ بِقَتْلٍ، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ. وَهَذَا إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلَمْ أَرَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السِّتَّةِ، وَلَكِنْ لَهُ أَصْلٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] اهـ. تفسير ابن كثير، 264/1.

من أجل ذلك، فقد حذَّر تعالى المسلمين من اتخاذ الكفارِ بطانةً، سواء كانوا من المنافقين، أو غيرهم من الأديان الأخرى. وأخبر تعالى عن مدى كُرْهِ هؤلاء الكفار وحقدهم للإسلام وأهله، فهم يحزنون، ويسوؤهم ما يُصيب المسلمين من خير، ويفرحون لما يُصيبهم من أذى وسوء، قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴿118﴾هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿119﴾إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿120﴾﴾[1].

وأمر تعالى المسلمين أن يقاتلوا مَن قاتلهم من الكفار لأجل دينهم، واعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2].

وأخبر تعالى أنَّ الكفار والمشركين، لا يبرحون يقاتلون المسلمين كي يبعدوهم عن دينهم، ويحرفونهم عن الصراط المستقيم الذي هداهم إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ﴾[3].

من أجل ذلك، أمر الله المسلمين أنْ يدافعوا عن أمتهم ودينهم، فيقاتلوهم، ولا يعتدوا، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴿190﴾﴾[4]، ومن أجل رد العدوان عن بلاد الإسلام وعن المسلمين، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[5].

(1) آل عمران، الآيات: ﴿118 – 120﴾.

(2) الممتحنة، الآية: ﴿9﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿217﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿190﴾.

(5) البقرة، الآية: ﴿194﴾.

وأمر تعالى نبيه ﷺ أن يحرّضَ المؤمنين على القتال ويشجعهم، كي لا يزهدوا فيه، ولا يجبنوا أمام عدوهم، قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿84﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[2].

وأمرهم تعالى بالقتال من أجل الدفاع عن المسلمين المستضعفين أينما كانوا، وإنقاذهم من أيدي أعدائهم وظالميهم، ودفع الأذى والاضطهاد عنهم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿75﴾﴾[3].

وأمرهم تعالى بمقاتلة كل من ينكث العهود والمواثيق معهم، وكل من يؤذي النبي ﷺ ويؤذي المسلمين، قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿13﴾﴾[4].

ثم أمرهم تعالى أنْ يقاتلوا جميع المشركين، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿16﴾﴾[5].

الغاية الثانية: الدعوة إلى الله (جهاد الطلب)

ونقصد بذلك طلبُ العدو الكافر الذي لا يستجيب لدعوة الإسلام أو لدفع الجزية، وذلك من أجل القيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وإلى دينه وسنة نبيه ﷺ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعريف الكفار بالدين الحق الذي لا يرتضي تعالى من الناس غيره في الآخرة.

(1) النساء، الآية: ﴿10﴾.
(2) الأنفال، الآية: ﴿65﴾.
(3) النساء، الآية: ﴿75﴾.
(4) التوبة، الآية: ﴿13﴾.
(5) التوبة، الآية: ﴿16﴾.

ويستوجب تحقيق تلك الغاية، قيام الأمة بالجهاد، وطلب الكفار، وهو ما يَطلق أهل العلم عليه بـ (**جهاد الطلب**)، وهو القسم الثاني من الجهاد.

وحكم جهاد الطلب، فرض كفاية، فإذا قام به البعض، سقط عن الباقين، وإلّا أثِمَ الجميع.

فقد أمر تعالى المسلمين بجهاد الطلب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿193﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿39﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿29﴾﴾[3].

وهذا القسم الثاني من الجهاد (أعني جهاد الطلب)، قد حثَّ القرآن الكريم المسلمين عليه، وبثَّ تعالى الشجاعة والعزيمة في المسلمين، وأمرَ نبيه ﷺ أنْ يرغِّب المؤمنين ويَحثَّهم عليه. وأخبر تعالى أَنَّ المسلمَ في بأسهِ وقوة بدنه وإيمانه، إنما يعادل عشرة أضعاف الكافرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴿65﴾﴾[4].

ثم خفف تعالى العدد إلى ضعفين، رحمةً بهم، وذلك في الآية التالية من نفس السورة فقال تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿66﴾﴾[5].

فالأمة الإسلامية مأمورة بأنْ ترفع راية التوحيد، وتُظْهِرَ دينَ الله بين الأمم، وذلك بأنْ تدعو الكفار جميعًا إلى الدخول فيه، وترك الشرك والكفر، ونبذ الأديان السابقة التي أبطلها الله، فلم يعد يقبلها من أحد. وحينئذ يكون دين الإسلام هو السائد، وله العلو والغلبة في الأرض، وبذلك تُحقق الأمة الإسلامية قوله تعالى:

(1) البقرة، الآية: ﴿193﴾.

(2) الأنفال، الآية: ﴿39﴾.

(3) التوبة، الآية: ﴿29﴾.

(4) الأنفال، الآية: ﴿65﴾.

(5) الأنفال، الآية: ﴿66﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿33﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾ ﴾[3].

وفي بيان معنى الآيات المذكورة آنفًا، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره بقوله: [﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيْ: عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا﴾، وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ: سَمِعْتُ شَقِيقَ بْنَ حَيَّانَ يُحَدِّثُ عَنْ مَسْعُودِ بْنِ قَبِيصة – أَوْ: قَبِيصَةَ بْنِ مَسْعُودٍ – يَقُولُ: صَلَّى هَذَا الْحَيُّ مِنْ (مُحَارب) الصُّبْحَ، فَلَمَّا صَلَّوْا قَالَ شَابٌّ مِنْهُمْ: سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّهُ سَيُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَإِنَّ عُمَّالَهَا فِي النَّارِ، إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ.﴾. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، حَدَّثَنَا سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

﴿لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأمرُ مَا بَلَغَ الليلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَر وَلَا وَبَر إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، بعزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ.﴾، فَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الخيرَ والشرفَ والعزَّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلَّ وَالصَّغَارَ وَالْجِزْيَةَ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنِي ابْنُ جَابِرٍ، سَمِعْتُ سُلَيْمَ بْنَ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَر وَلَا وَبَر، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ بعزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بذلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللَّهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها.﴾.] اهـ[4].

(1) التوبة، الآية: ﴿33﴾.

(2) محمد، الآية: ﴿28﴾.

(3) الصف، الآية: ﴿9﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 120/4.

سنحاول في الصفحات القادمة أنْ نتكلم باختصار عن مشروعية الجهاد (ونعني بذلك القتال في سبيل الله)، وفضله، ومراحل تشريعه، وبعض المسائل المتعلقة به[1].

مشروعيةُ وفضلُ الجهادِ في سبيلِ الله

من المعلوم أنَّ الجهادَ في سبيل الله، ثابتٌ في الكتاب، والسُّنة، وإجماع أهلِ العلم، كما بينا سابقًا في هذا الفصل. فقد كان المسلمون يجاهدون أعداءهم، ويغزونهم في عقر ديارهم، من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر التوحيد، ودحض الشرك، وأهله. وهكذا كان دأبُ الصحابة من بعد النبي ﷺ، ودأبُ المسلمين على مر العصور، عندما كانت الأمة الإسلامية لها شأنٌ وسلطان في الأرض.

لقد ورد ذِكر الجهادِ في سبيل الله، والأمْر به والحثّ عليه، وفي فضائله، وقتال الكفار، في أكثر من ستين موضعًا من القرآن الكريم، نذكر هنا بعضًا منها.

- **ففي الحثِّ على الجهاد والترغيب فيه:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿218﴾﴾[2].

- **وفي تشجيع المسلمينَ عليه، وبثِّ الحماس والقوة والشجاعة في نفوسهم:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿65﴾﴾[3].

- **وفي إثبات معية الله للمجاهدين، ووعده تعالى لهم بالهداية إلى سُبُلِ النصرِ على عدوهم:**

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿69﴾﴾[4].

(1) لمزيد من التفصيل، يراجع كُتب الجهاد.

(2) البقرة، الآية: ﴿218﴾.

(3) الأنفال، الآية: ﴿65﴾.

(4) العنكبوت، الآية: ﴿69﴾.

• وفي فضائلِ الجهاد، وبيانِ الأجر العظيم للمجاهدين، والمغفرة لهم من الذنوب، ووعدهِ تعالى لهم بالنصر القريب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿10﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿11﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿12﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿13﴾﴾[1].

• وفي بيان فضل الموت في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿157﴾﴾[2].

• وفي بيانِ حالِ ومنزلةِ الشهداءِ في الجنة، وأنَّهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿169﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿170﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿171﴾﴾[3].

• وفي تفضيلِ (الجهادِ في سبيل الله) على كثيرٍ من أعمال الخير، كسقاية حجاج بيت الله الحرام، والقيام على خدمتهم، وعِمارة بيت الله الحرام، ومجاورته والاعتكاف والصلاة فيه:

يتوهَّمُ كثيرٌ من المسلمين أنَّ هذه طاعاتٌ لا يعدلها عملٌ آخر! وأنها منتهى وغايةُ وأمنيةُ كلُّ مسلمٍ للعيشِ في جوار بيتِ الله الحرامِ وعمارته وخدمته، وخدمة الحجيج. وهي لا شكَّ أنَّها أعمالٌ عظيمةٌ، ولكنها

---

(1) الصف، الآيات: ﴿10 – 13﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿157﴾.

(3) آل عمران، الآيات: ﴿169 – 171﴾.

لا تعدِل الجهادَ وأجرهُ العظيم، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿19﴾﴾[1].

من أجل ذلك عقَّب تعالى مباشرة بعد تلك الآية، لبيان منزلة الجهاد وجزاءه في الآخرة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿20﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿21﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿22﴾﴾[2]، ومنحهم تعالى سبعَ خِصالٍ:

إنهم أعظمُ درجةً من عُمَّارِ بيتِ الله الحرام والقائمين عليه، وأنهم الفائزون، وبَشَّرهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ، وأنهم خالدين فيها أبدًا، وأنَّه لهم عنده الأجر العظيم. فأيُّ جزاءٍ، بعد هذا، وأيُّ درجةٍ أعظم من درجة الجهاد في سبيل الله تعالى!

- **وفي بيان علو منزلة المجاهدين على القاعدين، حتى من ذوي الأعذار:**

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿95﴾﴾[3].

- **وفي بيان صفاتِ المؤمنين الذين يحبهم الله، ويحبونه:**

فقد ذكر تعالى أنَّ من بين أهم صفاتهم، أنهم يجاهدون في سبيلهِ، ولا يخافون، ولا يلتفتون إلى من يوصِمهم بالإرهاب والاعتداء، وغيرها من أوصافِ القسوةِ والوحشية، ويلومهم على ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿54﴾﴾[4]. ولهذا السبب، فقد استحقوا صفة المؤمنين الحق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟

---

(1) التوبة، الآية: ﴿19﴾.

(2) التوبة، الآية: ﴿20 – 22﴾.

(3) النساء، الآية: ﴿95﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿54﴾.

وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿74﴾﴾[1].

• **وفي بيانِ منزلةِ (الجهاد في سبيل الله)، أخبر تعالى انه حصرَ وصفَ المؤمنين بأمرين اثنين هما: (اليقين)، و (الجهاد في سبيله)، بالنفسِ والمال:**

قالِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿15﴾﴾[2].

• **وفي وجوبِ الجهاد والأمرِ به، وأنه خيرٌ للأمة، وإنْ ظنَّ البعضُ أنَّه شرٌّ، لأنَّ فيه تلفُ النفسِ والمالِ:**

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿216﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿35﴾﴾[4].

فقد أمر تعالى نبيه ﷺ والمسلمين بجهاد الكفار والمنافقين، واستعمال الغلظة معهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴿73﴾﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿52﴾﴾[6].

• **وفي بيانِ الأمرِ منه تعالى للمسلمين بالجهاد، وحسب الاستطاعة:**

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿41﴾﴾[7].

---

(1) الأنفال، الآية: ﴿74﴾.

(2) الحجرات، الآية: ﴿15﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿216﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿35﴾.

(5) التوبة، الآية: ﴿73﴾.

(6) الفرقان، الآية: ﴿52﴾.

(7) التوبة، الآية: ﴿41﴾.

• وفي بيانِ أَنَّ الجهادَ إنما هو بمثابةِ ابتلاءٍ من اللهِ للمؤمنين:

ذكر تعالى أنه لا يتركُ المؤمنين بدون اختبارٍ حتى يكشف حقيقةَ وصِدقَ إيمانهم، ويُميِّزَ الصادقَ من الكاذبِ. من أجل ذلك، فقد أشارَ القرآن الكريم إلى أنَّ في الجهادِ تمحيصينِ اثنين:

التمحيص الأول: (أمْرُهُ تعالى للمسلمين بالجهاد)

فقد أمر تعالى المسلمين جميعًا بالجهاد – وهذا تمحيصٌ أول – ليعلم تعالى من سيقوم به ممن سيتقاعس، وربما يجْبُن، ويتخاذل، ويلتمس الأعذار والحجج، ويسعى لتأويل نصوصِ الجهاد والقتال، كي يُسقطه عن نفسه، أو ربَّما عن الأمة جميعًا، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿16﴾﴾[1].

التمحيص الثاني: (تمحيصُ المجاهدين فيما بينهم)

وأمَّا التمحيص الثاني في الجهاد، فهو للمؤمنين الذي استجابوا لأمر الله تعالى بالجهاد، أي تمحيصُ المجاهدين فيما بينهم. فهو تمحيصٌ لإيمانهم، وصَبرهم، وجِهادهم، وصِدقهم في طلب الموت والشهادة في سبيل الله، ومدى تفاوتهم في ذلك كله، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿141﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿142﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿143﴾﴾[2].

---

(1) التوبة، الآية: ﴿16﴾.

(2) آل عمران، الآيات: ﴿141 – 143﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره تلك الآيات المذكورة آنفًا بقوله: [ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ: أَحَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تُبْتَلوا بِالْقِتَالِ وَالشَّدَائِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴿214﴾﴾ الْبَقَرَةِ: ﴿214﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الم﴿1﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴿2﴾وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴿3﴾﴾ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿1 – 3﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ: لَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تُبْتَلَوا وَيَرَى اللَّهُ مِنْكُمُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مُقَارَنَةِ الْأَعْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أَيْ: قَدْ كُنْتُمْ –أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ–قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَتَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَتَحَرَّقُونَ عَلَيْهِمْ، وَتَوَدُّونَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابَرَتَهُمْ، فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمُ الَّذِي تَمَنَّيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ، فدونكم فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ.﴾. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يَعْنِي: الْمَوْتَ شَاهَدْتُمُوهُ فِي لَمَعان السُّيُوفِ وَحَدِّ الأسِنّة وَاشْتِبَاكِ الرِّماح، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 111/2.

فالمؤمنون يتفاوتونِ فيما بينهم في درجاتِ إيمانهم، وإخلاصهم، وطاعتهم. فكان لزامًا تمحيصهم ثانيةً، لتمييزِ الخبيثِ من الطيّب، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿179﴾﴾[1].

- **وفي بيان وجوب (الجهاد في سبيل الله):**

فقد حذَّر تعالى المسلمين من تقديم الآباء والأبناء وغيرهم من القرابة، وتقديم المال والتجارة والمساكن وغيرها من متاع الدنيا، وتقديمها وإيثارها على محبة الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، واعتبر فاعله من الفاسقين. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿24﴾﴾[2].

وفي تفسيره أيضًا لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴿214﴾﴾ الْبَقَرَة: ﴿214﴾، قال رحمه الله: [يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلُوا وَتُخْتَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا، كَمَا فُعِلَ بِالَّذِينِ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ وَهِيَ: الْأَمْرَاضُ؛ وَالْأَسْقَامُ، وَالْآلَامُ، وَالْمَصَائِبُ وَالنَّوَائِبُ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، ومُرّة الهَمْداني، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حيّان: ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ الْفَقْرُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ السّقَمُ.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خَوْفًا مِنَ الْأَعْدَاءِ زلْزالا شَدِيدًا، وَامْتُحِنُوا امْتِحَانًا عَظِيمًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ خَبَّاب بْنِ الأرتّ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَقَالَ: ﴿إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مفْرَق رَأْسِهِ فَيَخْلُصُ إِلَى قَدَمَيْهِ، لَا يَصْرِفه ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، ويُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ.﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ. ﴾] اهـ. تفسير ابن كثير، 427/11.

(1) آل عمران، الآية: ﴿179﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَيْ: لَا بُد أَنْ يَعْقِدَ سَبَبًا مِنَ الْمِحْنَةِ، يَظْهَرُ فِيهِ وَلِيُّهُ، وَيَفْتَضِحُ فِيهِ عَدُوُّهُ. يُعرف بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ، وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ. يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ الَّذِي امْتَحَنَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَظَهَرَ بِهِ إِيمَانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ وَجَلَدُهُمْ وَثَبَاتُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَتَكَ بِهِ سِتْرَ الْمُنَافِقِينَ، فَظَهْرَ مُخَالَفَتُهُمْ ونُكُولهم عَنِ الْجِهَادِ وَخِيَانَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: مَيَّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَيَّزَ بَيْنَهُمْ بِالْجِهَادِ وَالْهِجْرَةِ. وَقَالَ السُّدِّي: قَالُوا: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَلْيُخْبِرنا عَمّن يُؤْمَنُ بِهِ مِنَّا وَمَنْ يَكْفُر. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى [يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَيْ: حَتَّى يُخْرِج الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ. رَوَى ذَلِكَ كلَّه ابْنُ جَرِيرٍ: ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غيبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى يُميز لَكُمُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ، لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 152/2.

(2) التوبة، الآية: ﴿24﴾.

مراحل (الجهاد في سبيل الله) في حياة النبي ﷺ

لم يكن الجهاد[1] في سبيل الله مأمورًا به في بداية الإسلام، وإنما كان الأمْرُ بالصبر، وعدم الرد على المشركين، فكان المسلمون يصبرون ويتحملون أذى الكفار من قريش من غيرهم.

فقد أمَرَ تعالى رسوله ﷺ والمسلمين معه، بالدعوة إليه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة واللين، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿125﴾﴾[2]. ذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله:

[هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فِي وَقْتِ الْأَمْرِ بِمُهَادَنَةِ قُرَيْشٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ بِتَلَطُّفٍ وَلِينٍ دُونَ مُخَاشَنَةٍ وَتَعْنِيفٍ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُوعَظَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَهِيَ مُحْكَمَةٌ فِي جِهَةِ الْعُصَاةِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، وَمَنْسُوخَةٌ بِالْقِتَالِ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَنْ أَمْكَنَتْ مَعَهُ هَذِهِ الْأَحْوَالُ مِنَ الْكُفَّارِ وَرُجِيَ إِيمَانُهُ بِهَا دُونَ قِتَالٍ فَهِيَ فِيهِ مُحْكَمَةٌ. والله أعلم.] اهـ[3].

وأمر تعالى رسولهُ ﷺ والمؤمنين بالصبر على أذى المشركين، حتى يقرر تعالى فيهم أمْره، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿108﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿109﴾﴾[4]. ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله:

[يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَاتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ وَحْيَ اللَّهِ الَّذِي يُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَتَنْزِيلَهُ الَّذِي يُنْزِلُهُ عَلَيْكَ، فَاعْمَلْ بِهِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ فِي اللَّهِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ مِنَ الْأَذَى، وَالْمَكَارِهِ، وَعَلَى مَا نَالَكَ مِنْهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِمْ وَفِيكَ أَمْرَهُ بِفِعْلٍ فَاصِلٍ. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يَقُولُ: وَهُوَ خَيْرُ الْقَاضِينَ، وَأَعْدَلُ الْفَاصِلِينَ. فَحَكَمَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَتَلَهُمْ بِالسَّيْفِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ، فِيمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ أَنْ يَسْلُكَ بِهِمْ سَبِيلَ مَنْ أُهْلِكَ مِنْهُمْ أَوْ يَتُوبُوا وَيَنِيبُوا إِلَى طَاعَتِهِ. كَمَا حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي

---

(1) نقصد به: القتال في سبيل الله.

(2) النحل، الآية: ﴿125﴾.

(3) تفسير القرطبي، 200/10.

(4) يونس، الآيتان: ﴿108، 109﴾.

قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام: 107)، ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: 109)، قَالَ: هَذَا مَنْسُوخٌ ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾، حَكَمَ اللَّهُ بِجِهَادِهِمْ، وَأَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ.] اهـ[1].

ولكي يُسلّي تعالى نبيَّه ﷺ، ويُصبِّره، ويثبته، أمام ما يلقاه من تكذيبٍ وإعراضٍ وأذًى من المشركين، فقد أخبره تعالى بأنَّه ليس الوحيد مِنْ بين الرسل، ممَّنْ كذَّبه قومُه، ولم يؤمنوا به. فهذه سنته تعالى في الرسل جميعًا، فعليه ﷺ بالصبر حتى يأتيه نصر الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴿34﴾﴾[2]، وغيرها.

ثم بعد هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، بدأ عهدٌ جديدٌ، ومرحلةٌ جديدةٌ من الدعوة إلى الله، وفي كيفية التعامل مع الكفار.

ومن أجل الوقوف على مراحل الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله وقتال الكفار، منذ مبعثه ﷺ، وحتى استقرارِ الأمْرِ للمسلمين بعد فتحِ مكةَ ونزولِ سورة براءة، نذكر هنا ما لخَّصه ابن القيم في (زاد المعاد) عن مراحلِ جهادهِ ﷺ، حيث قال:

[أَوَّلُ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ نُبُوَّتِهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ إِذْ ذَاكَ بِتَبْلِيغٍ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1)قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (الْمُدَّثِّرِ: 1، 2)، فَنَبَّأَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿اقْرَأْ﴾، وَأَرْسَلَهُ بِـ: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، ثُمَّ أَنْذَرَ قَوْمَهُ، ثُمَّ أَنْذَرَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ أَنْذَرَ الْعَرَبَ قَاطِبَةً، ثُمَّ أَنْذَرَ الْعَالَمِينَ، فَأَقَامَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بَعْدَ نُبُوَّتِهِ يُنْذِرُ بِالدَّعْوَةِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا جِزْيَةٍ، وَيُؤْمَرُ بِالْكَفِّ وَالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ. ثُمَّ أُذِنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ، وَأُذِنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ، وَيَكُفَّ عَمَّنِ اعْتَزَلَهُ وَلَمْ يُقَاتِلْهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، ثُمَّ كَانَ الْكُفَّارُ مَعَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: أَهْلَ صُلْحٍ وَهُدْنَةٍ، وَأَهْلَ حَرْبٍ، وَأَهْلَ ذِمَّةٍ، فَأُمِرَ بِأَنْ يُتِمَّ لِأَهْلِ الْعَهْدِ وَالصُّلْحِ عَهْدَهُمْ، وَأَنْ يُوَفِّيَ لَهُمْ بِهِ مَا اسْتَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ، فَإِنْ خَافَ مِنْهُمْ خِيَانَةً، نَبَذَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، وَلَمْ يُقَاتِلْهُمْ حَتَّى يُعْلِمَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ، وَأُمِرَ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ.

وَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ (بَرَاءَةٌ)، نَزَلَتْ بِبَيَانِ حُكْمِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ كُلِّهَا، فَأَمَرَهُ فِيهَا أَنْ يُقَاتِلَ عَدُوَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَأَمَرَهُ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، فَجَاهَدَ

(1) تفسير الطبري، 305/12.

(2) الأنعام، الآية: ﴿34﴾.

الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَالْمُنَافِقِينَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ. وَأَمَرَهُ فِيهَا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ عُهُودِ الْكُفَّارِ، وَنَبْذِ عُهُودِهِمْ إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَ أَهْلَ الْعَهْدِ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قِسْمًا أَمَرَهُ بِقِتَالِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُ وَلَمْ يَسْتَقِيمُوا لَهُ، فَحَارَبَهُمْ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ. وَقِسْمًا لَهُمْ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ لَمْ يَنْقُضُوهُ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُتِمَّ لَهُمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ. وَقِسْمًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ وَلَمْ يُحَارِبُوهُ، أَوْ كَانَ لَهُمْ عَهْدٌ مُطْلَقٌ، فَأُمِرَ أَنْ يُؤَجِّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَإِذَا انْسَلَخَتْ، قَاتَلَهُمْ، وَهِيَ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (التَّوْبَةِ: 2)، وَهِيَ الْحُرُمُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (التَّوْبَةِ: 5)، فَالْحُرُمُ هَاهُنَا: هِيَ أَشْهُرُ التَّسْيِيرِ، أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَذَانِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّأْذِينُ بِذَلِكَ، وَآخِرُهَا الْعَاشِرُ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ، وَلَيْسَتْ هِيَ الْأَرْبَعَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التَّوْبَةِ: 36)، فَإِنَّ تِلْكَ وَاحِدٌ فَرْدٌ، وَثَلَاثَةٌ سَرْدٌ: رَجَبٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ. وَلَمْ يُسَيِّرِ الْمُشْرِكِونَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ لِأَنَّهَا غَيْرُ مُتَوَالِيَةٍ، وَهُوَ إِنَّمَا أَجَّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْدَ انْسِلَاخِهَا أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فَقَتَلَ النَّاقِضَ لِعَهْدِهِ، وَأَجَّلَ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ، أَوْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُتِمَّ لِلْمُوفِي بِعَهْدِهِ عَهْدَهُ إِلَى مُدَّتِهِ، فَأَسْلَمَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى كُفْرِهِمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ الْجِزْيَةَ.

فَاسْتَقَرَّ أَمْرُ الْكُفَّارِ مَعَهُ بَعْدَ نُزُولِ (بَرَاءَةٌ) عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُحَارِبِينَ لَهُ، وَأَهْلِ عَهْدٍ، وَأَهْلِ ذِمَّةٍ، ثُمَّ آلَتْ حَالُ أَهْلِ الْعَهْدِ وَالصُّلْحِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَصَارُوا مَعَهُ قِسْمَيْنِ: مُحَارِبِينَ، وَأَهْلَ ذِمَّةٍ، وَالْمُحَارِبُونَ لَهُ خَائِفُونَ مِنْهُ، فَصَارَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ بِهِ، وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ، وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ.] اهـ[1].

وهكذا نرى من تلخيص ابن القيِّم المذكور آنفًا، أنَّ أَمْرَ الكفارِ مع الإسلام قد استقرَّ على حالين لا ثالث لهما: مُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ، وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ.

مُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ

فأمَّا: (مُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ)، فيشمل أهل الذمَّة، ممن يعطي الجزية عن يد وهم صاغرون، وهم (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى. ويشمل أيضًا: (المجوس)، حيث وردت نصوصٌ تُصرّح بأخذِ الجزية منهم. فقد أخرج البخاري في صحيحه، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: ﴿سَمِعْتُ عَمْرًا، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، وَعَمْرِو بْنِ أَوْسٍ فَحَدَّثَهُمَا بَجَالَةُ – سَنَةَ سَبْعِينَ، عَامَ حَجَّ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ

(1) زاد المعاد لابن القيم، (فَصْلٌ فِي تَرْتِيبِ سِيَاقِ هَدْيِهِ مَعَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ حِينِ بُعِثَ إِلَى حِينِ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)، 145/3.

عِنْدَ دَرَجِ زَمْزَمَ – قَالَ: كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمِّ الأَحْنَفِ، فَأَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ، فَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ مِنَ المجُوسِ، وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَخَذَ الجِزْيَةَ مِنَ المجُوسِ، حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ.﴾[1].

وفي رواية للشافعي في مُسنده، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ذَكَرَ الْمَجُوسَ فَقَالَ: ﴿مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ.﴾[2].

ويشمل هذا الحال أيضًا، غيرهم من الكفار، كالبوذيين، والهندوس، والسيخ، والوثنيين، والملحدين، وغيرهم، على اختلافٍ بين أهل العلم على قبول الجزية من غير أهل الكتاب الذين ذكرناهم آنفًا، والصحيح أنّها تُقبل منهم إنْ بذلوها[3].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في (أبواب الجزية والموادعة، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، برقم 2987.

(2) من كتاب مسند الشافعي ترتيب السندي، مِنْ كِتَابِ الْجِزْيَةِ، 2/130، حديث برقم 430، سنة النشر: 1370هـ- 1951م، دار الكتب العلمية. والبيهقي في السنن الصغير، في كتاب الجزية، باب الجزية، 4/4، حديث برقم 2932. وذكره ابن القيم في أحكام أهل الذمة، 4/1. ورواه غيرهم من أصحاب السنن. وللترمذي: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ بَجَالَةَ، أَنَّ عُمَرَ كَانَ لَا يَأْخُذُ الجِزْيَةَ مِنَ المجُوسِ، حَتَّى أَخْبَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ الجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ. وَفِي الحَدِيثِ كَلَامٌ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا، هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، جامع الترمذي، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1587.

(3) ذكرنا ذلك سابقًا، ونعيده هنا للفائدة:

قال ابن القيّم في (أحكام أهل الذمة)، أثناء ترجيحه للقول بأنَّ الجزية تؤخذ من عموم المشركين ما نصه:

[وقد أخذها – يعني الجزية – رسول الله ﷺ – مِنَ الْمَجُوسِ وَهُمْ عُبَّادُ النَّارِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَا يَصِحُّ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ، وَلَوْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ عِنْدَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ الْعِظَامَ وَلَمْ يَذْكُرْ لِلْمَجُوسِ –مَعَ أَنَّهَا أُمَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمَمِ شَوْكَةً وَعَدَدًا وَبَأْسًا– كِتَابًا وَلَا نَبِيًّا، وَلَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ، بَلِ الْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِذَا أُخِذَتْ مِنْ عُبَّادِ النِّيرَانِ فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ؟] اهـ. أحكام أهل الذمة، ابن القيم، 11/1.

وقال في زاد المعاد:

[وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَلَمْ يَكُونُوا عَلَى كِتَابٍ أَصْلًا، وَلَا دَانُوا بِدِينِ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا فِي عَقَائِدِهِمْ وَلَا فِي شَرَائِعِهِمْ، وَالْأَثَرُ الَّذِي فِيهِ أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ فَرُفِعَ وَرُفِعَتْ شَرِيعَتُهُمْ لَمَّا وَقَعَ مَلِكُهُمْ عَلَى ابْنَتِهِ لَا يَصِحُّ الْبَتَّةَ، وَلَوْ صَحَّ لَمْ يَكُونُوا بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّ كِتَابَهُمْ رُفِعَ وَشَرِيعَتُهُمْ بَطَلَتْ فَلَمْ يَبْقَوْا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لَهُ صُحُفٌ وَشَرِيعَةٌ، وَلَيْسَ تَغْيِيرُ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ لِدِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَرِيعَتِهِ بِأَعْظَمَ مِنْ تَغْيِيرِ الْمَجُوسِ لِدِينِ نَبِيِّهِمْ وَكِتَابِهِمْ لَوْ صَحَّ، فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ عَنْهُمُ التَّمَسُّكُ بِشَيْءٍ مِنْ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ وَالسَّلَامُ، بِخِلَافِ الْعَرَبِ، فَكَيْفَ يُجْعَلُ الْمَجُوسَ الَّذِينَ دِينُهُمْ أَقْبَحُ الْأَدْيَانِ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ.] اهـ. زاد المعاد، ابن القيم، 84/5.

خَائِفٌ مُحَارِبٌ

وأمَّا (خَائِفٌ مُحَارِبٌ)، فيشمل كل من لم يقبل دعوة الإسلام، ورفض إعطاء الجزية، بعد دعوته، وبيان الحق له، وإقامة الحجة عليه. ويشمل ذلك أيضًا، من حارب الإسلام والمسلمين، واضطهدهم، وحالَ بينهم وبين دعوتهم، وبيانِ الحق لهم.

فهؤلاءِ، يُقاتلون بإجماعِ أهلِ العلم[1]، وهذا هو (جهاد الطلب) في حقهم، حتى يقبلوا بالإسلام، أو الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

شبهة الجهاد الدفاعي والرد عليه

يتبين لنا مما سبق أنَّ الجهاد بنوعيه (الدفع والطلب) ثابتٌ في الكتاب، والسنة، وإجماع أهل العلم. ولا شك أَنَّ ردَّ وصدَّ العدوان عن بلاد المسلين، أعني (جهاد الدفع)، لا يختلف عليه أحد، وهو منصوصٌ عليه حتى في الشرائع الوضعية. وكذلك الحال في (جهاد الطلب) عند جمهور أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين.

ولكننا بدأنا نسمع في الآونة الأخيرة، عن الاختلاف واللبْس مع (جهاد الطلب) عند بعض المتأخرين. فقد انبرى مَن يَرُدُّ ويدحضَ، ويُنكر أنَّ ذلك القسم من الجهاد مشروع. ويتعللُ هؤلاءِ المنكرون، بتفسيراتٍ خاطئةٍ، وتأويلاتٍ لآياتِ القتال في القرآن الكريم، ولأحداث السيرة النبوية، وغزوات النبي ﷺ. ومما زادَ في ذلك اللبسِ والفهم الخاطئ لموضوع (جهاد الطلب)، اعتمادُ هؤلاء المتأخرين واستشهادهم بأقوالِ بعضِ أهلِ العِلم. ومن تلك الأدلة وبصورة رئيسية، رسالة بعنوان: (قاعدة في قتال الكفار) لشيخ الإسلام ابن تيمية، على الرغم من كثرة الجدال حول صحة نسبتها له رحمه الله، فهي بين قبول ورد بين المحققين[2].

---

(1) بالطبع، تُراعى في ذلك، المصلحةُ، وحال المسلمين، واستطاعتهم.

(2) لقد ردَّ تلك الرسالة (قاعدة في قتال الكفار)، والمنسوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموعة من الباحثين، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

1. سليمان بن عبد الرحمن بن حمدان: (دلالة النصوص والإجماع على فرض القتال للكفر والدفاع)، المدرس بالمسجد الحرام، الناشر: دار الطباعة والنشر، عمان، الأردن،
2. الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – المفتي العام السابق للملكة العربية السعودية.
3. حسن وهدان، (أحكام الجهاد عند ابن تيمية وتطبيقاته المعاصرة)، ص (163) وما بعدها. أحكام الجهاد عند ابن تيمية وتطبيقاته المعاصرة، المؤلف: وهدان حسن عبد الرحمن حسين، أسماء ذات صلة: قراءة وتقديم أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: الدار الأثرية للنشر والتوزيع، الأردن، تاريخ النشر: 2007.
4. سليمان بن صالح الخراشي، (أقوال أهل العلم في الرسالة المنسوبة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية في الجهاد).

المؤلف: بحثت أنا أيضًا عن هذه الرسالة (قاعدة في قتال الكفار) في جميع كتب شيخ الإسلام، ومنها الفتاوى –على وجه الخصوص– فلم أجدها.

وعلى فرضِ صحةِ نسبتها إلى شيخ الإسلام، فإِنَّ مَنْ حققها من أهل العلم وعلّق عليها، أثبت بُطلان من يقول أنَّ شيخ الإسلام يردُّ (جهاد الطلب)، ولا يرى قتالِ الكفار حتى يُسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. بل على العكس من ذلك، فقد ذكر شيخ الإسلام في كتبه: (كالفتاوى) و (الصارم المسلول)، وجوب دعوة الكفار إلى الإسلام، ووجوب قتالهم إن امتنعوا عن دفع الجزية.

السنة النبوية

أما الأدلة من السُّنة، على (الجهاد في سبيل الله)، وكلّ ما يتعلق به، فقد وردت أحاديثٌ كثيرة في تعريفِ المجاهدِ، والجهاد، وفضائله، وكل ما يخصه، كما سنوجزه في الفقرات التالية.

تعريف الجهاد والمجاهد في السُّنة النبوية

فعن تعريفِ الجهادِ والمجاهد في السُّنة، عن فَضَالة بن عبيد، قال رسول الله ﷺ: ﴿المجاهدُ مَن جاهدَ نفسَهُ.﴾[1].

جزاءُ الجهادِ والمجاهدين

وعن جزاء المجاهد في سبيل الله، عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: ﴿تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَن جاهَدَ في سَبيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ مِن بَيْتِهِ إلَّا جِهادٌ في سَبيلِهِ، وتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، بأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أوْ يرْجِعَهُ إلى مَسْكَنِهِ الذي خَرَجَ منه، مع ما نالَ مِن أجْرٍ، أوْ غَنِيمَةٍ.﴾[2].

الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة

وأخبر ﷺ أنَّ الجهادَ لا يتوقف ولا يتعطل، فهو ماضٍ إلى يوم القيامة. فعن سَلَمَة بن نُفيل السكوني، قال: كنتُ جالسًا عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ: أذالَ النَّاسُ الخيلَ ووضعوا السِّلاحَ، وقالوا: لا جِهادَ قد وَضعتِ الحربُ أوزارَها فأقبلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بوجهِهِ قال: ﴿كذبوا الآنَ، الآنَ جاءَ القتالُ، ولا يزالُ من أمَّتي أمةٌ يقاتِلونَ على الحقِّ، ويزيغُ اللَّهُ لَهم قُلوبَ أقوامٍ، ويرزقُهم منْهم حتَّى تقومَ السَّاعةُ وحتَّى يأتِيَ

(1) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، برقم 1621، وقال الترمذي: في الباب عن عقبة بن عامر، وجابر، وحديث فَضَالَةَ حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. سيأتي تمام الحديث لاحقًا.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الخمس، باب: قول النبي ﷺ: أُحِلَّت لكم الغنائم، برقم 2955، وفي كتاب الإيمان، باب: الجهاد من الإيمان برقم 36). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، برقم 1876).

وعدُ اللَّهِ، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامَةِ، وَهوَ يوحي إليَّ أنِّي مقبوضٌ غيرُ ملبَّثٍ، وأنتم تتَّبعوني أفنادًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، وعقرُ دارِ المؤمنينَ الشَّامُ.﴾[1].

المؤمنُ ضامنٌ على الله ما كان في الجهاد، ويتمنى المجاهدُ أنْ يُقتل عدة مرات

وأخبر ﷺ أنَّ المؤمن ضامِن على الله ما كان في الجهاد، عن عبد الله بن عمرو، قال رسول الله ﷺ: ﴿سِتُّ مجالِسَ، المؤمِنُ ضامنٌ على اللهِ تعالى ما كانَ في شَيءٍ منها: في مَسجدِ جَماعةٍ، وعندَ مَريضٍ، أو في جِنازةٍ، أو في بيتِه، أو عِند إمامٍ مُقسِطٍ يُعزِّرُه ويوقِّرُه، أو في مَشهدِ جِهادٍ.﴾[2].

وأخبر ﷺ أنَّ الله ضمن للمجاهد إمَّا الجنة وإمَّا أنْ يعود إلى بيته بأجرٍ وغنيمة. وأخبر ﷺ عن أجر ومنزلةِ المجاهد، وأنه يتمنى أنْ لا يتوقف عن الجهاد، وأنْ يجاهدَ فيُقتل، ثم يجاهدَ فيُقتل، وهكذا لما يجد من الأجر بعد الشهادة. عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: ﴿أعدَّ اللَّهُ لمن خرجَ في سبيلِهِ لا يخرجُهُ إلَّا جِهادٌ في سبيلي وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي فَهوَ عليَّ ضامنٌ أن أُدخِلَهُ الجنَّةَ أو أرجعَهُ إلى مسْكنِهِ الَّذي خرجَ منْهُ نائلًا ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ، ثمَّ قالَ: والَّذي نفسي بيدِهِ لولا أن أشقَّ على المسلمينَ ما قعدتُ خلافَ سريَّةٍ تخرجُ في سبيلِ اللَّهِ أبدًا ولَكن لا أجدُ سعةً فأحملَهم ولا يجدونَ سعةً فيتَّبعوني ولا تطيبُ أنفسُهم فيتخلَّفونَ بعدي، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لودِدتُ أن أغزوَ في سبيلِ اللَّهِ فأُقتَلَ ثمَّ أغزوَ فأقتَلَ ثمَّ أغزوَ فأقتَلَ.﴾[3].

الجهاد من أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله

وأخبر ﷺ أنَّ الجهادَ مِن أفضلِ الأعمال بعد الإيمان بالله، عن أبي ذر الغفاري، سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ أيُّ العَمَلِ أفْضَلُ؟ قالَ: ﴿إيمَانٌ باللَّهِ، وجِهَادٌ في سَبيلِهِ﴾، قُلتُ: فأيُّ الرِّقَابِ أفْضَلُ؟ قالَ: ﴿أعْلَاهَا ثَمَنًا،

(1) صححه الألباني في صحيح النسائي، برقم 3563، وفي السلسلة الصحيحة، برقم 1935.

(2) أخرجه الألباني في صحيح الترغيب، برقم 328، وقال: حسن لغيره.

(3) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم: 2242.

وأَنْفَسُهَا عِنْدَ أهْلِهَا﴾، قُلتُ: فإِنْ لَمْ أفْعَلْ؟ قالَ: ﴿تُعِينُ ضَايِعًا، أوْ تَصْنَعُ لأخْرَقَ﴾، قالَ: فإنْ لَمْ أفْعَلْ؟ قالَ: ﴿تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ، فإنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا علَى نَفْسِكَ.﴾[1].

وفي رواية، عن عبد الله بن مسعود، قال: سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العَمَلِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قالَ: ﴿الصَّلاةُ علَى وقْتِها﴾، قالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ﴿ثُمَّ برُّ الوالِدَيْنِ﴾، قالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ﴿الجِهادُ في سَبيلِ اللَّهِ﴾، قالَ: حدَّثَني بهِنَّ، ولَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزادَنِي[2].

المجاهد كالصائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر

وعن منزلة الجهاد وأجره، عن أبي هريرة، جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: دُلَّنِي علَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ: ﴿لا أجِدُهُ، قَالَ: هلْ تَسْتَطِيعُ إذَا خَرَجَ المجَاهِدُ أنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ ولَا تَفْتُرَ، وتَصُومَ ولَا تُفْطِرَ؟﴾، قَالَ: ومَن يَسْتَطِيعُ ذلكَ؟ قَالَ أبو هُرَيْرَةَ: إنَّ فَرَسَ المجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ في طِوَلِهِ، فيُكْتَبُ له حَسَنَاتٍ[3].

الجهاد وحده يرفع المؤمن في الجنة مائة درجة

وفي رواية، عن أبي سعيد الخدري، قال رسول الله ﷺ: ﴿يا أبا سَعِيدٍ: مَن رَضِيَ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وجَبَتْ له الجَنَّةُ)، فَعَجِبَ لها أبو سَعِيدٍ، فقالَ: أعِدْها عَلَيَّ يا رَسولَ اللهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قالَ:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب العتق، باب: أي الرقاب أفضل، برقم 2382، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور برقم 1447، وكتاب الإيمان، باب: من قال إن الإيمان هو العمل برقم 26). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، برقم 83.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، برقم 504). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، برقم 85).

وفي رواية، عن عبد الله بن مسعود أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ ﷺ أيُّ الأعْمَالِ أفْضَلُ؟ قالَ: ﴿الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا، وبِرُّ الوَالِدَيْنِ، ثُمَّ الجِهَادُ في سَبيلِ اللَّهِ.﴾. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب: وسمى النبي ﷺ الصلاة عملًا، وقال: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)، برقم 7096.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، برقم 2633.

وفي رواية، عن أبي هريرة، قِيلَ للنبيِّ ﷺ: ما يَعْدِلُ الجِهَادَ في سَبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قالَ: ﴿لا تَسْتَطِيعُونَهُ﴾، قالَ: فأعَادُوا عليه مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذلكَ يقولُ: ﴿لا تَسْتَطِيعُونَهُ﴾، وَقالَ في الثَّالِثَةِ: ﴿مَثَلُ المجَاهِدِ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بآيَاتِ اللهِ، لا يَفْتُرُ مِن صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حتَّى يَرْجِعَ المجَاهِدُ في سَبيلِ اللهِ تَعَالَى.﴾. أخرجه مسلم في صحيحه في (كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم 1878).

وفي رواية، عن أبي هريرة، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: ﴿مَثَلُ المجَاهِدِ في سَبيلِ اللَّهِ، واللَّهُ أعْلَمُ بمَن يُجَاهِدُ في سَبيلِهِ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ، وتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ في سَبيلِهِ، بأَنْ يَتَوَفَّاهُ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مع أجْرٍ أوْ غَنِيمَةٍ.﴾. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، برقم 2635.

﴿وأُخْرَى يُرْفَعُ بها العَبْدُ مِئَةَ دَرَجَةٍ في الجَنَّةِ، ما بيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ﴾، قالَ: وما هي يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: ﴿الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ.﴾[1].

أجر المجاهد المرابط في سبيل مستمرٌّ إلى يوم القيامة

وأنَّ كلَّ ميّتٍ يُختم عملُه الا المجاهد المرابط في سبيل الله. فعن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كلُّ ميّتٍ يُختَمُ على عملِهِ إلَّا الَّذي ماتَ مرابطًا في سبيلِ اللهِ فإنَّهُ ينمي لَهُ عملُهُ إلى يومِ القيامةِ ويأمَنُ فتنةِ القبرِ.﴾ وسمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ﴿المجاهدُ من جاهدَ نفسَهُ.﴾[2].

الجهادُ ذروة سنام الإسلام

وأنَّ الجهادَ في سبيل الله ذروة سنام الإسلام. فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ، وذروةُ سنامِهِ الجهادُ في سبيلِ اللهِ.﴾[3].

وفي رواية أخرى، عن معاذ بن جبل، من حديث طويل، ثم قال: قال: يا رسولَ اللهِ، ائْذَنْ لي أسأَلُكَ عن كَلِمةٍ قد أمرَضَتْني وأسقَمَتْني وأحزَنَتْني، فقال نَبيُّ اللهِ ﷺ: ﴿سَلْني عَمَّ شِئتَ﴾، قال: يا نَبيَّ اللهِ، حَدِّثْني بعملٍ يُدخِلُني الجنَّةَ، لا أسأَلُكَ عن شيءٍ غيرَها، قال نَبيُّ اللهِ ﷺ: ﴿بَخٍ بَخٍ بَخٍ، لقد سَأَلتَ بعَظيمٍ، لقد

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات، برقم 1884.

وفي رواية أخرى: عن أبي سعيد الخدري، قال رسول الله ﷺ: ﴿يا أبا سعيدٍ، من رضيَ باللَّهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا، وجبت لَهُ الجنَّةُ) قالَ: فعجبَ لَها أبو سعيدٍ، قالَ: أعدْها عليَّ يا رسولَ اللهِ، ففعلَ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿وأخرى يرفعُ بِها العبدُ مائةَ درجةٍ في الجنَّةِ، ما بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ﴾، قالَ: وما هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ﴿الجِهادُ في سبيلِ اللهِ، الجِهادُ في سبيلِ اللَّه.﴾. صححه الألباني في صحيح النسائي، برقم 3131.

(2) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، برقم 1621، وقال الترمذي: في الباب عن عقبة بن عامر، وجابر، وحديث فَضَالةَ حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

(3) أخرجه الألباني في صحيح سنن الترمذي، في أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة برقم 2616، وقال الألباني: صحيح: (ابن ماجه) (3973). قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ. والحديث بتمامه:

حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ الصَّنْعَانِيُّ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: ﴿لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ﴾، قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾ (السجدة: 16)، حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: 17). ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟﴾ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ﴿رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟﴾ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: ﴿كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا﴾، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ﴿ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ﴾.

سَأَلتَ بعَظيمٍ﴾، ثلاثًا، ﴿وإنَّه ليَسيرٌ على مَن أرادَ اللهُ به الخيرَ، وإنَّه لَيَسيرٌ على مَن أرادَ اللهُ به الخيرَ، وإنَّه لَيَسيرٌ على مَن أرادَ اللهُ به الخيرَ﴾، فلمْ يُحدِّثْه بشيءٍ إلَّا قاله له ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ يَعني أعادَه عليه ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ حِرصًا لكَيما يُتقِنَه عنه، فقال نَبيُّ اللهِ ﷺ: ﴿تُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتَعبُدُ اللهَ وَحدَه لا تُشرِكُ به شيئًا، حتى تَموتَ وأنت على ذلك.﴾، فقال: يا نَبيَّ اللهِ، أعِدْ لي، فأعادَها له ثلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قال نَبيُّ اللهِ ﷺ: ﴿إنْ شِئتَ حَدَّثْتُكَ يا مُعاذُ برَأسِ هذا الأمْرِ، وقِوامِ هذا الأمْرِ، وذِرْوةِ السَّنامِ.﴾، فقال مُعاذٌ: بَلى، بأبي وأُمِّي أنت يا نَبيَّ اللهِ، فحَدِّثْني، فقال نَبيُّ اللهِ ﷺ: ﴿إنَّ رَأسَ هذا الأمْرِ: أنْ تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له، وأنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه، وإنَّ قِوامَ هذا الأمْرِ إقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وإنَّ ذِرْوةَ السَّنامِ منه الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، إنَّما أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، ويَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له، وأنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه، فإذا فَعَلوا ذلك فقد اعتصَموا وعَصَموا دِماءَهم وأمْوالَهم إلَّا بحَقِّها، وحِسابُهم على اللهِ.﴾، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، ما شَحَبَ وَجهٌ، ولا اغبَرَّتْ قَدَمٌ في عملٍ تُبتَغى فيه دَرجاتُ الجنَّةِ بعدَ الصَّلاةِ المفروضةِ كجِهادٍ في سَبيلِ اللهِ، ولا ثَقُلَ ميزانُ عبدٍ كدابَّةٍ تَنفُقُ له في سَبيلِ اللهِ، أو يُحمَلُ عليها في سَبيلِ اللهِ.﴾[1].

مكر الشيطان وحيله لتثبيط المسلم عن الجهاد

وأخبر ﷺ أنَّ الشيطان يحاول أنْ يُثَبِّطَ المسلمَ عن الجهاد. فعن سبرة بن الفاكه المخزومي الأسدي، قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ الشَّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِهِ، فقعدَ لَهُ بطريقِ الإسلامِ، فقالَ: تُسلمُ وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائِكَ وآباءِ أبيكَ، فعَصاهُ فأسلمَ، ثمَّ قعدَ لَهُ بطريقِ الهجرةِ، فقالَ: تُهاجرُ وتدَعُ أرضَكَ وسماءَكَ، وإنَّما مثلُ المهاجرِ كمَثلِ الفرسِ في الطِّوَلِ، فعَصاهُ فَهاجرَ، ثمَّ قعدَ لَهُ بطريقِ الجِهادِ، فقالَ: تُجاهدُ فَهوَ جَهْدُ النَّفسِ والمالِ، فتُقاتلُ فتُقتَلُ، فتُنكَحُ المرأةُ، ويُقسَمُ المالُ، فعصاهُ فجاهدَ، فقالَ رسولُ اللَّهِ: فمَن فعلَ ذلِكَ كانَ حقًّا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، ومن قُتِلَ كانَ حقًّا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، وإن غرِقَ كانَ حقًّا على اللَّهِ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، أو وقصتهُ دابَّتُهُ كانَ حقًّا على اللَّهِ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ.﴾[2].

---

(1) أخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند، برقم 22122، وقال: صحيح بطرقه وشواهده دون قوله: ﴿ما شحب وجه ... إلخ﴾ فإنه حسن لغيره.

(2) صححه الألباني في صحيح النسائي برقم: 3134.

طلب الدنيا، والرياء، وعدم الإخلاص يُحبط أجرَ الجهاد

وحذر ﷺ من الجهاد من أجل الغنيمة والرياء وعدم الإخلاص، وغيرها من عروض الدنيا. وأخبر أنَّ ذلك يُحبط أجر الجهاد، لأنَّ ذلك يُعَدُّ شركًا. فعن أبي هريرة أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ: رجلٌ يُريدُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وهو يبتغي مِن عرَضِ الدُّنيا؟ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا أجرَ له»، فأعظَم ذلك النَّاسُ، وقالوا للرَّجلِ: عُدْ لرسولِ اللهِ فلعلَّكَ لم تفهَمْه قال: فقال الرَّجلُ: يا رسولَ اللهِ: رجلٌ يُريدُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وهو يبتغي مِن عرَضِ الدُّنيا؟ قال: «لا أجرَ له»، فأعظَم ذلك النَّاسُ وقالوا للرَّجلِ: عُدْ لرسولِ اللهِ فقال له الثَّالثةَ: رجلٌ يُريدُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وهو يبتغي مِن عرَضِ الدُّنيا ؟ قال: «لا أجرَ له.»[1].

أجر الإنفاق في الجهاد

وعن الإنفاقِ في الجهاد، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِن شيءٍ مِنَ الأشْياءِ في سَبيلِ اللَّهِ، دُعِيَ مِن أبْوابِ -يَعْنِي الجَنَّةَ- يا عَبْدَ اللَّهِ هذا خَيْرٌ، فمَن كانَ مِن أهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِن بابِ الصَّلاةِ، ومَن كانَ مِن أهْلِ الجِهادِ دُعِيَ مِن بابِ الجِهادِ، ومَن كانَ مِن أهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِن بابِ الصَّدَقَةِ، ومَن كانَ مِن أهْلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِن بابِ الصِّيامِ، وبابِ الرَّيّانِ.»، فقالَ أبو بَكْرٍ: ما علَى هذا الذي يُدْعَى مِن تِلكَ الأبْوابِ مِن ضَرُورَةٍ، وقالَ: هلْ يُدْعَى مِنْها كُلِّها أحَدٌ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «نَعَمْ، وأَرْجُو أنْ تَكُونَ منهمْ يا أبا بَكْرٍ.»[2].

القتل في سبيل الله يُكَفِّر كلَّ شيء إلا الدَّيْن

وأنّ القتلَ في سبيل الله يُكَفِّر كل شيء إلّا الدَّيْن. عن أبي قتادة أنَّ رسول الله ﷺ، أنَّهُ قَامَ فيهم فَذَكَرَ لهمْ أنَّ الجِهَادَ في سَبيلِ اللهِ، وَالإِيمَانَ باللَّهِ أَفْضَلُ الأعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقالَ له رَسولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، إنْ قُتِلْتَ في سَبيلِ اللهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ.»، ثُمَّ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «كيفَ قُلْتَ؟» قالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللهِ

---

(1) أخرجه الألباني في التعليقات الحسان برقم 4618، وقال: حسن صحيح - (صحيح أبي داود) (2272).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الصوم، باب: الريان للصائمين، برقم 1798، وكتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، برقم 3466).
ومسلم في صحيحه في (كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، برقم 1027).

أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ﴿نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إلَّا الدَّيْنَ، فإنَّ جِبْرِيلَ عليه السَّلَامُ قالَ لي ذلكَ.﴾. وفي روايةٍ: جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللهِ؟ بمَعْنَى حَديثِ اللَّيْثِ[1].

عقوبة ترك الجهاد

وأخبر ﷺ عن عقوبةِ تركِ الجهاد، عن عبد الله بن عمر، قال رسول الله ﷺ: ﴿إذا تبايعتم بالعِينةِ، وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتم بالزرعِ، وتركتم الجهادَ، سلَّط اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزعُه شيءٌ حتى تَرجعوا إلى دينِكم.﴾[2].

المجاهد حق على الله عونه

وأخبر ﷺ أنَّ حقَّ المجاهد على الله عونه، فعن أبي هريرة، قال رسول ﷺ: ﴿ثلاثةٌ حقٌّ على اللهِ عونُهم: المجاهدُ في سبيلِ اللهِ، والْمُكَاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يُرِيدُ العفافَ.﴾[3].

الشهيد يتمنى أنْ يعود للدنيا مرة ثانية وثالثة وهكذا، ليُقاتل في سبيل الله فيُقتل

وعن أجر الشهيد، فقد أخبر رسول ﷺ بعِظَمِ أجره، وأنّه لا يُدانيه أجرٌ، فهو الميت الوحيد الذي يتمنى أنْ يعود للدنيا عدة مرات، كي يُقاتلَ في سبيلِ الله ثم يُقتل، لِما يرى من أجرِ الشهادة العظيم، الذي لا يمكن أنْ يتصوره أحد. عن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: ﴿ما أحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيا وله ما علَى الأرْضِ مِن شيءٍ إلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيا، فيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِما يَرَى مِنَ الكَرامَةِ.﴾[4].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، برقم 1885.

(2) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 424، وفي السلسلة الصحيحة، برقم 11، وفي صحيح أبي داود، برقم 3462.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، واللفظ له، برقم 1655، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. والنسائي في سننه، برقم 3218، وابن ماجه في سننه، برقم 2518. وأحمد في مسنده، برقم 7416، وقال محقق المسند: إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن عجلان، فقد روى له البخاري تعليقًا، ومسلم في الشواهد وأصحاب السنن، وهو صدوق.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب: تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، برقم 2662، وكتاب الجهاد والسير، باب: الحور العين وصفتهن يُحار فيها الطرف، شديدة سواد العين، شديدة بياض العين، برقم 2642.

وفي رواية لمسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: ﴿ما مِن نَفْسٍ تَمُوتُ، لها عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّها أنَّها تَرْجِعُ إلى الدُّنْيا، ولا أنَّ لها الدُّنْيا وما فيها، إلَّا الشَّهِيدُ، فإنَّه يَتَمَنَّى أنْ يَرْجِعَ، فيُقْتَلَ في الدُّنْيا لِما يَرَى مِن فَضْلِ الشَّهادَةِ.﴾[1].

يكلم اللهُ الشهيد بدون حجاب

ومن كرامة الشهيد عند الله أنه تعالى يكلِّمه مباشرةً بدون حجاب في الآخرة، كما أخبر ﷺ لما حدثِ للصحابي عبد الله بن عمرو بن حرام، فعن جابر بن عبد الله، قال: لما قُتِلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ حرامٍ يومَ أُحُدٍ، لقيَني رَسولُ اللَّهِ، فقالَ: ﴿يا جابرُ! ألا أخبرُكَ ما قالَ اللَّهُ لأبيكَ؟﴾، وقالَ يَحيى في حديثِهِ فقالَ: ﴿يا جابرُ! ما لي أراكَ مُنكَسرًا؟﴾، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! استُشْهِدَ أبي وترَكَ عيالًا ودَينًا. قالَ: ﴿أفلا أبشِّرُكَ بما لقيَ اللَّهُ بِهِ أباكَ؟﴾، قالَ: بلَى: يا رسولَ اللَّهِ! قالَ: ﴿ما كلَّمَ اللَّهُ أحدًا قطُّ إلَّا من وراءِ حجابٍ، وَكَلَّمَ أباكَ كِفاحًا، فقالَ: يا عَبدي! تَمنَّ عليَّ أُعْطِكَ، قالَ: يا ربِّ! تُحيِيني فأُقتَلُ فيكَ ثانيةً. فقالَ الرَّبُّ سبحانَهُ: إنَّهُ سبقَ منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعونَ. قالَ: يا ربِّ! فأبلِغْ مَن ورائي، قالَ: فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

شوقُ النساءِ للجهاد

لعِظَم أجرِ الجهاد، فقد تشوَّق للجهاد في سبيل الله حتى النساء من الصحابيات، ومنهنَّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأخبرها ﷺ، أنْ لا جِهاد عليهنَّ. فالأصلُ، ليس على النِّساء جهاد، وأنَّ جهادُهنَّ الحج، فعَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طلحة، عن عَائِشَةَ أُمِّ المؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الجِهَادِ، فَقَالَ: ﴿جِهَادُكُنَّ الحَجُّ.﴾[3].

وفي رواية، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طلحة، عن عَائِشَةَ أم المؤمنين، عن النبي ﷺ: سألهُ نِساؤُهُ عَنِ الجهادِ، فقالَ: ﴿نِعْمَ الجهادُ الحجُّ﴾[4].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم 1877.

(2) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه، برقم 158، وفي صحيح سنن الترمذي برقم 3010، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في كتاب الجهاد والسير، باب: جهاد النساء، برقم 2720.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب: جهاد النساء، برقم 2721.

وفي رواية، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طلحة، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى الجِهَادَ أَفْضَلَ العَمَلِ، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: ﴿لا، لَكِنَّ أَفْضَلَ الجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ.﴾[1].

ألمُ الموتِ وسكراتهِ يحسُّ بها الشهيد كأنها مجردِ قَرصة

وأخبر ﷺ عن سهولة ألمِ الموتِ وسَكَراته التي يجدها الشهيد ويحسُّ بها عند الموت، وأنها كالقرصة لا غير! فعن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: ﴿ما يجدُ الشهيدُ من مَسِّ القتلِ إلَّا كما يجدُ أحدُكم مِن مَسِّ القَرْصَةِ.﴾[2].

أجرُ الشهادة يُنال بالصِّدق في طلبها من الله

ومِن رحمةِ الله تعالى وكرَمِه، أنَّ المؤمن يستطيع أنْ ينالَ أجر الشهادة إذا سألها اللهَ بصدقٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيَهَا، وَلَوَ لَمْ تُصِبْهُ﴾[3].

وفي رواية أخرى: عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ؛ عَنْ جده؛ أنَّ النبي ﷺ قال: ﴿من سأل الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ﴾، وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو الطَّاهِرِ فِي حَدِيثِهِ ﴿بِصِدْقٍ﴾[4].

وفي رواية أخرى: عن معاذ بن جبل، قال رسول الله ﷺ: ﴿من سألَ اللهَ القتلَ في سبيلِهِ صادقًا منْ قلبِهِ، أعطاهُ اللهُ أجرَ الشهيدِ.﴾[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحج، باب: فضل الحج المبرور، برقم 1448.

(2) أخرجه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 5813 وحسَّنَهُ. والترمذي في سننه برقم 1668، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم 1908.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم 1909.

(5) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 1654.

وفي رواية: عن سهل بن حنيف: ﴿مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ.﴾، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 6276.

وفي رواية: عن معاذ بن جبل وأنس بن مالك: ﴿من سأل الله القتل في سبيل الله صادقًا من قلبه أعطاه الله أجر شهيد وإن مات على فراشه﴾، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 6277.

وجبت الجنة لمن قاتل في سبيل الله ولو دقائق معدودة

ولعظيم أجرِ القتال في سبيل الله، فقد أخبر ﷺ بوجوبِ الجنة لِمَن قاتلَ قدر حلبِ ناقة. فعن معاذ بن جبل، قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ قاتَلَ في سَبيلِ اللهِ فُواقَ ناقةٍ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ سَأَلَ الله الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ الله مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا ثم مات أو قتل فإنه لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ الله أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ الله كانَ عَلَيْهِ طَابَعُ الشهداء.﴾[1].

أسباب أخرى لنيل أجر الشهادة

وأخبر ﷺ عن أسباب أخرى لنيل أجر الشهادة[2].

ومنها دفاع المسلم عن ماله إذا جاء من يريد أخذه بغير حق، فقاتله ومات دون ذلك. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَنْ قُتِلَ دون ماله فهو شهيد.﴾[3].

وكذلك: المطعون شهيدٌ، والغَرِقُ شهيدٌ، وصاحب ذات الجَنْبِ شهيدٌ، والمبطون شهيدٌ، وصاحب الحَريق شهيدٌ، والذي يموت تحت الهَدْمِ شهيدٌ، والمرأة تموت بِجُمْعٍ شهيدةٌ، والنُفَسَاء.

فعن جابر بن عَتِيكٍ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غُلِبَ، فصاح به رسولُ اللَّهِ ﷺ؛ فلم يُجِبْهُ، فاسترجع رسولُ اللَّهِ ﷺ، وقال: ﴿غُلِبْنا عليك يا أبا الربيع!﴾. فصاح النِّسْوَةُ وبَكَيْنَ، فجعل ابن عَتيك يُسَكِّتُهُنَّ! فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿دَعْهُنَّ؛ فإذا وَجَبَ فلا تَبكِيَنَّ باكيةٌ﴾. قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟! قال: ﴿الموت﴾. قالت ابنته: والله إنْ كنتُ لأرجو أن تكون شهيدًا؛ فإنك قد كنت قضيت جِهَازَكَ! قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أوقعَ أجْرهُ على قَدْرِ نِيَّتِهِ. وما تعدون الشهادة؟﴾، قالوا:

---

(1) صححه الألباني في الجامع الصغير، برقم 6416.

وفي رواية: عَن معاذِ بن جبلٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ لَوْنُهَا الزَّعْفَرَانُ وَرِيحُهَا الْمِسْكُ وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ.﴾، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ. مشكاة المصابيح، برقم 3825.

(2) تحدثنا عنها في مزايا وفضائل الأمة الإسلامية في فصل: الأمة الوسط، ونعيدها هنا لمناسبة موضوع الجهاد في سبيل الله وأجر الشهادة.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المظالم، باب: من قاتل دون ماله، برقم 2348.

وفي رواية: عن سُلَيْمَانُ الأَحْوَلُ؛ أَنَّ ثَابِتًا مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَهُ؛ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَبَيْنَ عَنْبَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ مَا كَانَ، تَيَسَّرُوا لِلْقِتَالِ. فَرَكِبَ خَالِدُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَوَعَظَهُ خَالِدٌ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ﴾. أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب: الدليلُ على أنَّ مَن قَصد أخذَ مالَ غيرِهِ بغيرِ حقٍّ كانَ القاصِدُ مُهدَرَ الدَّمِ في حَقِّهِ، وإنْ قُتِلَ كانَ في النَّارِ، وأنّ مَنْ قُتِلَ دونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ، برقم 141.

القَتْلُ في سبيل الله تعالى. قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿الشهادة سَبْعٌ -سوى القتل في سبيل الله-: المطعون شهيدٌ، والغَرِقُ شهيدٌ، وصاحب ذات الجَنْبِ شهيدٌ، والمبطون شهيدٌ، وصاحب الحَرِيق شهيدٌ، والذي يموت تحت الهَدْمِ شهيدٌ، والمرأة تموت بِجُمْعٍ شهيدةٌ.﴾[1]. وعن صفوان بن أمية: ﴿الطَّاعُونُ وَالْغَرَقُ وَالْبَطْنُ وَالحَرَقُ وَالنُّفَسَاءُ شَهَادَةٌ لأمَّتِي.﴾[2].

يُعطى الشهيدُ سبعُ خِصالٍ

وأخبر ﷺ أنَّ الشَّهيدَ يُعطى له سَبعُ خصال، فعن المقدام بن معد يكرب: ﴿لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سَبْعُ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ.﴾[3].

فالشهيدُ يُغفرْ لهُ ذَنبُهُ مَعَ نُزولِ أَوَّلِ قَطرةٍ مِنْ دَمِهِ

وأخبر ﷺ أنَّ الشهيدَ يُغفر له ذنبه كله، مع نزول أولِّ قطرةٍ من دمه (إلَّا الديْن)، وذلك لأنَّ السَّيفَ مَحَّاءٌ للخطايا. عن سهل بن حنيف، قال رسول الله ﷺ: ﴿أولُ ما يهراقُ منْ دمِ الشهيدِ، يغفرُ لهُ ذنبُه كلُه إلا الدينَ.﴾[4].

(1) صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، برقم 2803.

قال النووي في شرح مسلم: [وَأَمَّا الْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ فَهُوَ بِضَمِّ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا وَكَسْرِهَا وَالضَّمُّ أَشْهَرُ قِيلَ: الَّتِي تَمُوتُ حَامِلًا جَامِعَةً وَلَدَهَا فِي بَطْنِهَا وَقِيلَ: هِيَ الْبِكْرُ وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ.] اهـ. شرح مسلم للنووي، 63/13.

(2) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 3950. وصححه أيضًا في صحيح النسائي، برقم 2053، عن صفوان بن أمية أيضًا بلفظ: ﴿الطَّاعُونُ، وَالمبْطونُ، وَالغَرِيقُ، وَالنُّفَسَاءُ: شَهَادَةٌ.﴾.

(3) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 5182.

(4) حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم 2587. وهو في السلسلة الصحيحة، برقم 1742.

والشهيد يأمنُ مِن فِتنة القبر وسؤالِ الملكين

وأخبر ﷺ أنَّ الشهيد يأمنُ مِن فتِنة القبرِ وسؤال المَلَكيْن منكر ونكير، لأنه قد تم امتحانه في الدنيا، فصبرَ وصدقَ في القتال في سبيل الله. عن رجل من الصحابة، قال رسول الله ﷺ: ﴿يا رسولَ اللَّهِ! ما بالُ المؤمنينَ يُفتَنونَ في قبورِهِم إلَّا الشَّهيدَ؟! قالَ: كفَى ببارقةِ السُّيوفِ علَى رأسِهِ فتنةً.﴾[1].

والشَّهيدُ يشفعُ في سبعين مِنْ أهْلِهِ

وأخبر ﷺ أنَّ من كرامة الله وفضلِهِ على الشهيد أنَّه يَشفعُ في سبعين من أهل بيته. فعَنْ نِمْرَانَ بْنِ عُتْبَةَ الذِّمَارِيِّ، قَالَ: دخَلْنا على أمِّ الدَّرداءِ ونحنُ أيتامٌ صِغارٌ، فمسَحتْ رؤوسَنا وقالت: أبشِروا يا بَنِيَّ فإنِّي أرجو أنْ تكونوا في شفاعةِ أبيكم، فإنِّي سمِعْتُ أبا الدَّرداءِ يقولُ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ﴿الشَّهيدُ يشفَعُ في سبعينَ مِن أهلِ بيتِه.﴾[2].

وفي رواية أخرى عن نمران بن عتبة الذماري، قال: دَخَلْنا على أُمِّ الدَّرداءِ ونحنُ أيتامٌ، فقالت: أبشِروا فإنِّي سمعتُ أبا الدَّرداءَ يقولُ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يشفَّعُ الشَّهيدُ في سبعينَ من أَهلِ بيتِهِ.﴾[3].

وفي رواية، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿الشهيدُ يشفعُ في سبعينَ من أهلِ بيتِه.﴾[4].

وَجُرْحُ الشَّهيدِ يَوم القيامَة: رِيحُهُ كَرِيحِ الْمِسْكِ ولَوْنُهُ لَوْن الزَّعْفَرَانِ

ومِن كرامةِ الشهيدِ يوم القيامة أنَّ لونَ جُرحِهِ زعْفَرَان، وريحهُ المسك، فعن معاذ بن جبل، قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِيحُهُ كَرِيحِ الْمِسْكِ، لَوْنُهُ لَوْن الزَّعْفَرَانِ، عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ، وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ مُخْلِصًا أَعْطَاهُ اللَّهُ أجر شهيد وإنْ مَاتَ على فِراشِهِ.﴾[5].

(1) صححه الألباني في صحيح سنن النسائي، برقم 2052.

(2) صححه الألباني في كتاب التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، برقم 4641.

(3) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم 2522.

(4) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم 1369. وفي رواية: ﴿يَشْفَعُ الشهيدُ في سبعينَ من أهلِ بيتِه.﴾، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 8093.

(5) صححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حِبّان، برقم 3181. وفي رواية أخرى صححها الألباني أيضًا في التعليقات الحسان على صحيح ابن حِبّان برقم 3185، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ جُرِح جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيحُ رِيحِ مِسْكٍ، وَمَنْ جُرِحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ طُبِعَ بِطَابَعِ الشُّهَدَاءِ.﴾.

والشُّهداءُ تَحتَ العَرْشِ، وَتَحتَ دَرَجَةِ الأنبياءِ مُباشَرةً

وأخبر ﷺ أنَّ درجةَ الشهيد في الجنة، تحت درجة الأنبياء مباشرة، فعن عتبة بن عبد السلمي، قال رسول الله ﷺ: ﴿الْقَتْلَى ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ فِي خَيْمَةِ اللَّهِ تَحْتَ عَرْشِهِ، وَلَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِفَضْلِ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ. وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَتِلْكَ مَصْمَصَةٌ مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاء لِلْخَطَايَا وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ، فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ . وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ. وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي النَّارِ. إِنَّ السَّيْفَ لا يمحو النفاق.﴾[1].

خاتمة

تحدثنا في هذا الفصل عن آخر ركنٍ من أركان بناء (خير أمة أخرجت للناس)، ذلكم هو ركن (الجهاد في سبيل الله)، والذي به اعتزت الأمة الإسلامية، ودانَ لها أعداؤها، وهابَها القاصي والداني. وذكرنا أنَّ الأمة الإسلامية، أكثر الأمم عُرضة للعدوان والاحتلال والطمع من قِبل أعدائها، بسبب دينها، وعقيدتها، ورسالتها، وهذا هو السبب الرئيسي لذلك العدوان. وكذلك بسبب ما حباها الله من ثروات وموقع جغرافي، وتاريخ، وحضارة على مر العصور. من أجل هذا، كان لزامًا على المسلمين أنْ لا يدعوا الجهاد في سبيل الله، وذلك لنصرةِ دينهم، ولحماية أمتهم، ولدعوة الناس إلى الله، ومحاربة الشرك والكفر والوثنية في الأرض، وإخراجِ الناس من الظلمات إلى النور، كي يفوزوا بخيري الدنيا والآخرة، فتلكم هي رسالتهم ومهمتهم في الأرض.

وعن الجهاد وتعريفه، وحكمه، وأهميته، وفضائله الكثيرة، فقد استعرضنا الأدلة من الكتاب، وذكرنا نوعي الجهاد، أعني (جهاد الدفع)، و (جهاد الطلب)، وحكمهما. وتحدثنا عن مراحل (الجهاد في الإسلام)،

(1) صححه الألباني في كتاب التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، برقم 4663.

وفي كتاب الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الحديث برقم 4663، قال شعيب الأرناؤوط: [إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي المثنى –واسمه ضمضم– فقد روى عنه اثنان، وذكره المؤلف في (الثقات): 4/389، ونسبه الأملوكي. وقوله: تلك مصمصة، أي: مَطْهَرَة من دنس الخطايا، يقال: مصمص إناءه: إذا جعل فيه الماء وحركه ليتنظف.] اهـ باختصار، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت 739هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408هـ- 1988م، عدد الأجزاء: 18.

وأقسام الناس تبعًا لتلك المراحل من جهاد النبي ﷺ، حتى استقر أمرُ الكفار على قسمين، (مسالمٌ آمن)، و (خائفٌ محارب). واستعرضنا أيضًا، فضائل الجهاد كما جاءت في السنة النبوية، وخطورة ترك الجهاد والتقاعس عنه، ومكر الشيطان لتثبيط المسلم عن الجهاد في سبيل الله.

الباب الخامس

الآيةُ الجامِعَةُ

مقدمة

أمانة الرسالة

تراجع الأمة الإسلامية

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الأول: (استخلاص الأركان)

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الثاني: (استخلاص المزايا)

الباب الخامس

الآيةُ الجامِعَةُ

مقدمة

في حديثنا عن السبيل الى إقامة وبناء خير امة أخرجت للناس، تحدثنا فيما سبق بالتفصيل عن الموضوعين الأساسيين لهذا الكتاب نحو ذلك السبيل، وهما: (**مزايا أمة الإسلام**) و(**أركان بناء الامة الاسلامية**).

فأما (**مزايا أمة الإسلام**)، فهي تلك المزايا والفضائل التي خصها الله بها الأمة الإسلامية دون سائر أمم الأرض، وهي من مقومات بناء تلك الامة المنشودة.

وأما (**أركان بناء الامة الاسلامية**)، فقد استعرضنا تلك الأركان التي أوجبها تعالى في كتابه، وأخبرنا عنها رسولُه ﷺ من أجل بناء الأمة الإسلامية. وبيَّنا أنَّ الله تعالى قد أمَر المسلمين بإقامة تلك الأركان في واقعهم كي يكونوا بحق، خير أمة أخرجت للناس. وبالتالي، كي تكون الأمة الإسلامية جديرة بهذه المزايا التي منحها تعالى لها من دون سائر الامم، وبالمكانة والرِّفعة التي رفعها بها، فصارت (الأمة الوسط)، و(الأمة الحجة)، و(الأمة الشاهدة) على جميع الأمم يوم القيامة.

واستعرضنا أيضًا، الأدلة على تلك المزايا والأركان، وذلك كما وردت في كتاب الله تعالى، وفي سنة نبيه ﷺ. ولاحظنا كيف أَنَّ تلك الأدلة كانت مبسوطة، ومفصلة في الكثير من سور القرآن الكريم وآياته، في السنة النبوية ايضًا، كما وردت في الكثير من أحاديث النبي ﷺ، وفي سيرته النبوية، وسيرة أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

وعند إعادة البحث في تلك الأدلة من القرآن الكريم والآيات التي ذكرناها في الفصول السابقة بخصوص تلك المزايا والأركان، سيجد الباحث أمرًا عجيبًا وعظيمًا، يعكس روعة وبلاغة القرآن الكريم، ويدعو إلى التأمل والتدبر.

سيلاحظ الباحث أنَّ من بين جميع تلك الآيات، هناك آيتان، يمكننا القول أنَّهما جمعتا كلَّ ما ذكرناه سابقًا من مزايا الأمة الإسلامية وأركان بنائها، إمَّا تصريحًا، وإمَّا ضمنًا وتلميحًا!

وأنَّ هاتينِ الآيتين قد أوجزتا بعضًا من تلك المزايا والأركان، وفصَّلتا في البعض الآخر!

تلكما الآيتان، هما الآيتان الأخيرتان من سورة الحج، وذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿77﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴿78﴾﴾[1].

والأعجب من ذلك، أنّ هذا كله قد جُمِع ثانيةً، وبإيجاز شديد في آية واحدة، هي الآية التي بعدها، أعني الآية الأخيرة التي خُتمت بها تلك السورة، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴿78﴾﴾[2].

وبالتالي، نستطيع القول: إنَّ جميع مزايا الأمة الإسلامية وأركان بنائها قد انفردت بذكرِه وبيانه آيةٌ واحدةٌ لا تتعدى أربعة أسطر فقط!

وهذا ما سنبينه ونفصل فيه بعد قليل وذلك من خلال تدبر وتحليل كل كلمة في تلكما الآيتان الكريمتان التي ذكرناهما انفًا.

فسبحان الله على ذلك الإعجاز، وسبحان الله على تلك البلاغة، التي لا تصدر إلَّا من عند الله العزيز الحكيم، وصدق تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿88﴾﴾[3].

لقد جمعتا هاتان الآيتان بحق، والأخيرة منهما بالتحديد، كلَّ ما أمَر الله به المسلمين من واجبات، أعني(أركان)، وكلَّ ما حباهم به من مزايا وفضائل ومقوّمات فيما ذكرناه سابقًا، لكي يقيموا (**خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجت للناس**). من أجل ذلك، اصطفى تعالى الأمة الإسلامية من دونِ سائِر أُمَمِ الأرضِ، لكي تحَمِلِ رسالتَهُ، وتكون (**الأمة الشاهِدة**) عليهم يوم القيامة.

(1) الحج، الآيتان: ﴿77، 78﴾.

(2) الحج، الآية: ﴿78﴾.

(3) الإسراء، الآية: ﴿88﴾.

إنَّ المتدبر لهاتين الآيتين، يجد أنَّهما بحق ملخص لمنهج وخارطة طريق نحو السبيل إلى إقامة، وتأسيس، وبناء (خير أمة أخرجت للناس)، كي تكون أهلًا للريادة، وأهلًا لهداية وقيادة البشرية جمعاء.

من أجل ذلك، نرى من الضروري والواجب على الأمة الإسلامية عمومًا، وعلى كل مسلم، على وجه الخصوص، تَدَبُّرَ، وفَهْمَ، وإدراكَ هاتين الآيتين، وذلك من أجل العمل على تحقيق ما فيهما من وصايا وأوامر في حياتهم على مستوى الفرد، والأسرة، والبلد، وعلى مستوى الأمة الإسلامية برمتها، كي يصبح ذلك واقعًا عمليًّا، وتظهر ثمراته في المجتمع، وفي الأمة، وبذلك تكون بحق (خير أمة أخرجت للناس).

أمانة الرسالة

من المعلوم أنَّ كلَّ مسلمٍ، إنما هو جزء من الأمة الإسلامية، ولَبِنة من لَبِنات هذا البناء العظيم الذي أسَّسهُ وبناه رسول الله ﷺ، وقام على إيمانٍ، وجهادٍ، وأكتافٍ، وسواعدِ الصحابة، خير جيل أُخرج للناس.

ثم انتقل هذا البناء إلى جيل التابعين، ثم تابعي التابعين، وهكذا تنَاقلته أجيالُ الأمة الإسلامية جيلًا بعد جيل، يحافظون على أصله ومنشأه، ويشيّدون به أُمةً وحضارةً، ومدنيةً وتراثًا، ويحققون إنجازات في شتى مجالات الحياة، أنارت حياة الإنسانية وأدهشت العالم، وغيرت مجرى التاريخ. وقد أدى ذلك إلى اتساع رقعة العالم الإسلامي، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، لما يروْن من عَظمة وربانية هذا الدين، ولما يروْن من صِدقٍ، وأخلاقٍ، وسلوك المسلمين. وأصبحت الأمة الإسلامية تضاهي الأمم الأخرى، بل وتتفوق وتتقدم عليها بأشواطٍ كثيرة، وذلك أيام الدولة الأموية والعباسية والعثمانية، وصار يُحسب للمسلمين ألف حساب، ويخشاهم أعداؤهم.

تراجع الأمة الإسلامية

على إننا لا ننكر أنَّ الأمة الإسلامية قد أتى عليها حينٌ مِن الدهرِ لم تَعُد شيئًا مذكورًا. فقد أَفَلَ نَجمُها، وخَفَتَ بريقُها، وتوقفت فتوحاتها، ودبَّت الأمراض في جسدها، وتلك هي سنة الله تعالى في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس﴾.

لقد مرّت على المسلمين سنون عِجاف، ومرّوا بفترات ضَعفٍ وصراعٍ، وتفككٍ، وهيمنةٍ، وتبعيةٍ. وقد أدى ذلك إلى تسلّط أعداءهم من الأمم الأخرى الكافرة عليهم. وتراجعت الأمة الإسلامية عن دورها في قيادةِ وهدايةِ العالم، وتفكك المسلمون، وتمزقوا وتشتتوا إلى دويلاتٍ وطوائف مختلفة.

لقد حدث ذلك لما ضَعُف تمسكهم بحبل الله، وانغماسهم بملذات الدنيا وشهواتها، وتفَرُّق كلمتهم وتناحرهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴿165﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴿59﴾﴾[2].

فهي سُنة الله تعالى في العقاب، ولا تستثني أحدًا، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴿43﴾﴾[3].

وعلى الرغم من ضَعف المسلمين هذا، وتفككهم، فإنَّ منهج الأمة الإسلامية وتراثها ورسالتها، ونعني بذلك كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وما أنجزته الأمة عبر قرون طويلة، من علمٍ، وبناءٍ، وحضارةٍ، وتاريخٍ، ظلَّ محفوظًا، يتناقله المسلمون، ويعتزون به ويفخرون به على الأمم الأخرى.

ثم جاء إلينا هذا البناء العظيم، المتمثل بالأمة الإسلامية، وبتأريخها العظيم، ومجدها التليد، وانتقل إلينا نحن المسلمين اليوم، وصار في عهدتنا، وتحت مسئوليتنا. فينبغي أَنْ نكون أُمناء على ذلك البناء، وعلى المنهج والدعوة التي اختارنا الله لحملها إلى أمم الأرض. وينبغي أنْ نعمل على إعادة الأمة الإسلامية إلى الصدارة، وتعود لقيادة وهداية البشرية، وذلك عن طريق تحقيق تلك الأركان التي سار عليها سلف هذه الأمة، لكي نكون جديرين بتلك المزايا التي منحنا تعالى إياها.

ولنكنْ بحقٍّ، خير خلفٍ لخير سلف، ولنكن جديرين بالمحافظة على أمتنا، وعلى منهجنا الإلهي الرباني. وبذلك نكون مثالًا حسنًا لديننا وأمتنا، ونكون قدوةً حسنةً للأمم الأخرى، كي يسهل لها قبول دعوتنا، واعتناق عقيدنا، والدخول في هذا الدين العظيم.

(1) آل عمران، الآية: ﴿165﴾.

(2) الكهف، الآية: ﴿59﴾.

(3) فاطر، الآية: ﴿43﴾.

فصل:
شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الأول: (استخلاص الأركان)

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿77﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿78﴾﴾[1].

سنقوم في هذا الفصل بتدبر وتحليل تلك الآيتين الكريمتين، و(الآية الجامعة) على وجه الخصوص، أعني الآية الأخيرة، من أجل معرفة واستخلاص ما ورد فيهما من أركان تخص بناء (خير أمة أخرجت للناس). ثم نعرج بعد ذلك على استخلاص المزايا، فنقول:

الإيمان

بدأ الخطاب الإلهي لهذه الأمة بنداء الإيمان، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وذلك غالبًا ما يخاطب تعالى به الأمة الإسلامية في القرآن الكريم، ويناديهم وينعتهم بهذه الصفة، أي صفة الإيمان[2].

فهذا النداء القرآني للمسلمين إنما هو تذكيرٌ لهم بعقد الإيمان الذي عقدوه مع الله، والذي جاء ذكر أركانه، وتفاصيله، في مواضع أخرى من القرآن الكريم، منها:

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿285﴾﴾[3].

---

(1) الحج، الآية: ﴿77، 78﴾.

(2) لقد جاء الخطاب للمؤمنين بصفة الإيمان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في نحو (220) موضعًا من القرآن الكريم.

(3) البقرة، الآية: ﴿285﴾.

حيث جاءت أركان هذا الإيمان على سبيل الإخبار من الله تعالى بإيمان الرسول ﷺ وجميع المؤمنين بتلك الأركان.

وفي موضع آخر، جاء ذكر الإيمان وأركانه على سبيل الأمر به، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴿136﴾﴾[1].

فبدأت الآية بالإيمان: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، وانتهت بالإسلام: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، فهو إيمان القلب، واستسلام القلب والجوارح.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴿136﴾﴾[2]، وهكذا في غيرها من آيات القرآن الكريم.

الإيمان أعظم ما يميز الأمة الإسلامية

من المعلوم، فإنَّ مصطلح الإيمان والإسلام مترادفان، ولكن إذا اجتمعا في نفس السياق، تفرّقا في مدلولِ كل واحدٍ منها. وفي تلك الحالة، فإنَّ الإيمان أخصَّ من الإسلام وأعلى مرتبة[3].

من أجل ذلك، لما ادَّعي الأعْرابُ الإيمان، نفى عنهم القرآن ذلك، وأثبت لهم الإسلام فقط، قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴿14﴾﴾[4].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿136﴾.

(2) النساء، الآية: ﴿136﴾.

(3) من الجدير بالذكر، فإنَّ لفظ (مؤمن) ومرادفاته (مؤمنون، مؤمنات، إلخ) تكرر نحو (200) مرة. أما لفظ (مسلم) ومرادفاته (مسلمون، مسلمين، مسلمات، إلخ) فقد تكرر نحو (41) مرة فقط.

(4) الحجرات، الآية: ﴿14﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَوَّلَ مَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَتَمَكَّنِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدُ: ﴿قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وَقَدِ اسْتُفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ، فَتَرَقَّى مِنَ الْأَعَمِّ إِلَى الْأَخَصِّ، ثُمَّ لِلْأَخَصِّ مِنْهُ.

فالعبد إذا آمن وكان صادقًا في إيمانه، أسلم وجهه لله، وأسلم جوارحه، وعَبَدَ الله مخلصًا من قلبه، وأقام أركان دينه، كالصلاة والزكاة، وغيرها من أركان الدين وأنواع العبادات والمعاملات، وغيرها من أمور الدين والشريعة. فهو حينئذ، يعمل ذلك كله بإخلاصٍ، وحبٍّ ورغبةٍ وتفاني، والعكس ليس صحيحًا دائمًا. ولهذا السبب كان الإيمانُ أخص وأعلى مرتبة من الإسلام. فقد يُسلم الإنسان، ويُقيم بعض الأركان، ويعمل بعض الطاعات، ولكنَّ قلبه ليس مطمئنًا بالإيمان، ناهيك – ربما – عن عدم دخوله إلى القلب أصلًا.

ولهذا السبب، فالقرآن الكريم، وفي أغلب الأحيان، يخاطب المسلمين بصفة الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ، من أجل أنْ يعملوا بلوازم ذلك الإيمان، عن عقيدةٍ راسخةٍ وصحيحةٍ. ومن أجل أنْ تكون أعمالهم صادرة عن إيمان عميق، ومحبة وإيثار وتضحية، وهم يقيمون أركان الدين، ويحكمون شريعة الله وسنة نبيه ﷺ في حياتهم، كي تصطبغ أمتهم بالإسلام وشعائره. وبالتالي، يكون واقعها ترجمة عملية لأحكام الدين، والأخلاق والسلوك القرآني العظيم.

فذلك النداء – أعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ – إنما هو إشارة من الله وتذكير للمسلمين أنَّهم أصحاب عقيدة وإيمان، وأنَّ عبادتهم وأعمالهم إنما هي نِتاج وثمار تلك العقيدة والإيمان، وليست فقط حركات وطقوس، وأعمال ظاهرة يعملونها! وإنما هي شعائر وعبادات مرتبطة بإيمان راسخ ويقين وقناعة وفهم لهذا الدين وأحكامه.

ونعود إلى الآية التي نحن بصددها، لنستخلص منها ما ذكرت من أركان لبناء الأمة، فنقول:

ثم أمَرَ تعالى المؤمنين بستة أوامِر، حيث أجمل فيها وفصَّل، وهذه الأوامر بمثابة (أركان لبناء خير أمة أخرجت للناس)، حيث سنستعرضها في الفصول القادمة.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِجَالًا وَلَمْ يُعْطِ رَجُلًا مِنْهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْطَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا وَلَمْ تُعط فُلَانًا شَيْئًا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»، حَتَّى أَعَادَهَا سَعْدٌ ثَلَاثًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَوْ مُسْلِمٌ»، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأُعْطِي رِجَالًا وَأَدَعُ من هو أحب إليّ منهم فلم أعطيه شَيْئًا؛ مَخَافَةَ أَنْ يُكَبُّوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ.

فَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْمُؤْمِنِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنَ الْإِسْلَامِ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 363/7.

الأمر الأول: الصلاة

أمَر تعالى المؤمنين بالصلاة، والتي هي من أشرف الطاعات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾[1].

فذكر تعالى (الركوع والسجود) على وجه التحديد، كونهما من أركان الصلاة، وذلك لأنَّ المصلي، وهو في حال الركوع والسجود، أذَلّ ما يكون لربه، ودلالةً على كمالِ عبودية المصلي وانقياده إلى ربه في الصلاة.

ونظرًا لأهمية وعظيم مكانة الصلاة من بين أركان الإسلام وجميع أنواع العبادات، ولأنها من أعظم العبادات مظهرًا وعلانيةً، وتعتبر بمثابة دعاية ودعوة للإسلام إلى الناس، سنتكلم عنها ببعض التفصيل.

الصلاة من أهم وأعظم أمور الدين وشعائره

الصلاةُ من أعظم شعائر الإسلام وأظهرها، وقد ذُكرت في القرآن الكريم في نحو ستين موضعًا، منها، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿72﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿45﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿103﴾﴾[4].

وهكذا بقية الآيات المتعلقة بالصلاة.

---

(1) ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ارْكَعُوا﴾ لله في صلاتكم ﴿واسْجُدُوا﴾ له فيها.]، اهـ. تفسير الطبري، 368/16.

وذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [لِأَنَّهُ قَرَنَ الرُّكُوعَ بِالسُّجُودِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ، وَخَصَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ تَشْرِيفًا لِلصَّلَاةِ. وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مُبَيَّنًا فِي (الْبَقَرَةِ)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.]. اهـ. تفسير القرطبي، 98/12.

وذكر صديق حسن خان في تفسيره الآية بقوله: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ (الحج: 77)، (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا)، أي صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 87/9.

(2) الأنعام، الآية: ﴿72﴾.

(3) العنكبوت، الآية: ﴿45﴾.

(4) النساء، الآية: ﴿103﴾.

ونظرًا لأهمية ومكانة الصلاة في الإسلام، فهي من أول ما ذُكِر من أركان الإسلام في القرآن الكريم، وفي أولِ سورة، على ترتيب المصحف[1]، ومن أوائل الآيات نزولًا من القرآن الكريم.

فأمَّا من حيث ترتيب المصحف، فهي أولِ ما ذُكر من أركان الإسلام في القرآن الكريم، ونعني بذلك، حيث وردت في بداية سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[2].

والمتأمل للآية الكريمة، يجد أيضًا، أنْ إقامَ الصلاة، هي ثاني صفةٍ من صفات المؤمنين، وقد ذُكرت بعد الإيمان بالغيب. فهذا الترتيب – والله أعلم – إنما بمثابة إشارة من القرآن الكريم، إنَّ بعد الإيمانِ والدخول إلى الإسلام، تكون الصلاة التي أول ما يجب أنْ يعمله ويقيمه المسلم من أركان الإسلام، ويستمر عليها، ويصطبر عليها، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقًا نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿132﴾﴾[3].

وأنْ يحافظ عليها، ويداوم على أدائها حتى الممات، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿99﴾﴾[4].

وذلك لأنَّ الصلاة عمود الإسلام، فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ، وذروةُ سنامِهِ الجهادُ في سبيلِ اللهِ.﴾[5].

وأمَّا نزولًا، من حيث الترتيب، فالصلاة هي أول ما أمَر تعالى به من أركان الإسلام في القرآن الكريم، وذلك حسب نزول السور في حياة النبي ﷺ. فقد أمر تعالى نبيه ﷺ، ومنذ الأيام الأولى من نزول القرآن الكريم وبداية الدعوة، بالصلاة وقيام الليل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿1﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿2﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿3﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿4﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿5﴾﴾[6].

---

(1) استثنينا سورة الفاتحة لأنها أمُّ الكتاب، ولمكانتها الخاصة في القرآن الكريم.

(2) البقرة، الآية: ﴿3﴾.

(3) طه، الآية: ﴿132﴾.

(4) الحجر، الآية: ﴿99﴾.

(5) تقدم تخريجه.

(6) المزمل، الآيات: ﴿1 – 5﴾. ترتيب نزول سورة (المزَّمل) هي الثالثة بعد سورتي (العلق) و(القلم). التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ط 2، دار الغرب الإسلامي.

والصلاة من أهمِّ أمور الدين، فالمقيم لها والمحافِظُ عليها كانت له نورًا ودليلًا على صدق إيمانه وتوحيده، وبالتالي كان من الناجين يوم القيامة. وعكسه المتَخلِّفُ عنها والمضَيّع، كانت عاقبتهُ أنْ يُحشَر في نارِ جَهَنَّمَ مع أَشدِّ الطُغاةِ كفرًا وعنادًا واستكبارًا. فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَن النَّبِيّ ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: ﴿مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمن لم يحافظ عَلَيْهَا لم يكن لَهُ نور وَلَا برهَان وَلَا نجاة، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ.﴾[1].

الصلاة: العبادة الوحيدة التي تتكرر على مدار الساعة، والعمر، من حين البلوغ وحتى الممات

والصلاة هي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي يتكرر على مدار الساعة، واليوم، والأسبوع، والشهر، والسنة. فقد أخبر عنها القرآن الكريم بأنها كتابٌ موقوتٌ، لا يجوز أنْ يتقدم عن وقته أو يتأخر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿103﴾﴾[2].

فهي تتكرر على مدار الساعة، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿78﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿79﴾﴾[3].

(1) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم 578.

(2) البقرة، الآية: ﴿103﴾.

(3) وعن الإشارة إلى وقت صلاة الصبح والعصر، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿130﴾﴾، طه، الآية: ﴿130﴾. وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿39﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿40﴾﴾ ق، الآيتان: ﴿39، 40﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿114﴾﴾، هود، الآية: ﴿114﴾.

الصلاة: العبادة الوحيدة التي لا تتوقف ولا تتعطل، وتُؤدى على أي حال، ولا تتعطل إلَّا في حالات نادرة

ويبدأ وجوب إقامة الصلاة من لحظة بلوغ المسلم[1]، وحتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. فلا يتوقف، ولا يتعطل هذا الركن إلا في حالات نادرة[2].

وتؤدى الصلاة حتى في حالة الحرب، وفي جماعة على وجه الخصوص، وإنْ أدى ذلك إلى اختلال في بعض أركانها وواجباتها، ولا تُؤجَّلُ لتُصَلّى كاملةً، تعظيمًا لها ولوقتها، قال تعالى:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿102﴾﴾[3].

الصلاةُ أظهرُ أركان الدين، لأنها العبادة الوحيدة التي يسبقها نداءٌ يدعو إليها

والصلاةُ أظهر أركان الدين، وأكثرها إشهارًا وعلانيةً وبروزًا في حياة المسلمين، وذلك لأنها العبادة الوحيدة التي يسبقها نداءٌ يدعو إليها ويُجْهرُ به، ونعني بذلك: الأذان. فعن عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ:﴿لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ فِي الْجَمْعِ لِلصَّلَاةِ، طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى، قَالَ: تَقُولُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ

(1) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ.﴾. حسنه الألباني في الجامع الصحيح برقم 5868. وأخرجه في مشكاة المصابيح، برقم 572.

(2)كما هو معلوم، فالمرأة تتوقف عن الصلاة في حالة الحيض والنفاس، وهذا يتكرر كثيرًا عندها، وعدا ذلك، فالمرأة والرجل متساويان في وجوب أداء الصلاة وعدم تركها، إلَّا في حالتين لا ثالث لهما، وهما الجنون (ومنها الغيبوبة) والنوم. ومع ذلك، فما أنْ يفيقَ النائم، وجبَ عليه أداءَ ما فاته من صلاة، مع تفاصيل ذكرها أهل العلم، لا محل لذكرها هنا.

(3) النساء، الآية: ﴿102﴾.

غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ: تَقُولُ: إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ﴾، قَالَ: فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ، قَالَ: فَسَمِعَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ يَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي أُرِيَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾[1].

وهي العبادة الوحيدة التي يجب أنْ تُؤدَّى جماعةً وفي المسجد بالتحديد (هذا في حق الرجال دون النساء)، فعَنْ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، قَالَ: ﴿مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ. فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى. وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً. وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً. وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ، مَعْلُومُ النِّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصف.﴾[2].

الصلاة أقوى وأكثرُ العباداتِ تعريفًا وترغيبًا ودعوةً للإسلام

ولما كانت الصلاةُ تتكرر على مدار الساعة، ويسبقها أذانٌ وإقامةٌ، وتُصلى في المسجد جماعةً، وفي بعض أوقاتها يُجهر بقراءةِ القرآن فيها[3]، كانت الصلاةُ من أعظم شعائر الإسلام، وأظهرِها، وأكثرِها إشهارًا وعلانيةً، وأقواها بيانًا عن الإسلام والمسلمين. وبالتالي، كانت الصلاةُ أيضًا، أقوى وأكثر العبادات تعليمًا

(1) أخرجه شعيب الأرناؤوط في مسند الإمام أحمد برقم 16478، وقال:

إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن صحابيه لم يخرج له سوى البخاري في (خلق أفعال العباد) وأصحاب السنن. يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد الزهري.

وأخرجه الدارقطني 241/1، والبيهقي في (السنن) 391/1 من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كِتَاب الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى، برقم: (654). قوله: (يهادى بين رجلين): أي يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه، يعتمد عليهما.

(3) كالفجر والمغرب والعشاء، والجمعة والعيدين، وصلاة الخسوف والكسوف، وغيرها.

وترغيبًا وتعريفًا، ودعوةً غير المسلمين إلى الإسلام وأهله، وذلك لما يَرَوْنَ مِن جموع المصلين وهم يتوجهون إلى المساجد، على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم، وأعمارهم، وأحوالهم.

فالمسلمون يتركون أعمالهم ومشاغلهم، ويتركون بيوتهم حالما يحينُ وقتُ الصلاة ويُرفع الأذان. ويفعلون ذلك في الليل والنهار، وعند الفجر، وفي أوقات يهجعُ الناس إلى فُرُشِهم وبيوتهم، هربًا من الحر أو البرد، أو طلبًا للراحة والنوم. ولكنَّ المسلمين المصلين، على العكس من أولئك، فهم يسارعون إلى طاعة ربهم، وإلى تلبيةِ نداءه: (حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، الصلاة خير من النوم). ناهيكَ عن منظرِ اجتماع المصلين، واصطفافهم في صفوفٍ طويلةٍ منتظمةٍ، ومتلاصقةٍ ومتلاحمه: كتِفًا بكَتِف، وقدمًا بقدم. فلا فوارق تفرقهم، أيًّا كانت، من لونٍ، أو جنسٍ، أو عِرْقٍ، أو مالٍ، أو حسبٍ أو منصبٍ. يقفون صغارًا وكبارًا، رؤساء ومرؤوسين، عمالًا وخدمًا وأصحاب أموالٍ وفقراء، في صفوفٍ متراصةٍ، لا تفاضلَ بينهم إلا بالتقوى. فهل هناك من عبادةٍ أعظم من الصلاةِ دعوةً، ودعايةً، وتعريفًا بالإسلام، وأهله!

(الأديانُ والأفكارُ الباطلةُ والمنحرفة، تبتدع لتسويق نفسها، رموزًا وصورًا وأعيادًا، ومناسباتٍ، واحتفالاتٍ للدعاية والتعريف والإشهار عن مبادئها وطقوسها)

في الحقيقة، فإنَّ كُلَّ دينٍ أو منهجٍ أو فِكرة، لا بد له من وسائل إشهارٍ، ودعايةٍ وإعلانٍ، كي يُسوِّق نفسه للناس، ويُعلن عن مبادئه، وينشر فكره. من أجل ذلك، ترى الأديان والأفكار الباطلة والمنحرفة، تسعى للدعاية والتعريف والإشهار عن مبادئها وطقوسها، ولتسويق نفسها، عن طريق ما تبتدِعه وتختِلقه من أمورٍ وأشياء، تضيفها إلى دينها وفكرها، لكي يتم إظهار وإشهار وتسويق ونشر ذلك الفكر أو المنهج. فمن أمثلة ذلك، ما يفعله أهل الكتاب وغيرهم من الأديان المنحرفة من ابتداعهم لرموزٍ وصورٍ وأعيادٍ ومناسباتٍ واحتفالاتٍ موسمية وسنوية دينية، قد لا يكون لمعظمها أصلًا في تلك الديانات.

فمن أمثلة ذلك، ما فعلته النصارى في دينهم، فقد ابتدعوا، من أجل إشهارِ وإظهارِ وتسويقِ دينهم وعرضه، ما نراه من الصور والتماثيل التي ينسبونها إلى المسيح عليه السلام. وكذلك ما نراه من اتخاذ الصليب الذي يزعمون أنَّ المسيحَ قد صُلِب عليه. وقد كذبوا فيما زعموا، فما صلبوهُ وما قتلوهُ عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ

اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿157﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿158﴾﴾[1]. ثم بعد ذلك قاموا بتقديسِ وعبادةِ ما ابتدعوه، فضَلّوا وأَضَلّوا.

وكذلك ما تفعله الفِرقُ والطوائفُ المنحرفة عن الإسلام الحق، كالروافض، من خلال تعظيمهم وغلوّهم في تقديس بعض ساداتِ آل البيت، وعبادةِ قبورهم ومشاهِدهم.

فبسبب غلوِّهم، ومحاولة إظهارِ وإشهارِ وترويجِ عقيدتهم ومنهجهم الباطل، فقد قاموا بابتداع زياراتٍ ومناسباتٍ على مدار الأسبوعِ والشهرِ والسنةِ، وأعيادًا ما أنزل بها من سلطان، وألصقوها بأئمتهم ظلمًا وزورًا، بل وبالدين أيضًا. ومن خلال رسمِ صورٍ شخصيةٍ، نسبوها لبعض آل بيت النبي ﷺ، كسيدنا علي والحسن والحسين، وغيرهم من أهل البيت –رضي الله عنهم أجمعين. وكذلك الحال في رسم وتصوير قاداتهم وكبراءهم وعلمائهم، ونشر وتعليق هذه الصور في كل مكان، وابتداع شعاراتٍ، وراياتٍ، ولافتاتٍ شركية، من أجل إظهارِ دينهم ومذاهبهم وبدعهم.

وقد وصل بهم الحال إلى أنْ يضعوا تلك الصور والرسوم والرايات الشِركيَّة، وغيرها، في أماكن عباداتهم وأداء طقوسهم، فيما يسمونها بالحسينيات، التي أُبتدعت لتكون بديلة عن بيوت الله في الأرض، أعني (المساجد)، التي قال عنها تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾.

(الإسلام منهج رباني، يحمل في ذاته، أسبابَ إشهارِهِ وإظهارِهِ، والدعايةِ إليه، ونشرِهِ، والدعوةِ إليه، ولا يحتاج إلى ما نَزيد فيه أو نَنْقص، كي نَشهر ديننا ونُظهره، ونُعرِّف الناس به وندعوهم إليه)

أمَّا الإسلام، ديننا نحن المسلمون، فلا يحتاج إلى ما نَزيد فيه أو نَنْقص، كي نَشهر ديننا ونُظهره، ونُعرِّف الناس به وندعوهم إليه. فالإسلام منهج رباني، يحمل في ذاته، أسباب إشهاره وإظهاره، والدعاية إليه، ونشره، والدعوة إليه. ولا يحتاج إلى تلك البدع والزيادات من أجل إقناع الناس بسموِّ منهجهِ الإلهي، وصحة تعاليمه، وكمالها وشمولها لحياة البشرية، من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة.

إنَّ الإسلام وما يتضمنه من أركانٍ وشعائرَ وعباداتٍ، لا يحتاج إلى تزيينٍ، أو تزويقٍ بالرموز والشعارات، والتماثيل، واللافتات، والأعلام، كما يفعل أهل الباطل في الإشهار والتعريف والدعاية والنشر لباطلهم.

[1] النساء، الآيتان: ﴿157، 158﴾.

(إنَّ كل ما يحتاجه المسلمون لإشهارِ ونشرِ دينهم، والدعاية إليهِ والدعوة إليه، اِتباع الكتّابِ والسنَّةِ، بالالتزام به، وممارسةِ أركانهِ وشعائره، وتحقيقها بصدقٍ وإخلاصٍ في واقع حياتهم.)

إنَّ الكثيرَ من أركانِ الدين وشعائره لو التزم المسلمون بتطبيقها، وجعلوها محور حياتهم وجُل اهتمامهم، وشاعت في مجتمعاتهم وبلدانهم، لأصبحت علامةً وسِمةً للأمة الإسلامية، حيثما ذُكر المسلمون، ذُكرت أركان الدين هذه وشعائره، والعكس صحيح. ولكان ذلك أعظم دعايةٍ وإعلانٍ وترويجٍ للإسلام، وترغيب للناس لمعرفته، ولمعرفة سر وعظمة هذا الدين الذي أخرج هذه الأمة العظيمة.

إنَّ معظم شعائرَ الدين وأركانه وأحكامه، إنما هي أعمالٌ ظاهرةٌ للعيان وشاهرةٌ أمام الناس، وتُعلن عن نفسها بمجرد أنْ يمارسها المسلم ويلتزمها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والعبادات الأخرى. وكذلك، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعامل الشرعي في التجارة والمال والاقتصاد، وعدم الغش والسرقة والخيانة، والالتزام بالأخلاق الإسلامية، والتزام نساء المسلمين بالحجاب الشرعي، وغيرها من شعائر الدين وتعاليمه وأحكامه.

ونذكر على وجه الخصوص، إقامَ الصلاة، وأداءها في وقتها وحيث يُنادى إليها. فالصلاة هي أعظمُ عبادةٍ ظاهرةٍ في حياة المسلمين. وهي أعظمُ شعيرةٍ إسلاميةٍ، إشهارًا وشعارًا بارزًا في واقع وحياة الأمة الإسلامية، خير أمة أخرجت للناس.

إنَّ إقامة الصلاة من قِبل ولي الأمر في الناس، مانعًا من الخروج عليه، بالرغم من شَرّهِ وجَوْرِهِ، إنْ بَدرَ منه ذلك، وبُغضِ الرعيةِ له نتيجة ذلك الجور! من أجل ذلك، كان لزامًا على ولاة الأمر إقامتها في الأمة، والاهتمام بها، وحثِّ المسلمين عليها، ومحاسبة المقصِّر فيها، ناهيك عن معاقبة تاركها، فهي من أهم واجبات ولاة الأمر تجاه الرعية. فعَن عوفِ بن مالكٍ، قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: ﴿خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ. وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ. وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ. وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُم﴾. قَالُوا قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ ﴿لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ. لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ. أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ.﴾[1].

(1) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، برقم: (1855).

إظهار وإعلان الصلاة

من أجل (**التعاون على البر التقوى**) لإظهار شعائر الله، ينبغي على ولاة الأمر والمسئولين، ومن خلال مؤسسات الدولة وخدماتها، العمل على إشهار أداء وإقام الصلاة. فعلى سبيل المثال، أنْ يتم رفعُ الأذان لكل صلاة في وسائل الإعلام، كالقنوات التلفزيونية والفضائية، وعلى الانترنت، وعبر وسائل التواصل الاجتماعي، وغيرها من وسائل النقل المرئية والمسموعة.

ومن أجلِ إعطاء الصلاة أهميةً في حياة المسلم والأمة، تلتزم الجهات المسؤولة عن التلفزيون والإعلام، بقطع البرامج عند دخول وقت الصلاة، ورفع الأذان، كي تُذكِّر المسلمين بوقت دخولها والتهيئ لأدائها. وأنْ تقوم الجهات الحكومية بتنظيم قوانين العمل وتشريعاته وبيئته، كي يَسهل على العاملين والموظفين أداء الصلوات أثناء فترة الدوام، سواء كان في القطاع العام الحكومي، أو الخاص، أو غيره. ومن الضروري أيضًا، العمل على إنشاء مُصلى في أماكن العمل، إذا كان المسجد بعيدًا، ويصعب الوصول إليه وترك مكان العمل.

فهذه وغيرها من الأمور التي تخصُّ إشهار الصلاة، وتسهيل إقامتها، إنما هي من واجبات ولاة الأمر والمسؤولين، كي يُظهِروا هذه الشعيرة، ليرى غير المسلمين دين الله، وحرص المسلمين على دينهم وحبهم له، مما قد يكون له الأثر في دعوة هؤلاء إلى الإسلام، والدخول فيه.

من المعلوم، أنَّ كلَّ مسلمٍ، مطالبٌ بعدم التهاون في الصلاة، وعليه أداؤها جماعةً في المسجد (هذا في حق الرجال من غير ذوي الأعذار)، من أجل إظهار دينهم وإبرازه، وبالتالي دعوة الناس إليه ونشره.

وليعلم كل مسلم أنه بالتزامه بدينه، وإظهار عبادته وإشهارها، وطاعته لله، فهذا بمثابةِ دعوة لدينه، وعلى رأس تلك العبادات: الصلاة وإقامتها في المسجد وعلى وقتها.

الصلاة العمل الوحيد الذي يُعدُّ تركهُ كفرًا

إنَّ الصلاة هي الركن الحائلُ بين المسلم، وبين الشركِ والكفر، فتركها يُعدُّ كُفرًا على أصح قولي العلماء، فعَنْ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ.﴾[1].

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، برقم 82.

ولهذا كانت الصلاة، العملُ الوحيد من أعمال الدين التي كان الصحابة يَعدُّون تركه كفرًا، فعَن عبد الله بن شَقِيق قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَركه كفرٌ غيرَ الصَّلَاة.﴾[1].

الصلاةُ أولُ ما يُسأل عنه المسلم، وتركها مِن أهمّ الأسبابِ لدخول النار

والصلاة هي أولُ ما يُحاسَب به العبد ويُسأل عنه يوم القيامة. فعَنْ حُرَيْثِ بْنِ قَبِيصَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ المدِينَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، قَالَ فَجَلَسْتُ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَحَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ.﴾[2].

ولهذا، كان تركُ الصلاة من أولِّ وأهمِّ الأسباب في دخول النار. فقد ذكر القرآن الكريم جوابَ أهلِ النارِ عندما سألهم أهلُ الجنة عن سببِ دخولهم النار، فكان أولَ ما أجابوا به: أنهم لم يكونوا من المصلين، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴿39﴾فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴿40﴾عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴿41﴾مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴿42﴾قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴿43﴾﴾[3].

ونعود إلى الآية الجامعة فنقول:

ونظرًا لأهمية الصلاة في حياة المسلم والأمة الإسلامية، ومن أجل التأكيد عليها، أعاد تعالى الأمرَ بها، وأتى باسمها صريحًا في آخرِ الآية الثانية، فقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾.

---

(1) صححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (579)، وقال: رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وإسناده صحيح، ووصله الحاكم (8/1) عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة، قال: فذكره وقال: صحيح على شرطهما، وقال الذهبي إسناده صالح.

(2) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، برقم (423)، وصححه أيضًا صحيح الترغيب والترهيب، برقم (540).

وفي رواية: عن تميم الداري، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أوَّلُ ما يحاسَبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ صلاتُهُ فإن أكملَها كُتِبَت لَه نافلةً فإن لم يَكن أكمَلَها قالَ اللَّهُ سبحانَهُ لملائكتِهِ: انظُروا هل تجِدونَ لعبدي مِن تطَوُّعٍ فأكمِلوا بِها ما ضَيَّعَ مِن فريضتِهِ، ثمَّ تؤخَذُ الأعمالُ علَى حَسْبِ ذلِكَ.﴾، صححه الألباني في صحيح ابن ماجه عن تميم الداري، برقم (1181).

وفي رواية: عن عبد الله بن مسعود، قال رسول الله ﷺ: ﴿أولُ ما يُحاسبُ به العبدُ الصلاةُ، وأولُ ما يقضى بين الناسِ في الدماءِ.﴾. أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (1748)، ثم قال: قلت: وهذا إسناد حسن في الشواهد، رجاله ثقات غير أن شريكًا وهو ابن عبد الله القاضي سيئ الحفظ. لكن الحديث صحيح، فإن شطره الثاني في (الصحيحين).

(3) المدثر، الآيتان: ﴿39، 43﴾.

وغالبًا ما يأتي السياق في القرآن الكريم بالأمر بالصلاة بصيغة: (أقيموا)، ليُبيّنَ أنَّ المقصود بذلك ليس مُجرد أنْ يُصليها المسلم كحركات وأذكار! وإنما المقصود أداءها على أكمل وجه، وذلك بأدائها في وقتها وبدون تأخير، وفي المسجد جماعةً، والإقبال عليها برغبة وخشوع، وتحقيق أركانها وواجباتها وسننها، وغير ذلك من أحكام الصلاة[1].

الأمر الثاني: الزكاة

والزكاة، هي الأمرُ الثاني الذي جاء ذكره – في الآية الجامعة – بعد الصلاة، قال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. وغالبًا ما يقرِنُ القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة[2].

فالصلاة تطهيرٌ لقلب وبدن وجوارح المسلم من الكفر والشرك والمعاصي. أمَّا الزكاةُ، فهي تطهيرٌ لمالِ المسلمِ من الشُّحِ والبُخلِ.

ولأهمية الزكاة في حياة الأمة الإسلامية، سنستعرض سريعًا في الفقرات التالية بعض النقاط المتعلقة بالزكاة.

الزكاة أعظمُ تشريعٍ ماليٍ واقتصاديٍ واجتماعيٍ

تعتبر الزكاة أعظم تشريعٍ مالي واقتصادي واجتماعي في الإسلام، يُحرك المال، ويُنعش الاقتصاد، ويقضي على الفقر، ويزرع روح التكافل والمحبة والمودة بين أفراد الأمة.

أمَّا كونها أعظم تشريعٍ مالي، فالزكاة تحرك عجلة رأس المال في السوق والمجتمع، فلا يبقى رأس المال مُحتَكرًا وساكنًا، حبيس الجيوب والخزانات، وذلك لأنَّ الزكاة ستأكل رأس المال إذا بقي هكذا بدون استثمار.

ومن آثار الزكاة على رأس المال أيضًا، أنها تُحرك تداوله بين طبقات المجتمع، فلا يبقي متداولًا بين الأغنياء فقط. وهذه إحدى غايات الإسلام من تشريعاته المالية، كما صرح القرآن الكريم في مسألة الفيء،

(1) ذكر الطبري في تفسيره: [القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾، وإقامتها: أداؤها -بحدودها وفروضها والواجب فيها- على ما فُرِضَتْ عليه. حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ بِشْرِ بْنِ عَمَّارٍ، عَنْ أَبِي رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ قال: قَالَ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: تَمَامُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالتِّلَاوَةِ وَالْخُشُوعِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا فِيهَا.] اهـ. تفسير الطبري، 247/1.

(2) وردت الزكاة مقرونةً بالصلاة في القرآن الكريم في نحو ثمانٍ وعشرين مرة.

قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[1].

فالزكاة عمومًا، تُحرك الثروة في الأمة، فلا يبقى المال حِكرًا على فئةٍ دونَ فئةٍ، ولا يبقى راكدًا، تأكله الزكاة على مر السنين.

وأما كونها – أعني الزكاة – تُنعش الاقتصاد وتحركه، وذلك لأنَّه يتوجب على صاحب رأس المال (ذهب، فضة، نقود ورقية، زروع، مواشٍ، وغيرها من ممتلكات مما تجب فيها الزكاة) العمل على استثماره، كي لا تأكله الزكاة إذا بقي هكذا راكدًا، تُخرَجُ زكاته كل عام.

ويكون استثمار رأس المال هذا، إما بالتجارة، أو الزراعة، أو الصناعة، أو غيرها من مجالات الاستثمار الكثيرة والمتنوعة. وبالتالي، فإنَّ عملية الاستثمار هذه ستؤدي إلى نشوء وتأسيسِ شركاتٍ، ومؤسساتٍ، ومصانع، ومعامل، ومزارع وقطاعات كثيرة جدًّا ومتنوعة، تشمل كل مجالات الحياة. وبالتالي، سيوفر ذلك الاستثمار، فرصَ عملٍ كثيرة جدًّا، تعمل على القضاء، أو تخفيف البطالة المتفشية في الأمة، والتي تعاني منها اليوم معظم دول العالم.

ونظرًا لأهمية الزكاة في اقتصاد الأمة الإسلامية، فقد أبى تعالى إلّا أنْ يُحدد مصارفها بنفسه في القرآن الكريم، كي لا يكون هناك لَبْسٌ وغُبنٌ فيمن يستحقها. وقد حدد القرآن الكريم الأصناف الثمانية الذين يستحقون الزكاة بالتحديد، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿60﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله:

[لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اعْتِرَاضَ الْمُنَافِقِينَ الْجَهَلَةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْزَهُمْ إِيَّاهُ فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ، بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَ حُكْمَهَا، وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قَسْمها إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ، فَجَزَّأَهَا لِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَنْعَمَ –وَفِيهِ ضَعْفٌ – عَنْ زِيَادِ بْنِ نُعَيْمٍ، عَنْ زِيَادِ بْنِ الْحَارِثِ الصُّدَائي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَايَعْتُهُ، فَأَتَى رَجُلٌ فَقَالَ:

(1) الحشر، الآية: ﴿7﴾.

(2) التوبة، الآية: ﴿60﴾.

أَعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ، فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ.﴾] اهـ[1].

ومن أجل محاربة الفقر على وجه الخصوص، والقضاء عليه، فقد خصص تعالى مَصرَفين اثنين من مصاريف الزكاة لذلك الغرض، وهما: (**الفقراء**) و (**المساكين**)[2]، كما جاء في آية مصارف الزكاة.

(بِبذْلِ الزكاةِ وقَبولِها، فلا الفقيرُ يَحسُدُ أخاهُ الغَنيَّ ويحقِدُ عليهِ، ولا الغَنيُّ يمنُّ على أخيهِ الفقيرِ ويَتفضّلُ عليهِ ويُعيِّره)

وأما كون الزكاة تشريعًا اجتماعيًّا، فهي تجمع الأمة وتوحِّدها، وذلك بما تزرعه من الشعور بالمسئولية والمحبة والتعاون بين المسلمين. وتقضي الزكاة على الحقد والكراهية، والحسد بين الفقير والغني، وتخفف من

(1) تفسير ابن كثير، 4/145.

(2) الفرق بين (الفقير) و(المسكين) ذكر الشوكاني في تفسيره في تعريف (الفقير) و(المسكين) ما نصه:

[قَوْلُهُ: لِلْفُقَرَاءِ قَدَّمَهم لِأنَّهم أحْوَجُ مِنَ البَقِيَّةِ عَلى المَشْهُورِ لِشِدَّةِ فاقَتِهِمْ وحاجَتِهِمْ.

وقَدِ اخْتَلَفَ أهْلُ العِلْمِ في الفَرْقِ بَيْنَ الفَقِيرِ والمِسْكِينِ عَلى أقْوالٍ: فَقالَ يَعْقُوبُ بْنُ السِّكِّيتِ والقُتَيْبِيُّ ويُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ: إنَّ الفَقِيرَ أحْسَنُ حالًا مِنَ المِسْكِينِ، قالُوا: لِأنَّ الفَقِيرَ هو الَّذِي لَهُ بَعْضُ ما يَكْفِيهِ ويُقِيمُهُ، والمِسْكِينُ الَّذِي لا شَيْءَ لَهُ، وذَهَبَ إلى هَذا قَوْمٌ مِن أهْلِ الفِقْهِ مِنهم أبُو حَنِيفَةَ.

وقالَ آخَرُونَ بِالعَكْسِ، فَجَعَلُوا المِسْكِينَ أحْسَنَ حالًا مِنَ الفَقِيرِ، واحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿أمّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ﴾ (الكهف: 79)، فَأخْبَرَ أنَّ لَهم سَفِينَةً مِن سُفُنِ البَحْرِ، ورُبَّما ساوَتْ جُمْلَةً مِنَ المالِ، ويُؤَيِّدُهُ تَعَوُّذُ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الفَقْرِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُمَّ أحْيِنِي مِسْكِينًا وأمِتْنِي مِسْكِينًا.﴾ وإلى هَذا ذَهَبَ الأصْمَعِيُّ وغَيْرُهُ مِن أهْلِ اللُّغَةِ، وحَكاهُ الطَّحاوِيُّ عَنِ الكُوفِيِّينَ، وهو أحَدُ قَوْلَيِ الشّافِعِيِّ وأكْثَرِ أصْحابِهِ.

وقالَ قَوْمٌ: إنَّ الفَقِيرَ والمِسْكِينَ سَواءٌ لا فَرْقَ بَيْنَهُما وهو أحَدُ قَوْلَيِ الشّافِعِيِّ، وإلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ القاسِمِ وسائِرُ أصْحابِ مالِكٍ، وبِهِ قالَ أبُو يُوسُفَ.

وقالَ قَوْمٌ: الفَقِيرُ المحْتاجُ المتَعَفِّفُ، والمِسْكِينُ السّائِلُ.

قالَهُ الأزْهَرِيُّ، واخْتارَهُ ابْنُ شَعْبانَ، وهو مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ.

وقَدْ قِيلَ غَيْرُ هَذِهِ الأقْوالِ مِمّا لا يَأْتِي الاسْتِكْثارُ مِنهُ بِفائِدَةٍ يُعْتَدُّ بِها.

والأوْلى في بَيانِ ماهِيَّةِ المِسْكِينِ ما ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ البُخارِيِّ، ومُسْلِمٍ، وغَيْرِهِما، مِن حَدِيثِ أبِي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: ﴿لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذا الطَّوّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلى النّاسِ فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ، قالُوا: فَما المِسْكِينُ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، ولا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، ولا يَسْألُ النّاسَ شَيْئًا.﴾.] اهـ. فتح القدير للشوكاني، 425/2.

ولابن جزي في تفسيره أيضًا، ما نصه: [واختلف العلماء هل الفقير أشد حاجة من المسكين أو بالعكس؟ فقيل: هما سواء، وقيل: الفقير الذي يسأل الناس ويعلم حاله، والمسكين ليس كذلك.] اهـ. تفسير ابن جُزَيّ، 34/1، التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت 741هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى - 1416هـ.

التمايز الطبقي والفوارق الطبقية. وتقضي وتخفف الزكاة كذلك من الجرائم التي تحدث بسبب الفقر والحاجة، والعوز، والحقد الطبقي، والمالي.

فبسبب وجوب الزكاة في الإسلام، يشعر الغني بالمسؤولية تجاه أخيه المسلم الفقير، وذلك عندما يعلم أنَّ للفقير حقًّا ونصيبًا في ماله، فيؤديه حينئذٍ إليه بلا مَنٍّ ولا أذى، لأنه فرضٌ من الله عليه، وليس تكرُّمًا منه وتفضلًا، كما هو الحال في الصدقة النافلة، وهذا أحدُ آثار الزكاة على الغني.

وأمَّا أثرها على الفقير، فسيشعر ذلك الفقير بالأمن والاطمئنان إلى أنَّ حقَّه سيصله من أخيه الغني. ولن يشعر بالذُّل والمهانة وهو يأخذ الزكاة من الغني، لأنها حقٌّ له في ماله —كما أسلفنا. وهكذا نرى ببذل الزكاة وقبولها، فلا الفقير يحسد أخاه الغنيَّ ويحقدُ عليه، ولا الغنيُّ يمنُّ على أخيهِ الفقيرِ ويتفضّلُ عليه ويُعيِّره.

التعفف عن أخذ الزكاة

ربما يقول قائل: ولكنَّ الزكاة بهذه الحالة، قد تشجعُ (الفقراء) و(المساكين) العاطلين عن العمل على الكسل، وعدم الجد في البحث عن عمل، أو عدم الرغبة للعمل أصلًا!

وقد تدفع الزكاة أيضًا، العاملينَ منهم — أعني الفقراء والمساكين – من ذوي الدخلِ المحدود، على ترك العمل، والاتكال على نصيبهم من الزكاة! وبالتالي، فمن المؤكد أن ذلك سيؤدي إلى انتشارِ البطالة، وتأثر سوق العمل ومصالح الناس وأعمالهم، وكل ذلك بسبب اعتماد هؤلاء الفقراء على نصيبهم من الزكاة في أموال الأغنياء.

ونجيب فنقول: إنَّ هذا ليس صحيحًا، وذلك لأنَّ توزيع الزكاة على المستحقين من الأصناف الثمانية، إنَّما يخضع إلى ضوابطَ وقيودٍ وأخلاقياتٍ، بيَّنها الشارع الحكيم، وبالإمكان تلخيصها بسببين رئيسيين:

السبب الأول: لا تِحل الزكاة لفقيرٍ صحيح البدنِ ولا لغنيٍّ

إنَّ الزكاة لا تَحِلُّ للفقير صحيحِ البدن، القادر على العمل ثم لا يعمل، ولا يجهد نفسه في البحث والسعي في طلب الرزق كي يعف نفسه ومن يعول.

وكذلك لا تَحِلُّ لمنْ يعملْ، وإنْ كان صاحبَ دخلٍ محدودٍ، ولكنَّ ذلك الدخلُ يكفيه لحاجاته الأساسية[1]. فعَنْ عبد الله بن عمرو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ.﴾[2]. جاء في شرح الحديث المذكور:

[كان النَّبيُّ ﷺ يُربِّي أصحابَه رَضِي اللهُ عنهم على معانِي العِزَّةِ والكَرامَةِ، ومِن ذلك: قولُه ﷺ: ﴿لا تَحِلُّ الصَّدقةُ لِغَنِيٍّ﴾، أي: لا يَحِقُّ لِمَن يَملِكُ المالَ أن يَستزيدَ مِن أموالِ الصَّدقاتِ والزَّكَواتِ، والمراد بالغَنِيّ: مَن مَعَه ما يَكفِيه حاجتَه لِيَومِه، ﴿ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ﴾، أي: القَوِيّ صحيحِ البَدَنِ الَّذِي يَقدِرُ على العملِ وبذلِ الجهدِ لكَسبِ ما يَكفِيه مِن المالِ والقُوتِ.

وفي الحديثِ: الحثُّ على العملِ، والتعفُّفُ عن: سؤالِ النَّاس وطلبِ الصَّدقاتِ. وفيه: تربيةُ النَّاسِ على العِزَّةِ، وإبعادُهم عن مَواطِنِ المَذَلَّةِ والامتِهان.]، اهـ[3].

وعن عُبَيْدِ اللهِ بنِ عَديّ بنِ الخيَار، قال: أخبرني رَجُلانِ أنَّهما أَتَيا النبي ﷺ في حَجّةِ الوداع وهو يَقْسِمُ الصدقة، فسألاه منها، فَرَفَعَ فينا البَصَرَ وخَفَضَهُ، فرآنا جَلْدَينِ، فقال: ﴿إنْ شِئْتُما أَعْطَيْتُكُما؛ وَلا حَظَّ فيها لِغنيّ، وِلا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ.﴾[4].

غير أنَّ الغَنيَّ يجوزُ لهُ أخْذُ الزكاة، ولكن في الحالات التالية التي بينها رسول الله ﷺ. فعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لا تَحِلُّ الصَدَقَةُ لِغَنِيّ إِلَّا لِخَمسَةٍ: لِغَازٍ في سَبيلِ اللهِ، أَوْ لِعَامِلٍ عَليها، أَوْ لِغَارِمٍ، أَوْ لِرَجلٍ اشْتَرَاها بِمَالِهِ، أَوْ لِرَجُلٍ كانَ لَهُ جارٌ مِسكينٌ فَتُصُدِّقَ عَلى المِسْكينِ، فَأَهْدَاهَا المِسْكينُ لِلغَنِيّ.﴾[5].

من أجل ذلك، أمر تعالى في كتابه العزيز بالسعي وطلب الرزق، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴿10﴾﴾[6].

(1) تكلم أهل العلم كثيرًا في تحديد المقصود بالفقير والمسكين، ومتى يصبح الفقير غنيًا، وما مقدار دخله المالي والمادي، وما مقدار ما يملك كي يكون مستحقًّا للزكاة أم لا. ومما لا شكَّ فيه أنَّ هذي الأمور تتغير وتتبدل من بلد إلى بلد، ومن زمان إلى زمان، فليُراجع في ذلك كُتب (فقه الزكاة)، وفتاوى العلماء في ذلك الخصوص.

(2) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم (1634).

(3) موقع (الدُّرَر السَّنِيَّة) على شبكة الانترنت.

(4) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم 1633.

(5) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم 1635.

(6) الملك، الآية: ﴿10﴾.

وأمر تعالى المسلمين بالعمل وطلب الرزق في كل وقت وحين، وحتى في يوم الجمعة وبعد الفراغ من الصلاة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿10﴾﴾[1].

وكذلك أمَرَ رسول الله ﷺ المسلمين أيضًا بالعمل والسعي في طلب الرزق الحلال، وعدَّ ﷺ أفضلَ الطعامِ، وافضلَ الكسبِ، كسبَ الرجلِ من عملِ يده. فعن المِقدَامِ بنِ مَعْدِ يكَربَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: ﴿مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا خَيْرًا مِن أَنَ يَأْكُلَ مِن عمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّه داودَ عَلَيْهِ السلام كَانَ يَأْكلُ مِن عَمَلِ يَدِهِ.﴾[2]. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمِلِ يَدِهِ.﴾[3].

وأخبر ﷺ أنَّ عملَ الرَّجلِ ولو حَطَّابًا، خيرٌ لهُ من أَنْ يسألَ النَّاسَ الصدقة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿لأَنْ يَحْتَطِبْ أحدُكم حُزْمَةً على ظَهرِهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ.﴾[4].

وعَن الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أحبُلَهُ خَيْرٌ له مِنْ أَنْ يَسْأَلَ.﴾[5]. وفي رواية أخرى عن الزبير بن العوام: ﴿لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فيأتي الجبلَ، فَيَجيءَ بحُزمةِ الحطَبِ على ظَهرِهِ، فَيبيعها، فَيكُفَّ اللهُ بها وَجْهَهَ، خَيرٌ لهُ مِنْ أنْ يَسأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوهُ أوْ مَنعَوُه.﴾[6].

---

(1) (الجمعة: 10). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴿10﴾﴾ (الأعراف: 10).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿19﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴿20﴾وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴿21﴾﴾ الحجر، الآيات: ﴿19 – 21﴾، وهكذا غيرها من الآيات التي تحث المسلمين على السعي وطلب الرزق الحلال.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، برقم 1966.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب: كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ، برقم 1967.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب: كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ، برقم 1968.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب: كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ، برقم 1969.

(6) صححه الألباني في الجامع الصغير، برقم 5041.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: ﴿لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ.﴾[1].

وعن أبي هريرة ايضًا: ﴿لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغدو إلى الجبلِ فَيَحْتَطِبَ فيبيعَ فيأكلَ ويتصدَّقَ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يَسألَ النَّاسَ.﴾[2].

وعن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ﴿يا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ. وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ. وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ. وَالْيَدُ الْعُلْيَا خير من اليد السفلى.﴾[3].

وأخبر ﷺ أنَّ العملَ في طلبِ الرزقِ كالجهاد في سبيل الله، فعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ.﴾[4].

عن حكيم ابن حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وابْدَأْ بِمَن تَعُولُ، وخَيْرُ الصَّدَقَةِ عن ظَهْرِ غِنًى، ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ.﴾[5].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، برقم 1042.

(2) صححه الألباني في الجامع الصغير، برقم (5040).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة، وأن السفلى هي الآخذة، برقم 1036.

(4) قال الطبراني في الصغير: لَمْ يَرْوِهِ عَنِ الْحَكَمِ إِلَّا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَلَا عَنْهُ إِلَّا هَمَّامٌ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، وَلَا يُرْوَى عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ. أخرجه الطبراني في الصغير، برقم (940)، والأوسط، برقم (6835)، والكبير، برقم (1022)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (1428). وأخرجه الألباني أيضًا في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (1692)، وقال: صحيح لغيره.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الزكاة، باب: لا صدقة إلا ظَهْرِ غِنًى، برقم 1361، وكتاب الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: هذا المال خضرة حلوة، برقم 6076، وكتاب الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، برقم 2974). ومسلم في صحيحه في (كتاب الزكاة، باب: بَيَانِ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَأَنَّ السُّفْلَى هِيَ الْآخِذَةُ، برقم 1034). وصححه الألباني في صحيح النسائي، برقم 2543.

وفي رواية أخرى: عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى.﴾. قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا، حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا. فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حتى توفي[1].

وجاء في الأثر عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أنه قال: (لا يقْعُدنَّ أَحَدُكُم عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيقول: اللهُمَّ ارْزُقْني، وَقَدْ عَلِمَ أنَّ السَّمَاءَ لا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً.). وقال –رضي الله عنه–: (إِنّي لأرَى الرَّجُلَ فيُعْجِبُني، فَأَقُولُ: أَلَهُ حِرْفة؟ فَإِنْ قَالوا: لا، سَقَطَ مِنْ عَيْني.)[2].

السبب الثاني: الزكاة هي أوساخ الناس

لقد ربَّى القرآن الكريم المسلمين على العفة وعزة النفس، وأعلمهم أنَّ الزكاة إنما هي أوساخُ الأغنياء، تؤخذُ منهم كي تُطَهِّرهم وتزكيهم، قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾[3]. فقد ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: ثَنَا أَبُو صَالِحٍ، قَالَ: ثَنِي مُعَاوِيَةُ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "جَاءُوا بِأَمْوَالِهِمْ يَعْنِي أَبَا لُبَابَةَ وَأَصْحَابَهُ حِينَ أُطْلِقُوا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا فَتَصَدَّقَ بِهَا عَنَّا وَاسْتَغْفَرْ لَنَا، قَالَ: ﴿مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوالِكُمْ شَيْئًا!﴾، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾، يَعْنِي بِالزَّكَاةِ: طَاعَةَ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصَ.] اهـ[4].

وقد حثَّ كذلك النبي ﷺ الفقراء والمساكين والمحتاجين، على التعفف عن أخذ الزكاة وقبولها، وعدَّها مِنْ أوساخِ الناس، لذلك فهي لا تَحِلُّ له، ولا لِآله ﷺ، وينبغي للمسلم التعفف عن طلبها، ناهيك عن أخذها

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، برقم 1403.

(2) المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت 852هـ)، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى 1419هـ.

(3) التوبة، الآية: ﴿103﴾.

(4) تفسير الطبري، 659/11.

إلا لمن يستحقها فعلًا. فعن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث قال: اجْتَمع رَبِيعَةُ بنُ الحَارِثِ، وَالْعَبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلِبِ، فَقالَا: وَاللَّهِ، لو بَعَثْنَا هَذَيْنِ الغُلَامَيْنِ، قالَا لي وَلِلْفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ، إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَاهُ، فأمَّرَهُما علَى هذِه الصَّدَقَاتِ، وذكر الحديث، إلى أنْ قال: فَجِئْنَا لِتُؤَمِّرَنَا علَى بَعْضِ هذِه الصَّدَقَاتِ، فَنُؤَدِّيَ إلَيْكَ كما يُؤَدِّي النَّاسُ، وَنُصِيبَ كما يُصِيبُونَ، قالَ: فَسَكَتَ طَوِيلًا حتَّى أَرَدْنَا أَنْ نُكَلِّمَهُ، قالَ: وَجَعَلَتْ زَيْنَبُ تُلْمِعُ عَلَيْنَا مِن وَرَاءِ الحِجَابِ أَنْ لا تُكَلِّمَاهُ، قالَ: ثُمَّ قالَ: ﴿إنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ إنَّما هي أَوْسَاخُ النَّاسِ.﴾[1].

وقال ﷺ ذلك لِمَنْ جَاء يسألهُ الصَّدقة، فعن حكيم بن حزام، قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ فألحفتُ في المسألةِ، فقال: ﴿يا حكيمُ، مَا أَكْثَرَ مَسْألَتَك؟ إنَّ هٰذا المالَ حُلوةٌ خضِرةٌ، وإنَّما هُوَ أوْساخُ النَّاسِ، وإنَّ يدَ اللهِ هي العليا، ويدَ المعطي الَّتي تَليها، وَيدَ السَّائلِ أسْفَلُ مِنْ ذٰلِك.﴾[2].

ومن أجل ذلك، حثَّ القرآن الكريم المسلمين على الإنفاق في سبيل الله وأخبر عن الأجر العظيم الذي يناله المتصدِّق، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿261﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿262﴾﴾[3]، وغيرها من الآيات الكثيرة التي ذكرها القرآن الكريم.

وأثنى تعالى على الفقراء المتعففين عن أخذ الصدقات، مع حاجتهم الشديدة لها، ومدحهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب: ترك استعمال آل النبي على الصدقة، برقم 1072.

وفي رواية: ﴿إنَّ هذه الصدَقاتُ، إنما هي أوساخُ الناسِ، وإنها لا تَحِلُّ لمحمدٍ، ولا لآلِ محمَّدٍ.﴾. صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (2264).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، برقم 15321، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير مسلم بن جندب، فقد أخرج له البخاري في (خلق أفعال العباد)، والترمذي، وهو ثقة. يزيد: هو ابن هارون، وابن أبي ذئب: هو محمد بن عبد الرحمن.

(3) (البقرة: 261، 262﴾. وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴿11﴾﴾، الحديد، الآية: ﴿11﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿255﴾﴾ (البقرة: 255﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿39﴾﴾ (النساء: 39﴾. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿22﴾﴾، الرعد، الآية: ﴿22﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿29﴾﴾، فاطر، الآية: ﴿29﴾.

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿273﴾ ﴾[1].

وأثنى تعالى كذلك على المهاجرين، لتعففهم عن سؤال الناس رغم حاجتهم وفاقتهم بسبب إسلامهم وهجرتهم، حيث يظن من يراهم أنهم أغنياء من التعفف، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿273﴾ ﴾[2].

ذكر البغوي في تفسيره الآية بقوله: [﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ السِّيمَاءُ وَالسِّيمِيَاءُ وَالسِّمَةُ: الْعَلَامَةُ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الشَّيْءُ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهَا هَاهُنَا، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ التَّخَشُّعُ وَالتَّوَاضُعُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَثَرُ الْجُهْدِ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: صُفْرَةُ أَلْوَانِهِمْ مِنَ الْجُوعِ وَالضُّرِّ وَقِيلَ: رَثَاثَةُ ثِيَابِهِمْ، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ قَالَ عَطَاءٌ: إِذَا كَانَ عِنْدَهُمْ غَدَاءٌ لَا يَسْأَلُونَ عَشَاءً، وَإِذَا كَانَ عِنْدَهُمْ عَشَاءٌ لَا يَسْأَلُونَ غَدَاءً، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا أَصْلًا لِأَنَّهُ قَالَ: مِنَ التَّعَفُّفِ، وَالتَّعَفُّفِ تَرْكُ السُّؤَالِ، وَلِأَنَّهُ قَالَ: تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ، وَلَوْ كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ شَأْنِهِمْ لَمَا كَانَتْ إِلَى مَعْرِفَتِهِمْ بِالْعَلَامَةِ مِنْ حَاجَةٍ، فَمَعْنَى الْآيَةِ، لَيْسَ لَهُمْ سُؤَالٌ فَيَقَعُ فِيهِ إِلْحَافٌ، وَالْإِلْحَافُ: الإِلْحَاحُ وَاللَّجَاجُ.] اهـ [3].

---

(1) البقرة: ، الآية: ﴿273﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿273﴾.

(3) معالم التنزيل، البغوي، 377/1. وذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أَيْ: لَا يُلحون فِي الْمَسْأَلَةِ وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ السُّؤَالِ، فَقَدْ أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ؛ قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شَرِيكُ بْنُ أَبِي نَمِرٍ: أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَار وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَا سَمِعْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَيْسَ المسكينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يتعفَّفُ؛ اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِم، مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الْمَدِينِيِّ، عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمر، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ —وَحْدَهُ— عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْحَنَفِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ، أَنَّهُ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: أَلَا تَنْطَلِقَ فَتَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا يَسْأَلُهُ النَّاسُ؟ فَانْطَلَقْتُ أَسْأَلُهُ، فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يَخْطُبُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ وَلَهُ عَدْلُ خَمْسِ أَوَاقٍ فَقَدْ سَأَلَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. فَقُلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: لَنَاقَةٌ لِي خَيْرٌ مِنْ خَمْسِ أَوَاقٍ، وَلِغُلَامِهِ نَاقَةٌ أُخْرَى فَهِيَ خَيْرٌ مِنْ خَمْسِ أَوَاقٍ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْجَمَاهِرِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الرِّجَالِ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ وُقِيَّةٍ فَهُوَ مُلْحِفٌ﴾، وَالْوُقِيَّةُ: أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا.]، اهـ. تفسير ابن كثير، 543/1.

وحث ﷺ أيضًا المسلمين على الإنفاق والتصدق، وعلى التعفف والاستغناء عن الناس وصدقاتهم في أحاديث كثيرة، منها، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ.﴾[1].

الزكاة مؤسسة مالية

والزكاة مؤسسة مالية تديرها الدولة أو الجهات الخيرية الأخرى، وتقوم على جبايتها وتوزيعها، بدليل قوله تعالى في تحديد أحد مصارفها: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، أي الذين يقومون بجباية الزكاة من دافعيها، ومن ثم إيصالها إلى مستحقيها من الاصناف المتبقية الأخرى. فمؤسسة جباية الزكاة، مجال آخر من أجل توظيف الأيدي العاملة، ومحاربة البطالة، وتنشيط سوق العمل.

وجوب الزكاة

إنَّ وجوب الزكاة ثابت في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين. فقد ورد الأمر بالزكاة في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين موضعًا، معظمها جاءت مقرونة بالصلاة، منها:

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿43﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿110﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿56﴾﴾[4].

ولبيان وجوب الزكاة، وأهميتها في الدين، ذكر تعالى أيضًا أنَّ مِن أحد شروط صحة إسلام وتوبة المشركين وعصمة دمائهم، قيامهم بأداء الزكاة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) البقرة، الآية: ﴿43﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿110﴾.

(4) النور، الآية: ﴿56﴾.

حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

وبأدائهم للزكاة، يصير المشركون إخوانًا في الدين، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿11﴾﴾[2].

وأخبر تعالى أنَّ أداء الزكاة، واحدةٌ من بين أهم صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿4﴾﴾[3]، وهكذا في غيرها من الآيات.

أما في السُّنة، فقد أخبر النبي ﷺ المسلمين بوجوب الزكاة، وأنَّها ركن من أركان الإسلام، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ.﴾[4].

ولهذا، كان ﷺ يأمرُ رُسلَه الذين يبعثهم لدعوة الكفار إلى الإسلام، بإخبارهم بوجوب الزكاة عليهم. فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ: ﴿ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ.﴾[5]، وغيرها.

---

(1) التوبة، الآية: ﴿5﴾.

(2) التوبة، الآية: ﴿11﴾.

(3) المؤمنون، الآية: ﴿4﴾.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الإيمان، باب الإيمان، وقول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس، برقم 8). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب: أركان الإسلام ودعائمه العظام، برقم 16).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة، برقم: 1331، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، برقم 1389. وفي كتاب المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم: 4090، وكتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، برقم: 6937.). ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم 19).

عقوبة مانع الزكاة

أمَّا عن الامتناع عن أداء الزكاة وعقوبة ذلك في الإسلام، فقد توعَّد تعالى مانع الزكاة بأشدِّ أنواع الوعيد والعذاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿34﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿35﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿180﴾﴾[2]، وغيرها من آيات الوعيد في مانع الزكاة.

وأما في السُّنة، فقد أخبر ﷺ عن إثم وعقوبة مانع الزكاة، ومنها، فعن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، إلَّا إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، صُفِّحَتْ له صَفائِحُ مِن نارٍ، فَأُحْمِيَ عليها في نارِ جَهَنَّمَ، فيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبِينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ له، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ.

قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، فالإبِلُ؟ قالَ: ولا صاحِبُ إبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، ومِنْ حَقِّها حَلَبُها يَومَ وِرْدِها، إلَّا إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، أوْفَرَ ما كانَتْ، لا يَفْقِدُ مِنْها فَصِيلًا واحِدًا، تَطَؤُهُ بأَخْفافِها وتَعَضُّهُ بأَفْواهِها، كُلَّما مَرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخْراها، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ.

قِيلَ: يا رَسولَ اللهِ، فالْبَقَرُ والْغَنَمُ؟ قالَ: ولا صاحِبُ بَقَرٍ، ولا غَنَمٍ، لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، إلَّا إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، لا يَفْقِدُ مِنْها شيئًا، ليسَ فيها عَقْصاءُ، ولا جَلْحاءُ، ولا عَضْباءُ تَنْطَحُهُ بقُرُونِها وتَطَؤُهُ بأَظْلافِها، كُلَّما مَرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخْراها، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ.

---

(1) التوبة، الآيتان: ﴿34، 35﴾.

(2) آل عمران، الآية: ﴿180﴾.

قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، فالْخَيْلُ؟ قالَ: الخَيْلُ ثَلاثَةٌ: هي لِرَجُلٍ وِزْرٌ، وهي لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وهي لِرَجُلٍ أجْرٌ، فأمَّا الَّتي هي له وِزْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَها رِياءً وفَخْرًا ونِواءً علَى أهْلِ الإسْلامِ، فَهي له وِزْرٌ، وأَمَّا الَّتي هي له سِتْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَها في سَبيلِ اللهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ في ظُهُورِها ولا رِقابِها، فَهي له سِتْرٌ وأَمَّا الَّتي هي له أجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَها في سَبيلِ اللهِ لأَهْلِ الإسْلامِ، في مَرْجٍ ورَوْضَةٍ، فَما أكَلَتْ مِن ذلكَ المَرْجِ، أوِ الرَّوْضَةِ مِن شيءٍ، إلَّا كُتِبَ له، عَدَدَ ما أكَلَتْ حَسَناتٌ، وكُتِبَ له، عَدَدَ أرْواثِها وأَبْوالِها، حَسَناتٌ، ولا تَقْطَعُ طِوَلَها فاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أوْ شَرَفَيْنِ، إلَّا كَتَبَ اللَّهُ له عَدَدَ آثارِها وأَرْواثِها حَسَناتٍ، ولا مَرَّ بها صاحِبُها علَى نَهْرٍ، فَشَرِبَتْ منه ولا يُرِيدُ أنْ يَسْقِيَها، إلَّا كَتَبَ اللَّهُ له، عَدَدَ ما شَرِبَتْ، حَسَناتٍ.

قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، فالْحُمُرُ؟ قالَ: ما أُنْزِلَ عَلَيَّ في الحُمُرِ شيءٌ، إلَّا هذِه الآيَةَ الفاذَّةُ الجامِعَةُ: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴿7﴾ **وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴿8﴾﴾[1].

وعن عِظَم عقوبة مانع الزكاة أيضًا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ لِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ – ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآيَةَ.﴾[2]، وغيرها.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم 987، ﴿بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ﴾: بطح، قال جماعة: معناه ألقي على وجهه.

القاع: المستوي الواسع من الأرض، يعلوه ماء السماء فيمسكه. قال الهروي: وجمعه قيعة وقيعان. مثل جار وجيرة وجيران.

القرقر المستوي أيضًا، من الأرض، الواسع.

﴿لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلَا جَلْحَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ﴾: قال أهل اللغة: العقصاء ملتوية القرنين. والجلحاء التي لا قرن لها. والعضباء التي انكسر قرنها الداخل.

﴿تَطَؤُهُ بأَظْلافِها﴾: الأظلافُ جمعُ ظلف، وهو للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس.

﴿فاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أوْ شَرَفَيْنِ﴾: معنى استنَّت: جَرَتْ وَعَدَتْ. والشرف: هو العالي من الأرض. وقيل: المراد هنا طلقًا أو طلقين. وقال ابن الأثير: الشرف هو الشوط.

﴿فالحُمُر﴾: جمعُ حِمَار، أي فما حكمها؟ ﴿ما أُنْزِلَ عَلَيَّ في الحُمُرِ شيءٌ، إلخ﴾ معنى الفاذة القليلة النظير. والجامعة أي العامة، المتناولة لكل خير ومعروف. ومعنى الحديث: لم يُنزل عليَّ فيها نصٌّ بعينها، لكنْ نِزلت هٰذِهِ الآيةُ العَامَّة.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، برقم 1338. و4289، و4383، و6557.). ومسلم في صحيحه في (كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم 987).

﴿مُثِّلَ لَهُ﴾: صُيِّرَ لَه.

﴿شُجَاعًا﴾: الحية الذكر أو الثعبان.

﴿أَقْرَعَ﴾: لا شعر على رأسه لكثرة سمه وطول عمره.

﴿زَبِيبَتَانِ﴾: نابان يخرجان من فمه، أو نقطتان سوداوان فوق عينيه، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه.

مانع الزكاة تؤخذ منه بالقوة، وبالقتال إذا تطلبَ الأمر

مانع الزكاة تؤخذ منه بالقوة، إذا كان في قبضة الإمام، فإن لم يكن في قبضته، قاتله عليها، فقد قاتل أبو بكر الصديق —رضي اللهُ عنه— مانعي الزكاة، واعتبرهم مرتدين. فعن أبي هريرة قال: ﴿لَمَّا تُوُفِّيَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، واسْتُخْلِفَ أبو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وكَفَرَ مَن كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قالَ عُمَرُ لأبِي بَكْرٍ: كيفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وقدْ قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقولوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فمَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ ونَفْسَهُ، إلَّا بحَقِّهِ وحِسَابُهُ علَى اللَّهِ، فَقالَ: واللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بيْنَ الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ، فإنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، واللَّهِ لو مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ علَى مَنْعِهِ، فَقالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ ما هو إلَّا أنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قدْ شَرَحَ صَدْرَ أبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أنَّه الحَقُّ. قَالَ ابْنُ بُكَيْرٍ وَعَبْدُ اللَّهِ، عَن اللَّيْثِ: عَنَاقًا، وهو أصح.﴾[1].

ولهذا نَقَل الإجماع على أَخْذِ الزَّكاة من مانعها قهرًا: ابنُ بطَّال، وابنُ عبد البَرّ، وابنُ قُدامة، والنووي، والصنعاني[2].

﴿يُطَوَّقُهُ﴾: يجعل في عنقه كالطوق.

﴿شِدْقَيْهِ﴾: جانبي الفم.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، برقم: 6855، وكتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة، برقم: 1335).

ومسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ... إلى قوله: أو غيرها من حقوق، برقم: 20).

﴿عِقَالًا﴾: هو الحبل الذي تُشَدُّ به يد البعير مع ذراعه حتى لا يشرد.

﴿عَنَاقًا﴾: العَنَاق: الأنثى من أولاد المعِز ما لم يتمَّ لها سنة.

(2) قال ابنُ بطَّال: [فرأى أبو بكر، رَضِيَ اللهُ عنه، قتالَ الجميع، ووافقه على ذلك جميعُ الصحابة بعد أن خالَفَه عُمَرُ في ذلك، ثم بان له صوابُ قَولِه، فرجع إليه.]، شرح صحيح البخاري لابن بطال، 391/3. شرح صحيح البخاري لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، 1423هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 10.

قال ابنُ عَبدِ البَرِّ: [واتَّفق أبو بكرٍ وعُمَرُ وسائر الصحابة على قتالِهم حتى يؤدُّوا حَقَّ اللهِ في الزَّكاة كما يلزَمُهم ذلك في الصَّلاة.]، الاستذكار لأبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، 214/13.

قال ابنُ قدامة: [واتَّفق الصحابة رَضِيَ اللهُ عنهم على قتالِ مانعيها.]، المغني لابن قدامة، 427/2.

قال النووي: [وثبت في الصَّحيحينِ من رواية أبي هريرة أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عنهم اختلفوا أوَّلًا في قتال مانعي الزَّكاة، ورأى أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قتالَهم، واستدلَّ عليهم، فلمَّا ظهَرَتْ لهم الدَّلائلُ وافقوه، فصار قتالُهم مُجمَعًا عليه.]، المجموع شرح المهذب للنووي، 339/5.

قال الصنعانيُّ: [يأخذ الإمامُ الزَّكاةَ قهْرًا ممَّن منعها، والظاهر أنَّه مُجمَعٌ عليه.]، سبل السلام شرح بلوغ المرام للصنعاني، 520/1.

وجوب قيام ولي الأمر بتعيين من يقوم بمهام جباية الزكاة

ولأهمية الزكاة في حياة الأمة الإسلامية، ودورها في محاربة الفقر وتحسين الاقتصاد، وتدوير رؤوس الأموال، يجب على ولاة الأمر[1] القيام بجباية الزكاة ممن تجب عليهم، فقد أخبر تعالى أنَّها واحدة من واجبات المؤمنين عند التمكين، ولاةً ورعيةً، وبذلًا وجبايةً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴿41﴾﴾[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وَقَالَ الصَّبَّاحُ بْنُ سِوَادَةَ الْكِنْدِيُّ: سَمِعَتْ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرْضِ﴾ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْوَالِي وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهَا عَلَى الْوَالِي وَالْمُولَى عَلَيْهِ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا لَكَمَ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلكم، وَبِمَا لِلْوَالِي عَلَيْكُمْ مِنْهُ؟ إِنَّ لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكُمْ أَنْ يُؤَاخِذَكُمْ بِحُقُوقِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يَأْخُذَ لِبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ مَا اسْتَطَاعَ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ الطَّاعَةَ غَيْرَ الْمَبْزُوزَةِ وَلَا الْمُسْتَكْرَهَةِ، وَلَا الْمُخَالِفَ سِرُّهَا عَلَانِيَتَهَا. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (النُّورِ: 55).] اهـ[3].

فالواجب على ولي الأمر، أنْ يقوم بإنشاء وزارة، أو مؤسسة خاصة، لجباية الزكاة، تقوم بإعداد قوائم بأصحاب الأموال، والممتلكات، والشركات، والمصانع، والمزارع، وكلّ ما تجب فيه الزكاة. وتقوم تلك الوزارة أو المؤسسات الخاصة بالإشراف على جباية الزكاة، ممن تجب عليهم، ودفعها إلى مستحقيها من الأصناف الثمانية الذين حددهم القرآن الكريم.

ولا مانع كذلك من أنْ تقوم جهات ومؤسسات خيرية أخرى، غير حكومية، بجباية الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، وإنْ كان الأفضل حصريًّا، قيام ولي الأمر بذلك من خلال المؤسسات الحكومية التي ينشئها لهذا الغرض، لأنَّ له سلطان وولاية على الناس، فيأخذ الزكاة بالقوة فيما إذا امتنع مانعٌ من أدائها، ولا يترك الناسَ فقط إلى دينهم وتقواهم في بذل زكاة أموالهم لأنه لا يأمن من تردد وتقاعس بعض الأغنياء عن أدائها.

(1) كما ذكرنا آنفًا من قيام النبي ﷺ بإرسال العاملين لجباية الزكاة، وسار على ذلك الخلفاء الراشدون والخلفاء من بعدهم.

(2) الحج، الآية: ﴿41﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 383/5.

وينبغي على تلك الجهات والمؤسسات الحكومية والخيرية التي تقوم بجباية الزكاة وتوزيعها، الأمانة والنزاهة وتقوى الله، والتحري الشديد في أخذها ممن تجب الزكاة عليهم فعلًا، ومِنْ ثَمَّ إيصالها إلى مستحقيها الحقيقيين من الأصناف الثمانية الذين ذكرهم القرآن الكريم.

وأما واجب الرعية، فيجب على كل مسلم ملك النصاب، وحال عليه الحول، أنْ يؤديها ولا يتأخر في ذلك، ولا يتهرَّب منها، أو يُعطيها بنقصان عما تجب فيما ملك من نصاب.

ودافعُ الزكاة، باستطاعته أنْ يدفعها بنفسه إلى مستحقيها مباشرة، إذا تيسَّر ذلك واذن ولي الامر بذلك. أو يدفعها إليه، أعني ولي الأمر، أو الى المؤسسات الخيرية الأخرى التي أُنشأت من أجل جباية ودفع الزكاة، ليقوموا بإيصالها إلى مستحقيها.

وقد نص أهل العلم —كما ذكرنا آنفًا – على وجوب قيام ولي الأمر بأخذ الزكاة قهرًا من مانعها إذا كان في قبضته، فإن لم يكن في قبضته، قاتله عليها، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿5﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وَلِهَذَا اعْتَمَدَ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْثَالِهَا، حَيْثُ حَرَّمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ، وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْقِيَامُ بِأَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ. وَنَبَّهَ بِأَعْلَاهَا عَلَى أَدْنَاهَا، فَإِنَّ أَشْرَفَ الْأَرْكَانِ بَعْدَ الشَّهَادَةِ الصَّلَاةُ، الَّتِي هِيَ حَقُّ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعْدَهَا أَدَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ نَفْعٌ مُتَعَدٍّ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَخْلُوقِينَ؛ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللَّهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ الْحَدِيثَ.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُمِرْتُمْ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فَلَا صَلَاةَ لَهُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَبَى اللَّهُ أَنْ يَقْبَلَ الصَّلَاةَ إِلَّا بِالزَّكَاةِ، وَقَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ، مَا كَانَ أَفْقَهَهُ.] اهـ[2].

---

(1) التوبة، الآية: ﴿5﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 98/4.

والدليل على أنَّ ولاة الأمرِ هُم من يقوموا بمهام جباية الزكاة وإيصالها إلى مستحقيها، وذلك لحديث ابن عباس المتقدم[1].

والواجب على المسلمين أنْ يعلموا خطورة منع الزكاة، والتهاون في أدائها، ليس من ناحية العقوبة في الآخرة فحسب، بل ومن عواقب ذلك في الدنيا وفي حياة الأمة الإسلامية، أيضًا.

إنَّ عدم أداء الزكاة والتهاون في ذلك، ومحاولة أصحاب الأموال التهرب والتحايل من أجل عدم دفع زكاة أموالهم، سيؤدي إلى ظلم الفقراء والمساكين وبقية مستحقي الزكاة. مما يؤدي ذلك إلى ازدياد الفقر والجوع والفاقة، وازدياد وتراكم ديون الغارمين، الذين لهم نصيبٌ في الزكاة، وسيعم الحقد والحسد والبغضاء في الأمة. وسيؤدي ذلك إلى ظهور وازدياد الجرائم في بلاد المسلمين، كالسرقة، وقطع الطرق، والرشوة والاحتيال بسبب البطالة، والفقر، والجوع، والحرمان، وتفشي ذلك في المجتمع، مما يؤدي ذلك قطعًا إلى انهيار الأخلاق والأمانة والأمان في الأمة. عن علي بن أبي طالب قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ اللّهَ فرضَ على أغنياءِ المسلمينَ في أموالِهم بقدرِ الَّذي يسعُ فقراءَهم ولن يجهدَ الفقراءُ إذا جاعوا وعرَوا إلَّا بما يضيِّعُ أغنياؤُهم ألا وإنَّ اللّهَ يحاسبُهم حسابًا شديدًا ويعذِّبُهم عذابًا أليمًا.﴾[2].

الزكاة مصدر مالي استراتيجي لخزينة الدولة

لا شك إنَّ مِن أهمِّ مهامِ الأمة الإسلامية، حمايةَ دينها ومنهجها وعقيدتها، وكذلك حمايةَ أراضيها وشعبها ومقدراتها. فإذا لم تستمر الأمة في الجهاد والدفاع عن نفسها ودينها وعقيدتها، فلا شكَّ سيطمعُ بها أعداؤها، ويتربص بها لمهاجمتها والنيل منها ومن دينها، والهيمنة عليها.

وقد يمرُّ المسلمون في أزمات ومصاعب ومحن، وتعاني بلاد المسلمين من مشاكل وأزمات مالية واقتصادية، وعجز في مواردها. فعلى الرغم من ذلك العجز وتلك الأزمات التي تصيب الأمة، لا بد للجهاد

(1) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ: ﴿ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ: ﴿ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ.﴾. تقدم تخريجه، حيث دلَّ على أنَّ الإمامَ هو الذي يتولَّى قبْضَ الزَّكاة وصَرْفَها؛ إمَّا بنَفْسه، وإمَّا بنائِبه، فمَنِ امتنَعَ منها أُخِذَتْ منه قهرًا **فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، 360/3.

(2) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، 65/3، وقال: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ وَالْأَوْسَطِ، وَقَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ ثَابِتُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّاهِدُ. قُلْتُ: ثَابِتٌ مِنْ رِجَالِ الصَّحِيحِ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ وُثِّقُوا، وَفِيهِمْ كَلَامٌ، اهـ. مجمع الزوائد. ضعفه الألباني في كتاب ضعيف الترغيب والترهيب، برقم: (462).

في سبيل الله أنْ يستمر ولا يتعطل. ولا بد للأمة من بذل المال في الجهاد، وفي تجهيز المجاهدين، وبذله في تأليف القلوب لترغيبها بالإسلام والدعوة إلى الله، كي تدافع الأمة عن نفسها، وعن دينها أمام أطماع الأعداء الذين يتربصون بها. وكذلك، كي تستمر الدعوة إلى الله، ويستمر نشرُ الدين وهداية الناس، فلا يطمع حينئذ طامعٌ، وذلك لما يرى ما يتمتع به المسلمون من قوة وبأس ونشاط في الدفاع عن أمتهم ودينهم.

ومما لا شك فيه، فإنَّ الجهاد في سبيل الله يتطلب من الأمةِ إعداد العُدة ماديًّا ونفسيًّا وعسكريًّا، وكل ذلك يحتاج بالدرجة الأولى إلى موارد مالية من أجل الإنفاق على تجهيز المقاتلين وإعدادهم. من أجل ذلك، جعل تعالى احدى مصارف الزكاة الثمانية لهذا الغرض، أعني الإنفاق في سبيل الله، وهو الجهاد بإجماع أهل العلم، قال تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]

---

(1) التوبة، الآية: ﴿60﴾. نذكر هنا – مختصرًا – أقوال أهل التفسير في المقصود بقوله تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو الجهاد، وكما يلي:

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية بقوله: [وَأَمَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: فَمِنْهُمُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيوَانِ، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالْحَسَنِ، وَإِسْحَاقَ: وَالْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، لِلْحَدِيثِ. إلى أن قال: وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْآيَةُ، وَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَر، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَار، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: الْعَامِلِ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مِسْكِينٍ تُصُدِّقَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيٍّ.﴾، وَقَدْ رَوَاهُ السُّفْيَانَانِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءٍ مُرْسَلًا. وَلِأَبِي دَاوُدَ عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، أَوْ جَارٍ فَقِيرٍ فيُهدي لَكَ أَوْ يَدْعُوكَ.﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 149/4.

وذكر الطبري في تفسيره للآية بقوله: [قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الصَّدَقَةَ فِي مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا سَدُّ خَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَالْآخَرُ مَعُونَةُ الْإِسْلَامِ وَتَقْوِيَتُهُ، فَمَا كَانَ فِي مَعُونَةِ الْإِسْلَامِ وَتَقْوِيَةِ أَسْبَابِهِ فَإِنَّهُ يُعْطَاهُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْطَاهُ مَنْ يُعْطَاهُ بِالْحَاجَةِ مِنْهُ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يُعْطَاهُ مَعُونَةً لِلدِّينِ، وَذَلِكَ كَمَا يُعْطَى الَّذِي يُعْطَاهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُعْطَى ذَلِكَ غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا لِلْغَزْوِ لَا لِسَدِّ خُلَّتِهِ. إلى أن قال: وأما قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَفِي النَّفَقَةِ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ وَطَرِيقِهِ وَشَرِيعَتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَذَلِكَ هُوَ غَزْوُ الْكُفَّارِ. وَبِالَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قَالَ: الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، قَالَ: ثنا أَبِي، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: رَجُلٍ عَمِلَ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ ابْنِ السَّبِيلِ، أَوْ رَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَأَهْدَاهَا لَهُ.﴾.

قَالَ: ثنا أَبِي، عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ ابْنِ السَّبِيلِ، أَوْ رَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَأَهْدَاهَا لَهُ.﴾.]، اهـ. تفسير الطبري، 523/11.

وذكر القرطبي في تفسيره للآية بقوله: [الثانية والعشرون– قوله تعالى: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) وَهُمُ الْغُزَاةُ وَمَوْضِعُ الرِّبَاطِ، يُعْطَوْنَ مَا يُنْفِقُونَ فِي غَزْوِهِمْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فُقَرَاءَ. وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ تَحْصِيلُ مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ. وَيُؤْثَرُ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ أَنَّهُمَا قَالَا: سَبِيلُ اللَّهِ الْحَجُّ.]، اهـ. تفسير القرطبي، 185/8.

.ومن أجل الدعوة إلى الله، ونشر الدين، ودفع الأذى عن الأمة، فقد خصص تعالى أيضًا، مصرفًا آخَرًا من مَصَارِف الزكاة لذلك الغرض، وذلك مَصرف (المؤلفة قلوبهم)، من أجل تأليف القلوب، وكف أذاهم، ومن أجل ترغيبهم للدخول إلى الإسلام. وبذلك يكون مصرف المؤلفة قلوبهم مصدرًا آخرًا من المصادر المالية لخزينة الدولة.

منع الزكاة قد يعطل المصالح العليا الأمة

ونتيجة لما ذكرناه في الفقرة السابقة، فإِنَّ منع الزكاة قد يؤدي إلى تأثر، وربما تعطَّل مصالح الأمة الإسلامية العليا، تلك المصالح التي تخص وجودها وأمنها الخارجي واستقرارها، واستمرار الدعوة إلى الله وانتشارها في الأرض. من المعلوم أنَّ من بين أصناف مصارف الزكاة الثمانية، صنف ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1]،

(1) ذكر الطبري في تفسيره: [وَأَمَّا ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ كَانُوا يُتَأَلَّفُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِمَّنْ لَمْ تَصِحَّ نُصْرَتُهُ اسْتِصْلَاحًا بِهِ نَفْسَهُ وَعَشِيرَتَهُ، كَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَنُظَرَائِهِمْ مِنْ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: ثني أَبِي، قَالَ: ثني عَمِّي، قَالَ: ثني أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، وَهُمْ قَوْمٌ كَانُوا يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَدْ أَسْلَمُوا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرْضَخُ لَهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ، فَإِذَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ فَأَصَابُوا مِنْهَا خَيْرًا قَالُوا: هَذَا دِينٌ صَالِحٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، عَابُوهُ وَتَرَكُوهُ.

ثم قال أبو جعفر بعد أن ذكر أقوال السلف في سهم المؤلفة قلوبهم:

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الصَّدَقَةَ فِي مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا سَدُّ خَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَالْآخَرُ مَعُونَةُ الْإِسْلَامِ وَتَقْوِيَتُهُ، فَمَا كَانَ فِي مَعُونَةِ الْإِسْلَامِ وَتَقْوِيَةِ أَسْبَابِهِ فَإِنَّهُ يُعْطَاهُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْطَاهُ مَنْ يُعْطَاهُ بِالْحَاجَةِ مِنْهُ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يُعْطَاهُ مَعُونَةً لِلدِّينِ، وَذَلِكَ كَمَا يُعْطَى الَّذِي يُعْطَاهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُعْطَى ذَلِكَ غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا لِلْغَزْوِ لَا لِسَدِّ خُلَّتِهِ. وَكَذَلِكَ الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ يُعْطَوْنَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ، اسْتِصْلَاحًا بِإِعْطَائِهِمُوهُ أَمْرَ الْإِسْلَامِ وَطَلَبَ تَقْوِيَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ. وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ مَنْ أَعْطَى مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، بَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ وَفَشَا الْإِسْلَامُ وَعَزَّ أَهْلُهُ، فَلَا حُجَّةَ لِمُحْتَجٍّ بِأَنْ يَقُولَ: لَا يُتَأَلَّفُ الْيَوْمَ عَلَى الْإِسْلَامِ أَحَدٌ لِامْتِنَاعِ أَهْلِهِ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ مَنْ أَعْطَى مِنْهُمْ فِي الْحَالِ الَّتِي وَصَفْتُ.]

اهـ. تفسير الطبري، 519/11.

ذكر ابن كثير في تفسيره أيضًا: [وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ: فَأَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيُسلم، كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا. قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أحبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَيَّ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ عَدِيٍّ، أنا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: ﴿أَعْطَانِي رسول الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ وَإِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ.﴾. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى ليحسُن إِسْلَامُهُ، وَيَثْبُتَ قَلْبُهُ، كَمَا أَعْطَى يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ الطُّلَقَاءِ وَأَشْرَافِهِمْ: مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَقَالَ: ﴿إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّه اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بذُهَيبة فِي تُرْبَتِهَا مِنَ الْيَمَنِ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وعُيَينة بْنِ بَدْرٍ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلاثة، وَزَيْدِ الْخَيْرِ، وَقَالَ: ﴿أَتَأَلَّفُهُمْ﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُعطى لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نُظَرَائِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُعطى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ مِمَّنْ يَلِيهِ، أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْ حوزة الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ. وَمَحَلُّ تَفْصِيلِ هَذَا فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ، واللَّهُ أَعْلَمُ.

وَهَلْ تُعْطَى الْمُؤَلَّفَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فِيهِ خِلَافٌ، فرُوي عَنْ عُمَرَ، وَعَامِرٍ الشَّعْبِيِّ وَجَمَاعَةٍ: أَنَّهُمْ لَا يُعطَون بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، ومَكَّن لَهُمْ فِي الْبِلَادِ، وَأَذَلَّ لَهُمْ رِقَابَ الْعِبَادِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ يُعطَون؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَعْطَاهُمْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَكَسْرِ هَوازن، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيُصْرَفُ إِلَيْهِمْ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 146/4.

فصل:

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الأول: (استخلاص الأركان)

وصنف ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، ومَصرفُه في الجهادِ في سبيلِ الله، وهذا باتّفاقِ المذاهِبِ الفِقهيَّة الأربَعةِ: الحنفيَّة[2]، والمالكيَّة[3]، والشافعيَّة[4]، والحَنابِلَة[5]، وهو مذهَبُ الظَّاهِريَّة[6]، وقولُ أكثَرِ العلماءِ[7]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[8].

---

(1) ذكر الطبري في تفسيره: 527/11 بقوله: [وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَفِي النَّفَقَةِ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ وَطَرِيقِهِ وَشَرِيعَتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَذَلِكَ هُوَ غَزْوُ الْكُفَّارِ. وَبِالَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. ذكر من قال ذلك:

حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قَالَ: الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، قَالَ: ثنا أَبِي، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: رَجُلٍ عَمِلَ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ ابْنِ السَّبِيلِ، أَوْ رَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَأَهْدَاهَا لَهُ.﴾.

قَالَ: ثنا أَبِي، عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ ابْنِ السَّبِيلِ، أَوْ رَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَأَهْدَاهَا لَهُ.﴾.] اهـ. تفسير الطبري، 527/11.

وذكر ابن كثير في تفسيره أيضًا:

[وَأَمَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: فَمِنْهُمُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيوَانِ، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالْحَسَنِ، وَإِسْحَاقَ: وَالْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، لِلْحَدِيثِ.] اهـ تفسير ابن كثير، 4/148.

(2) (العناية شرح الهداية)، للبابرتي، 264/2. العناية شرح الهداية، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي البابرتي (ت 786هـ)، مطبوع بهامش: فتح القدير للكمال بن الهمام، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (وصَوّرتها دار الفكر، لبنان)، الطبعة: الأولى، 1389هـ- 1970م، عدد الأجزاء: 10. و (البناية شرح الهداية) لبدر الدين العيني، 454/3. البناية شرح الهداية، المؤلف: محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين المعروف بـ «بدر الدين العيني» الحنفي (ت 855هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، تحقيق: أيمن صالح شعبان، الطبعة: الأولى، 1420هـ- 2000م، عدد الأجزاء: 13، تنبيه: «الهداية للمرغيناني» بأعلى الصفحة يليه - مفصولا بفاصل - «البناية شرح الهداية» للعيني.

(3) (مواهب الجليل) للحطاب، 342/3. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (ت 954هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، 1412هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 6. ويُنظر: (التلقين في الفقه المالكي) لعبد الوهاب بن نصر الثعلبي، 68/1. التلقين في الفقه المالكي، المؤلف: أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي (ت 422هـ)، المحقق: أبي أويس محمد بو خبزة الحسني التطواني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1425هـ- 2004م، عدد الأجزاء: 2. وكذلك: (تفسير القرطبي)، 185/5.

(4) (كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار) لأبي بكر بن محمد الحسيني، ص 194. كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، المؤلف: أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي (ت 829هـ)، المحقق: علي عبد الحميد بلطجي ومحمد وهبي سليمان، الناشر: دار الخير – دمشق، الطبعة: الأولى، 1994م. و(تحفة المحتاج) لابن حجر الهيتمي، 159/7. تحفة المحتاج في شرح المنهاج، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، الطبعة: بدون طبعة، عام النشر: 1357هـ- 1983م، عدد الأجزاء: 10.

(5) (المغني) لابن قدامة، 482/6، (حاشية الروض المربع) لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم، 319/3. حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي (ت 1392هـ)، الناشر: (بدون ناشر)، الطبعة: الأولى - 1397هـ، عدد الأجزاء: 7.

فصل:

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الأول: (استخلاص الأركان)

فقد تحتاج الأمة إلى الزكاة للإنفاق على الجهاد(1)، والدعوة إلى الله، وتأليف قلوب غير المسلمين وترغيبهم، طمعًا في إسلامهم(2)، خصوصًا إذا كانت مواردها وثرواتها الطبيعية غير كافية، أو كانت تعاني من عجز وأزمات مالية واقتصادية.

(6) قال ابنُ حَزْم: (وأمَّا سبيلُ اللهِ، فهو الجهادُ بحقٍ). (المحلَّى)، 275/4. المحلَّىٰ بالآثار، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (الظاهري)، المحقق: عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الفكر – بيروت، عدد الأجزاء: 12.

(7) وبه قال إسحاقُ، وأبو ثور، وأبو عبيد القاسم بن سلام والطبري، وابن المُنْذِر. (تفسير القرطبي)، 185/8، (المغني) لابن قدامة، 482/6.

(8) قال ابنُ العربي: [لا أعلم خِلافًا في أنَّ المرادَ بِسَبيلِ الله هاهنا: الغزوُ، ومن جملة سبيلِ اللهِ، إلَّا ما يُؤثَر عن أحمد وإسحاق؛ فإنَّهما قالا: إنَّه الحَجُّ، والذي يصحُّ عندي مِن قَولِهما أنَّ الحَجَّ مِن جُملة السُّبُلِ مع الغَزوِ؛ لأنَّه طريق برّ فأُعطي منه باسْم السبيلِ، وهذا يحُلُّ عُقْدَ الباب، ويخرِمُ قانونَ الشريعة، ويَنثُر سلكَ النظر. وما جاء قطُّ بإعطاءِ الزَّكاة في الحجِّ أثرٌ]. (أحكام القرآن)، 533/2.

وقال ابنُ قُدامة: [لا خلافَ في استحقاقِهم وبقاءِ حُكمِهم، ولا خلاف في أنَّهم الغُزاةُ في سبيل الله؛ لأنَّ سبيلَ الله عند الإطلاق هو الغَزوُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، (البقرة: 190﴾، وقال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المائدة: 54)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ (الصف: 4﴾، وذكَر ذلك في غيرِ موضعٍ مِن كتابِه، فإذا تقرَّر هذا، فإنَّهم يُعطَون وإن كانوا أغنياءَ]. ﴿المغني﴾ (6/ 482). وينظر: (تفسير القرطبي)، 3/236، (مجلة البحوث الإسلامية)، 26/2. منقول من موقع (الدُّرَر السَّنيَّةُ) على شبكة الانترنت.

(1) نقصد بالجهاد بقسميه: جهاد الدفع والطلب.

(2) هذه مسالةٌ خلافيةٌ بين أهل العلم، أعني: هل يجوز دفع الزكاة إلى غير المسلمين، وبالأخص من سهم المؤلفة قلوبهم؟ ففي جواب على سؤال: هل يجوز أن يعطى الكافر من الزكاة؟ فأُجيب في موقع (الإسلام سؤالٌ وجواب) بما نصه:

[لا يجوز إعطاء الزكاة لكافر إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم. قال ابن قدامة في (المغني)، 106/4:

(لا نَعْلَمُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ خِلافًا فِي أَنَّ زَكَاةَ الأَمْوَالِ لا تُعْطَى لِكَافِرٍ. قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: أَجْمَعَ كُلُّ مَنْ نَحْفَظُ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الذِّمِّيَّ لا يُعْطَى مِنْ زَكَاةِ الأَمْوَالِ شَيْئًا. وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ: أَعْلِمْهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ. فَخَصَّهُمْ بِصَرْفِهَا إِلَى فُقَرَائِهِمْ (يعني: فقراء المسلمين)، كَمَا خَصَّهُمْ بِوُجُوبِهَا عَلَى أَغْنِيَائِهِمْ) انتهى.

وإذا كان الكافر من المؤلفة قلوبهم جاز إعطاؤه من الزكاة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 60).

فيجوز أن تعطى الزكاة للكافر إذا كنا نرجو بعطيته إسلامه. انظر: (الشرح الممتع)، 143/6.

قال ابن قدامة في (المغني)، 108/4: وَلا يُعْطَى الْكَافِرُ مِنَ الزَّكَاةِ، إلا لِكَوْنِهِ مُؤَلَّفًا.

وجاء في الموسوعة، 233/14: (تُعْطَى الزَّكَاةِ لِلْكَافِرِ الَّذِي يُرْجَى إِسْلامُهُ تَرْغِيبًا لَهُ فِي الإِسْلامِ لِتَمِيلَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ)، انتهى بتصرف يسير.

وسئل الشيخ ابن باز: أيصح إعطاء الزكاة للذمي؟ فأجاب:

الزكاة على قول الجمهور لا تعطى لذمي ولا غيره من الكفرة، وهو الصواب، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة معلومة، لأن الزكاة مواساة من المسلمين لفقرائهم، ورعاية لسد حاجتهم، فيجب أن توزع بين فقرائهم، وغيرهم من بقية الأصناف الثمانية، إلا أن يكون الكافر من المؤلفة قلوبهم، وهم الرؤساء المطاعون في عشائرهم، فيعطى ترغيبًا له في الإسلام، أو لكف شره عن المسلمين، كما يعطى المؤلَّف أيضًا لتقوية إيمانه إذا كان مسلمًا، أو لإسلام نظيره أو لغير ذلك من الأسباب التي نص عليه العلماء.

أثر الصلاة والزكاة في حياة الأمة الإسلامية

وهكذا نرى كيف أنَّ الأمة الإسلامية بإقامها الصلاة وإيتائها الزكاة، تكون أطهر أمة، وأعلى أمة، وأشهر أمة، وأقوى أمة: معنويًّا وروحيًّا، واجتماعيًّا، وماليًّا، واقتصاديًّا، وعسكريًّا. حيث إنَّ الصلاة والزكاة تتشاركان في إقامةِ ونُصرة ونشرِ الدين، والدعاية له والإعلان عنه إلى العالم أجمع، والدفاع عنه وعن الأمة الإسلامية جمعاء.

ومصداق ذلك أنَّ الله تعالى قد وعد المؤمنين بإستخلافهم في الأرض، والتمكين لهم للعيش بأمان واطمئنان، كي يعبدوه لا يشركون به شيئًا، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُم الْفَاسِقُونَ ﴿55﴾﴾[1].

ثم عقبَّ ذلك، بالأمرِ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿56﴾﴾[2].

فبالصلاة والزكاة، تتطهر الأمة، وتظهر وتعلن دين الله، وتتوحد وتحقق الاكتفاء الذاتي: المالي والاقتصادي.

الأمر الثالث والرابع: العبادةُ وفِعلُ الخيرِ

ثم أجملَ تعالى بشأنِ الدين كلهِ بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، فيندرج تحت ذلك، كُلُّ ما أمرَ اللهُ به ونهى عنه، أي بمعنى آخر: الدينُ كُلُّهُ.

والأصل في ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (التوبة: 60). وقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه لليمن: ﴿ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ﴾ الحديث متفق عليه.] اهـ. موقع (الإسلام سؤالٌ وجواب) على شبكة الانترنت.

(1) النور، الآية: ﴿55﴾.

(2) النور، الآية: ﴿56﴾.

(3) ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ يَقُولُ: وَذِلُّوا لِرَبِّكُمْ، وَاخْضَعُوا لَهُ بِالطَّاعَةِ، ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ الَّذِي أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِفِعْلِهِ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، يَقُولُ: لِتُفْلِحُوا بِذَلِكَ، فَتُدْرِكُوا بِهِ طَلِبَاتِكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ.] اهـ. تفسير الطبري، 638/16.

فصل:

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الأول: (استخلاص الأركان)

ويمكننا القول أيضا أنَّ هناك عموم وخصوص في قوله تعالى: ﴿واعْبُدُوا رَبَّكُمْ وافْعَلُوا الخيْرَ﴾. فقوله تعالى: ﴿واعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، أي الالتزام بجميع ما أمر تعالى به المسلمين من عبادات، وأركان، ومعاملات، وغيرها من الحلال والحرام.

وذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيِ امْتَثِلُوا أَمْرَهُ. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ نُدِبَ فِيمَا عَدَا الْوَاجِبَاتِ الَّتِي صح وجوبها من غير هذا الموضع.] اهـ. تفسير القرطبي، 12/98.

وذكر صديق حسن خان في تفسيره الآية بقوله: [ثم عمم فقال: (واعبدوا ربكم) أي افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها، وقيل وحّدوه (وافعلوا الخير) أي ما هو خير وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة وقيل: المراد بالخير هنا المندوبات. ثم علل ذلك بقوله: (لعلكم تفلحون) أي إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح، وفي هذا إشارة إلى أن دخول الجنة ليس مرتبًا على هذه الأعمال مثلًا، بل هذه الأمور كلفنا الله بها شرعًا، وأما قبولها فشيء آخر يتفضل الله به علينا.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 87/9.

وذكر الشوكاني في تفسيره الآية بقوله: [ثُمَّ عَمَّمَ فَقالَ: ﴿واعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أيِ افْعَلُوا جَمِيعَ أنْواعِ العِبادَةِ الَّتِي أمَرَكُمُ اللَّهُ بِها ﴿وافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ أيْ ما هو خَيْرٌ، وهو أعَمُّ مِنَ الطّاعَةِ الواجِبَةِ والمَندُوبَةِ، وقِيلَ: المرادُ بِالخَيْرِ هُنا المَندُوباتُ.] اهـ. تفسير الشوكاني، 3/556.

وذكر ابن جُزَيّ في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ عموم في العبادة بعد ذلك الصلاة التي عبر عنها بالركوع والسجود، وإنما قدمها لأنها أهم العبادات ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ قيل: المراد صلة الرحم، وقال ابن عطية: هي في الندب فيما عدا الواجبات، واللفظ أعم من ذلك كله.] اهـ. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جُزَيّ، 47/2.

وذكر فخر الدين الرازي في تفسيره الآية بقوله: [الثّانِي: قَوْلُهُ: ﴿واعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهًا:

أحَدُها: اعْبُدُوهُ ولا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ.

وثانِيها: واعْبُدُوا رَبَّكم في سائِرِ المَأْمُوراتِ والمَنهِيّاتِ.

وثالِثُها: افْعَلُوا الرُّكُوعَ والسُّجُودَ وسائِرَ الطّاعاتِ عَلى وجْهِ العِبادَةِ؛ لِأنَّهُ لا يَكْفِي أنْ يُفْعَلَ فَإنَّهُ ما لَمْ يَقْصِدْ بِهِ عِبادَةَ اللَّهِ تَعالى لا يَنْفَعُ في بابِ الثَّوابِ، فَلِذَلِكَ عَطَفَ هَذِهِ الجُمْلَةَ عَلى الرُّكُوعِ والسُّجُودِ.

الثّالِثُ: قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ قالَ ابْنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: يَرِيدُ بِهِ صِلَةَ الرَّحِمِ ومَكارِمَ الأخْلاقِ، والوجه عِنْدِي في هَذا التَّرْتِيبِ أنَّ الصَّلاةَ نَوْعٌ مِن أنْواعِ العِبادَةِ والعِبادَةُ نَوْعٌ مِن أنْواعِ فِعْلِ الخَيْرِ؛ لِأنَّ فِعْلَ الخَيْرِ يَنْقَسِمُ إلى خِدْمَةِ المَعْبُودِ الَّذِي هو عِبارَةٌ عَنِ التَّعْظِيمِ لِأمْرِ اللَّهِ، وإلى الإحْسانِ الَّذِي هو عِبارَةٌ عَنِ الشَّفَقَةِ عَلى خَلْقِ اللَّهِ، ويَدْخُلُ فِيهِ البِرُّ والمَعْرُوفُ والصَّدَقَةُ عَلى الفُقَراءِ وحُسْنُ القَوْلِ لِلنّاسِ، فَكَأنَّهُ سُبْحانَهُ قالَ: كَلَّفْتُكم بِالصَّلاةِ، بَلْ كَلَّفْتُكم بِما هو أعَمُّ مِنها وهو العِبادَةُ، بَلْ كَلَّفْتُكم بِما هو أعَمُّ مِنَ العِبادَةِ وهو فِعْلُ الخَيْراتِ. أمّا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَعَلَّكم تُفْلِحُونَ﴾ فَقِيلَ: مَعْناهُ لِتُفْلِحُوا، والفَلاحُ الظَّفَرُ بِنَعِيمِ الآخِرَةِ، وقالَ الإمامُ أبُو القاسِمِ الأنْصارِيُّ: لَعَلَّ كَلِمَةٌ لِلتَّرْجِيَةِ فَإنَّ الإنْسانَ قَلَّما يَخْلُو في أداءِ الفَرِيضَةِ مِن تَقْصِيرٍ ولَيْسَ هو عَلى يَقِينٍ مِن أنَّ الَّذِي أتى بِهِ هَلْ هو مَقْبُولٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعالى والعَواقِبُ أيْضًا مَسْتُورَةٌ ﴿وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ﴾.] اهـ. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 254/23.

وذكر أبو بكر الجزائري في تفسيره الآية بقوله: [واعبدوا ربكم: أي أطيعوه في أمره ونهيه في تعظيم هو غاية التعظيم وذل له هو غاية الذل.] اهـ. أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، 501/3.

وذكر البيضاوي في تفسيره الآية بقوله: [﴿واعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بِسائِرِ ما تَعَبَّدَكم بِهِ. ﴿وافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ وتَحَرَّوْا ما هو خَيْرٌ وأصْلَحُ فِيما تَأْتُونَ وتَذَرُونَ كَنَوافِلِ الطّاعاتِ وصِلَةِ الأرْحامِ ومَكارِمِ الأخْلاقِ. وافعلوا الخير: أي من كل ما انتدبكم الله لفعله ورغبكم فيه من صالح الأقوال والأعمال.] اهـ. أنوار التنزيل، البيضاوي، 4/80. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – 1418هـ.

أمّا قوله تعالى: ﴿وافْعَلُوا الخيّرَ﴾، فيندرج تحته كل ما أمر تعالى به من خيرٍ وصلاحٍ للأمة الإسلامية، (كالوحدة)، و(الإصلاح بين المسلمين)، و(عدم الاختلاف) و(عدم التفرق) و(عدم الاقتتال بين المسلمين)، و(الأخوة في الدين)، و(التعاون على البر والتقوى)، و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

الأمر الخامس: الجهادُ في سبيل الله

ثم أمرهم تعالى بـ (الجهاد في سبيل الله)، الذي هو ذروة سنام الإسلام، لنشر كلمة الله تعالى، لتكون هي العليا، ويكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

ذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ قِيلَ: عَنَى بِهِ جِهَادَ الْكُفَّارِ. وَقِيلَ: هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى امْتِثَالِ جَمِيعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَالانْتِهَاءِ عَنْ كُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، أَيْ جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرُدُّوهَا عَنِ الْهَوَى، وَجَاهِدُوا الشَّيْطَانَ فِي رَدِّ وَسْوَسَتِهِ، وَالظَّلَمَةَ فِي رَدِّ ظُلْمِهِمْ، وَالْكَافِرِينَ فِي رَدِّ كُفْرِهِمْ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَالَ مُقَاتِلٌ: وَهَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: 16). وَكَذَا قَالَ هِبَةُ اللَّهِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ وَقَوْلَهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى. ﴿حَقَّ تُقاتِهِ﴾ (آل عمران: 102)، مَنْسُوخٌ بِالتَّخْفِيفِ إِلَى الاسْتِطَاعَةِ فِي هَذِهِ الْأَوَامِرِ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ النَّسْخِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ أَوَّلِ الْحُكْمِ، لِأَنَّ ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾، مَا ارْتَفَعَ عَنْهُ الْحَرَجُ. وَقَدْ رَوَى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ﴾. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ. وَهَذَا مِمَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ نَسْخٌ، لِأَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، كَمَا رَوَى حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾، وَكَمَا رَوَى أَبُو غَالِبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿أَيْنَ السَّائِلُ﴾؟ فَقَالَ: أَنَا ذَا، فَقَالَ عَلَيْهِ السلام: ﴿كلمة عدل عند سلطان جائر﴾.] اهـ[1].

(1) تفسير القرطبي، 99/12. وذكر السعدي أيضًا في تفسيره الآية بقوله: [﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك.] اهـ. تفسير السعدي، 546.

الأمر السادس: الاعتصامُ بالله

ثم أمرهم بالاعتصام به سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾[1].

وقد تقدم بسط الحديث عنه في ركن (الاعتصام بحبل الله). فذلك الاعتصام يضمَنُ لهم (عدمَ التَفَرُّقِ) و(عدم الاختلاف)، وبالتالي (عدم التنازع والاقتِتال)، وذلك لأنَّهم يلتزمون ويتمسَّكون بمنهجٍ واحدٍ، وبذلك يكونون (أمةً واحدةً)، و(جماعةً واحدةً)، هي جماعة المسلمين. ويكونوا (إخوةً في الدين ومتحابين)، بعضهم (أولياءُ بعضٍ)، و(يَنصُر بَعضُهم بعضًا).

الخلاصة

فهذه ستة أوامر ذكرها تعالى في هذه الآية وأَمَرَ المسلمينَ بها، وهي: (الصلاة)، و(الزكاة)، و(العبادة)، و(فعل الخير)، و(الجهاد في سبيل الله)، و(الاعتصام بالله). فتلك الأوامرُ إنما هي بمثابة ملخصُ أركانِ بناءِ الأمةِ الإسلاميةِ، كي تستحقَّ أنْ تكون (خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس). وبذلك تنال المزايا التي خصَّها تعالى بها من دون سائر الأمم، وتكون (الشاهدة على الأمم) يوم القيامة.

ومعلومٌ أنَّ (العبادة) و(فعل الخير)، تشمل جميع الدين، بما فيه: (الصلاة) و(الزكاة) و(الجهاد) و(الاعتصام بالله). وخُصَّ ذكرُ هذه الأربعة الأخيرة لِعِظَم مكانتها في الدين. وإشارةً إلى أنَّ الالتزام بها، وإقامتها، إنَّما هو مُقدمة وسبب لتكريم الأمة، من أجل نيلها هذه المنزلة الشريفة، والمكانة السامية بين الأمم، والتي حباها تعالى للأمة الإسلامية.

إنَّ أُمَّةً نالتْ طهارةَ القلبِ، والثوبِ، والبدنِ، بإقامها الصلاة، وإعلانها نداءُ (الله أكبر) على مدار الساعة.

ونالتْ طهارةَ أفرادها من الحقدِ، والغلِّ، والشُّح، بإيتائها الزكاة، فصارتْ أمةٌ واحدةٌ، غنيةٌ ومستغنيةٌ، يسودها التعاونُ، والمحبةُ، والإيثارُ، والتضحيةُ. لديها الاكتفاء الذاتي، فلا تتسول العالم وتستجديهم من أجل أنْ يجود الكافر عليها ويرمي لها لقمة العيش.

---

(1) ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أَيِ: اعْتَضِدُوا بِاللَّهِ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وتَأَيَّدوا بِهِ،]. اهـ. تفسير ابن كثير، 400/5.

واعتصمتْ هذه الأمة بربها وبحبلِهِ المتين، ولبَّت نِداء ربها بجهادِ أعدائهِ وأعدائِها، لنُصرة عقيدتها ودينها، ليُظهره على الدينِ كله، ويكون الدينُ كله لله.

فاستحقتْ تلك الأمة تشريفَ اللهِ لها واصطفاءه، لتكون (الأمة الوسط)، وليكون الرسول شهيدًا عليها، وتكون (شاهدة على الأمم)، ولتفوز بالمزايا التي منحها الله لها من دون سائر الأمم، فذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل:

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الثاني: (استخلاص المزايا)

ثم ذكر الحق سبحانه (**المزايا والفضائل**) التي خص بها أمة الإسلام، والتي اشتملت عليها الآية الجامعة، وهي كما يلي:

أولًا: الاصطفاء

وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، أي أنَّ الله اصطفاكم واختاركم من بين الأمم، فأنْعِم به من اختيارٍ من قبله تعالى للمسلمين[1].

ذكر ابن القيّم في تفسيره الآية بقوله: [أَخْبَرَ تَعالى أنَّهُ اجْتَباهُمْ، والاجْتِباءُ كالاصْطِفاءِ، وهو افْتِعالٌ مِن (اجْتَبى الشَّيْءَ يَجْتَبِيه) إذا ضَمَّهُ إلَيْهِ وحازَهُ إلى نَفْسِهِ، فَهم المجْتَبُونَ الَّذِينَ اجْتَباهم اللَّهُ إلَيْهِ وجَعَلَهم أهْلَهُ وخاصَّتَهُ وصَفْوَتَهُ مِن خَلْقِهِ بَعْدَ النَّبِيّينَ والمرْسَلِينَ، ولِهَذا أمَرَهم تَعالى أنْ يُجاهِدُوا فِيهِ حَقَّ جِهادِهِ، فَيَبْذُلُوا لَهُ أنْفُسَهُمْ، ويُفْرِدُوهُ بِالمحَبَّةِ والعُبُودِيَّةِ، ويَخْتارُوهُ وحْدَهُ إلَهًا مَعْبُودًا مَحْبُوبًا عَلى كُلِّ ما سِواهُ كَما اخْتارَهم عَلى مَن سِواهُمْ، فَيَتَّخِذُونَهُ وحْدَهُ إلَهَهم ومَعْبُودَهم الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ إلَيْهِ بِألْسِنَتِهِمْ وجَوارِحِهِمْ وقُلُوبِهِمْ ومَحَبَّتِهِمْ، وإرادَتِهِمْ، فَيُؤْثِرُونَهُ في كُلِّ حالٍ عَلى مَن سِواهُ، كَما اتَّخَذَهم عَبِيدَهُ، وأوْلِياءَهُ، وأحِبّاءَهُ وآثَرَهم بِذَلِكَ عَلى مَن سِواهُمْ.]اهـ[2].

---

(1) انظر فصل: (إعداد الأمة الإسلامية وتأهيلها لحمل أمانة الدعوة)، في الباب الأول من هذا الكتاب.

(2) بدائع التفسير، ابن قيّم الجوزيّة، 223/3.

وذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [قوله: ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ﴾، يَقُولُ: هُوَ اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ، وَاصْطَفَاكُمْ لِحَرْبِ أَعْدَائِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ.] اهـ. تفسير الطبري، 640/16.

وذكر السعدي في تفسيره الآية بقوله: [﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: اختاركم – يا معشر المسلمين – من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام.] اهـ. تفسير السعدي، ص 640.

وذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أَيْ: يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ، اللَّهُ اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَفَضَّلَكُمْ وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رَسُولٍ، وَأَكْمَلِ شَرْعٍ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 398/3.

وذكر القرطبي في تفسيره الآية بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ﴾ أَيِ اخْتَارَكُمْ لِلذَّبِّ عَنْ دِينِهِ وَالْتِزَامِ أَمْرِهِ، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالْمُجَاهَدَةِ، أَيْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُجَاهِدُوا لِأَنَّ اللَّهَ اخْتَارَكُمْ لَهُ.] اهـ. تفسير القرطبي، 100/12.

وذكر صديق حسن خان في تفسيره الآية بقوله: [ثم عظَّمَ سبحانه شأنَ المكلفين بقوله: (هو اجتباكم) أي اختاركم لدينه، وفيه تشريف لهم عظيم.] اهـ. فتح البيان، صديق حسن خان، 89/9.

ومعلوم أنَّ هذا الاصطفاء من الله تعالى – للمسلمين – ليس عبثًا، إنَّما هو من أجل مهمة عظيمة، ومسئولية كبيرة، تقع على عاتق وكاهِل كلِّ مسلمٍ ينتمي إلى هذه الأمة وذلك لإقامة ونشر دين الله، ومن أجل الجهاد في سبيل الله وقتال أعدائه. فلينتبه المسلمون لذلك، ولتكن الأمة على مستوى تلك المسؤولية وذلك الاصطفاء.

اصطفاءُ العربِ ولغتِهم وبلادِهم لحملِ الإسلام

لا شك أنَّ قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، يشمل المسلمين عمومًا، بغض النظر عن أجناسهم وألوانِهم وبلدانهم. ولكننا، ونحن نتكلم عن اصطفاء الأمة الإسلامية، لا بد أنْ نشير إلى اجتباءٍ واصطفاءٍ من نوع آخر، أَخَصُّ من ذلك الاصطفاء العام. ذلكم الاصطفاء الخاص قد دلَّ عليه القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأكَّدهُ واقعُ المسلمين، والوقائع التاريخية من تاريخ المسلمين على مَرِّ العصور.

ونعني بذلك الاصطفاء الخاص، اختيار العربِ واصطفاءِهم من دون سائر الأجناس، لحمل آخر الرِّسالات. ويشمل هذا الاصطفاء والاجتباء الامور التالية:

• اصطفاء رسول الله محمد ﷺ العربي الهاشمي القرشي، من أمَّتهم على وجه الخصوص، ليكون خاتمَ الأنبياءِ والمرسلين.

• وكذلك اختيار لغتهم العربية لتكون لغة كلام الله، ولغة سُنَّة رسوله ﷺ، ولغة هذا الدين.

• وأخيرًا، اختيار بلادِهم، جزيرة العرب، لتكون مَهد الرسالة وحاضنتها، إضافة لخصوصيتها أصلًا، كونها تحتضنُ بيت اللهِ الحرام، والمشاعِر المقدسة التي تروي قصة أبي الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام، وابنه (إسماعيل) عليه السلام وأمه (هاجر).

فأما دليلُ ذلك الاصطفاء الخاص – أعني اختيار العرب، وبالأخص الصحابة، ورسولهم ﷺ ولغتهم وبلادهم – من القرآن الكريم، فهو ما يتضمنهُ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]. ويؤيد ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيرِ الآية المذكورة، فقال رحمه الله ما نصه: [وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ.] اهـ[2].

(1) الأنعام، الآية: ﴿124﴾.

(2) تفسير ابن كثير، 298/3.

وأما دليلُ ذلك الاصطفاء الخاص من السُّنَّة، فعلى سبيل المثال، حديثُ واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ اللهَ اصْطَفى كِنانَة من وَلَد إسماعيل، واصْطَفى قُرَيشًا من كِنانة، واصْطَفى بَني هاشم مِنْ قُرَيش، واصْطَفاني مِنْ بني هاشم، فأنا سَيِّدُ وَلَد آدم ولا فَخْر، وأوَّلُ مَن تَنْشَقُّ عنه الأرض، وأوَّلُ شافع، وأوَّل مُشَفَّع.﴾[1].

وكذلك الحديثان الذين ساقهما ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، فقال رحمه الله: [وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا الْمَرْوِيّ عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قَالَ لِي جِبْرِيلُ: قَلَّبْتُ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَقَلَّبْتُ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ بَنِي أَبٍ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ.﴾، رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، حَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْش، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ. ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْه سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ.] اهـ[2].

وأما من الواقع، فأحوالُ العربِ وأخلاقهم والصفات الحميدة التي يحملونها كالشجاعة، والكرم، والصدق، والوفاء، والإخلاص، والمروءة، والغيرة، والحياء، والفصاحة، والبلاغة، والفراسة. وابتعادهم وعدم تأثرهم بالأفكار والفلسفات المنحرفة عند الأمم الأخرى كالفرس والروم، والهنود، والصينيين. وبقاءهم على فطرتهم السليمة، وحياتهم البدوية البسيطة التي أكسبتهم صفاتًا وخصالًا تؤهلهم لتقبل الرسالة الجديدة، بإيمان راسخ وصِدق عظيم، وفهمٍ عميق لمدلول الكتاب والسنة، والتالي التفاني والإخلاص في حملها إلى الأمم الأخرى.

وهذا ما يثبته تاريخُ وسيرة الصحابةِ، ومِن بعدهم تاريخُ العرب المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، وعصر الخلافة الأموية والعباسية[3].

(1) رواه ابن حبان وصححه الألباني في كتاب التعليقات الحسان، برقم 6441، وأصله في صحيح مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، برقم 2276.

(2) تفسير ابن كثير، 299/3.

(3) انظر في فضائل العرب، على سبيل المثال: (مَحَجَّةُ القُرَب إلى مَحَبَّةِ العَرَب)، المؤلف: الحافظ زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ت 806هـ، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1420 – 2000، عدد المجلدات: 1. وكذلك (مسبوكِ الذَّهَب في فَضلِ العَرَبِ وَشَرَفِ العِلمِ على شَرَفِ

جنس العرب أفضل من جنس العجم

ومن المشهور بين اهل العلم ان جنس العرب افضل من جنس العجم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم: عبرانيهم، وسريانيهم، رومهم، وفرسهم، وغيرهم. وأنَّ قريشًا أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفسًا، وأفضلهم نسبًا، وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم، بمجرد كون النبي ﷺ منهم – وإن كان هذا من الفضل – بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفسًا ونسبًا، وإلا لزم الدور. ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسُّنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السُّنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها، وأدركتُ مَن أدركت مِن علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها، فهو مبتدعٌ خارجٌ عن الجماعة، زائلٌ عن منهج السُّنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم، فكان من قولهم: أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ، وساقَ كلامًا طويلًا، إلى أن قال: ونعرف للعرب حقها، وفضلها، وسابقتها. إلى أن قال: وذهبت فرقة من الناس إلى أن لا فضل لجنس العرب على جنس العجم، وهؤلاء يسمون الشعوبية، لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، كما قيل القبائل للعرب والشعوب للعجم. ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب. والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق: إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهات اقتضت ذلك.] أهـ[1].

النَّسَب)، المؤلف: مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (ت 1033هـ)، قدم له، وحققه، وعلق عليه: الدكتور نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية – الرياض – طريق الحجاز، الطبعة: الأولى، 1411هـ– 1990م، و(مَبْلغُ الإِرَبْ فِي فَخْرِ العَرَبْ)، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد، بن حجر الهيتمي (ت 974هـ).

(1) اهـ. باختصار، اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص 419 – 421. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 782هـ)، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، 1419هـ– 1999م، عدد الأجزاء:2.

وهذا موضوع مهم جدًّا، أعني (اصطفاء العرب ولغتهم وبلادهم) وكذلك فضل جنسهم على بقية الاجناس، إنما ذكرناه هنا على عُجالة، وذلك كي ينتبه إليه العرب، ويكونوا على بينة مما يُحاك ضد الإسلام والمسلمين، وضدهم، أعني العرب على وجه الخصوص، من أجل طمس هويتهم العربية. وكذلك العملُ على تغريبِ ثقافتهم ولغتهم - لغة القرآن الكريم والسنة النبوية - من أجل إضعافها وإذابتها في اللغات الأخرى، وإضعافها في قلوب وعقول وألسِنة العرب أنفسهم، والنشء الجديد منهم، على وجه الخصوص. وبالتالي، يصعب عليهم فهم دينهم والتأثر به لنشوء واتساع الفجوة بينهم وبين لغتهم العربية، لغة الكتّاب والسُّنة، ولغة تأريخهم وحضارتهم العربية الإسلامية.

غير أنَّه من الضروري أنْ لا يُساء قصدنا، ويُفهم خطأً ما ذكرناه عن هذا الاصطفاء الخاص لأمَّة العرب، وللغتهم وبلادهم وفضل جنسهم على بقية اجناس العجم، على أنها دعوةٌ قوميةٌ وعنصرية!

نحن نؤمن يقينًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴿13﴾﴾[1]. وبالتالي، نعتقد يقينًا أنْ لا فضلَ لمسلمٍ على مسلمٍ، بغض النظر عن جنسه، إلَّا بالتقوى. وكذلك استنادًا لما جاء في السُّنة، فعن جابر بن عبد الله –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يا أيها الناسُ! إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى، إنَّ أكرمَكم عند اللهِ أتقاكُم، ألا هل بلَّغتُ؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ قال: فيُبَلِّغُ الشاهدُ الغائبَ.﴾[2].

---

(1) الحجرات، الآية: ﴿13﴾.

(2) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة)، برقم: (2700)، إسناده صحيح.

وفي رواية: ﴿لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسود على أبيض إلَّا بالتَّقوَى، النَّاسُ من آدمُ، وآدمُ من ترابٍ.﴾. قال الألباني في شرح الطحاوية: [صحيح، لكن عَزْوُهُ للسنن وهم، فإنه لم يروه أحد منهم، وإنما هو في مسند الإمام أحمد، وقد كنت توقفت فيه قبل سنين، ثم يسر الله تعالى لي جمع كثير من طرقه، وحققت الكلام عليها، فتبين لي أنه صحيح بمجموعها، وأودعت تفصيل ذلك في الموضع المشار إليه، وعليه استجزت إيراده في كتابي الكبير (صحيح الجامع الصغير وزياداته) 1780.] اهـ. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ت 792هـ)، ص 361، خرج أحاديثها: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة 1408هـ- 1988م.

وأنَّ أعمالَ العبدِ هي المعيار في الميزان، وليس الأنساب والأحساب، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿101﴾﴾[1]. وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ به عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.»[2].

ولكن هذا لا يمنع من ذِكر وإظهار فضائلِ ومزايا العرب، تلك التي خصَّهم بها تعالى من دون سائر الأمم، من أجلِ أنْ يصطفيهم ليكونوا مادة الإسلام، وأولَ من يحمله ويُبلِّغه إلى الأمم الأخرى.

ونعود ونكرر ثانيةً، أننا ما ذكرنا ذلك الاصطفاء الخاص هنا، إلَّا لكي ينتبه العرب المسلمون إلى دورهم ومكانتهم في هذا الدين.

ولكي ينتبهوا إلى نظرة المسلمين غير العرب (المسلمون الأعاجم) إليهم، وإلى التزامهم بالإسلام، وإلى لغتهم العربية، وديارهم العربية.

فالمسلمون من غير العرب من الأجناس الأخرى، إنما يعتبرون العرب بمثابةِ قدوة وأسوة حسنة لهم. فهم يعتقدون، ويتوقعون أنَّ العربي المسلم كالصحابة والمسلمين الأوائل في التزامه وتمسكه بدينهم وفهمه له، وحرصه عليه، وتفانيه في حمله والدعوة إليه.

فمن العرب يتعلم الأعاجم المسلمون دينهم. ومنهم، يستمدون القوة والعزم والإخلاص في الدين. وبرؤيتهم، يحنون ويتشوقون إلى ديار العرب، وخصوصًا بلاد الحرمين الشريفين - مهد الإسلام، وينظرون إليها بإجلال وإكرام. فإذا انتكس العرب، وتراجعوا عن الصدارة، والقيادة، والريادة في دينهم ودنياهم، وخربت ديارهم، وتفرقوا، وتمزقوا، تشوهت هذه الصورة، وهذه القدوة الحسنة عن العرب، وعن الإسلام في قلوب الأعاجم المسلمين، وكانت تلك فتنة في الدين، وفسادٌ كبير، ووبالًا على الإسلام والمسلمين عمومًا.

والحقيقة، أنَّ اعتقاد ونظرة الأعاجم المسلمين هذه تجاه العرب المسلمين، أمرٌ منطقيٌّ ومعقول. والسبب في ذلك، أنَّ القرآن الكريم والسُّنةَ وكل ما يتعلق بالدين إنما نزل بلغة العرب، ونزل في ديار العرب. ولذا، فمن السهلِ على العربي فَهم دينه، وتعلقه وتمسكه به. ولهذا يعتقد المسلمون الأعاجم أنَّ العربيَّ المسلم أحرص من غيره، وأوعى لدينه من غيره من المسلمين. لهذا كان من

(1) المؤمنون، الآية: ﴿101﴾.

(2) رواه مسلم في صحيحه من حديث طويل في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر، برقم 2699.

الضروري أن ينتبه العرب المسلمون إلى هذا الأمر الخطير، لئلا تتشوه هذه الصورة وهذه النظرة، فيتأذى الدين بسببها.

وكذلك الحال بالنسبة للغة العربية، فالمسلم الأعجمي ينظر إلى لسانِ العربيّ المسلم بالإعجاب والإجلال، ويستمع إليه بفرح ودهشة وهو يتكلم، وهو يتلو القرآن الكريم، وذلك أنَّ لغتهم العربية التي يتكلمون بها بطلاقة، هي لغةُ دينهم الذي آمنوا به - أعني الأعاجم المسلمين.

ويتمنى الأعجميُّ المسلم أنْ لو كان باستطاعته أنْ يتكلم العربية بطلاقة وبسهولة!

فليعتز العربي بلسانه العربي المبين، ولا يستهنْ ولا يستخف بلغته العربية، ولا يستبدلها باللغات الأعجمية الأخرى.

فكما هو معلوم، أنَّ من يريد أنْ يفهم نصوص الكتاب والسنة، ويتفقه في دينه[1]، يحتاج إلى تعلم العربية وعلومها، وضبطها والنطق بها بطلاقة، لأنه مهما تُرجمت له نصوص الكتاب والسنة، بوضوح وكمال، فإنه قد لا تفي تلك الترجمة بالمقصود، ولا تحيط بكل مدلولات النصوص، وخصوصًا، نصوص القرآن الكريم. إضافة إلى أنَّ القرآن الكريم لا يُتعبَّد به إلا كما أُنزل باللغة العربية، حيث ترجمة الآيات الى لغة أخرى غير العربية تحولها إلى مجرد شرحٍ وتفسيرٍ، وليست قرآنًا يُتلى ويُتعبَّدُ به. ولهذا السبب، فإن تعلمٍ العربية، ولو فقط للنطق بصورة صحيحة قدر الإمكان، يحتاجه المسلم الأعجمي العادي، وخصوصًا في الصلاة، من أجل قراءة الفاتحة وغيرها من السور القصار والاذكار، كحد أدنى لصحة الصلاة.

من أجل ذلك، كان هذا الفضل للغة العربية على سائر اللغات، لأنَّ الجميع مفتقرٌ لتعلمها، وكلًّا حسب استطاعته، وحسب حاجته لفهم الدين.

ولهذا، فالمسلمون الأعاجم يعتزون بالعربي المسلم، وبلغته وبلاده، وخصوصًا ببلاد الحرمين الشريفين، فهم يعتبرونهم مثلًا أعلى، ومصدرَ إلهامٍ وقوةٍ لإيمانهم وعقيدتهم الإسلامية. وأنَّ بلادهم

(1) نقصد بذلك، من يريد أنْ يكون من العلماء الراسخين والمفتين في الدين، وإلَّا فان الدين مُيسَّر فهمه لمن أراد أن يتعلم المبادئ والأسس التي تجعله مسلمًا كامل الإيمان، فقد قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴿17﴾﴾، القمر، الآية: ﴿17﴾.

العربية، كالجزيرة العربية، وأرض الحرمين الشريفين، تذكرهم – أعني الأعاجم المسلمين - بالإسلام، وبسيرة نبيهم ﷺ، وبتاريخ الصحابة الكرام.

وكذلك الحال في الشام، حاضرة الخلافة الأموية، وفي فلسطين، أرض المسجد الأقصى، وفي العراق حاضرِ الخلافة العباسية، وعصر الحضارة الإسلامية الذهبي وعصرِ العلم، وفي مصر والمغرب العربي وغيرها من البلاد العربية، التي تروي تاريخ الإسلام المجيد.

من أجل ذلك، كلما كان العرب المسلمون أكثر التزامًا وتفانيًا واعتزازًا بدينهم، وكانت بلادهم العربية عامرة بالإسلام، ومزدهرة ومتقدمة ومتطورة، في أمر دينها ودنياها، كان لذلك أثرًا كبيرًا في نفوس المسلمين الأعاجم. مما يؤدي إلى اعتزازهم بالإسلام، وازدياد محبتهم له وتعلقهم به، وازدياد محبتهم وتعلقهم بأهله نحن العرب، أحفاد الفاتحين الأوائل، من الصحابة، والتابعين، والذين من بعدهم، وإلى نزول المسيح عليه السلام في أرض العرب، الشام، واقتراب الساعة.

وليس ذلك التأثير مقتصرًا على الأعاجم المسلمين، بل وحتى غير المسلمين، من الغرب والشرق، إذ أنَّ تمسك العرب بدينهم، وتفوقهم وتقدمهم في ميادين الحياة، سيحفز غير المسلمين للتعرف على الإسلام، ومعرفة سرّ قوته وأثره في المسلمين، مما قد يُحفِّزُهم على الدخول في دين الله الحق، ونبذِ دينهم المنحرف، وما هم عليه من الشرك والكفر والإلحاد.

وما لا شك فيه، أنَّ موضوع (اصطفاء العرب) يحتاج إلى تفصيلٍ كبير، سنفرد له مستقبلًا كتابًا مستقلًّا بإذن الله تعالى.

مُحال أنْ تقوم للعربِ (على وجه الخصوص) قائمةٌ بغيرِ الإسلام

تحدثنا في مقدمة الكتاب، وفي فصل (**الهوية الإسلامية**)، عن موضوع ارتباط المسلمين بالإسلام، وأنه ارتباطٌ مصيري. ورأينا كيفَ أنَّه (لا يَصلحُ للمسلمينَ غيرَ الإسلامِ، ولا تقومُ لهم قائمةٌ بدونه). فإنْ كان هذا الحال مع الأعاجم المسلمين، فالحال أشد وأخطر مع العرب المسلمين، بل محال! وهو ما سنبينه في السطور الآتية.

فلو فرضنا جدلًا أنَّ العربَ المسلمين انسلخوا عن دينهم كليًّا، بمعنى ارتدوا واستبدلوه بمناهج وضعية، فلن تقوم لهم حينئذٍ قائمةٌ إلى يوم الدين، مهما فعلوا، ومهما جهدوا أنفسهم، ومهما أخذوا من علومٍ وتكنولوجيا وثقافةٍ وحضارةٍ ومدنيةٍ من الأمم الأخرى.

أما لو فرضنا جدلًا، أنَّ قومًا من الأعاجم المسلمين، قد ارتدُّوا عن الإسلام، أي بمعنى ارتدَّ بلدٌ أعجميٌّ مسلم، عن بَكرة أبيه -وهذا مستبعد جدًّا- واستبدل اهلهُ الإسلامَ بمناهج وضعية، وانسلخوا كليًّا عن الإسلام، فربما بعد حينٍ من الدهر، يتقدمُ هؤلاء القوم الأعاجم، ويتقدم بلدهم، ويصبح كبلاد الكفر المتقدمة. لكنهم لا شكَّ من الخاسرين في الآخرة! شأنهم شأنُ الكفار الآخرين، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿15﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿16﴾﴾[1].

أما عن العرب المسلمين، فمُحال أنْ يحدث هذا معهم، أعني أنْ يُفلِحوا، لو تركوا دينهم بالكُليَّة، إذ فلاحهم وتقدمهم في هذا الحال، يعني زوال الإسلام ومقدساته وتاريخه، وصيرورته أطلالًا وأثرًا بعد عين، وأحاديث كانت في غابر الزمان، وذلك كما سنبينه في دليل التفريق بين القَوْمَين.

دليل التفريق

ودليل ذلك التفريق بين القَوْمَينِ المسلِمَيْنِ، أعني الأعاجم والعرب، والسبب فيه، كما بينا سابقًا، إنما هو **ارتباطُ الإسلامِ بالعربِ والعروبةِ: كِتَابًا**[2]**، وَسُنّةً**[3]**، وَرَسُولًا**[4]**، وأَتْبَاعًا**[5]**، وأَرْضًا**[6]**، وَتَأْرِيخًا**[7]**، وغيرها من الروابط والجذور الممتدة في أعماقِ العرب والعروبة.**

(1) هود، الآيتان: ﴿15، 16﴾.

(2) نزول القرآن الكريم باللغة العربية، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿2﴾﴾، يوسف، الآية: ﴿2﴾، وغيرها من الآيات التي تتكلم عن عربية القرآن الكريم.

(3) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿4﴾﴾، إبراهيم، الآية: ﴿4﴾. ومعلوم أنَّ لسانَ النبي ﷺ، اللسان العربي المبين، فكانت السُّنة بالعربية.

(4) رسول الله محمد ﷺ، عربيٌّ هاشميٌّ مِن قريشٍ. كما جاء في الحديث، فَعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنانَةَ من وَلَد إسماعيل، واصْطَفَى قُرَيشًا من كِنانة، واصْطَفَى بَنِي هاشم مِنْ قُرَيش، واصْطَفاني مِنْ بني هاشم، فأنا سَيِّدُ وَلَد آدم ولا فَخْر، وأَوَّلُ مَن تَنْشَقُّ عنه الأرض، وأوَّلُ شافع، وأوَّل مُشَفَّع.﴾. تقدم تخريجه.

(5) الصحابة، المؤمنون الأوائل، وحملة الدين والذين نقلوا السنة وكلَّ تفاصيل الدين، وأصحاب الفتوحات، هم من العرب، ومن قريش، والمدينة المنورة، والجزيرة العربية.

(6) الجزيرة العربية تضم الحرمين الشريفين، ومواقيت الحج، ومشاعرهُ المقدسة. وفلسطين تضم المسجد الأقصى، أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين. والبلاد العربية، بضمنها الجزيرة العربية، والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب العربي، شهدت الغزوات وأعظم المعارك والفتوحات في حياة الإسلام والمسلمين.

(7) ارتباط تأريخ الإسلام بتأريخ العرب وببلادهم، كالجزيرة العربية والعراق والشام ومصر على وجه الخصوص. وتقسيم المؤرخين للتاريخ إلى قسمين: العهد الجاهلي، والعهد الإسلامي، أو الجاهلية والإسلام. وكذلك الغزوات والمعارك التي شهدها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام، فقد ارتبطت بالعرب وتاريخهم.

لهذا السبب، كان افتراضنا من بدايته مستحيلًا، لأنَّ الله تعالى لنْ يَدَعَ العربَ المسلمينَ، يتخلوا عن دينهِم إلى قيام الساعة، وإلَّا عاقبهم، واستبدل غيرهم من ذرياتهم، وذلك لأنهم أهل الإسلام –آخر الرسالات إلى الناس– وأصلهُ، وحَمَلَتُهُ الأوائلُ إلى البشرية.

والحقيقة أيضًا، أننا فرَّقنا بين الأعاجم والعرب المسلمين فيما افترضنا وذلك، لنصوص الأحاديث النبوية التي وردت في دوام واستمرار وجود الإسلام والعرب المسلمين في البلاد العربية، وخصوصًا في الجزيرة العربية والشام. فعَن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ.﴾[1].

(1) تقدم تخريجه. وفي رواية لمسلم، تقدم تخريجه: ﴿لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ.﴾.

وللإشارة إلى وجود هذه الطائفة في الشام بالتحديد، نورد هنا جواب على سؤال ورد في هذا الخصوص وأُجيبَ عليه في موقع (الإسلام سؤال وجواب) بما يلي:

[عن حديث: ﴿لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ﴾، قال شيخ الإسلام رحمه الله:

(هذا الحديث حديثٌ ثابتٌ متواترٌ من جهة استفاضة ثبوته عند الأئمة، ومُخرَّج في الصحيحين من غير وجه وفي غيرهما. وهذا الحديث فيه تقرير لكون الأمة سيدخلها افتراق واختلاف في مسائل أصول الدين، ولهذا وصف عليه الصلاة والسلام هذه الطائفة بأنها الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، وأنهم على أمر الله ورسوله ﷺ.) انتهى من (شرح حديث الافتراق)، (31/1).

وقد وردت في رواية زيادة في الحديث وهي: ﴿فقيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: هم في بيت المقدس.﴾. فهذه الزيادة رواها الإمام أحمد في المسند: (22319)، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.﴾، وضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة: (5420)، ترقيم الشاملة.

وعلى فرضِ صِحة هذه الرواية، فالمراد بذلك: أنها تكون بالشام في بعض الأزمنة، كما سيكون ذلك في آخر الزمان.

قال الحافظ بن حجر رحمه الله: (والْمُرَاد بِالَّذِينَ يَكُونُونَ بِبَيْتِ الْمَقْدِس: الَّذِينَ يَحْصُرُهُم الدَّجَّال إِذَا خَرَجَ، فَيَنْزِل عِيسَى إِلَيْهِمْ فَيَقْتُل الدَّجَّال.)، انتهى من (فتح الباري).

وقال الشيخ حمود التويجري رحمه الله:

وقد اختلف في مكانها، يعني: الطائفة المنصورة، فقال ابن بطال: إنها تكون في بيت المقدس، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: ﴿قيلَ: يا رسولَ الله! أين هم؟ قال: ببيت المقدس.﴾، وقال معاذ رضي الله عنه: (هم بالشام).

وفي كلام الطبري ما يدلُّ على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى: (ويشهد له الواقع، وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس من أزمنة طويلة، لا يُعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن؛ فإنهم في زمانهم على الحق؛ يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه، وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق، والتمسك بالسنة، والله على كل شيء قدير.

ومما يؤيد هذا: أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد، بل هم في غالب الأمصار؛ في الشام منهم أئمة، وفي الحجاز، وفي مصر، وفي العراق، واليمن، وكلهم على الحق؛ يناضلون ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلامًا لأهل السنة وحجة على كل مبتدع.

فصل:

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الثاني: (استخلاص المزايا)

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلُونَ علَى الحَقِّ ظاهِرِينَ إلى يَومِ القِيامَةِ، قالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ﷺ، فيَقولُ أمِيرُهُمْ: تَعالَ صَلِّ لَنا، فيَقولُ: لا، إنَّ بَعْضَكُمْ علَى بَعْضٍ أُمَراءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هذِه الأُمَّةَ.﴾[1].

وثبت أنَّ المسيح عليه السلام ينزل بالشام، فعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، إلى أنْ قال: ﴿فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ.﴾، الحديث[2].

وعن بقاء الإسلام والإيمان في الجزيرة العربية، وفي المدينة المنورة بالتحديد، فعن أبي هريرة رضي الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ﴿إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ، كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا.﴾[3].

فعلى هذا؛ فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفترق، وقد تكون في الشام وقد تكون في غيره؛ فإنَّ حديث أبي أمامة وقولَ مُعاذ لا يفيد حصرها بالشام، وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها).

قلت: الظاهر من حديث أبي أمامة وقول معاذ أن ذلك إشارة إلى محل هذه الطائفة في آخر الزمان عند خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

ويدل على ذلك ما تقدم ذكره من حديث أبي أمامة الذي رواه ابن ماجه، وفيه: ﴿فقالت أم شريك: يا رسول الله! فأين العربُ يومئذ؟ قال: هم قليل، وجلهم يومئذ ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح.﴾، الحديث.

ففي هذه الأحاديث دليلٌ على أن جُلَّ الطائفة المنصورة يكون بالشام في آخر الزمان، حيث تكون الخلافة هناك. ولا يزالون هناك ظاهرين على الحق، حتى يرسل الله الريح الطيبة، فتقبض كل من في قلبه إيمان؛ كما تقدم في الأحاديث الصحيحة: أن النبي ﷺ قال: ﴿حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.﴾. وقال معاذ: (وهم بالشام).

فأما في زماننا وما قبله؛ فهذه الطائفة متفرقة في أقطار الأرض، كما يشهد له الواقع من حال هذه الأمة، منذ فُتِحت الأمصار في عهد الخلفاء الراشدين إلى اليوم، وتكثر في بعض الأماكن أحيانا، ويعظم شأنها، ويظهر أمرها؛ ببركة الدعوة إلى الله تعالى وتجديد الدين.) انتهى من (إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة)، (1/332) للشيخ حمود التويجري رحمه الله. والله أعلم.] اهـ. موقع (الإسلام سؤالٌ وجواب) على شبكة الانترنت.

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ)، بَابُ (ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ)، برقم (2937).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في (أبواب فضائل المدينة- باب الإيمان يأرز إلى المدينة، برقم 1777).

فلينتبه العرب إلى مكانتهم ودورهم ومسئوليتهم تجاه هذا الدين، وليعتزوا بهذا التشريف والتكليف من رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿44﴾﴾[1]، فذلك فضل الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2].

ثانيًا: التيسير

أما المزية الثانية، فهي التيسير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾.

فتكاد تكون مزية التيسير والتخفيف – أي رفع الحرج – من أبرز صفات الدين والغالبة عليه، ومن أعظم المزايا التي خص تعالى بها الأمة الإسلامية.

لقد جاءت صفة التيسير على الأمة الإسلامية في القرآن الكريم بتعابير متعددة، منها:

رفع الحرج

كما ذكرنا في الآية الجامعة، وفي مواضع كثيرة، منها ما جاء في رفع الحرجِ في الطهارةِ والوضوء والتيمم للصلاة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِن الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ

وفي رواية: عنِ ابنِ عمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ الإسلامَ بدَأَ غرَيبًا، وسيَعودُ غرَيبًا كما بدَأَ، وهو يَأْرِزُ بيْن المسجِدينِ كما تَأْرِزُ الحيَّةُ إلى جُحرِها.﴾. أخرجه مسلم في صحيحه في (كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وإنه يأرز بين المسجدين، برقم 147).

والمرادُ بالمِسجدينِ: المِسجِدُ الحرامُ، ومَسجِدُ المدينةِ.

(يأْرِزُ): بكسر الراء ويجوز فيها الفتح والضم، ومعنى (يأرز) يرجع ويثبت في المدينة كما أن الحية إذا خرجت من جحرها رجعت إليه.

(1) الزخرف، الآية: ﴿44﴾.

(2) الجمعة، الآية: ﴿4﴾.

وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿6﴾ ﴾(1).

انتفاء الجُناح

والجُناح بمعنى الحرَج، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ج فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿198﴾ ﴾(2).

اليسر

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(3).

التخفيف

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ج وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿28﴾ ﴾(4).

---

(1) المائدة، الآية: ﴿6﴾. وجاء أيضًا، رفع الحرج، أي التيسير، في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿61﴾﴾، النور، الآية: ﴿61﴾. وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿91﴾﴾، التوبة، الآية: ﴿91﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴿37﴾مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًاس﴿38﴾﴾، الأحزاب، الآيتان: ﴿37، 38﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴿17﴾﴾، الفتح، الآية: ﴿17﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿198﴾. ذكر الطبري في تفسيره للآية ما نصه: [القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، قال أبو جعفر: يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ذِكْرُهُ: لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ جُنَاحٌ. وَالْجُنَاحُ: الْحَرَجُ، كَمَا حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، قَالَ: ثني مُعَاوِيَةُ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾، وَهُوَ لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي الشِّرَاءِ، وَالْبَيْعِ قَبْلَ الْإِحْرَامِ وَبَعْدَهُ.]، اهـ. تفسير الطبري، 501/3.

(3) البقرة، الآية: ﴿185﴾.

(4) النساء، الآية: ﴿28﴾.

النسخ

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴿106﴾﴾[1].

فقد يكون سببُ النسخ من أجل التخفيف، ورفع الحرج، كما ثبت في قوله تعالى في الآيات الثلاثة الأخيرة من سورة البقرة. فكان في البداية التشديد، من أجل اختبار إيمان واستسلام الصحابة، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿284﴾﴾[2].

ثم بعد استسلام الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – وطاعتهم ورضاهم بما أمَرَ تعالى، كما جاء في الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴿285﴾﴾[3]، جاء النسخُ مباشرةً في الآية التي تليها، وهي الآية الأخيرة من السورة، قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿286﴾﴾[4].

---

(1) البقرة، الآية: ﴿106﴾.

(2) البقرة، الآية: ﴿284﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿285﴾.

(4) البقرة، الآية: ﴿286﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره لتلك الآيات بقوله: [يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السموات وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ الظَّوَاهِرُ وَلَا السَّرَائِرُ وَالضَّمَائِرُ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُحَاسب عِبَادَهُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: 19﴾، وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طَهَ: 7﴾، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ: الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَخَافُوا مِنْهَا، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَحَقِيرِهَا، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِيقَانِهِمْ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ -يَعْنِي الْعَلَاءَ- عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثم جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطيق: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فَلَمَّا أقر بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فَأَنْزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا

وهكذا غيرها، من التعابير الأخرى الدالة على التيسير.

ومن المعلوم أنَّ: (**التيسير**) و (**التخفيف**)، هما من بين تعابير (**رفع الحرج**) في الدين، والتي استخدمها القرآن الكريم في مواضع عديدة، نذكر بعضًا منها هنا.

فعند الحديث عن الصوم، أخبر تعالى أنه يسَّره، فوضَعه عن المريض والمسافر قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿185﴾﴾[1].

وعند الحديث عن إنفاق الزوج المعسِر على الزوجة والأولاد والبيت، وعد تعالى بالتيسير بعد العُسر، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[2].

وعند الحديث عن الطلاق والمشاكل الزوجية وحلِّها، وعَدَ تعالى بتيسير الأمور، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[3].

وعند الحديث عن المصاعب والفتن عمومًا، والتي يعاني منها المسلم في حياته، ووعَدَهُ تعالى بالتيسير، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[4].

وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إِلَى آخِرِهِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مُنْفَرِدًا بِهِ، مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ، عَنْ رَوْحِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنِ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ وَلَفْظُهُ: ﴿فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ، فَأَنْزَلَ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ.]، اهـ. تفسير ابن كثير، 565/1.

(1) البقرة، الآية: ﴿185﴾.

(2) الطلاق، الآية: ﴿7﴾.

(3) الطلاق، الآية: ﴿4﴾.

(4) الشرح، الآية: ﴿5﴾.

وعند الحديث عن الذنوب والمعاصي والتوبة منها، أخبر تعالى أنه يريد أنْ يُخفف عنا، ويعلم تعالى أنَّ الانسان ضعيفٌ، وسيقع لا محالة في الذنوب والمعاصي، لذلك خفَّف عنه، وفتح له باب التوبة، كي يستغفره ويتوب إليه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿28﴾﴾[1].

وعند الحديث عن (الجهاد في سبيل الله) وقتال الكفار، أخبر تعالى أنَّ المسلم الصادق يستطيع أنْ يغلبَ عَشرةٍ من الكفار، ولكنْ رحمة منه تعالى، خففعنه، قال تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[2].

وعند الحديث عن القرآن الكريم، ذكر تعالى تيسيره لكتابه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3]. فكلامه تعالى يستطيع كل انسان أنْ يحفظه، ويتأثر به، ويدخل قلبه، حتى وإنْ كان ممن لا يفهم العربية، بشرط أنْ يُقبل عليه صادقًا مخلصًا من قلبه، وأنْ يبذل بعض جهده، ناهيك إنَّ أحكام الله تعالى التي شرعها في كتابه، كلها مُيسَّرة، ولا حرج فيها.

الشدة والتضييق على الأمم السابقة

على العكس من (**التيسير**) الذي منَّ الله تعالى به على الأمة الإسلامية، فقد كان في أحكام وشريعة الأمم من قبلنا من — أهل الكتاب — نوع من التشديد والتضييق عليهم، وذلك بسبب ظلم الكثير منهم، وتعديهم وتجاوزهم على حدود الله، واستهزائهم، وتجاوزهم على أنبياء الله تعالى.

لقد كانت أحكام التوراة مُشددة على بني إسرائيل بسبب تشددهم، وظلمهم، وتعنتهم، جزاءً وفاقًا، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿160﴾ وَأَخْذِهِم الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿161﴾﴾[4].

(1) النساء، الآية: ﴿28﴾.

(2) الأنفال، الآية: ﴿66﴾.

(3) القمر، الآية: ﴿17﴾.

(4) النساء، الآيتان: ﴿160، 161﴾. ذكر الطبري في تفسيره للآية ما نصه:

وعن التشديد على اليهود أيضًا، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿146﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿118﴾﴾[2].

ثُمَّ رحمةً منه تعالى بهم، بعث إليهم المسيح – عليه السلام– ليُخفِّف تعالى عنهم بعضًا منها، كما ذكر تعالى ذلك على لسانِ المسيح عليه السلام، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿50﴾﴾[3].

ولكنَّ اليهود – وهذا هو شأنهم وديدنهم دومًا وأبدًا– قابلوا ذلك التخفيف والإحسان من الله تعالى، بالإساءة والظلم والاعتداء على روح الله ونبيه عيسى عليه السلام. وقاموا بتكذيبه، وبالاعتداء على أمه مريم العذراء – عليها السلام – حيث وصلت بهم الوقاحة إلى الإساءة إليها باتهامها بالزنا، فبرَّأها الله مما قالوا، لعنهم الله وأخزاهم. ووصل بهم الظلم والاعتداء إلى محاولة قتل المسيح – عليه السلام – وتفاخرهم بالادعاء بفعل ذلك، ولكنَّ الله تعالى كذَّبهم، فقد نجَّاه، حيث صلبوا شبيهًا له عليه السلام. وقد أخبر القرآن الكريم

[قال أبو جعفر: يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ نَقَضُوا مِيثَاقَهُمُ الَّذِي وَاثَقُوا رَبَّهُمْ، وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ، وَقَالُوا الْبُهْتَانَ عَلَى مَرْيَمَ، وَفَعَلُوا مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ طَيِّبَاتٍ مِنَ الْمَآكِلِ وَغَيْرِهَا كَانَتْ لَهُمْ حَلَالًا، عُقُوبَةً لَهُمْ بِظُلْمِهِمُ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ. كَمَا: –

حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُعَاذٍ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، النساء، الآية: ﴿160﴾، الْآيَةُ، عُوقِبَ الْقَوْمُ بِظُلْمٍ ظَلَمُوهُ، وَبَغْيٍ بَغَوْهُ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ أَشْيَاءُ بِبَغْيِهِمْ وَبِظُلْمِهِمْ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، النساء، الآية: ﴿160﴾، يَعْنِي: وَبِصَدِّهِمْ عِبَادَ اللَّهِ عَنْ دِينِهِ وَسُبُلِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ صَدًّا كَثِيرًا، وَكَانَ صَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِقَوْلِهِمْ عَلَى اللَّهِ الْبَاطِلَ، وَادِّعَائِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ عَنِ اللَّهِ، وَتَبْدِيلِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَتَحْرِيفِ مَعَانِيهِ عَنْ وُجُوهِهِ، وَكَانَ مِنْ عَظِيمِ ذَلِكَ جُحُودُهُمْ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَرْكِهِمْ بَيَانَ مَا قَدْ عَلِمُوا مِنْ أَمْرِهِ لِمَنْ جَهِلَ أَمْرَهُ مِنَ النَّاسِ.]

اهـ. تفسير الطبري، 676/7.

وذكر السعدي في تفسيره للآية أيضًا بقوله: [ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالًا عليهم، وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.] اهـ. تفسير السعدي، ص 213.

(1) الأنعام، الآية: ﴿146﴾.

(2) النحل، الآية: ﴿118﴾. انظر: خصائص الأمة المحمدية، محمد بن علوي بن عباس المالكي المكي الحسني، الطبعة الثانية، المدينة المنورة 1421هـ– 2000م.

(3) المائدة، الآية: ﴿50﴾.

عن ذلك كله، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمِ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿155﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿156﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿157﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿158﴾﴾[1].

وبالرغم من ذلك التخفيف الذي ذكرناه على بني إسرائيل، والذي أرسل تعالى به عيسى عليه السلام، بقي الكثير من التضييق والتشديد في التوراة والإنجيل[2]، وذلك بسبب ظُلمهم كما بيَّنا آنفًا.

أمَّا التيسيرُ الشامل، ورفعُ الحرج من الدين بالكلية، إنما كان في دين الإسلام. وأنَّ بشائر ذلك التيسير على هذه الأمة، قد أخبر تعالى عنها قبل مجيء الإسلام ومبعث رسوله ﷺ. فقد ذكر تعالى أنَّ بشائر التيسير كانت مكتوبةً في التوراة والإنجيل، حيث أخبر تعالى فيها عن صفات النبي محمد ﷺ، والذي سَيُبْعثُ في آخر الزمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿157﴾﴾[3].

ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [وقد كانت الأُمم التي قبلنا في شرائعهم ضُيِّق عليهم، فوسَّع الله على هذه الأمة أمورها، وسهَّلها لهم.] اهـ[4].

وعن ذلك التيسير، فقد ذكر القرطبي في تفسيره للآية أيضًا بقوله: [فِيهِ عَشْرُ مَسَائِلَ، إلى أنْ قال: السَّابِعَةُ: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾، الإِصر: الثِقل، قاله مجاهد وقتادة وابن جبير. والإِصر أيضًا: العهد، قالهُ ابن عباس والضحَّاك والحسن. وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإِنَّ بني إسرائيل قد كان أُخِذَ عليهم عهدٌ أنْ يقوموا بأعمالٍ ثِقال، فوُضِعَ عنهم بمحمدٍ ﷺ ذلك العهد وثِقَل تلك الأعمال: كغسلِ البولِ، وتحليلِ الغنائم ومجالسةِ الحائضِ ومُؤاكَلَتِها ومُضَاجعتِها، فإِنَّهم كانوا إذا أصابَ ثوبَ أحدِهم بولٌ قَرَضَهُ. وروي: جُلِدَ

(1) النساء، الآيات: ﴿155 – 158﴾.

(2) والدليل على ذلك كلمة (بعض) في قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، أي ليس كل الذي حُرِّم عليهم.

(3) الأعراف، الآية: ﴿157﴾.

(4) تفسير ابن كثير، 439/3.

أحدُهم. وإذا جمعوا الغنائم، نزلت نارٌ من السماء فأَكلتها، وإذا حاضت المرأةُ لم يقربوها، إلى غيرِ ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره.
الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، فالأغلال: عبارةٌ مستعارةٌ لتلك الأثقال. ومن الأثقال: ترك الاشتغالِ يوم السبت، فإِنَّهُ يُروى: أنَّ موسىٰ عليه السلام رأىٰ يومَ السبتِ رجُلًا يَحمِلُ قصبًا فضربَ عُنُقَهُ. هذا قول جمهور المفسرين. ولم يكن فيهم الدّية، وإِنَّما كان القصاص. وأُمِروا بقتلِ أنفُسهم علامةً لتوبتهم، إلى غير ذلك.] اهـ[1].

وأما عن سماحة الإسلام وتيسيره، فعن ابن شهابٍ: أنَّ عُثمان بن مظعون أرادَ أنْ يَخْتَصِيَ وَيَسيحَ في الأرضَ، فقالَ لهُ رَسولُ اللهِ ﷺ: «أليسَ لكَ فِيَّ أسوةٌ حسنةٌ؟ فأنا آتي النِّساءَ، وآكلُ اللحمَ، وأصُومُ وأفطر. إنَّ خِصاءَ أمَّتي الصّيام، وليسَ مِنْ أُمتي مَن خَصَى أو اخْتَصى.»[2]. وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: «رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ. وَلَوْ أذِنَ لَهُ، لاخْتَصَيْنَا.»[3].

وقوله ﷺ: «أحبُّ الدينِ إلى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»[4]. وعن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟! قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ،

---

(1) تفسير القرطبي، 300/7.

(2) أخرجه الألباني في السلسة الصحيحة برقم 1830، وقال: روى ابن سعد (394/3)، بسندٍ جيدٍ عن ابن شهاب: أنَّ عُثْمانَ بن مَظعون، وساق الحديث.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، برقم 1402.

التبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعًا إلى عبادة الله. وأصل البتل القطع. ومنه مريم البتول، وفاطمة البتول، لانقطاعهما عن نساء زمانهما دينًا وفضلًا ورغبة في الآخرة. ومنه: صدقة بتلة، أي منقطعة عن تصرف مالكها. قال الطبري: التبتل هو ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله تعالى بالتفرغ لعبادته. وقوله: رد عليه التبتل، معناه نهاه عنه.

لاختصينا: معناه: لو أذن في الانقطاع عن النساء وغيرهن من ملاذ الدنيا لاختصينا، لدفع شهوة النساء، ليمكننا التبتل.

(4) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم 881.

فَقَالَ: ﴿أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي.﴾(1).

ومن تلك الأمثلة أيضًا، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ قَوْمًا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ قَوْمًا يأتوننا بِاللَّحْمِ، لَا نَدْرِي: أذُكر اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ: ﴿سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوهُ﴾. قَالَتْ: وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْكُفْرِ(2)، وغيرها في باب التيسير على هذه الأمة.

ثالثًا: نسبتهم إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام

أما المزية الثالثة، فنسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام، واعتباره أبًا لجميع المسلمين على مر العصور، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾(3)، فأَنْعِم بها من أُبوَّةٍ، وأنْعِم به من شرفٍ ونسبٍ، وذلك بانتسابِ الأمة الإسلامية إلى إبراهيم –عليه السلام– خليل الرحمن، وإمام الأنبياء، وإمام الحنيفية.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له في (كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، برقم 4776). ومسلم في صحيحه في (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، برقم 1401).

رَهْطٍ: قيل: هم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص. وعثمان بن مظعون، رضي الله عنهم.

تَقَالُّوهَا: عدوها قليلة.

ذَنْبُهُ: ذَنْبُهُ ﷺ على حسب مقامه، وما يعتبر ذنبًا في حقه ليس هو من جنس الذنوب حقيقة، ولو فعله غيره لا يسمى ذنبًا. كفِعْلِهِ خِلافِ الأَوْلى ونحو ذلك.

أبدًا: دائمًا دون انقطاع.

الدَّهْر: أي أواصلُ الصَّيامَ يومًا بعدَ يَوم.

أرقُد: أنام.

رَغِبَ عنْ سُنَّتي: مالَ عن طَريقتي وأعْرَضَ عنها.

(فليسَ مِنِّي): أي ليس بمسلمٍ إنْ كان مَيلُهُ عنها كُرهًا لها، أو عنْ عَدَمِ اعتقادٍ بِها. إنْ كان غير ذلك: فإنَّهُ مُخالفٌ لطريقتي السَّهلةُ السَّمْحَةُ، التي لا تَشَدُّدَ فيها ولا عَنَتْ.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الذبائح والصيد)، باب: (ذبيحة الأعراب ونحوهم)، برقم: (5188).

(3) ذكر البغوي في تفسيره الآية بقوله: [﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ كَلِمَةَ أَبِيكُمْ، نُصِبَ بِنَزْعِ حَرْفِ الصِّفَةِ. وَقِيلَ: نُصِبَ عَلَى الْإِغْرَاءِ، أَيِ: اتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ وَلَيْسَ كُلُّ الْمُسْلِمِينَ يَرْجِعُ نَسَبُهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ؟ قِيلَ: خَاطَبَ بِهِ الْعَرَبَ وَهُمْ كَانُوا مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ. وَقِيلَ: خَاطَبَ بِهِ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِبْرَاهِيمُ أَبٌ لَهُمْ، عَلَى مَعْنَى وُجُوبِ احْتِرَامِهِ وَحِفْظِ حَقِّهِ كَمَا يَجِبُ احْتِرَامُ الْأَبِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الْأَحْزَابِ: 6)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ.﴾.] اهـ. معالم التنزيل، البغوي، 355/3.

لقد جَهَد اليهود والنصارى أنفُسَهم بادعائهم الانتساب إلى إبراهيم —عليه السلام— ولصق أنفسهم به، فنفى القرآن الكريم ذلك وكذَّبهم، وأخبر تعالى أنَّ أوْلى الناس نسبًا به هو رسول الله، محمدٌ ﷺ وأمته الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿66﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿67﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿68﴾﴾[1].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآيات المذكورة بقوله: [يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَدَعْوَى كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ مَوْلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَوْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عباس قال: اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَحْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ، فَقَالَتِ الْأَحْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا يَهُودِيًّا. وَقَالَتِ النَّصَارَى مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا نَصْرَانِيًّا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: كَيْفَ تَدَّعُون، أَيُّهَا الْيَهُودُ، أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، وَكَيْفَ تَدَّعُون أَيُّهَا النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَإِنَّمَا حَدَثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَنِهِ بِدَهْرٍ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فإنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِلَا عِلْمٍ، وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْهُ علم مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمُ الَّتِي شُرِعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينِ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وذكر القرطبي في تفسيره الآية أيضًا بقوله: [قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَى اتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ. الْفَرَّاءُ: انْتَصَبَ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْكَافِ، كَأَنَّهُ قَالَ كَمِلَّةِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى وَافْعَلُوا الْخَيْرَ فِعْلَ أَبِيكُمْ، فَأَقَامَ الْفِعْلَ مَقَامَ الْمِلَّةِ. وَإِبْرَاهِيمُ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ قَاطِبَةً. وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْكُلُّ مِنْ وَلَدِهِ، لِأَنَّ حُرْمَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَحُرْمَةِ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ.] اهـ. تفسير القرطبي، 101/12.

(1) آل عمران، الآيات: ﴿65 – 68﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ أَيْ: مُتَحَنفًا عَنِ الشِّرْكِ قَصْدًا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الْبَقَرَةِ: 135). وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الْبَقَرَةِ: 135).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ، وَهَذَا النَّبِيُّ -يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ- وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أَبِي وخَلِيلُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْبَزَّارُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَحْمَدَ الزُّبيري، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ ثُمَّ قَالَ الْبَزَّارُ: وَرَوَاهُ غَيْرُ أَبِي أَحْمَدَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَسْرُوقًا. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ وَكِيعٍ، عَنْ سُفْيَانَ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا أَصَحُّ لَكِنْ رَوَاهُ وَكِيعٌ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ... فَذَكَرَهُ.] اهـ[1].

وابراهيم عليه السلام كان وحدهُ أُمَّةً يُقتدى به، وقد أثنى تعالى عليه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿120﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿121﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿122﴾﴾[2].

(1) تفسير ابن كثير، 2/ 49.

(2) ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ، إِمَامَ الْحُنَفَاءِ وَوَالِدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُبَرِّئُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فَأَمَّا (الْأُمَّةُ)، فهو الْإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ. وَالْقَانِتُ: هُوَ الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ. وَالْحَنِيفُ: الْمُنْحَرِفُ قَصْدًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْل، عَنْ مُسْلِمٍ البَطِين، عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ: أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ، فَقَالَ: الْأُمَّةُ: مُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وَالْقَانِتُ: الْمُطِيعُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَعَنْ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْأُمَّةُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ.] اهـ. تفسير ابن كثير، 4/524.

ولهذا أمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ باتباع ملة إبراهيم ﷺ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿123﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿161﴾﴾[2].

وأخبر تعالى بأنْ ليس هناك أفضل ممن آمنَ بالإسلام واتخذه دينًا، واتَّبَع مِلة إبراهيم —عليه السلام— بالتحديد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[3].

فواجبٌ على المسلمينَ اِتِّباعُ مِلته عليه السلام، والفرح والافتخار بأنْ جعله تعالى أبًا لجميع المسلمين.

رابعًا: تسمية الله لهذه الأمة: (المسلمين)

وأما المزية الرابعة، فإطلاقُ اسمِ (ٱلْمُسْلِمِينَ) على هٰذه الأُمَّة، وأنَّ الله تعالى قد سمَّى بنفسهِ أتباعَ نبيِّه محمدٍ ﷺ، بـ (ٱلْمُسْلِمِينَ)، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾[4].

---

(1) النحل: الآيات: ﴿120 – 123﴾.

(2) الأنعام، الآية: ﴿161﴾.

(3) النساء، الآية: ﴿125﴾.

(4) على اختلافٍ بين المفسرين في عودة الضمير ﴿هُوَ﴾ على لفظِ الجلالةِ، أمْ إلى إبراهيم عليه السلام، ونكتفي بنقل كلام الطبري وابن كثير في هذا الصدد: فقد ذكر الطبري في تفسيره الآية بقوله: [وقوله ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: سَمَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنِي عَلِيٌّ، قَالَ: ثنا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ: ثني مُعَاوِيَةُ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يَقُولُ: اللَّهُ سَمَّاكُمْ. وذكر غيرهم.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَاهُ: إِبْرَاهِيمُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَقَالُوا هُوَ كِنَايَةٌ مِنْ ذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ.

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الحج: 78)، قَالَ: أَلَا تَرَى قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، قَالَ: هَذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ؛ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، ذُكِرَتْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ جَمِيعًا، وَلَمْ نَسْمَعْ بِأُمَّةٍ ذُكِرَتْ إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَلَا وَجْهَ لِمَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُسَمِّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مُسْلِمِينَ فِي الْقُرْآنِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِهِ بِدَهْرٍ طَوِيلٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ (الحج: 78)، وَلَكِنَّ الَّذِي سَمَّانَا مُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَفِي الْقُرْآنِ اللَّهُ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ (البقرة: 25)، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: مِنْ قَبْلِ نُزُولِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَهُ. ﴿وَفِي هَذَا﴾ (الحج: 78)، يَقُولُ: وَفِي هَذَا الْكِتَابِ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.]، اهـ. تفسير الطبري، 644/14.

وذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: وَقَوْله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قَالَ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّان.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي: إِبْرَاهِيمَ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، الْبَقَرَةِ، الآية: ﴿128﴾.

فصل:

شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الثاني: (استخلاص المزايا)

وهذا الاسم —أعني (الْمُسْلِمِينَ)— إقرارٌ منه تعالى بأنَّنا نحن أتباعُ رسولِهِ محمد ﷺ على دين الإسلام، ذلك الدين الذي قال تعالى عنه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴿19﴾﴾[1].

فالإسلام، هو دينُ الأنبياءِ والمرسلينَ جميعًا، من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليهم السَّلام أجمعين[2].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا لَا وَجْهَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُسَمِّ هَذِهِ الْأُمَّةَ فِي الْقُرْآنِ مُسْلِمِينَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اللَّهُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ.

قُلْتُ: وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثُمَّ حَثَّهُمْ وَأَغْرَاهُمْ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بِأَنَّهُ مِلَّةُ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنَّتَهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَا نَوَّه بِهِ مِنْ ذِكْرِهَا وَالثَّنَاءِ عَلَيْهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ وَقَدِيمِ الزَّمَانِ، فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ، يُتْلَى عَلَى الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿وَفِي هَذَا﴾، وَقَدْ قَالَ النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:

أَنْبَأَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيب، أَنْبَأَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلَّامٍ أَنَّ أَخَاهُ زَيْدَ بْنَ سَلَّامٍ أَخْبَرَهُ، عَنْ أَبِي سَلَّامٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْحَارِثُ الْأَشْعَرِيّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جِثِيّ جَهَنَّمَ﴾. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: ﴿نَعَمْ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ.﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 399/5.

(1) آل عمران، الآية: ﴿19﴾.

(2) فالإسلام هو الدين الذي وصَّى إبراهيم بنيه: (إسماعيل وإسحاق) باتباعه، وكذلك وصى يعقوب بنيه: (الأسباط) عليهم السَّلام أجمعين، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴿132﴾﴾، البقرة، الآية: ﴿132﴾.

والإسلامُ هو دينُ المسيحِ عليه السلام وأتْبَاعه الحواريينَ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴿52﴾﴾ آل عمران، الآية: ﴿52﴾.

والإسلامُ هو دينُ سحرةِ فِرعونَ بعد إيمانهم وتصديقهم لموسى عليه السَّلام، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴿126﴾﴾، الأعراف، الآية: ﴿128﴾.

والإسلامُ هو الدين الذي آمنَ بهِ فِرعونُ، ولكن بعد فوات الأوان، وجاء متأخرًا، فلم يُقبل منه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴿90﴾﴾، يونس، الآية: ﴿90﴾.

والإسلامُ هو دينُ يوسفَ —عليه السَّلام— الذي دعا الله أنْ يتوفاه عليه، قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴿101﴾﴾، يوسف، الآية: ﴿101﴾.

والإسلامُ هو دينُ سُلَيْمانَ —عليه السَّلام— والدين الذي دعا مَلِكَةَ سبأٍ وقومَها للإيمان به، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴿31﴾﴾، النمل، الآية: ﴿31﴾.

والإسلامُ هو الدينُ الذي آمنت به مَلِكةُ سبأٍ، وآمن بِهِ قَوْمُها، وأعلنت عنه أمام سليمان —عليه السَّلام— عندما قدمت إليه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴿42﴾﴾، النمل، الآية: ﴿42﴾.

فصل:
شرح وتحليل الآية الجامعة، القسم الثاني: (استخلاص المزايا)

فالإسلامُ هو دينُ أبينا إبراهيمُ عليهِ السَّلام، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴿67﴾﴾(1).

والإسلامُ، هو الدينُ الذي رَضيَهُ تعالى لنا نحن المسلمين، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴿3﴾﴾(2).

والإسلامُ هو دينُ العُلماءِ والأولياءِ من أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴿53﴾﴾، القصص، الآية: ﴿53﴾. ذكر ابن كثير في تفسيره الآية بقوله: [يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (الْبَقَرَةِ: 121﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: 199)، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا ﴿107﴾وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا﴿108﴾﴾ (الْإِسْرَاءِ: 107، 108)، وَقَالَ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴿82﴾وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿83﴾﴾ (الْمَائِدَةِ: 82، 83).

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: نَزَلَتْ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْقِسِّيسِينَ بَعَثَهُمُ النَّجَاشِيُّ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿يس﴿1﴾وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴿2﴾﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَجَعَلُوا يَبْكُونَ وَأَسْلَمُوا، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ الْأُخْرَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴿52﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴿53﴾﴾ يَعْنِي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كُنَّا مُسْلِمِينَ، أَيْ: مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لِلَّهِ مُسْتَجِيبِينَ لَهُ.

قَالَ اللَّهُ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي، يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِالرَّسُولِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيْ: عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ تجشُّم مِثْلِ هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النُّفُوسِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ثَلَاثَةٌ يُؤتَونَ أجرهم مَرّتَين: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، ورَجُل كَانَتْ لَهُ أمَة فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فتزوَّجها.﴾.] اهـ. تفسير ابن كثير، 219/6.

والإسلام هو دينُ لوطٍ –عليه السَّلام– ومَنْ آمنَ به مِنْ قَومِهِ، قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴿36﴾﴾، الذاريات، الآية: (36).

والإسلام هو دينُ الجِنِّ المؤمنين، كما أخبر تعالى عنهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴿14﴾﴾، الجن، الآية: (14).

واخيرًا: فالإسلامُ هو الدينُ الذي سَيَتمَنَّى كُلُّ كافرٍ – يومَ القيامةِ– أنْ لَوْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ واتَّبَعَهُ وَماتَ عليه، قال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴿2﴾﴾، الحجر، الآية: (2).

فلنَحمَد اللهَ نحن المسلمين على نعمةِ الإسلام، ولنَحمَدهُ على تسميته لنا بالمسلمين، ولنَحمَدهُ على نسبته لنا، إلى أبينا إبراهيم، عليه وعلى رسولنا أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ والتسليم.

(1) آل عمران، الآية: ﴿67﴾.

(2) المائدة، الآية: ﴿3﴾.

وهو الدينُ الذي لَنْ يَرْضى تعالى غَيْرَهُ مِنَ الأدْيانِ في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿85﴾﴾[1].

وأخيرًا: فالإسلامُ هو الدينُ الذي سَيَتَمَنَّى كُلُّ كافِرٍ –يوم القيامة– أنْ لَوْ آمَنَ به، وصدَّقه، واتَّبعه، ومات عليه، قال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[2].

فلنَحمَد الله أننا نحنُ المسلمينَ على نِعْمَةِ الإسلام،

ولنَحمَدهُ على تَسْمِيَتِهِ لنا بالمسلمين،

ولنَحمَدهُ على نِسْبَتِهِ لَنا إلى أبينا إبراهيم، عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

تشريفٌ آخر: ذِكرُ المسلمين ونبيهم ﷺ في كتب الأمم السابقة

ومزيةٌ أخرى أنعمَ اللهُ بها على هذه الأمة، تَندَرجُ تحت تلك المزية المذكورة آنفًا، أعني تسميتهم بالمسلمين، وردت في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا﴾. تلكَ المزية بالتحديد، هي في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي في كتبِ الأمم السابقة. فهذا تشريفٌ آخرُ –إضافة إلى التسمية– أخبرَ عنه سبحانه الأمة الإسلامية، وهو أنَّه تعالى قد ذكر المسلمينَ وأطلق عليهم ذلك الاسم في كُتبِ الأُمَمِ السابقةِ، وفي القرآنِ الكريم، فأَنْعِم بِهِ من اسمٍ، وأَنْعِم به مِنْ ذِكرٍ. وقد ذكرَ ابنُ كثيرٍ في تفسيره للآية بقوله: [قَالَ مُجَاهِدٌ: اللَّهُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ.]، اهـ[3].

---

(1) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

(2) الحجر، الآية: ﴿2﴾.

(3) تفسير ابن كثير، 399/5.

وعن ذكر المسلمين في كتب الأمم السابقة، ذكر تعالى أخبار وأوصاف نبي الإسلام ﷺ في التوراة والإنجيل، كما مر سابقًا في مزية التيسير[1]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿157﴾﴾[2].

وذَكَرَ تعالى أوصافَ أصحابه –رضي اللهُ عنهم أجمعين– في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿29﴾﴾[3].

فالإسلامِ قدَرُنا نحنُ المسلِمون، وهويَّتنا، ورَمزِ عِزّنا، وكرامَتِنا، والأمانةَ التي حَمَّلَنا إيَّاها رَبُّ العالمين، لنُبلِّغها للناسِ أجمعين، واستأمَنَّا عليها. فأكْرِم بهِ مِنْ قَدرٍ وهويةٍ ورمزٍ، فَليَعْتَزَّ بهِ وليَحْمِلهُ من يَجِدُ نَفسَهُ جَديرةً بهذا التكريم والتشريفِ. ولْيَتَنَحَّ جانبًا، مَنْ لا يجدُ نفسَهُ أهلًا وجديرًا بذلك التَّشريفِ، ولكنْ لَيَعْلَمَ يَقينًا تلك هيَ الرِّدَّةُ، والنُّكوصُ، والخُسْرانُ المبين، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿54﴾﴾[4].

فهو فضلِ يؤتيهِ من يشاء، واللهُ ذو الفضلِ العظيم.

---

(1) قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، الصف، الآية: ﴿6﴾.

(2) الأعراف، الآية: ﴿157﴾.

(3) الفتح، الآية: ﴿29﴾.

(4) المائدة، الآية: ﴿54﴾.

خامسًا: (الأمة الحجة) و(الشاهدة على الأمم يوم القيامة)

وأما المزيةُ الخامسةُ، فالأمَّةُ الإسلاميةُ هي (**الأمةُ الحُجَّةُ**) و(**الشّاهِدةُ على الأممِ يوم القيامة**)، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

فأُمةُ الإسلامِ ستشهدُ للأنبياءِ يوم القيامة، على قيامِهم بتبليغِ الرِّسالات. وستكونُ هذه الأمة كذلك، حُجَّةُ اللهِ على خلقهِ، وشاهدةٌ على مَنْ وصلتهُ الدعوةُ ولم يُؤمِن بالإسلام دينًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿85﴾﴾[1].

وهذه، أعني (الحجَّةُ)، مسئوليةٌ كبيرةٌ على الأمة الإسلامية وأمانةٌ عظيمةٌ، وذلك بأَنْ تُبلِّغ رسالةَ اللهِ تعالى إلى الأمم الأخرى، كما فعلَ رسولُ الله ﷺ والصحابة الكرام، ومَن جاءَ بَعدهم، وذلك بدعوةِ الأممَ الأخرى، وقيامِ الفتوحات الإسلامية التي نشرت الإسلام، وأقامت الدينَ، ونشَرَت التوحيدَ، وأطاحتْ بالشّركَ والكُفرَ في أرجاءٍ كثيرةٍ مِن الأرض.

وأخبر ﷺ أنَّ أمةَ الإسلام ستكون الشّاهدة يوم القيامة على تبليغ الأنبياء لقومهم. فأنعِم به مِن تشريفٍ، وأكرِم بها مِن شهادةٍ، حين يأتي النبيُّ وينكرُ قومُه أَنَّهُ بلَّغهم، فيَطلبُ شهادةَ أمة محمد ﷺ كي تشهدَ له. فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ، قَالَ: فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.﴾[2].

وقد ذكرَ منهم نوحًا عليه السلام، حيث يُسأل: هل دعا قومه؟ فيُنكر قومُه قيامه –عليه السلام– بتبليغهم رسالة الله، وحينئذٍ، تُدعى أمة محمد ﷺ للشاهدة بأنه بلَّغهم، فتشهد. فعنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ،

(1) آل عمران، الآية: ﴿85﴾.

(2) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة واللفظ له برقم (2448). وصحيح الجامع الصغير، برقم (8033).

فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وَالوَسَطُ: العَدْلُ.﴾[1].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، قَالَ: عَدْلًا، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

سادسًا: وِلايَة اللهِ لَهُمْ

وأما المزية السادسة، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، وهذا إخبارٌ من الله تعالى بتولّيهِ للمسلمين، ونَصرِهم، ورِعايته لهم، إنْ هُم أطاعوه وأطاعوا رسولَهُ ﷺ، وأقاموا دينهُ، وبلَّغوه إلى الناس، فأنْعِم به مِن وليٍّ سبحانه، وأنعم به مِن نصيرٍ.

وقد وردت ولاية الله تعالى للمسلمين خاصة، في مواضع كثيرة، نذكر منها:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿257﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿105﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿40﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿105﴾﴾[6].

وقال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿2﴾﴾[7].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)، باب: قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطًا، برقم (6917).

(3) البقرة، الآية: ﴿257﴾. ومعلوم أنَّ لفظ الإيمان يعم لفظ الإسلام، فكل مؤمنٍ مسلمٌ.

(4) آل عمران، الآية: ﴿105﴾.

(5) الأنفال، الآية: ﴿40﴾.

(6) التوبة، الآية: ﴿105﴾.

(7) التحريم، الآية: ﴿2﴾.

ومعلوم أنَّ ولاية الله هذه، إنما هي مشروطةٌ بأن يتولى المسلمُ اللهَ ورسولَهُ، وإِخوانَهُ المؤمنين، كي ينال ولاية الله له، ويكون من حزبِ الله الغالبين[1]، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿56﴾﴾[2].

فلا يغترّ المسلمون بتلك المزايا والفضائل التي منحها تعالى لهم، ويتكلوا عليها. ثم إذا انتكسوا، وتَسلَّط عليهم عدوُّهم، وأصابت الويلاتُ والنكباتُ بلادهم وأمتهم، اتهموا الإسلام، ودخلَ الريبُ قلوبهم، وصاروا يشككون بدينهم ومنهجهم. فيهجروه، وينبذوه وراء ظهورهم، ويشتروا به ثمنًا قليلًا، ويستبدلوا الذي هو الأدنى بالذي هو خير، فيحق عليهم قول ربنا: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿108﴾﴾[3].

(1) يراجع فصل: الركن الثامن: (الموالاة بين المسلمين)، في هذا الكتاب.

(2) المائدة، الآية: ﴿56﴾.

(3) البقرة، الآية: ﴿108﴾.

خاتمة الكتاب

ناقشنا في هذا الكتاب، واقع الأمة الإسلامية، وما يعانيه المسلمون منذ زمن طويل من انتكاسة، وتبعية، وهيمنة، وسيطرة من قبل أعدائهم من الشرق والغرب. وكان الهدفُ من تلك المناقشة، تحديدَ (**أسباب انتكاسة وتراجع الأمة الإسلامية**) عن ريادتها وقيادتها للعالم، بعد قرونٍ من العُلوِّ في الأرض، والغلبة، والحضارة، والتمكين. ومن ثمَّ، إيجاد الحل لمعالجة تلك الأسباب، من أجل إعادة الأمة الإسلامية إلى مكانتها التي تستحقها، ولحمل الأمانة التي كُلفت بها لهداية البشرية.

وبينا أنَّ من أهم أسباب هذه الانتكاسة، إنما هي (**الهوية الإسلامية**) لهذه الأمة، ولكن عكس ما يفهمهُ ويدّعيهِ المنهزمون، ويخلُصوا إليه! إنما نعني بسبب (**الهوية الإسلامية**)، أي بسبب عدم معرفة السواد الأعظم من المسلمين اليوم لطبيعة دينهم، وارتباطهم به. وبسبب عدم معرفتهم لكتابهم، ونبيهم، وتأريخهم الإسلامي المجيد، وأثره على واقعهم. وبالتالي عدم معرفتهم تبِعات هذه (**الهوية الإسلامية**)، مما أدى ذلك إلى نتائج وخيمة، كانت وبالًا على الأمة، وأدت إلى تلك الانتكاسة التي أصابت المسلمين.

فمن تلك النتائج الوخيمة التي أصابت المسلمين، ضعف علاقتهم بدينهم، وضعف التزامهم به، وسوء تعاملهم معه. وقد أدى ذلك إلى تهميش الدين في نظام حكمهم وعلاقاتهم بالأمم الأخرى، وتهميش الشريعة الإسلامية وأحكامها في حياتهم وشؤونهم. وأدى ذلك بالنتيجة، إلى ضعف العلاقات والروابط بين المسلمين في أصقاع الأرض، وفي مختلف دول المسلمين.

وبالنتيجة، أدى ذلك إلى ما نسميه: (ضعف مفهوم الأمة الإسلامية)، أو الغياب الكلي لمفهوم (الأمة الواحدة) الذي أشار إليه القرآن الكريم، وإلى غياب بقية (أركان خير أمة أخرجت للناس) من حياة المسلمين وواقعهم.

إذن، فالمشكلة في كل ما يعانيه المسلمون اليوم، وسبب انتكاستهم هو: (ضعف أو غياب مفهوم الأمة الإسلامية)، وعدم وجوده في واقع المسلمين وحياتهم!

إنها الحقيقةُ المرة التي يعيشها المسلمون في عصرنا الحاضر، وهي ضَعف انتمائهم إلى أمتهم الإسلامية، وعدم وعيهم، ونسيانهم أنهم (أمة واحدة)، وأنها (خير أمة أخرجت للناس). وكذلك، ضعف التزامهم بالإسلام،

أحسن دينًا، وعدم اعتصامهم به، ونسوا أنَّ الله قد اصطفاهم لتبليغ رسالته، وإعلاء كلمته، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، كل ذلك، قد أدى إلى ذلك الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون اليوم.

وبيَّنا أنَّ المسلمينَ لا يَصلحُ لهم غيرَ الإسلامِ، ولا تقومُ لهم قائمةٌ بدونه. فالمسلمون قد اختارهم الله لحمل دينه وتبليغه، فإذا ضعف التزامهم بدينهم، أو تركوا دينهم، واستبدلوه بغيره من المناهج، والأفكار، والقوانين الوضعية، فلنْ تقوم له قائمة، ولنْ يفلحوا إذا أبدًا.

ولو أفلحَ المسلمون في دنياهم وواقعهم بتركهم لدينهم، واستبداله بمناهج وضعية، لضاع الدين، وانتشر الكفر والشرك في الأرض، لأنَّهُ لم يعد هناك من يحمِل دين الله ويُبلِّغُ رسالتهُ إلى البشرية.

وبالإضافة إلى عدم فلاح المسلمين هذا، لو استبدلوا دينهم بمناهج وضعية، فإنَّ أعداء المسلمين من الكفار، وبالأخص: اليهود والنصارى، قد وجدوا الفرصة سانحةً لهم للهيمنة على بلاد المسلمين، ومحاربة دينها وعقيدتها، والسيطرة على مقدرات وثروات المسلمين، واستعبادهم، ومصادرة قراراتهم، وسيادتهم.

من أجل ذلك، ينبغي على المسلمين أنْ يفهموا حقيقة علاقتهم بدينهم وارتباطهم به، أنها علاقةُ وجودٍ أو عدم! وأنها علاقةُ حياةٍ أو موت! فبدون الإسلام، لا وجود، ولا مكانة، ولا حياة كريمة للمسلمين، بل الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

ثم بعد ذلك الشرح، والتحليل، والتشخيص لحال المسلمين، وتحديد أسباب انتكاسة أمتهم الإسلامية، بينا أنَّ الحل اليوم لمعالجة تلك الانتكاسة، يتحقق بأن يُعيدَ المسلمون من جديد، إقامة وبناء الأمة الإسلامية.

من أجل ذلك، لا خلاص للمسلمين، ولا سبيل، ولا نجاة، إلا بالعودة إلى هذا الدين، وبناء الأمة الإسلامية، وإقامتها على الأركان التي بينها تعالى في كتابه الكريم، كي تكون جديرة بالوصف القرآني لها، وهي: (الأمة الوسط)، و(الأمة الشاهدة والحجة على الأمم الأخرى)، و(أنتم الأعلون)، أي (خير أمة أخرجت للناس).

وقلنا إنما يكون السبيل إلى ذلك يجب أنْ يقوم على أركانٍ، ودعائمَ أساسية، وفي خطوات محسوبةٍ ومدروسةٍ، وذلك من أجل إعادة بناء الأمة الإسلامية المنشودة من جديد، أو إصلاحها، من أجل إعادة هيبتها، واستعادة دورها في قيادة نفسها وقيادة البشرية.

أما عن السبيل إلى معرفة تلك الأركان والخطوات من أجل إقامتها وتنفيذها لبناء الأمة الإسلامية المنشودة، فنعتقد أنَّ الأمر ليس متروكًا للبشر، ولا لِاجتهاداتهم وأهوائهم، ولا لما يستوردونه من أفكار ومفاهيم

من الأمم الأخرى. بل لا بد أنْ تكون تلك الأركان والخطوات موجودةُ في المنهج الذي أرسله تعالى للبشرية، وائتمن أتباعَه عليه، نحن المسلمين، حَمَلة الدين، وورثةَ الأنبياء والمرسلين.

وذكرنا الدليل العقلي والنقلي على ضرورة وجودِ (أركان الأمة الإسلامية) في القرآن الكريم، ضمن المنهج الذي أنزله تعالى.

فأما الدليل العقلي، وذلك لأنَّ الأمة المنشودة ستحمل رسالة الله إلى الناس، وستقوم بدور الرسول المبلِّغ عنه تعالى، فكان لا بُد للأمة مِنْ أَنْ ترتكز في بنائها على أركانٍ لا عِوجَ فيها، كي تكون أمة قائمة على أسسٍ قويةٍ وراسخةٍ. من أجل ذلك، كان لا بد لتلك الأركان أنْ تكون ربانية، يضعها تعالى، صاحبُ الرسالة، بنفسه، وليس البشر، أي المسلمين. والسبب في ذلك، لأنَّ تلك الأركان ستبني الأمة، التي ستمثل الترجمة العملية، والواقع العملي لمبادئ وتعاليم الرسالة.

وذكرنا أيضًا، أَنَّ تلك الأركان، ستكون أصولًا ومرجعًا للمسلمين وعلى مرِّ العصور، يرجعون إليها في فرعيّاتِ، وتفاصيل بقية بناء الأمة الإسلامية.

وذكرنا أيضًا، أنه على الرغم من ربانية تلك الأركان، فقد ترك القرآن الكريم للمسلمين، مساحةً من التفكير، والتخطيط، والإدارة في طريقِ بناء أمتهم، ولما يستجد من تغيُّرات، وتطورات في حياتهم وشؤونهم. من أجل أنْ يقوموا هم بأنفسهم بذلك الدور، وتلك المهام، وما يناسب المستجدات على مرِّ العصور.

أما عن الدليل النقلي، فقد بيَّنا وجودَ تلك الأركان في كتاب الله تعالى، من خلال أدلة (البصيرةُ أساسُ الدين)، و(البيِّنةُ والتبيانُ والتفصيلُ لكل شيء في الدين)، و(الاتباعُ أساسُ الدين)، و(الاستقامة)، والنصوص القرآنية المتعلقة بها.

ثم تكلمنا عن وجوب اعتزازُ المسلمِ وافتخارهِ بدينهِ، في كل أحواله، وخصوصًا في وقت الانتكاسة وضعف الأمة، وحُرمة الشعورِ بالانكسارِ والدون أمامَ الكفار من أصحابِ الأديانِ الأخرى. وقلنا لا ينبغي للمسلم التخاذل، والشعور بالنقص، والدون أمام الكفار، على الرغم من واقعِ الكفار المتجبر، والمهيمن على العالم. يقابله واقع حال المسلمين المأساوي، والمخجل الذي يعيشونه، ومسلوب الإرادة والقرار.

وذكرنا أسباب وجوب ذلك الاعتزاز والحافز إليه، وحُرمة تخاذل المسلم وشعوره بالذل، ومنها: لأنه مسلمٌ يدين بالإسلام، أحسنِ دينٍ، ولأنَّ كتابهُ القرآن الكريم، أحسنَ الحديثِ، ومهيمنًا على جميع كتبِ الله التي أنزلت قبله. ولأنَّ رسوله محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، وغيرها من الأسباب.

وتحدثنا عن دعوة الكفار، وأقسامهم، وعن تعامل المسلم معهم، من ناحية البِر والقِسط، أو العداوة والحرب، بناء على طبيعةِ كفرهم، وموقفهم من الإسلام والمسلمين.

وتحدثنا أيضًا عن مشاعرِ المسلم، وسلوكه تجاه الكفار، ومكانته بينهم، وعلاقته بهم، وتعامله معهم، وبيَّنا أنهم:

إما ملاحدة، وقلنا: كيف يشعرُ مسلمٌ بالدونِ، والنَّقْصِ، والذُّلِ، مَنْ هذا دينهُ، وهذا كتابهُ، وهذا رسولهُ، أمامَ أُناسٍ إمّا ملاحدة، لا يؤمنون بالله أصلًا، ولا بأي دين سماوي. فهم لا يحترمون حتى عقولهم، حين يصرِّحون أنْ لا خالقَ، ولا صانع لهذا الكون! ولسان حالهم يقول: إنَّ إلههم، وخالقهم: الطبيعةُ، العمياءُ والصماءُ!

وإمَّا أهلُ كتابٍ، من اليهود، فكيف يشعرُ مسلمٌ بالدونِ والنَّقْصِ والذُّلِ أمام أولئك اليهود، قتلةَ الأنبياءِ، ومُحرّفِي التوراة والإنجيلِ، وعَبَدةِ العِجل، ومَن يقول: إنَّ الله يتعب، وينسى، وقد صرعه يعقوب –عليه السلام وحاشاه– فغلبهُ، وانتزعَ منه البَركة بالقوة!؟ وغيرها من الترهات والأكاذيب.

وإمَّا أهلُ كتابٍ من النصارى، فكيف يشعر مسلم موحدٌ بالدون والنقص، أمام أولئك النصارى، الذين يؤمنون بأنَّ الله ثالثُ ثلاثة، وأنَّ لهُ ولد، ومَنْ يقول: إنَّ الله هو المسيح –عليه السلام– تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. وأنَّ اللهَ قد تجَسَّدَ ونزلَ إلى الأرضِ على هيئة إنسان! وجعل الناس يُعذبونه، ويهينونه، ومِنْ ثَمَّ صلبوه، وتركهم يفعلونَ به ذلك –تعالى الله عما يقولون– كي يغفرَ لهم خطيئاتهم. ولكي يخلّصهم من عقابه، وغيرها من السخافاتِ! فلنحمدَ اللهَ نحن المسلمين، على نعمةِ الإسلام، وعلى نعمةِ التوحيد.

فلا ينبغي لمسلمٍ بحال، أنْ يشعر بالذل، والانكسار، والدون أمام غير المسلمين، أيًّا كان دينهم ومعتقده. بل على العكس، يجب على المسلم أنْ يشعر بالاعتزاز والكرامة والرفعة والسمو، والتعالي على جميع الأديان والمذاهب المنحرفة.

ثم استعرضنا (مزايا وفضائل الأمة الإسلامية)، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذه المزايا كما يلي:

1. (الأمة الوسط)، أي (خير أمة أخرجت للناس).
2. (الأمة الشاهدة وحجته تعالى على الأمم الأخرى).
3. (العلو في الأرض): (وَأَنْتُم الأَعْلَوْنَ).

وغيرها من المزايا التي وردت في السنة النبوية.

ثم استعرضنا (أركانَ بناءِ خيرِ أمةٍ أُخرِجت للناس)، كما استخلصناها من كتاب الله تعالى، وهذه الأركان كما يلي:

الأمة الواحدة

الاعتصام بحبل لله

عدم الاختلاف

عدم التفرُّق

عدم الاقتتال بين المسلمين

الإصلاح بين المسلمين

الأخوة في الدين

الموالاة بين المسلمين

التعاون على البِر والتقوى

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الجهاد في سبيل لله

ثم ختمنا الكتاب بالآية الجامعة، والتي ذُكرت في آخرِ سورة الحج. وبينا كيف أنها قد جمعت كلَّ (مزايا) و(أركان بناء الأمة الإسلامية).

وبذلك تمَّ الكتابُ بحمدِ اللهِ وفضلهِ، والذي بنعمتهِ تتمُّ الصالحات.

وآخِرُ دعوانا: ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وصلَّى اللهُ على نبيّنا مُحمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلِّم أجمعين.

المصادر

[1] **القرآن الكريم**.

[2] **صحيح البخاري**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، الطبعة: الخامسة، 1414هـ- 1993م، 8 مجلدات (الأخير فهارس).

[3] **صحيح مسلم**، المؤلف: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه، توزيع: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1412هـ- 1991م، عدد الأجزاء: 5 (الأخير فهارس).

[4] **سنن النسائي**؛ المؤلف: أحمد بن علي، أبو عبد الرحمن النسائي، المحقق: رائد بن صبري بن أبي علفة، الفهرسة: مفهرس على العناوين الرئيسية، سنة النشر: 1436 – 2015، عدد المجلدات: 1، الطبعة الثانية.

[5] **سنن ابن ماجه**، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: 2.

[6] **صحيح سنن أبي داود**، المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، 1423هـ- 2002م، عدد الأجزاء: 8.

[7] **سنن الترمذي**، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395هـ- 1975م، عدد الأجزاء: 5 أجزاء.

[8] **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: الإمام أحمد بن حنبل (164 - 241هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، عدد الأجزاء: 50 (آخر 5 فهارس)، الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2001م.

[9] **خصائص الأمة المحمدية**، المؤلف: محمد بن علوي المالكي المكي الحسني، الطبعة الثانية: 1421هـ-2000م.

[10] **التعامل مع غير المسلمين**، المؤلف: عبد الله بن إبراهيم الطريقي، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، الرياض: 1481هـ- 2007م.

[11] **الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية**، المؤلف: محمد بن عبد الله بن محمد الجلعود، الطبعة الأولى: الرياض 1407هـ- 1987م.

[12] **الولاء والبراء في الإسلام**، المؤلف: محمد بن سعيد القحطاني، الطبعة السادسة: 1413هـ.

[13] **خصائص الأمة المحمدية**، المؤلف: محمد بن علوي المالكي المكي الحسني، الطبعة الثانية، 1421هـ-2000م

[14] **فقه الجهاد**، المؤلف: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، تهذيب وتعليق: الشيخ زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي، بيروت، 1412هـ- 1992م.

[15] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، المؤلف: القاضي أبو يعلى بن الفرَّاء الحنبلي، (ت 458هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى أبوه الشنقيطي، دار البخاري للنشر والتوزيع، المدينة المنورة.

[16] **السيرة النبوية لابن هشام**، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375هـ - 1955م، عدد الأجزاء: 2.

[17] **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224 - 310هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر - د. عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422هـ-2001م، عدد الأجزاء: 26 (24 والفهارس).

[18] **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - 1419هـ.

[19] **الجامع لأحكام القرآن**، المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ- 1964م، عدد الأجزاء: 20 جزءا (في 10 مجلدات).

[20] **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ، عدد الأجزاء: 5.

[21] **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري (ت 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420هـ.

[22] **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ-2000م، عدد الأجزاء: 1.

[23] **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (مع الكتاب حاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت 683)، وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي)، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407هـ، عدد الأجزاء: 4.

[24] **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422هـ.

[25] **التسهيل لعلوم التنزيل**، المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، بن جزي الكلبي الغرناطي (ت 741هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى – 1416هـ.

[26] **فتح القدير**، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت 1250هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414هـ.

[27] **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415هـ، عدد الأجزاء: 16 (15 ومجلد فهارس).

[28] **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت 1307هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: 1412هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 15.

[29] **البحر المحيط في التفسير**، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420هـ.

[31] **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984هـ، عدد الأجزاء: 30 (والجزء رقم 8 في قسمين).

[32] **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (ومعه حاشية نهر الخير)**، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ- 1003 - 2003م، عدد الأجزاء: 5.

[33] **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773 - 852هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، عدد الأجزاء: 13.

[34] **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392، عدد الأجزاء: 18 (في 9 مجلدات).

[35] **صحيح سنن الترمذي**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة: 1420هـ- 2000م، ثلاث مجلدات.

[36] **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت 430هـ)، الناشر: مطبعة السعادة – بجوار محافظة مصر، عام النشر: 1394هـ- 1974م، عدد الأجزاء: 10.

[37] **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت 235هـ)، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، الناشر: (دار التاج – لبنان)، (مكتبة الرشد – الرياض)، (مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة)، الطبعة: الأولى، 1409هـ- 1989م، عدد الأجزاء: 7.

[38] **مشكاة المصابيح**، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1985، عدد الأجزاء: 3، تنبيه: أعاد المحقق النظر في كثيرٍ من أحكامه على أحاديث هذا الكتاب؛ حتى إنه صار يُسمّيه في كتبِه (التحقيق الثاني للمشكاة)، وقد طُبع هذا التحقيق الثاني بحواشي (هداية الرواة) لابن حجَر بتحقيق علي بن حسن الحلبي.

[39] **هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة**، تصنيف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852)، وبحاشيته: (النقد الصريح لما انتُقد من أحاديث المصابيح) للعلائي و (الأجوبة على أحاديث المصابيح) لابن حجر، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني (التخريج الثاني لمشكاة المصابيح)، تحقيق: علي بن

حسن بن عبد الحميد الحلبي (ت 1422هـ)، الناشر: دار ابن القيِّم للنشر والتوزيع، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1422هـ- 2001م.

[40] **صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب للمنذري**، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتَبة المعارف لِلنَّشْرِ والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2000م.

[41] **الفتاوى الكبرى لابن تيمية**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1408هـ - 1987م، عدد الأجزاء 6.

[42] **مجموع الفتاوى**، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية، عام النشر: 1425هـ- 2004م.

[43] **كشف الغمة عن أحوال الأمة**، خالد العنبري، دار الصُّمَيعي، الرياض، المملكة العربية السعودية.

[44] **البداية والنهاية**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 744هـ)، الناشر: مطبعة السعادة – القاهرة، عدد الأجزاء: 14، وصَوّرتها: دار الفكر - بيروت مع زيادة مجلد فهارس: 15.

[45] **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، 1408هـ، 1988م، المكتب الإسلامي، زهير الشاويش، مجلدين.

[46] **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه**، مؤلف الأصل: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت 354هـ)، ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (ت 739هـ)، مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت 1420هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1424هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 12 (10 أجزاء ومجلدان فهارس).

[47] **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، المؤلف: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت 739هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408هـ- 1988م، عدد الأجزاء: 18 (الأخير فهارس).

[48] **المعجم الكبير**، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية، عدد الأجزاء: 25، ويشمل القطعة التي نشرها لاحقًا المحقق الشيخ حمدي السلفي من المجلد 13، (دار الصميعي – الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1994م).

[49] **المعجم الأوسط**، المؤلف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (260 - 360هـ)، المحقق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة، عام النشر: 1415هـ- 1995م، عدد الأجزاء: 10، (الأخير فهارس).

[50] **الروض الداني (المعجم الصغير)**، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360هـ)، المحقق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت، عمان، الطبعة: الأولى، 1405 – 1985، عدد الأجزاء: 2.

[51] **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى جديدة منقحة ومزيدة، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: 6، عام النشر: ج 1 - 4: 1415هـ- 1995م، ج 6: 1416هـ - 1996م، ج 7: 1422هـ- 2002م.

[52] **صحيح سنن أبي داود للألباني**، المؤلف: محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى الجديدة: 1419هـ- 1998م، ثلاث مجلدات.

[53] **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: الإمام أحمد بن حنبل (164 - 241هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، عدد الأجزاء: 50 (آخر 5 فهارس)، الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2001م.

[54] **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (ت 418هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة — السعودية، الطبعة: الثامنة، 1423هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 9 أجزاء (4 مجلدات) - الجزء 9 تجده منفردًا باسم: كرامات الأولياء.

[55] **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، مع تضمينات: الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في آماليه، والمناوي في فيض القدير وغيرهم، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 — 1990، عدد الأجزاء: 4.

[56] **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت 255هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني (ت

1443هـ)، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412هـ-2000م، عدد الأجزاء: 4.

[57] **شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي** (ت 792هـ)، حققها وراجعها جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة 1408هـ - 1988م.

[58] **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي،** المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت 1353هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: 10.

[59] **عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته،** المؤلف: محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (ت 1329هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1415هـ، عدد الأجزاء: 14.

[60] **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية،** لابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، 1406هـ-1986م، عدد المجلدات: 9.

[61] **الفصل في الملل والأهواء والنحل،** المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت 456هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، عدد المجلدات: 5.

[62] **مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات،** المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت 456هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، عدد الصفحات:

178، فائدة: أضيفت تعقبات ابن تيمية في كتابه (نقد مراتب الإجماع) في مواضعها من هامش هذه النسخة الإلكترونية.

[63] **نيل الأوطار**، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت 1250هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، 1413هـ- 1993م، عدد الأجزاء: 8، منتقى الأخبار بأعلى الصفحة، يليه - مفصولًا بفاصل - شرح الشوكاني.

[64] **شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِي عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم**، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (ت 544هـ)، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419هـ- 1998م، عدد الأجزاء: 8.

[65] **رسالة عقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان**، إسماعيل الصابوني (ت 449هـ)، ضمن مجموعة (الرسائل المنيرية)، مجموعة الرسائل المنيرية، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، أبو العباس تقي الدين - ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، بن حجر - الشوكاني، الصنعاني وغيرهم، المحقق: محمد منير الدمشقي، الناشر: المطبعة المنيرية، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1343هـ- 1924م، عدد المجلدات: 4.

[66] **مجموعة الرسائل والمسائل**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت 728هـ)، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي، عدد الأجزاء: 5 أجزاء في مجلدين.

[67] **الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة**، المؤلف: عبد الله بن عمر الدميجي، الناشر: دار طيبة - الرياض الأولى، 1407هـ.

[68] **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ- 1991م، عدد الأجزاء: 4.

[69] **مفهوم الطاعة والعصيان**، المؤلف: عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1416هـ- 1995م.

[70] **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (ت 763هـ)، الناشر: عالم الكتب، عدد الأجزاء: 3.

[71] **أصول وتاريخ الفرق الإسلامية**، المؤلف: مصطفى بن محمد بن مصطفى، الطبعة: الأولى، سنة النشر: 1424هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 7.

[72] **الاعتصام**، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت 790هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، 1412هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 2.

[73] **الانتصار في حجية قول الصحابة الأخيار**، المؤلف: د. عبد العزيز بن ريس الريس، الناشر: مركز سطور للبحث العلمي، دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع- المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1440هـ.

[74] **قول الصحابي وحجية العمل به**، المؤلف: أنس محمد رضا قهوجي، الناشر: دار النوادر، 1433هـ- 2012م، دمشق.

[75] **الفَرْقُ بين الفِرَق وبيان الفرقة الناجية**، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (ت 429هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1977.

[76] **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**، المؤلف: طاهر بن محمد الإسفراييني، أبو المظفر (ت 471هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: عالم الكتب – لبنان، الطبعة: الأولى، 1403هـ-1983م.

[77] **تهذيب الآثار**، المؤلف: ابن جرير الطبري، تحقيق د. ناصر سعد الرشيد، وعبد القيوم عبد رب النبي، ط: مطابع الصفا - مكة، على نفقة الأمير فهد بن عبد العزيز، 1402هـ.

[78] **الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته**، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت 224هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1421هـ- 2000م.

[79] **الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكّوا فيه من تشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله**، المؤلف: إمام أهل السنة والجماعة: أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، المحقق: صبري بن لامة شاهين، الناشر: دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى: 1424هـ- 2003م.

[80] **صريح السنة**، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، المحقق: بدر يوسف المعتوق، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت، الطبعة: الأولى، 1405هـ.

[81] **العقيدة الطحاوية**، المؤلف: أبي جعفر الطحاوي (ت 321هـ)، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1414هـ.

[82] **إسلام بلا مذاهب**، المؤلف: مصطفى الشكعة، الناشر: الدار المصرية اللبنانية – القاهرة، الطبعة الحادية عشر، 1416هـ- 1996م.

[83] **الأم**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150 - 204هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثانية 1403هـ- 1983م، (وأعادوا تصويرها 1410هـ- 1990م)، عدد الأجزاء: 8 (في 5 مجلدات).

[84] **المغني**، المؤلف: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي الحنبلي (541 - 620هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، 1417هـ- 1997م، عدد الأجزاء: 5 (الأخير فهارس).

[85] **الأحكام السلطانية**، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت 450هـ)، الناشر: دار الحديث – القاهرة.

[86] **دروس في شرح نواقض الإسلام**، المؤلف: صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة الرشيد، الطبعة الثالثة، 1426هـ- 2005م.

[87] **إتحاف الأفهام بشرح نواقض الإسلام**، عبد لله بن حمود الفري.

[88] **السنن الصغير للبيهقي**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت 458هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي ـ باكستان، الطبعة: الأولى، 1410هـ- 1989م، عدد الأجزاء:4.

[89] **لسان العرب**، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414هـ، عدد الأجزاء: 15.

[90] **القاموس المحيط**، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت 817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، 1426هـ- 2005م.

[91] **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: 2.

[92] **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**، المؤلف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، 1423هـ- 2002م.

[93] **الإيمان**، نعيم ياسين، ص145. الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه، للمؤلف: محمد نعيم ياسين، الناشر: دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

[94] **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، عام النشر: 1405هـ- 1985م.

[95] **إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء (علوم الدين أبو حامد الغزالي)**، المؤلف: محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، سنة النشر: 1414هـ- 1994م، عدد المجلدات: 10.

[96] **السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ، مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ**، المؤلف: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: السادسة، 1415هـ- 1994م، السِّيرةُ عدد الأجزاء: 2.

[97] **زاد المعاد في هدي خير العباد**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت 751هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ- 1994م.

[98] **إرشاد العباد إلى معاني لمعة الاعتقاد**، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك، إعداد: عبد الله السحيم، الناشر: دار التدمرية، الطبعة: الأولى، 1433هـ- 2012م.

[99] السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (661 - 728هـ)، المحقق: علي بن محمد العمران، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - جديع بن محمد الجديع، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، 1440هـ- 2019م (الأولى لدار ابن حزم).

[100] **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، المؤلف: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)، تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، 1419هـ- 1999م، عدد الأجزاء: 6.

[101] **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، المؤلف: علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (ت 587هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، 1406هـ – 1986م، عدد الأجزاء: 7.

[102] **قواعد الفقه**، المؤلف: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: الصدف ببلشرز –كراتشي، الصدف ببلشرز –كراتشي، الطبعة: الأولى، 1407 – 1986.

[103] **بلغة السالك لأقرب المسالك**، المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير (الشرح الصغير هو شرح الشيخ الدردير لكتابه المسمى: أقرب المسالك لِمَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ)، المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي (ت 1241هـ)، الناشر: دار المعارف، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، عدد الأجزاء: 4.

[104] **أحكام أهل الذمة**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (659 – 751هـ)، ج 1: تحقيق (محمد عزير شمس)، تخريج (نبيل بن نصار السندي)، ج 2: تحقيق (نبيل بن نصار السندي)، راجعه: محمد أجمل الإصلاحي – سليمان بن عبد الله العمير، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، 1442هـ- 2021م (الأولى لدار ابن حزم)، عدد الأجزاء: 2.

[105] **دلالة النصوص والإجماع على فرض القتال للكفر والدفاع**، سليمان بن عبد الرحمن بن حمدان، المدرس بالمسجد الحرام، الناشر: دار الطباعة والنشر، عمان، الأردن.

[105] **أحكام الجهاد عند ابن تيمية وتطبيقاته المعاصرة**، المؤلف: وهدان حسن عبد الرحمن حسين، أسماء ذات صلة: قراءة وتقديم أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: الدار الأثرية للنشر والتوزيع، الأردن، تاريخ النشر: 2007.

[106] **أقوال أهل العلم في الرسالة المنسوبة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية في الجهاد**، سليمان بن صالح الخراشي.

[107] **العناية شرح الهداية**، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي البابرتي (ت 786هـ)، مطبوع بهامش: فتح القدير للكمال بن الهمام، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (وصَوّرتها دار الفكر، لبنان)، الطبعة: الأولى، 1389هـ- 1970م، عدد الأجزاء: 10.

[108] **البناية شرح الهداية**، المؤلف: محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين المعروف بـ «بدر الدين العيني» الحنفي (ت 855هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، تحقيق: أيمن صالح شعبان، الطبعة: الأولى، 1420هـ- 2000م، عدد الأجزاء: 13، تنبيه: «الهداية للمرغيناني» بأعلى الصفحة يليه - مفصولًا بفاصل - «البناية شرح الهداية» للعيني.

[109] **التلقين في الفقه المالكي**، المؤلف: أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي (ت 422هـ)، المحقق: أبي أويس محمد بو خبزة الحسني التطواني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1425هـ- 2004م، عدد الأجزاء: 2.

[110] **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (ت 954هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، 1412هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 6.

[111] **كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار**، المؤلف: أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي (ت 829هـ)، المحقق: علي عبد الحميد بلطجي ومحمد وهبي سليمان، الناشر: دار الخير – دمشق، الطبعة: الأولى، 1994م.

[112] **تحفة المحتاج في شرح المنهاج**، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، الطبعة: بدون طبعة، عام النشر: 1357هـ- 1983م، عدد الأجزاء: 10.

[113] **حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع**، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي (ت 1392هـ)، الناشر: (بدون ناشر)، الطبعة: الأولى - 1397هـ، عدد الأجزاء: 7.

[114] **المُحلَّىٰ بالآثار**، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (الظاهري)، المحقق: عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الفكر – بيروت، عدد الأجزاء: 12.

[115] **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418هـ.

[116] **مَحَجَّةُ القُرَب إلى مَحَبَّةِ العَرَب**، المؤلف: الحافظ زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ت 806هـ، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1420 – 2000، عدد المجلدات: 1.

[117] **مسبوكِ الذَّهَب في فَضلِ العَرَبِ وَشَرفِ العِلمِ على شَرفِ النَّسَب**، المؤلف: مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي (ت 1033هـ)، قدم له، وحققه، وعلق عليه: الدكتور نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية – الرياض – طريق الحجاز، الطبعة: الأولى، 1411هـ- 1990م.

[118] **مَبْلغُ الإِرَبْ في فَخْرِ العَرَبْ**، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد، بن حجر الهيتمي (ت 974هـ).

[119] **إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة**، المؤلف: حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري (ت 1413هـ)، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1414هـ، عدد الأجزاء: 3.

[120] **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، 1423هـ- 2003م، عدد الأجزاء: 10.

[121] **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 782هـ)، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، 1419هـ- 1999م، عدد الأجزاء: 2.



1447هـ - 2025م

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي
9 781964 984452